مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

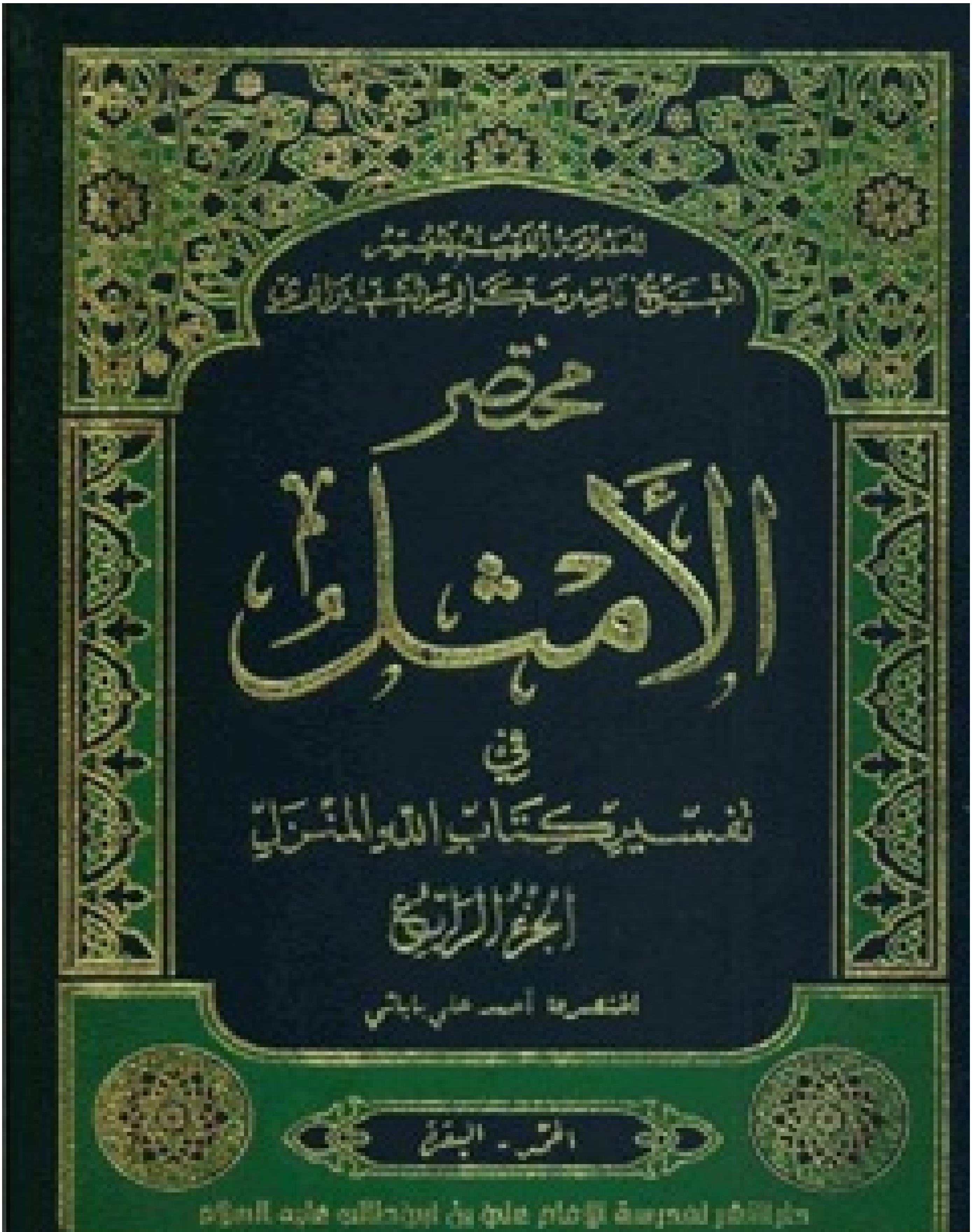
مختصر
الأمثل
في
تفسير كتاب الله المنزل
الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۴ ----- ۷

اشارة ----- ۷

۳۱. سورة لقمان ----- ۷

۳۲. سورة السجدة ----- ۱۸

۳۳. سورة الأحزاب ----- ۲۶

۳۴. سورة سبأ ----- ۵۳

۳۵. سورة فاطر ----- ۷۰

۳۶. سورة یس ----- ۸۴

۳۷. سورة صافّات ----- ۱۰۸

۳۸. سورة ص ----- ۱۳۲

۳۹. سورة الزمر ----- ۱۵۲

۴۰. سورة غافر ----- ۱۷۶

۴۱. سورة فصلت ----- ۱۹۸

۴۲. سورة الشوری ----- ۲۱۴

۴۳. سورة الزخرف ----- ۲۳۰

۴۴. سورة الدخان ----- ۲۴۷

۴۵. سورة الجاثیة ----- ۲۵۵

۴۶. سورة الأحقاف ----- ۲۶۳

۴۷. سورة محمد ----- ۲۷۴

۴۸. سورة الفتح ----- ۲۸۵

۴۹. سورة الحجرات ----- ۲۹۸

۵۰. سورة ق ----- ۳۱۰

۵۱. سورة الذاريات ----- ۳۲۰

۵۲. سورة الطور ----- ۳۳۰

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۳۳۹

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ۴

اشارة

عنوان و نام پديدآور : مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل/ناصر مكارم شيرازى

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ۱۴۲۸

مشخصات ظاهرى : ج

وضعيت فهرست نويسى : در انتظار فهرستنويسى

شماره كتابشناسى ملى : ۱۱۴۸۳۹۳

۳۱. سورة لقمان

محتوى السورة: إنّ محتوى هذه السورة يتلخص فى خمسة أقسام:

۱- يشير- بعد ذكر الحروف المقطعة- إلى عظمة القرآن وكونه هدىً ورحمة للمؤمنين الذين يتمّعون بصفات خاصة.

۲- يتحدث عن آيات اللّه فى خلق السماء ورفعها بدون أى عمد، وخلق الجبال، والأحياء المختلفة، ونزول المطر، ونموّ النباتات.

۳- ينقل جانباً من كلام لقمان الحكيم والمتألّه فى وصيته لابنه، وتسمية هذه السورة بسورة «لقمان» بسبب هذا البحث المهم العميق المحتوى.

۴- ثم تعود السورة إلى أدلة وعلامات التوحيد مرّة اخرى فتتحدث عن تسخير السماء والأرض ونعم اللّه الوفيرة، وذمّ منطق الوثنيين الذين سقطوا فى وادى الضلال والانحراف نتيجة التقليد واتّباع الآباء والأجداد.

وتكشف الستار عن علم اللّه المطلق بذكر مثال واضح.

۵- إنّه يشير إشارة قصيرة مؤثرة تهزّ الوجدان إلى مسألة المعاد والحياة بعد الموت، وتحذّر الإنسان من الإغترار بهذه الدنيا.

ثم تنهى هذا المبحث بذكر جانب من علم اللّه بالغيب بما يتعلق بالإنسان، ومن جملة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶

ذلك لحظة موته، وحتى على الجنين فى بطن امّه، وبذلك تنتهى السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة لقمان، كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة، واعطى من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف وعمل بالمنكر».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة لقمان فى ليلة وكّل اللّه به فى ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسى».

وكل هذا الفضل والثواب والإمتياز لتلاوة سورة من القرآن لأنّ التلاوة مقدمة للتفكر، والتفكر مقدمة للعمل.

الم (۱) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (۲) هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (۳) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) «الم» تبدأ هذه السورة بذكر أهمية وعظمة القرآن، وبيان الحروف المقطعة فى بدايتها إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الآيات التى تتركّب من حروف الألف باء البسيطة، لها محتوى ومفهوم سام يغيّر مصير البشر بصورة تامة، ولذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطعة: «تِلْكَ ءَايتُ الْكِتبِ الْحَكِيمِ».

«تلك»: فى لغة العرب إشارة للبعيد، وهذا التعبير كناية عن عظمة وأهمية هذه الآيات.

إنّ وصف «الكتاب» ب «الحكيم» إمّا لقوّة ومتانة محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقاً وسبيلًا، ويطرد عن نفسه كل نوع من الخرافات

والأساطير؛ أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق، فيعلّم، ويعظ وينصح، ويرغّب ويرهّب، ويحذّر ويتوعّد، ويبيّن القصص ذات العبرة. وخلاصة القول فإنّه حكيم بكل معنى الكلمة. ولهذه البداية علاقة مباشرة بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷

ثم تذكر الآية التالية الهدف النهائى من نزول القرآن، فتقول: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ».

إنّ الهداية مقدّمة لرحمة اللّه، لأنّ الإنسان يجد الحقيقة أوّلًا فى ظلّ نور القرآن، ويعتقد بها ويعمل بها، وبعد ذلك يكون مشمولًا برحمة اللّه الواسعة ونعمه التى لا حدّ لها.

ثم تصف الآية التالية المحسنين بثلاث صفات، فتقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

فإنّ إرتباط هؤلاء بالخالق عن طريق الصلاة، وبخلق اللّه عن طريق الزكاة، ويقينهم بمحكمة القيامة باعث قوى على الإبتعاد عن الذنب والمعصية، ودافع لأداء الواجبات.

وتبيّن الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- عاقبة عمل المحسنين، فتقول: «أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

جملة «أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» توحى بأنّ هداية اولئك قد ضُمنت من قبل ربّهم.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (۸) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزل قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ»: فى النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار بن قصى بن كلاب، كان يتّجر فيخرج إلى فارس، فيشترى أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إنّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا احدثكم بحديث رستم، واسفنديار، وأخبار الأكاسرة. فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن.

التّفسير

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة: الكلام فى هذه الآيات عن جماعة يقعون تماماً فى الطرف المقابل لجماعة المحسنين والمؤمنين الذين ذكروا فى الآيات السابقة. الكلام والحديث

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸

هنا عن جماعة يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهدفية وإضلال المجتمع، ويشترون شقاء وبؤس دنياهم وآخرتهم. فتقول أوّلًا: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا». ثم تضيف أخيراً: «أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

إنّ شراء لهو الحديث والكلام الأجوف إمّا أن يتمّ عن طريق دفع المال فى مقابل سماع الخرافات والأساطير، أو أن يكون عن طريق شراء المغنّيات لعقد مجالس اللهو والباطل والغناء. ويحتمل أيضاً أن يكون للشراء هنا معنى كنائى، والمراد منه كل أنواع السعى للوصول إلى هذه الغاية.

وأمّا «لَهْوَ الْحَدِيثِ» فإنّ له معنىً واسعاً يشمل كل نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذى يؤدّى إلى اللهو والغفلة، ويجرّ الإنسان إلى اللاهدفية أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء والألحان والموسيقى المهيّجة المثيرة للشهوة والغرائز والميول الشيطانية، أو الكلام الذى يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه ومضامينه.

ولجملة «لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» مفهوم واسع أيضاً، يشمل الإضلال العقائدى، كما قرأنا ذلك فى قصة النضر بن الحرث وأبى جهل، وكذلك يشمل الإفساد الأخلاقى كما جاء فى أحاديث الغناء.

والتعبير ب «بِغَيْرِ عِلْمٍ» إشارة إلى أنّ هـذه الجماعـة الضالة المنحرفة لا تؤمن حتى بمذهبها الباطل، بل يتّبعون الجهل والتقليد الأعمى لا غير.

أمّا وصف العذاب ب (المهين) فلأنّ العقوبة متناغمة مع الذنب، فإنّ هؤلاء قد استهزؤوا بآيات اللّه وأهانوها، ولذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أعدّ لهم عذاباً مهيناً، إضافة إلى كونه أليماً.

وأشارت الآيـة التاليـة إلى ردّ فعل هـذه الفئـة أمام آيات اللّه، وتوحى بالمقارنـة بردّ فعلهم تجاه لهو الحـديث، فتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا». أى ثقلًا يمنعه من السماع ..

ثم تذكر أخيراً عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

إنّ التعبير ب «وَلَّى مُسْتَكْبِرًا» إشارة إلى أنّ إعراضه لم يكن نابعاً من تضرّر مصالحه الدنيوية والحدّ من رغباته وشهواته فحسب، بل إنّ الأمر أكبر من ذلك، فإنّ فيه دافع التكبر أمام عظمة اللّه وآياته، وهو أعظم ذنب فيه.

إنّ تعبير (بشّر) فى مورد العذاب الإلهى الأليم، يتناسب مع عمل المستكبرين الذين كانوا يتخذون آيات اللّه هزواً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹

ثم تعود الآيات التالية إلى شرح وتبيان حال المؤمنين الحقيقيين، وقد بدأت السورة فى مقارنتها هذه بذكر حالهم أوّلًا ثم ختمت به فى نهاية هذا المقطع أيضاً، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ».

والأهم من ذلك أنّ هـذه الجنان الوافرة النعم خالـدة لهؤلاء: «خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» واللّه سبحانه لا يعد كذباً، وليس عاجزاً عن الوفاء بوعوده «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وللنعيم معنىً واسع يشمل كل أنواع النعم المادية والمعنوية.

بحثان

۱- تحريم الغناء: لا شك فى أنّ الغناء بصورة إجمالية حرام على المشهور بين علماء الشيعة، وتصل هذه الشهرة إلى حد الإجماع.

والـذى يمكن اسـتفادته من مجموع كلمـات فقهـاء فى هـذا المجـال، أنّ الغنـاء هو الأـصوات والألحـان التى تنـاسب مجـالس الفسـق والفجور، وأهل المعصية والفساد، ويحرّك القوى الشهوانية فى الإنسان.

والملفت للنظر أنّ بعض الألحان تعـدّ أحياناً غناءً ولهواً باطلًا بذاتها ومحتواها، مثال ذلك أشـعار العشق والغرام والأشـعار المفسدة التى تُقرأ بألحان وموسيقى راقصة.

وقـد تكون الألحان بـذاتها غناءً أحياناً اخرى، مثال الأشـعار الجيدة، أو آيات القرآن والدعاء والمناجاة التى تُقرأ بلحن يناسب مجالس الفاسدين والفساق، وهو حرام فى كلتا الصورتين «فتأمل».

ومن الطبيعى أن يكون للغنـاء موارد شـك- ككل المفاهيم الاخرى- وأنّ الإنسان لا يعلم حقّاً هل أنّ الصوت الفلانى يناسب مجالس الفسق والفجور، أم لا؟ وفى هذه الصورة يحكم بالحلّية بحكم أصل البراءة.

والكلام الأخير هو أنّ ما ذُكر أعلاه يتعلق بالغناء، وأمّا استعمال الآلات الموسيقية وحرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

۲- فلسفة تحريم الغناء: فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلًا: الترغيب والدعوة إلى فساد الأخلاق:

لقـد بيّنت التجربـة أنّ كـثيراً من الأـفراد الواقعين تحت تـأثير موسـيقى وألحـان الغنـاء قـد تركوا طريق التقوى، واتّجهوا نحو الشـهوات والفساد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰

إنّ مجلس الغناء- عادةً- يُعدّ مركزاً لأنواع المفاسد، والدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

وينقل فى تفسير روح المعانى حديثاً عن أحد زعماء بنى امية أنّه قال لهم: إيّاكم والغناء فإنّه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، وإنّه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر. وهذا يبيّن أنّه حتى اولئك كانوا مطّلعين على مفاسده أيضاً.

ثانياً: الغفلة عن ذكر اللَّه:

إنّ التعبير باللهو الذى فسّر بالغناء فى بعض الروايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أنّ الغناء يجعل الإنسان عبداً ثملًا من الشهوات حتى يغفل عن ذكر اللَّه.

فى الأمالى للطوسى رحمه الله عن على عليه السلام قال: «كلّما ألهى عن ذكر اللَّه فهو من الميسر».

ثالثاً: الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء والموسيقى أحد العوامل المهمة فى تخدير الأعصاب، ولهذا فإنّ كثيراً من مفاسد المخدّرات موجودة فى الغناء، سواء كان تخديره خفيفاً أم قوياً.

ويستفاد من الإحصاءات المعدّة للوفيّات فى عصرنا الحالى بأنّ معدّل موت الفجأة قد ازداد بالمقارنة مع السابق، وقد ذكروا أسباباً مختلفة كان من جملتها الغناء والموسيقى.

رابعاً: الغناء أحد وسائل الإستعمار:

إنّ مستعمرى العالم يخافون دائماً من وعى الشعوب، وخاصة الشباب، ولذلك فإنّ جانباً من برامجهم الواسعة لاستمرار وإدامة الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة والجهل والضلال، وتوسعة وسائل اللهو المفسدة.

إنّ المخدّرات لا تتّصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هى أحد الوسائل السياسية المهمة، فإنّ السياسات الاستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء ونوادى القمار ووسائل اللهو الفاسدة الاخرى، ومن جملتها توسعة ونشر الغناء والموسيقى، وهى من أهم الوسائل التى يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، ولهذا فإنّ الموسيقى تشكّل القسم الأكبر من وقت إذاعات العالم ووسائل الإعلام الأساسية.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَا ذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱

هذا خلق اللَّه: مواصلة للبحث حول القرآن والإيمان به فى الآيات السابقة، تتحدث الآيتان أعلاه عن أدلة التوحيد الذى هو أهمّ الاصول العقائدية. تشير الآية الاولى إلى خمسة أقسام من مخلوقات اللَّه التى ترتبط مع بعضها إرتباطاً وثيقاً لا ينفصل، وهى: خلق السماء، وكون الكواكب معلقة فى الفضاء، وخلق الجبال لتثبيت الأرض، ثم خلق الدواب، وبعد ذلك الماء والنباتات التى هى وسيلة تغذيتها، فتقول: «خَلَقَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

«العَمَد»: جمع «عمود» وتقييد بنائها وإقامتها ب «تَرَوْنَهَا» دليل على أنّه ليس لهذه السماء أعمدة مرئيّة، ومعنى ذلك أنّ لها أعمدة إلّاأنّها غير قابلة للرؤية، فإنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى قانون الجاذبية الذى يبدو كالعمود القوى جدّاً، إلّاأنّه غير مرئى، يحفظ الأجرام السماوية.

إنّ الجملة أعلاه أحد معاجز القرآن المجيد العلميّة، وقد أوردنا تفصيلًا أكثر عنها فى ذيل الآية (٢) من سورة الرعد.

ثم تقول الآية فى الغاية من خلق الجبال: «وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».

وبعد ذكر نعمة استقرار السماء بأعمدة الجاذبية، واستقرار وثبات الأرض بواسطة الجبال، تصل النوبة إلى خلق الكائنات الحية واستقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها فى محيط هادىء مطمئن، فتقول: «وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلّ دَابَّةٍ».

إنّ التعبير ب «مِن كُلّ دَابَّةٍ» إشارة إلى تنوع الحياة فى صور مختلفة.

إلّا أنّ من المعلوم أنّ هـذه الحيوانات تحتاج إلى الماء والغـذاء، ولـذلك فإنّ الجملة التالية أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ».

فالكرة الأرضية تعتبر سماطاً واسعاً ذا أغذية متنوعة يمتدّ فى جميع أنحائها، ويصلح لكل نوع منها حسب خلقته، مما يدل على عظمة الخالق جل وعلا.

ثم تشير هـذه الآيـة مرّة اخرى إلى مسألـة (الزوجية فى عالم النباتات) وهى أيضاً من معجزات القرآن العلمية، لأنّ الزوجية- أى وجود الذكر والانثى- فى عالم النباتات لم تكن ثابتة فى ذلك الزمان بصورة واسعة، والقرآن كشف الستار عنها.

بعد ذكر عظمة اللّه فى عالم الخلقة، وذكر صور مختلفة من المخلوقات، وجّهت الآية الخطاب إلى المشركين، وجعلتهم موضع سؤال واستجواب، فقالت: «هذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲

مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ». من المسلم أنّ اولئك لم يكونوا يستطيعون إدّعاء كون أىّ من المخلوقات من خلق الأصنام، وعلى هـذا فإنّهم كانوا يقرّون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يستطيعون تعليل الشرك فى العبادة؛ لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الرب وكون مدبّر العالم واحداً، وهو دليل على توحيد العبودية.

ولذلك اعتبرت الآية عمل اولئك منطبقاً على الظلم والضلال، فقالت: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

ومعلوم أنّ «الظلم» له معنىً واسعاً يشمل وضع كل شىء فى غير موضعه، ولما كان المشركون يربطون العبادة، وتدبير العالم أحياناً بالأصنام، فإنّهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم وضلالة.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَ فِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَ لِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۱۴) وَ إِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵) لتكميل البحوث السابقة حول التوحيد والشرك، وأهميّة وعظمة القرآن، والحكمة التى استعملت واتّبعت فى هـذا الكتاب السماوى، فقد ورد الكلام فى هـذه الآيات التى نبحثها والآيات الاخرى التالية عن لقمان الحكيم، وعن جانب من المواعظ المهمة لهذا الرجل المتألّه فى باب التوحيد ومحاربة الشرك.

إنّ هـذه المواعظ العشرة التى ذكرت ضمن ستّ آيات، قد بيّنت باسلوب رائع المسائل العقائدية، إضافةً إلى اصول الواجبات الدينية والمباحث الأخلاقية.

لقد ورد اسم «لقمان» فى آيتين من القرآن فى هذه السورة، وأنّ اسلوب القرآن فى شأن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳

لقمان يوحى بأنّه لم يكن نبيّاً.

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «حقّاً أقول: لم يكن لقمان نبيّاً، ولكن كان عبداً كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ اللّه فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة».

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

إنّ الحكمة التى يتحدث عنها القرآن، والتى كان اللّه قد آتاها لقمان، كانت مجموعة من المعرفة والعلم، والأخلاق الطاهرة والتقوى ونور الهداية.

فإنّ لقمان بامتلاكه هذه الحكمة كان يشكر اللّه، فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهية، وكيفية استغلالها والاستفادة منها، وكان يضعها بدقة وصواب كامل فى مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذى خلقت من أجله، وهذه هى الحكمة، وهى وضع كل شىء

فى موضعه، وبناءً على هذا فإنّ الشكر والحكمة يعودان إلى نقطة واحدة.

والتعبير ب «غَنِيٌّ حَمِيدٌ» إشارة إلى أنّ شكر الناس للأفراد العاديين إمّا أن يؤدّى إلى النفع المادّى للمشكور، أو زيادة مكانة صاحبه فى أنظار الناس، إلّاأنّ أيّاً من هذين الأمرين لا معنى له ولا مصداق فى حق اللّه تعالى، فإنّه غنى عن الجميع، وهو أهل لحمد كل الحامدين وثنائهم.

وبعد تعريف لقمان ومقامه العلمى والحِكَمى، أشارت الآية التالية إلى اولى مواعظه، وهى فى الوقت نفسه أهم وصاياه لولده، فقالت: «وَإِذْ قَالَ لُقْمنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

وأى ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها فى مصاف اللّه ودرجته، وهم يظلمون أنفسهم أيضاً حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية للّهويهوون بها إلى منحدر ذلة العبودية لغيره.

والآيتان التاليتان جمل معترضة ذكرها اللّه تعالى فى طيّات مواعظ لقمان، لكن هذا الإعتراض لا يعنى عدم الإتصال والإرتباط، بل يعنى الصلة الواضحة لكلام اللّه عزّ وجل بكلام لقمان، لأنّ فى هاتين الآيتين بحثاً عن نعمة وجود الوالدين ومشاقّهما وخدماتهما وحقوقهما، وجعل شكر الوالدين فى درجة شكر اللّه.

إضافةً إلى أنّهما تعتبران تأكيداً على كون مواعظ لقمان لابنه خالصة، لأنّ الوالدين مع

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴

هذه العلاقة القوية وخلوص النية لا يمكن أن يذكرا فى مواعظهما إلّاما فيه خير وصلاح الولد، فتقول أوّلًا: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسنَ بِوَالِدَيْهِ». وعندئذ تشير إلى جهود ومتاعب الام العظيمة، فتقول: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ». وهذه المسألة قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أنّ الامّهات فى فترة الحمل يُصبن بالضعف والوهن، لأنّهن يصرفن خلاصة وجودهن فى تغذية وتنمية الجنين، ويقدّمن له من موادهن الحياتية أفضلها.

وهذا الأمر يستمر حتى فى فترة الرضاعة، لأنّ اللبن عصارة وجود الام، ولهذا تضيف بعد ذلك فترة رضاعه سنتان: «وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ». كما اشير إلى ذلك فى الآية (۲۳۳) من سورة البقرة: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ». والمراد فترة الرضاعة الكاملة، وإن كانت تتمّ أحياناً بفترة أقلّ.

ثم تقول: «أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ». فاشكرنى لأنّى خالقك والمنعم الأصلىّ عليك، ومنحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، واشكر والديك لأنّهما واسطة هذا الفيض وقد تحمّلا مسؤولية إيصال نعمى إليك.

ويقول اللّه تعالى فى نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد والعتاب: «إِلَيَّ الْمَصِيرُ».

فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كل هذه الحقوق والمصاعب والخدمات بدقة فيجب على الإنسان أن يؤدّى ما عليه من شكر مواهب اللّه.

إنّ الوصية بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الإشتباه والوهم عند البعض وذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما واتّباعهما حتى فى مسألة العقيدة والكفر والإيمان، لكن الآية التالية تقول: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا».

فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بامّه وأبيه مقدمة على علاقته باللّه مطلقاً، وأن لا تكون عواطف القرابة حاكمة على عقيدته الدينية أبداً.

ولما كان من الممكن أيضاً أن يوجد هذا الأمر توهّم وجوب استخدام الخشونة مع الوالدين المشركين وعدم إحترامهما، ولذلك أضافت الآية إنّ عدم طاعتهما فى مسألة الشرك ليس دليلًا على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن: «وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا».

فلأطفهما وأظهر المحبة لهما فى الحياة الدنيوية والمعاشرة، ولا تستسلم لأفكارهما

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵

واقتراحاتهما من الناحية العقائدية والبرامج الدينية، وهذه بالضبط نقطة الإعتدال الأصلية التي تجمع فيها حقوق اللَّه والوالدين، ولذا يضيف بعد ذلك: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ».

لأنّ المصير إليه سبحانه: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

إنّ الآية أعلاه تشبه ما جاء في الآية (۸) من سورة العنكبوت، حيث تقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱۶) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (۱۹) كانت اولى مواعظ لقمان عن مسألة التوحيد ومحاربة الشرك، وثانيتها عن حساب الأعمال والمعاد، والتي تكمّل حلقة المبدأ والمعاد، فيقول: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّموَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ». أي في يوم القيامة.

ويضعها للحساب: «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ».

«الخردل»: نبات له حبّات سوداء صغيرة جدّاً يضرب المثل بصغرها؛ وهذا التعبير إشارة إلى أنّ أعمال الخير والشر مهما كانت صغيرة لا قيمة لها، ومهما كانت خفية كخردلة في بطن صخرة في أعماق الأرض، أو في زاوية من السماء، فإنّ اللَّه اللطيف الخبير المطّلع على كل الموجودات، صغيرها وكبيرها في جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب والعقاب والثواب، ولا يضيّع شيئاً في هذا الحساب.

إنّ الإلتفات والتوجه إلى هذا الإطلاع التام من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان وعلمه بها، هو أساس كل الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وهو قوة وطاقة محركة نحو الخيرات، وسدّ منيع من الشرور والسيئات.

وبعد تحكيم اسس المبدأ والمعاد، والتي هي أساس كل الإعتقادات الدينية، تطرّق لقمان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶

إلى أهمّ الأعمال، أي مسألة الصلاة، فقال: «يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوةَ». لأنّ الصلاة أهم علاقة وإرتباط مع الخالق، والصلاة تنوّر قلبك، وتصفّي روحك، وتضيء حياتك، وتطهّر روحك من آثار الذنب، وتقذف نور الإيمان في أنحاء وجودك، وتمنعك عن الفحشاء والمنكر. وبعد الصلاة يتطرّق لقمان إلى أهم دستور اجتماعي، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ».

وبعد هذه الأوامر العملية المهمة الثلاثة، ينتقل إلى مسألة الصبر والإستقامة، والتي هي من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فيقول: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

«العزم»: بمعنى الإرادة المحكمة القوية، والتعبير ب «عَزْمِ الْأُمُورِ» هنا إمّا بمعنى الأعمال التي أمر اللَّه بها أمراً مؤكّداً، أو الامور والأعمال التي يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادة فولاذية وتصميماً راسخاً، وأيّاً من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهمية تلك الأعمال.

والتعبير ب «ذلك» إشارة إلى الصبر والتحمل.

ثم انتقل لقمان إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالناس والنفس، فيوصي أوّلًا بالتواضع والبشاشة وعدم التكبر، فيقول: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ». أي لا تعرض بوجهك عن الناس «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ».

«تُصعّر»: من مادة (صعّر)، وهي في الأصل مرض يصيب البعير فيؤدّي إلى إعوجاج رقبته؛ و «المرح»: يعني الغرور والبطر الناشيء من النعمة؛ و «المختال»: من مادة «الخيال» و «الخيلاء» وتعني الشخص الذي يرى نفسه عظيماً وكبيراً، نتيجة سلسلة من التخيلات والأوهام؛

و «الفخور»: من مادة «الفخر» ويعنى الشخص الذى يفتخر على الآخرين.

وعلى هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّاً وأساس توهين وقطع الروابط الاجتماعية الصميمية: إحداهما التكبر وعدم الاهتمام بالآخرين، والاخرى الغرور والعجب بالنفس، وهما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التوهم والخيال ونظرة التفوق على الآخرين، وإسقاطه فى هذه الهاوية، وبالتالى تقطعان علاقته بالآخرين وتعزلانه عنهم.

إنّ مراد لقمان محاربة كل مظاهر التكبر والغرور.

فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من مشى على الأرض

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷

اختيالًا لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها».

ثم بيّن فى الآية التالية أمرين وسلوكين أخلاقيين إيجابيين فى مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين فى الآية السابقة فيقول: إبتغ الإعتدال فى مشيك: «وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ». وابتغ الإعتدال كذلك فى كلامك ولا ترفع صوتك عالياً، «وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ».

إنّ هاتين الآيتين فى الحقيقة أمرتا بصفتين، ونهتا عن صفتين:

فالنهى عن «التكبر» و «العجب»، فإنّ أحدهما يؤدّى إلى أن يتكبر الإنسان على عباد اللّه، والآخر يؤدّى إلى أن يظنّ الإنسان أنّه فى مرتبة الكمال وأسمى من الآخرين، وبالتالى سيغلق أبواب التكامل بوجهه، وإن كان لا يقارن بينه وبين الآخرين.

أمّا الأمر بصفتين، فهما رعاية الإعتدال فى العمل والكلام، لأنّ التأكيد على الإعتدال فى المشى أو إطلاق الصوت هو من باب المثال فى الحقيقة.

والحق أنّ الإنسان الذى يتّبع هذه النصائح الأربع موفق وسعيد وناجح فى الحياة، ومحبوب بين الناس، وعزيز عند اللّه.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أكثر ما تلج به امتى الجنة تقوى اللّه وحسن الخلق».

أ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (۲۰) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَ وَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (۲۱) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَ إِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (۲۴) بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ والمعاد وطريقة الحياة، وخطط وبرامج القرآن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸

الأخلاقية والاجتماعية، ولأجل إكمال البحث، تتّجه الآيات إلى بيان نعم اللّه تعالى لتبعث فى الناس حسن الشكر ... الشكر الذى يكون منبعاً لمعرفة اللّه وطاعة أوامره، فيوجّه الخطاب لكل البشر، فيقول: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

ثم تضيف الآية: «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظهِرَةً وَبَاطِنَةً».

«أسبغ»: من مادة «سَبغ» وهى فى الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثم اطلق على النعم الكثيرة الوفيرة أيضاً.

وتتحدث الآية فى النهاية عمّن يكفر بالنعم الإلهية الكبيرة العظيمة، والتى تحيط الإنسان من كل جانب، ويهبّ إلى الجدال ومحاربة الحق، فتقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ». وبدل أن يعرف ويقدّر هبة وعطاء كل هذه النعم الظاهرة والباطنة، فإنّه يتّجه إلى الشرك والجحود نتيجة الجهل.

والملفت للنظر هو أنّ «العلم»: إشارة إلى الإدراكات التى يدركها الإنسان عن طريق عقله؛ و «الهدى»: إشارة إلى المعلمين والقادة

الربانيين والسماويين، والعلماء الذين يأخذون بيده في هذا المسير ويوصلونه إلى الغاية والهدف؛ والمراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماوية التي تملأ قلب الإنسان نوراً عن طريق الوحي.

إنّ هذه الجماعة العنيدة لا- يمتلكون علماً، ولا- يتّبعون مرشداً وهادياً، ولا- يستلهمون من الوحي الإلهي، ولما كانت طرق الهداية منحصرة بهذه الامور الثلاثة فإنّ هؤلاء لما تركوها سقطوا في هاوية الضلال والضياع ووادي الشياطين.

وتشير الآية التالية إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئة، فتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

ولمّا لم يكن اتّباع الآباء الجهلة المنحرفين جزءاً من أيّ واحد من الطرق الثلاثة المذكورة أعلاه للهداية، فإنّ القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطاني، وقال: «أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَنُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ».

ثم تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال مجموعتين: المؤمنين الخلّص، والكفار الملوّثين، وتجعلهم مورد اهتمامها في المقارنة بينهم، فقالت: «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى .

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹

والإستمساك بالعروة الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّة والإرتقاء إلى أعلى قمم المعرفة والمعنويات وتسامي الروح، إلى واسطة ووسيلة محكمة مستقرّة ثابتة، وليست هذه الوسيلة إلّاالإيمان والعمل الصالح، وكل سبيل ومتّكأ غيرهما متهرّىء متخرّق هاوٍ وسبب للسقوط والموت، إضافة إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيلة، وكل ماعداها فانٍ، ولذلك فإنّ الآية تقول في النهاية: «وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ».

في تفسير البرهان: من طريق العامة عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ستكون بعدي فتنة مظلمة، الناجي منها من تمسّك بالعروة الوثقى. فقيل: يا رسول اللَّه، وما العروة الوثقى؟ قال: ولاية سيد الوصيين. قيل: يا رسول اللَّه، ومن سيد الوصيين؟ قال: أمير المؤمنين. قيل: يا رسول اللَّه ومن أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين وإمامهم بعدي. قيل: يا رسول اللَّه، ومن مولى المسلمين وإمامهم بعدك؟ قال: أخي علي بن أبي طالب».

وقد رويت روايات اخرى في هذا الباب تؤيّد أنّ المراد من العروة الوثقى مودّة أهل البيت عليهم السلام، أو حبّ آل محمّد صلى الله عليه و آله، أو الأئمة من ولد الحسين عليهم السلام.

وقد قلنا مراراً: إنّ هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحة، ولا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالتوحيد والتقوى وأمثال ذلك.

ثم تطرقت الآية التالية إلى بيان حال الفئة الثانية، فقالت: «وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُو». لأنّك قد أدّيت واجبك على أحسن وجه، وهو الذي قد ظلم نفسه.

فلا تحزن أن تكفر جماعة من الناس، ويظلموا ويجوروا وهم متنعمون بالنعم الإلهية ولا يعاقبون، فلا عجلة في الأمر، إذ: «إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا». فإنّنا مطّلعون على أسرارهم ونيّاتهم كاطّلاعنا على أعمالهم، ف: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ثم يضيف بأنّ تمتّع هؤلاء بالحياة لا- ينبغي أن يثير عجبك، لأنّا «نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ» ذلك العذاب الأليم المستمر.

إنّ هذا التعبير لعله إشارة إلى أنّ هؤلاء لا- يتصوروا أنّهم خارجون عن قبضة قدرة اللَّه سبحانه، بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنة وإتمام الحجة والأهداف الاخرى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۲۵) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۷) مَا خَلْقُكُمْ وَ لَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي

اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۳۰) عشر صفات للّهسبحانه: بيّنت الآيات الستة أعلاه مجموعة من صفات اللّه سبحانه، وهى عشر صفات رئيسية، أو عشرة أسماء من الأسماء الحسنى: الغنى، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحق، العلى، والكبير.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ الآية الاولى تتحدث عن «خالقية» اللّه، والآية الثانية عن «مالكيته» المطلقة، والثالثة عن «علمه» اللامتناهى، والآية الرابعة والخامسة عن «قدرته» اللامتناهية، والآية الأخيرة تخلص إلى هذه النتيجة، وهى أنّ الذى يمتلك هذه الصفات ويتمتّع بها هو اللّه تعالى، وكل ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظة هذا البحث الإجمالى نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآية الاولى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

هذا التعبير يدل من جهة على أنّ المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقاً، ومن جهة اخرى يدل على كون التوحيد فطرياً وأنّ هذا النور كامن فى طينة وطبيعة كل البشر.

ثم تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق ف «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم تتطرق إلى «مالكية» اللّه، لأنّه بعد ثبوت كونه خالقاً لا حاجة إلى دليل على كونه مالكاً، فتقول: «لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱

ومن البديهى أنّ الخالق والمالك يكون مدبراً لأمر العالم أيضاً.

ولذلك تقول الآية فى النهاية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ».

إنّه غنىّ على الإطلاق، وحميد من كل جهة، لأنّ كل موهبة فى هذا العالم تعود إليه، وكل ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه وخزائن كل الخيرات بيده، وهذا دليل حى على غناه.

ولما كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره، وكل حسن نراه فى هذا العالم فهو من اللّه سبحانه، فإنّ كل حمد وثناء منه.

ثم تجسّد الآية التالية علم اللّه اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدّاً فيقول: «وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

«يمدّه»: من مادة «المداد» وهى بمعنى الحبر أو المادة الملوّنة التى يكتبون بها، وهى فى الأصل من «مدّ» بمعنى الخطّ، لأنّ الخطوط تظهر على صفحة الورق بواسطة جرّ القلم.

«الكلمات»: جمع «كلمة» وهى فى الأصل الألفاظ التى يتحدث ويتكلم بها الإنسان، ثم اطلقت على معنى أوسع، وهو كل شىء يمكنه أن يبيّن المراد والمطلب، ولمّا كانت مخلوقات هذا العالم المختلفة يبيّن كل منها ذات اللّه المقدسة وعظمته، فقد أطلق على كل موجود (كلمة اللّه)، ثم استعملت كلمات اللّه بمعنى علم اللّه لهذه المناسبة.

بعد ذكر علم اللّه اللامحدود، تتحدث الآية الاخرى عن قدرته اللامتناهية، فتقول: «مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ».

الآية التالية تأكيد وبيان آخر لقدرة اللّه الواسعة، وقد وجّهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فقالت: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» لخدمة الناس وتأمين احتياجاتهم «كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

«الولوج»: فى الأصل بمعنى «الدخول»، ودخول الليل فى النهار والنهار فى الليل قد يكون إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجى على مدار السنة، حيث ينقص شىء من أحدهما تدريجياً، ويضاف على الآخر بصورة غير محسوسة، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنة

بخصائصها وآثارها المباركة.

وجملة «كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» إشارة إلى أنّ هذا النظام الدقيق لا يستمر إلى الأبد، بل إنّ له نهاية بانتهاء الدنيا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص نتيجة جامعة كلية: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

إنّ مجموع البحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول كون اللَّه خالقاً ومالكاً، وعن علمه وقدرته اللامتناهيين، أثبتت هذه الامور، وأنّ الحق هو اللَّه وحده، وكل شىء غيره زائل وباطل ومحدود ومحتاج؛ والعلى والكبير الذى يسمو على كل شىء، ويجلّ عن كل وصف، هو ذاته المقدسة.

أ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۱) وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (۳۲) يدور البحث والحديث فى هاتين الآيتين أيضاً عن نعم اللَّه سبحانه، وأدلّة التوحيد فى الآفاق والأنفس، فالحديث فى الآية الاولى عن دليل النظام، وفى الآية الثانية عن التوحيد الفطرى، وهما فى المجموع تكمّلان البحوث التى وردت فى الآيات السابقة. تقول الآية الاولى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايتِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

لا شك أنّ حركة السفن على سطح المحيطات تتمّ بمجموعة من قوانين الخلقة.

وبعد بيان نعمة حركة السفن فى البحار، والتى كانت ولا تزال أكبر وأنفع وسائل حمل ونقل البضائع والبشر، أشارت هذه الآية إلى صورة اخرى لهذه المسألة، فقالت: «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ». «الظلل»: جمع ظُلّة بمعنى سحابة تظلّ.

أى إنّ أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأنّ سحاباً قد أظلّهم بظل مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفاً وعاجزاً رغم كل تلك القوى والإمكانيات الظاهرية التى أعدّها لنفسه.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكل قلبه ويغمره، ويعتقد بأنّ الدين والعبادة مختصة به سبحانه.

ثم تضيف الآية إنّ اللَّه سبحانه لما نجّاهم من الهلكة إنقسم الناس قسمين: «فَلَمَّا نَجهُمْ إِلَى الْبَرّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳

«مقتصد»: من مادة «قصد» بمعنى الإعتدال فى العمل، والوفاء بالعهد.

وهؤلاء وفوا بعهدهم ولم ينقضوه، ولم ينسوا منّة اللَّه عليهم فى تلك اللحظات الحساسة.

وتضيف الآية فى النهاية: «وَمَا يَجْحَدُ بَايَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ».

«ختّار»: من «الختر» بمعنى نقض العهد، وهذه الكلمة صيغة مبالغة، لأنّ المشركين والعاصين يتوجّهون إلى اللَّه مراراً، ويقطعون على أنفسهم العهود، وينذرون النذور، إلّاأنّهم بمجرّد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصورة متلاحقة، ويكفرون بنعم اللَّه عليهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَداً وَ مَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۳۴) فى هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ والنصائح السابقة ولأدلة التوحيد والمعاد، وتوجيه الناس إلى اللَّه واليوم الآخر وتحذير من الغرور الناشىء من الدنيا والشيطان، ثم الحديث عن سعة علم اللَّه سبحانه وشموله لكل شىء، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَايَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيًا».

إنّ الدستور الأوّل هو التوجه إلى المعاد، فالدستور الأوّل يحيى فى الإنسان قوة المراقبة، والثانى ينمّى روح الثواب والعقاب، ولا شك

أنّ الإنسان الذى يعلم أنّ شخصاً خبيراً ومطّلعاً على كل أعماله يراه ويعلم به ويسجّل كل أعماله، ومن ناحية اخرى يعلم أنّ محكمة عادلة ستتشكّل للتحقيق فى كل جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوّث بأدنى فساد ومعصية.

جملة «لَايَجْزِى» من مادة الجزاء، و «الجزاء» ورد بمعنيين من الناحية اللغوية:

أحدهما: المكافأة والمعاقبة مقابل شىء، كما يقال: جزّاه اللّه خيراً.

والآخر: الكفاية والنيابة والتحمل للشىء عن الآخرين، كما جاء فى الآية مورد البحث:

«لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴

ومن الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الثواب والعقاب يحلّان محل العمل وينوبان عنه، وهما بمقداره أيضاً- تأمّلوا ذلك-.

على كل حال، فإنّ كل إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه، ومبتلى بمعطيات أعماله وآثارها إلى درجة أنّه لا ينظر إلى أحد ولا يهتم به، حتى وإن كان أبوه، أو إبنه الذى كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكّر أحد بآخر مطلقاً.

وتحذّر الآية فى النهاية البشر من شيئين، فتقول: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ». أى الشيطان.

فى الواقع، يلاحظ هنا نهيان فى مقابل الأمرين اللذين كانا فى بداية الآية، فإنّ الإنسان إذا نمت فيه مسألة التوجه إلى اللّه، والخوف من الحساب والجزاء، فلا يخاف عليه من الإنحراف والفساد، إلّامن طريقين:

أحدهما: أن تقلب زخارف الدنيا وزبرجها الحقائق فى عينيه بصور اخرى، وتسلب منه القدرة على التشخيص، لأنّ حبّ الدنيا رأس كل الخطايا وأساسها.

والآخر: أن تخدعه وساوس الشيطان وتغرّه، وتبعده عن المبدأ والمعاد.

فإذا أغلق طريقى نفوذ المعصية والذنب هذين، فسوف لا يهدّده أىّ خطر، وعلى هذا فإنّ الدساتير والبنود الأربعة أعلاه تمثّل مجموعة كاملة من برنامج نجاة وخلاص الإنسان.

وفى آخر آية من هذه السورة، وبمناسبة البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول يوم القيامة، يدور الكلام عن العلوم المختصة باللّه سبحانه، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ» ومطّلع على جميع جزئياته وتفاصيله ...

«وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

فكأنّ مجموع هذه الآية جواب عن سؤال يطرح فى باب القيامة، وهو نفس السؤال الذى سأل المشركون به النبى صلى الله عليه و آله مراراً وتكراراً، وقالوا: «مَتَى هُوَ» «۱». فيجيبهم القرآن عن سؤالهم، ويقول: «إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا» «۲».

«نهاية تفسير سورة لقمان»

---

(۱) سورة الإسراء/ ۵۱.

(۲) سورة طه/ ۱۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵

۳۲. سورة السجدة

محتوى السورة: هذه السورة بحكم كونها من السور المكية تتابع بقوة الخطوط الأصلية للسور المكية، أى البحث فى المبدأ والمعاد، والبشارة والإنذار، وعلى العموم تنقسم مباحثها إلى عدّة أقسام:

۱- الكلام عن عظمة القرآن، ونزوله من قبل رب العالمين.

۲- ثم البحث حول آيات اللّه سبحانه فى السماء والأرض، وتدبير هذا العالم.

۳- بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و «النطفة» و «الروح الإلهية»، ومنحه وسائل تحصيل العلم، أى العين والاذن والعقل من قبل اللّه تعالى.

۴- ثم تتحدث بعد ذلك عن القيامة والحوادث التى تسبقها، أى الموت، وما بعدها.

۵ و ۶- بحوث مؤثرة تهزّ الوجدان عن البشارة والإنذار.

وبهذا فإنّ الهدف الأصلى للسورة تقوية اسس الإيمان بالمبدأ والمعاد، وإيجاد دفعة قوية فى المحتوى الداخلى للإنسان نحو التقوى.

أسماء هذه السورة: اسم هذه السورة فى بعض الروايات، وكذلك المشهور على لسان المفسرين: سورة (السجدة)، أو (الم السجدة)، ويسمّونها أحياناً (سجدة لقمان) لتميزها عن سورة (حم السجدة)، لأنّها جاءت بعد سورة لقمان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶

وذكرت فى بعض الروايات باسم (الم تنزيل).

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ الم تنزيل، وتبارك الذى بيده الملك، فكأنّما أحيا ليلة القدر».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة السجدة فى كل ليلة جمعة أعطاه اللّه كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما كان منه، وكان من رفقاء محمّد صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام».

فلا شك أنّ تلاوتها- التلاوة التى تكون مصدراً للتفكير، وبالتالى مبدءاً للتصميم والحركة- قادرة على أن تصنع من الإنسان مثالًا متكاملًا تشمله كل هذه الفضيلة والفخر.

الم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (۴) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵) عظمة القرآن، والمبدأ والمعاد: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة «الم» فى هذه السورة، وهذه هى المرّة الخامسة عشرة التى نرى فيها مثل هذه الحروف فى بداية السور القرآنية.

والبحث الذى جاء بعد هذه الحروف مباشرة حول أهمية القرآن يبيّن مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهى أنّ «الم» إشارة إلى عظمة القرآن، والقدرة على إظهار عظمة اللّه سبحانه، وهذا الكتاب العظيم الغنى المحتوى، والذى هو معجزة محمّد صلى الله عليه و آله الخالدة يتكوّن من حروف المعجم البسيطة التى يعرفها الجميع. تقول الآية: «تَنزِيلُ الْكِتبِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

هذه الآية جواب عن سؤالين: الأوّل عن محتوى هذا الكتاب السماوى، فتقول فى الجواب: إنّ محتواه حقّ ولا مجال لأدنى شك فيه؛ والسؤال الثانى يدور حول مبدع هذا الكتاب، وفى الجواب تقول: إنّ هذا الكتاب من قبل رب العالمين.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷

ثم يشير إلى التهمة التى طالما وجهها المشركون والمنافقون إلى هذا الكتاب السماوى العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد. وقد إدّعى كذباً بأنّه من اللّه: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ». فيقول جواباً على إدّعاء هؤلاء الزائف: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبّكَ». وأدلّة أحقّيته واضحة وبيّنة فيه من خلال آياته.

ثم يتطرق إلى الهدف من نزوله، فيقول: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

جملة «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» إشارة إلى أنّ القرآن يهيّىء أرضية الهداية، إلّاأنّ التصميم واتّخاذ القرار النهائى موكول ومرتبط بنفس الإنسان.

إنّ المراد من «النـذير» هنا النبى الكبير الـذى يوضّـح ويبيّن دعوته مقرونـة بالمعجزات وفى محيط واسع، ومعلوم أنّ مثل هـذا النذير لم يقم فى الجزيرة العربية وبين قبائل مكة.

بعد بيان عظمة القرآن ورسالة النبى صـلى الله عليه و آله تطرقت الآية التالية إلى أساس آخر من أهم اسـس ودعائم العقائد الإسـلامية، فتقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّام». والمراد من «سِتَّةِ أَيَّام» فى هذه الآيات: ستّ مراحل.

وبعـد مسألـة الخلق تتطرق الآيـة إلى مسألـة حاكمية اللَّه سـبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ اللَّه تعالى بعد ذلك اسـتوى على عرش قدرته وسيطر على جميع الكائنات: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

«العرش»: تعنى فى الأصل الكراسى الطويلة القوائم، وتأتى عادة كناية عن القدرة.

إنّ استواء اللَّه على العرش بمعنى أنّه خالق عالم الوجود، وكذلك الحاكم على كل العالم.

وتكمّل الآية مراحل التوحيد بالإشارة إلى توحيد «الولاية» و «الشفاعة»، فتقول: «مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىّ وَلَا شَفِيعٍ».

والمراد من «الشفيع» هنا: الناصر والمعين، ونحن نعلم أنّ الناصر والولى والمعين هو اللَّه وحده.

فمع هذا الدليل الواضح، فلماذا تنحرفون وتضلّون وتتمسّكون بالأصنام؟ «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

إنّ المراحـل الثلاث للتوحيـد الـتى انعكست فى الآيـة أعلاه يعتبر كـل منهـا دليلًا على الاـخرى، فتوحيـد الخالقيـة دليـل على توحيد الحاكمية، وتوحيد الحاكمية دليل على توحيد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸

الولى والشـفيع والمعبود. وتشير الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث إلى توحيد اللَّه سبحانه فى البداية، ثم إلى مسألة «المعاد»، وبهذا تكمـل هنا فروع وأركان التوحيـد الثلاثـة التى اتّضـحت فى الآيات السابقـة- (توحيـد الخالقيـة والحاكميـة والعبوديـة)- بـذكر توحيد الربوبيـة، أى تـدبير عالم الوجود من قبل اللَّه سـبحانه فقط، فتقول: إنّ اللَّه يدبّر امور العالم من مقام القرب منه إلى الأرض: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

ثم تضيف: «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُو أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

والمراد من هذا اليوم يوم القيامة.

والمراد من الآية هو أنّ اللَّه سـبحانه خلق هذا العالم، ونظّم ودبّر السماء والأرض بتدبير خاصّ، إلّاأنّه يطوى هذا التدبير فى نهاية العالم، وبعد طىّ هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج ومشروع عالمى جديد أوسع، أى سيبدأ عالم آخر بعد إنتهاء هذه الدنيا.

ذلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶) الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (۹) مراحل خلق الإنسان العجيبة: إنّ الآيـات- مورد البحث- إشـارة وتأكيـد فى البدايـة على بحوث التوحيـد التى مرّت فى الآيـات السابقـة، والتى كـانت تتلخص فى أربع مراحل: توحيد الخالقية، والحاكمية، والولاية، والربوبية، فتقول: «ذلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

ثم تشير الآيـة التالية إلى نظام الخلقة الأحسن والأكمل بصورة عامة، ومقدمة لبيان خلق الإنسان ومراحل تكامله بشكل خاص: «الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ». وأعطى كل شـىء ما يحتاجه. وبتعبير آخر: فإنّ تشييد صرح الخلقة العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن، أى قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيّل نظام أكمل منه.

بعد هذه المقدّمة الآفاقية يدخل القرآن بحث الأنفس، وكما تحدّث فى بحث الآيات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹

الآفاقية عن عدة أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدث هنا عن عدة مواهب عظيمة فى مورد البشـر: يقول أوّلًا: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسنِ مِن طِينٍ». ليبيّن عظمة وقدرة اللَّه سبحانه، هذا من جانب، ومن جانب آخر يحذّر الإنسان ويذكّره من أين أتيت، وإلى أين ستذهب؟!

ومن المعلوم أنّ هذه الآية تتحدث عن خلق آدم، لا كل البشـر، لأنّ استمرار نسله قد ذكر فى الآية التالية، وظاهر هذه الآية دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل، قد تمّ من الطين مباشرة وبدون واسطة.

ثم تشير الآية بعدها، إلى خلق نسل الإنسان، وكيفية تولد أولاد آدم فى مراحل، فتقول:

«ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِّن سُلَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ».

«جعل»: هنا بمعنى الخلق؛ و «النسل»: بمعنى الأولاد والأحفاد فى جميع المراحل.

«السلالة»: فى الأصل، بمعنى العصارة الخالصة لكل شىء، والمراد منها هنا نطفة الإنسان التى تعتبر عصارة كل وجوده، ومبدأ حياة وتولد الذرية واستمرار النسل.

«مهين»: التى تعنى الضعيف إشارة إلى وضعه الظاهرى، وإلّا فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

وتشير الآية التالية إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّدة فى عالم الرحم، وكذلك المراحل التى طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول:

«ثُمَّ سَوَّيهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصرَ وَالْأَفِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

«سوّيه»: من التسوية، أى الإكمال، وهذه إشارة إلى مجموع المراحل التى يطويها الإنسان من حال كونه نطفة إلى المرحلة التى تتّضح فيها جميع أعضاء بدنه، وكذلك المراحل التى طواها آدم بعد خلقه من التراب حتى نفخ الروح.

والتعبير ب «النفخ» كناية عن حلول الروح فى بدن الإنسان، لأنّ النطفة عندما تنعقد فى البداية ليس لها إلّانوعاً من «الحياة النباتية»، أى التغذية والنمو فقط، أمّا الحس والحركة التى هى علامة «الحياة الحيوانية»، وكذلك قوة الإدراكات التى هى علامة الحياة الإنسانية، فلا أثر عن كل ذلك.

إنّ تكامل النطفة فى الرحم تصل إلى مرحلة تبدأ عندها بالحركة، وتحيا وتنبعث فيها القوى الإنسانية الاخرى تدريجياً، وهذه هى المرحلة التى يعبّر عنها القرآن بنفخ الروح.

أمّا إضافة «الروح» إلى «اللّه» فهى «إضافة تشريفية»، أى إنّ روحاً ثمينة وشريفة بحيث

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰

إنّ من المناسب أن تسمّى «روح اللّه» قد دبّت فى الإنسان ونفخت فيه.

وَ قَالُوا أ إِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أ إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (۱۰) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۳) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴) الندم وطلب الرجوع: تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلى حول المعاد، ثم تبيّن وتبحث حال المجرمين فى العالم الآخر، وهى فى المجموع تتمة للبحوث السابقة التى تحدثت حول المبدأ، إذ إنّ البحث عن المبدأ والمعاد مقترنان غالباً فى القرآن المجيد فتقول: إنّ هؤلاء الكفار يتساءلون باستغراب بأنّنا إذا متنا وتحوّلت أبداننا إلى تراب واندثرت تماماً فهل سوف نُخلق من جديد: «وَقَالُوا أءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

إنّ التعبير ب «ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ» إشارة إلى أنّ الإنسان يصبح تراباً بعد موته كسائر الأتربة ويتفرّق هذا التراب نتيجة العوامل الطبيعية وغير الطبيعية، ولا يبقى منه شىء حتى يعيده اللّه سبحانه فى القيامة مرّة اخرى.

إلّا أنّ هؤلاء ليسوا بمنكرين قدرة اللّه «بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» فإنّهم ينكرون مرحلة لقاء اللّه والحساب والثواب والعقاب لتبرير حرية العمل وليعملوا ما يريدون.

وهذه الآية تشبه كثيراً الآيات (۳- ۶) من سورة القيامة التى تقول: «أَيَحْسَبُ الْإِنسنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قدِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوّىَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيمَةِ».

بناء على هـذا، فإنّ هؤلاء ليسوا قاصرين من ناحيـة الاستدلال، ولكن شـهواتهم حجبت قلوبهم، ونيّاتهم السـيئة منعتهم من قبول مسألة المعاد.

وتجيب الآيـة هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا تتصوّروا أنّ شخصـيتكم بأبدانكم وأجسامكم، بل بأرواحكم، وهى باقية ومحفوظة: «قُلْ يَتَوَفكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكّلَ بِكُمْ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱

ثُمَّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ».

إذا لاحظنا أنّ معنى «يتوفّاكم» من مـادة «توفّى» (على وزن تصـدّى)، هو الإستيفاء، فإنّ الموت سوف لا يعنى الفناء، بل نوع من قبض الملائكة لروح الإنسان التى تشكّل أهم من وجود الإنسان.

إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهـذا الجواب: إذا كان إشـكالكم فى تفرق الأجزاء الجسـمية، فإنّكم تقرّون بقـدرة اللَّه سـبحانه ولا- تنكرونها، وإذا كـان إشـكالكم فى اضـمحلال وفنـاء شخصـية الإنسـان على أثر تنـاثر تلك الـذرات، فلا يصـحّ ذلك لأنّ أساس شخصية الإنسان يستند إلى الروح.

ثم تجسّـد وضع هؤلاءـ المجرمين الكـافرين ومنكرى المعـاد الـذين ينـدمون فى القيامـة أشـدّ النـدم على مـا كان منهم لـدى مشاهـدة مشاهـدها ومواقفها المختلفـة، فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِـهِمْ عِندَ رَبّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَـرْنَا وَسَـمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ».

ستعجب حقّاً! أهؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم اولئك المتكبرون العتاة العصاة الذين لم يكونوا يذعنون فى الدنيا لأيّة حقيقة؟

«الناكس»: من مادة «نكس» على وزن (كلب) بمعنى إنقلاب الشىء، وهنا يعنى خفض الرأس إلى الأسفل وطأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأنّ الإنسان يرى المشاهد والمواقف أوّلًا، ثم يسمع إستجواب اللَّه والملائكة.

إنّ المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، وخاصة منكرى القيامة.

ولما كان كل هـذا الإصـرار والتأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز اللَّه سـبحانه عن أن يلقى نور الإيمان فى قلوب هؤلاء، فإنّ الآية التالية تضيف: «وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيهَا».

فمن المسلم أنّ اللَّه تعالى يمتلك مثل هذه القدرة، إلّاأنّ الإيمان الذى يتحقق ويتم بالإجبار لا قيمة له، ولذا فالمشيئة الإلهية أرادت أن ينال الإنسان شرف كونه مختاراً، وأن يسير فى طريق التكامل بحريته واختياره، ولذلك تضيف فى النهاية: لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختاراً «وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

أجل ... إنّ المجرمين سلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، ولذلك فهم مستحقون للعقاب،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲

ونحن قد قطعنا على أنفسنا أن نملأ جهنم منهم.

ولـذلك تقول الآيـة التاليـة: إنّا سـنقول لأصـحاب النار «فَذُوقُوا بِمَا نَسِـيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هـذَا إِنَّا نَسِـينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». مرّة اخرى يستفاد من هذه الآية أنّ نسيان محكمة القيامة العادلة هو الأساس لكل تعاسة وشقاء للإنسان، لأنّه سيرى نفسه فى هذه الصورة حرّاً إزاء ارتكاب القبائح والظلم والعدوان.

وكذلك يستفاد من الآية بوضوح أنّ العقاب الأبدى للفرد معلول لما إرتكبه من أعمال فى دار الدنيا، لا لشىء آخر.

وضمناً يتّضح أنّ المراد من «نسيان اللَّه» هو عدم رعايته ونصرته لهم.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُـجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (۱۵) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (۱۶) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۷) أَ فَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً

کَمَنْ کَانَ فَاسِقاً لَا یَسْتَوُونَ (۱۸) أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَی نُزُلًا بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۱۹) وَ أَمَّا الَّذِینَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ کُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ یَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِیدُوا فِیهَا وَ قِیلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ (۲۰) جوائز عظیمة لم یطّلع علیها أحد: إنّ طریقة القرآن هی أنّه یبیّن کثیراً من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتکون مفهومة ومستقرّة فی القلب تماماً، وهنا أیضاً بعد الشرح والتفصیل الذی مرّ فی الآیات السابقة حول المجرمین والکافرین، فإنّه یتطرق إلی صفات المؤمنین الحقیقیین البارزة، ویبیّن اصولهم العقائدیة، وبرامجهم العملیة بصورة مضغوطة ضمن آیتین بذکر ثمان صفات، فیقول أوّلًا: «إِنَّمَا یُؤْمِنُ بَایَاتِنَا الَّذِینَ إِذَا ذُکِّرُوا بِهَا خَرُّوا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳

سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَایَسْتَکْبِرُونَ» «۱».

«خرّوا»: فی الأصل من مادة «الخریر» أی صوت الماء وأمثاله حین انحداره من مرتفع إلی منخفض، واستعماله هذا التعبیر فی شأن الساجدین إشارة إلی أنّ هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبیح فی لحظة هویّهم إلی الأرض للسجود.

لقد بیّنت فی هذه الآیة أربع صفات:

۱- أنّهم یسجدون بمجرد سماعهم آیات اللَّه. لقد ذکرت هذه الصفة والخاصیة فی سورة مریم الآیة (۵۸) کأحد أبرز صفات الأنبیاء، کما یقول اللَّه سبحانه فی شأن جمع من الأنبیاء العظام: «إِذَا تُتْلَی عَلَیْهِمْ ءَایَاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُکِیًّا».

وبالرغم من أنّ الآیات هنا ذکرت بصورة مطلقة، ولکن من المعلوم أنّ المراد منها غالباً الآیات التی تدعو إلی التوحید ومحاربة الشرک.

۲ و ۳- فهم ینزّهون اللَّه تعالی عن النقائص من جهة، ومن جهة اخری فإنّهم یحمدونه ویثنون علیه لصفات کماله وجماله.

۴- والصفة الاخری لهؤلاء هی التواضع وترک کل أنواع التکبر.

ثم أشارت الآیة الثانیة إلی أوصاف هؤلاء الاخری، فقالت: «تَتَجَافِی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» «۲». فیقومون فی اللیل، ویتّجهون إلی ربّهم ومحبوبهم ویشرعون بمناجاته وعبادته.

إنّ هؤلاء یستیقظون ویحیون قدراً من اللیل فی حین أنّ عیون الغافلین تغطّ فی نوم عمیق، وحینما تتعطّل برامج الحیاة العادیة، وتقلّ المشاغل الفکریة إلی أدنی مستوی، ویعمّ

---

(۱) ینبغی الإلتفات إلی أنّ الآیة الاولی هی اولی السجدات الواجبة فی القرآن الکریم، وإذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فیجب أن یسجد. طبعاً لا یجب فیها الوضوء، لکن یجب الإحتیاط فی وضع الجبهة علی ما یصحّ السجود علیه.

(۲) «تتجافی»: من مادة «جفا» وهی فی الأصل بمعنی القطع والحمل والإبعاد؛ و «الجنوب»: جمع جنب، وهوالجانب؛ و «المضاجع»: جمع مضجع، وهو محل النوم، وإبعاد الجانب عن محلّ النوم کنایة عن النهوض من النوم والتوجّه إلی عبادة اللَّه فی جوف اللیل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴

الهدوء والظلام کل الأرجاء، ویقلّ خطر التلوّث بالریاء فی العبادة. والخلاصة: عند توفّر أفضل الظروف لحضور القلب، فإنّهم یتّجهون بکل وجودهم إلی معبودهم، ویخبرونه بما فی قلوبهم، فهم أحیاء بذکره، وکؤوس قلوبهم طافحة بحبّه وعشقه.

ثم تضیف: «یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا».

وهنا تذکر الآیة صفتین اخریین لهؤلاء هما: «الخوف» و «الرجاء»، فلا یأمنون غضب اللَّه عزّ وجل، ولا ییأسون من رحمته، والتوازن بین الخوف والرجاء هو ضمان تکاملهم وتوغّلهم فی الطریق إلی اللَّه سبحانه، والحاکم علی وجودهم دائماً، لأنّ غلبة الخوف تجرّ الإنسان إلی الیأس والقنوط، وغلبة الرجاء تغری الإنسان وتجعله فی غفلة، وکلاهما عدوّ للإنسان فی سیره التکاملی إلی اللَّه سبحانه. وثامن

صفاتهم، وآخرها فى الآية أنّهم: «وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنفِقُونَ».

فهم لا- يهبون من أموالهم للمحتاجين وحسب، بل ومن علمهم وقوّتهم وقدرتهم ورأيهم الصائب وتجاربهم ورصيدهم الفكرى، فيهبون منها ما يحتاج إليه الغير.

ثم تطرقت الآية التالية إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتعون بالصفات المذكورة فى الآيتين السابقتين، فتقول بتعبير جميل يحكى الأهمية الفائقة لثوابهم: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

التعبير ب «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ» وكذلك التعبير ب «قُرَّةِ أَعْيُنٍ» مبيّن لعظمة هذه المواهب والعطايا التى لا عدّ لها ولا حصر.

وفى حديث- رواه البخارى ومسلم جميعاً- عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ اللَّه يقول: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وتبيّن الآية التالية المقارنة التى مرّت فى الآيات السابقة بصيغة أكثر صراحة، فتقول:

«أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّايَسْتَوُونَ».

لقد جعل «الفاسق» فى مقابل «المؤمن» فى هذه الآية، وهذا دليل على أنّ للفسق مفهوماً واسعاً يشمل الكفر والذنوب الاخرى.

وتبيّن الآية التالية عدم المساواة هذه بصورة أوسع وأكثر تفصيلًا، فتقول: «أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى (١)».

ثم تضيف الآية بأنّ هذه الجنّات قد أعدّها اللَّه تعالى لاستقبالهم فى مقابل أعمالهم الصالحة: «نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ التعبير ب «نزلًا»، والذى يقال عادةً للشىء الذى يهيّئونه لاستقبال وإكرام الضيف، إشارة لطيفة إلى أنّ المؤمنين يُستقبلون ويُخدمون دائماً.

---

(١) «المأوى»: من مادة «أوى» بمعنى إنضمام شىء إلى شىء آخر، ثم قيلت للمكان والمسكن والمستقرّ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵

وتطرقت الآية التالية إلى النقطة التى تقابل هؤلاء، فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيهُمُ النَّارُ». فهؤلاء مخلّدون فى هذا المكان المرعب بحيث إنّهم: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ».

مرّة اخرى نرى هنا العذاب الإلهى قد جعل فى مقابل «الكفر والتكذيب»، والثواب والجزاء فى مقابل «العمل»، وهذا إشارة إلى أنّ الإيمان لا- يكفى لوحده، بل يجب أن يكون حافزاً وباعثاً على العمل، إلّاأنّ الكفر كافٍ لوحده للعذاب، وإن لم يرافقه ويقترن به عمل.

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢) عقوبات تربوية: بعد البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول المجرمين وعقابهم الأليم، فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أحد الألطاف الإلهية الخفيّة، وهى موارد العذاب الخفيف فى الدنيا ليتّضح أنّ اللَّه سبحانه لا يريد أن يبتلى عبداً بالعذاب الخالد أبداً، ولذلك يستخدم كل وسائل التوعية لنجاته. تقول الآية: «وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

من المسلّم أنّ «العذاب الأدنى» له معنىً واسع يتضمّن أغلب الاحتمالات التى كتبها المفسرون بصورة مفصلة:

فمن جملتها، أنّ المراد المصائب والآلام والمشقّة؛ أو القحط والجفاف الشديد الذى دام سبع سنين وابتلى به المشركون فى مكة حتى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى؛ أو الضربة القاصمة التى نزلت عليهم فى غزوة بدر، وأمثال ذلك.

وأمّا «العذاب الأكبر» فيعنى عذاب يوم القيامة الذى يفوق كل عذاب حجماً وألماً.

ولما لم تنفع أيّة وسيلة من وسائل التوعية والتنبيه، حتى العذاب الإلهى، لم يبق طريق إلّا انتقام اللَّه من هؤلاء القوم الذين هم أظلم

الناس، وكذلك تقول الآية التالية: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بَايَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ».

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (۲۳) وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (۲۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶

شرط الإمامة، الصبر والإيمان: تشير الآيات مورد البحث إشارة قصيرة إلى قصة «موسى عليه السلام» وبنى إسرائيل لتسلّى نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله والمؤمنين الأوائل وتطيّب خواطرهم، وتدعوهم إلى الصبر والتحمّل والثبات أمام تكذيب وإنكار المشركين التى اشير إليها فى الآيات السابقة. تقول الآية أوّلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ».

أى: فلا تشكّ أو تتردّد فى أنّ «موسى» قد تلقّى آيات اللّه، وقد جعلنا كتاب موسى «التوراة» وسيلة لهداية بنى إسرائيل «وَجَعَلْنَهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ».

ثم تشير الآية التالية إلى الأوسمة والمفاخر التى حصل عليها بنو إسرائيل فى ظلّ الإستقامة والإيمان لتكون درساً للآخرين، فتقول: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَايَاتِنَا يُوقِنُونَ».

لقد ذكرت الآية هنا شرطين للإمامة: أحدهما: الإيمان واليقين بآيات اللّه عزّوجل؛ والثانى: الصبر والإستقامة والصمود.

ولمّا كان بنو إسرائيل- كسائر الامم- قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمّة الحقيقيين، وسلكوا مسالك مختلفة، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

أجل ... إنّ مصدر ومنبع الاختلاف دائماً هو مزج الحق بالأهواء والميول، ولما كانت القيامة يوماً لا معنى فيه للأهواء والميول، حيث تمحى ويتجلّى الحق بأجلى صوره، فهناك ينهى اللّه سبحانه الاختلافات بأمره، وهذه أيضاً إحدى فلسفات المعاد.

أ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ أَ فَلَا يَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلَا يُبْصِرُونَ (۲۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۸) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰) يوم إنتصارنا: كانت الآيات السابقة ممزوجة بتهديد المجرمين من الكفار، وتقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث إكمالًا لهذا التهديد: «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷

الْقُرُونِ». فهؤلاء يسيرون بين الخرائب ويرون آثار اولئك الأقوام الذين هلكوا من قبلهم «يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ».

تقع مساكن «عاد» و «ثمود» المدمّرة، ومدن «قوم لوط» الخربة فى طريق هؤلاء إلى الشام، وكان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكأنّ لبيوت هؤلاء وقصورهم المتهدمة مئة لسان، وتبيّن لهم وتحدثهم بنتيجة الكفر والإنحطاط، ولذلك تضيف الآية فى النهاية:

«إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ».

وتشير الآية التالية إلى أحد أهم النعم الإلهية التى هى أساس عمران كل البلدان، ووسيلة حياة كل الكائنات الحية، ليتّضح من خلالها أنّ اللّه سبحانه كما يمتلك القدرة على تدمير بلاد الضالين المجرمين، فإنّه قادر على إحياء الأراضى المدمّرة والميتة، ومنح عباده كل نوع من المواهب، فتقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ».

«الجُرُز»: تعنى الأرض القاحلة التى لا ينبت فيها شىء قطّ.

ولما كانت الآيات السابقة تهدّد المجرمين بالإنتقام، وتبشّر المؤمنين بالإمامة والنصر، فإنّ الكفار يطرحون هذا السؤال غروراً واستكباراً وتعلّلًا بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقق، كما يذكر القرآن ذلك: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُم صدِقِينَ».

فيجيبهم القرآن مباشرةً، ويأمر النبى صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَايَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ». أى: إذا كان

مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النبى لتؤمنوا، فإنّ الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئاً.

والمراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الإستئصال»؛ أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين، ولا يدع لهم فرصة الإيمان. وبتعبير آخر: فإنّ عذاب الإستئصال نوع من العذاب الدنيوى، الذى يُنهى حياة المجرمين بعد إتمام الحجة.

وأخيراً تنهى الآية الأخيرة هذه السورة- سورة السجدة- بتهديد بليغ عميق المعنى، فتقول: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ».

الآن، حيث لم تؤثّر فى هؤلاء البشارة ولا الإنذار، فأعرض عنهم، وانتظر رحمة اللّه سبحانه، ولينتظروا عذابه فإنّهم لا يستحقون سواه.

«نهاية تفسير سورة السجدة»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹

۳۳. سورة الأحزاب

محتوى السورة: إنّ هذه السورة من أغنى سور القرآن المجيد وأجناها ثماراً، وتتابع وتبحث مسائل متنوعة وكثيرة جدّاً فى باب اصول الإسلام وفروعه.

ويمكن تقسيم الأبحاث التى وردت فى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

۱- بداية السورة التى تدعو الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى طاعة اللّه وترك اتّباع الكافرين ومقترحات المنافقين.

۲- أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهلية، كالظهار، وكذلك مسألة التبنّى، وأكّدت على بطلانها، وحصرت العلاقات والروابط العائلية والسببية بالروابط الواقعية والطبيعية.

۳- وهو أهم أقسام هذه السورة، ويرتبط بمعركة «الأحزاب» وحوادثها المرعبة، وإنتصار المسلمين المعجز على الكفار.

۴- يرتبط بزوجات النبى، حيث يجب أن يكنّ اسوة وانموذجاً أسمى لكل نساء المسلمين، ويصدّر لهن فى هذا الباب أوامر مهمة.

۵- يتطرق إلى قصة «زينب بنت جحش» التى كانت يوماً زوجة لزيد، وهو ابن النبى بالتبنّى، وافترقت عنه، فتزوّجها النبى صلى الله عليه و آله بأمر اللّه سبحانه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰

۶- يتحدث عن مسألة الحجاب، والتى ترتبط بالبحوث السابقة، ويوصى كل النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامى.

۷- يشير إلى مسألة المعاد المهمة، وطريق النجاة فى ذلك الموقف العظيم، وكذلك يشرح مسألة أمانة الإنسان العظمى، أى مسألة التعهد والتكليف والمسؤولية.

لما كان جزء مهم من هذه السورة يتحدث عن أحداث غزوة الأحزاب (الخندق) فإنّ هذا الإسم قد اختير لها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة الأحزاب وعلّمها أهله، وما ملكت يمينه، اعطى الأمان من عذاب القبر».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة فى جوار محمّد وآله وأزواجه».

إنّ هذه الفضائل لا تُنال بالتلاوة الخالية من الروح، بل التلاوة التى تكون مبدأً للتفكر الذى يضىء آفاق الإنسان يظهر آثاره فى أعماله وسلوكه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ هذه الآيات نزلت فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل، وأبى أعور السلمى، قدموا المدينة ونزلوا على عبد اللَّه بن ابى بعد غزوة احد بأمان من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبداللَّه بن ابى وعبد اللَّه بن أبى سرح وطعمة بن ابيرق فدخلوا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومنات، وقل إنّ لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربّك. فشقّ ذلك على النبى صلى الله عليه و آله فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول اللَّه فى قتلهم؟ فقال: «إنّى أعطيتهم الأمان». وأمر صلى الله عليه و آله فاخرجوا من المدينة ونزلت الآية: «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» وأمرته أن لا يصغى لمثل هذه الإقتراحات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱

التّفسير

اتّبع الوحى الإلهى فقط: إنّ من أخطر المنعطفات والمنحدرات التى تعترض طريق القادة الكبار قضية اقتراحات الصلح والتنازل والوفاق التى تطرح من قبل المخالفين.

لقد بذل مشركو «مكة» ومنافقو «المدينة» كل ما فى وسعهم ليحرّفوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عن خط التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام والإتّفاق، إلّاأنّ اولى آيات سورة الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، ودعت النبى صلى الله عليه و آله إلى الإستمرار فى اسلوبه الحاسم فى خط التوحيد بدون أدنى تراجع وتنازل ومسالمة.

إنّ هذه الآيات بمجموعها تأمر النبى صلى الله عليه و آله بأربعة أوامر مهمة:

الأوّل: فى مجال التقوى، والتى تهيّء الأرضية لكل برنامج آخر، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ».

إنّ حقيقة التقوى هى ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية، ولولا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا يندفع ولا يتحرّك باتّجاه أى برنامج بنّاء.

الثانى: نفى ورفض طاعة الكافرين: «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

وتقول الآية فى النهاية تأكيداً لهذا الموضوع: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا».

فإنّه تعالى حينما يأمرك بعدم إتّباع هؤلاء، فإنّ ذلك صادر عن حكمته اللامتناهية، لأنّه يعلم ما اخفى فى هذ الإتّباع والمهادنة من المصائب، الأليمة، والمفاسد الجمّة.

الثالث: نثر بذور التوحيد واتّباع الوحى الإلهى، فيقول: «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» واحذر ف «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وبناءً على هذا، فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكة.

ولما كانت هناك مشاكل كثيرة، وتهديدات ومؤامرات، ومعوّقات فى الاستمرار فى سلوك هذا الطريق، فإنّه تعالى يصدر الأمر الرابع بأن: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا». فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك، فلا تخش ولا تخف منهم لأنّى ناصرك ومعينك.

ومع أنّ المخاطب فى هذه الآيات هو النبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّه خطاب لكل المؤمنين، ولعامة المسلمين فى كل عصر وزمان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ (۴) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً (۶) إدعاءات جوفاء: تعقيباً للآيات السابقة التى كانت تأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يتّبع الوحى الإلهى فقط، ولا يتّبع الكافرين والمنافقين، تعكس هذه الآيات التى نحن بصددها عاقبة اتّباع هؤلاء وأنّه يدعو الإنسان إلى مجموعة من

الخرافات والأباطيل، وقد ذكرت الآية الاولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها، فتقول أوّلًا: «مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ».
إنّ للجملة معنى عميق، وهو: أنّه ليس للإنسان إلّاقلب واحد، ولا يحتوى هذا القلب ولا يختزن إلّاعشق معبود واحد، وعلى هذا فإنّ اولئك الذين يدعون إلى الشرك والآلهة المتعدّدة ينبغى أن تكون لهم قلوب متعدّدة، ليجعلوا كل واحد منها بيتاً لعشق معبود واحد.
فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام فى قوله «مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ» قال على بن أبى طالب عليه السلام: «لا يجتمع حبّنا وحبّ عدوّنا فى جوف إنسان، إنّ اللَّه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه، فيحبّ بهذا ويبغض هذا، فأمّا محبّنا فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه، فإن شاركه فى حبّنا حبّ عدوّنا فليس منّا ولسنا منه واللَّه عدوّهم وجبرئيل وميكائيل واللَّه عدوّ للكافرين».
وبناءً على هذا، فإنّ القلب مركز الإعتقاد الواحد، وينفّذ برنامجاً عملياً واحداً، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتقد بشىء حقيقة وينفصل عنه فى العمل.
مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳
ثم يتطرق القرآن إلى خرافة اخرى من خرافات الجاهلية، وهى خرافة «الظهار»، حيث إنّ المشركين كانوا إذا غضبوا على نسائهم، وأرادوا أن يبدوا تنفّرهم وعدم ارتياحهم، قالوا للزوجة: «أنت علىّ كظهر امّى». فيعتبرها بمثابة امّه، وكان يعدّ هذا الكلام بمنزلة الطلاق.
يقول القرآن الكريم فى تتمة هذه الآية: «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ». فلم يمض الإسلام هذا القانون الجاهلى، ولم يصادق عليه، بل جعل عقوبة لمن يتعاطاه، وهى: أنّ من نطق بهذا الكلام فلا يحق له أن يقرب زوجته حتى يدفع الكفارة، وإذا لم يدفعها ولم يأت زوجته فإنّ لها الحق فى أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين: إمّا أن يطلّقها وفقاً لأحكام الإسلام ويفارقها، أو أن يكفّر ويستمر فى حياته الزوجية كالسابق.
ثم تطرقت الآية إلى ثالث خرافة جاهلية، فقالت: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ».
وتوضيح ذلك: أنّه كان من المتعارف فى زمن الجاهلية أنّهم كانوا ينتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم، ويسمّونهم أولادهم، وبعد هذه التسمية يعطونه كل الحقوق التى يستحقها الولد من الأب، فيرث الولد من تبنّاه، كما يرث المتبنّى الولد.
وقد نفى الإسلام هذه العادات غير المنطقية والخرافية أشد النفى. ولذلك يقول القرآن الكريم بعد هذه الجملة: «ذلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ».
إنّكم تقولون: إنّ فلاناً ولدى، وأنتم تعلمون علم اليقين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ الأمواج الصوتية فقط هى التى تخرج من أفواهكم ولا تنبع مطلقاً من إعتقاد قلبى، وهذا كلام باطل ليس إلّا «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ».
إنّ «قول الحق» يطلق على القول الذى ينطبق على الواقع الموضوعى تماماً، أو أن يكون من الامور الاعتبارية التى تنسجم مع مصالح كل أطراف القضية، ونعلم أنّ مسألة «الظهار» فى الجاهلية، أو «التبنّى» الذى كان يسحق حقوق الأبناء الآخرين إلى حد كبير- لم يكونا من الموضوعات العينية، ولا من الاعتباريات الحافظة لمصلحة عامة الناس.
ثم يضيف القرآن مؤكّداً وموضّحاً الخط الصحيح والمنطقى للإسلام: «ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ».
وتقول الآية لرفع الأعذار والحجج: «فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ». أى إنّ عدم معرفة آبائهم لا يكون دليلًا على أن تضعوا اسم شخص آخر كأب
مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴
لهذا الإبن، بل يمكنكم أن تخاطبوهم كإخوانكم فى الدين أو أصدقائكم ومواليكم.
«الموالى»: جمع «مولى»، وقد ذكر المفسرون له معانى عديدة، فالبعض فسّره هنا بمعنى الصديق والصاحب، والبعض الآخر بمعنى

الغلام المعتق والمحرّر. ولكن ربّما يدعو الشخص إنساناً لغير أبيه لاعتياده ذلك سابقاً، أو لسبق لسانه، أو لاشتباهه فى تشخيص نسب الأفراد، وهذا خارج عن حدود اختيار الإنسان، فإنّ اللّه العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان، ولذا أردفت الآية: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إنّه تعالى يغفر لكم ما سبق، ويعفو عن السهو والنسيان والإشتباه.

ثم تتطرق الآية التالية إلى مسألة مهمة اخرى، أى إبطال نظام «المؤاخاة» بينهم.

وتوضيح ذلك: أنّ المسلمين لمّا هاجروا من مكة إلى المدينة وقطع الإسلام كل روابطهم وعلاقاتهم بأقاربهم وأقوامهم المشركين الذين كانوا فى مكة تماماً، فقد أجرى النبى صلى الله عليه و آله بأمر اللّه عقد المؤاخاة بينهم وعقد عهد المؤاخاة بين «المهاجرين» و «الأنصار»، وكان يرث أحدهم الآخر كالأخوين الحقيقيين، إلّاأنّ هذا الحكم كان مؤقّتاً وخاصّاً بحالة استثنائية جدّاً، فنزلت الآية أعلاه وألغت نظام المؤاخاة الذى كان يحلّ محلّ النسب، وجعل حكم الإرث وأمثاله مختّصاً باولى الأرحام الحقيقيين.

غاية ما فى الأمر أنّ الآية قبل أن تذكر هذا الحكم ذكرت حكمين آخرين- أى كون النبى صلى الله عليه و آله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكون نساء النبى صلى الله عليه و آله كامهاتهم- كمقدمة، فقالت:

«النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» (۱). «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» (۲).

ومع أنّ النبى صلى الله عليه و آله بمنزلة الأب، وأزواجه بمنزلة امهات المؤمنين إلّاأنّهم لا يرثون منهم

---

(۱) إنّ النبى صلى الله عليه و آله أولى من كل إنسان مسلم فى المسائل الاجتماعية والفردية، وكذلك فى المسائل المتعلقة بالحكومة والقضاء والدعوة، وإنّ إرادته ورأيه مقدم على إرادة أى مسلم ورأيه، وهذا لأنّ النبى صلى الله عليه و آله معصوم ووكيل للّهسبحانه، ولا يفكّر ويقرّر إلّافى صالح المجتمع والفرد.

(۲) وهى طبعاً امومة معنوية وروحية، كما أنّ النبى صلى الله عليه و آله أب روحى ومعنوى للُامة.

إنّ تأثير هذا الإرتباط المعنوى كان منحصراً فى مسألة حفظ احترام أزواج النبى صلى الله عليه و آله وحرمة الزواج منهن، كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهن بعد وفاة النبى صلى الله عليه و آله، أى إنّ المسلمين كان من حقهم أن يتروجوا بنات النبى، فى حين أنّ أىّ أحد لا يستطيع الزواج من ابنة امه، وكذلك مسألة كونهن أجنبيات، وعدم جواز النظر إليهن إلّاللمحارم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵

مطلقاً، فكيف يُنتظر أن يرث الإبن المتبنّى؟!

ثم تضيف الآية: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ». ولكن مع ذلك، ومن أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمين تماماً وليكون بإمكان المؤمنين تعيين شيئاً من الإرث لإخوانهم- وإن كان بأن يوصوا بثلث المال- فإنّ الآية تضيف فى النهاية: «إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا».

وتقول فى آخر جملة تأكيداً لكل الأحكام السابقة، أو الحكم الأخير: «كَانَ ذلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا»- فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن الكريم-.

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (۷) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً (۸) ميثاق اللّه الغليظ: لما كانت الآيات السابقة قد بيّنت الصلاحيات الواسعة للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله تحت عنوان (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، فإنّ هذه الآيات تبيّن واجبات النبى وسائر الأنبياء العظام الثقيلة العظيمة، لأنّا نعلم أنّ الصلاحيات تقترن دائماً بالمسؤوليات. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا».

وعلى هذا فإنّها تذكر أوّلًا جميع الأنبياء فى مسألة الميثاق، ثم تخصّ بالذكر منهم خمسة أنبياء هم اولوا العزم، وعلى رأسهم نبى الخاتم صلى الله عليه و آله لعظمته وجلالته وشرفه.

هذا الميثاق هو تأدية مسؤولية التبليغ والرسالة والقيادة وهداية الناس فى كل الأبعاد والمجالات.

إنّ الأنبياء كانوا مكلفين بأن يؤيّد بعضهم بعضاً، كما أنّ الأنبياء اللاحقين يصدّقون ويؤكّدون صحّة دعوة الأنبياء السابقين.

وتبين الآية التالية الهدف من بعثة الأنبياء والميثاق الغليظ الذى اخذ منهم، فتقول:

«لِّيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا».

إنّ المراد من الصادقين: هم الذين أثبتوا صدقهم وإخلاصهم فى ميادين حماية دين اللّه والجهاد والثبات والصمود أمام المشاكل وبذل الأرواح والأموال.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۹) إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (۱۰) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً (۱۱) الإمتحان الإلهى العظيم فى مواجهة الأحزاب: تتحدث هذه الآيات والآيات الاخرى التالية، والتى تشكّل بمجموعها سبع عشرة آية، عن أعسر الامتحانات والاختبارات الإلهية للمؤمنين والمنافقين، واختبار مدى صدقهم فى العمل، الذى بحث فى الآيات السابقة.

إنّ هذه الآيات تبحث أحد أهم حوادث تاريخ الإسلام، أى عن «معركة الأحزاب».

إنّ حرب الأحزاب- وكما يدل عليها إسمها- كانت مجابهة شاملة من قبل عامة أعداء الإسلام والفئات المختلفة التى تعرّضت مصالحها ومنافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسّع وانتشار هذا الدين.

لقد اشعلت أوّل شرارة للحرب من قبل يهود «بنى النظير» الذين جاؤوا إلى مكة وأغروا «قريش» بحرب النبى صلى الله عليه و آله، ووعدوهم بأن يساندوهم ويقفوا إلى جانبهم حتى النفس الأخير، ثم أتوا قبيلة «غطفان» وهيّئوهم لهذا الأمر أيضاً.

ثم دعت هذه القبائل حلفاءها كقبيلة «بنى أسد» و «بنى سليم»، ولما كان الجميع قد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحدوا واتّفقوا على أن يقضوا على الإسلام إلى الأبد.

أمّا المسلمون اجتمعوا للتشاور بأمر النبى صلى الله عليه و آله، وقبل كل شىء أخذوا برأى «سلمان الفارسى» وحفروا حول المدينة خندقاً حتى لا يستطيع العدو عبوره بسهولة ويهجم على المدينة، ولهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرّت لحظات صعبة وخطرة جدّاً على المسلمين، وكانت القلوب قد بلغت الحناجر، وكان المنافقون من جهة اخرى قد شمّروا عن السواعد وجدّوا فى تآمرهم على الإسلام، وكذلك ضخامة عدد الأعداء وقلة عدد المسلمين- (ذكروا أنّ عدد الكفار كان عشرة آلاف، أمّا المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف) وإستعداد الكفار من ناحية المعدّات الحربية، كل ذلك قد رسم صورة كالحة للمصير المجهول فى أعين المسلمين. إلّاأنّ اللّه سبحانه أراد أن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷

ينزل هنا آخر ضربة بالكفر، ويميّز صفّ المنافقين عن صفوف المسلمين.

وأخيراً انتهت هذه الغزوة بانتصار المسلمين فقد هبّت بأمر اللّه عاصفة هوجاء إقتلعت خيام الكفار وأتلفت وسائلهم، وألقت فى قلوبهم الرعب الشديد، وأرسل سبحانه قوى الملائكة الغيبية لعون المسلمين.

وقد اضيف إلى ذلك تجلّى قدرة وعظمة أمير المؤمنين على عليه السلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشركون بالفرار من دون القدرة على القيام بأىّ عمل.

نزلت الآيات السبع عشرة من هذه السورة، واستطاعت بتحليلاتها الدقيقة والفاضحة أن تستفيد من هذه الحادثة المهمة من أجل إنتصار الإسلام النهائى وقمع المنافقين بأفضل وجه.

يلخّص القرآن الكريم هذه الحادثة فى آية واحدة أوّلًا، ثم يتناول تبيان خصوصياتها فى الستّ عشرة آية الاخرى، فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ [كثيرة جدّاً] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

ويعلم أعمال كل جماعة وما قامت به فى هذا الميدان الكبير.

إنّ التعبير ب «الجنود» إشارة إلى مختلف الأحزاب الجاهلية كقريش وغطفان وبنى سليم وبنى أسد وبنى فزارة وبنى أشجع وبنى مرّة، وكذلك إلى طائفة اليهود فى داخل المدينة.

إنّ المراد من «جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا» والتى نزلت لنصرة المسلمين، هو «الملائكة» التى ورد نصرها للمؤمنين فى غزوة بدر فى القرآن المجيد بصراحة.

والملائكة نزلت لرفع معنويات المؤمنين وشدّ عزيمتهم وإثارة حماسهم.

وتقول الآية التالية تجسيداً للوضع المضطرب فى تلك المعركة، وقوّة الأعداء الحربية الرهيبة، والقلق الشديد لكثير من المسلمين: «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا».

إنّ الجملة أعلاه إشارة إلى محاصرة هذه المدينة من قبل أعداء الإسلام.

إنّ جملة «زَاغَتِ الْأَبْصَارُ»- بملاحظة أنّ «زاغت» من مادة الزيغ، أى الميل إلى جانب واحد- إشارة إلى الحالة التى يشعر بها الإنسان عند الخوف والإضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهة واحدة، وتتسمّر وتثبت على نقطة معيّنة، ويبقى متحيّراً حينذاك.

وجملة «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» إشارة إلى أنّ بعض المسلمين خطرت على أفكارهم ظنون شيطانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸

هنا كان الامتحان الإلهى قد بلغ أشدّه كما تقول الآية التالية: «هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا».

من الطبيعى أنّ الإنسان إذا احيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الإبتلاء، بل ستظهر عليه آثار الإضطراب والتزلزل.

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً (۱۳) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً (۱۴) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (۱۵) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۶) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۱۷) المنافقون فى عرصة الأحزاب: فار تنوّر امتحان حرب الأحزاب، وابتلى الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير، وهنا انقسم المسلمون إلى فئات مختلفة: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، وفئة خواص المؤمنين، وجماعة ضعاف الإيمان، وفرقة المنافقين، وجمع المنافقين العنودين المتعصّبين، وبعضهم كان يفكّر فى بيته وحياته والفرار، وجماعة كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، والبعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

وتعكس اولى الآيات مورد البحث مقالة المنافقين ومرضى القلوب، فتقول: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا».

جاء فى تاريخ حرب الأحزاب: أنّه خلال حفر الخندق، وبينما كان المسلمون يعملون فخرجت عليهم صخرة كسرت المِعوَل فأعلموا النبى صلى الله عليه و آله فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة حتى لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم فكبّر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمسلمون ثم الثانية كذلك، ثم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹

الثالثة كذلك ثم خرج وقد صدعها فسأله سلمان عما رأى من البرق فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الاولى، وأخبرنى جبرئيل أنّ امّتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحُمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أنّ امّتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء، وأخبرنى أنّ امّتى ظاهرة عليها، فأبشروا» فاستبشر والمسلمون.

وقال المنافقون: ألا تعجبون يعدكم الباطل ويخبركم أنّه ينظر من يثرب الحيرة ومدائن كسرى وإنّها تُفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل اللَّه: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» (۱).

ثم تتطرق الآية الاخرى إلى بيان حال طائفة اخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، والذين كانوا أخبث وأفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: واذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثرب) ليس لكم فى هذا المكان موقع فلا تتوقفوا هنا وارجعوا إلى بيوتكم: «وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا».

وبذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

ومن جانب آخر: «وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا».

«عورة»: مأخوذة من مادة «عار»، وتقال للشيء الذى يوجب ظهوره العار، وتقال أيضاً للشقوق والثقوب التى تظهر فى اللباس أو جدران البيت، وكذلك للثغور الضعيفة والنقاط الحدودية التى يمكن اختراقها وتدميرها، وعلى ما يخافه الإنسان ويحذره، والمراد هنا البيوت التى ليس لها جدار مطمئن وباب محكم، ويخشى عليها من هجوم العدو.

و «يثرب»: هو الإسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النبى صلى الله عليه و آله، وبعد هجرته أصبح إسمها تدريجياً «مدينة الرسول»، ومخفّفها المدينة.

وتشير الآية التالية إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجة أنّ جيش الكفر لو دخل المدينة من كل جانب وصوب، واستولى عليها، ثم دعاهم إلى الشرك والكفر فسوف يقبلون ذلك ويسارعون إليه: «وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا».

---

(۱) الكامل فى التّاريخ لابن الأثير ۲/ ۷۰ (ذكر غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب). مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۹۹

من المعلوم أنّ اناساً بهذا الضعف والتزلزل وعدم الثبات غير مستعدّين للقاء العدو ومحاربته، ولا هم متأهّبون لتقبّل الشهادة فى سبيل اللَّه، بل يستسلمون بسرعة ويغيّرون مسيرهم. وبناءً على هذا، فإنّ المراد من كلمة «الفتنة» هنا هى الشرك والكفر.

ثم يستدعى القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا».

وعليه فإنّهم مسؤولون أمام تعهّدهم.

إنّ كل من يؤمن ويبايع النبى صلى الله عليه و آله يعاهده على أن يدافع عن الإسلام والقرآن ولو كلّفه ذلك حياته.

وبعد أن أفشى اللَّه سبحانه نيّة المنافقين وبيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأوّل: أنّه يقول للنبى صلى الله عليه و آله: «قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد فى غزوة احد، حيث أشار القرآن فى الآية (۱۵۳) من سورة آل عمران إلى فئة اخرى من المنافقين المثبطين للعزائم، والمفرّقين لوحدة الصف.

والثانى: ألم تعلموا أنّ مصائركم بيد اللَّه، ولن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومة اللَّه وقدرته ومشيئته: «قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ

اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

بناءً على هذا، فإنّكم إذا علمتم أنّ كل مقدّراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره فى الجهاد الذى هو أساس العزة والكرامة والشموخ فى الدنيا وعند اللّه، وحتى إذا تقرّر أن تنالوا وسام الشهادة فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابة صدر.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱

فئة المعوّقين: أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب، وكانوا يدعون الآخرين أيضاً إلى اعتزال القتال، فقالت: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا».

«المعوّقين»: من مادة «عوق» على زنة (شوق) تعنى منع الشىء ومحاولة صرف الآخرين عنه؛ و «البأس»: فى الأصل يعنى (الشدّة)، والمراد منه هنا الحرب.

وتضيف الآية التالية: إنّ الدافع لكل تلك العراقيل التى وضعوها أمامكم هو أنّهم بخلاء:

«أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ» (١). لا- فى بذل الأرواح فى ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتى فى المعونات الماديّة لتهيئة مستلزمات الحرب، وفى المعونة البدنية فى حفر الخندق، بل ويبخلون حتى فى المساعدة الفكرية، بخلًا يقترن بالحرص المتزايد يومياً.

وبعد تبيان بخل هؤلاء وامتناعهم عن أىّ نوع من المساعدة والإيثار، تتطرق الآية إلى بيان صفات اخرى لهم، والتى لها صفة العموم فى كل المنافقين، وفى كل العصور والقرون، فتقول: «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

فلأنّهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقى، ولم يستندوا إلى عماد قوى فى الحياة، فإنّهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماماً عندما يواجهون حادثاً صعباً ومأزقاً حرجاً، وكأنّهم يواجهون الموت.

ثم تضيف الآية: «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ». فيأتون إليكم كأنّهم هم الفاتحون الأصليون والمتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون ويطلبون سهمهم من الغنائم، وهم كانوا أبخل من الجميع فى المشاركة فى الحرب والثبات فيها.

«سلقوكم»: من مادة «سَلْق»، وهى فى الأصل بمعنى فتح الشىء بعصبية وغضب، سواء كان هذا الفتح باليد أو اللسان، وهذا التعبير يستعمل فى شأن من يطلب الشىء بالزجر واسلوب الأمر؛ و «الألسنة الحداد» تعنى الألسنة الجارحة المؤذية، وهى هنا كناية عن الخشونة فى الكلام.

وتشير الآية فى النهاية إلى آخر صفة لهؤلاء، والتى هى أساس كل شقائهم وتعاستهم، فقالت: «أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ». لأنّها لم تكن منبعثة عن الإخلاص والدافع الدينى الإلهى: «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

---

(١) «أشحّة»: جمع شحيح، من مادة (الشحّ)، أى البخل المقترن بالحرص.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲

وتجسّد الآية التالية بتصوير أبلغ جبن وخوف هذه الفئة، فتقول: «يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا».

ثم تضيف الآية: «وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ». أى: منتشرون فى الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك ويتتبعون أخباركم: «يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ». فيسألون من كل مسافر آخر الأخبار لئلّا تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، وهم مع ذلك

يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً.

وتضيف الآيـة فى آخر جملة: وعلى فرض أنّهم لم ينهزموا ويفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم، «وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا». فلا تحزنوا وتقلقوا لذهابهم، ولا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنّهم اناس لا قيمة لهم ولا صفة تحمد، وعدمهم أفضل من وجودهم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هـذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَ تَسْلِيماً (۲۲) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (۲۳) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (۲۵)

دور المؤمنين المخلصـين فى معركة الأحزاب: يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة ومخطّطاتهم وأدوارهم فى غزوة الأحزاب، ويتحدّث القرآن المجيد فى نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، ومعنوياتهم العالية ورجولتهم وثباتهم وسائر خصائصهم فى الجهاد الكبير.

ويبدأ مقدمة هذا البحث بالحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث كان إمامهم وقدوتهم، فيقول: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳

فإنّ النبى صـلى الله عليه و آله خير نموذج لكم، لا فى هـذا المجال وحسب، بل وفى كل مجالات الحياة، فإنّ كلّاً من معنوياته العاليـة، وصبره واستقامته وصموده، وذكـائه ودرايته، وإخلاصه وتـوجهه إلى اللّه، وتسلّطه وسيطرته على الحوادث نموذج يحتـذى به كل المسلمين.

«الاسوة»: تعنى فى الأصل الحالة التى يتلبّسها الإنسان لدى اتّباعه لآخر. وبتعبير آخر:

هى التأسى والإقتداء. وبناءً على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصفة، ومعنى جملة: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، هو أنّ لكم فى النبى صـلى الله عليه و آله تأسّيـاً واقتداءً جيّداً، فإنّكم تستطيعون بالإقتداء به واتباعه أن تصلحوا اموركم وتسيروا على الصراط المستقيم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ علياً عليه السلام مع شهامته وشجاعته فى كل ميادين الحرب، والتى تمثّل معركة الأحزاب نموذجاً منها، يقول فى نهج البلاغة فيما روى عنه: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللّه صلى الله عليه و آله فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه».

بعد ذكر هذه المقدمة تطرقت الآية التالية إلى بيان حال المؤمنين الحقيقيين، فقالت:

«وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا».

هـذا الوعـد إشارة إلى الكلام الـذى كان رسول اللّه قـد تكلّم به من قبل بأنّ قبائل العرب ومختلف أعـدائكم سيتّحدون ضـدّكم قريباً ويأتون إليكم، لكن اعلموا أنّ النصر سيكون حليفكم فى النهاية.

إنّهم قيل لهم من قبل: إنّكم ستخضعون لامتحان عسير، فلمّا رأوا الأحزاب تيقّنوا صدق إخبار اللّه ورسوله، وزاد إيمانهم وتسليمهم.

وتشير الآية التالية إلى فئة خاصة من المؤمنين، وهم الذين كانوا أكثر تأسّياً بالنبى صلى الله عليه و آله من الجميع، وثبتوا على عهدهم الـذى عاهـدوا اللّه به، وهـو التضحية فى سبيـل دينه حتى النفس الأخير، وإلى آخر قطرة دم، فتقول: «مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ». من دون أن يتزلزل أو ينحرف ويبـدّل العهـد ويغيّر الميثاق الـذى قطعه على نفسه «وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا».

«نحب»: على زنة «عهد» تعنى العهد والنذر والميثاق.

إنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كل المؤمنين المخلصـين الصادقين فى كل عصر وزمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهادة فى سبيل

اللّه، أم من ثبت على عهده مع ربّه ولم يتزعزع، وكان مستعدّاً للجهاد والشهادة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴

وتبيّن الآية التالية النتيجة النهائية لأعمال المؤمنين والمنافقين فى جملة قصيرة، فتقول:

«لِّيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا». فلا يبقى صدق وإخلاص ووفاء المؤمنين بدون ثواب، ولا ضعف وإعاقات المنافقين بدون عقاب.

وتطرح الآية الأخيرة من هذه الآيات- والتى تتحدث عن غزوة الأحزاب وتنهى هذا البحث، فتقول فى الجملة الاولى: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا».

«الغيظ»: يعنى (الغضب) ويأتى أحياناً بمعنى (الغمّ)، وهنا جاء مزيجاً من المعنيين، فإنّ جيوش الأحزاب قد بذلت قصارى جهدها للإنتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، ورجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغمّ والغضب.

والمراد من «الخير» هنا الإنتصار فى الحرب، ولم يكن إنتصار جيش الكفر خيراً أبداً، بل إنّه شرّ، ولمّا كان القرآن يتحدّث من وجهة نظرهم الفكرية عبّر عنه بالخير، وهو إشارة إلى أنّهم لم ينالوا أىّ نصر فى هذا المجال.

وتضيف فى الجملة التالية: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ». فقد هيّأ عوامل بحيث انتهت الحرب من دون حاجة إلى إلتحام واسع بين الجيشين، ومن دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصة قد مزّقت أوضاع المشركين من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ اللّه تعالى قد ألقى الرعب والخوف فى قلوبهم من جنود اللّه التى لا ترى، ومن جهة ثالثة فإنّ الضربة التى أنزلها على بن أبى طالب عليه السلام بأعظم بطل من أبطالهم، وهو «عمرو بن عبد ودّ»، قد تسبّبت فى تبدّد أحلامهم وآمالهم، ودفعتهم إلى أن يلملموا أمتعتهم ويتركوا محاصرة المدينة ويرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبة والخسران.

وتقول الآية فى آخر جملة: «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا». فمن الممكن أن يوجد اناس أقوياء، لكنّهم ليسوا بأعزّاء لا يُقهرون، بل هناك من يقهرهم ومن هو أقوى منهم، إلّاأنّ القوى العزيز الوحيد فى العالم هو اللّه عزّ وجل الذى لا حدّ لقدرته وقوّته ولا انتهاء.

نتائج حرب الأحزاب: لقد كانت حرب الأحزاب نقطة انعطاف فى تاريخ الإسلام، قلبت كفّة التوازن العسكرى والسياسى لصالح المسلمين إلى الأبد.

ويمكن تلخيص النتائج المثمرة لهذه المعركة فى عدّة نقاط:

أ) فشل مساعى العدو، وتحطّم قواه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵

ب) كشف المنافقين، وفضح الأعداء الداخليين الخطرين.

ج) جبران الذكرى الأليمة لهزيمة احد.

د) قوة المسلمين، وازدياد هيبتهم فى قلوب الأعداء.

ه) إرتفاع معنويات المسلمين نتيجة للمعجزات العظيمة التى رأوها فى هذه المعركة.

و) تثبيت مركز النبى صلى الله عليه و آله فى داخل المدينة وخارجها.

ز) تهيؤ الأرضية لتصفية المدينة وإنقاذها من شرّ بنى قريظة.

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (۲۶) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً (۲۷) غزوة بنى قريظة إنتصار عظيم آخر: كان فى المدينة ثلاث طوائف معروفة من اليهود، وهم: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكانت هذه الطوائف قد عاهدت النبى صلى الله عليه و آله على أن لا تعين عدوّاً له ولا يتجسّسوا لذلك العدوّ، إلّاأنّ «بنى قينقاع» قد نقضوا عهدهم فى السنة الثانية للهجرة، و «بنو النضير» فى

السنۀ الرابعۀ للهجرة بأعذار شتّی، وصمّموا علی مواجهۀ النبی صلی الله علیه و آله وانهارت مقاومتهم فی النهایۀ، وطردوا إلی خارج المدینۀ. بناءً علی هذا، فإنّ «بنی قریظۀ» کانوا آخر من بقی فی المدینۀ إلی السنۀ الخامسۀ للهجرة حیث وقعت غزوة الأحزاب، فإنّهم اتّصلوا بمشرکی العرب، وشهروا السیوف بوجه المسلمین.

بعد انتهاء غزوة الأحزاب فإنّ النبی صلی الله علیه و آله عاد إلی منزله، فنزل علیه جبرئیل بأمر اللَّه وقال: لماذا ألقیت سلاحک وهذه الملائکۀ قد استعدّت للحرب؟ علیک أن تسیر الآن نحو بنی قریظۀ وتنهی أمرهم.

کان المسلمون فی حرارة الإنتصار، وبنو قریظۀ یعیشون لوعۀ الهزیمۀ المرّة، وهم فی طریقهم إلی دیارهم یجرّون أذیال الخیبۀ.

هنا نادی مناد من قبل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بأن توجّهوا إلی بنی قریظۀ قبل أن تصلّوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعۀ وتهیّئوا للمسیر إلی الحرب، وما کادت الشمس تغرب إلّاوکانت حصون بنی قریظۀ المحکمۀ محاصرة تماماً.

لقد استمرت هذه المحاصرة خمسۀ وعشرین یوماً، وأخیر سلّموا جمیعاً فقُتل بعضهم، واضیف إلی سجل إنتصارات المسلمین إنتصار عظیم آخر.

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۵۶

وقد أشارت الآیات- مورد البحث- إلی هذه الحادثۀ، وأوضحت أنّ هذه الحادثۀ کانت نعمۀ وموهبۀ إلهیۀ عظیمۀ، فتقول الآیۀ أوّلًا: «وَأَنزَلَ الَّذِینَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْکِتَابِ مِن صَیَاصِیهِمْ».

«الصیاصی»: جمع (صیصیۀ)، أی: القلعۀ المحکمۀ، ثم اطلقت علی کل وسیلۀ دفاعیۀ.

ویتّضح هنا أنّ الیهود کانوا قد بنوا قلاعهم وحصونهم إلی جانب المدینۀ فی نقطۀ مرتفعۀ.

ثم تضیف الآیۀ: «وَقَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ». وأخیراً بلغ أمرهم أنّکم «فَرِیقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِیقًا* وَأَوْرَثَکُمْ أَرْضَهُمْ وَدِیَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ».

والتعبیر عن هذه الغنائم ب «الإرث» لأنّ المسلمین لم یبذلوا کثیر جهد للحصول علیها، وسقطت فی أیدیهم بسهولۀ کل تلک الغنائم التی کانت حصیلۀ سنین طویلۀ من ظلم وجور الیهود واستثماراتهم فی المدینۀ.

وتقول الآیۀ فی النهایۀ: «وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوهَا».

وهذا إشارة إلی البساتین والأراضی الخاصّۀ ببنی قریظۀ، والتی لم یکن لأحد الحق فی دخولها، لأنّ الیهود کانوا یبذلون قصاری جهودهم فی سبیل الحفاظ علی أموالهم وحصرها فیما بینهم.

وأخیراً فإنّ التأکید علی قدرة اللَّه عزّ وجل فی آخر آیۀ: «وَکَانَ اللَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرًا». إشارة إلی أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالریاح والعواصف والجنود الغیبیین یوماً، وهزم ناصریهم- أی یهود بنی قریظۀ- بجیش الرعب والخوف یوماً آخر.

نتائج غزوة بنی قریظۀ: إنّ الإنتصار علی اولئک القوم الظالمین العنودین قد حمل معه نتائج مثمرة للمسلمین، ومن جملتها:

أ) تطهیر الجبهۀ الداخلیۀ للمدینۀ، واطمئنان المسلمین وتخلّصهم من جواسیس الیهود.

ب) سقوط آخر دعامۀ لمشرکی العرب فی المدینۀ، وقطع أملهم من إثارة القلاقل والفتن داخلیاً.

ج) تقویۀ بنیۀ المسلمین المالیۀ بواسطۀ غنائم هذه الغزوة.

د) فتح آفاق جدیدة للإنتصارات المستقبلیۀ، وخاصۀ فتح «خیبر».

ه) تثبیت مکانۀ الحکومۀ الإسلامیۀ وهیبتها فی نظر العدوّ والصدیق، فی داخل المدینۀ وخارجها.

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۵۷

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْوَاجِکَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیَاةَ الدُّنْیا وَ زِینَتَها فَتَعَالَیْنَ أُمَتِّعْکُنَّ وَ أُسَرِّحْکُنَّ سَرَاحاً جَمِیلًا (۲۸) وَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْکُنَّ أَجْراً عَظِیماً (۲۹) یا نِسَاءَ النَّبِیِّ مَنْ یَأْتِ مِنْکُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ یُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ

ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (۳۱)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم: لمّا رجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله من غزاة خيبر وأصاب كنز آل أبى الحقيق، قلن أزواجه أعطنا ما أصبت، فقال لهن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قسمته بين المسلمين على ما أمر اللّه فغضبن من ذلك وقلن لعلّك ترى أنّك إن طلقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا فانف اللّه لرسوله فأمره أن يعتزلهن فاعتزلهن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حضن وطهرن ثم أنزل اللّه هذه الآية وهى آية التخيير فقال «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ» إلى قوله «أَجْرًا عَظِيمًا» فقامت أم سلمة وهى أوّل من قامت وقالت قد اخترت اللّه ورسوله فقمن كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك فأنزل اللّه «تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ» الآية.

التّفسير

أمّا السعادة الخالدة أو زخارف الدنيا: لم يعزب عن أذهانكم أنّ الآيات الاولى من هذه السورة قد توّجت نساء النبى بتاج الفخر حيث سمّتهن ب «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ». ومن البديهى أنّ المناصب والمقامات الحساسة التى تبعث على الفخر تصاحبها مسؤوليات ثقيلة، فكيف يمكن أن تكون نساء النبى امّهات المؤمنين وقلوبهن وأفكارهن مشغولة بحبّ الدنيا ومغرياتها؟

وبغضّ النظر عن ذلك، فإنّ النبى صلى الله عليه و آله يجب أن لا يكون لوحده اسوةً للناس بحكم الآيات السابقة، بل يجب أن تكون عائلته اسوة لباقى العوائل أيضاً، ونساؤه قدوة للنساء المؤمنات حتى تقوم القيامة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸

فخاطبت الآية الاولى من الآيات أعلاه النبى صلى الله عليه و آله وقالت: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا».

«امتّعكن»: من مادة متعة، تعنى الهدية التى تلائم أحوال المرأة، والمراد هنا المقدار المناسب الذى يضاف على المهر، وإن لم يكن المهر معيّناً فإنّه يعطيها هدية لائقة بحالها بحيث ترضيها، ويتمّ طلاقها وفراقها فى جوّ هادىء مفعم بالحبّ.

«السراح»: فى الأصل من مادة «سرح» أى الشجرة التى لها ورق وثمر. والمراد من «السراح الجميل» فى الآية طلاق النساء وفراقهن فراقاً مقترناً بالإحسان، وليس فيه جبر وقهر.

وتضيف الآية التالية: «وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا».

وبناءً على هذا، فإنّ إظهار عشق اللّه وحبّه، والتعلق بالنبى واليوم الآخر لا يكفى لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العملية مع هذا الحبّ والعشق.

وبهذا فقد بيّن اللّه سبحانه تكليف نساء النبى وواجبهن فى أن يكنّ قدوة واسوة للمؤمنات على الدوام.

ومع أنّ المخاطب فى هذه الآية هو نساء النبى إلّاأنّ محتوى الآيات ونتيجتها تشمل الجميع، وخاصة من كان فى مقام قيادة الناس وإمامتهم واسوة لهم.

ثم تتناول الآية التالية بيان موقع نساء النبى أمام الأعمال الصالحة والطالحة، وكذلك مقامهنّ الممتاز، ومسؤولياتهنّ الضخمة بعبارات واضحة، فتقول: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

فأنتنّ تعشن فى بيت الوحى ومركز النبوّة، والآخرين ينظرون إليكن ويتخذون أعمالكن نموذجاً وقدوة لهم. بناء على هذا، فإنّ ذنبكن أعظم عند اللّه، لأنّ الثواب والعقاب يقوم على أساس المعرفة، ومعيار العلم، وكذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئة.

والمراد من «الفاحشة المبيّنة» الذنوب العلنية.

أمّا قوله عزّ وجل: «وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» فهو إشارة إلى أن لا تظنّن أنّ عـذابكن وعقابكن عسير على اللّه تعالى، وأنّ علاقتكن بالنبى صلى الله عليه و آله ستكون مانعة منه.

أمّا فى الطرف المقابل، فتقول الآية: «وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۹

«يقنت»: من القنوت، وهو يعنى الطاعـة المقرونـة بـالخضوع والأدب، والقرآن يريـد بهـذا التعـبير أن يـأمرهن بـأن يطعن اللّه ورسوله، ويراعين الأدب مع ذلك تماماً.

«الرزق الكريم» له معنى واسع يتضمّن كل المواهب المادية والمعنوية، وتفسيره بالجنة باعتبارها مجمعاً لكل هذه المواهب.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۳۲) وَ قَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتِينَ الزَّكَاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (۳۳) وَ اذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً (۳۴) هكذا يجب أن تكون نساء النبى: كان الكلام فى الآيات السابقـة عن موقع نساء النبى ومسؤولياتهن الخطيرة، ويستمرّ هـذا الحديث فى هذه الآيات، وتأمر الآيات نساء النبى صلى الله عليه و آله بسبعة أوامر مهمة؛ فيقول سبحانه فى مقدّمة قصيرة: «يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ». فإنّ انتسابكن إلى النبى قـد منحكن موقعاً خاصاً بحيث تقـدرن على أن تكنّ نموذجاً وقدوة لكل النساء، سواء كان ذلك فى مسير التقوى أم مسير المعصية.

وبعـد هـذه المقدمـة التى هيّأتهن لتقبّل المسؤوليات وتحمّلها، فإنّه تعالى أصـدر أوّل أمر فى مجال العفّة، فيقول: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ». بل تكلّمن عند تحدثكنّ بجدّ وباسلوب عادى.

إنّ التعبير ب «الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ» تعبير بليغ جدّاً، ومؤدّ لحقيقة أنّ الغريزة الجنسية عندما تكون فى حدود الإعتدال والمشروعية فهى عين السلامة، أمّا عندما تتعدّى هذا الحدّ فإنّها ستكون مرضاً قد يصل إلى حد الجنون.

ويبيّن الأمر الثانى فى نهاية الآية فيقول عزّ وجل: يجب عليكن التحدّث مع الآخرين بشكل لائق ومرضـى للّهورسوله، ومقترناً مع الحق والعدل: «وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۰

إنّ جملة «لَاتَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ» إشارة إلى طريقة التحدّث؛ وجملة: «وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا» إشارة إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضـمّن كـل ما قيل، إضافةً إلى أنّه ينفى كل قول باطل لا فائـدة فيه ولا هـدف من ورائه، وكـذلك ينفى المعصية وكل ما خالف الحق.

ثم يصدر الأمر الثالث فى باب رعاية العفة، فيقول: «وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى .

«قرن»: من مـادة «الوقـار»، أى الثقـل، وهو كنايـة عن التزام البيوت؛ و «التبرّج»: يعنى الظهور أمـام النـاس، وهو مـأخوذ من مادة (برج)، حيث يبدو ويظهر لأنظار الجميع.

والمراد من «الجاهلية» أنّهـا الجاهليـة التى كـانت فى زمـان النبى صـلى الله عليه و آله، ولم تكن النسـاء محجّبات حينها- كما ورد فى التواريخ- وكنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهن مع إظهار نحورهن وجزء من صدورهن وأقراطهن وقد منع القرآن الكريم أزواج النبى من مثل هذه الأعمال.

ولا شك أنّ هذا الحكم عام، والتركيز على نساء النبى من باب التأكيد الأشدّ.

وأخيراً يصدر الأمر الرابع والخامس والسادس فيقول سبحانه: «وَأَقِمْنَ الصَّلوةَ وَءَاتِينَ الزَّكوةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

إنّ هذه الأوامر الثلاثة تشير إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست مختصة بنساء النبى، بل هى للجميع، وإن أكّدت عليهن.

ويضيف اللَّه سبحانه فى نهاية الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكَمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا».

إنّ التعبير ب (إنّما)- والذى يدل على الحصر عادةً- دليل على أنّ هذه المنقبة خاصة بأهل بيت النبى صلى الله عليه و آله؛ وجملة (يريد) إشارة إلى إرادة اللَّه التكوينية.

وبتعبير آخر: فإنّ المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية وأعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة والاختيار فى إتيانها.

«الرجس»: تعنى الشىء القذر، سواء كان نجساً وقذراً من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها؛ و «التطهير»: الذى يعنى إزالة النجس، هو تأكيد على مسألة إذهاب الرجس ونفى السيئات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۱

فإنّ الرّوايات الكثيرة جدّاً الواردة فى كتب الفريقين تنفى شمول الآية لكل أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله، وتقول: إنّ المخاطبين فى الآية والمقصود بأهل بيت النبى هم خمسة أفراد فقط، وهم: محمّد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وبيّنت الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- سابع وظيفة وآخرها من وظائف نساء النبى، ونبّهتهن على ضرورة استغلال أفضل الفرص التى تتاح لهن فى سبيل الإحاطة بحقائق الإسلام والعلم بها وبأبعادها، فتقول: «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ».

وفيما هو الفرق بين «آيات اللَّه» و «الحكمة»؟ قال بعض المفسرين: إنّ كليهما إشارة إلى القرآن، غاية ما فى الأمر أنّ التعبير ب (الآيات) يبيّن الجانب الإعجازى للقرآن، والتعبير ب (الحكمة) يتحدث عن المحتوى العميق والعلم المخفى فيه.

وأخيراً تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا». وهى إشارة إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال وأخفاها، ويعلم نيّاتكم تماماً، وهو خبير بأسراركم الدفينة فى صدوركم.

جاهلية القرن العشرين: مرّت الإشارة إلى أنّ جمعاً من المفسرين تورّطوا فى تفسير (الجاهلية الاولى) وكأنّهم لم يقدروا أن يصدّقوا ظهور جاهلية اخرى فى العالم بعد ظهور الإسلام، وأنّ جاهلية العرب قبل الإسلام ضئيلة تجاه الجاهلية الجديدة، إلّاأنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهليّة القرن العشرين المرعبة، ويجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازية.

إذا كان العرب فى زمان الجاهلية يغيرون ويحاربون، وإذا كان سوق عكاظ- مثلًا- ساحة لسفك الدماء لأسباب تافهة عدّة مرّات، وقتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت فى جاهلية عصرنا حروب ذهب ضحيّتها عشرون مليون إنسان، وجرح وتعوّق أكثر من هذا العدد.

وإذا كانت النساء «تتبرّج» فى زمن الجاهلية ويلقين خمرهنّ عن رؤوسهن بحيث كان يظهر جزء من صدورهن ونحورهن وقلائدهن وأقراطهن، ففى عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادى العراة- ونموذجها مشهور فى بريطانيا.

وإذا كانت فى الجاهلية «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاماً فوق بيوتهن ليدعين الناس إلى أنفسهن، ففى جاهلية قرننا اناس يطرحون اموراً ومطالب فى هذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۲

المجال عبر صحف خاصة، يندى لها الجبين، ولجاهلية العرب مئة مرتبة من الشرف على هذه الجاهلية. إنّ ما قلناه كان جانباً من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياة الذين يبتعدون عن اللَّه تعالى، فإنّهم وإن امتلكوا آلاف الجامعات والمراكز العلمية والعلماء المعروفين، فهم غارقون فى وحل الفساد ومستنقع الرذيلة، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلمية وعلماءها فى خدمة هذه الفجائع والمفاسد أحياناً.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ وَ الْخَاشِعِينَ وَ

الْخَاشِعَاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۳۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: لمّا رجعت أسماء بنت عمیس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبی طالب، دخلت علی نساء رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقالت: هل نزل فینا شیء من القرآن؟ قلن: لا.

فأتت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقالت: یا رسول اللَّه! إنّ النساء لفی خیبة وخسار. فقال: «وممّ ذلک»؟ قالت: لأنّهن لا یذکرن بخیر کما یذکر الرجال. فأنزل اللَّه تعالی هذه الآیة.

التّفسیر

شخصیة المرأة ومکانتها فی الإسلام: بعد البحوث التی ذکرت فی الآیات السابقة حول واجبات أزواج النبی صلی الله علیه و آله، فقد ورد فی هذه الآیة کلام جامع عمیق المحتوی فی شأن کل النساء والرجال وصفاتهم، وبعد أن ذکرت عشر صفات من صفاتهم العقائدیة والأخلاقیة والعملیة، بیّنت الثواب العظیم المعدّ لهم فی نهایتها. تقول الآیة: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ». أی المطیعین لأوامر اللَّه والمطیعات.

وهو إشارة إلی أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذی یجعل الإنسان فی صف المسلمین، ویصبح مشمولًا بأحکامهم، إلّاأنّ «الإیمان» هو التصدیق بالقلب والجنان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۳

«قانت»: من مادة «القنوت»، وهی الطاعة المقترنة بالخضوع، وهذه إشارة إلی الجوانب العملیة للإیمان وآثاره.

ثم تطرقت إلی أحد أهمّ صفات المؤمنین الحقیقیین، أی حفظ اللسان فتقول:

«وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ».

ولمّا کان الصبر والتحمل والصلابة أمام المشاکل والعقبات هو أساس الإیمان، ودوره ومنزلته فی معنویات الإنسان بمنزلة الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآیة بصفتهم الخامسة، فقالت: «وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ».

ونعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقیة هو الکبر والغرور وحبّ الجاه، والنقطة التی تقع فی مقابله هی «الخشوع»، لذلک کانت الصفة السادسة: «وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ».

وإذا تجاوزنا حبّ الجاه، فإنّ حبّ المال أیضاً آفة کبری، وعبادته والتعلّق به ذلّة خطیرة مرّة، ویقابله الإنفاق ومساعدة المحتاجین، لذلک کانت صفتهم السابعة: «وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ».

قلنا: إنّ ثلاثة أشیاء إذا تخلّص الإنسان من شرّها، فإنّه سیبقی فی مأمن من کثیر من الآفات والشرور الأخلاقیة، وهی: اللسان والبطن والشهوة الجنسیة، وقد اشیر إلی الأوّل فی الصفة الرابعة، أمّا الشیء الثانی والثالث فقد أشارت إلیهما الآیة فی الصفتین الثامنة والتاسعة، فقالت: «وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ».

وأخیراً تطرقت الآیة إلی الصفة العاشرة التی یرتبط بها الإستمرار فی کل الصفات السابقة والمحافظة علیها، فقالت: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

إنّ هؤلاء یجب أن یکونوا مع اللَّه ویذکروه فی کل حال، وفی کل الظروف، وأن یزیحوا عن قلوبهم حجب الغفلة والجهل، ویبعدوا عن أنفسهم همزات الشیاطین ووساوسهم، وإذا ما بدرت منهم عثرة فإنّهم یهبون لجبرانها فی الحال لئلّا یحیدوا عن الصراط المستقیم.

ثم تبیّن الآیة فی النهایة الأجر الجزیل لهذه الفئة من الرجال والنساء الذین یتمتعون بهذه الخصائص العشرة بأنّهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

فإنّه تعالى قد غسل ذنوبهم التى كانت سبباً فى تلوّث أرواحهم، بماء المغفرة، ثم كتب لهم الثواب العظيم الذى لا يعرف مقداره إلّاهو.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۴

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً (۳۶) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (۳۷) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى زينب بنت جحش الأسدية وكانت بنت اميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فخطبها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على مولاه زيد بن حارثة، ورأت أنّه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنّه يخطبها على زيد، أبت وأنكرت وقالت: أنا ابنة عمتك فلم أكن لأفعل. وكذلك قال أخوها عبداللَّه بن جحش فنزل: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ» الآية. يعنى عبداللَّه بن جحش واخته زينب.

فلما نزلت الآية، قالت: رضيت يا رسول اللَّه وجعلت أمرها بيد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكذلك أخوها فأنكحها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله زيداً.

التّفسير

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم، ويجب أن يكون تسليماً لأمر اللَّه تعالى بدون قيد أو شرط، وقد ورد هذا المعنى فى آيات مختلفة من القرآن الكريم، وبعبارات مختلفة، ومن جملتها الآية أعلاه، والتى تقول: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».

بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعاً لإرادة اللَّه تعالى، كما أنّ كل وجودهم من الشعر حتى أخمص القدمين مرتبط به ومذعن له. ولذلك أشارت الآية إلى هذه المسألة فى نهايتها، حيث تقول: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَلًا مُّبِينًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۵

ثم تناولت الآية التالية قصة «زيد» وزوجته «زينب» المعروفة، والتى هى إحدى المسائل الحساسة فى حياة النبى صلى الله عليه و آله، ولها إرتباط بمسألة أزواج النبى التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

والمراد من نعمة اللَّه تعالى هى نعمة الهداية والإيمان التى منحها لزيد بن حارثة، ومن نعمة النبى صلى الله عليه و آله أنّه كان قد أعتقه وكان يعامله كولده الحبيب العزيز.

ويستفاد من هذه الآية أنّ شجاراً قد وقع بين زيد وزينب، وقد استمرّ هذا الشجار حتى بلغ أعتاب الطلاق، ويستفاد أنّ النبى كان ينصحه دائماً ويمنعه من الطلاق.

ثم تضيف الآية: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَهُ».

إنّ مسألة خشية اللَّه سبحانه توحى بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعى، يجب عنده طرح كل الاعتبارات الشخصية جانباً من أجل اللَّه تعالى ليتحقق هدف مقدس من أهداف الرسالة، حتى وإن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التى يلقيها جماعة المنافقين فى اتّهاماتهم للنبى. لهذا تقول الآية فى متابعة المسألة: إنّ زيداً لمّا أنهى حاجته منها وطلّقها زوّجناها لك: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا

زَوَّجْنَاكَهَا لِكَیْ لَایَکُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی أَزْوَاجِ أَدْعِیَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا». وكـان لابـدّ أن يتمّ هـذا الأمر: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

بناءً على هـذا، فإنّ هـذه المسألـة كانت مسألة أخلاقية وإنسانية، وكذلك كانت وسيلة مؤثرة لكسر سنّتين جاهليتين خاطئتين، وهما: الإقتران بمطلّقة الإبن المتبنّى والزواج من مطلّقة عبد معتق.

«الأدعياء»: جمع «دعى»، أى الإبن المتبنّى؛ و «الوطر» هو الحاجة المهمة.

والتعبير ب «زَوَّجْنَاكَهَا» دليل على أنّ هذا الزواج كان زواجاً بأمر اللَّه.

وتقول الآيـة الأخيرة فى تكميل المباحث السابقة: «مَّا كَانَ عَلَى النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیمَا فَرَضَ اللَّهُ». فحيث يأمره اللَّه سبحانه لا تجوز المداهنة فى مقابل أمره تعالى، ويجب تنفيذه بدون أىّ تردّد.

وأساساً فإنّ مخالفة السنن والأعراف، واقتلاع الآداب والعادات الخرافية وغير

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۶

الإنسانية يقترن عادةً بالضجيج والغوغاء والصخب، وينبغى أن لا يهتمّ الأنبياء بهذا الضجيج والصخب مطلقاً، ولذلك تعقب الجملة التالية فتقول: «سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِن قَبْلُ». فلست الوحيد المبتلى بهذه المشكلة، بل إنّ الأنبياء جميعاً كانوا يعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سنن مجتمعاتهم، وعند سعيهم لإجتثاث اصول الأعراف الفاسدة منها.

ويقول اللَّه سبحانه فى نهاية الآية تثبيتاً لاتّباع الحزم فى مثل هذه المسائل الأساسية:

«وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا».

إنّ التعبير ب «قَدَرًا مَّقْدُورًا» قـد يكون إشارة إلى كون الأمر الإلهى حتمياً، ويمكن أن يكون دالًّا على رعايـة الحكمة والمصلحة فيه، إلّاأنّ الأنسب فى مورد الآية أن يراد منه كلا المعنيين.

الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لَا یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ کَفَى بِاللَّهِ حَسِیباً (۳۹) من هم المبلّغون الحقيقيون: تشير الآية مورد البحث، ومناسبة للبحث الذى مرّ حول الأنبياء السابقين فى آخر آيـة من الآيات السابقـة، إلى أحـد أهم برامج الأنبياء العامـة، فتقول: «الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَیَخْشَوْنَهُ وَلَا یَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ».

وكذلك الحال بالنسبة إليك، فينبغى أن لا تخش أحداً فى تبليغ رسالات اللَّه.

إنّ عمل الأنبياء عليهم السلام فى كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن والأعراف عادةً، ولو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف وتردّد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون فى أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم وثبات، ويستوعبوا كلمات المسيئين الجارحة غير المتزنـة، ويستمرّوا فى طريقهم دون أن يهتّموا بإصطناع الأجواء ضدهم، وضجيج العوام، وتآمر الفاسدين والمفسدين وتواطئهم، لأنّ كل الحسابات بيد اللَّه سبحانه، ولذلك تقول الآية فى النهاية: «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِیبًا».

إنّه يحسب إيثار الأنبياء وتضحياتهم فى هـذا الطريق ويجزيهم عليهـا، كما يحفظ كلمات الأعـداء البذيئة وثرثرتهم ليحاسبهم عليها ويجازيهم.

إنّ الآيـة المـذكورة دليل واضح على أنّ الحزم والإخلاص وعدم الخوف من أى أحد إلّا اللَّه تعالى، شرط أساسى فى التقدم والرقى فى مجال الإعلام والتبليغ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۷

مَا کَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِیِّینَ وَ کَانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۴۰) مسألة الخاتمية: هذه الآية هى آخر ما بيّنه اللَّه سبحانه فيما يتعلق بمسألـة زواج النبى صلى الله عليه و آله بمطلّقة زيد لكسر عرف جاهلى خاطىء، وتبيّن فى نهايتها حقيقـة مهمـة اخرى- وهى مسألـة الخاتمية- بمناسبـة خاصة. تقول أوّلًا: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ». لا زيد ولا غيره، وإذا ما

أطلقوا عليه يوماً إنّه «ابن محمّد» فإنّما هو مجرد عادة وعرف ليس إلّا، وما إن جاء الإسلام حتى اجتثّت جذوره، وليس هو رابطة طبيعية عائلية.

ثم تضيف: بأنّ علاقة النبى صلى الله عليه و آله معكم إنّما هى من جهة الرسالة والخاتمية فقط: «وَلكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيينَ». وبهذا قطع صدر الآية الإرتباط والعلاقة النسبية بشكل تام وقطعى، وأثبت ذيلها العلاقة المعنوية الناشئة من الرسالة والخاتمية، ومن هنا يتّضح ترابط صدر الآية وذيلها.

ولا- شك أنّ اللّه العليم الخبير قد وضع تحت تصرفه كل ما كان لازماً فى هذا الباب، من الاصول والفروع، والكليات والجزئيات فى جميع المجالات، ولذلك يقول سبحانه فى نهاية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۴۲) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴۳) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴) تحية اللّه والملائكة فرج للمؤمنين: لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن مسؤوليات نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وواجباته الثقيلة الملقاة على عاتقه، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن جانباً من وظائف المؤمنين من أجل تهيئة الأرضية اللازمة لهذا التبليغ، وتوسعة أطرافه فى جميع الأبعاد، فوجّهت الخطاب إليهم جميعاً وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا». ونزّهوه صباحاً ومساءاً «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

لما كانت عوامل الغفلة فى الحياة المادية كثيرة جدّاً، وسهام وسوسة الشياطين ترمى من كل جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلّابذكر اللّه الكثير.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۸

إنّ «الذكر الكثير»- بالمعنى الواقعى للكلمة- يعنى التوجه إلى اللّه سبحانه بكل الوجود، لا بلقلقة اللسان وحسب.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أكثر ذكر اللّه أظلّه اللّه فى جنته».

والآية التالية بمثابة نتيجة وعلّة غائيّة للتسبيح فى الواقع، فهى تقول: «هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ». أى: من ظلمات الشرك والكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم والتقوى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا». وبسبب هذه الرحمة كتب على نفسه هداية البشر وإرشادهم، وأمر ملائكته أن تعينهم فى ذلك.

«يصلّى»: من مادة «صلاة» وهى هنا تعنى الرعاية والعناية الخاصة، وهذه العناية بالنسبة للّهتعنى نزول الرحمة، وبالنسبة للملائكة تعنى الاستغفار وطلب الرحمة.

هذه هى رحمة اللّه الخاصة التى تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام والشهوات والوساوس الشيطانية، وتهديهم إلى نور اليقين والإطمئنان والسيطرة على النفس، ولولا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق الملىء بالمنعطفات والعراقيل لا يكون سالكاً.

وتجسّد الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين وثوابهم بأروع تجسيد وأقصر عبارة، فتقول: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلمٌ».

«التحية»: من مادة «حياة»، وهى تعنى الدعاء لسلامة وحياة اخرى.

هذا السلام يعنى السلامة من العذاب، ومن كل أنواع الألم والعذاب والمشقة، سلام ممتزج بالهدوء والإطمئنان.

بعد هذه التحية، التى ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت: «وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵) وَ دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً (۴۷) وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ دَعْ أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۴۸) السراج المنير: الخطاب فى هذه الآيات موجّه إلى النبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ نتيجته لكل المؤمنين، وبذلك فإنّها تكمل الآيات السابقة التى كانت تبحث فى بعض وظائف المؤمنين وواجباتهم.

لقد جاءت فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات الأربع «خمس صفات» للنبى صلى الله عليه و آله وجاء

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۶۹

فى الآيتين الاخريين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، وتكمل إحداها الاخرى.

تقول الآية أوّلًا: «إِنَّا أَرْسَلْنَاکَ شَاهِدًا». فهو من جانب شاهد على أعمال امّته، لأنّه يرى أعمالهم.

وهو من جانب آخر شاهد على الأنبياء الماضين الذين كانوا شهوداً على اممهم: «فَکَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِکَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيدًا» «۱».

ومن جهة ثالثة فإنّ وجودك بما لك من الصفات والأخلاق والبرامج والتعليمات البنّاءة، إضافةً إلى تاريخك المشرق وأعمالك المشرّفة، شاهد على أحقّية دينك، وشاهد على عظمة اللّه وقدرته.

ثم تطرقت الآية إلى الصفتين الثانية والثالثة فقالت: «وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». فهو مبشّر للمحسنين بثواب اللّه اللامتناهى ... بالسلامة والسعادة الخالدة ... بالظفر والتوفيق الملىء بالفخر والإعتزاز ... ونذير للكافرين والمنافقين من عذاب اللّه الأليم ... من خسران كل رأسمال الوجود، ومن السقوط فى شراك التعاسة فى الدنيا والآخرة.

وأشارت الآية التالية إلى الصفة الرّابعة والخامسة، فقالت: «وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا».

إنّ كون النبى صلى الله عليه و آله (سراجاً منيراً) إشارة إلى المعجزات وأدلة أحقية دعوة الرسول، وعلامة صدقها، فهو سراج منير شاهد بنفسه على نفسه.

إنّ وجود النبى صلى الله عليه و آله أساس الهدوء والإطمئنان، ونمو روح الإيمان والأخلاق، والخلاصة:

أساس الحياة والحركة، وتأريخ حياته شاهد حى على هذا الموضوع.

وفى الآيتين الاخريين من الآيات مورد البحث بياناً لخمسة واجبات من واجبات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فتقول أوّلًا: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا کَبِيرًا». وهى إشارة إلى أنّ مسألة تبشير النبى صلى الله عليه و آله لا يحدّ بالثواب الإلهى بمقدار أعمال المؤمنين الصالحة، بل إنّ اللّه سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادلة بين العمل والجزاء تماماً.

ثم تناولت الواجب الثانى والثالث، فقالت: «وَلَا تُطِعِ الْکَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

لا شك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم يطع الكافرين والمنافقين مطلقاً، إلّاأنّ هذا الموضوع من

---

(۱) سورة النّساء/ ۴۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۰

الأهمية بمكان، ولذلك أكّدت الآية على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النبى صلى الله عليه و آله والتحذير والقدوة للآخرين. ثم تقول فى الأمر الرابع والخامس: «وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَکَّلْ عَلَى اللَّهِ وَکَفَى بِاللَّهِ وَکِيلًا».

إنّ هذا الجزء من الآية يوحى بأنّهم قد وضعوا النبى صلى الله عليه و آله تحت ضغط شديد لحمله على الإستسلام، واستخدموا ضدّه وضدّ أصحابه كل أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان والكلام الفاحش والإهانة، أم عن طريق الأذى الجسمى، أو عن طريق الحصار الإقتصادى.

يقول التاريخ: إنّ النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشمّ أمام أنواع الأذى، ولم يقبلوا عار الإستسلام والهزيمة قطّ، وأخيراً انتصروا فى حركتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَکُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا (۴۹) جانب من أحكام الطلاق: إنّ آيات هذه السورة- الأحزاب- جاءت على شكل مجموعات مختلفة، والخطاب فى بعضها موجّه إلى النبى صلى الله عليه و آله، وفى بعضها الآخر إلى كل المؤمنين، وهذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان مراداً

بهذه التعلیمات، کما أنّ عموم المؤمنین یرادون بها أیضاً. تقول الآیة: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا إِذَا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا».

لقد بیّن اللّه سبحانه هنا حکماً استثنائیاً من حکم عدة النساء المطلّقات، وهو أنّ الطلاق إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدّة، ومن هذا التعبیر یفهم أنّ حکم العدة کان قد بُیّن قبل هذه الآیة.

ثم تتطرق الآیة إلی حکم آخر من أحکام النساء اللاتی یطلّقن قبل المباشرة الجنسیة- والذی سبقت الإشارة إلیه فی سورة البقرة أیضاً- فتقول: «فَمَتِّعُوهُنَّ». أی اعطوهن هدیة مناسبة.

ولا شک أنّ تقدیم هدیة مناسبة إلی المرأة یکون واجباً فی حالة عدم تعیین المهر من قبل.

أمّا مقدار هذه الهدیة، فقد بیّنه القرآن المجید فی الآیة (۲۳۶) من سورة البقرة إجمالًا بقوله: «مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ». وکذلک قال فی نفس تلک الآیة: «عَلَی الْمُوسِعِ قَدَرُهُو وَعَلَی الْمُقْتِرِ قَدَرُهُو».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۱

وآخر حکم فی الآیة مورد البحث هو: «وَسَرِّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِیلًا».

«السراح الجمیل» هو الطلاق المقترن بالمحبّة والإحترام، وترک کل خشونة وظلم وجور واحتقار.

یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَکَ أَزْوَاجَکَ اللَّاتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ وَ مَا مَلَکَتْ یَمِینُکَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَیْکَ وَ بَنَاتِ عَمِّکَ وَ بَنَاتِ عَمَّاتِکَ وَ بَنَاتِ خَالِکَ وَ بَنَاتِ خَالاتِکَ اللَّاتِی هَاجَرْنَ مَعَکَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِیِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِیُّ أَنْ یَسْتَنْکِحَهَا خَالِصَةً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَیْهِمْ فِی أَزْوَاجِهِمْ وَ مَا مَلَکَتْ أَیْمَانُهُمْ لِکَیْلَا یَکُونَ عَلَیْکَ حَرَجٌ وَ کَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۵۰)

یمکنک الزواج من هذه النسوة: بعد ذکر جانب من الأحکام المتعلقة بطلاق النساء، وجّهت الخطاب هنا إلی النبی صلی الله علیه و آله، وفصّلت الموارد السبعة التی یجوز للنبی الزواج فیها من تلک النسوة:

۱- فقالت أوّلًا: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَکَ أَزْوَاجَکَ الَّتِی ءَاتَیْتَ أُجُورَهُنَّ». والمراد من هؤلاء النساء- بقرینة الجمل التالیة- النساء اللاتی لم یکنّ یرتبطن بالنبی صلی الله علیه و آله برابطة قرابة وقد تزوّجنه، وربّما کانت مسألة دفع المهر لهذا السبب، لأنّ العرف المتّبع آنذاک هو أنّهم کانوا یدفعون المهر نقداً عند زواجهم من الأجنبیات، إضافةً إلی أفضلیة التعجیل فی هذا الدفع، وخاصة إذا کانت الزوجة بحاجة إلیه إلّاأنّ هذا الأمر لیس من الواجبات علی أی حال، إذ یمکن أن یبقی المهر دیناً فی ذمة الزوج إذا ما اتّفق الطرفان علی ذلک.

۲- «وَمَا مَلَکَتْ یَمِینُکَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَیْکَ».

«أفاء»: من مادة «الفیء»، وتقال للأموال التی یحصل علیها الإنسان بدون جهد ومشقة، ولذلک یطلق (الفیء) علی الغنائم الحربیة، وکذلک الأنفال.

۳- «وَبَنَاتِ عَمِّکَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِکَ وَبَنَاتِ خَالِکَ وَبَنَاتِ خَالَتِکَ الَّتِی هَاجَرْنَ مَعَکَ».

إنّ التحدید بهذه الفئات الأربع واضح، إلّاأنّ شرط الهجرة من أجل أنّها کانت دلیلًا علی الإیمان فی ذلک الیوم، وعدم الهجرة دلیل علی الکفر، أو لأنّ الهجرة تمنحهنّ امتیازاً أکبر وفخراً أعظم، والهدف من الآیة هو بیان النساء الفاضلات المؤهّلات لأن یصبحن زوجات للنبی صلی الله علیه و آله.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۲

۴- «وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِیّ من دون مهر إِنْ أَرَادَ النَّبِیُّ أَن یَسْتَنکِحَهَا خَالِصَةً لَّکَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِینَ». أی أنّ هذا الحکم خاص للنبی صلی الله علیه و آله ولا یشمل سائر المؤمنین «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَیْهِمْ فِی أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَکَتْ أَیْمَانُهُمْ».

وبناءً علی هذا، فإذا کنّا قد حدّدنا بعض المسائل فیما یتعلق بالزواج من هؤلاء النسوة، فقد کان ذلک استناداً إلی مصلحة حاکمة فی

حياتك وحياتهن، ولم يكن أيّ من هذه الأحكام والمقررات اعتباطياً وبدون حساب.

ثم تضيف الآية: «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ». وبالتالى ستكون قادراً على أداء المسؤوليات الملقاة على عاتقك فى القيام بهذا الواجب «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إنّ الجملة الأخيرة فى الآية أعلاه إشارة فى الواقع إلى فلسفة هذه الأحكام الخاصة بنبينا الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث تقول: إنّ للنبى ظروفاً لا يعيشها الآخرون، وهذا التفاوت فى الظروف أصبح سبباً للتفاوت فى الأحكام.

إنّ الهدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل والصعوبات من كاهل النبى صلى الله عليه و آله.

تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لَا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱)

سبب النّزول

نزلت الآية حين غار بعض امّهات المؤمنين على النبى صلى الله عليه و آله وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهراً حتى نزلت آية التخيير، فأمره اللّه تعالى أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة ...

وعلى أنّه يؤوى من يشاء منهن ويرجى من يشاء منهن ويرضين به، قسم لهنّ، أو لم يقسم، أو قسم لبعضهنّ ولم يقسم لبعضهن أو فضل بعضهن على بعض فى النفقة والقسمة والعشره أو سوّى بينهن، والأمر فى ذلك إليه يفعل ما يشاء وهذه من خصائصه صلى الله عليه و آله، فرضين بذلك كله واخترنه على هذا الشرط.

التّفسير

حل مشكلة اخرى فى حياة النبى: إنّ قائداً ربّانياً عظيماً كالنبى صلى الله عليه و آله خاصة يجب أن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۳

يكون له هدوء نسبى فى حياته الداخلية ليقوى على التفرغ لحل سيل المشاكل التى أحاطت به من كل جانب.

إنّ الإختلاف بين زوجات النبى، والمنافسة النسوية المعروفة بينهن، قد أثار فى الوقت نفسه عاصفة من الإضطراب داخل بيت النبى ممّا شغل فكره وزاد فى همّه.

هنا منح اللّه سبحانه نبيّه إحدى الخصائص الاخرى، وأنهى هذه الحوادث والأخذ والعطاء فى الجدل إلى الأبد، وأراح فكر النبى صلى الله عليه و آله من هذه الجهة، وهدأ خاطره وروعه، فقال سبحانه فى هذه الآية: «تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ».

«ترجى»: من «الإرجاء»، أى: التأخير؛ و «تؤوى»، من «الإيواء» ويعنى إستضافة شخص فى بيتك.

ونعلم أنّ أحكام الإسلام فى شأن الزوجات المتعددة تقضى بأن يقسّم الزوج أوقاته بينهن بصورة عادلة، ويعبّرون عن هذا الموضوع فى الكتب الفقهية الإسلامية ب «حق القسْم».

فكانت إحدى مختصات النبى صلى الله عليه و آله هى سقوط رعاية حق القسم منه بحكم الآية أعلاه، وبسقوط هذا الواجب عنه فقد كان قادراً على أن يقسّم أوقاته كيف يشاء، غير أنّه صلى الله عليه و آله كان يراعى تحقيق العدالة ما أمكن رغم هذه الظروف.

ثم تضيف الآية: وعندما ترغب عن إحداهن وتعتزلها، ثم ترغب فيها فلا تثريب عليك: «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ».

وبهذا فليس الخيار بيدك فى البداية وحسب، بل إنّه بيدك حتى فى الأثناء أيضاً، ولذلك يضيف سبحانه: «ذلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ».

وذلك أوّلًا: لأنّ هذا الحكم عام يشملهنّ جميعاً ولا يتفاوتن فيه، وثانياً: إنّ الحكم الذى يشرّع من جانب اللّه سبحانه إنّما يشرّع لمصلحة مهمة. وبناءً على هذا فيجب الإذعان له برغبة ورضا.

وأخيراً ينهى المطلب بهذه الجملة: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا».

لا يستعجل فى إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل إنّ اللَّه يعلم بأى حكم قد رضيتم، وله أذعنتم بقلوبكم، وعن أى حكم لم ترضوا.

وهو سبحانه يعلم أيّاً من أزواجكم تحبّون أكثر، ومن منهن تحظى باهتمام أقل، ويعلم كيف تراعون حكمه وتنفّذوه مع هذا الإختلاف فى الميول والرغبات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۴

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَ لَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲) حكم مهم آخر فيما يتعلق بأزواج النبى: لقد بيّن اللَّه سبحانه فى هذه الآية حكماً آخر من الأحكام المتعلقة بزوجات النبى، فقال عزّ وجل: «لَّايَحِلُّ لَكَ النّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ». فالآية منعت الرسول من الزواج الجديد إلّاالإماء والجوارى: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ رَّقِيبًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴)

أسباب النّزول

نزلت آية الحجاب لما بنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بزينب بنت جحش، وأولم عليها. قال أنس: أولم عليها بتمر وسويق، وذبح شاة، وبعثت إليه امى ام سليم بحَيْس فى تور من حجارة، فأمرنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فدعوتهم، فجعل القوم يجيئون ويأكلون ويخرجون. ثم يجىء القوم فيأكلون ويخرجون. قلت: يا نبى اللَّه! قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه؟ فقال: ارفعوا طعامكم فرفعوا طعامهم، وخرج القوم، وبقى ثلاثة نفر يتحدثون فى البيت، فأطالوه المكث. فقام صلى الله عليه و آله وقمت معه، لكى يخرجوا. فمشى حتى بلغ حجرة عائشة.

ثم ظن أنّهم قد خرجوا، فرفع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية.

قيل: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة وكانت معهم، فكره صلى الله عليه و آله ذلك، فنزلت آية الحجاب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۵

وقيل: إنّ رجلين قالا: أينكح محمّد نساءنا ولا ننكح نساءه واللَّه لئن مات لنكحنا نساءه فنزلت الآية أعلاه وحرّمت الزواج بنساء النبى من بعده مطلقاً، وأنهت هذه المؤامرة.

التّفسير

مرّة اخرى يوجّه الخطاب إلى المؤمنين، لتبيّن الآية جانباً آخر من أحكام الإسلام، وخاصة ما كان مرتبطاً بآداب معاشرة النبى صلى الله عليه و آله وبيت النبوة، فتقول أوّلًا: لا ينبغى لكم دخول بيوت النبى إلّاإذا دعيتم إلى طعام واذن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا فى الوقت المقرر، لا أن تأتوا قبل ذلك بفترة وتجلسون فى انتظار وقت الغذاء، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاهُ» «۱».

ومن المسلم أنّ هذا الحكم لا يختص ببيت النبى صلى الله عليه و آله، إذ ينبغى أن لا تدخل دار أى إنسان بدون إذنه كما نقرأ- فى الكافى- فى أحوال النبى صلى الله عليه و آله أنّه عندما كان يريد دخول بيت إبنته فاطمة عليها السلام كان يستأذن، وكان معه جابر بن عبداللَّه يوماً، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه.

إضافةً إلى أنّهم إذا دُعوا إلى طعام فينبغى أن يكونوا عارفين بالوقت، لئلّا يوقعوا صاحب البيت فى جهد وإحراج فى غير مكانه.

ثم تناولت الحكم الثانى فقالت: «وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا».

وتقول فى الحكم الثالث: «وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ» فلا تجلسوا حلقاً تتحدثون بعد تناول الطعام، سواء كان ذلك فى بيت النبى، أم فى بيت أى صاحب دعوة.

طبعاً، قد يرغب المضيفون فى مثل هذه الحلقات والمجالس، فهذه الحالة مستثناة.

ثم تبيّن الآية علة هذا الحكم فتقول: «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ».

من المسلّم أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يكن يتردد لحظة، ولا يخشى شيئاً، أو يستحيى من شيء فى بيان الحقّ فى الموارد التى لم يكن لها بعد شخصى وخاصّ، إلّاأنّ بيان الحق إذا كان يعود على القائل نفسه ليس بالأمر الجميل الحسن، أمّا تبيانه من قبل الآخرين فانّه رائع ومستحسن، ومورد الآية من هذا القبيل أيضاً.

---

(۱) «إناه»: من مادة «أنّى - يأنى» أى حلول وقت الشيء، وتعنى هنا تهيئة الطعام للتناول.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۶

ثم تبيّن الآية الحكم الرابع فى باب الحجاب، فتقول: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ».

ومن الواضح أنّ جعل نساء النبى عرضة لأنظار الناس- وإن كنّ يرتدين الحجاب الإسلامى- لم يكن بالأمر الحسن، ولذلك صدر الأمر إلى الناس إذا سألتم أزواج النبى صلى الله عليه و آله شيئاً تحتاجون إليه، فاسألوهنّ من وراء الستر.

ولذلك بيّن القرآن فلسفة هذا الحكم فقال: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ».

ثم تبيّن الآية الحكم الخامس بأنّه: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ». فبالرغم من أنّ هذا العمل قد ذكر فى نفس الآية، ولكن معنى الآية فهو يشمل كل نوع من الأذى.

وأخيراً تبيّن الآية الحكم السادس والأخير فى مجال حرمة الزواج بنساء النبى صلى الله عليه و آله من بعده، فقالت: «وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا».

وحذّرت الآية الثانية الناس بشدة، فقالت: «إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». فلا تظنّوا أنّ اللّه سبحانه لا يعلم ما خططتم له فى سبيل ايذاء النبى صلى الله عليه و آله سواء ما ذكرتموه، أو الذى أضمرتموه، فإنّه تعالى يعلم كل ذلك جيداً، ويعامل كل إنسان بما يناسب عمله.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَ لَا أَبْنَائِهِنَّ وَ لَا إِخْوَانِهِنَّ وَ لَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَ لَا نِسَائِهِنَّ وَ لَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۵۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لما نزلت آية الحجاب قال: الآباء والأبناء والأقارب يا رسول اللّه، ونحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب؟ فأنزل اللّه تعالى قوله: «لَّاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ» الآية. أن يروهن ولا يحتجبن عنهم.

التّفسير

الموارد المستثناة من قانون الحجاب: لما كان الحكم الذى ورد فى الآية السابقة حول حجاب نساء النبى مطلقاً، ويمكن أن يوهم هذا الإطلاق بأنّ المحارم مكلفون بتنفيذه أيضاً، وأن يحدّثوهن من وراء حجاب كالأجانب، فقد نزلت هذه الآية وفصلت حكم هذه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۷

المسألة. تقول الآية: «لَّاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُهُنَّ».

وبتعبير آخر: فإنّ محارمهن الذين استثنوا فى الآية هم هؤلاء الستّة فقط.

ويتغيّر اسلوب الآية فى نهايتها من الغائب إلى المخاطب، فتخاطب نساء النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا». فإنّ الحجاب والستر وأمثالهما وسائل للحفظ والإبعاد عن الذنب والمعصية ليس إلّا، والدعامة الأساسية هى التقوى فحسب، ولولاها فسوف لا تنفع كل هذه الوسائل.

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

الصلاة على النبى والسلام عليه: بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النبى صلى الله عليه و آله وعدم إيذائه، فإنّ هذه الآيات تتحدث أوّلًا عن محبة اللّه وملائكته للنبى صلى الله عليه و آله وتعظيمهم له، وبعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثم تذكر العواقب المشؤومة الأليمة لُاولئك الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله ثم تبيّن أخيراً عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم والإفتراء عليهم. تقول أوّلًا: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ».

إنّ مقام النبى صلى الله عليه و آله ومنزلته من العظمة بمكان، بحيث إنّ خالق عالم الوجود، وكل الملائكة الموكّلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر اللّه سبحانه يصلّون عليه، وإذا كان الأمر كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، ف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

إنّه جوهرة نفيسة لعالم الخلقة، وقد جُعل بينكم بلطف اللّه، فلا تستصغروا قدره، ولا تنسوا مقامه ومنزلته عند اللّه وملائكة السماوات ...

«الصلاة»: وجمعها «صلوات»، كلّما نسبت إلى اللّه سبحانه فإنّها تعنى «إرسال الرحمة»، وكلّما نسبت إلى الملائكة فإنّها تعنى «طلب الرحمة».

إنّ التعبير ب «يصلّون» وهو فعل مضارع يدل على الاستمرار، يعنى أنّ اللّه وملائكته يصلّون عليه دائماً وباستمرار صلاة دائمة خالدة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۸

إنّ «صلّوا» أمر بطلب الرحمة والصلاة على النبى، أمّا «سلّموا» فتعنى التسليم لأوامر نبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أو أن يكون بمعنى «السلام» على النبى صلى الله عليه و آله ب (السلام عليك يا رسول اللّه) وما أشبه ذلك، والذى يعنى طلب سلامة النبى من اللّه سبحانه.

مما يلفت النظر أنّه قد ورد صريحاً فى كيفية الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله وفى روايات لا تحصى من طرق العامة وأهل البيت، أن يضاف (آل محمّد) عند الصلوات على محمّد صلى الله عليه و آله، وكيفية الصلاة هى: أللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد.

ثم تبيّن الآية التالية النقطة المقابلة للآية السابقة، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا».

والمراد من أذى اللّه سبحانه هو الكفر والإلحاد الذى يُغضِب اللّه عزّ وجل.

وأمّا ايذاء نبى الخاتم صلى الله عليه و آله فله معنى واسع، ويشمل كل عمل يؤذيه.

بل ويستفاد من الرواية الواردة فى ذيل الآية أنّ ايذاء أهل بيت النبى وخاصة على وفاطمة عليهما السلام، يدخل ضمن الآية، وقد جاء فى المجلد الرابع من صحيح البخارى، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «فاطمة بضعة منّى فمن أغضبها أغضبنى».

وورد هذا الحديث فى المجلد السابع من صحيح مسلم بهذه العبارة: «إنّما فاطمة بضعة منّى يؤذينى ما آذاها».

وروى هذا المعنى فى حق على عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «۱».

وتتحدث الآية الأخيرة عن ايذاء المؤمنين، وتهتمّ به جدّاً بعد ايذاء اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله فتقول: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا». لأنّ للمؤمن علاقة باللّه ورسوله عن طريق الإيمان، ولهذا جعل فى مرتبة اللّه ورسوله هنا.

وتعبير «بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا» إشارة إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنباً حتى يؤذوا.

وفى عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه اللّه تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتى يخرج مما قاله فيه».

---

(۱) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۷۹

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۶۲)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم فى سبب نزول الآية الاولى: فإنّه كان سبب نزولها أنّ النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلّين خلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله وإذا كان بالليل خرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة والغداة، يقعد الشبّان لهن فى طريقهن فيؤذونهن ويتعرّضون لهنّ فأنزل اللّه: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

التّفسير

تحذير شديد للمؤذين ومختلقى الإشاعات: بعد النهى عن ايذاء رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمؤمنين الذى ورد فى الآية السابقة، أكّدت الآية هنا على أحد موارد الأذى، ومن أجل الوقوف أمامه سلكت طريقين، فتقول الآية فى الجزء الأول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ».

إنّ الهدف هو أن لا تتساهل المسلمات فى أمر الحجاب كبعض النساء المتحلّلات والمتبرجات المسلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرّج يغرى السفلة والأراذل ويلفت إنتباههم.

ولما كان نزول هذا الحكم قد أقلق بعض المؤمنات مما كان منهن قبل ذلك، فقد أضافت الآية فى نهايتها: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

فكل ما بدر منكنّ إلى الآن كان نتيجة الجهل فإنّ اللّه سيغفره لكن فتبن إلى اللّه وارجعن إليه، ونفذن واجب العفة والحجاب جيداً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۰

بعد الأمر الذى صدر فى الآية السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآية بُعداً آخر لهذه المسألة، أى أساليب الأراذل والأوباش فى مجال الإيذاء، فقالت: «لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».

«المرجفون»: من مادة «إرجاف»، وهى إشاعة الأباطيل بقصد ايذاء الآخرين وإحزانهم؛ و «نغرينّك» من مادة «الإغراء»، ويعنى الدعوة إلى تنفيذ عمل، أو تعلّم شيء، دعوة تقترن بالترغيب والتحريض.

ويستفاد من سياق الآية أنّ ثلاث فئات فى المدينة كانت مشتغلة بأعمال التخريب والهدم، وكل منها كان يحقّق أهدافه باسلوب خاصّ، فظهر ذلك كتيار ومخطّط جماعى، ولم تكن له صبغة فردية:

فالفئة الاولى: هم «المنافقون» الذين كانوا يسعون لإقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضدّه.

و الثانية: هم «الأراذل» الذين يعبّر عنه القرآن: «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ».

والفئة الثالثة: هم الذين كانوا يبثّون الإشاعات في المدينة، وخاصةً عندما كان النبي صلى الله عليه و آله وجيش المسلمين يتّجهون إلى الغزوات، لإضعاف معنوياتهم.

وعندما يطردون من هذه المدينة، ويخرجون عن حماية الحكومة الإسلامية، فإنّهم سيكونون «مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا».

«ثقفوا»: من مادة «ثقف» و «ثقافة»، وهي: السيطرة على الشيء بدقّة ومهارة، وهذا التعبير إشارة إلى أنّهم سوف لا يجدون مكاناً آمناً بعد هذا الهجوم، بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقة حتى يجدوهم ويرسلوهم إلى ديار الفناء.

ثم تضيف الآية الأخيرة من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديداً، بل: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» فكلما زادت صلافة المفسدين وتجاوزت مؤامراتهم الحدود، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

ولما كان هذا الحكم سنّة إلهية، فإنّه سوف لا يتغير ولا يتبدل أبداً، حيث إنّ سنّة اللَّه ثابتة «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا».

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقياً وجدياً، ليعلموا أنّ هذا المطلب والمصير

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۱

حتمي، وله جذوره ونظائره في التاريخ، ولا سبيل إلى تغييره وتبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزية، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

إنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلامية لا يختص بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم والتآمر قد تجاوز الحد على أرض الواقع، وأصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامي بأخطار حقيقية، فما المانع من أن تنفّذ الحكومة الإسلامية أوامر الآيات أعلاه، والتي انزلت على النبي صلى الله عليه و آله ومنحته هذه الصلاحية، وتعبىء الناس للقضاء على جذور الفساد.

والمراد من السنّة في مثل هذه الموارد: القوانين الإلهية الثابتة والأساسية، سواء التكوينية منها أم التشريعية، التي لا تتغيّر مطلقاً.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (۶۳) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (۶۴) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (۶۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا (۶۶) وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (۶۷) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶۸) يسألون أيّان يوم القيامة:

كانت الآيات السابقة تتحدث عن مؤامرات المنافقين والأشرار، وقد اشير في هذه الآيات التي نبحثها إلى واحدة اخرى من خططهم الهدّامة، وأعمالهم المخرّبة، حيث كانوا يطرحون أحياناً هذا السؤال: متى تقوم القيامة التي يخبر بها محمّد ويذكر لها كل هذه الصفات؟ وذلك إمّا استهزاءً، أو لزرع الشك فيها في قلوب البسطاء، فتقول الآية: «يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ».

ثم تقول الآية- مورد البحث- في مقام جوابهم: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ» ولا يعلمها حتى المرسلون والملائكة المقربون.

ثم تضيف بعد ذلك: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا».

ثم تطرقت الآية إلى تهديد الكافرين، وتناولت جانباً من عقابهم الأليم، فقالت: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّايَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۲

الفرق بين «الولي» و «النصير» هنا هو: أنّ «الولي» من يتولّى القيام بكل الأعمال وتنفيذها، أمّا «النصير» فهو الذي يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب، إلّاأنّ هؤلاء الكافرين لا وليّ لهم في القيامة ولا نصير. ثم بيّنت جزءاً آخر من عذابهم الأليم في القيامة فقالت: «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ». وهذا التقليب إمّا أن يكون في لون البشرة والوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحياناً، أو من جهة تقلّبهم في النار ولهيبها حيث تكون وجوههم في مواجهة النار أحياناً، وأحياناً جوانب اخرى (نعوذ باللَّه من ذلك).

هنا ستنطلق صرخات حسرتهم، و «يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا». فإنّا لو كنّا أطعناهما لم يكن ينتظرنا مثل هذا المصير

الأسود الأليم.

«وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا».

«السادة»: جمع «سيّد»، وهو المالك العظيم الذى يتولّى إدارة المدن المهمة أو الدول؛ و «الكبراء» جمع «كبير» وهو الفرد الكبير سواء من ناحية السنّ، أو العلم، أو المركز الاجتماعى وأمثال ذلك. وبهذا فإنّ السادة إشارة إلى رؤساء البلاد العظام، والكبراء هم الذين يتولّون إدارة الامور تحت إشراف اولئك السادة، ويعتبرون معاونين ومشاورين لهم، وكأنّهم يقولون: إنّنا قد جعلنا طاعة السادة محل طاعة اللَّه، وطاعة الكبراء مكان طاعة الأنبياء، فابتلينا بأنواع الإنحرافات والتعاسة والشقاء.

هنا تثور ثائرة هؤلاء الجهنميين الضالين، ويطلبون من اللَّه سبحانه أن يزيد فى عذاب مضلّيهم وعقابهم أشدّ عقاب فيقولون: «رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»- عذاب لضلالهم وعذاب لإضلالهم-.

من المسلم أنّ هؤلاء يستحقون العذاب واللعن، واستحقاقهم للعذاب المضاعف واللعن الكبير بسبب سعيهم فى سبيل إضلال الآخرين، ودفعهم إلى طريق الإنحراف. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (۶۹) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (۷۰) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۳

بماذا رموا موسى عليه السلام واتّهموه: بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب إحترام مقام النبى صلى الله عليه و آله، وترك كل ما يؤذيه والإبتعاد عنه، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب للمؤمنين، وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا».

إنّ اختيار موسى عليه السلام من جميع الأنبياء الذين طالما اوذوا، بسبب أنّ المؤذين من بنى إسرائيل قد آذوه أكثر من أى نبيّ آخر.

والمراد من ايذاء موسى عليه السلام هو بيان حكم كلى عام جامع، لأنّ بنى إسرائيل قد آذوا موسى عليه السلام من جوانب متعددة ... ذلك الأذى الذى لم يكن يختلف عن أذى بعض أهل المدينة (لنبيّنا صلى الله عليه و آله) كإشاعة بعض الأكاذيب وإتّهام زوج النبى بتهم باطلة، وقد مرّ تفصيلها فى تفسير سورة النور، ذيل الآيات (۱۱- ۲۰).

ويستفاد من هذه الآية أنّ من كان عند اللَّه وجيهاً وذا منزلة، فإنّ اللَّه سبحانه يدافع عنه فى مقابل من يؤذيه ويتّهمه بالأباطيل.

قولوا الحق لتصلح أعمالكم: بعد البحوث السابقة حول ناشرى الإشاعات والذين يؤذون النبى، تصدر الآية التالية أمراً هو فى الحقيقة علاج لهذا المرض الإجتماعى الخطير، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

«القول السديد»: يعنى القول الذى يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد والباطل.

ثم تبيّن الآية التالية نتيجة القول السديد، فتقول: «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْملَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ».

إنّ التقوى فى الواقع هى دعامة إصلاح اللسان وأساسه، ومنبع قول الحق، والقول الحق أحد العوامل المؤثرة فى إصلاح الأعمال، وإصلاح الأعمال سبب مغفرة الذنوب، وذلك ل «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» (۱).

ثم تضيف الآية فى النهاية: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا».

وأى فوز وظفر أسمى من أن تكون أعمال الإنسان صالحة، وذنوبه مغفورة، وهو عند اللَّه من المبيضّة وجوههم الذين رضى اللَّه عنهم.

---

(۱) سورة هود/ ۱۱۴.

.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۴

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا (۷۲) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۳) حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر: تكمل هاتان الآيتان- اللتان هما آخر آيات سورة الأحزاب- المسائل المهمة التى وردت فى هذه السورة فى مجالات الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد، والإيثار، والعفة والأدب والأخلاق، وتبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعاً سامياً جدّاً بحيث يستطيع أن يكون حامل رسالة اللّه العظيمة.

تبيّن الآية أوّلًا أعظم إمتيازات الإنسان وأهمّها فى كل عالم الخلقة، فتقول: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا».

ممّا لا شك فيه أنّ إباءها تحمل المسؤولية وامتناعها عن ذلك لم يكن استكباراً منها، بل إنّ إباءها كان مقترناً بالإشفاق، أى الخوف الممتزج بالتوجه والخضوع.

إلّا أنّ الإنسان، اعجوبة عالم الخلقة، قد تقدم: «وَحَمَلَهَا الْإِنسنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

إنّ الأمانة الإلهية هى قابلية التكامل غير المحدودة والممتزجة بالإرادة والإختيار، والوصول إلى مقام الإنسان الكامل، وعبودية اللّه الخاصة وتقبّل ولاية اللّه.

والمراد من عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال هو المقارنة، أى أنّها عندما قارنت حجم هذه الأمانة مع ما لديها من القابليات والإستعدادات أعلنت عدم لياقتها وإستعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

وبهذا فإنّ السماوات والأرض والجبال قد صرخت جميعاً بأنّا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.

ولأنّ الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّل المسؤولية والقيام بها، وأن يتقبّل ولاية اللّه، ويسير فى طريق العبودية والكمال ويتّجه نحو المعبود الدائم، وأن يطوى هذا الطريق بقدمه وإرادته، وبالإستعانة بربّه.

وهذا لم يكن قبول اتفاق وعقد، بل كان قبولًا تكوينياً حسب عالم الإستعداد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۵

أمّا وصف الإنسان بهاتين الصفتين- ظلوماً، جهولًا- بسبب نسيان غالب البشر وظلمهم أنفسهم، وعدم العلم بقدر الإنسان ومنزلته ... وبسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قِبل قابيل وأتباعه، ولا يزال إلى اليوم.

وتبيّن الآية التالية علة عرض هذه الأمانة على الإنسان، وبيان حقيقة أنّ أفراد البشر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانة إلى ثلاث فئات: المنافقين والمشركين والمؤمنين، فتقول:

«لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

«نهاية تفسير سورة الأحزاب»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۷

۳۴. سورة سبأ

محتوى السورة: إنّ محتوى هذه السورة يندرج فى خمسة مواضيع:

۱- التوحيد وبعض الآثار الدالة عليه فى عالم الوجود، وبعض صفات اللّه المقدسة كالوحدانية، والربوبية، والالوهية.

۲- قضية المعاد التى نالت النصيب الأوفى من العرض فى هذه السورة.

۳- نبوّة الأنبياء السابقين وبالأخص رسول الخاتم صلى الله عليه و آله والرد على تخرّصات أعدائه حوله، وذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

۴- التعرض لـذكر بعض النعم الإلهيـة العظيمـة، ومصير الشاكرين والجاحدين من خلال استعراض جانب من حياة النبى سليمان عليه السلام وحياة قوم سبأ.

۵- الدعوة إلى التفكر والتأمل والإيمان والعمل الصالح، وبيان تأثير هذه العوامل فى سعادة وموفقية البشر.

سمّيت السورة بهذا الاسم (سبأ) لذكرها قصة قوم سبأ.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبى ولا رسول إلّاكان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً».

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الحمدين جميعاً، سبأ وفاطر، فى ليلة لم يزل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۸

ليلته فى حفظ اللَّه تعالى وكلائه، فإن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، واعطى من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ مناه».

وهذا الثواب العظيم لا يكون نصيب من يكتفى من قراءته بلقلقة اللسان وحسب، بل يجب أن تكون القراءة مقدمة للتفكير الذى يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (۲) هو المالك لكل شىء والعالم بكل شىء: خمس سور من القرآن الكريم افتتحت «بحمد اللَّه»، وإرتبط (الحمد) فى ثلاثة منها بخلق السموات والأرض وهى (سبأ وفاطر والأنعام) بينما كان مقترناً فى سورة الكهف بنزول القرآن على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وجاء فى سورة الفاتحة تعبيراً جامعاً شاملًا لكل هذه الإعتبارات: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ الحمد والشكر للَّهتعالى فى مطلع سورة سبأ هو فى قبال مالكيته وحاكميته تعالى فى الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْأَخِرَةِ».

لذا فإنّ الحاكمية والمالكية فى الدنيا والآخرة له سبحانه، وكل موهبة، وكل نعمة، ومنفعة وبركة، وكل خلقة سوية عجيبة مذهلة، تتعلّق به تعالى، ولذا فإنّ كل مدح وثناء يصدر من أحدٍ على شىء فى هذا العالم، فإنّ مرجعه فى النهاية إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم يضيف تعالى قائلًا: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ».

فقد اقتضت حكمته البالغة أن يُخضع الكون لهذا النظام العجيب، وأن يستقرّ- بعلمه وإحاطته- كل شىء فى محلّه من الكون، فيجد كل مخلوق- كل ما يحتاج إليه- فى متناوله.

إنّ هذا الحمد والثناء لا ينطلق من ألسنة الناس والملائكة فقط، بل تُسمع همهمة الحمد والتسبيح من كل ذرّة فى عالم الوجود بإدراك العقل، فليس من موجود إلّاويحمده ويسبّحه تعالى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۸۹

تنتقل الآية التى بعدها إلى التوسّع فى إظهار جانب من علم اللَّه اللامحدود، تناسباً مع وصف الآية السابقة له تعالى بالحكيم والخبير، فيقول سبحانه: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا».

نعم، فقد أحاط علماً بكل حبّة مطر وقطرة ماء تنفذ وتلج فى أعماق الأرض حتى إذا وصلت طبقة صلدة تجمّعت هناك وصارت ذخيرة للإنسان.

ويعلم بالبذور التى تنتقل على سطح الأرض لتنبت فى مكان ما وتصبح شجرة باسقة أو عشباً طريّاً.

يعلم بجذور الأشجار عند توغلها فى أعماق التربة بحثاً عن الماء والغذاء.

یعلم بالموجات الکهربائیة والغازات المختلفة، بذرّات الهواء التی تنفذ فی الأرض.

وکذلک، یعلم بالکنوز والدفائن وأجساد الموتی من الإنسان وغیره ... نعم إنّه مطّلع علی کل هذا.

وکذلک فهو عارف وعالم بالنباتات التی تخرج من الأرض، والناس الذین یبعثون منها، بالعیون التی تفور بالماء منها، بالغازات التی تتصاعد منها، بالبراکین التی تلوّح بجحیمها.

والخلاصة، فهو عالم بکل الموجودات التی تلج الأرض وتخرج منها أعم مما نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثم یضیف قائلًا: «وَمَا یَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا یَعْرُجُ فِیهَا».

فهو یعلم بحبّات المطر، وبأشعة الشمس التی تنثر الحیاة، بأمواج الوحی والشرائع السماویة العظیمة، وبالملائکة التی تهبط إلی الأرض لإبلاغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهیة المختلفة، بالأشعة الکونیة التی تدخل جو الأرض من الفضاء الخارجی، بالشهب والذرات المضطربة فی الفضاء والتی تهوی نحو الأرض، فهو تعالی محیط بهذا کله.

وکذلک فإنّه یعلم بأعمال العباد التی تعرج إلی السماء، والملائکة التی تقفل صاعدة إلی السماء بعد أداء تکالیفها، وبالشیاطین الذین یرتقون إلی السماء لاستراق السمع، وبالأبخرة التی تتصاعد من البحار إلی أعالی السماء لتتکاثف مکونةً سحباً، وبالآهات التی تنطلق من قلب المظلوم متصاعدة إلی السماء ... نعم هو عالم بکل ذلک.

وفی ختام الآیة یضیف تعالی: «وَهُوَ الرَّحِیمُ الْغَفُورُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۰

وَ قَالَ الَّذِینَ کفَرُوا لَا تَأْتِینَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَی وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ عَالِمِ الْغَیْبِ لَا یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِی السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِی الْأَرْضِ وَ لَا أَصْغَرُ مِنْ ذلِکَ وَ لَا أَکْبَرُ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِینٍ (۳) لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴) وَ الَّذِینَ سَعَوْا فِی آیَاتِنَا مُعَاجِزِینَ أُولئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۵) أقسم باللّه لتأتینکم القیامة: تتعرض الآیات مورد البحث إلی موضع التوحید وصفات اللّه فی نفس الوقت الذی تهیء أرضیة لموضوع المعاد، لأنّ مشکلات (بحث المعاد) لا یمکن حلّها إلّاعن طریق العلم اللامتناهی للباری عزّ وجل، کما سنری. لذا فإنّ الآیات مورد البحث تبدأ أوّلًا بقوله تعالی: «وَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَاتَأْتِینَا السَّاعَةُ».

ویریدون بذلک الفکاک والتحرّر من قیود هذه الإعتقادات؛ الحساب والکتاب والعدل والجزاء، لیرتکبوا ما یحلوا لهم من الأعمال.

ولکن القرآن بناءً علی وضوح أدلة القیامة یخاطب الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله بصورة حاسمة وفی معرض بیان النتیجة، فیقول: «قُلْ بَلَی وَرَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ».

والترکیز علی کلمة «ربّ» لأنّ القیامة فی الأصل من شؤون الربوبیة، فکیف یمکن أن یکون اللّه مالکاً ومربّیاً للبشر یقودهم فی سیرهم التکاملی، ثم یتخلّی عنهم فی منتصف الطریق لینتهی بالموت کل شیء.

وبما أنّ أحد إشکالات الکافرین بالمعاد، هو شکّهم- من جانب- فی إمکانیة جمع وإعادة بناء أعضاء الإنسان المیّت بعد تبعثرها وتفسّخها فی التراب، وکذلک- من جانب آخر- فی إمکانیة وجود من یمکنه النظر فی جمیع أعمال العباد التی عملوها فی السر والعلن والظاهر والباطن، لذا فإنّ اللّه تعالی یضیف فی تتمة الآیة الکریمة: «عَالِمِ الْغَیْبِ لَایَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِی السَّموَاتِ وَلَا فِی الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذلِکَ وَلَا أَکْبَرُ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُّبِینٍ».

والمقصود من «الکتاب المبین» هو «لوح العلم الإلهی اللامتناهی» ضُبط وقُیّد کل شیء، بدون أن یجد التغییر والتبدیل طریقه إلیه.

ثم یوضّح تعالی الهدف من قیام القیامة فی آیتین، أو بتعبیر آخر: إعطاء الدلیل علی لزوم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۱

مثل ذلک العالم بعد عالمنا الحالی لمنکری القیامة، فیقول تعالی: «لِیَجْزِیَ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ کَرِیمٌ».

فإن لم يُجاز المؤمنين بصالح عملهم ثواباً، أفلا يعنى ذلك تعطيل أصل العدالة الذى هو أهم أصل من اصول الخلقة؟

«الرزق الكريم» يشمل كل رزق ذى قيمة، ومفهوم ذلك واسع.

وبتعبير آخر: فإنّ «الجنة» بكل نعمها المعنوية والماديّة جمعت فى هذه الكلمة.

ثم تضيف الآية التالية، موضّحة نوعاً آخر من العدالة فيما يخصّ عقاب المذنبين والمجرمين، فيقول تعالى: إنّ الذين كذّبوا آياتنا وسعوا فى إنكارها وإبطالها وتصوروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائرة قدرتنا ... «وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ».

«الرّجز»: فى الأصل بمعنى الإضطراب وعدم القدرة على حفظ التوازن، ثم اطلقت الكلمة على كل ذنب ورجس. فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب- الذى يتأكّد بإرداف كلمة «الأليم» أيضاً.

«سعو»: من «السعى»، بمعنى كل جهد وجدّ فى أمر، والمقصود منها هنا، الجدّ والجهد فى تكذيب وإنكار آيات الحق وصدّ الناس عن طريق اللّه سبحانه وتعالى.

«معاجزين»: من «المعاجزة»، بمعنى معجّزين، أى مثبطين، أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوّهمهم بأنّه يستطيع القيام بأيّة جناية يشاء، ثم يستطيع الفرار من سلطة القدرة الإلهية.

وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۶) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (۷) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ (۸) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۹)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۲

العلماء يرون دعوتك إنّها حق: كان الحديث فى الآيات السابقة عن عمى البصائر، المغفّلين الذين أنكروا المعاد، والآيات مورد البحث، تتحدث عن العلماء والمفكرين الذين صدّقوا بآيات اللّه وسعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها. يقول تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

إنّ عبارة «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»، يشمل كل العلماء والمفكرين فى كل عصر وزمان ومكان.

واليوم، فإنّ هناك كتباً متنوّعة كتبها مفكّرون غربيون وشرقيون حول الإسلام والقرآن، تحوى إعترافات ظاهرة على عظمة الإسلام وصدق الآية مورد البحث.

ويعود تعالى إلى مسألة القيامة والبعث فى الآية التى بعدها، ويكمل البحوث السابقة بطريقة اخرى، فيقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُم لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

يبدو أنّ إصرار- هؤلاء الكفار- على إنكار مسألة المعاد يعتمد على أمرين:

الأوّل: توهمّهم أنّ المعاد الذى تحدّث عنه رسول الأكرم صلى الله عليه و آله وهو «المعاد الجسمانى»، أمر يسهل الإشكال عليه والطعن فيه.

الثانى: أنّ الإعتقاد بالمعاد، أو حتى القبول باحتماله- على كل حال- إنّما يفرض على الإنسان مسؤوليات وتعهدات، وهذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطراً حقيقياً.

والعجيب أنّهم: «افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ».

ولكن القرآن يردّ عليهم بشكل حاسم قائلًا: «بَلِ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلِلِ الْبَعِيدِ».

والحقيقة أنّ الحياة لو حُدّدت بهذه الأيام القليلة من عمر الدنيا لكان تصور الموت بالنسبة لكل إنسان كابوساً مرعباً، لهذا السبب نرى

أنّ منكرى المعاد فى قلق دائم منغّص وعذاب أليم، بينما المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قنطرة إلى عالم البقاء.

ثم ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد، مقترن بتهديد الغافلين المعاندين، فيقول تعالى: «أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فإنّ هذه السماء بكواكبها الثابتة والسيّارة، وكذلك الأرض بكل مدهشاتها وأنواع موجوداتها الحية، وبركاتها ومواهبها، لأوضح دليل على قدرة الخلّاق العظيم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۳

وهذا هو «برهان القدرة» الذى استدلّ به القرآن الكريم فى آيات اخرى فى مواجهة منكرى المعاد، ومن جملة هذه الآيات، الآية (۸۲) من سورة يس، والآية (۹۹) من سورة الإسراء، والآيتين (۶ و ۷) من سورة ق.

ونشير إلى أنّ هذه الجملة كانت مقدمة لتهديد تلك الفئة المتعصبة من ذوى القلوب السوداء، الذين يصّرون على عدم رؤية كل هذه الحقائق، لذا يضيف تعالى قائلًا: «إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ». فنأمر الأرض فتنشقّ بزلزلة مهولة وتبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر وتدمّر بيوتهم وتهلكهم «أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ». أجل، إنّ فى هذا الأمر دلائل واضحة على قدرة اللَّه تعالى على كل شىء، ولكن يختص بإدراك ذلك كل إنسان يتدبر فى مصيره ويسعى فى الإنابة إلى اللَّه: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيَةً لِكُلّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ».

ونحن المحكومون بقدرته فى كل طرفة عين إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطة حكومته.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (۱۰) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱) المواهب الإلهية العظيمة لداود: بناء على ما مرّ ذكره فى آخر المجموعة السابقة من الآيات وما قلناه حول «العبد المنيب» والثواب، ولعلمنا بأنّ هذا الوصف قد ذكر للنبى داود عليه السلام (فى الآية ۲۴ من سورة ص)- كما سيرد شرحه بإذن اللَّه- فالأفضل من أن نتعرّض لجانب من حياة هذا النبى عليه السلام كمثال للإنابة والتوبة وإكمال البحث السابق، وهى أيضاً تنبيه لكل من يغمط نعم اللَّه ويتناساها، ويتخلّى عن عبوديته للَّهعند جلوسه على مسند القدرة والسلطة. فى الآية الاولى يقول تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا».

فبعد هذه الإشارة الإجمالية العامة، تبدأ الآية بشرح وتوضيح جوانب من الفضائل المعنوية والمادية التى تمتّع بها داود، فيقول تعالى: «يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ».

«أوّبى»: فى الأصل من «التأويب» بمعنى الترجيع وإعادة الصوت فى الحلق، وهذا الأصل يستعمل أيضاً بمعنى «التوبة» لأنّ حقيقتها الرجوع إلى اللَّه.

وفى كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الصادق عليه السلام أنّه قال فى حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام: «إنّه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّاجاوبته».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۴

وبعد ذكر هذه الفضيلة المعنوية، تذكر الآية فضيلة مادية اخرى فتقول: «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ». إنّ ظاهر الآية يدلّل على أنّ ليونة الحديد تمّت لداود بأمر إلهى.

وروى- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللَّه أوحى إلى داود عليه السلام:

نعم العبد أنت إلّاأنّك تأكل من بيت المال! فبكى داود أربعين صباحاً، فألان اللَّه له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستّين درعاً فباعها بثلاثمائة وستّين ألفاً فاستغنى عن بيت المال».

الآية التى بعدها تتعرض لشرح صناعة داود للدروع والأمر الإلهى العميق المعنى بهذا الخصوص. يقول تعالى: «أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ

فِی السَّرْدِ».

«سابغات»: جمع «سابغ» وهو الدرع التامّ الواسع؛ و «سرد»: فی الأصل بمعنی حیاکهٔ ما یخشن ویغلظ کنسج الدرع وخرز الجلد، واستعیر لنظم الحدید، وجملهٔ «وَقَدِّرْ فِی السَّرْدِ» معناها مراعاهٔ المقاییس المتناسبهٔ فی حلقات الدرع وطریقهٔ نسجها، وفی الواقع فإنّ اللَّه تعالی قد أمر داود بأن یکون مثالًا یحتذی لکل الحرفیین والعمّال المؤمنین فی العالم، بمراعاته للإتقان والدقهٔ فی العمل من حیث الکمّ والکیف فی المصنوعات، لیستطیع بالتالی مستهلکوها استعمالها براحهٔ وبشکل جیّد، والإفادهٔ من متانتها.

ثم تُختم الآیهٔ بخطاب لداود وأهل بیته: «وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّی بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ».

فالهدف لیس صناعهٔ الدروع وتحقیق الربح، بل إنّ ذلک کله وسیلهٔ فی المسیر باتّجاه العمل الصالح، ولیستفید أیضاً داود وأهل بیته.

وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَیْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ یَعْمَلُ بَیْنَ یَدَیْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ یَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِیرِ (۱۲) یَعْمَلُونَ لَهُ ما یَشاءُ مِنْ مَحارِیبَ وَ تَماثِیلَ وَ جِفانٍ کَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِیاتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُکْراً وَ قَلِیلٌ مِنْ عِبادِیَ الشَّکُورُ (۱۳) فَلَمَّا قَضَیْنا عَلَیْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلی مَوْتِهِ إِلَّا دابَّهُ الْأَرْضِ تَأْکُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَیَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ الْغَیْبَ ما لَبِثُوا فِی الْعَذابِ الْمُهِینِ (۱۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۵

هیبهٔ سلیمان وموته العبرهٔ: بعد الحدیث عن المواهب التی أغدق اللَّه بها علی داود علیه السلام تنتقل الآیات إلی الحدیث عن إبنه سلیمان علیه السلام، فهذه الآیات تشیر إلی ثلاث مواهب عظیمهٔ خُصّ بها إبنه سلیمان علیه السلام. یقول تعالی: «وَلِسُلَیْمنَ الرّیحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ».

الملفت هنا أنّ اللَّه تبارک وتعالی حینما سخّر للأب جسماً خشناً وصلباً جدّاً وهو الحدید، نری أنّه قد سخّر للإبن موجوداً لطیفاً للغایهٔ، ولکنّ العملین کانا نافعین وإعجازیین.

أمّا کیف تحمل الریح مقعد سلیمان، (سواء أکانت کرسیاً أم بساطاً)؟ فلیس بواضح لنا، والقدر المتیقّن هو أن لا شیء یمثّل مشکلهٔ أو عقبهٔ أمام قدرهٔ اللَّه.

بعدئذ تنتقل الآیهٔ إلی الموهبهٔ الثانیهٔ التی خصّ اللَّه بها سلیمان علیه السلام، فتقول الآیهٔ الکریمهٔ:

«وَأَسَلْنَا لَهُ عَیْنَ الْقِطْرِ».

«أسلنا»: من مادهٔ «سیلان» بمعنی الجریان؛ و «القطر» بمعنی النحاس، والمقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز وجعلناه کعین الماء.

والأمر لیس واضحاً لدینا وما نعلمه هو أنّ ذلک أیضاً کان من الألطاف الإلهیهٔ علی هذا النبی العظیم.

أخیراً تنتقل الآیهٔ إلی بیان الموهبهٔ الإلهیهٔ الثالثهٔ لسلیمان علیه السلام وهی تسخیر مجموعهٔ کبیرهٔ من الجن لخدمته فتقول الآیهٔ: «وَمِنَ الْجِنّ مَن یَعْمَلُ بَیْنَ یَدَیْهِ بِإِذْنِ رَبّهِ وَمَن یَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِیرِ».

الآیهٔ التالیهٔ، تشیر إلی جانب من الأعمال الإنتاجیهٔ الهامهٔ، التی کان یقوم بها فریق الجن بأمر سلیمان. یقول تعالی: «یَعْمَلُونَ لَهُ مَا یَشَاءُ مِن مَّحَارِیبَ وَتَمَاثِیلَ وَجِفَانٍ کَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِیَاتٍ».

فکل ما أراده سلیمان من معابد وتماثیل وأوانی کبیرهٔ للغذاء والتی کانت کالأحواض الکبیرهٔ، وقدور واسعهٔ ثابتهٔ، کانت تهیّأ له، فبعضها یرتبط بالمسائل المعنویهٔ والعبادیهٔ، وبعضها الآخر یرتبط بالمسائل الجسمانیهٔ، وکانت متناسبهٔ مع أعداد جیشه وعمّاله الهائلهٔ.

«محاریب»: جمع محراب، ویعنی «مکان العبادهٔ» أو «القصور والمبانی الکبیرهٔ» التی بنیت کمعابد.

فإنّ هؤلاء العمّال النشطین المهرهٔ، قاموا ببناء المعابد الضخمهٔ والجمیلهٔ فی ظلّ حکومته الإلهیهٔ والعقائدیهٔ، حتی یستطیع الناس أداء وظائفهم العبادیهٔ بسهولهٔ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۶

«تماثیل»: جمع تمثال، بمعنی الرسم والصورة والمجسمة؛ «جفان»: جمع «جفنة» بمعنی إناء الطعام؛ «جوابی»: جمع «جابیة» بمعنی حوض الماء.

وهنا یستفاد أنّ المقصود من التعبیر الوارد فی الآیة الکریمة، أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسلیمان علیه السلام أوانی للطعام کبیرة جدّاً، بحیث إنّ کلّاً منها کان کالحوض، لکی یستطیع عدد کبیر من الأفراد الجلوس حوله وتناول الطعام منه.

«قدور»: جمع «قدر» علی وزن «قشر». بنفس معناه الحالی، أی الإناء الذی یطبخ فیه الطعام؛ و «راسیات»: جمع «راسیة» بمعنی ثابتة، والمقصود أنّ القدور کانت من العظمة بحیث لا یمکن تحریکها من مکانها.

وتعرج الآیة فی الختام وبعد ذکر هذه المواهب الإلهیة، إلی آل داود فتخاطبهم: «اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُکْرًا وَقَلِیلٌ مِّنْ عِبَادِیَ الشَّکُورُ».

والمقصود من (الشکر) هو (الشکر العملی)، أی الإستفادة من تلک المواهب فی طریق الأهداف التی خلقت لأجلها، والمسلّم به أنّ الذین یستفیدون من المواهب الإلهیة فی طریق الأهداف التی خلقت لأجلها هم الندرة النادرة.

آخر آیة من هذه الآیات، وهی آخر حدیث عن النبی سلیمان علیه السلام، یخبرنا اللّه سبحانه وتعالی فیها بطریقة موت ذلک النبی العجیبة والداعیة للإعتبار. یقول تعالی: «فَلَمَّا قَضَیْنَا عَلَیْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَی مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْکُلُ مِنسَأَتَهُ» (۱).

وتضیف الآیة بعد ذلک: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَیَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ کَانُوا یَعْلَمُونَ الْغَیْبَ مَا لَبِثُوا فِی الْعَذَابِ الْمُهِینِ». «تبیّنت»: من مادة «بیّن» بمعنی «العلم والإطّلاع». یعنی أنّ الجن لم یعلموا بموت سلیمان إلی ذلک الوقت، ثم علموا وفهموا أنّهم لو کانوا یعلمون الغیب لما بقوا حتی ذلک الحین فی تعب وآلام الأعمال الشاقة التی کلّفوا بها.

لَقَدْ کَانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ آیَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ یَمِینٍ وَ شِمَالٍ کُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّکُمْ وَ اشْکُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَیِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَیْهِمْ سَیْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَیْهِمْ جَنَّتَیْنِ ذَوَاتَیْ أُکُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَیْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ (۱۶) ذَلِکَ جَزَیْنَاهُمْ بِمَا کَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِی إِلَّا الْکَفُورَ (۱۷)

---

(۱) «منسأته»: من مادة «نسأ» وهو التأخیر فی الوقت؛ والمنسأة: عصا یُنسأ بها الشیء، أی یؤخّر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۷

المدینة الراقیة التی أضاعها الکفران: بعد أن تطرّقت الآیات السابقة إلی توضیح النعم الإلهیة العظیمة التی أولاها اللّه داود وسلیمان علیهما السلام، وأداء هذین النّبیین العظیمین وظیفتهما بالشکر، تنتقل الآیات أعلاه إلی الحدیث عن قوم آخرین یمثّلون الموقف المقابل للموقف السابق .. قوم شملهم اللّه بأنواع النعم، ولکنهم سلکوا طریق الکفران. یقول تعالی: «لَقَدْ کَانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ ءَایَةٌ».

والمشهور أنّ «سبأ» اسم «أبی العرب» فی الیمن.

ومن الممکن أن یکون «سبأ» اسم شخص ابتداءً، ثم بعدئذ سمّی کل أولاده وقومه من بعده باسمه، ثم انتقل الاسم لیشمل مکان سکناهم.

تنتقل الآیة بعد ذلک لتجلّی الموقف عن تلک الموهبة الإلهیة التی وضعت بین یدی قوم سبأ. فیقول تعالی: «جَنَّتَانِ عَن یَمِینٍ وَشِمَالٍ».

ما حصل هو أنّ قوم سبأ استطاعوا- ببناء سدّ عظیم بین الجبال الرئیسیة فی منطقتهم- حصر میاه السیول المدمّرة أو الضائعة هدراً علی الأقل، والإفادة منها ... وبإحداث منافذ فی ذلک السدّ سیطروا تماماً علی ذلک الخزّان المائی الهائل، وبالتحکّم فیه تمکّنوا من زراعة مساحات شاسعة من الأرض.

ثم یضیف القرآن: «کُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّکُمْ وَاشْکُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَیِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ».

فبلحاظ النعم المادیة هواء نقی، ونسیم یبعث علی السرور، أرض معطاءة وأشجار وافرة الثمر، وبلحاظ النعم المعنویة فمغفرة اللّه التی شملتهم، والتغاضی عن تقصیرهم، وصرف البلاء والعذاب عنهم وعن بلدتهم.

ولكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين، لم يخرجوا من بوتقة الامتحان بسلام.

قال تعالى: «فَأَعْرَضُوا» استهانوا بنعمة اللّه، توهّموا بأنّ العمران والمدنية والأمن أشياء عادية، نسوا اللّه، وأسكرتهم النعمة.

وهنا مسّهم سوط الجزاء، يقول تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ». فدمّر بيوتهم ومزارعهم وحوّلها إلى خرائب ..

«العرم»: من «العرامة» وهى شراسة وصعوبة فى الخلق تظهر بالفعل، ووصف «السيل» بالعرم إشارة إلى شدّته وقابليته على التدمير.

بعدئذٍ يصف القرآن الكريم عاقبة هذه الأرض كما يلى: «وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۸

ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ». «اكل»: بمعنى الطعام؛ و «خمط»: بمعنى النبات المرّ وهو «الأراك»؛ و «أثل»: شجر معروف.

وبذا يكون قد نبت محل تلك الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراوية غليظة ليست ذات قيمة.

يقول تعالى فى الآية التالية بصراحة وكتلخيص واستنتاج لهذه القصة: «ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا».

ويجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأنّ هذا المصير يخصّ هؤلاء القوم، بل إنّ من المسلم أنّه يعمّ كل من كانت لهم أعمال شبيهة بأعمال هؤلاء. وهكذا تضيف الآية:

«وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ».

وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَ قَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (۱۸) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۱۹) «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»: تعود هذه الآيات إلى قصة قوم سبأ مرّة اخرى، وتعطى شرحاً وتفصيلًا أكثر حولهم وحول العقاب الذى حلّ بهم، ليكون درساً بليغاً وتربوياً لكل سامع. يقول تعالى: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمة لم تغطّها وحدها، بل «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً». فقد جعلنا بينهم وبين الأرض المباركة مدائن وقرىً اخرى متّصلة بفواصل قليلة إلى درجة أنّ القرية ترى من القرية الثانية.

والمقصود من «الأرض المباركة» هو «صنعاء» أو «مأرب» وكلتاهما كانتا فى اليمن.

ولكن العمران وحده لا يكفى، بل إنّ شرطه الأساسى هو «الأمان»، ولذلك تضيف الآية: «وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ». أى جعلنا بينها فواصل معتدلة: «سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ».

وبهذا فإنّ الفواصل والمسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، وكذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضوارى أو السرّاق أو قطّاع الطرق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۹۹

ولكن هؤلاء جحدوا نعم اللّه العظيمة ولبسهم الغرور، وأحاطت بهم الغفلة ونشوة النعيم وعدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران وعدم الشكر، وانحرفوا عن الصراط وتركوا أوامر اللّه خلف ظهورهم.

فمن جملة مطالبهم العجيبة من اللّه، «فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا». أى طلبوا أن يجعل اللّه المسافات بين قراهم طويلة، كى لا يستطيع الفقراء السفر جنباً إلى جنب مع الأغنياء، ومقصودهم هو أن تكون بين القرى- كما أسلفنا- فواصل صحراوية شاسعة، حتى لا يستطيع الفقراء ومتوسّطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركب، وبذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء وعلامة على القدرة والثروة.

فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم «وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ».

فإن كانوا يظنّون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ أنّهم قد استلّوا خنجراً ومزّقوا به صدورهم.

ويا له من تعبير رائع، ذلك الذى أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول:

إنّنا جازيناهم ودمّرنا بلادهم ومعيشتهم بحيث: «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ».

فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، والتمدّن العريض المشرق، إلّاأخبار على الألسن، وذكريات فى الخواطر، وكلمات على صفحات التاريخ «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ».

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، وبذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كل مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، حتى أضحى تفرّقهم مثلًا يضرب فقيل:

«تفرّقوا أيادى سبأ».

و فى ختام الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

ذلك لكونهم بصبرهم واستقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى والهوس الجموح، ويقفون بوجه المعاصى، وبشكرهم للّه‌تعالى فى طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به ويقظون، وعليه فإنّهم يأخذون العبرة بشكل جيّد.

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج۴ ١۴٩

لا أحد مجبر على اتّباع الشيطان: هذه الآيات فى الحقيقة تمثّل نوعاً من الإستنتاج العام من قصة «قوم سبأ» التى مرّت فى الآيات السابقة. يقول تعالى فى الآية الاولى من هذه الآيات: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ».

بتعبير آخر: فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم وطرده من محضر الكبرياء الإلهى، توقّع وقال: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» «١».

وتشير الآية التالية إلى مطلبين فيما يخصّ الوساوس الشيطانية، والأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، والأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآية المباركة: «وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ».

وذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه: «وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى» «٢». ولكن من الواضح أنّه بعد إجابة دعوته من قبل عديمى الإيمان، وعبيد الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإنّ الآية تؤكّد أنّ الهدف من إطلاق يد إبليس فى وسوساته، إنّما هو لأجل معرفة المؤمنين من غيرهم ممّن هم فى شك: «إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ».

والمقصود من الجملة أعلاه هو التحقق العينى لعلم اللّه، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يعاقب أحداً بناءً على علمه بالبواطن، والأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفّر ميدان للإمتحان، ومن خلال وساوس الشياطين وهوى النفس يُظهر الإنسان ما بداخله- بكامل الإرادة والإختيار- إلى الواقع الفعلى، ويتحقق علم اللّه سبحانه وتعالى عيناً.

ثم تختتم الآية بتنبيه للعباد: «وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ». حتى لا يتصوّر أتباع الشيطان بأنّ أعمالهم وأقوالهم تتلاشى فى هذه الدنيا، أو أنّ اللّه ينسى.

---

(١) سورة الحجر/ ٣٩ و ۴٠.

(٢) سورة إبراهيم/ ٢٢.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ١٠١

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَ مَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

ظَهِيرٍ (۲۲) وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَا ذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۲۳) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۲۴) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَ لَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۲۵) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (۲۶) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷) قلنا فى بداية السورة بأنّ هناك مجموعة من آياتها تتحدث حول المبدأ والمعاد والإعتقادات الحقّة، ومن ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديدة. فى هذا المقطع من الآيات يجرّ القرآن المشركين فى الواقع إلى المحاكمة، ثم يبيّن تفسّخ منطقهم الواهى بخصوص شفاعة الأصنام.

فى الآية الاولى يقول تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ». ولكن اعلموا أنّ هذه الأصنام أو الشركاء لا يستجيبون لدعائكم أبداً، ولا يحلّون لكم مشكلة.

ثم تنتقل الآية إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى: لأنّهم «لَايَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّموَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ».

وللإجابة على هذا التساؤل تقول الآية التى بعدها: لو كان هناك شفعاء لدى اللَّه تعالى فإنّهم لا يشفعون إلّابإذنه وأمره: «وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ».

وعليه فإنّ العذر الذى يتعلّل به الوثنيون بقولهم: «هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ» (۱). ينتهى بهذا الجواب، وهو أنّ اللَّه سبحانه وتعالى، لم يجز شفاعتها أبداً.

لذا تقول العبارة بعدها بأنّه فى ذلك اليوم تهيمن الوحشة والإضطراب على القلوب، ويستولى القلق على الشافعين والمشفوع لهم بانتظار أن يروا لمن يأمر اللَّه بجواز الشفاعة؟

وعلى من ستجوز تلك الشفاعة؟ وتستمر حالة القلق والإضطراب، حتى حين ... فيزول

---

(۱) سورة يونس/ ۱۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۲

ذلك الفزع والإضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهى: «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ».

هنا وحينما يتواجه الفريقان ويتساءلان، (أو أنّ المذنبين يسألون الشافعين): «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ». فيجيبونهم: «قَالُوا الْحَقَّ». وما الحق إلّاجواز الشفاعة لمن لم يقطعوا إرتباطهم تماماً مع اللَّه.

وتضيف الآية فى الختام: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

وهذه العبارة متمّمة لما قاله «الشفعاء»، حيث يقولون: لأنّ اللَّه علىّ وكبير فأى أمر يصدره هو عين الحق، وكل حق ينطبق مع أوامره.

فى الآية التالية يلج القرآن الكريم طريقاً آخر لإبطال عقائد المشركين، ويجعل مسألة «الرازقية» عنواناً بعد طرحه لمسألة «الخالقية» التى مرّت معنا فى الآيات السابقة. يقول تعالى: «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

بديهى أن لا- أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصنام الحجرية والخشبية هى التى تنزل المطر من السماء، أو تنبت النباتات فى الأرض.

الجميل أنّه- بدون إنتظار الجواب منهم- يردف تعالى قائلًا: «قُلِ اللَّهُ».

آخر الآية تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساساً لدليل واقعى ومتوائم مع غاية الأدب والإنصاف، بطريقة تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور والعناد الذى يمتطيه، وتدفعه إلى التفكر والتأمل. يقول تعالى: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

وهذا إشارة إلى: أنّ عقيدتنا وعقيدتكم متضادّتان، وعليه- بناءً على إستحالة الجمع بين النقيضين- فلا يمكن أن تكون الدعوتان على

حقّ.

وتستمر الآية التى بعدها بالاستدلال بشكل آخر- ولكن بنفس النمط المنصف الذى يستنزل الخصم من مركب العناد والغرور. يقول تعالى: «قُل لَّاتُسَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

وهنا أنّ الرسول صلى الله عليه و آله مأمور باستعمال تعبير «جرم» فيما يخصّه، وتعبير «أعمال» فيما يخصّ الطرف الآخر، وبذا تتّضح أنّ كل شخص مسؤول أن يعطى تفسيراً لأعماله وأفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه، حسنها وقبيحها.

الآية التالية توضيح لنتيجة الآيتين السابقتين، فبعد أن نبّه إلى أنّ أحد الفريقين على الحق والآخر على الباطل، وإلى أنّ كلّاً منهما مسؤول عن أعماله، إنتقل إلى توضيح كيفية

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۳

التحقّق من وضع الجميع، والتفريق بين الحق والباطل ومجازاة كل فريق طبق مسؤوليته، فيقول تعالى، قل لهم بأنّ اللَّه سوف يجمعنا فى يوم البعث، ويحكم بيننا بالحق، ويفصل بعضنا عن بعض، حتى يعرف المهتدون من الضالين، ويبلغ كل فريق بنتائج أعماله. «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقّ».

وإذا كنتم اليوم ترون أنكم مخلوطون بعضكم البعض، وكلّاً يدّعى بأنّه على الحق وبأنّه من أهل النجاة، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، ولابدّ أن يأتى يوم التفريق بين الصفوف، فربوبية اللَّه إقتضت فصل «الطيب» من «الخبيث» و «الخالص» من «المشوب» و «الحق» عن «الباطل» فى النهاية. ويستقرّ كل منهما فى مكانه اللائق.

فكّروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم، وفى أى صفّ ستقفون، وهل أحضرتم إجابة لمساءلة اللَّه فى ذلك اليوم؟

وفى آخر الآية يضيف ليؤكّد حتمية ذلك التفريق فيقول: «وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ».

هذان الاسمان- وهما من أسماء اللَّه الحسنى- أحدهما يشير إلى قدرة اللَّه تعالى على عملية فصل الصفوف، والآخر إلى علمه اللامتناهى، إذ إنّ عملية تفريق صفوف الحق عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين.

واستخدام كلمة «الربّ» فى الآية أعلاه إشارةً إلى أنّ اللَّه هو المالك والمربّى للجميع، وذلك ممّا يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّاً، وهى إشارة لطيفة إلى إحدى دلائل «المعاد».

«فتح»: كما يشير الراغب فى مفرداته، الفتح إزالة الإغلاق والإشكال. وذلك ضربان:

أحدهما: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل، والغلق والمتاع؛ والثانى: يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغمّ، وذلك ضروب: أحدها: فى الامور الدنيوية كغمّ يُفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، والثانى: فتح المستغلق من العلوم، ... إلى أن يقول: و «فتح القضية فتاحاً» فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها». وعليه فإنّ استخدام هذه المفردة هنا لأنّ الحكم والقضاء يتمّ أيضاً هناك، فضلًا عن الفصل والتفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمة «فتح»- ومجازاة كل بما يستحق.

فى الآية الأخيرة من هذه الآيات والتى هى عبارة عن الأمر الخامس للرسول صلى الله عليه و آله يعود القرآن إلى الحديث مرّة اخرى فى مسألة التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها. يقول تعالى:

«قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۴

فبعد هذه الجملة مباشرة، وبكلمة واحدة يشطب على هذه الأباطيل فيقول: «كَلَّا».

فهذه الأشياء لا تستحق أن تعبد أبداً وهذه الأوهام والتصورات ليس لها شىء من الواقعية.

ثم لأجل تأكيد وتثبيت هذا المعنى يقول مختتماً الحديث: «بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». فعزته وقدرته الخارقة، تقتضى الدخول فى حريم ربوبيته، وحكمته تقتضى توجيه هذه القدرة فى محلها.

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۸) وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۲۹) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَ لَا تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰) الدعوة العالمية: الآية الاولى من هذه الآيات، تتحدث فى نبوّة الرسول صلى الله عليه و آله، والآيات التى تليها تتحدث حول الميعاد.

أشارت الآيات ابتداءً إلى شمولية دعوة الرسول صلى الله عليه و آله وعمومية نبوّته لجميع البشر فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

«كافّة»: من مادة «كفّ» وتعنى الكفّ من يد الإنسان، وبما أنّ للإنسان يقبض على الأشياء بكفّه تارةً ويدفعها عنه بكفّه تارةً اخرى، فلذا تستخدم هذه الكلمة للقبض أحياناً، وللمنع اخرى. وهنا بمعنى «الجمع» وفى هذه الحالة يكون مفهوم الآية «إنّنا لم نرسلك إلّا لجميع الناس». أى عالمية دعوة الرسول صلى الله عليه و آله.

وبناءً على ما أشارت إليه الآيات السابقة من أنّ اللّه سبحانه وتعالى يجمع الناس ويحكم بينهم تورد هذه الآية سؤال منكرى المعاد كما يلى: «وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ولكن القرآن الكريم يمتنع دائماً عن الإجابة الصريحة على هذا السؤال وتعيين زمان وقوع البعث، ويؤكّد أنّ هذه الامور هى من علم اللّه الخاصّ به سبحانه وتعالى، وليس لأحد غيره الإطّلاع عليها.

لذا فقد تكرّر فى الآية التى بعدها، هذا المعنى بعبارة اخرى. يقول تعالى: «قُل لَّكُم مِّيعَادُ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۵

يَوْمٍ لَّاتَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ».

إنّ إخفاء تأريخ قيام الساعة- حتى على شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله- كما أسلفنا- لأنّ اللّه سبحانه وتعالى أراد لعباده نوعاً من حرية العمل مقترنة بحالة من التهيّؤ الدائم، لأنّه لو كان تاريخ قيام القيامة معلوماً فإنّ الجميع سيغطّون فى الغفلة والغرور والجهل حينما يكون بعيداً عنهم، أمّا حين إقترابه منهم فستكون أعمالهم ذات جنبة اضطرارية، وفى كلتا الحالتين تتحجّم الأهداف التربوية للإنسان.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (۳۱) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (۳۲) وَ قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَ أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۳۳) لمناسبة البحث الوارد فى الآيات السابقة حول مواقف المشركين إزاء مسألة المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمة لهؤلاء المشركين كى يقفوا على خاتمة أعمالهم. أوّلًا يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ».

أى ولا بالكتب السماوية السابقة.

فإنّ إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به، نفى نبوّة الرسول صلى الله عليه و آله من خلال نفى الكتب السماوية الاخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّد على موضوع ورود دلائل على نبوّة الرسول صلى الله عليه و آله فى التوراة والإنجيل، ولهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب ولا بالكتب التى سبقته.

ثم تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء فى القيامة من خلال مخاطبة الرسول صلى الله عليه و آله فيقول تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۶

فى حين أنّ «المستضعفين» الذين اتّبعوا بجهلهم «المستكبرين» وهم الذين سلكوا طريق الغرور والتسلط على الآخرين ورسموا لهم

منهجهم الشيطانى، هناك: «يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ». إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسؤولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية فى دار الدنيا.

لكن «المستكبرين» لا يبقون على صمتهم بل: «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم».

كلّا، فلسنا بمسؤولين، فمع إمتلاككم حرية الإرادة، استسلمتم لأحاديثنا الباطلة، وكفرتم وألحدتم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقية، «بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ».

ولكن المستضعفين لا يقتنعون بهذا الجواب، ويعاودون القول مرّة اخرى لإثبات جرم المستكبرين: «وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَروا بَلْ مَكْرُ الَّيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا».

فصحيح أنّنا كنّا أحراراً فى القبول بذلك، ولكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسؤولون ومجرمون، خاصة وأنّكم كنتم تتحدثون معنا دائماً من موقع القدرة والسلطة.

لذا فإنّ الفريقين يندمون على ما قدّمت أيديهم، المستكبرون على إضلالهم للآخرين، والمستضعفون على إيمانهم وقبولهم بتلك الأباطيل المشؤومة، ولكن لكى لا يفتضحوا أكثر فإنّهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهى ... «وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِى أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا».

فهم فى الدنيا حينما يلتفتون إلى إشتباههم ويندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعة لإظهار ندمهم الذى هو أوّل طريق التوبة وإعادة النظر، وتلك هى الخصلة الأخلاقية الخاصة بهم والتى يمارسونها فى الآخرة أيضاً.

فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم: «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فالآية تشير أيضاً إلى قضية تجسم الأعمال.

التعبير ب «الذين كفروا» يشير إلى أنّ فريقى الغاوين والمغويين المستضعفين وكل الكفار يلقون ذلك المصير.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۷

وَ مَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۳۴) وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَاداً وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۳۵) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ مَا أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (۳۸) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة فى الغاوين من المستكبرين، فإنّ جانباً آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة اخرى، فتقول الآية المباركة: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ».

«نذير»: من «الإنذار» وهو الإخبار الذى فيه تخويف، وإشارة إلى أنبياء اللّه الذين ينذرون الناس من عذاب اللّه فى قبال الانحرافات والظلامات والذنوب والفساد.

«مترفوها»: جمع «مترف» من مادة «ترف» بمعنى «التوسّع فى النعمة» و (المترف) الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة أى أطغته.

تشير الآية التالية إلى المنطق الأجوف الذى يتمسك به هؤلاء لإثبات أفضليتهم ولاستغفال العوام فتقول: «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا».

إنّ اللّه يحبّنا، فقد أعطانا المال الوفير، والقوّة البشرية، وذلك دليل على لطفه بحقّنا وإشارة إلى مقامنا وموقعنا عنده، ولذلك لن نعاقب أبداً «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ».

الآية التى بعدها تردّ بأرقى اسلوب على هذا المنطق الأجوف الخدّاع وتنسفه من الأساس، وبطريق مخاطبة الرسول صلى الله عليه و آله تقول الآية الكريمة: قل لهم: إنّ ربّى يرزق من يشاء ويقدر لمن يشاء، وذلك أيضاً طبق مصالح مرتبطة بامتحان الخلق وبنظام حياة

الإنسان، وليس له أى ربط بقدر ومقام الإنسان عند اللَّه سبحانه وتعالى: «قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

وعليه فلا يجب إعتبار سعة الرزق دليلًا على السعادة، وقلّته على الشقاء، «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». طبعاً أكثر الجهّال المغفلين هم كذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۸

ثم تتابع الآيات هذا المعنى بصراحة أكثر. تقول: «وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى».

ولكن ليس معنى هذا هو حثّ الإنسان على ترك السعى والدأب اللازم لإقامة الأود، بل المقصود هو التأكيد على أنّ امتلاك الإمكانات الاقتصادية والقوة البشرية الواسعة لا يمثّل أبداً أيّة قيمة معنوية للإنسان عند اللَّه.

ثم تتناول الآية موضوع المعيار الأصلى لتقييم الناس، وما يسبّب قربهم منه (على شكل استثناء منفصل) فتقول: «إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ».

وعليه فجميع المعايير تعود أصلًا إلى هذين الأمرين «الإيمان» و «العمل الصالح».

هنا يشطب القرآن وبصراحة قلّ نظيرها على كل الظنون المنحرفة والخرافات بخصوص عوامل القرب من اللَّه.

كلمة «ضعف» ليست بمعنى «مضاعفة الشيء مرتين» فقط، بل بمعنى «أضعاف مضاعفة لأكثر من مرتين»، وقد وردت فى هذه الآية بهذا المعنى.

«غرفات»: جمع «غرفة» بمعنى الحجرات العلوية من البناء، والتى غالباً ما تكون إضاءتها أكثر وهواؤها أفضل، وبعيدة عن الآفات.

التعبير ب «آمنون» فيما يخصّ أهل الجنة، تعبير جامع يعكس حالة الطمأنينة الروحية والجسدية لهم من كافّة النواحى.

الآية التالية تصف الفريق المقابل لهؤلاء، فتقول: أمّا هؤلاء الذين يسعون ويجتهدون لتسفيه آياتنا، لا يؤمنون ولا يتركون غيرهم يسيرون فى طريق الإيمان، ويتوهّمون أنّهم يستطيعون الفرار من يد قدرتنا، هؤلاء يحضرون فى عذاب أليم يوم القيامة «وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ».

هؤلاء هم الذين اعتمدوا على أموالهم وأولادهم وكثرة عددهم لتكذيب الأنبياء، وعملوا على إغواء عباد اللَّه.

«معاجزين»: كما ذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ معناه أنّ هؤلاء تصوروا أنّهم يستطيعون الفرار من دائرة قدرة اللَّه تعالى وجزائه وعقابه، إلّاأنّ هذا التوهّم باطل وسراب خادع.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۰۹

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۳۹) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۴۲) نفور المعبودين من عابديهم: تعود هذه الآيات لتؤكّد مرّة اخرى خطأ الذين يتوهمون بأنّ أموالهم وأولادهم سبب لقربهم من اللَّه فتقول: «قُلْ إِنَّ رَبّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ».

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

وفى الكافى: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة».

والجدير بالتذكير هو أنّ الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال والكسب المشروع، وإلّا فلا قبول لغيره عند اللَّه ولا بركة فيه.

فمع أنّ محتوى هذه الآية يؤكّد ما عرضته الآيات السابقة إلّاأنّ هناك ما هو جديد من جهتين:

الاولى: أنّ الآية السابقة التى عرضت نفس المفهوم، كانت تتحدث عن أموال وأولاد الكفار، بينما الآية محل البحث باحتوائها على كلمة «عباد» تشير إلى المؤمنين.

الثانیة: الآیة السابقة أشارت إلی سعة الرزق وضیقه بالنسبة إلی مجموعتین مختلفتین، فی حین أنّ هذه الآیة تشیر إلی حالتین مختلفتین بالنسبة لشخص واحد، حیناً یتّسع رزقه وحیناً یضیق.

ولأنّ فریقاً من الأثریاء الظالمین الطغاة کانوا فی صفّ المشرکین، وادّعوا بأنّهم یعبدون الملائکة وأنّهم شفعاؤهم یوم القیامة، فقد ردّ القرآن علی هذا الإدعاء الباطل فقال: «وَیَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعًا ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلئِکَةِ أَهؤُلَاءِ إِیَّاکُمْ کَانُوا یَعْبُدُونَ».

والهدف من هذا السؤال هو أن تظهر الحقائق من إجابة الملائکة، لکی یخسأ هؤلاء الضالّون ویخیب ظنّهم، ویعلموا بأنّ الملائکة متنفّرین من أعمالهم، فیصیبهم الیأس إلی

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۰

الأبد. ذکر (الملائکة) من بین المعبودات التی کان المشرکون یعبدونها، إمّا لأنّ الملائکة أشرف المخلوقات التی عبدها الضالّون، أو أنّه من قبیل أنّ عبدة الأوثان کانوا یعتقدون بأنّ الأحجار والأخشاب هی مظهر ونموذج لموجودات علویة (کالملائکة وأرواح الأنبیاء)، ولذا عبدوها.

والآن لننظر ماذا تقول الملائکة للإجابة علی سؤال الباریء عزّ وجل؟ لقد اختارت الملائکة فی الحقیقة أکثر الأجوبة شمولیة وأعظمها أدباً: «قَالُوا سُبْحَانَکَ أَنتَ وَلِیُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ کَانُوا یَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَکْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ».

والمقصود (بالجن) هو (الشیطان) وسائر الموجودات الخبیثة التی شجّعت عبدة الأوثان علی ذلک العمل، وعلیه فإنّ المراد من عبادة الجن هی تلک الطاعة والإنقیاد لأوامرها والرضی بأضالیلها.

لذا- وکاستخلاص للنتیجة- تقول الآیة الکریمة التی بعدها: «فَالْیَوْمَ لَایَمْلِکُ بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا». وبناءً علی ذلک فلا الملائکة- الذین هم ظاهراً معبودون- یستطیعون الشفاعة لهم، ولا هم یستطیعون مساعدة بعضهم البعض.

«وَنَقُولُ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِی کُنتُم بِهَا تُکَذِّبُونَ».

التعبیر عن «الکفر» ب «الظلم». أو عن «الکافرین والمشرکین» ب «الظالمین»، ذلک لأنّهم قبل کل شیء ظلموا أنفسهم بخلعهم تاج العبودیة للّهعن رؤوسهم.

وفی الحقیقة فإنّهم سیعاقبون یوم القیامة علی شرکهم وعلی إنکارهم للمعاد.

وَ إِذَا تُتْلَی عَلَیْهِمْ آیَاتُنَا بَیِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا رَجُلٌ یُرِیدُ أَنْ یَصُدَّکُمْ عَمَّا کَانَ یَعْبُدُ آبَاؤُکُمْ وَ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا إِفْکٌ مُفْتَرًی وَ قَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ (۴۳) وَ مَا آتَیْنَاهُمْ مِنْ کُتُبٍ یَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَیْهِمْ قَبْلَکَ مِنْ نَذِیرٍ (۴۴) وَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَیْنَاهُمْ فَکَذَّبُوا رُسُلِی فَکَیْفَ کَانَ نَکِیرِ (۴۵) بأیّ منطق ینکرون آیات اللّه: تعود هذه الآیات لتکمل البحث الذی تناولته الآیات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۱

السابقة حول المشرکین الکفار وأقوالهم یوم القیامة، فتتحدث حول وضع هؤلاء فی الدنیا ومواقفهم عند سماعهم القرآن حتی یتّضح أنّ مصیرهم الاخروی المشؤوم إنّما هو نتاج تلک المواقف الخاطئة التی اتّخذوها إزاء آیات اللّه فی الدنیا. تقول الآیة الکریمة الاولی: «وَإِذَا تُتْلَی عَلَیْهِمْ ءَایَاتُنَا بَیِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا رَجُلٌ یُرِیدُ أَن یَصُدَّکُمْ عَمَّا کَانَ یَعْبُدُ ءَابَاؤُکُمْ».

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآیات البینات» وهو السعی إلی تحریک حس العصبیة فی هؤلاء القوم المتعصبین.

ثم توضّح الآیة مقولتهم الثانیة التی قصدوا بها إبطال دعوة النبی صلی الله علیه و آله فتقول: «وَقَالُوا مَا هذَا إِلَّا إِفْکٌ مُّفْتَرًی».

«إفک»: بمعنی کل مصروف عن وجهه الذی یحق أن یکون علیه.

وأخیراً، کان الإتّهام الثالث الذی ألصقوه بالرسول صلی الله علیه و آله هو (السحر) کما نری ذلک فی آخر هذه الآیة: «وَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِینٌ».

فى الآيهٔ التى بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الإدّعاءات الواهيهٔ، فيقول:

«وَمَا ءَاتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ».

وهى إشارهٔ إلى أنّ هذه الإدّعاءات يمكنها أن تكون مقبولهٔ فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوى يخالف مضمونه الدعوهٔ الجديدهٔ، فلا بأس أن ينبروا لتكذيبها. أمّا من لا يعتمد إلّاعلى فكره الشخصى- بدون أى وحى من السماء- وبدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحق له الحكم لمجرد تلفيقه الخرافات والأوهام.

الآيهٔ الأخيرهٔ من هذه الآيات، تهدّد تلك المجموعهٔ المتمردهٔ بكلمات بليغهٔ مؤثرهٔ فتقول:

«وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» فى حين أنّ هؤلاء لم يبلغوا فى القوهٔ والقدرهٔ عشر ما كان لُاولئك الأقوام «وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ».

فمدنهم المدمّرهٔ بضربات العقوبهٔ الإلهيهٔ الساحقهٔ ليست ببعيدهٔ عنكم ... فهى فى الشام القريب منكم، فليكونوا لكم مرآةً للعبرهٔ، واستمعوا إلى النصائح التى يقولها الدمار، وقارنوا مصيركم بمصيرهم، فلا السنّهٔ الإلهيهٔ قابلهٔ للتغيير ولا أنتم أقوى منهم.

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَ فُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَیْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (۴۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۲

الثورهٔ الفكريهٔ أساس لأىثورهٔ أصيلهٔ: فى هذا المقطع من الآيات والآيات التاليهٔ، والتى تشكّل أواخر سورهٔ سبأ المباركهٔ، يُؤمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله مرّهٔ اخرى بدعوهٔ هؤلاء بالأدلهٔ المختلفهٔ ليؤمنوا بالحق، ويرجعوا عن ضلالهم. ففى الآيهٔ الاولى إشارهٔ إلى اللبنهٔ الأساسيهٔ فى كل التحولات والتبدّلات الاجتماعيهٔ والأخلاقيهٔ والسياسيهٔ والاقتصاديهٔ والثقافيهٔ، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَیْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا «تتفكروا» دون أن يذكر بماذا؟ فحذف المتعلق دليل على العموم، أى فى كل شىء، فى الحياهٔ المعنويهٔ والماديهٔ، فى الامور الكبيرهٔ والصغيرهٔ، وبكلمهٔ: فى كل أمر يجب التفكر أوّلًا، وأهمّ من ذلك كله هو التفكر للعثور على الإجابهٔ للأسئلهٔ الأربعهٔ التاليهٔ: من أين جئت؟ لأىّ شىء أتيت؟ إلى أين أذهب؟ وأين أنا الآن؟

تعبير «صاحبكم» إشارهٔ إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وإنّه ليس نكرهٔ بالنسبهٔ لكم، لقد عرفتموه بالأمانهٔ والصدق والإستقامهٔ.

«جِنّة»: بمعنى «جنون» وفى الأصل من مادهٔ «جن» بمعنى ستر الشىء عن الحاسّهٔ، ومن كون أنّ (المجنون) سُتر عقله، فقد اطلق عليه هذا التعبير، والجدير بالملاحظهٔ هنا هو أنّ العبارهٔ تريد الكشف عن هذه الحقيقهٔ، وهى أنّ من يدعو إلى التفكر والإنتباه كيف يكون هو مجنوناً.

جملهٔ «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم» تلخص رسالهٔ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى مسألهٔ «الإنذار» أى:

التحذير من المسؤوليهٔ، ومن المحكمهٔ الإلهيهٔ، والعقاب الإلهى.

فالآيهٔ السابقهٔ كانت دعوهٔ للتفكر ونفى أى حالهٔ من عدم التوازن الروحى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وفى مطلع هذه الآيات، يتحدث القرآن فى عدم مطالبهٔ الرسول صلى الله عليه و آله بأى أجر مقابل تبليغ الرسالهٔ. تقول الآيهٔ الاولى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

أنا دعوتكم للتفكر، والآن تأمّلوا، واسألوا وجدانكم، أى سبب يدعونى لأن أنذركم من العذاب الإلهى الشديد؟، وأى ربح سوف أجنيه من هذا العمل، لأنّى أساساً لم اطالبكم بأى أجر أو جزاء.

وأنّكم إن لاحظتم أنّى فى بعض ما أخبرتكم به عن اللّه سبحانه وتعالى، قلت لكم: «لَّا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۳

أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى «۱»». فهذا أيضاً يعود نفعه إليكم، لأنّ مودّهٔ ذى القربى ترتبط بمفهوم (الإمامهٔ والولايهٔ)

واستمرار خطّ النبوّة، الذی هو ضروری لإدامة هدایتکم.

ثم تختم الآیة بالقول: «وَهُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ». فإن کنت ارید أجری من اللّه وحده فلأنّه وحده عالم بکل أعمالی ومطّلع علی نوایای.

بالإلتفات إلی ما قیل حول حقانیة دعوة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، تضیف الآیة التی بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غیر قابل للإنکار لأنّه ملقی من اللّه سبحانه وتعالی علی قلب الرسول صلی الله علیه و آله: «قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمُ الْغُیُوبِ».

«یقذف»: من مادة «قذف» وهو الرمی البعید. والمقصود ب «یقذف بالحق» هو الکتب السماویة والوحی الإلهی علی قلوب الأنبیاء والمرسلین، ولأنّه سبحانه وتعالی هو علّام الغیوب، فهو یعلم بالقلوب المهیّأة، فینتخبها ویقذف الوحی فیها حتی ینفذ إلی أعماقها.

ویحتمل أن یکون المقصود بتعبیر «القذف» هنا هو نفوذ حقّانیة القرآن إلی نقاط العالم القریبة والبعیدة، وهی إشارة إلی أنّ هذا الوحی السماوی سیضیء جمیع العالم بنوره فی نهایة الأمر.

بعدئذ ولزیادة التأکید یضیف سبحانه وتعالی: «قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا یُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا یُعِیدُ». وعلیه فلن یکون للباطل أی دور مقابل الحق، لا خطّة اولی جدیدة، ولا خطّة معادة، ولهذا السبب فلم یتمکّن الباطل من طمس نور الحق ومحو أثره من القلوب.

ثم یضیف تعالی لأجل إیضاح أنّ ما یقوله صلی الله علیه و آله هو من اللّه، وأنّ کل هدایة منه، وأن لیس هناک أدنی خطأ أو نقص فی الوحی الإلهی: «قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَی نَفْسِی وَإِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِمَا یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی». أی: إنّنی لو اتّکلت علی نفسی فسوف أضلّ، لأنّ الإهتداء إلی طریق الحق من بین أکداس الباطل لیس ممکناً بغیر إمداد اللّه، ونور الهدایة الذی لیس فیه ضلال وتیه هو نور الوحی الإلهی.

وفی ختام الآیة یضیف تعالی: «إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ».

---

(۱) سورة الشوری ۲۳.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۴

قُلْ مَا سَأَلْتُکُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ وَ هُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۴۷) قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُیُوبِ (۴۸) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا یُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا یُعِیدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَی نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِمَا یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ (۵۰) لیس للکافرین مفرّ: الآیات الأخیرة من سورة سبأ تعود إلی الحدیث فی المشرکین المعاندین الذین مرّ الحدیث فیهم فی الآیات السابقة عن طریق مخاطبة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فتصوّر حال تلک المجموعة عند وقوعها فی قبضة العذاب الإلهی، کیف تفکّر فی الإیمان، حین لا یکون لإیمانهم أدنی فائدة. یقول تعالی: «وَلَوْ تَرَی إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّکَانٍ قَرِیبٍ».

وذلک الصراخ والفزع والإضطراب تتحدث عن الدنیا وعذاب الإستئصال، أو لحظة تسلیم الروح، إذ یقول تعالی فی الآیة الأخیرة من هذا المقطع: «وَحِیلَ بَیْنَهُمْ وَبَیْنَ مَا یَشْتَهُونَ کَمَا فُعِلَ بِأَشْیَاعِهِم مِّن قَبْلُ».

والمقصود من جملة «أُخِذُوا مِن مَکَانٍ قَرِیبٍ» هو أنّ هؤلاء الأفراد الکافرین والظالمین، لیس فقط لا یمکنهم الفرار من ید القدرة الإلهیة فحسب، بل إنّ اللّه سبحانه وتعالی یأخذهم بالعذاب من مکان قریب منهم جدّاً.

الآیة التی بعدها، تعرض وضع هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهی تقول الآیة الکریمة:

«وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ». ولکن «أَنَّی لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّکَانٍ بَعِیدٍ».

نعم فبحلول الموت وعذاب الإستئصال اغلقت أبواب العودة کلیّاً، وحیل کالسدّ المحکم بین الإنسان وبین أن یکفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإیمان فی ذلک الحین، کأنّه کائن من مکان بعید، وهو إیمان إضطراری بسبب الخوف الشدید من العذاب الذی یعاین هناک، مثل ذلک الإیمان أصلًا لا قیمة له.

«التناوش»: من مادة «نوش» بمعنى التناول، وبعضهم اعتبروا أنّها بمعنى «التناول بسهولة». أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد ولم يكونوا يتناولونه من قريب.

كيف يستطيعون الآن وبعد أن انتهى كل شىء أن ينبروا لجبران خطاياهم ويؤمنوا، فى حين أنّهم قبل هذا كفروا: «وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۵

ولم يكتفوا بالكفر فقط، بل إنهم ألصقوا بالرسول صلى الله عليه و آله وبتعاليمه مختلف أنواع التّهم، وحكموا أحكاماً خاطئة فيما يخصّ (عالم الغيب- والقيامة- والنبوّة): «وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

«القذف»: الرمى من بعيد؛ و «الغيب» هو عالم ماوراء الحس، والجملة كناية لطيفة عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعة بلا سابق علم أو معرفة، كمن يرمى شيئاً من نقطة بعيدة، فقلّما يصيب الهدف، فظنونهم وأمانيهم وأحكامهم لا تصيب أهدافها أيضاً.

ثم يضيف تعالى: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ».

ففى لحظة مؤلمة فصل بينهم وبين كل ثرواتهم وأموالهم، وقصورهم ومقاماتهم، وأمانيهم، فكيف سيكون حالهم؟ هؤلاء الذين كانوا يعشقون الدرهم والدينار، والذين كانت قلوبهم لا تطاوعهم فى التخلّى عن أبسط الإمكانات المادية ... كيف سيكون حالهم فى تلك اللحظة التى يجب عليهم فيها أن يودّعوا كل ذلك وداعاً أخيراً، ثم يغمضون عيونهم ويسيرون باتّجاه مستقبل مظلم موحش.

«نهاية تفسير سورة سبأ»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۷

۳۵. سورة فاطر

محتوى السورة: يمكن تلخيص آيات هذه السورة فى خمسة أقسام:

۱- قسم مهم من آيات هذه السورة يتحدث حول آثار عظمة اللَّه فى عالم الوجود، وأدلة التوحيد.

۲- قسم آخر من آياتها يبحث فى ربوبية اللَّه، وعن خالقيته ورزاقيته، وخلق الإنسان من التراب ومراحل تكامل الإنسان.

۳- قسم آخر يتحدث حول المعاد ونتائج الأعمال فى الآخرة، ورحمة اللَّه الواسعة فى الدنيا، وسنّته الثابتة فى المستكبرين.

۴- قسم من الآيات يشير إلى مسألة قيادة الأنبياء وجهادهم الشديد والمتواصل ضدّ الأعداء المعاندين، ومواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى هذا الخصوص.

۵- القسم الأخير منها يتعرّض للمواعظ والنصائح الإلهية فيما يخصّ المواضيع المذكورة أعلاه، ويعتبر مكمّلًا لها.

سمّيت هذه السورة ب «فاطر» أو «الملائكة» لابتداء آياتها بآية ذكر فيها «فاطر» و «الملائكة».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة الملائكة،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۸

دعته يوم القيامة ثلاثة أبواب من الجنة أن ادخل من أىّ الأبواب شئت».

ومع الإلتفات إلى ما نعلمه من أنّ أبواب الجنة هى تلك العقائد والأعمال الصالحة التى سبّبت الوصول إلى الجنة، فيمكن أن تكون الرواية السالف ذكرها إشارة إلى أبواب القاعدة الإعتقادية الثلاثية الأساس «التوحيد- المعاد- النبوّة».

ونقول كما قلنا سابقاً بأنّ القرآن برنامج عمل، وتلاوته بداية للتفكر والإيمان الذى هو بدوره وسيلة للعمل بمحتوى الآيات، وكل هذا الثواب العظيم يتحقق بهذه الشروط.

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳) فاتح مغاليق الأبواب: تبدأ هذه السورة بحمد اللَّه والثناء عليه لخلقه هذا الكون الفسيح.

يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«فاطر»: من مادة «فطر» وأصله الشقّ طولًا، لأنّ خلق الموجودات يشبه شقّ ظلمة العدم وظهور نور الوجود، استخدم هذا التعبير فيما يخصّ الخلق.

ولأنّ تدبير امور هذا العالم قد نيطت من قبل البارىء عزّ وجل- بحكم كون عالمنا عالم أسباب- بعهدة الملائكة، فالآية تنتقل مباشرةً إلى الحديث فى خلق الملائكة وقدراتها العظيمة التى وهبها اللَّه إيّاها. «جَاعِلِ الْمَلَئِكَةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

إنّ المقصود من الرسالة مفهوم واسع يشمل كلًا من «الرسالة التشريعية» و «الرسالة التكوينية».

«أجنحة»: جمع «جناح» ما يستعين به الطائر على الطيران، وهو بمثابة اليد فى الإنسان،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۱۹

ولأنّ الجناح فى الطائر يستخدم كوسيلة مساعدة على الإنتقال والحركة والفعالية، فقد استخدمت هذه الكلمة كناية عن وسيلة الحركة ذاتها وعامل القدرة والاستطاعة؛ والمقصود فى الآية هو القدرة على الإنتقال والتمكن من الفعل.

بعد الحديث عن خالقية اللَّه سبحانه وتعالى، ورسالة الملائكة الذين هم واسطة الفيض الإلهى، تنتقل الآيات إلى الحديث عن رحمة اللَّه سبحانه، والتى هى الأساس لكل عالم الوجود. تقول الآية الكريمة: «مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

الخلاصة أنّ تمام خزائن الرحمة عنده، وهو يفيض منها على كل من يراه أهلًا لها.

وتشير الآية التالية إلى «توحيد العبادة» على أساس «توحيد الخالقية والرازقية» فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

فكّروا ملياً ما هو منشأ كل هذه المواهب والبركات والإمكانيات الحياتية التى قيّضت لكم ... «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

فإذا علمتم أنّ مصدر كل هذه البركات هو اللَّه، فاعلموا أنّ: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

وعليه فكيف تنحرفون عن طريق الحقّ إلى الباطل، وتسجدون للأصنام بدلًا من السجود للَّهسبحانه؟ «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (۶) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷) لا يغرنّكم الشيطان والدنيا: بعد أن كان الحديث حول توحيد الخالقية والرازقية ينتقل القسم الثانى من هذه المجموعة من الآيات إلى الحديث فى تفصيل البرامج العملية للرسول صلى الله عليه و آله ويوجّه الخطاب إليه أوّلًا، ثم لعموم الناس، وبيان المناهج العملية لهم بعد تفصيل البرامج العقائدية سابقاً.

فى البداية تقدم الآيات للرسول درس الإستقامة على الصراط السوى، والذى هو أهمّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۰

الدروس له، فتقول الآية الكريمة: «وَإِن يُكَذّبُوكَ فَقَدْ كُذّبَتْ رُسُلٌ مّن قَبْلِكَ». فهؤلاء الرسل الذين سبقوك قاوموا، ولم يهدأ لهم بال فى أداء رسالتهم، وأنت أيضاً يجب أن تقف بصلابة، وتؤدّى رسالتك، والبقية بعهدة اللَّه: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فهو الناظر والرقيب

على كل شىء، وسوف يحاسب على جميع الأعمال. فهو تعالى لا يتغافل عن المشاق التى تتحمّلها فى هذا الطريق، كما أنّه لن يترك هؤلاء المكذبين المخالفين المعاندين يمضون دون عقاب.

ثم تنتقل الآيات لتوضيح أهم البرامج للبشرية، فتقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فالقيامة والحساب والكتاب والميزان والجزاء والعقاب والجنة والنار كلّها وعود إلهية لا يمكن أن يُخلفها اللّه تعالى.

ومع الإنتباه إلى هذه الوعود الحقّة: «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ». فلا ينبغى أن تخدعكم الحياة الدنيا، ولا يخدعكم الشيطان بعفو اللّه ورحمته ..

أجل، إنّ عوامل الإثارة، وزخارف الدنيا وزبارجها، إنّما تريد أن تملأ قلوبكم، وتلهيكم عن تلك الوعود الإلهية العظيمة.

«غَرور»: صيغة مبالغة بمعنى الخدّاع، والظاهر أنّه إشارة الشيطان.

الآية التالية تنذر وتنبّه جميع المؤمنين فيما يخصّ مسألة وساوس الشيطان ومكائده والتى تعرّضت لها الآية السابقة فتقول: «إِنَّ الشَّيْطَنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا».

تلك العداوة التى شرع بها الشيطان من أوّل يوم خُلق فيه آدم عليه السلام.

فى آخر الآية يضيف تعالى للتأكيد أكثر: «إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ». «حزب»: فى الأصل بمعنى الجماعة التى لها فعالية، ولكنّها تطلق عادةً على كل مجموعة تتبع برنامجاً وهدفاً خاصاً.

إنّ الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصى والذنوب ولوث الشهوات إلى الشرك والطغيان والإضطهاد، وبالنتيجة إلى جهنم وبئس المصير.

آخر آية من هذه الآيات توضّح عاقبة «حزب اللّه» السعيدة وخاتمة «حزب الشيطان» المريرة، فتقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

إنّ الكفر وحده يكفى للخلود فى عذاب السعير، بينما الإيمان بدون العمل لا يكفى لتحقيق النجاة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۱

أ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (۸) وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (۹) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (۱۰) تبيّن ممّا مرّ تقسيم الناس إلى مجموعتين «المجموعة المؤمنة» و «المجموعة الكافرة» أو «حزب اللّه» و «حزب الشيطان»، وتنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمة لهاتين المجموعتين والتى هى فى الواقع المصدر لسائر برامجهما. تقول الآية الاولى: «أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا». هل هو كمن يرى الحقائق كما هى من حيث الحسن والقبح؟!

إنّ هذه القضية هى المفتاح لكل مصائب الأقوام الضالة والمعاندة، الذين يرون أعمالهم القبيحة أعمالًا جميلة، وذلك لإنسجامها مع شهواتهم وقلوبهم المعتمة.

أمّا من الذى زيّن سوء أعمال هؤلاء فى أنظارهم؟

مما لا شك فيه أنّ العامل الأصلى لذلك هو الهوى والشيطان، ولكن لأنّ اللّه هو الخالق لذلك الأثر فى أعمالهم، فيمكن نسبة ذلك إلى اللّه تعالى، لأنّ الإنسان وفى بداية طريق المعاصى يشعر بعدم الإرتياح حين إرتكاب المعصية، لسلامة فطرته وحيوية وجدانه وسلامة عقله، ولكن بتكرار تلك الأعمال يقلّ عدم الإرتياح إلى أن يصل إلى درجة عدم الإكتراث. ثم إذا استمرّ فى ذلك الطريق يمسى القبيح جميلًا فى نظره، حتى يصل إلى أن يتوهّم أنّ ذلك من مفاخره وفضائله، والحال أنّه يغطّ فى بِركة آسنةٍ من التعاسة والشقاء.

ثم يضيف القرآن موضّحاً علّة الفرق بين الفريقين فيقول: «فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ».

واضح أنّ هذه المشيئة الإلهية توأم لحكمته تعالى، وإنّما تعطى لكل ما يناسبه، لذا فإنّ الآية تضيف فى الختام: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ».

ذلك لأجل: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۲

واستناداً إلى البحوث التى سبقت حول الهداية والضلالة والإيمان والكفر، تنتقل الآية التالية إلى بحث المبدأ والمعاد بعبارات مضغوطة، وتقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر، تقول الآية الكريمة: «وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذلِكَ النُّشُورُ». نظام دقيق يتحكّم فى حركة الرياح، ثم فى حركة السحاب، ثم فى نزول قطرات المطر الباعثة للحياة، ثم فى حياة الأرض الميتة، وهو أحسن دليل على أنّ يد القدرة الحكيمة هى من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير اموره.

الآن، وبعد هذا المبحث التوحيدى، تشير الآية إلى الإشتباه الخطير الذى وقع فيه المشركون لإعتقادهم بأنّ العزّة تأتيهم من أصنامهم، فتقول الآية: «مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا».

«العزّة»: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ... من قولهم: أرض عزاز، أى صُلبة.

ولأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الذات الوحيدة التى لا ـ تُغلب، وجميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابلة لأن تُغلب، وعليه فإنّ العزّة جميعها من اللّه، وكل من اكتسب عزّة فمن بحر عزّته اللامتناهى.

فى كتاب كفاية الأثر عن جنادة بن أبى اميّة قال: دخلت على الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السلام فى مرضه الذى توفّى فيه وبين يديه طشت يقذف فيه الدم ويخرج كبده قطعة قطعة، من السم الذى أسقاه معاوية (لعنه اللّه)، فقلت: يا مولاى ما لك لا تعالج نفسك؟

فقال: «يا عبد اللّه، بماذا اعالج الموت؟»

قلت: إنّا للّهوإنّا إليه راجعون.

ثم التفت إلىّ فقال: «لقد عهد إلينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّ هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من ولد على وفاطمة، ما منّا إلّامسموم أو مقتول». ثم رفعت الطشت وبكى صلوات اللّه عليه وآله قال: فقلت له: عظنى يابن رسول اللّه قال: «نعم ... وإذا أردت عزّاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلّ معصية اللّه إلى عزّ طاعة اللّه عزّ وجل ...» الحديث.

ثم توضّح الآية طريق الوصول إلى (العزة)، فيقول تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

فقد فسّر «الكلم الطيب» بأنّه العقائد الصحيحة فيما يخصّ المبدأ والمعاد والنبوّة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۳

ثم تنتقل الآية إلى ما يقابل كل ذلك فتقول: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ».

«يبور»: من مادة «بوار» و «بوران» فى الأصل بمعنى الكساد المفرط، ولأنّ مثل هذا الكساد يكون سبباً للهلاك، فقد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الهلاك والفناء. وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۱) وَ ما يَسْتَوِى الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲)
مع الإلتفات إلى ما كان من حديث فى الآيات السابقة حول التوحيد والمعاد وصفات اللّه، تتعرض هذه الآيات أيضاً إلى قسم آخر من آيات «الأنفس والآفاق» التى تدلّل على قدرة اللّه من جانب، وعلى علمه من جانب آخر، وقضية إمكانية المعاد من جانب ثالث.

فى البداية تشير إلى خلق الإنسان فى مراحله المختلفة فتقول: «وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا».

وهذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان: الطين- والنطفة- ومرحلة الزوجية.

بديهى أنّ الإنسان من التراب، إذ إنّ آدم عليه السلام خلق من تراب، كما أنّ جميع المواد سواء التى يتشكّل منها جسم الإنسان، أو التى يتغذّى عليها، أو التى تنعقد منها نطفته، جميعها تنتهى إلى مواد هى ذاتها التى يحتويها التراب.

ثم ينتقل إلى المرحلة الرابعة والخامسة، «حمل النساء» و «الولادة» فيقول تعالى: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ».

أين ذلك التراب الميّت الجامد من الإنسان الحى العاقل الفطن المبتكر؟! وأين تلك النطفة الحقيرة التى تتكوّن من بضع قطرات من الماء المتعفن من ذلك الإنسان الراشد الجميل والمجهز بالحواس والأجهزة العضوية المختلفة.

ثم تشير الآية إلى المرحلتين السادسة والسابعة من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۴

حلقة اخرى، فتذكر مراحل العمر المختلفة والعوامل المؤثّرة فى زيادته ونقصانه فتقول الآية الكريمة: «وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ». «معمّر»: من مادة «عُمْر» فى الأصل من «العمارة» نقيض الخراب، والعمر اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة خلال مدة معيّنة.

المقصود من «الكتاب» هو العلم الإلهى اللامحدود.

وأخيراً تختم الآية بهذه الجملة: «إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب، وبدء خلق إنسان كامل من «ماء النطفة» وكذلك المسائل المرتبطة بتحديد الجنس، ثم الزوجية، والحمل، والولادة، وزيادة أو نقص العمر سواء بلحاظ القدرة أو بلحاظ العلم والحسابات كلها بالنسبة إليه تعالى سهلة وبسيطة، وذلك بمجموعه يمثّل جانباً من «آيات الأنفس» التى تربطنا ببداية عالم الوجود والتعرّف عليه من جهة، كما تعتبر أدلّة حيّة على مسألة إمكانية المعاد من جهة اخرى.

إنّ هناك سلسلة من العوامل الطبيعية التى تؤثّر على طول أو قصر العمر، والتى أصبح أكثرها معروفاً عند الناس، كالتغذية الصحيحة بعيداً عن الإفراط والتفريط، العمل وإدامة الحركة، تحاشى المواد المخدّرة، والإدمانات الخطرة والمشروبات الكحولية، الإبتعاد عن المهيّجات المستمرة، التمسك بإيمان قوى يساعد الإنسان على العيش بإطمئنان وهدوء فى الملمّات، ويعطيه القدرة على مواجهة ذلك.

وإضافة إلى ذلك، فإنّ هناك عوامل اخرى والروايات أكّدت عليها، وكنموذج نورد الروايات التالية:

أ) فى مكارم الأخلاق للطبرسى عن الرسول صلى الله عليه و آله قال: «إنّ الصدقة وصلة الرحم تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار».

ب) وفى وسائل الشيعة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «البر وصدقة السرّ ينفيان الفقر ويزيدان فى العمر، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء».

تشير الآية التالية- التى تعتبر قسماً آخر من آيات الآفاق الدالة على عظمته وقدرته سبحانه وتعالى- إلى خلق البحار وبركاتها وفوائدها، فتقول الآية الكريمة: «وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ».

فمع أنّ كلا البحرين فى الأصل كانا بصورة قطرات من الماء الصافى والسائغ نزلت من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۵

السماء إلى الأرض، وأنّ كليهما من أصل واحد، إلّاأنّهما يظهران على هيئتين متفاوتتين تماماً وبفوائد متفاوتة أيضاً.

والعجيب أنّ الإنسان يحصل على السمك الطازج من كل منهما: «وَمِن كُلّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا». علاوة على إمكانية الإفادة من كليهما للنقل والإنتقال «وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يستخرج من البحار وسائل الزينة المختلفة من أمثال (اللؤلؤ- والمرجان- والصدف- والدرّ)، وتركيز القرآن على ذكر هذه المسألة لأنّ

روح الإنسان تختلف عن الحيوان باحتوائها على أبعاد مختلفة منها «الحس الجمالى» الذى هو منبع ظهور جميع المسائل الذوقية والفنيّة والأدبية التى يؤدّى إشباعها بصورة صحيحة إلى إشاعة السرور فى النفس.

إنّ البضائع التى يتمّ حملها ونقلها عبر البحار، وكذا أعداد المسافرين الذين يتمّ نقلهم من مكان إلى آخر، على درجة من الكثرة بحيث لا يمكن مقايستها مع أيّة من وسائل النقل الاخرى.

وتأكيد القرآن الكريم على مفهوم «لحماً طريّاً» إشارة عميقة المحتوى لفوائد التغذية بهذه اللحوم فى مقابل أضرار اللحوم القديمة والمعلّبة وأمثال ذلك.

جملة «لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ» لها معنى واسع وشامل لكل فعالية اقتصادية تعتمد على البحر.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١۴) تعاود هذه الآيات الإشارة إلى قسم آخر من آيات التوحيد والنعم الإلهية اللامتناهية، لكى تدفع الإنسان مع تعريفه بتلك النعم إلى شكرها ومعرفة المعبود الحقيقى، وليرجع عن أى شرك أو عبادة خرافية. يقول تعالى: «يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ».

«يولج»: من مادة «إيلاج» بمعنى الدخول فى مضيق. ويمكن أن يكون إشارة إلى أحد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ١٢۶

المعنيين أو كليهما، أى: الزيادة والنقص التدريجى فى الليل والنهار على مدار السنة، مما يؤدى إلى حصول الفصول المختلفة بكل آثارها وبركاتها، أو الإنتقال التدريجى من الليل إلى النهار وبالعكس، وذلك بواسطة الشفق والغسق الذى يقلّل من مخاطر الإنتقال المفاجىء من النور إلى الظلام وبالعكس. ثم يشير إلى مسألة تسخير الشمس والقمر فيقول تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

وأى تسخير أفضل من حركة هذين الكوكبين باتّجاه تحقيق المنافع المختلفة للبشر، وهذا التسخير يعتبر مصدراً لمختلف أنواع البركات فى حياة البشر.

ومع ما تتمتّع به الشمس والقمر فى أفلاكها من مسير دقيق ومنتظم لتؤدّى المنفعة المناسبة والجيّدة للبشر، فإنّ النظام الذى يحكمها ليس بخالد. لذا يشير تعالى إلى ذلك بعد ذكر التسخير فيقول: «كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم يقول تعالى مسلّطاً الضوء على نتيجة هذا البحث التوحيدى: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ».

اللّه الذى قرّر نظام النوم والظلام والحركات الدقيقة للشمس والقمر بكل بركاتها. «لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ».

«قطمير»: هو الأثر فى ظهر النواة، وهنا كناية عن موجودات حقيرة تافهة.

ثم تضيف الآية: «إِن تَدْعُوهُمْ لَايَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ»، لأنّها قطع من الحجر والخشب لا- أكثر، جمادات لا- شعور لها، «وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ».

إذ اتّضح أنّها لا تملك نفعاً ولا ضرّاً حتى بمقدار (قطمير).

وأدهى من ذلك «وَيَوْمَ الْقِيمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ».

ما ورد فى هذه الآية شبيه بما ورد فى الآية (٢٨) من سورة يونس حيث يقول تعالى:

«وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ».

ثم يقول تعالى فى ختام الآية من أجل تأكيد أكثر أن لا- أحد يخبرك عن جميع الحقائق كما يخبرك اللّه تعالى: «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ».

فإذا قالت الآية أنّ الأصنام تتنكّر لكم فى يوم القيامة، وتتضايق منكم، فلا تتعجبوا من هذا القول، فإنّ من يخبركم هو الذى يعلم بكل ما فى هذا الكون بالتفصيل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۷

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۱۵) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۶) وَ مَا ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۱۷) وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۱۸) بعد الدعوة المؤكّدة إلى التوحيد ومحاربة أىّ شكل من أشكال الشرك وعبادة الأوثان، يحتمل أن يتوهّم البعض فيقول: ما هى حاجة اللَّه لأن يُعبد بحيث يصرّ كل هذا الإصرار، فتقول الآية الكريمة:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

فالقائم بذاته غير المحتاج لسواه، واحد أحد، وهو اللَّه تعالى، وكل البشر بل كل الموجودات محتاجة إليه فى جميع شؤونها وفقيرة إليه ومرتبطة بذلك الوجود المستقل بحيث لو قطع إرتباطها به لحظة واحدة لأصبحت عدم فى عدم.

فنحن المحتاجون والفقراء إلى اللَّه ونسلك سبيل تكاملنا عن طريق عبادته وطاعته، ونقترب بذلك من مصدر الفيض اللامتناهى، ونغترف من أنوار ذاته وصفاته.

وعليه فهو «غنى» كما أنّه «حميد» أى إنّه فى عين إستغنائه عن كل أحد، فهو رحيم وعطوف وأهل بكل حمد وشكر.

الإلتفات إلى هذه الحقيقة له أثران إيجابيان على المؤمنين، فهى تستنزلهم من مركب الغرور والأنانية والطغيان من جانب، وتنبههم إلى أنّهم لا يملكون شيئاً من أنفسهم يستقلّون به، وأنّهم مؤتمنون على كل ما فى أيديهم من جانب آخر، لكى لا يمدّوا يد الحاجة إلى غيره، ولا يضعوا طوق العبودية لغير اللَّه فى أعناقهم.

ولتأكيد هذا الفقر والحاجة فى الإنسان، يقول تعالى فى الآية التالية: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ». فهو تعالى ليس محتاجاً لطاعتكم ولا خائفاً من معصيتكم.

وفى الآية الثالثة أيضاً يعود التأكيد مرّةً ثانية فيقول تعالى: «وَمَا ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ».

نعم، فإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهذا يصدق على جميع عالم الوجود.

الآية الأخيرة من هذه الآيات تشير إلى خمسة مواضيع فيما يتعلق بما سبق بحثه فى الآيات السابقة:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۲۸

الأوّل: من الممكن أن يثير ما ورد فى الآية الماضية من قوله تعالى: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ». سؤالًا فى أذهان البعض من أنّ المقصودين فى هذه الآية ليس المذنبين فقط، فهل يمكن أن يكون هؤلاء أيضاً معرضين للعقوبات المترتبة على أعمال الطالحين، ويُحكمون بالفناء على حد سواء؟ هنا يجيب: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

«وزر»: بمعنى الثقل، وقد اخذ من «وَزر» (على زنة كرب) بمعنى الملجأ فى الجبل، وأحياناً يأتى بمعنى المسؤولية.

وهذه الجملة ترتبط من جانب بالعدل الإلهى، بحيث يرتهن كل بعمله، ومن جانب آخر فإنّ فيها إشارة إلى شدّة العقوبة يوم القيامة.

هذه المسألة تطرح فى الجملة الثانية من الآية بشكل آخر، يقول تعالى: «وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَايُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى «۱».

وفى الجملة الثالثة من الآية، ترفع الستارة عن حقيقة أنّ إنذارات الرسول صلى الله عليه و آله لها أثرها فى القلوب المهيّأة لذلك فقط، تقول الآية الكريمة: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ».

فإن لم يكن خوف اللَّه متمكّناً من القلب، ولم يكن هناك إحساس بمراقبة قوة غيبية فى السرّ أو العلن، ولم تنفع الصلاة التى تؤدّى إلى إحياء القلب والتذكير باللَّه فى تقوية ذلك الإحساس ... فلن يكون لإنذارات الأنبياء أثر يذكر.

وفى الجملة الرابعة يعود مرّة اخرى إلى حقيقة (إنّ اللّه غير محتاج لأحد) فتضيف: «وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ».

وفى الختام ينبّه فى الجملة الخامسة إلى أنّ المحسنين والمسيئين إن لم ينالوا جزاء أعمالهم فى الدنيا فليس لذلك أهمية ما دام المصير إلى اللّه: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

وَ مَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لَا الظُّلُمَاتُ وَ لَا النُّورُ (٢٠) وَ لَا الظِّلُّ وَ لَا الْحَرُورُ (٢١) وَ مَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣)

---

(١) «مثقلة»: بمعنى «الحامل لحمل ثقيل» ويقصد بها هنا حامل الوزر على عاتقه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ١٢٩

وما تستوى الظلمات ولا النور: تذكر الآيات مورد البحث- بما يتناسب مع البحوث التى مرّت حول الإيمان والكفر فى الآيات السابقة- أربعة أمثلة جميلة للمؤمن والكافر، توضّح بأجلى شكل آثار الإيمان والكفر.

فى المثال الأوّل: شبّه «الكافر والمؤمن» ب «الأعمى والبصير» حيث تقول الآية الكريمة:

«وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ».

الإيمان نور وإشراق، يعطى البصيرة والمعرفة للإنسان فى النظرة إلى العالم، وفى الإعتقاد، والعمل وفى كل الحياة، أمّا الكفر فظلمة كالحة، فلا إعتقاد صحيح ونظرة سليمة عن العالم، ولا عمل صالح.

وبما أنّ العين المبصرة وحدها لا تكفى لتحقق الرؤية، فيجب توفّر النور والإضاءة أيضاً لكى يستطيع الإنسان الإبصار بمساعدة هذين العاملين، تضيف الآية التالية: «وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ».

لأنّ الظلام منشأ الضلال، الظلام سبب السكون والركود، الظلام مسبّب لكل أنواع المخاطر، أمّا النور والضياء فهو منشأ الحياة والمعيشة والحركة والرشد والنمو والتكامل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ». فالمؤمن يستظل فى ظل إيمانه بهدوء وأمن وأمان، أمّا الكافر فلكفره يحترق بالعذاب والألم.

ثم يقول تعالى فى آخر تشبيه: «وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ». المؤمنون حيويون، سعاة متحركون، أمّا الكافر فمثل الخشبة اليابسة، لا فيها طراوة ولا ورق ولا ورد ولا ظل لها، ولا تصلح إلّاحطباً للنار.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ». لكى يسمع دعوة الحق ويلبّى نداء التوحيد ودعوة الأنبياء «وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ».

فمهما بلغ صراخك، ومهما كان حديثك قريباً من القلب، ومهما كان بيانك معبّراً، فإنّ الموتى لا يسعهم إدراك شىء من ذلك، ومن فقد الروح الإنسانية نتيجة الإصرار على المعاصى، وغرق فى التعصب والعناد والظلم والفساد، فبديهى أن ليس لديه الإستعداد لقبول دعوتك.

وعليه فلا تقلق من عدم إيمانهم، ولا تجزع، فليس عليك من وظيفة إلّاالإبلاغ والإنذار «إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ١٣٠

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) لا عجب من عدم إيمان: توصّلنا فى الآيات السابقة إلى أنّ هناك أفراداً كالأموات والعميان لا تترك مواعظ الأنبياء فى قلوبهم أدنى أثر، وعلى ذلك فإنّ الآيات مورد البحث تقصد مواساة الرسول صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص وتخفيف آلامه لكى لا يغتمّ كثيراً.

أوّلًا تقول الآية الكريمة: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ».

أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشّرهم بثواب اللّه، وأنذرهم عقابه، سواء استجابوا أو لم يستجيبوا.

ويضيف تعالى فى الآية التالية: «وَإِن يُكَذِّبُوكَ». فلا عجب من ذلك، ولا تحزن بسبب ذلك، لأنه «فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

«البيّنات»: بمعنى الدلائل الواضحة والمعجزات التى تثبت حقانية النبى؛ والمقصود ب «الزبر»: ذلك القسم من كتب الأنبياء التى تحتوى على العبرة والموعظة والنصيحة والمناجاة (كزبور داود)؛ وأمّا «الكتاب المنير» فتلك المجموعة من الكتب السماوية التى تحتوى على الأحكام والقوانين والتشريعات الاجتماعية والفردية المختلفة مثل التوراة والإنجيل والقرآن.

تشير الآية الأخيرة من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعة فتقول: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (۱). فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهى، وإن استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبناهم بالطوفان، وبعض بالريح العاصفة المدمّرة، وآخرون بالصيحة والصاعقة والزلزلة.

أخيراً لتأكيد وبيان شدّة وقسوة العقوبة عليهم يقول: «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ». ذلك تماماً

---

(۱) «أخذت»: من مادة «أخذ» بمعنى حيازة الشىء وتحصيله، لكنّها هنا كناية عن المجازاة، لأنّ الأخذ مقدّمةللعقاب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۱

مثلما يقوم شخص بإنجاز عمل مهم ثم يسأل الحاضرين: كيف كان عملى؟

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (۲۸) العجائب المختلفة للخلقة: مرّة اخرى تعود هذه الآيات إلى مسألة التوحيد، وتفتح صفحة جديدة من كتاب التكوين أمام ذوى البصائر من الناس، لكى ترد بعنف على المشركين المعاندين ومنكرى التوحيد المتعصبين. أوّلًا تقول الآية الكريمة: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا».

شروع هذه الجملة بالإستفهام التقريرى، وبتحريك حس التساؤل لدى البشر، إشارة إلى أنّ هذا الموضوع جلى إلى درجة أنّ أى شخص إذا نظر من موقع طلب الحقيقة أبصرها.

نعم، يبصر هذه الفواكه والزهور الجميلة والأوراق والبراعم المختلفة بأشكال مختلفة تتولّد من ماء وتراب واحد.

«ألوان»: قد يكون المراد «الألوان الظاهرية للفواكه» أو كناية عن التفاوت فى المذاق والتركيب والخواص المتنوّعة لها.

ثم تشير الآية إلى تنوع أشكال الجبال والطرق الملوّنة التى تمرّ من خلالها وتؤدى إلى تشخيصها وتفريقها الواحدة عن الاخرى، فتقول: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ».

«جدد»: جمع «جدّة» بمعنى الجادة والطريق.

«بيض»: جمع «أبيض» كما أنّ «حمر» جمع «أحمر» وهو إشارة إلى الألوان.

«غرابيب»: جمع «غربيب»- على وزن كبريت- وهو الشبيه للغراب فى السواد.

فإنّ تشكيل الجبال بألوان مختلفة من جهة، وتلوين الطرق الجبلية بألوان متفاوتة، من جهة اخرى، دليل آخر على عظمة وقدرة وحكمة اللّه سبحانه وتعالى والتى تتجلّى وتتزيّن كل آن بشكل جديد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۲

وفى الآية التالية تطرح مسألة تنوع الألوان فى البشر والأحياء الاخرى، فيقول تعالى:

«وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ».

فالبشر مع كونهم جميعاً لأب واحد وام واحدة، إلّاأنّهم عناصر وألوان متفاوتة تماماً، فالبعض أبيض البشرة كالوفر، والبعض الآخر أسود كالحبر، وحتى فى العنصر الواحد فإنّ التفاوت فى اللون شديد أيضاً.

ناهيك عن التفاوت والإختلاف الكامل فى بواطنهم عدا أشكالهم الظاهرية، وفى خلقهم ورغباتهم وخصوصيات شخصياتهم وإستعداداتهم وذوقهم.

وبعد عرض تلك الأدلة التوحيدية يقول تعالى فى الختام جامعاً: نعم إنّ الأمر كذلك «كَذلِكَ».

ولأنّ إمكانية الإنتفاع من آيات الخلق العظيمة هذه تتوفّر أكثر عند العباد العقلاء والمفكرين يقول تعالى فى آخر الآية: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمؤُا».

نعم فالعلماء من بين جميع العباد، هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشية «وهى الخوف من المسؤولية متوافق مع إدراك لعظمة اللّه سبحانه»، حالة (الخشية) هذه تولّدت نتيجة سبر أغوار الآيات الآفاقية والأنفسية، والتعرّف على حقيقة علم وقدرة اللّه وغاية الخلق.

الراغب فى مفرداته يقول: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها».

روى- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «يعنى بالعلماء من صدق قوله فعله ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم».

وفى ختام الآية يقول تعالى، كدليل موجز على ما مرّ: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ».

«عزّته» وقدرته اللامتناهية منبع للخوف والخشية عند العلماء، و «غفرانه» سبب فى الرجاء والأمل عندهم، وبذا فإنّ هذين الاسمين المقدّسين يحفظان عباد اللّه بين الخوف والرجاء، ونعلم بأنّه لا يمكن إدامة الحركة باتّجاه التكامل بدون الإتصاف بهاتين الصفتين بشكل متكافىء.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (۳۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۳

التجارة المربحة مع اللّه: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى مرتبة الخوف والخشية عند العلماء، تشير الآيات مورد البحث إلى مرتبة «الأمل والرجاء» عندهم أيضاً. يقول تعالى أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ».

إنّ «التلاوة» هنا لا تعنى مجرّد القراءة السطحية الخالية من التفكر والتأمل، بل قراءة تكون سبباً وباعثاً على التفكّر، الذى يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح، الذى يربط الإنسان باللّه من جهة، ومظهر ذلك الصلاة، ويربطه بخلق اللّه من جهة ثانية، ومظهر ذلك الإنفاق من كل ما تفضّل به اللّه تعالى على الإنسان.

هذا الإنفاق تارةً يكون (سرّاً)، فيكون دليلًا على الإخلاص الكامل؛ وتارةً يكون (علانية) فيكون تعظيماً لشعائر اللّه ودافعاً للآخرين على سلوك هذا الطريق.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، توضّح هدف هؤلاء المؤمنين الصادقين فتقول: إنّهم يعملون الخيرات والصالحات «لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ».

هذه الجملة تشير إلى منتهى إخلاصهم، لأنهم لا ينظرون إلّاإلى الأجر الإلهى.

وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (۳۱) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (۳۲) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين المخلصين الذين يتلون الكتاب الإلهى ويطبّقون وصاياه، تتحدث هذه الآيات عن ذلك الكتاب السماوى وأدلّة

حقانيته، وكذلك عن الحملة الحقيقيين لذلك الكتاب، وبذا يستكمل الحديث الذى إفتتحته الآيات السابقة حول التوحيد، بالبحث الذى تثيره هذه الآيات حول النبوّة. تقول الآية الكريمة:

«وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ».

جملة «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» دليل آخر على صدق هذا الكتاب السماوى.

جملة «إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ» توضّح علة حقانية القرآن وإنسجامه مع الواقع جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (۳۳) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (۳۴) الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (۳۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۴

والحاجات البشرية، لأنّه نازل من اللَّه سبحانه وتعالى الذى يعرف عباده خير معرفة، وهو البصير الخبير فيما يتعلق بحاجاتهم. «الخبير»: العالم بالبواطن والعقائد والنيات والبُعد الروحى فى الإنسان؛ و «البصير»:

العالم بالظواهر والبعد الجسمانى للإنسان.

الآية التالية تتحدث فى موضوع مهم بالنسبة إلى حملة هذا الكتاب السماوى العظيم، اولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، فى زمانه وبعده على مرّ القرون والعصور، وهم يحفظونه ويحرسونه، فتقول: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا».

والمقصود من «الكتاب» هنا، «القرآن الكريم».

إنّ «الإرث» يطلق على ما يستحصل بلا مشقّة أو جهد، واللَّه سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم للمسلمين هكذا بلا مشقّة أو جهد.

ثم تنتقل الآية إلى تقسيم مهمّ بهذا الخصوص، فتقول: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ».

إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد أوكل مهمّة حفظ هذا الكتاب السماوى، بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى هذه الامة، الامة التى إصطفاها اللَّه سبحانه، غير أنّ فى تلك الامة مجاميع مختلفة: بعضهم قصّروا فى وظيفتهم العظيمة فى حفظ هذا الكتاب والعمل بأحكامه، وفى الحقيقة ظلموا أنفسهم، وهم مصداق «ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ».

ومجموعة اخرى، أدّت وظيفتها فى الحفظ والعمل بالأحكام إلى حدّ كبير، وإن كان عملها لا يخلو من بعض الزلّات والتقصيرات أيضاً.

وأخيراً مجموعة ممتازة، أنجزت وظائفها العظيمة بأحسن وجه، وسبقوا الجميع فى ميدان الإستباق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۵

الحمد للَّهالذى أذهب عنا الحزن: هذه الآيات نتيجة لما ورد ذكره فى الآيات الماضية.

يقول تعالى: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا».

«جنات»: جمع «جنّة» بمعنى (الروضة) وكل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض؛ و «عدن»: بمعنى الإستقرار والثبات، وعليه فإنّ «جنات عدن» بمعنى «جنات الخلد والدوام والإستقرار». فإنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ نعم الجنة العظيمة خالدة وثابتة.

ثم تشير الآية إلى ثلاثة أنواع من نعم الجنة، بعضها إشارة إلى جانب مادى وبعضها الآخر إلى جانب معنوى وباطنى، وبعض أيضاً يشير إلى عدم وجود أى نوع من المعوّقات.

فتقول الآية: «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ».

فهؤلاء لم يلتفتوا فى هذه الدنيا إلى بريقها وزخرفها، ولم يكونوا أسرى التفكير باللباس الفاخر، واللَّه سبحانه وتعالى يعوّضهم عن كل ذلك، فيلبسهم فى الآخرة أفخر الثياب.

بعد ذكر تلك النعمة المادية، تنتقل الآية مشيرة إلى نعمة معنوية خاصة فتقول: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ».

«الحزن»: (على وزن عدم)، و «الحزن»- على وزن عُسر- كليهما لمعنىً واحد، وأصله الوعورة والخشونة فى الأرض واطلق على الخشونة فى النفس لما يحصل فيها من الغم ويضادّه الفرح.

ثم يضيف أهل الجنة هؤلاء: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ».

فبغفرانه أزال عنّا حسرة الزلّات والذنوب، وبشكره وهبنا المواهب الخالدة التى لن يلقى عليها الغم بظلاله المشؤومة.

أخيراً تنتقل الآية مشيرة إلى آخر النعم، وهى عدم وجود عوامل الإزعاج والمشقة والتعب والعذاب، فتحكى عن ألسنتهم «الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَايَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ».

«النصب»: بمعنى التعب؛ و «اللغوب»: يطلق على المشاق الروحية.

وبذا فلا وجود هناك لعوامل التعب والمشقّة، سواء كانت نفسية أو جسمانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۶

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (۳۶) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۳۸) ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً: القرآن الكريم يقرن (الوعيد) (بالوعود) ويذكر «الإنذارات»، إلى جانب «البشارات» لتقوية عاملى الخوف والرجاء الباعثين للحركة التكاملية فى الإنسان. فمتابعة للحديث الذى كان فى الآيات السابقة عن المواهب الإلهية، ينتقل الحديث هنا إلى العقوبات الأليمة للكفار، والحديث هنا أيضاً عن العقوبات المادية والمعنوية. تبتدىء الآيات بالقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ»، فكما أنّ الجنة دار المقامة والخلد للمؤمنين، فإنّ النار أيضاً مقام أبدى للكافرين.

ثم تضيف: «لَايُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا». فالموت بالنسبة إلى هؤلاء ليس سوى منفذ للخلاص من العذاب، لكن اللَّه تعالى أوصد دونهم ذلك المنفذ.

يبقى منفذ آخر هو أن يبقوا على قيد الحياة ويخفّف عنهم العذاب شيئاً فشيئاً، أو أن يزداد تحمّلهم للعذاب فينتج عن ذلك تخفيف العذاب عنهم، ولكن تتمّة الآية أغلقت هذا المنفذ أيضاً: «وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا».

ثم تضيف الآية وللتأكيد على قاطعية هذا الوعد الإلهى: «كَذلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ».

فجزاء الكفار ليس سوى الحريق والعذاب الأليم، الحريق بالنار التى أشعلوها بأيديهم فى الحياة الدنيا واحتطبوا لها من أفكارهم وأعمالهم ووجودهم.

وتنتقل الآية التالية إلى وصف نوع آخر من العذاب الأليم، وتشير إلى بعض النقاط الحسّاسة فى هذا الخصوص، فتقول الآية الكريمة: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ» «۱».

---

(۱) «يصطرخون»: من مادة «صرخ» بمعنى الصياح الشديد الذى يطلقه الإنسان من القلب للإستغاثة وطلب النجدة، للتخلّص من الألم أو العذاب أو أى مشكل آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۷

فهم بمشاهدة نتائج أعمالهم السيّئة، يغرقون فى ندم عميق، ويصرخون من أعماق قلوبهم ويطلبون المحال، العودة إلى الدنيا للقيام

بالأعمال الصالحة.

ففى قبال ذلك الطلب الذى يطلبه اولئك من اللّه سبحانه وتعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه وتعالى حيث يقول: «أَوَلَمْ نُعَمّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ». فإذا لم تنتفعوا بكل ما توفّر بين أيديكم من وسائل النجاة تلك ومن كل الفرص الكافية المتاحة «فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ».

فى الآية الأخيرة- من هذه الآيات- يرد الجواب على طلب الكفار فى العودة إلى الدنيا فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

فهو سبحانه وتعالى يعلم أنّه لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنم، وأعادهم إلى الدنيا فسوف يعاودون نفس المسيرة المنحرفة التى كانوا عليها.

إضافةً إلى ذلك فالآية تنبيه للمؤمنين على أن يسعوا لتحقيق الإخلاص فى نيّاتهم، وأن لا يأخذوا بنظر الاعتبار غير اللّه سبحانه وتعالى.

هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَ لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (۳۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً (۴۰) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۱) تنتقل الآيات إلى مرحلة اخرى من تشخيص عوامل ضعف وبطلان مناهج الكفار والمشركين فى التعامل أو التفكير لتكمل البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول أوّلًا:

«هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَئِفَ فِى الْأَرْضِ».

«خلائف»: هنا سواء كانت بمعنى خلفاء وممثّلى اللّه فى الأرض، أم بمعنى خلفاء الأقوام السابقين، فهى دليل على منتهى اللطف الإلهى على البشر حيث إنّه قيّض لهم جميع إمكانات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۸

الحياة، أعطاهم العقل والشعور والإدراك، وعلّمه طريقة الاستفادة من تلك الإمكانات، فكيف نسى الإنسان والحال هذه ولى نعمته الأصلى. هذه الجملة بيان ل «توحيد الربوبية» الذى هو دليل على «توحيد العبادة». وهذه الجملة أيضاً تنبيه للبشر جميعاً ليعلموا بأنّ مكثهم ليس أبديّاً ولا خالداً، فكما أنهم خلائف لأقوام آخرين، فما هى إلّامدّة حتى ينتهى دورهم ويكون غيرهم خلائف لهم.

لذا تردف الآية قائلة: «فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا».

فغضبه بمعنى رفع الرحمة ومنع اللطف الإلهى من شمول اولئك الذين ارتكبوا السيئات.

الآية التالية ترد على المشركين بجواب قاطع حازم، وتذكّرهم بأنّ الإنسان إذا اتّبع أمراً أو تعلّق بأمر، فيجب أن يكون هناك دليل عقلى على هذا الأمر، أو دليل نقلى ثابت، وأنتم أيها الكفار حيث لا تملكون أيّاً من الدليلين فليس لديكم سوى المكر والغرور. تقول الآية الكريمة: «قُلْ أَرَءَيْتُم شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ». فهل خلقوا شيئاً فى الأرض، أم شاركوا اللّه فى خلق السماوات؟!

ومع هذا الحال فما هو سبب عبادتكم لها، لأنّ كون الشىء معبوداً فرع كونه خالقاً.

والآن بعد أن ثبت أنّكم لا تملكون دليلًا عقلياً على ادّعائكم، فهل لديكم دليل نقلى؟

«أَمْ ءَاتَيْنهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ».

كلّا، فليس لديهم أىّ دليل أو بيّنة أو برهان واضح من الكتب الإلهية، إذاً فليس لديهم سوى المكر والخديعة: «بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا».

وتنتقل الآية التى بعدها إلى الحديث عن حاكمية اللّه سبحانه وتعالى على مجموعة السماوات والأرض، وفى الحقيقة فإنّها تنتقل إلى

إثبات توحيد الخالقية والربوبية بعد نفى اشتراك المعبودات الوهمية فى عالم الوجود فتقول: «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ أن تَزُولَا».

فليس بدء الخلق- فقط- مرتبطاً باللَّه، فإنّ حفظ وتدبير الخلق مرتبط بقدرته أيضاً، بل إنّ المخلوقات فى كل لحظة لها خلق جديد، وفيض الوجود يغمر الخلق لحظة بعد اخرى من مبدأ الفيض. ولو قطعت الرابطة بين الخلق وبين ذلك المبدأ العظيم الفيّاض، فليس إلّاالعدم والفناء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۳۹

وللتأكيد تضيف الآية قائلة: «وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ».

فلا الأصنام التى صنعتموها ولا الملائكة، ولا غير ذلك، لا أحد غير اللَّه قادر على ذلك.

وفى ختام الآية- لكى يبقى طريق الأوبة والإنابة أمام المشركين الضالّين مفتوحاً- يقول تعالى محبّذاً لهم التوبة فى كل مرحلة من الطريق: «إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا».

فبمقتضى (حلمه) لا يتعجّل عقابهم، وبمقتضى (غفرانه) يتقبّل توبتهم- بشرائطها- فى أى مرحلة من مراحل مسيرهم.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً (۴۲) اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (۴۳) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (۴۴)

سبب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم فقالوا: لعن اللَّه اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذّبوهم، فواللَّه لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الامم. فلّما أشرقت شمس الإسلام من افق بلادهم، وجاءهم النبى صلى الله عليه و آله بالكتاب السماوى، رفضوا، بل كذّبوا، وحاربوا، ومارسوا أنواع المكر والخديعة.

فنزلت الآيات أعلاه تلومهم وتوبّخهم على إدّعاءاتهم الفارغة.

التّفسير

إستكبارهم ومكرهم سبب شقائهم: تواصل هذه الآيات الحديث عن المشركين ومصيرهم فى الدنيا والآخرة. الآية الاولى تقول: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ».

فعندما طالعوا صفحات التاريخ، تعجّبوا كثيراً وادّعوا لأنفسهم الإدّعاءات وتفاخروا على هؤلاء بأن يكون حالهم أفضل منهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۰

حيث أشار القرآن إلى ذلك بعد الجملة الاولى من الآية بالقول: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

هذا التعبير يدلّل على أنّهم كانوا قبل بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله- وعلى خلاف ما يدّعون- بعيدين عن دين اللَّه سبحانه وتعالى، فقد كانت حنيفية إبراهيم معروفة بينهم، إلّاأنّهم لم يكونوا يحترمونها.

الآية التالية توضيح لما فى الآية السابقة، تقول: إنّ بُعدهم عن الحق لأنّهم سلكوا طريق الاستكبار فى الأرض، ولم تكن لديهم أهلية الخضوع لمنطق الحق: «اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ». وكذلك لأنّهم كانوا يحتالون ويسيئون «وَمَكْرَ السَّيِّئِ».

ولكن «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ».

جملة «لا يحيق»: الفعل (يحيق) من (حاق) بمعنى نزل وأصاب، والجملة معناها «لا ينزل ولا يصيب ولا يحيط»؛ إشارة إلى أنّ الاحتيال قد يؤدى- مؤقتاً- إلى الإحاطة بالآخرين، ولكنّه فى النهاية يعود على صاحبه، فهو مفضوح وضعيف وعاجز أمام خلق اللَّه، وسيندمون

حتماً أمام اللّه سبحانه وتعالى، وذلك هو المصير المشؤوم الذى انتهى إليه مشركو مكة.

هـذه الآيـة تريد القول بأنّهم لم يكتفوا فقط بالإبتعاد عن النبى صلى الله عليه و آله، بل إنّهم استعانوا بكل قدرتهم واستطاعتهم لأجل إنزال ضربة قوية به وبدعوته، والسبب فى كل ذلك لم يكن سوى الكبر والغرور وعدم الرضوخ للحق.

ختـام الآيـة تهديـد لتلـك المجموعـة المستكبرة الماكرة والخائنـة، وبجملـة عميقـة المعنى وبكلمات تهزّ المشاعر، يقول تعالى: «فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ».

هـذه الجملـة تشير إلى جميع المصائر المشؤومة التى أحاقت بالأقوام السالفة كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، حيث أصاب كلًّا منهم بلاء عظيم.

ثم تضيف الآية لزيادة التأكيد قائلة: «فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا».

الآية التالية تدعو هؤلاء المشركين والمجرمين إلى مطالعة آثار الماضين والمصير الذى وصلوا إليه، حتى يروا بامّ أعينهم فى آثارهم ومواطنهم السابقـة جميع مـا سمعوه، وبـذا يتحول البيان إلى العيان، فتقول الآيـة الكريمـة: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۱

فإذا كانوا يتصورون أنّهم أشد قوة من اولئك فهم على إشتباه عظيم، لأنّ الأقوام السالفة كانت أقوى منهم: «وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً».

إضافةً إلى أنّ الإنسان مهما بلغ من القوة والقدرة، فإنّ قدرته وقوته لا شىء إزاء قوة اللّه، لماذا؟ لأنّه «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ». فهو العليم القدير: «إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا»، لا يخفى عليه شىء، ولا يستعصى على قدرته شىء، ولا يغلبه أحد.

وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (۴۵) لولا لطف اللّه ورحمته: الآية مورد البحث وهى الآية الأخيرة من آيات سورة فاطر، وبعد تلك البحوث الحادّة والتهديدات الشديـدة التى مرّت فى الآيات المختلفة للسورة، تنهى هذه الآية السورة ببيان اللطف والرحمة الإلهية بالبشر، تماماً كما ابتدأت السورة بذكر إفتتاح اللّه الرحمة للناس.

زيادة على ذلك، فإنّ الآيـة السابقـة التى تهدّد المجرمين والكفار بمصير الأقوام الغابرين، تطرح كذلك السؤال التالى، وهو إذا كانت السنّة الإلهيـة ثابتـة على جميع الطغاة والعاصين، فلماذا لا يُعاقب مشركو مكـة؟! وتجيب على السؤال قائلـة: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا». ولا يمنحهم فرصة لإصلاح أنفسهم والتفكّر فى مصيرهم وتهذيب أخلاقهم: «مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ» «۱».

نعم لو أراد اللّه مؤاخذتهم على ذنوبهم لأنزل عليهم عقوبات متتاليـة، صواعق، وزلازل، وطوفانات، فيـدمّر المجرمين ولا يبقى أثراً للحياة على هذه الأرض. «وَلكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» ويعطيهم فرصة للتوبة وإصلاح النفس.

هذا الحلم والإمهال الإلهى له أبعاد وحسابات خاصة، فهو إمهال إلى أن يحلّ أجلهم «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا».

«نهاية تفسير سورة فاطر»

---

(۱) «دابّة»: من مادة «دبّ» والدبّ والدبيب مشى خفيف، ويستعمل ذلك فى الحيوان وفى الحشرات أكثر، ويستعمل فى كل حيوان وإن اختّصت فى التعارف بالخيل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۳

۳۶. سورة يس

محتوى السورة: يلاحظ فى هذه السورة أربعة أقسام رئيسية:

۱- تتحدث السورة أوّلًا عن رسالة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والقرآن المجيد والهدف من نزول ذلك الكتاب السماوى العظيم.

۲- قسم آخر من السورة يتحدث عن رسالة ثلاثة من أنبياء اللّه، وكيف كانت دعوتهم للتوحيد، وجهادهم المتواصل المرير ضد الشرك.

۳- قسم آخر منها، والذى يبدأ من الآية (۳۳) وحتى الآية (۴۴)، مملوء بالنكات التوحيدية الملفتة للنظر.

۴- قسم مهم آخر منها يتحدث حول المواضيع المرتبطة بالمعاد والأدلة المختلفة عليه، وكيفية الحشر والنشر، والسؤال والجواب فى يوم القيامة، ونهاية الدنيا، ثم الجنة والنار.

وخلال هذه البحوث الأربعة ترد آيات محركة ومحفّزة لأجل تنبيه وإنذار الغافلين والجهال، لها الأثر القوى فى القلوب والنفوس.

فضيلة تلاوة السورة: سورة يس من أهمّ السور القرآنية، إلى حد أنّ الأحاديث لقّبتها ب «قلب القرآن». ففى المجمع عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ لكل شىء قلباً، وقلب القرآن يس».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس، فمن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۴

قرأ يس فى نهاره قبل أن يمسى كان فى نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسى، ومن قرأها فى ليله قبل أن ينام وكّل به ألف ملك يحفظونه من كل شيطان رجيم ومن كل آفة».

إنّ عظمة فضيلة هذه السورة إنّما هى لعظمة محتواها .. محتوىً يوقظ من الغفلة ويضخّ فى النفس الإيمان، ويولد روح المسؤولية ويدعو إلى التقوى، بحيث إنّ الإنسان إذا تفكّر فى هذه الآية وجعل ذلك التفكر يلقى بظلاله على أعماله، فإنّه يفوز بخير الدنيا والآخرة.

يس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيم (۲) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۳) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم (۴) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيم (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۷) إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (۹) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۰) هذه السورة تبدأ- كما هو الحال فى ثمان وعشرين سورة اخرى- بحروف مقطعة وهى «يس».

فى تفسير على بن إبراهيم: قال الصادق عليه السلام: «يس اسم رسول اللّه صلى الله عليه و آله والدليل عليه قوله: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»».

بعد هذه الحروف المقطعة- وكما هو الحال فى أغلب السور التى تبدأ بالحروف المقطعة- يأتى الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنا قسماً بالقرآن، إذ يقول: «وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ».

الملفت للنظر أنّه وصف «القرآن» هنا ب «الحكيم»، فى حين أنّ الحكمة عادةً صفة للعاقل، كأنّه سبحانه يريد طرح القرآن على أنّه موجود حى وعاقل ومرشد، يستطيع فتح أبواب الحكمة أمام البشر.

بديهى أنّ اللّه سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأن يقسم، ولكن الأقسام القرآنية تتضمن- دائماً- فائدتين أساسيتين: الاولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، والثانية بيان عظمة الشىء الذى يقسم به اللّه تعالى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۵

الآية التى بعدها توضّح الأمر الذى من أجله أقسم اللّه تعالى فى مقدمة السورة الكريمة:

«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

بعد ذلك تضيف الآية: «تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ».

فإنّ عزّته ورحمته إحداهما مظهر للإنذار والاخرى للبشارة، وبإقترانهما جعل هذا الكتاب السماوى العظيم فى متناول البشرية.

الآية التالية تشرح الهدف الأصلى لنزول القرآن كما يلى: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ». أى إنّه لم يأت نذير لآبائهم.

إنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، وتذكيرهم بالمخاطر المحيطة بهم، والذنوب والمعاصى التى إرتكبوها، والشرك وأنواع المفاسد التى تلوّثوا بها.

ثم يتنبّأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفار والمشركين فيقول تعالى: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

والمراد من «القول» هنا الوعيد الإلهى لكل أتباع الشيطان بالعذاب فى جهنم.

فإنّ ذلك يخصّ اولئك الذين قطعوا كل إرتباط لهم باللَّه سبحانه وتعالى، وأغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، فهم لن يؤمنوا أبداً.

الآية التى بعدها تواصل وصف تلك الفئة المعاندة، فتقول: «إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ». أى: مرفوعى الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال»: جمع «غل» من مادة «غلل» ويعنى تدرع الشىء وتوسطه، ومنه الغلل (على وزن عمل) للماء الجارى بين الشجر. و «الغل» الحلقة حول العنق أو اليدين وتربط بعد ذلك بسلسلة، وبما أنّ العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفردة فى هذا المورد.

ويا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبدة الأوثان المشركين بحال هذا الإنسان، فقد طوّقوا أنفسهم بطوق «التقليد الأعمى»، وربطوا ذلك بسلسلة «العادات والتقاليد الخرافية» فكانت تلك الأغلال من العرض والإتّساع أنّها أبقت رؤوسهم تنظر إلى الأعلى وحرمتهم بذلك من رؤية الحقائق، وبذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدرة والفعّالية والحركة، ولا قدرة الإبصار.

فإنّ الآية أعلاه، تعتبر شرحاً لحال تلك الفئة الكافرة فى الدنيا وحالهم فى عالم الآخرة الذى هو تجسيد لمسائل هذا العالم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۶

الآية التالية تتناول وصفاً آخر لحالة تلك المجموعة، وتمثيلًا ناطقاً عن عوامل وأسباب عدم تقبّلهم الحقائق فتقول: «وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا». وحوصروا بين هذين السدّين وأمسوا لا يملكون طريقاً لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، آنئذ: «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ». فكذلك حال المستكبرين المعاندين العمى الصمّ فى قبال الحقائق.

لهذا فإنّه تعالى يقول فى آخر آية من هذه المجموعة: «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». فمهما كان حديثك نافذاً فى القلوب ومهما كان أثر الوحى السماوى، فإنّه لن يؤثّر ما لم يجد الأرضية المناسبة.

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢) من هم الذين يتقبّلون إنذارك: كان الحديث فى الآيات السابقة عن مجموعة لا تملك أى إستعداد لتقبل الإنذارات الإلهية ويتساوى عندهم الإنذار وعدمه، أمّا هذه الآيات فتتحدّث عن فئة اخرى هى على النقيض من تلك الفئة، وذلك لكى يتّضح المطلب بالمقارنة بين الفئتين كما هو اسلوب القرآن. تقول الآية الاولى من هذه المجموعة: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ».

التعبير ب «الغيب» هنا إشارة إلى معرفة اللَّه عن طريق الاستدلال والبرهان.

جملة «فبشّره» تكميل للإنذار، إذ إنّ الرسول صلى الله عليه و آله فى البدء ينذر، وحين يتحقق للإنسان اتّباع الذكر والخشية وتظهر آثارها على قوله وفعله، هنا يبشّره البارىء عزّ وجل.

يبشّره بأنّ اللَّه العظيم سيغفر له تلك الزلّات جميعها، ويبشّره بعدئذ بأجر كريم وثواب جزيل لا يعلم مقداره ونوعه إلّااللَّه سبحانه.

بعد ذلك وبما يتناسب مع البحث الذى كان فى الآية السابقة حول الأجر والثواب العظيم للمؤمنين، تنتقل الآية التالية إلى الإشارة إلى مسألة المعاد والبعث والكتاب والحساب والمجازاة، تقول الآية الكريمة: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوتَى .

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۷

«وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ». وعليه فإنّ صحيفة الأعمال لن تغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا وتحفظها إلى يوم الحساب.

جملة «ما قدّموا» إشارة إلى الأعمال التى قاموا بها ولم يبق لها أثر، أمّا التعبير «وآثارهم» فإشارة إلى الأعمال التى تبقى بعد الإنسان وتنعكس آثارها على المحيط الخارجى، من أمثال الصدقات الجارية (المبانى والأوقاف والمراكز التى تبقى بعد الإنسان وينتفع منها الناس).

ثم تضيف الآية لزيادة التأكيد: «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ».

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (۱۳) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (۱۴) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۱۷) قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۸) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۱۹) واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية: لمتابعة البحوث الماضية فى الآيات السابقة حول القرآن ونبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، والمؤمنين الصادقين، والكفار المعاندين، تطرح هذه الآيات نموذجاً من موقف الامم السابقة بهذا الصدد، وتتحدث حول تأريخ عدد من الأنبياء السابقين لتكون تنبيهاً لمشركى مكة من جهة، وتسلية للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ولفئة المؤمنين القليلة به فى ذلك اليوم، فإنّ التأكيد على إيراد هذه القصة فى قلب هذه السورة التى تعتبر هى بدورها قلب القرآن الكريم، بسبب تشابه ظروف تلك القصة مع ظروف المسلمين فى ذلك اليوم.

أوّلًا تقول الآية الكريمة: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ».

«القرية»: فى الأصل اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس، وتطلق أحياناً على نفس الناس أيضاً، لذا فمفهومها يتّسع حتى يشمل المدن والنواحى، وأطلقت فى لغة العرب وفى القرآن المجيد مراراً على المدن المهمة مثل «مصر» و «مكة» وأمثالهما.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۸

والمراد من القرية هنا «أنطاكية» إحدى مدن بلاد الشام، فإنّه يظهر جيداً من آيات هذه السورة أنّ أهل تلك المدينة كانوا يعبدون الأصنام، وأنّ هؤلاء الرسل جاؤوا يدعونهم إلى التوحيد ونبذ الشرك.

ثم تنتقل الآيات إلى تفصيل الأحداث التى جرت فتقول: «إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ».

وفى أسماء هؤلاء الرسل قال بعض المفسرين: إنّ أسماء الإثنين «شمعون» و «يوحنا» والثالث «بولس».

الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين قبال دعوة الرسل. القرآن الكريم يقول: إنّهم تعلّلوا بنفس الأعذار الواهية التى يتذرع بها الكثير من الكفار دائماً فى مواجهة الأنبياء «قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ».

فإذا كان مقرّراً أن يأتى رسول من قبل اللّه سبحانه، فيجب أن يكون ملكاً مقرّباً وليس إنساناً مثلنا. هذه هى الذريعة التى تذرّعوا بها لتكذيب الرسل وإنكار نزول التشريعات الإلهية.

فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفة هؤلاء القوم الضالين ولم يضعفوا، وفى جوابهم:

«قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ». ومسؤوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل بيّن فحسب.

«وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلغُ الْمُبِينُ».

ويستفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالًا أنّهم أظهروا دلائل ومعاجز تشير إلى صدق ادّعائهم، إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده، وذلك لا يمكن تحقّقه إلّامن خلال بعض الدلائل والمعجزات الواضحة.

وقد ورد فى بعض الرّوايات أيضاً أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شفاء بعض المرضى المستعصى علاجهم- بإذن اللّه- كما كان لعيسى عليه السلام.

ولكن الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح وتلك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم فى المواجهة، وإنتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد والتعامل الشديد «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ».

ويحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم فى نفس الفترة التى بعث فيها هؤلاء الأنبياء، وكانت إمّا نتيجة معاصى هؤلاء القوم، أو كإنذارات إلهية لهم.

وإنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثة هؤلاء الرسل، وأظهروا سوء نواياهم من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۴۹

خلال التهديد الصريح والعلنى، وقالوا: «لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ومن الممكن أنّ ذكر «العذاب الأليم» إشارة إلى أنّنا سنرجمكم إلى حد الموت.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالى على هذيان هؤلاء: «قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم». فإذا أصابكم سوء الحظّ وحوادث الشؤم، ورحلت بركات اللَّه عنكم، فإنّ سبب ذلك فى أعماق أرواحكم، وفى أفكاركم المنحطّة وأعمالكم القبيحة المشؤومة، وليس فى دعوتنا.

وفى الختام قال الرسل لهؤلاء: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ».

فإذا أنكرتم التوحيد وأشركتم فسبب ذلك هو الإسراف وتجاوز الحق، وإذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف فى المعاصى والتلوّث بالشهوات. وَ جاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (۲۰) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲۱) وَ مَا لِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۲) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لَا يُنْقِذُونِ (۲۳) إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۲۴) إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (۲۵) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (۲۶) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَ جَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ (۲۷) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (۲۸) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (۲۹) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۳۰) المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف: تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذى وردت الإشارة إليه فى هذه القصة. والإشارة تتعلق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل وبشجاعتهم فى قبال الأكثرية الكافرة المشركة ... وكيف وقفوا حتى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل. تشرع هذه الآيات بالقول: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۱۹۹

هذا الرجل الذى يذكر أغلب المفسرين أنّ اسمه «حبيب النجار»، وحينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب ويحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع وأوصل نفسه إلى مركز المدينة ودافع عن الحق بما إستطاع؛ بل إنّه لم يدّخر وسعاً فى ذلك.

التعبير ب «رجل» بصورة النكرة إشارة إلى أنّه كان فرداً عادياً، ليس له قدرة أو إمكانية متميّزة فى المجتمع، لكى يأخذ المؤمنين فى عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله درساً بأنّهم وإن كانوا قلّة فى عصر صدر الإسلام، إلّاأنّ المسؤولية تبقى على عواتقهم، وأنّ السكوت غير جائز حتى للفرد الواحد.

والآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأى منطق وبأى دليل خاطب أهل مدينته؟

فقد أشار أوّلًا إلى هذه القضية: «اتَّبِعُوا مَن لَايَسْئَلُكُمْ أَجْرًا». فتلك القضيّة بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيّة منفعة مادية شخصية، ولا- يريدون منكم مالًا ولا جاهاً ولا مقاماً، وحتى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم. والخلاصة: لا يريدون منكم أجراً ولا أى شىء آخر.

وهذا ما أكّدت عليه الآيات القرآنية مراراً فيما يخصّ الأنبياء العظام، كدليل على إخلاصهم وصفاء قلوبهم، وفى سورة الشعراء وحدها

تكرّرت هذه الجملة خمس مرّات «وَمَا أَسْئَلُكَمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ».

ثم يضيف: إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم وكلامهم انّهم أشخاص مهتدون: «وَهُمْ مُّهْتَدُونَ».

ثم ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذى يعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فيقول:

«وَمَا لِىَ لَاأَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى».

فإنّ من هو أهل لأن يُعبد هو الخالق والمالك والوهّاب، وليس الأصنام التى لا تُضرّ ولا تنفع.

وبعد ذلك ينبّه إلى أنّ المرجع والمآل إلى اللَّه سبحانه فيقول: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». أى: لا تتصوروا أنّ اللَّه له الأثر والفاعلية فى حياتكم الدنيا فقط، بل إنّ مصيركم فى العالم الآخر إليه أيضاً، فتوجّهوا إلى من يملك مصيركم فى الدارين.

وفى ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام وإثبات العبودية للَّهبنفى العبودية للأصنام، فيكمل قائلًا: «ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَّاتُغْنِ عَنّى شَفَاعَتُهُمْ شَيًا وَلَا يُنقِذُونِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۱

هنا أيضاً يتحدث عن نفسه حتى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمرة والإستعلاء عليهم، وهو يحدّد الذريعة الأساس لعبدة الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكى تكون شفيعاً لنا أمام اللَّه.

ثم يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد والتوضيح أكثر: إنّى حين أعبد هذه الأصنام وأجعلها شريكاً للَّهفإنّى سأكون فى ضلال بعيد: «إِنّى إِذًا لَّفِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

فأىّ ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنباً إلى جنب خالق السماوات والأرض.

وعندما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من إستعراض تلك الاستدلالات والتبليغات المؤثرة أعلن لجميع الحاضرين: «إِنّى ءَامَنتُ بِرَبّكُمْ فَاسْمَعُونِ».

أمّا من هو المخاطب فى هذه الجملة «فَاسْمَعُونِ»؟

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرّح بشىء حول ذلك، ولكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنّهم ثاروا عليه وقتلوه.

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هى: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ».

إنّ هذا التعبير يدلّل على أنّ دخوله الجنة كان مقترناً باستشهاد هذا الرجل المؤمن.

والمقصود من الجنة هنا، هى (جنة البرزخ) لأنّه يستفاد من الآيات ومن الروايات أنّ الجنة الخالدة يوم القيامة ستكون نصيب المؤمنين، كما أنّ جهنم ستكون نصيب المجرمين.

فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهرة، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمة اللَّه وفى نعيم الجنان، وهناك لم تكن له سوى امنية واحدة: «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ».

يا ليت قومى يعلمون بأى شىء «بِمَا غَفَرَ لِى رَبّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ». أى: ليت أنّ لهم عين تبصر الحق، لهم عين غير محجوبة بالحجب الدنيوية الكثيفة والثقيلة، فيروا ما حُجب عنهم من النعمة والإكرام والإحترام من قبل اللَّه، ويعلموا أى لطف شملنى به اللَّه فى قبال عدوانهم علىّ .. لو أنّهم يبصرون ويؤمنون، ولكن يا حسرةً.

رأينا كيف أصرّ أهالى مدينة أنطاكية على مخالفة الإلهيين، والآن لننظر ماذا كانت نتيجة عملهم؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۲

القرآن الكريم يقول فى هذا الخصوص: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ».

فلسنا بحاجة إلى تلك الامور، لأنّ إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم ومعيشتهم إلى عوامل موت وفناء.

ثم يضيف تعالى: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ».

فإنّها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة فى وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزّة أوقفت كل شىء عن التحرك.

الآيـة الأخيرة تتعرّض إلى طريقـة جميع متمردى التاريخ إزاء الـدعوات الإلهية لأنبياء اللّه بلهجة جميلة تأسر القلوب فتقول: «يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

هؤلاءـ الضالون المحرومون من السعادة لم يكتفوا بعدم الإستماع بآذان قلوبهم لنداء قادة البشرية العظام فقط، بل إنّهم أصرّوا على السخرية والإستهزاء منهم.

أ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) الغفلة الدائمة: تتحدث هاتـان الآيتان– استناداً إلى ما مرّ فى الآيات السابقـة– عن الغفلـة المستمرّة لمجموعـة كبيرة من البشر فى هـذا العالم على مرّ العصور والقرون، فتقول الآية:

«أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ».

فهؤلاء الكفار ليسوا بـدعاً من الأمر، فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمرّدوا على الحقّ مثلهم عاشوا فى هذه الدنيا، ومصائرهم الأليمة التى ملأت صفحات التاريخ، فهل يكفى ذلك المقدار لتحقّق العبرة والاعتبار؟

فى آخر الآية يضيف تعالى: «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَايَرْجِعُونَ». أى: أنّ رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران مافاتهم وتبديل ذنوبهم حسنات، فلم يبق لهم سبيل للرجوع أبداً.

هذا التفسير يشبه بالضبط ما قاله على بن أبى طالب عليه السلام فى نهج البلاغة حينما تحدّث فى أخذ العبرة من الموتى فقال: «لا عن قبيح يستطيعون انتقالًا ولا فى حسن يستطيعون ازدياداً».

وتضيف الآية التالية: «وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ». أى: أنّالمسألة لا تنتهى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۳

بهلاكهم وعدم استطاعتهم العودة إلى هذه الدنيا، كلّا، فعاجلًا سيحضر الجميع فى عرصة المحشر للحساب، ثم العقاب الإلهى المتلاحق والمستمر فى إنتظارهم.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلَا يَشْكُرُونَ (٣۵) سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣۶) آيات اخرى: مما مرّ بحثه فى الآيات السابقة حول جهاد الرسل ضد الشرك وعبادة الأوثان، وكذلك التعرض إلى مسألة المعاد فى الآيـة الأـخيرة من المقطع السـابق، توضّـح الآيـات– مورد البحث– مسـألتى التوحيـد والمعـاد معـاً لإيقـاظ المنكرين لهاتين المسألتين ودفعهم إلى الإيمان. تتعرض الآيـة الاولى إلى قضيـة إحياء الأرض الميتة والبركات التى تعود على الإنسان من ذلك فتقول:

«وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ».

قضية الحياة والبقاء من أهمّ دلائل التوحيد، فبرغم التطور والتقدم الحاصل فى وسائل الدراسة وفى العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحل، وحتى الآن لم يُعلم تحت تأثير أى العوامل تتحول موجودات ميتة إلى خلايا حية؟

جملة «فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» إشارة إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، ولكن له فوائد اخرى كتغذية الحيوانات، وصناعة الأصباغ، والأدوية، والامور الاخرى التى لها أهميّة فى حياة الإنسان.

الآيـة التاليـة توضيـح وشـرح للآيـة الاولى من هذه الآيات، فهى توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: «وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ».

كان الحـديث فى الآيـة الاولى عن الحبوب الغذائيـة، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّية والمغذّية والتى يعدّ «التمر» و «العنب» أبرز

وأهمّ نماذجها حيث يعتبر كل منهما غذاءً كاملًا.

الآيـة التالية تشرح وتوضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد فى ذلك ودون تدخّل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۴

الإنسان فى صناعتها ... «لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ».

ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابلة للأكل بمجرد جنيها من أغصانها، ولا تحتاج إلى طبخ أو أيّة تغييرات اخرى. ذلك إشارة إلى غاية لطف اللّه بهذا الإنسان وكرمه. فالهدف هو تحريك حس تشخيص الحق، والشكر فى الإنسان، لكى يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفة اللّه عن طريق الشكر، لأنّ شكر المنعم أوّل قدم فى طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدث عن تسبيح اللّه وتنزيهه، وتشجب شرك المشركين الذى ذكرته الآيات السابقة، وتوضّح طريق التوحيد وعبادة الأحد الصمد للجميع فتقول: «سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ».

بديهى أنّ اللّه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد ومنهاج عملى من أجل طى طريق التكامل.

إنّ هذه الآية واحدة من الآيات التى توضّح محدودية علم الإنسان، وتدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا وعن معلوماتنا حتى الآن.

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۳۹) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴۰) هذه الآيات تتحدث فى قسم آخر من آثار عظمة اللّه فى عالم الوجود. تقول الآية الكريمة الاولى: «وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ».

«نسلخ»: من مادة «سلخ» وتعنى فى الأصل نزع جلد الحيوان، والتعبير فى الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، يُنزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتى، والتأمّل فى هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، وهى أنّ الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، وأنّ النور والإضاءة صفة عارضة عليها تأتيها من مصدر آخر، فهو

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۵

كاللباس الذى يرتدى، وحينما يُخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعى للبدن.

الآية التى بعدها تتعرض إلى النور والإضاءة وتذكر الشمس، فتقول: «وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا».

هذه الآية تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر. أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ أحدث التفاسير التى ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيراً من حركة الشمس مع منظومتها باتّجاه معيّن ضمن المجرة التى تكون المجموعة الشمسية جزءاً منها، وقيل أنّ حركتها باتّجاه نجم بعيد جدّاً أطلقوا عليه اسم «وجا».

فإنّ حركة كوكب الشمس الذى يعادل مليون ومائتى الف مرّة حجم الأرض، بحركة دقيقة ومنظمة فى هذا الفضاء اللامتناهى، ليس مقدوراً لغير اللّه سبحانه الذى تفوق قدرته كل قدرة وبعلمه اللامتناهى، لذا فإنّ الآية تضيف فى آخرها: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

أمّا آخر ما قيل فى تفسير هذه الآية فهو أنّ تعبير الآية يشير إلى نظام السنّة الشمسية الناشىء عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذى يعطى لحياة الإنسان نظاماً وبرنامجاً معيّناً يؤدّى إلى تنظيم حياته من مختلف النواحى. لذا فإنّ الآية التالية تتحدث عن حركة القمر ومنازله التى تؤدى إلى تنظيم أيام الشهر، وذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ».

المقصود ب (المنازل) تلك المستويات الثمانية والعشرون التى يطويها القمر قبل الدخول فى «المحاق» والظلام المطلق.

هذا النظام العجيب ينظّم حياة الإنسان من جهة، ومن جهة اخرى فهو تقويم سماوى طبيعى لا يحتاج إلى تعلّم القراءة والكتابة لمتابعته.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدث عن ثبات ودوام ذلك النظم فى السنين والشهور، والنهار والليل، فقد وضع اللَّه سبحانه وتعالى لها نظاماً وبرنامجاً لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو إختلال فى وضعها وحركتها، وبذا ثبت تاريخ البشر وإنتظم بشكل كامل، تقول الآية:

«لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

من المعلوم أنّ الشمس تطوى فى دورانها خلال العام الأبراج الإثنى عشر، فى حين أنّ القمر يطوى منازله خلال شهر واحد، وعليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس فى مدارها إثنتى عشرة مرّة، لذا فإنّ الآية تقول بأنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۶

فى حركته فتقطع فى شهر واحد ما تقطعه فى سنة واحدة. وبذا يختلّ النظام السنوى لها.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس فى هذا البحث، هى الحركة بحسب حِسّنا بها.

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (۴۲) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (۴۳) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعاً إِلَى حِينٍ (۴۴) حركة السفن فى البحار آية إلهية: تحدّثت الآيات السابقة عن دلالة قدرة البارىء عزّ وجل فى خلق الشمس والقمر والليل والنهار وكذلك الأرض وبركاتها، وفى هذه الآيات التى أمامنا يتحدث البارىء عزّ وجل عن البحار وقسم من بركات ونعم ومواهب البحار، يعنى حركة السفن التجارية والسياحية على سطحها. لذا فإنّ الآيات الكريمة تقول أوّلًا:

«وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

فإنّ حركة السفن والبواخر التى هى من أهم وأضخم وسائل الحمل والنقل البشرى، وما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما تستطيعه المركّبات الاخرى، كل ذلك ناجم عن خصائص الماء ووزن الأجسام التى تصنع منها السفن، والطاقة التى تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقة النووية. وكل هذه القوى والطاقات التى سخّرها اللَّه للإنسان، كل واحدة منها وكلها معاً آية من آيات اللَّه سبحانه وتعالى.

ولكى لا يتوهم أنّ المركب الذى أعطاه اللَّه للإنسان هو السفينة فقط، تضيف الآية التالية قائلة: «وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ».

المراكب التى تسير على الأرض، أو فى الهواء وتحمل البشر وأثقالهم.

الآية التالية- لأجل توضيح هذه النعمة العظيمة- تتعرّض لذكر الحالة الناشئة من تغيير هذه النعمة فتقول: «وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ».

فنصدّر أمرنا لموجة عظيمة فتقلب سفنهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجة فى كل إتّجاه بأمرنا، ولكننا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه. وإذا وقعت بين الحين والحين حوادث من هذا القبيل فإنّ ذلك لينتبهوا إلى أهميّة هذه النعمة الغامرة.

وأخيراً تضيف الآية لتكمل الحديث فتقول: «إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

نعم فهم لا يستطيعون النجاة بأية وسيلة إلّابرحمتنا ولطفنا بهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۷

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۴۶) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۴۷) بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة عن الآيات الإلهية فى عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدث عن ردّ فعل الكفار المعاندين فى مواجهة هذه الآيات الإلهية، وكذلك توضّح دعوة النبى صلى الله عليه و آله لهم وإنذارهم بالعذاب الإلهى الأليم. يفتتح هذا المقطع بالقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

إنّ المقصود ب «ما بين أيديكم» العقوبات الدنيوية التى أوردت الآيات السابقة نماذج منها؛ والمقصود ب «ما خلفكم» عقوبات الآخرة، وكأنّه يراد القول بأنها خلفهم ولم تأت إليهم وسوف تصل إليهم فى يوم ما وتحيط بهم؛ والمقصود ب «التقوى» من هذه العقوبات، هو عدم إيجاد العوامل التى تؤدى إلى وقوع هذه العقوبات.

الآية التالية تؤكّد نفس المعنى وتشير إلى لجاجة هؤلاء الكفار وإعراضهم عن آيات اللّه وتعاليم الأنبياء، تقول الآية الكريمة: «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

فلا الآيات الأنفسية تؤثّر فيهم، ولا الآفاقية، ولا التهديد والإنذار، ولا البشارة والتطمين بالرحمة الإلهية، فهم مبتلون بالعمى الكلى بحيث لا يتمكّنون حتى من رؤية أقرب الأشياء إليهم، وحتى أنّهم لا يفرّقون بين ظلمة الليل وشمس الظهيرة.

ثم يشخّص القرآن الكريم أحد الموارد المهمة لعنادهم وإعراضهم فيقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

ذلك المنطق الضعيف الذى يتمسك به الأنانيون والبخلاء فى كل عصر وزمان ويقولون:

إنّ فلاناً أصبح فقيراً بسبب عمل إرتكبه وأدّى به إلى الفقر، مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشملنا لطف اللّه ورحمته، وعليه فليس فقره ولا غنانا كانا بلا حكمة. غافلين عن أنّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۸

الدنيا إنّما هى دار امتحان وإبتلاء، واللّه سبحانه وتعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض الآخر بالغنى والثروة، وربّما يضع اللّه الإنسان وفى وقتين مختلفين فى بوتقة الامتحان:

الغنى والفقر، وينظر هل يؤدّى الأمانة حال فقره ويتمتع بمناعة الطبع ويلج مراتب الشكر اللائقة، أم أنّه يطأ كل ذلك بقدمه ويمرّ؟ وفى حال الغنى هل ينفق مما تفضّل اللّه به عليه، أم لا؟

وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴۸) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (۵۲) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (۵۳) صيحة النشور: بعد ذكر المنطق الأجوف والذرائع التى تشبّث بها الكفار فى مسألة الإنفاق فى الآيات السابقة، تتعرض هذه الآيات إلى الحديث عن إستهزائهم بالقيامة، لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافاً إلى أنّها تكمل بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقة بالبحث حول المعاد.

تقول الآية الكريمة الاولى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». فإذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعة، فمعنى هذا أنّكم لستم بصادقين فى حديثكم.

الآية التالية ترد على هذا التساؤل المقرون بالسخرية بجواب قاطع حازم، وتخبرهم بأنّ قيام الساعة ليس بالأمر المعقّد أو المشكل بالنسبة إلى اللّه سبحانه وتعالى: «مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ».

فكل ما يقع هو صيحة سماوية كافية لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقّين من الناس على سطح الأرض بلحظة واحدة وهم على حالهم، وتنتهى هذه الحياة المليئة بالصخب والدعاوى والمعارك والحروب، ليتخلّف وراءها صمت مطبق، وتخلو الأرض من أىّ صوت أو إزعاج.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۵۹

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم».

«صيحة» صاح: رفع الصوت، وأصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسمع منه صوت، وصيح الثوب كذلك.

«يخصّمون»: من مادة «خصم» بمعنى النزاع.

والمقصود هو التخاصم على أمر الدنيا والامور المعيشية الاخرى.

فإنّ القرآن بهذا التعبير القصير والحازم إنّما أراد تنبيههم إلى أنّ القيامة ستأتى وبشكل غير متوقّع، هذا أوّلًا. وأمّا ثانياً فإنّ قيام الساعة ليس بالموضوع المعقّد بحيث يختصمون ويتنازعون فيه، فبمجرّد صيحة واحدة ينتهى كل شىء وتنتهى الدنيا بأسرها. لذا فهو تعالى يضيف فى الآية التالية قائلًا: «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ».

فى العادة فإنّ الإنسان حينما تلم به حادثة ويحسّ بعدها بقرب أجله، يحاول جاهداً أن يوصل نفسه إلى أهله ومنزله ويستقرّ بين عياله، ثم يقوم بإنجاز بعض الامور المعلّقة، ويعهد بأبنائه أو متعلّقيه إلى من يثق به عن طريق الوصية أو غير ذلك. ويوصى بإنجاز بعض الامور الاخرى.

ولكن هل تترك الصيحة السماوية فرصة لأحد؟ ولو سنحت الفرصة فرضاً فهل يبقى أحد حيّاً ليستمع الوصية.

ثم تشير الآيات إلى مرحلة اخرى، مرحلة الحياة بعد الموت، فتقول: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ».

التراب والعظام الرميم تلبس الحياة من جديد، وتنتفض من القبر بشراً سويّاً، ليحضر المحاكمة والحساب فى تلك المحكمة العظيمة المهولة، وكما أنّهم ماتوا جميعاً بصيحة واحدة، فبنفخة واحدة يبعثون أحياء من جديد، فلا هلاكهم يشكّل عقبة أمام قدرة اللّه سبحانه وتعالى، ولا حياتهم كذلك.

«أجداث»: جمع «جدث» وهو القبر، والتعبير يشير بوضوح إلى أنّ للمعاد جنبة جسمانية بالإضافة إلى الجنبة الروحية، وأنّ الجسد يعاد بناؤه جديداً من نفس المواد السابقة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۰

وقوله تعالى: «رَبِّهِمْ» كأنّها تلميح إلى أنّ ربوبية ومالكية وتربية اللّه كلها توجب أن يكون هناك حساب وكتاب ومعاد.

تضيف الآية التالية: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ».

نعم فإنّ المشهد مهول ومذهل إلى درجة أنّ الإنسان ينسى جميع الخرافات والأباطيل ولا يتمكّن إلّامن الإعتراف الواضح الصريح بالحقائق، الآية تصوّر القبور «بالمراقد» والنهوض من القبور (بالبعث) كما ورد فى الحديث: «كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون».

ثم تقول الآية لبيان سرعة النفخة: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

وعليه فإحياء الموتى وبعثهم من القبور وإحضارهم فى محكمة العدل الإلهى لا يحتاج إلى مزيد وقت، كما كان الأمر عند هلاكهم، فالصيحة الاولى للموت، والصيحة الثانية للحياة والحضور فى محكمة العدل الإلهى.

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (۵۶) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُم مَا يَدَّعُونَ (۵۷) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸) هنا يبدأ البحث حول كيفية الحساب فى المحشر، ثم ينتقل فى الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصلحاء والكفار الطالحين، فتقول الآية الكريمة الاولى: «فَالْيَوْمَ لَاتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيًا». فلا ينقص من أجر وثواب أحد شيئاً، ولا يزاد على عقوبة أحد شيئاً.

ثم تنتقل الآية لتوضح تلك الحقيقة وتعطى دليلًا حيّاً عليها فتقول: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ثم تنتقل الآيات لتتعرض إلى جانب من مثوبة المؤمنين العظيمة، وقبل كل شىء تشير إلى مسألة الطمأنينة وراحة البال فتقول: «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ».

«شغل»:- على وزن سرر- و «شغل»- على وزن لطف-: كليهما بمعنى العارض الذى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۱

يذهل الإنسان ويصرفه عن سواه، سواء كان مما يبعث على المسرّة أو الحزن، ولكن لإلحاقه كلمة «فاكهون» التى هى جمع «فاكه» وهو المسرور الفرح الضاحك، يمكن إستنتاج أنّ المعنى إشارة إلى الإنسان المشغول بنفسه والمنصرف تماماً عن التفكير فى أى قلق أو ترقّب، والغارق فى السرور والسعادة والنشاط بشكل لا يترك أى مجال للغمّ والحسرة أن تعكّر عليه صفوه، وحتى أنّه ينسى تماماً هول قيام القيامة والحضور فى محكمة العدل الإلهية، تلك المواقف التى لولا نسيانها فإنّها حتماً ستلقى بظلالها الثقيلة من الغمّ والقلق على القلب، وبناءً على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبة على إنشغال الذهن بالنعمة هو نسيان أهوال المحشر.

وبعد التعرض إلى نعمة الطمأنينة وراحة البال التى هى أساس جميع النعم الاخرى وشرط الاستفادة من جميع المواهب والنعم الإلهية الاخرى، ينتقل إلى ذكر بقية النعم، فيقول تعالى: «هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكُونَ».

«أزواج» تشير إلى الزوجة التى يعطيها اللّه فى الجنة، أو الزوجة المؤمنة التى كانت معه فى الدنيا.

التعبير ب «ظلال» يدلّل على وجود الشمس هناك، ولكنّها ليست شمساً مؤذية.

إضافةً إلى ذلك فإنّ: «لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ».

«يدعون»: أى يطلبون، والمعنى أنّ كل ما يطلبونه ويتمنّونه يحصلون عليه.

وعليه فإنّ كل ما يخطر على بال الإنسان وما لا يخطر من المواهب والنعم الإلهية موجود هناك معدّ ومهيّأ، واللّه عنده حسن الثواب.

وأهمّ من كل ذلك، المواهب المعنوية التى أشارت إليها آخر آية بقولها: «سَلَمٌ قَوْلًا مّن رَّبّ رَّحِيمٍ».

هذا النداء الذى تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبة اللّه، يجعل الروح الإنسانية تتسلّق الأفراح نشوى بالمعنويات التى لا يرقى إليها وصف ولا تعادلها أيّة نعمة اخرى. نعم فسماع نداء المحبوب، النداء الندى بالمحبّة، المعطّر باللطف، يغمر سكّان الجنة بالحبور ... الحبور الذى تعادل اللحظة منه جميع ما فى الدنيا، بل ويفيض عليه.

ففى الدرّ المنثور قال النبى صلى الله عليه و آله: «بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قول اللّه تعالى: «سَلَامٌ قَوْلًا مّن رَبّ رَّحِيمٍ» قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتوا إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۲

وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۵۹) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اعْبُدُونِى هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲) لماذا عبدتم الشيطان: مرّ فى الآيات السابقة جانب من المصير المشوّق لأهل الجنة، وفى هذه الآيات مورد البحث جانب بئيس من مصير أهل النار وعبدة الشيطان.

أوّلًا: يخاطبون فى ذلك اليوم خطاباً تحقيرياً: «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ».

فأنتم ربّما دخلتم فى صفوف المؤمنين فى الدنيا وتلوّنتم بلونهم تارةً، واستفدتم من حيثيتهم واعتبارهم، أمّا اليوم «فامتازوا عنهم» وأظهروا بشكلكم الأصلى الحقيقى.

الآية التالية تشير إلى لوم اللّه تعالى وتوبيخه المجرمين فى يوم القيامة قائلًا: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى ءَادَمَ أَن لَّاتَعْبُدُوا الشَّيْطنَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

جرى هذا التحذير وبشكل متكرر على لسان الأنبياء والرسل.

ومن جانب آخر فإنّ هذا العهد اخذ على الإنسان فى عالم التكوين، وبلسان إعطاء العقل له، إذ إنّ الدلائل العقلية تشير بشكل واضح إلى أنّ على الإنسان أن لا يطيع من تصدّى لعداوته منذ اليوم الأوّل وأخرجه من الجنة، وأقسم على إغواء أبنائه من بعده.

ومن جانب ثالث فقد اخذ هذا العهد على الإنسان بالفطرة الإلهية للناس على التوحيد، وإنحصار الطاعة فى اللَّه سبحانه، وبهذا لم تتحقق التوصية الإلهية هذه بلسان واحد، بل بعدة ألسنة وأساليب، وامضى هذا العهد والميثاق.

الآية التالية تأكيد أشد وبيان لوظيفة بنى آدم، تقول الآية الكريمة: «وَأَنِ اعْبُدُونِی هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِیمٌ».

اخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان، إذ أنّه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل، فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه؟! .. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، اخذ عليه العهد بطاعة اللَّه سبحانه وتعالى، لأنّ سبيله هو الصراط المستقيم، وهذا فى الحقيقة أعظم محرّك للبشر.

ويستفاد كذلك من هذا التعبير ضمناً بأنّ الدنيا ليست بدار القرار، إذ إنّ الطريق لا يُرسم لأحد إلّالمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۳

وللتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِیرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ».

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أى مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟

إذن لماذا أنتم غير جادّين فى معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات ومرّات؟ ولا زلتم تتخذونه صديقاً بل قائداً ووليّاً وإماماً.

هـذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اصْلَوْهَا الْیَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴) الْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا یَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْیُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى یُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِیّاً وَ لَا یَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلَا یَعْقِلُونَ (۶۸) تعرّضت الآيات السابقة إلى قسم من التوبيخات والتقريعات الإلهية وإلى مخاطبته سبحانه المجرمين فى يوم القيامة، هذه الآيات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أيضاً.

نعم، ففى ذلك اليوم وحينما تظهر جهنم للمجرمين الكافرين يذكّرهم اللَّه بوعده، والآية تشير إلى ذلك فتقول: «هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

فقد بُعث إليكم الأنبياء واحداً بعد واحد، وحذّروكم من مثل هذا اليوم ومن مثل هذه النار، ولكنكم لم تأخذوا أقوالهم إلّاعلى محمل السخرية والاستهزاء: «اصْلَوْهَا الْیَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

ثم يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة ... الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: «الْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَیْدِیهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا یَكْسِبُونَ».

ففى ذلك اليوم لا تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته وميوله، فهى بأجمعها تتخلّى عن إمتثال أمره وتستسلم لأمر اللَّه سبحانه، ويالها من محكمة عجيبة تلك المحكمة التى شهودها

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۴

نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التى كانت الوسائل لإرتكاب المعاصى والذنوب. فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال اللَّه عزّ وجل: «فَمَنْ أُوتِیَ كِتَابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولئِكَ یَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا یُظْلَمُونَ فَتِیلًا»».

الآية التالية تشير إلى أحد ألوان العذاب التى يمكن أن يبتلى اللَّه تعالى بها المجرمين فى هذه الدنيا، تقول الآية الكريمة: «وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْیُنِهِمْ» «۱».

وفى تلك الحالة التى يبلغ فيها الرعب الذروة عندهم: «فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى یُبْصِرُونَ». فهم عاجزون حتى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم، ناهيك عن العثور على طريق الحق وسلوك الصراط المستقيم.

وعقوبة مؤلمة اخرى لهم: إنّنا لو أردنا لمسخناهم فى مكانهم على شكل تماثيل حجرية فاقدة للروح والحركة، أو على أشكال

الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدّم إلى الأمام، ولا الرجوع إلى الخلف: «لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ» (۲).

إنّ الآيتين أعلاه تتحدّثان عن عذاب الدنيا.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تشير إلى وضع الإنسان فى آخر عمره من حيث الضعف والعجز العقلى والجسمى، لتكون إنذاراً لهم وليختاروا طريق الهداية عاجلًا، ولتكون جواباً على الذين يلقون بمسؤولية تقصيرهم على قصر أعمارهم، وكذلك لتكون دليلًا على قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، فالقادر على أن يعيد ذلك الإنسان القوى إلى ضعف وعجز الوليد الصغير ... قادر على مسألة المعاد بالضرورة، وعلى الطمس على عيون المجرمين ومنعهم عن الحركة، كذلك تقول الآية الكريمة: «وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ».

«ننكّسه»: من مادة «تنكيس» وهو قلب الشىء على رأسه، وهى هنا كناية عن الرجوع الكامل للإنسان إلى حالات الطفولة.

---

(۱) «طمسنا»: من «طمس»- على وزن شمس- بمعنى إزالة الأثر بالمحو، وهذه إشارة إلى إزالة ضوء العين أو صورتها بشكل كلّى بحيث لا يبقى منها أثر.

(۲) «مكانتهم»: بمعنى محل التوقّف، وهى إشارة إلى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم فى محلّ توقّفهم، يغيّر أشكالهم، ويفقدهم القدرة على الحركة، تماماً كالتمثال الخالى من الروح.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۵

وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (۷۰) إنّه ليس بشاعر ... بل نذير: قلنا أنّ فى هذه السورة بحوثاً حيّة وجامعة حول اصول الإعتقادات: التوحيد، والمعاد، والنبوّة، وتنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفة من الآيات.

طرحت فى الآيات السابقة بحوث مختلفة حول التوحيد والمعاد، وتعود هاتان الآيتان إلى البحث فى مسألة النبوّة، وقد أشارتا إلى أكثر الإتّهامات رواجاً والتى اثيرت بوجه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وردّت عليهم ردّاً قويّاً، منها اتّهام الرسول بكونه شاعراً، فقالت: «وَمَا عَلَّمْنهُ الشّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ».

كان ذلك بسبب الجاذبية الخاصّة للقرآن الكريم ونفوذه فى القلوب، الأمر الذى كان محسوساً للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه ومعانيه وفصاحته وبلاغته، وقد كانت جاذبية القرآن الكريم الخاصّة قد أثّرت حتى فى نفوس الكفار الذين كانوا أحياناً يأتون إلى جوار منزل النبى صلى الله عليه و آله بشكل خفى ليلًا لكى يستمعوا إلى تلاوته للقرآن فى عمق الليل.

وهنا حاول الكفار من أجل تفسير هذه الظاهرة العظيمة، ولغرض إستغفال الناس وصرف أنظارهم من كون ذلك الكلام وحياً إلهيّاً، فأشاعوا تهمة الشعر فى كل مكان، والتى كانت بحدّ ذاتها تمثّل إعترافاً ضمنياً بتميّز كلام القرآن الكريم.

وأمّا لماذا لا يليق بالرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله أن يكون شاعراً، فلأنّ طبيعة الشعر تختلف تماماً عن الوحى الإلهى، للأسباب التالية:

۱- إنّ أساس الشعر- عادةً- هو الخيال والوهم، والحال أنّ الوحى يُستمدّ وجوده من مبدأ الوجود ويدور حول محور الحقيقة.

۲- الشعر يفيض من العواطف الإنسانية المتغيّرة، وهى فى حال تغيّر وتبدّل مستمرين، أمّا الوحى الإلهى فمرآة الحقائق الكونية الثابتة.

۳- لطافة الشعر تنبع فى الغالب من الإغراق فى التمثيل والتشبيه والمبالغة، إلى درجة أن قيل: «أحسن الشعر أكذبه»، أمّا الوحى فليس إلّاالصدق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۶

۴- وأخيراً يقول أحد المفسّرين: إنّ الشعر مجموعة من الأشواق التى تحلّق منطلقة من الأرض باتّجاه السماء، بينما الوحى حقائق نازلة من السماء إلى الأرض، وهذان الإتّجاهان واضح تفاوتهما.

وهنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام اولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق باتّجاه أهداف مقدسة، ويصونون أشعارهم من كل ما لا يرضى اللّه.

ثم يضيف تعالى فى آخر الآية لنفى الشعر عن الرسول صلى الله عليه و آله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ».

والهدف هو الإنذار وإتمام الحجة: «لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ».

هذه الآيات «ذكر» ووسيلة تنبيه، هذه الآيات «قرآن مبين» يوضّح الحق بلا أدنى تغطية أو غمط، بل بقاطعية وصراحة، ولذا فهو عامل إنتباه وحياة وبقاء.

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (۷۴) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۶) فوائد الأنعام للإنسان: يعود القرآن الكريم مرّة اخرى فى هذه الآيات إلى مسألة التوحيد والشرك، ويشير- ضمن تعداد قسم من آثار عظمة اللّه فى حياة البشر، وحلّ مشكلاتهم ورفع حاجاتهم- إلى ضعف وعجز الأصنام، وبمقارنة واضحة يشطب على الشرك ويثبت بطلانه، وفى نفس الوقت يثبت حقّانية خطّ التوحيد. تقول الآية الكريمة الاولى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ».

ولكى يستفيدوا بشكل جيّد من هذه الحيوانات: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ».

ولا تنتهى منافعها إلى هذا الحد، بل «وَلَهُمْ فِيهَا مَنفِعُ وَمَشَارِبُ». وعليه: «أَفَلَا يَشْكُرُونَ». الشكر الذى هو وسيلة معرفة اللّه وتشخيص ولىّ النعمة.

جملة «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ» إشارة إلى مسألة فى غاية الأهمية، وهى تذليل هذه الحيوانات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۷

للإنسان. فتلك الحيوانات القوية والتى تنسى فى بعض الأحيان ذلك التذليل الإلهى، وتثور وتغضب وتعاند فتصبح خطرة إلى درجة أنّ عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها؟

وفى حالاتها الاعتيادية فإنّ قافلة كاملة من الجمال يقودها تارةً صبى لم يبلغ الحلم، ويدفعها فى الطريق الذى يرتئيه.

جملة «لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» إشارة إلى فوائد الحيوانات الكثيرة الاخرى التى تتحقّق للإنسان، ومن جملتها الأصواف والأوبار التى تصنع منها مختلف الملابس والخيم والفرش، والجلود التى تصنع منها الحقائب والملابس والأحذية ووسائل اخرى مختلفة.

«مَشَارِبُ» إشارة إلى الحليب الذى يؤخذ من تلك الدواب ويؤمّن مع منتجاته قسماً مهمّاً من المواد الغذائية للإنسان.

لذا فإنّ الآية التالية، تنتقل إلى الحديث عن المشركين ووصف حالهم فتقول: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ».

فيا له من خيال باطل وفكر ضعيف؟ ذلك الذى يعتقد بهذه الموجودات الضعيفة التافهة التى لا تملك لنفسها- ناهيك عن الآخرين- ضرّاً ولا نفعاً، ويجعلونها إلى جانب اللّه سبحانه وتعالى ويقرنونها به تعالى، ويلجأون إليها لحل مشاكل حياتهم؟

وعليه تضيف الآية التالية: إنّ المعبودات لا تستطيع نصرة المشركين، وسيكون هؤلاء المشركون جنوداً مجنّدة يتقدمونها إلى جهنم: «لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ».

ويا له من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدّمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنم زمراً فى ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حل عقدة مشكلة واحدة من مشكلات هؤلاء المشركين فى ذلك الموقف الرهيب.

التعبير ب «مُّحْضَرُونَ» يكون عادةً للتحقير، لأنّ إحضار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنّما يدلّل على حقارتهم.

أخيراً- وفى آخر آية من هذه الآيات، ولمواساة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتثبيت فؤاده إزاء مكر المشركين، والفتن والأعمال الخرافية- تقول الآية الكريمة: «فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ». تارةً يقولون شاعر، واخرى ساحر، وأمثال ذلك من التهم: «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فلا تخفى علينا نواياهم، ولا مؤامراتهم فى الخفاء، ولا جحودهم وتكذيبهم لآياتنا فى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۸

العلن، نعلم بكل ذلك، ونحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، وستكون أنت أيضاً فى أمان من شرّهم فى هذه الدنيا.

أ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (۷۸) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (۷۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ ابىّ بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء بعظم بال متفتت، وقال: يا محمّد أتزعم أنّ اللّه يبعث هذا؟ فقال: «نعم». فنزلت الآية «أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ» إلى آخر السورة.

التّفسير

هذه السورة ابتدأت بمسألة النبوّة، واختتمت بسبعة آيات تمثّل أقوى البيانات حول المعاد. فتقول: «أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» «۱».

فهذا الموجود الضعيف العاجز، يصبح قويّاً إلى درجة أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربة الدعوات الإلهية، وينسى ماضيه ومستقبله، ليكون مصداقاً حيّاً لقوله تعالى: «فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ».

ويكفى لمعرفة مدى غفلته وحمقه أنّه جاء: «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» «۲».

المقصود من ضرب المثل هنا الاستدلال وذكر مصداق لإثبات مطلب معيّن.

والجميل أنّ القرآن الكريم أجابه بجملة وجيزة مقتضبة وهى قوله تعالى: «وَنَسِيَ خَلْقَهُ». ثم أردفها بتوضيح أكثر.

فكأنّه يقول: لو لم تنس بدء خلقك لما إستدللت بهذا الإستدلال الواهى الفارغ أبداً.

أيّها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلًا إلى الوراء وانظر فى خلقك، كيف كنت نطفة تافهة

---

(۱) «خصيم»: بمعنى المصرّ على الخصومة والجدال؛ و «الرؤية» بمعنى العلم.

(۲) «رميم»: من مادة «رم»، وهو إصلاح الشىء البالى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۶۹

وكل يوم أنت فى لبس جديد من مراحل الحياة، فأنت فى حال موت وبعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلًا بالغاً، وبكميّة من عالم النبات الجامد، ومن عالم الحيوان الميّت أيضاً أصبحت إنساناً، ولكنّك نسيت كل ذلك وصرت تسأل: من يحيى العظام وهى رميم؟ ألم تكن أنت فى البدء تراباً كما هو حال هذه العظام بعد تفسّخها؟!

لذا فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يأمر الرسول صلى الله عليه و آله بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسى: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وإذا كنت تعتقد بأنّ هذه العظام بعد تفسّخها تصبح تراباً وتنتشر فى الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من نقاط إنتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضاً واضح: «وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

فمن كان له مثل هذا (العلم) وهذه (القدرة) فإنّ مسألة المعاد وإحياء الموتى لا تشكّل بالنسبة إليه أيّة مشكلة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) تتابع هذه الآية البحوث المختلفة حول المعاد وتقول: «الَّذِي جَعَلَ

لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ».

ثمّة تفسير عميق، والذى ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء فى عصرنا الحاضر وقد اخترنا أن نطلق عليه تسمية «إنبعاث الطاقة».

وتوضيح ذلك كما يلى: إنّ من أهمّ الوظائف التى تقوم بها النباتات هى عملية «التركيب الضوئى» والتى تعتمد أساساً على أخذ غاز «ثانى اوكسيد الكربون» من الهواء، والإفادة منه بواسطة «المادّة الخضراء» أو ما يسمّى «بالكلورفيل» لصنع الغذاء بمساعدة الماء وضوء الشمس. ذلك الغذاء الذى يؤدّى إلى تكوّن حلقات السليلوز فى النباتات من ذوات الفلقتين، ويكون ناتج عملية التركيب الضوئى الأوكسجين الذى يطلق فى الهواء مرّة اخرى.

ولو نظرنا إلى العملية بطريقة اخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز (ثانى أوكسيد الكاربون) وتجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالكاربون مركّباً مع غيره من الماء لتكوّن الخشب وتطلق الأوكسجين.

والمهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأنّ أيّة عملية تركيب كيمياوى تحتاج إلى طاقة ما لكى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۰

يتمّ ذلك التفاعل الكيمياوى، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّى إلى إطلاق طاقة كناتج عنه، وبناءً عليه فإنّ التفاعل الذى يتمّ نتيجة التركيب الضوئى إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل. وعليه فالشجرة إنّما تقوم بإدّخار هذه الطاقة فى الخشب الذى يتكوّن نتيجة لهذه العملية. وعندما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا إنّما نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقة المدّخرة. وبذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب (الكاربون) مع (الأوكسجين) لينتج (ثانى أوكسيد الكاربون) الذى ينطلق فى الهواء مرّة اخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

ويقال إنّ كل الطاقات فى الكرة الأرضية تعود إلى الشمس أساساً، وواحد من مظاهره ما ذكرنا.

وهنا وحيث بلغنا «إنبعاث الطاقات» نلاحظ أنّ النور والحرارة المبعثرة فى الجو والتى تقوم الأشجار بجمعها فى أخشابها لتنمو فإنّها لا تفنى أبداً، بل إنّها تتبدّل شكلًا. وتختفى بعيداً عن أعيننا فى كل ذرّة من ذرّات الخشب، وعندما نقوم بإيقاد النار بقطعة من الحطب، فإنّ إنبعاثها يبدأ، وجميع ما كان فى ذرّات الخشب من النور والحرارة وطاقة الشمس، فى تلك اللحظة- لحظة الحشر والنشر- تظهر من جديد. بدون أن ينقص منه حتى بمقدار إضاءة شمعة واحدة (تأمل بدقة).

أ وَ لَيسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۱) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۸۲) فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳) هو المالك والحاكم على كل شىء: بعد ذكر دلائل المعاد والفات الأنظار إلى الخلق الأوّل، ونشوء النار من الشجر الأخضر فى الآيات السابقة، تتابع الآية الاولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثالث وهو قدرة اللّه اللامتناهية، فتقول الآية الاولى: «أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلقُ الْعَلِيمُ».

الآية اللاحقة تأكيد على ما ورد فى الآيات السابقة، وتأكيد على حقيقة أنّ أى خلق وإيجاد بالنسبة للّهسبحانه وتعالى وقدرته سهل وبسيط، وخلق السماوات العظيمة والكرة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۱

الأرضية يعادل فى سهولته إيجاد حشرة صغيرة، فكلاهما بالنسبة له تعالى أمر هيّن بسيط.

يقول تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

فإنّ اللّه سبحانه وتعالى ما إن يرد شيئاً إلّاتحقق فوراً، وليس بين إرادته ووجود ذلك الشىء أيّة فاصلة، وعليه فإنّ «أمره» و «قوله» وجملة «كن» كلّها توضيح لمسألة الخلق والإيجاد. وتوضيح للتحقّق السريع بوجود كل ما أراده سبحانه وتعالى.

الآية الأخيرة من هذه الآيات وهى فى ذات الوقت آخر آية من سورة «يس» تنهى البحث فى مسألة المبدأ والمعاد بشكل جميل وبطريقة الإستنتاج الكلى فتقول: «فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

«ملكوت»: من أصل «ملك» بمعنى الحكومة والمالكية. ومعنى الآية كما يلى: إنّ الحاكمية والمالكية المطلقة بدون أدنى قيد أو شرط بيد قدرته المطلقة، وكذلك فإنّ اللَّه سبحانه منزه ومبرّأ عن أى عجز أو نقص فى القدرة، وبهذا الشكل فإنّ إحياء الموتى وإلباس العظام المتفسّخة لباس الحياة من جديد، كل ذلك لن يشكّل لديه أية مشكلة، ولذلك فاعلموا يقيناً أنّكم إليه ترجعون وأنّ المعاد حق.

بحوث

۱- الإعتقاد بالمعاد أمر فطرى: إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشقاً للفناء، وأن يلتذّ بنهاية عمره وبموته فى حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن سارّاً للإنسان فى أى وقت، وهو يفرّ منه بكل وجوده.

إنّ السعى لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، وبناء المقابر الخالدة كأهرام مصر، والجرى وراء ما يسمّى بماء الحياة ودواء الشباب وما يطيل العمر، كل ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقة شاغلة بلا جدوى ولا فائدة.

لا تنسوا أنّنا نتابع البحث فى مسألة المعاد بعد الإتفاق على الإعتقاد بوجود اللَّه الحكيم العالم، ونحن نعتقد بأنّ كل ما خلقه اللَّه سبحانه وتعالى فى وجودنا إنّما هو وفقاً لحساب وغرض، وبناءاً عليه فإنّ عشق البقاء لابد أن يكون له حساب خاص، منسجم مع الخلق والعالم بعد الدنيا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۲

وبتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجد فينا عطشاً، فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجوداً فى العالم الخارجى، كذلك فإنّ وجود الغريزة الجنسية والميل إلى الجنس الآخر يدلّل على وجود الجنس الآخر فى العالم الخارجى، وإلّا فإنّ الإنجذاب بدون أن يكون له مدلول وموضوع خارجى لا يتفق مع حكمة الخلق.

ومن جهة اخرى فعندما نبحث فى التاريخ البشرى منذ أيام نشأة ذلك التاريخ فإنّنا نجد دلائل كثيرة على الإعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياة بعد الموت، فالآثار التى وصلت إلينا من البشر الغابرين- وحتى إنسان ما قبل التاريخ- وبالأخص طريقة دفن الموتى، وكيفية بناء القبور، وحتى دفن الأشياء المختلفة مع الموتى، كلها دليل على ما ترسّخ فى وجدانهم من الإعتقاد بالحياة بعد الموت.

«صاموئيل كنيك» أحد علماء النفس المعروفين يقول: «إنّ التحقيقات الدقيقة تشير إلى أنّ المجموعات البشرية الاولى على سطح الأرض، كانت لهم إعتقادات معينة، لأنّهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقة معينة فى الأرض، ويضعون معهم وسائل وآلات أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، وبهذه الطريقة فإنّهم يثبتون إعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت» «۱».

فهؤلاء اعتقدوا بالحياة بعد الموت، وإن كانوا قد سلكوا طريقاً خاطئاً فى إعتقادهم كتوهّمهم أنّ تلك الحياة شبيهة بهذه الحياة تماماً.

على كل حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الإعتقاد القديم مجرد وهم أو نتيجة للتلقين والعادة.

ومن جهة ثالثة، فإنّ وجود محكمة «الوجدان»، دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد.

فكلّ إنسان عندما ينجز عملًا حسناً فإنّه يستشعر فى أعماقه وفى وجدانه الطمأنينة التى لا يمكن أحياناً وصفها بأى بيان أو كلام.

وعلى العكس عندما يرتكب الذنوب وخصوصاً الجنايات الكبرى، فإنّه يستشعر عدم الراحة، إلى حد تصل الحالة فى البعض إلى الإنتحار، أو يسلّموا أنفسهم إلى المحاكم لنيل العقاب والتعلق على أعواد المشانق.

---

(۱) علم الإجتماع، ساموئيل كنيك/ ۱۹۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۳

كل ذلك دليل على عذاب الضمير والوجدان.

وللإنسان أن يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون عالم صغير كعالم النفس له تلك المحكمة، ولا يكون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان وهذه المحكمة؟!

وبهذا الشكل يتّضح أنّ الإعتقاد بمسألة المعاد أمر فطرى، ومن عدّة طرق:

من طريق العشق البشرى العام للبقاء.

ومن طريق وجود ذلك الإعتقاد بالحياة بعد الموت على طول التاريخ البشرى.

ومن طريق وجود النموذج المصغّر لها فى داخل الإنسان.

۲- أثر الإعتقاد بالمعاد على حياة البشر: إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت وبقاء آثار الأعمال البشرية، وخلود الأعمال- سواء كانت خيراً أو شرّاً- يترك أثره العميق على فكر وأعصاب وجسد الإنسان، ويمكنه أن يكون عاملًا مؤثراً فى التشجيع على الأعمال الحسنة.

إنّ تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت فى إصلاح الأفراد الفاسدين والمنحرفين وتشجيع الأفراد المضحّين والمجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم والعقوبات المعمول بها عادةً فى الدنيا، للمزايا التى يتمتّع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العادية، ففى محكمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، ولا أثر للإضطهاد الفكرى على صاحبها، ولا فائدة من إعطاء وثائق كاذبة ومزوّرة، ولا تستغرق- عبر روتينها- مدة من الزمن.

القرآن الكريم يقول: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّاتَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» «۱».

كذلك يقول تعالى: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» «۲».

كذلك قوله تعالى: «لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» «۳».

وإنّ حسابه تعالى سريع وحاسم كما ورد فى الخبر: «أنّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر».

ولهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء،

---

(۱) سورة البقرة/ ۴۸.

(۲) سورة يونس/ ۵۴.

(۳) سورة إبراهيم/ ۵۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۴

فقال تعالى: «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا» «۱».

حتى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقداً بالقيمة فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد فى وصفه تعالى للمطفّفين فى الميزان، قوله تعالى:

«أَلَا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» «۲».

والحماسة الخالدة لمجاهدى الإسلام سابقاً وحاضراً فى ميادين الجهاد، والتضحية والفداء والإيثار الذى يظهره الكثير من المسلمين فى الدفاع عن بلدان الإسلام وعن المحرومين والمستضعفين، يدلّل على أنّه بجميعه إنعكاس لحالة الإعتقاد بالحياة الخالدة فى الدار الآخرة، وقد دلّت الدراسات من قبل المفكرين، والتجارب المختلفة على أنّ تلك المظاهر لا يمكن أن تكون- فى المقياس الواسع الشامل- إلّاعن طريق العقيدة بالحياة بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذى منطقه: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» «۳». أى: الوصول إلى إحدى السعادتين، إمّا النصر أو الشهادة، هو قطعاً مجاهد لا يقبل الهزيمة.

إنّ الموت الـذى يبعث على الوحشـة لـدى كثير من النـاس، وحتى أنّهم يحاذرون من ذكر إسـمه أو كل ما يـذكّر به، ليس موحشاً ولا قبيحاً قطّ بالنسبة إلى المعتقدين بالحياة بعد الموت، بل إنّه بالنسبة إليهم نافذة على عالم رحيب، وتحطّم القفص الدنيوى وكسر القيود المادّية التى تأسر الروح، وبلوغ الحريّة المطلقة.

إنّ مسألة المعاد تعتبر الخط الفاصل بين الإلهيين والماديين، لوجود نظرتين مختلفتين هنا:

فالمادى يرى الموت فناءً مطلقاً، ويفرّ منه بكل وجوده، لأنّ كل شىء سينتهى به.

والإلهى يرى الموت ولادة جديدة، وولوجاً فى عالم واسع كبير مشرق، والإنطلاق فى السماء اللامحدودة. ومن الطبيعى فإنّ المعتقدين بهذا المذهب لا يفسحون المجال للخوف والوحشة للدخول إلى أنفسهم عند سلوكهم طريق الموت والشهادة. بل إنّهم يستلهمون من قول على بن أبى طالب عليه السلام: «واللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امّه» «۴».

---

(۱) سورة السجدة/ ۱۴.

(۲) سورة المطفّفين/ ۴ و ۵.

(۳) سورة التوبة/ ۵۲.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۵

ويستقبلون الموت فى سبيل الهدف برحابة صدر. ولهذا فإنّ أمير المؤمنين حينما تلقّى الضربة السامّة من اللعين الخاسر «عبد الرحمن بن ملجم» لم يقل سوى «فزت وربّ الكعبة».

خلاصـة القول: فـإنّ الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنساناً شـجاعاً شـهماً هادفاً، تمتلىء حياته بالحماسـة والتضحية والصدق والتقوى.

۳- الدلائل العقليّة على المعاد: فضـلًا عن الدلائل النقلية الكثيرة على المعاد سواء الواردة فى القرآن المجيد، والتى تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص، فإنّ هناك أدلّة عقلية واضحة أيضاً على هذه المسألة، والتى نحاول ذكرها هنا بشكل مختصر:

أ) برهان الحكمة: إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر، فسيكون فارغاً وبلا معنى تماماً، كما لو افترضنا بوجود الحياة فى الأطوار الجنينية بدون الحياة فى هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضـى بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرد نزولهم من بطون امّهاتهم ويموتون، فإنّ الدور الجنينى سيكون بلا معنى؟ كذلك لو كانت الحياة فى هذا العالم مبتورة عن الحياة فى العالم الآخر، فسنواجه نفس الاضطراب والحيرة، فما ضرورة أن نعيش سـبعين عاماً أو أكثر أو أقل فى هـذه الـدنيا وسط كل هـذه المشـكلات؟ فنبـدأ الحياة ونحن لا نملك تجربـة معيّنة، وحين بلوغ تلك المرتبة يهجم الموت وينتهى العمر ... نسعى مدة لتحصـيل العلم والمعرفة، وحينما نبلغ درجة منه بعد إشتعال الرأس شيباً يستقبلنا الموت.

ثم لأجل ماذا نعيش؟ الأكل واللبس والنوم والإستيقاظ المتكرر يومياً، وإستمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟

فهل حقّاً إنّ هـذه السـماء المترامية الأطراف وهذه الأرض الواسعة، وكل هذه المقدمات والمؤخّرات وكل هؤلاء الأساتذة والمعلمين والمربين وكل هـذه المكتبات الضـخمة وكل هذه الامور الدقيقة والأعمال التى تداخلت فى خلقنا وخلق باقى الموجودات، كل ذلك لمجرّد الأكل والشرب واللبس والحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، ويقدم بعضهم على الإنتحار للتخلّص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفتخر به.

وكيف يمكن لمن يؤمن باللّه وبحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون إرتباطها بحياة اخرى ذات قيمة وذات شأن؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۶

یقول تعالی: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاکُمْ عَبَثًا وَأَنَّکُمْ إِلَیْنَا لَاتُرْجَعُونَ» «۱». أی: أنّه لو لم یکن رجوع بعد هذه الدنیا إلی اللّه، فإنّ الحیاة فی هذه الدنیا لیست سوی عبث فی عبث.

نعم فإنّ الحیاة فی هذه الدنیا تجد معناها ویکون لها مفهوماً ینسجم مع حکمة اللّه سبحانه وتعالی عندما تعتبر هذه: «الدنیا مزرعة للآخرة» و «الدنیا قنطرة» ومکان تعلّم، وجامعة للإستعداد للعالم الآخر ومتجر لذلک العالم، تماماً کما یقول أمیر المؤمنین علی علیه السلام فی نهج البلاغة فی کلماته العمیقة المعنی: «إنّ الدنیا دار صدق لمن صدقها، ودار عافیة لمن فهم عنها، ودار غنی لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها. مسجد أحبّاء اللّه، ومصلّی ملائکة اللّه، ومهبط وحی اللّه، ومتجر أولیاء اللّه».

خلاصة القول، إنّ الفحص والمطالعة فی وضع هذا العالم یؤدّی إلی الإعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَی فَلَوْلَا تَذَکَّرُونَ» «۲».

ب) برهان العدالة: التدقیق فی نظام الوجود وقوانین الخلق، یستنتج منه أنّ کل شیء منها محسوب بدقّة متناهیة. ففی مؤسسة البدن البشری، یحکم نظام عادل دقیق، بحیث أنّه لو تعرّض لأدنی تغییر أو عارض ما لأدّی إلی إصابته بالمرض أو حتی الموت، حرکات القلب، دوران الدم، أجفان العین، وکل جزء من خلایا الجسم البشری مشمول بهذا النظام الدقیق، الذی یحکم العالم بأسره و «بالعدل قامت السماوات والأرض». فهل یستطیع الإنسان أن یکون وحده النغمة النشاز فی هذا العالم الواسع؟!

صحیح أنّ اللّه سبحانه وتعالی أعطی للإنسان بعض الحریة فی الإرادة والاختیار لکی یمتحنه ولکی یتکامل فی ظل تلک الحریة ویطوی مسیر تکامله بنفسه، ولکن إذا أساء الإنسان الاستفادة من تلک الحریة فماذا سیکون؟! ولو أنّ الظالمین الضالین المضلین بسوء استفادتهم من هذه الموهبة الإلهیة استمرّوا علی مسیرهم الخاطیء فماذا یقتضی العدل الإلهی؟!

وصحیح أنّ بعضاً من المسیئین یعاقبون فی هذه الدنیا ویلقون مصیر أعمالهم- علی

---

(۱) سورة المؤمنون/ ۱۱۵.

(۲) سورة الواقعة/ ۶۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۷

الأقل قسم منهم- ولکن المسلّم أنّ جمیعهم لا ینال جمیع ما یستحق، کما أنّ جمیع المحسنین الأطیاب لا یتلقّون جزاء أعمالهم الطیبة فی الدنیا، فهل من الممکن أن تکون کلتا المجموعتین فی کفّة عدالة اللّه سواء؟!

ویقول القرآن الکریم: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِینَ کَالْمُجْرِمِینَ مَا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ» «۱».

وفی موضع آخر یقول تعالی: «أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجَّارِ» «۲».

علی کل حال، فلا شک فی تفاوت الناس وإطاعة أوامر اللّه سبحانه وتعالی، کما أنّ محاکم «القصاص والثواب الدنیویة» و «محکمة الوجدان» و «الآثار الوضعیة للذنوب» کل ذلک لا یکفی لإقرار العدالة علی ما یبدو، وعلیه یجب القبول بأنّه لأجل إجراء العدالة الإلهیة یلزم وجود محکمة عدل عامة تراعی بدقة الخیر أو الشر فی حساباتها، وإلّا فإنّ أصل العدالة لا یمکن تأمینه أبداً.

وبناءً علی ما تقدّم یجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهی مساوٍ بالضرورة لوجود المعاد والقیامة، القرآن الکریم یقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیمَةِ» «۳».

ویقول: «وَقُضِیَ بَیْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَایُظْلَمُونَ» «۴».

ج) برهان الهدف: علی خلاف ما یتوهمه المادیون، فإنّ الإلهیین یرون أنّ هناک هدفاً من خلق الإنسان، والذی یعبّر عنه الفلاسفة ب «التکامل» وفی لسان القرآن والحدیث فهو «القرب إلی اللّه» أو «العبادة»: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونَ» «۵».

فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكل شىء؟!

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم ويستمر فيه سير الإنسان التكاملى، وهناك يحصد ما زرع فى هذا العالم، وكما قلنا فى موضع آخر فإنّه فى ذلك العالم الآخر يستمر سير الإنسان التكاملى ليبلغ هدفه النهائى.

الخلاصة: أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، وإذا قطعنا الإرتباط بين هذا العالم وعالم ما بعد الموت، فكل شىء سيتحوّل إلى ألغاز، وسوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

---

(۱) سورة القلم/ ۳۵ و ۳۶.

(۲) سورة ص/ ۲۸.

(۳) سورة الأنبياء/ ۴۷.

(۴) سورة يونس/ ۵۴.

(۵) سورة الذاريات/ ۵۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۸

د) برهان نفى الإختلاف: لا شك أنّنا جميعاً نتعذّب كثيراً من الاختلافات بين المذاهب والعقائد فى هذا العالم، وكلّنا نتمنّى أن تحلّ هذه الاختلافات، فى حين أنّ جميع القرائن تدلّل على أنّ هذه الاختلافات هى من طبيعة الحياة، ويستفاد من عدة دلائل بأنّه حتى بعد قيام المهدى عليه السلام- وهو المقيم لحكومة العدل العالمية والمزيل لكثير من الاختلافات- ستبقى بعض الاختلافات العقائدية بلا حلّ تامّ، وكما يقول القرآن الكريم، فإنّ اليهود والنصارى سيبقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامة: «فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَومِ الْقِيمَةِ» «۱».

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى الذى يقود كل شىء باتّجاه الوحدة سينهى تلك الاختلافات حتماً، ولوجود الحجب الكثيفة لعالم المادة فى الدنيا فإنّه لا- يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها، ونعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور والإنكشاف، إذن فنهاية هذه المسألة ستكون نهاية عملية، وستكون الحقائق جلية واضحة إلى درجة أنّ الاختلافات العقائدية ستحلّ بشكل نهائى تام.

الجميل أنه تمّ التأكيد فى آيات متعددة من القرآن الكريم على هذه المسألة، يقول تعالى فى الآية (۱۱۳) من سورة البقرة: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وفى الآيات (۳۸ و ۳۹) من سورة النحل يقول تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ».

۴- القرآن ومسألة المعاد: تعتبر مسألة المعاد المسألة الثانية بعد مسألة التوحيد والتى تعتبر المسألة الأساس فى تعليمات الأنبياء بخصائصها وآثارها التربوية، لذا ففى بحوث القرآن الكريم نجد أنّ أكثر الآيات اختصّت ببحث مسألة المعاد، بعد الكثرة الكاثرة التى اختصّت ببحث مسألة التوحيد.

والمباحث القرآنية حول المعاد تارةً تكون بشكل إستدلالات منطقية، واخرى بشكل بحوث خطابية وتلقينية شديدة الوقع بحيث إنّ سماعها فى بعض الأحيان يؤدّى إلى قشعريرة شديدة فى البدن بأسره. والكلام الصادق- كالاستدلالات المنطقية- ينفذ إلى أعماق الروح الإنسانية.

---

(۱) سورة المائدة/ ۱۴.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۷۹

فى القسم الأوّل، أى الاستدلالات المنطقيـة، فإنّ القرآن الكريم يؤكّد كثيراً على موضوع إمكانية المعاد، إذ إنّ منكرى المعاد غالباً ما يتوهمون إستحالته، ويعتقدون بعدم إمكانية المعاد بصورة معاد جسمانى يستلزم عودة الأجسام المهترئة والتراب إلى الحياة مرّة اخرى. ففى هذا القسم، يلج القرآن الكريم طرقاً متنوعة ومتفاوتة تلتقى كلها فى نقطة واحدة، وهى مسألة «الإمكان العقلى للمعاد».

فتارةً يجسّد للإنسان النشأة الاولى، وبعبارة واضحة تقول الآية: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» «۱».

وتـارةً يجسّـد حياة وموت النبات، وبعثه الـذى نراه بامّ أعيننا كل عام، وفى الختام يقول إنّ بعثكم تماماً كالنبات: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذلِكَ الْخُرُوجُ» «۲».

وفى موضع آخر يقول تعالى: «وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذلِكَ النُّشُورُ» «۳».

وحيناً يطرح مسألة قدرة اللَّه سبحانه وتعالى على خلق السموات والأرض فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «۴».

وحيناً آخر يعرض عمليـة إنبعاث الطاقة وإشتعال الشجر الأخضر كنموذج على قدرته، وجعل النار فى قلب الماء فيقول: «الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا» «۵».

وتارةً يجسّـد أمام ناظرى الإنسان الحياة الجنينيـة فيقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» «۶».

وأخيراً فإنّ القرآن تارةً يدلّل على البعث بالنوم الطويل- النوم الذى هو قرين الموت

---

(۱) سورة الأعراف/ ۲۹.

(۲) سورة ق/ ۹- ۱۱.

(۳) سورة فاطر/ ۹.

(۴) سورة الأحقاف/ ۳۳.

(۵) سورة يس/ ۸۰.

(۶) سورة الحجّ/ ۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۰

وأخوه، بل إنّه الموت بعينه من بعض الجوانب- كنوم أصحاب الكهف الـذى استمر ثلاثمائة وتسع سنين، وبعد تفصيل جميل حول النوم واليقظة يقول: «وَكَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا» «۱».

تلك هى الأساليب الستّة المختلفة التى طرحتها آيات القرآن الكريم لبيان إمكانية المعاد.

علاوةً على قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة (البقرة- ۲۶۰) وقصة عزير (البقرة- ۲۵۹) وقصة الشهادة من بنى إسرائيل (البقرة- ۷۳)، والتى تشكّل كـل واحـدة منها نموذجاً تأريخياً على هـذه المسألـة وهى من الشواهـد والـدلائل الاخرى التى ذكرها القرآن بهـذا الخصوص.

خلاصـة القول، إنّ مـا يعرضه القرآن الكريم عن المعـاد ومظاهره المختلفـة ومعلومـاته ونتـائجه، والـدلائل الرفيعـة التى يطرحها بهـذا الخصوص، حيّة ومقنعة بحيث إنّ أىّ إنسان إذا كان لديه ذرّة من الوجدان فإنّه يتأثّر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

۵- المعاد الجسمانى: المقصود من المعاد الجسمانى ليس إعادة الجسم وحده فى العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح والجسم معاً، وبتعبير آخر فإنّ عودة الروح أمر مسلّم به، والحديث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحى فقط، وينظرون إلى الجسد على أنّه مركّب، يكون مع الإنسان فى هذه الدنيا فقط، وبعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل من الجسد ويندفع نحو عالم الأرواح.

ولكن العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأنّ المعاد يشمل الروح والجسم، وهنا لا يقيّد البعض بعودة الجسم السابق، ويقولون بأنّ اللّه قيّض للروح جسداً، ولكن شخصية الإنسان بروحه فإنّ هذا الجسد يعدّ جسده.

فى حال أنّ المحققين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذى يصبح تراباً ويتلاشى، يتلبّس بالحياة مرّة اخرى بأمر اللّه الذى يجمعه ويكسوه بالحياة، هذه العقيدة نابعة من متون الآيات القرآنية الكريمة.

إنّ الشواهد على المعاد الجسمانى فى الآيات القرآنية الكريمة كثيرة جدّاً، بحيث يمكن

---

(۱) سورة الكهف/ ۲۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۱

القول قطعاً بأنّ الذين يعتقدون بإقتصار المعاد على المعاد الروحى فقط لا يملكون أدنى إطّلاع على الآيات العديدة التى تبحث فى موضوع المعاد، وإلّا فإنّ جسمانية المعاد واضحة فى الآيات القرآنية إلى درجة تنفى أدنى شك فى هذه المسألة.

فهذه الآيات التى قرأناها فى آخر سورة يس، توضّح هذه الحقيقة فحينما تساءل الإنسان: «قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ» أجابه القرآن بصراحة ووضوح: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ».

إنّ كل تعجّب المشركين والمخالفين لمسألة المعاد هو هذه القضية، وهى كيف يمكن إحياؤنا بعد الموت وبعد أن نصبح تراباً متناثراً وضائعاً فى هذه الأرض؟ «وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ» (۱).

إنّهم يقولون: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ» (۲).

وتعجّبوا من هذه المسألة إلى درجة أنّهم اعتبروا إظهارها دليلًا على الجنون أو الكذب على اللّه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ» (۳).

لهذا السبب فإنّ إستدلالات القرآن الكريم حول إمكانية المعاد عموماً تدور حول هذا المحور وهو «المعاد الجسمانى» وما عرضناه فى الفصل السابق فى ستّة طرق كانت دليلًا وشاهداً على هذا الادّعاء.

علاوةً على أنّ القرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً بأنّكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم والقبور مرتبطة بالمعاد الجسمانى.

والأوصاف التى يذكرها القرآن الكريم عن المواهب المادية والمعنوية للجنة، كلها تدلّل على أنّ المعاد معاد جسمى ومعاد روحى أيضاً، وإلّا فلا معنى للحور والقصور وأنواع الأغذية والنعيم فى الجنة إلى جنب المواهب المعنوية.

على كل حال، فلا يمكن أن يكون الإنسان على جانب يسير من المنطق والثقافة القرآنية وينكر المعاد الجسمانى. وبتعبير آخر: فإنّ إنكار المعاد الجسمانى بنظر القرآن الكريم مساوٍ لإنكار أصل المعاد.

---

(۱) سورة السجده/ ۱۰.

(۲) سورة المؤمنون/ ۳۵.

(۳) سورة سبأ/ ۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۲

علاوةً على هذه الأدلة النقلية، فإنّ هناك أدلّة عقلية بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لاتّسع البحث كثيراً.

۶- الجنة والنار: الكثيرون يتوهّمون بأنّ عالم ما بعد الموت يشبه هذا العالم تماماً ولكنّه بشكل أكمل وأجمل، غير أنّ لدينا قرائن

عديدة تدلّل على الفروق الكبيرة بين العالمين من حيث الكيفية والكميّة، لو أردنا تشبيهها بالفروق بين العالم الجنينى وهذه الدنيا لظلّت المقايسة أيضاً غير كاملة.

فوفقاً لصريح الروايات الواردة فى هذا الشأن فإنّ فى عالم ما بعد الموت ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على فكر بشر، القرآن الكريم يقول: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» «۱».

الأنظمة الحاكمة فى ذلك العالم أيضاً تتفاوت تماماً مع الأنظمة فى هذا العالم، ففى حين يستفاد فى هذا العالم من أفراد يسمّون «الشهود» فى المحاكمات، نرى أنّ هناك تشهد الأيدى والأرجل وحتى الجلد: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» «۲». «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ» «۳».

على كل حال، فما قيل عن العالم الآخر لا يرسم أمامنا سوى صورة باهتة، وعادةً فإنّ اللغة التى نتحدث بها والثقافة التى لدينا غير قادرة جميعها على الوصف الحقيقى لما هو موجود هناك، ولكن لا يترك الميسور بالمعسور. فالمقدار المتيقن هو أنّ الجنة هى مركز كل النعم والمواهب الإلهية سواء المادية أو المعنوية، وجهنم هى مركز لكل أنواع العذاب الأليم المادى والمعنوى أيضاً.

«نهاية تفسير سورة يس»

---

(۱) سورة السجده/ ۱۷.

(۲) سورة يس/ ۶۵.

(۳) سورة فصّلت/ ۲۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۳

۳۷. سورة صافّات

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى سورة الصافات فى خمسة أقسام:

۱- يبحث حول مجاميع من ملائكة الرحمن، ومجموعة من الشياطين المتمردين ومصيرهم.

۲- يتحدث عن الكافرين، وإنكارهم للنبوّة والمعاد، والعقاب الذى ينتظرهم يوم القيامة، والعذاب الإلهى الذى سيشملهم، كما يشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجودة فى الجنة إضافةً إلى ملذّاتها وجمالها وسرور أهلها.

۳- يشرح تأريخ الأنبياء أمثال (نوح) و (إبراهيم) و (إسحاق) و (موسى) و (هارون) و (إلياس) و (لوط) و (يونس) ويتحدث هذا القسم بشكل مفصل عن إبراهيم محطّم الأصنام وعن جوانب مختلفة من حياته.

۴- يعالج صورة معيّنة من صور الشرك والذى يمكن إعتباره من أسوأ صور الشرك، وهو الإعتقاد بوجود رابطة القرابة بين اللّه سبحانه وتعالى والجن والملائكة.

۵- يتناول فى عدّة آيات قصار إنتصار جيوش الحق على جيوش الكفر والشرك والنفاق، وإبتلاءهم- أى الكافرين والمشركين والمنافقين- بالعذاب الإلهى، وتنزّه آيات هذا القسم اللّه سبحانه وتعالى وتقدّسه عن الأشياء التى نسبها المشركون إليه.

إنّ تسمية هذه السورة بالصافات جاءت نسبة إلى الآية الاولى فيها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۴

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ سورة الصافات اعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد كل جنّى وشيطان، وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمناً بالمرسلين».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الصافات فى كل يوم جمعة لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بليّة فى حياته الدنيا، مرزوقاً فى الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يصبه اللَّه فى ماله ولا ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم، ولا جبار عنيد، وإن مات فى يومه أو ليلته بعثه اللَّه شهيداً، وأماته شهيداً، وأدخله الجنة مع الشهداء فى درجة من الجنة».

إنّ الهدف من التلاوة هو التفكّر، ومن ثم الإعتقاد، ومن بعد العمل، ومن دون شك فإنّ الذى يتلو هذه السورة بتلك الصورة، سيحفظ من شرّ الشياطين، ويتطهّر من الشرك، ويمتلك الإعتقاد الصحيح القوى، ويمارس أعمالًا صالحة، وإنّه سيحشر مع الشهداء.

وَ الصَّافَّاتِ صَفّاً (۱) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً (۲) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً (۳) إِنَّ إِلهَكُمْ لَوَاحِدٌ (۴) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ (۵) الملائكة المستعدة لتنفيذ المهام: هذه السورة هى أوّل سورة فى القرآن الكريم تبدأ بالقسم، القَسَم الملىء بالمعانى والمثير للتفكّر، القسم الذى يجوب بفكر الإنسان فى آفاق و أجواء هذا العالم، ويجعله متهيّئاً لتقبّل الحقائق.

من المسلّم به أنّ اللَّه تبارك وتعالى هو أصدق الصادقين، وليس بحاجة إلى القسم.

ونلفت الإنتباه إلى نقطتين لحل مشكلة القسم فى كل آيات القرآن التى سنتناولها من الآن فما بعد.

الاولى: أنّ القسم يأتى دائماً بالنسبة إلى امور مهمة وذات قيمة، ولذلك فإنّ أقسام القرآن تشير إلى عظمة وأهمية الأشياء المقسم بها.

الثانية: أنّ القسم يأتى للتأكيد، وللدلالة على أنّ الامور التى يقسم من أجلها هى امور جديّة ومؤكّدة.

إنّ بداية هذه السورة تذكر أسماء ثلاثة طوائف أقسم بها اللَّه تعالى.

الاولى: «وَالصَّافَّاتِ صَفًّا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۵

الثانية: «فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا».

الثالثة: «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا».

إنّ المعروف والمشهور هو أنّ هذه الصفات تخصّ طوائف من الملائكة ...

طوائف اصطفّت فى عالم الوجود بصفوف منظمة، وهى مستعدّة لتنفيذ الأمر الإلهى.

وطوائف من الملائكة تزجر بنى آدم عن إرتكاب المعاصى والذنوب، وتحبط وساوس الشياطين فى قلوبهم، أو الملائكة الموكّلة بتسيير السحاب فى السماء وسوقها نحو الأرض اليابسة لإحيائها.

وأخيراً طوائف من الملائكة تتلو آيات الكتب السماوية حين نزول الوحى على الرسل.

«الصافّات»: هى جمع كلمة «صافّة» وهى بدورها تحمل صفة الجمع أيضاً، وتشير إلى مجموعة مصطفّة، إذن ف «الصافّات» تعنى الصفوف المتعددة.

و «الزاجرات»: مأخوذة من «الزجر» ويعنى الصرف عن الشىء بالتخويف والصراخ، وبمعنى أوسع فإنّها تشمل كل منع وطرد وزجر للآخرين.

إذن فالزاجرات تعنى مجاميع مهمّتها نهى وصرف وزجر الآخرين.

الآن نرى ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمة بالمعانى، أى القسم بالملائكة والإنس؟

الآية التالية توضّح ذلك وتقول: «إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ».

قسم بتلك المقدسات التى ذكرناها فإنّ الأصنام ستزول وتدمّر، وإنّه ليس هناك من شريك ولا شبيه ولا نظير للَّهسبحانه وتعالى.

ثم يضيف: «رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ».

فالشمس فى كل يوم تشرق من مكان غير المكان الذى أشرقت منه قبل يوم أو بعد يوم، والفواصل الموجودة بين هذه النقاط منظمة ودقيقة للغاية، حيث إنّها لا تزيد ولا تقلّ بمقدار ۱۱۰۰۰ من الثانية، وهذا التنظيم الدقيق موجود منذ ملايين السنين، كما أنّ هذا النظام

ینطبق علی ظهور وغروب النجوم.

إِنَّا زَیَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَوَاکِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ مَارِدٍ (۷) لَا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلی وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جَانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (۹) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (۱۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۶

حفظ السماء من تسلّل الشیاطین: الآیات السابقة تحدثت عن طوائف الملائکة المکلفة بتنفیذ المهام الجسام، والآیات مورد البحث تتحدث عن الطائفة المقابلة لها، أی الشیاطین وعن مصیرهم. ویمکن أن تکون هذه الآیات مقدمة لدحض معتقدات مجموعة من المشرکین الذین یعبدون الشیاطین والجن، وتتضمّن کذلک درساً فی التوحید بین طیّاتها.

تبدأ الآیة بالقول: «إِنَّا زَیَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَوَاکِبِ».

حقّاً إنّ منظر النجوم فی السماء رائع الجمال، ولا- تملّ أیّ عین من طول النظر إلیه، بل إنّ النظر إلیه یزیل التعب والهمّ من داخل الإنسان، (ممّا یذکر أنّ أبناء المدن فی العصر الحاضر التی یغطّیها دخّان المصانع، لا یستمتعون بمشاهدة السماء وهی مرصّعة بالکواکب کما یشاهدها الإنسان القروی حیث یدرکون هذه المقولة القرآنیة- أی تزیین السماء بالکواکب- بصورة أفضل).

أمّا الآیة: «وَحِفْظًا مِّن کُلِّ شَیْطَانٍ مَّارِدٍ» فإنّها تشیر إلی حفظ السماء من تسلّل الشیاطین إلیها.

«مارد»: مشتقة من «مرد» التی تعنی الأرض المرتفعة الخالیة من الزرع، وهنا المقصود هو الشخص الخبیث العاری من الخیر.

ثم یضیف القرآن الکریم: إنّ الشیاطین لا تتمکّن من سماع حدیث ملائکة الملأ الأعلی ومعرفة أسرار الغیب التی عندهم، فکلّما حاولوا عمل شیء ما لسماع الحدیث، رشقوا بالشهب من کل جانب: «لَّا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلَی وَیُقْذَفُونَ مِن کُلِّ جَانِبٍ».

نعم، إنّهم یطردون من السماء بشدّة، وقد أعدّ لهم عذاب دائم، کما جاء فی قوله تعالی:

«دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ». «لَّا یَسَّمَّعُونَ» بمعنی (لا یستمعون) ویفهم منها أنّ الشیاطین یحاولون معرفة أخبار «الملأ الأعلی» إلّاأنّه لا یسمح لهم بذلک.

«الْمَلَإِ الْأَعْلَی ، تعنی ملائکة السماوات العلی، لأنّ کلمة «ملأ» تطلق فی الأصل علی الجماعة التی لها وجهة نظر واحدة.

وعندما یوصف الملأ ب (الأعلی) فذلک إشارة إلی الملائکة الکرام ذوی المقام الأرفع والأسمی.

«یقذفون»: مشتقة من «قذف» وتعنی رمی الشیء إلی مکان بعید، والمقصود هنا طرد الشیاطین بواسطة الشهب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۷

وهنا إشارة إلی أنّ الشیاطین لا یطردون ولا یمنعون من الإقتراب من السماء فحسب، بل سیصیبهم فی النهایة- مع ذلک- عذاب دائم.

وأشارت الآیة أیضاً إلی طائفة من الشیاطین الشریرة التی تحاول الصعود إلی السماء العلیا لإستراق السمع، وإلی المصیر الذی ینتظرها هناک، کما جاء فی الآیة الشریفة: «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ».

«الخطفة»: أی اختلاس الشیء بسرعة.

و «الشهاب»: شیء مضیء متولد من النار، ویری نوره فی السماء علی شکل خط ممتد.

وکما هو معروف فإنّ الشهب لیست نجوماً، وإنّما تشبه النجوم، وهی عبارة عن قطع صغیرة من الحجر متناثرة فی الفضاء، عندما تدخل فی مجال جاذبیة الأرض، تنجذب نحوها، ونتیجة دخولها بسرعة إلی جوّ الأرض وإحتکاکها الشدید مع الهواء المحیط بالکرة الأرضیة فإنّها تشتعل وتحترق.

و «ثاقب»: تعنی النافذ والخارق.

وهذه إشارة إلی أنّ الشهاب یثقب کل شیء یصیبه ویحرقه.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِینٍ لَازِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ یَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذَا ذُکِّرُوا لَا یَذْکُرُونَ (۱۳) وَ إِذَا

رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قَالُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۵) الذين لا يقبلون الحق أبداً: هذه الآيات تعالج قضية منكرى البعث، وتتابع البحث السابق بشأن قدرة البارىء عزّ وجل خالق السماوات والأرض، وتبدأ بالإستفسار منهم وتقول: إسألهم هل أنّ معادهم وخلقهم مرّة ثانية أصعب أو خلق الملائكة والسماوات والأرض: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أم مَّنْ خَلَقْنَا».

نعم، فنحن خلقناهم من مادة تافهة، من طين لزج: «إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ».

فالمشركون الذين ينكرون المعاد، قالوا بعد سماعهم الآيات السابقة بشأن خلق السماوات والأرض والملائكة. إنّ خلق الإنسان أصعب من خلق السماوات والأرض والملائكة، إلّاأنّ القرآن الكريم أجابهم بالقول: إنّ خلق الإنسان مقابل خلق الأرض

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۸

والسماء والملائكة الموجودة فى هذه العوالم، يعدّ لا شىء، لأنّ أصل الإنسان يعود إلى حفنة من التراب اللزج. ولأنّ أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء، وبعد فترة أضحى طيناً متجمّعاً ذا رائحة نتنة، ثم تحول إلى طين متماسك (وهذه الصورة هى جمع لحالات متعددة مذكورة فى عدّة آيات فى القرآن المجيد).

ثم يضيف القرآن الكريم: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ».

وما يكمن وراء تلك التصرفات القبيحة ليس هو الجهل- فقط- وعدم المعرفة، بل إنّها اللجاجة والعناد، إذ أنّهم كلّما ذكّروا بدلائل المعاد والعقوبات الإلهية لا يتذكّرون «وَإِذَا ذُكِّرُوا لَايَذْكُرُونَ».

والأنكى من ذلك، أنّهم كلّما شاهدوا معجزة من معجزاتك، لا يكتفون بالإستهزاء، وإنّما يدعون الآخرين للإستهزاء أيضاً: «وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ». «وَقَالُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

قولهم «هذا» المقصود منه تحقير المعجزات والآيات الإلهية والإنتقاص منها.

أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أَ وَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هـذَا يَوْمُ الدِّينِ (۲۰) هـذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (۲۳) هل نبعث من جديد: الآيات هذه تتابع سرد أقوال منكرى المعاد، وتواصل الردّ عليها، فالآية الاولى تعكس إستبعاد البعث من قبل منكريه بهذا النص: «أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

وهل سيبعث آباؤنا الأوّلون أيضاً؟ «أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ». فمن يستطيع جمع تلك العظام النخرة وأكوام التراب المتفرّقة المتبقيّة من الإنسان؟ ومن يتمكّن من إعادة الحياة إليها؟

فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنّهم كانوا تراباً فى اليوم الأوّل، ومن التراب خلقوا، وإذ كانوا يشكّكون فى قدرة اللَّه، فعليهم أن يعرفوا أنّ اللَّه كان قد أراهم قدرته، وإن كانوا يشكّكون بإستحالة التراب، فقد أثبت ذلك من قبل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۸۹

ثم يردّ القرآن على تساؤلاتهم عندما يقول للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: قل لهم: نعم أنتم وأجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلّاء، «قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ».

فهل تتصورون أنّ عملية إحيائكم والأوّلين تعدّ مستحيلة، أو هى عمل عسير على اللَّه القادر والقوى؟ كلّا، فإنّ صرخة عظيمة واحدة ممّن كلّفهم اللَّه سبحانه وتعالى بذلك كافية لبعث الحياة بمن فى القبور، ونهوض الجميع فجأة من دون أىّ تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشاهدوا بأعينهم ساحة المحشر التى كانوا بها يكذّبون: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ».

تعبير «زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» مع الإلتفات إلى معنى الكلمتين، يشير إلى أنّ البعث يتمّ بسرعة وعلى حين غرّة، وإلى سهولته فى مقابل قدرة البارىء عزّ وجل.

وهنا تتعالى صرخات المشركين المغرورين وتبيّن ضعفهم وعجزهم وعوزهم، ويقولون: الويل لنا فهذا يوم الدين: «وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هذَا

يَوْمُ الدِّينِ».

نعم، فعندما تقع أعينهم على محكمة العدل الإلهى وشهودها وقضاتها، وعلى علامات العقاب فإنّهم- من دون أن يشعروا- يصرخون ويبكون، ويعترفون بحقيقة البعث.

وهنا يوجّه إليهم الخطاب من البارىء عزّ وجل أو من ملائكته: نعم، اليوم هو يوم الفصل الذى كنتم به تكذّبون، «هذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ».

وبما أنّ المجرمين لا يفكّرون إلّابالجزاء والعقاب الذى سينالهم، يطلق على يوم القيامة اسم يوم الجزاء، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الذى يعدّ أحد أبعاد ذلك اليوم، إذ يعتبر ذلك اليوم هو يوم الفصل.

يوم فصل الحق عن الباطل، فيجب أن تتبيّن كل الخطوط المتضادة والبرامج الحقيقية والكاذبة و يوم المحاكمة.

فطبيعة الدنيا هى إختلاط الحق بالباطل، فى حين أنّ طبيعة البعث هو فصل الحق عن الباطل، ولهذا السبب فإنّ أحد أسماء يوم القيامة فى القرآن المجيد (يوم الفصل).

ثم يصدر البارىء عزّ وجل أوامره إلى ملائكته المكلفين بإرسال المجرمين إلى جهنم أن «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ».

نعم احشروهم وما كانوا يعبدون «مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ».

«احشروا»: مشتقة من «حشر»، ويقول الراغب فى مفرداته: إنّها تعنى إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۰

(أزواج) هنا إمّا أن تشير إلى زوجات المجرمين والمشركين، أو إلى من يعتقد إعتقادهم ويعمل عملهم ومن هو على شاكلتهم، لأنّ هذه الكلمة تشمل المعنيين.

جملة «مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» تشير إلى آلهة المشركين، كالأصنام والشياطين والطغاة المتجبّرين والفراعنة والنماردة.

ففى أحد الأيام ارشدوا إلى الصراط المستقيم ولكنّهم لم يقبلوه، واليوم يجب أن يهدوا إلى صراط الجحيم، وهم مجبرون على القبول به، وهذا توبيخ عنيف لهم يجعلهم يتحرّقون ألماً فى أعماقهم.

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (۲۴) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (۲۷) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (۲۸) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (۳۲) الحوار بين القادة والأتباع الضالين: الآيات السابقة إستعرضت كيفية سوق ملائكة العذاب للظالمين ومن يعتقد إعتقادهم برفقة الأصنام والآلهة الكاذبة التى كانوا يعبدونها من دون اللَّه، إلى مكان معين، ومن ثم هدايتهم إلى صراط الجحيم.

واستمراراً لهذا الإستعراض يقول القرآن: «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْولُونَ».

ولكن عمّاذا يسألون؟ هناك روايات يذكرها الشيعة والسنّة فى أنّهم يسألون عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام «۱».

وبالطبع، فإنّ مثل هذه الروايات لا تحدّ من المفهوم الواسع للآيات، بل تعكس مصاديقها الواضحة. بناءً على ذلك فإنّه ليس هناك أى مانع من أن يسأل عن كل شىء، عن العقائد وعن التوحيد والولاية، وعن الحديث والعمل، وعن النعم والمواهب التى وضعها اللَّه سبحانه وتعالى فى إختيار الإنسان.

على أيّة حال، فعندما يساق المجرمون إلى صراط الجحيم، تكون أيديهم مقطوعة عن

(۱) الروايـة هذه وردت فى الصواعق المحرقة/ ۸۹، عن الديلمى عن أبى سـعيد الخدرى نقلًا عن النبى صلى الله عليه و آله كما وردت عن الحاكم بن أبوالقاسم الحسكانى فى شواهد التنزيل ۲/ ۱۶۰، نقلًا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۱

كل شىء وقاصرة عن تحصيل العون، ويقال لهم: أنتم الذين كان أحدكم يلجأ إلى الآخر فى المشكلات ويطلب العون منه، لِمَ لا ينصر بعضكم بعضاً الآن «مَا لَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ».

فكل الدعائم التى تصوّرتم إنّها دعامات مطمئنة فى الدنيا ازيلت عنكم، ولا يمكن أن يساعد بعضكم البعض، كما أنّ آلهتكم ليسوا بقادرين على تقديم العون لكم، لأنّهم عاجزون ومنشغلون بأنفسهم.

الآية التى تليها تضيف: إنّهم فى ذلك اليوم مستسلمون لأوامر اللّه وخاضعون له، ولا يمكنهم إظهار المخالفة أو الإعتراض، «بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ».

وهنا يبدأ كل واحد منهم بلوم الآخر، ويسعى إلى إلقاء أوزاره على عاتق الآخر، والتابعون يعتبرون رؤساءهم وأئمّتهم هم المقصّرون، فيقابلونهم وجهاً لوجه، ويبدأ كل منهم بسؤال الآخر، كما تقول الآية: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ».

وهنا يقول التابعون لمتبوعيهم: إنّكم شياطين، إذ كنتم تأتوننا بعنوان النصيحة والهداية والتوجيه وإرادة الخير والسعادة لنا، ولكن لم يكن من وراء مجيئكم سوى المكر والضياع «قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ».

إذ أنّنا- بحكم فطرتنا- كنّا نسعى وراء الخير والطهارة والسعادة، ولذا لبّينا دعوتكم. نعم فكل الذنوب التى إرتكبناها أنتم مسؤولون عنها، لأنّنا لم نكن نملك شيئاً سوى حسن النية وطهارة القلب، وأنتم الشياطين الكذّابون لم يكن لديكم سوى الخداع والمكر.

«يمين»: تعنى (اليد اليمنى) أو (الجهة اليمنى) والعرب تعتبرها فى بعض الأحيان كناية عن الخير والبركة والنصيحة.

وفى المقابل فإنّ المتبوعين والقادة يجيبون تابعيهم بالقول: «قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

ودليلنا واضح، إذ لم تكن لنا أى سلطة عليكم، ولم نضغط عليكم ونجبركم لعمل أى شىء: «وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ».

إنّما أنتم قوم طغاة ومعتدون، وأخلاقكم وطبيعتكم الظالمة صارت سبب تعاستكم «بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ».

وكم هو مؤلم أن يرى الإنسان قائده وإمامه الذى كان قد إرتبط به قلبيّاً طوال عمره، قد تسبّب فى تعاسته وشقائه ثم يتبرّأ منه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۲

فى الحقيقة، إنّ كلتا المجموعتين صادقة فى قولها.

فجدالكم لا يؤدى إلى نتيجة، وهنا يعترف أئمة الضلال بهذه الحقيقة، ويقولون: بهذا الدليل ثبت أمر اللّه علينا، وصدر حكم العذاب بحق الجميع، وسينالنا جميعاً عذاب اللّه «فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ».

إنّكم كنتم طاغين، وهذا هو مصير الطغاة، أمّا نحن فقد كنا ضالين ومضلين.

فنحن أضللناكم كما كنّا نحن أنفسنا ضالين «فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ».

بناء على ذلك ما الذى يثير العجب فى أن نكون جميعاً شركاء فى هذه المصائب وهذا العذاب؟

إنّ سبب تأثيرنا عليكم هو وجود روح الطغيان فى داخلكم؛ هذا الطغيان هيّأ لديكم أرضية التأثّر بإغوائنا، وعبر هذا الطريق تمكّنا من نقل الخرافات إليكم.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (۳۷) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (۳۸) وَ مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۴۰) مصير أئمة الضلال وأتباعهم: الآيات السابقة بحثت موضوع التخاصم الذى يدور بين أئمة الضلال وتابعيهم يوم القيامة قرب جهنم، أمّا الآيات أعلاه فقد وضّحت- فى موضع واحد- مصير المجموعتين، وشرحت

أسباب تعاستهم. ففی البدایة تقول: إنّ التابع والمتبوع والإمام والمأموم مشتركون فی ذلك الیوم بالعذاب الإلهی، «فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِی الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ».

وبالطبع فإنّ إشتراكهم فی العذاب لا یمنع من وجود إختلاف فی المكان الذی سیلقون منه فی جهنم، إضافةً إلی اختلاف نوع العذاب الإلهی؛ إذ من الطبیعی أنّ الذی یتسبّب فی انحراف الآلاف من البشر لا یتساوی عذابه مع فرد ضالّ عادی.

وللتأكید أكثر علی تحقق العذاب تقول الآیة التی تلتها: «إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ».

إنّ هذه هی سنّتنا، السنّة المستمدّة من قانون العدالة.

ثم توضّح السبب الرئیسی الكامن وراء تعاسة اولئك، وتقول: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۳

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ».

إنّ التكبر والغرور، وعدم الإنصیاع للحق، والعمل بالعادات الخاطئة والتقالید الباطلة بإصرار ولجاجة، والنظر إلی كل شیء باستخفاف واستحقار، تؤدّی جمیعاً إلی إنحراف الإنسان.

لكن هؤلاء برّروا إرتكابهم للذنوب الكبیرة بتبریرات أسوأ من ذنوبهم، كقولهم: هل نترك آلهتنا وأصنامنا من أجل شاعر مجنون؟ «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ».

لقد أطلقوا علی النبی الأكرم صلی الله علیه و آله كلمة (شاعر) لأنّ كلامه كان ینفذ إلی قلوبهم ویحرّك عواطفهم، فأحیاناً كان یتكلّم إلیهم بكلام یفوق أفضل الأشعار وزناً، فی الوقت الذی لم یكن حدیثه شعراً، وكانوا یعتبرونه (مجنوناً) لكونه لم یتلوّن بلون المحیط الذی یعیش فیه، ووقف موقفاً صلباً أمام العقائد الخرافیة التی یعتقد بها المجتمع المتعصّب حینذاك، الموقف الذی اعتبره المجتمع الضال فی ذاك الوقت نوع من الإنتحار الجنونی، فی الوقت الذی كان أكبر فخر لرسول اللّه صلی الله علیه و آله، هو عدم إستسلامه للوضع السائد حینذاك.

وهنا تدخل القرآن لردّ إدّعاءاتهم التافهة والدفاع عن مقام الوحی ورسالة النبی صلی الله علیه و آله عندما قال: «بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ».

فمحتوی كتابه من جهة، وتوافق دعوته مع دعوات الأنبیاء السابقین من جهة اخری، هی خیر دلیل علی صدق حدیثه.

وأمّا أنتم أیّها المستكبرون الضالون، فإنّكم ستذوقون العذاب الإلهی الألیم: «إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ».

ولا تتصوّروا أنّ اللّه منتقم، وأنّه یرید الإنتقام لنبیّه منكم، كلّا لیس كذلك: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وجزاؤكم إنّما هو نتیجة أعمالكم وتكبّركم وكفركم وعدم إیمانكم باللّه وزعمكم بأنّ آیات اللّه هی (شعر) ورسوله (مجنون) إضافةً إلی ظلمكم وإرتكابكم القبائح.

آخر آیة فی هذا البحث، والتی هی مقدمة للبحث المقبل، تستثنی مجموعة من العذاب، وهی مجموعة عباد اللّه المخلصین: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

وكلمة «عِبَادَ اللَّهِ» یمكنها لوحدها أن تبیّن إرتباط هذه المجموعة باللّه سبحانه وتعالی، وعندما تضاف إلیها كلمة (مخلصین) فإنّها تعطی لتلك الكلمة عمقاً وحیاةً.

نعم فهذه المجموعة لا تحاسب علی أعمالها، وإنّما یعاملها اللّه سبحانه وتعالی بفضله

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۴

وكرمه، ویمنحها من الثواب بغیر حساب.

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَوَاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِی جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۴۳) عَلَی سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (۴۴) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

(۴۵) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَ لَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹)

جوانب من النعم لأهل الجنـة: الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحـدثت عن عباد اللّه المخلصين، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطايا والنعم غير المحدودة التى يهبها اللّه سبحانه وتعالى لأهل الجنة، ويمكن توضيحها فى سبعة أقسام:

تقول الآية أوّلًا: إنّ لهم رزقاً معلوماً ومعيّناً «أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ».

وهى الهبـات المعنويـة والمتع الروحيـة ودرك مظـاهر ذات اللّه، وتناول الشـراب الطاهر والغمرة فى عشق اللّه، اللـذة التى لا يمكن أن يدركها العبد ما لم يتذوّقها ويعيش رحابها.

ثم ينتقل إلى بيان نعم اخرى، ويعدّد قبل كل شىء بعض نعم الجنة التى تقدّم لأهل الجنة بكل إحترام وتكريم: «فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ».

ثم يقول: إنّ أماكنهم فى حدائق خضراء مملوءة بنعم الجنة «فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

فأىّ نعمة يتمنّونها موجودة هناك، وكل ما يطلبون يجدونه أمامهم.

وأشارت الآيات إلى النعمـة الرابعـة، وهى إستئناس أهل الجنـة بمجالس السّـمر التى يعقـدونها مع أصـدقائهم فى جوّ ملؤه الصـفاء، إذ يجلسون على سرر متقابلة وينظر كل منهم إلى الآخر: «عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ».

«سرر»: هى جمع «سرير» وهى الأسرّة التى يجلس عليها الناس فى مجالس سمرهم.

أمّا القسم الخامس فيتحـدث عن نعمة اخرى من النعم التى تغدق على أهل الجنة، إذ تطرّق إلى الشـراب الطهور الذى يطاف به عليهم بكؤوس مملوءة بـأنواع الخمور الطـاهرة، ومتى ما أرادوا فإنّهم يسـقون من ذلك الخمر ليغرقوا فى عالم من النشاط والروحيـة: «يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مُّعِينٍ».

وهذه الكؤوس ليست فى مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها، وإنّما يطاف بها عليهم:

«يُطَافُ عَلَيْهِم».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۵

«كـأس»: يطلقها أهل اللغـة على إناء الشـراب المملوء، فيما يطلقون كلمـة «قـدح» عليه إن كان خالياً؛ و «معين»: مشـتقة من «معن» على وزن (صحن) وتعنى الجارى، إشارة إلى أنّ هناك عيوناً جارية من الخمر الطاهر، تملأ منها- فى كل لحظة- الكؤوس، ومن ثم يطاف بها على أهل الجنة.

ثم ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب، إذ يقول: إنّها بيضاء اللون ومتلألئة وتعطى لذة للشاربين بها «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ».

إنّها أشربة طاهرة، خالية من الألوان الشيطانية، وبيضاء اللون شفّافة.

الآيـة السابقـة التى تطرّقت إلى الشـراب والكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى، أمّا الآيـة التى تليها فتطرد فى جملـة قصيرة كافّة تلك المفاهيم عن الأذهان: «لَافِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ».

«غول»: على وزن (قول) تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشىء بصورة غير محسوسة.

«ينزفون»: من مادة «نزف» على وزن (حـذف) وتعنى فقـدان الشـىء تـدريجيّاً. والمقصود فى هذه الآية ذهاب العقل تدريجيّاً والوصول إلى حالة السكرة، أمّا خمر الجنة الطاهر فإنّه لا يسكر على الإطلاق، إذ لا يذهب بالعقل ولا يسبّب أى مضارّ.

أمّا القسم السادس، فإنّه يشـير إلى الحور العين فى جنات النعيم: «وَعِندَهُمْ قَاصِـرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ». أى نرزقهم زوجات لا يعشقن سوى أزواجهن ويقصرن طرفهنّ عليهم فقط، ولهذه الزوجات أعيناً واسعة وجميلة.

«طرف»: فى الأصل تعنى جفن العين، وهذه الكلمة كناية عن النظر، إذ إنّ أجفان العين تتحرّك عندما ينظر الإنسان إلى شـىء ما؛ إذن فإنّ عبارة «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» تعنى النساء اللواتى ينظرن نظرة قصيرة، وأنّهنّ ينظرن إلى أزواجهنّ فقط.

هـذا التعبير كنايـة عن كونهنّ لا يعشـقن إلّاأزواجهن، وقلوبهم متيمة بمحبّتهم، ولا توجد محبّة اخرى فى قلوبهنّ، وهذا هو أكبر إمتياز

للمرأة التى تحبّ زوجها وتتأمل به.

إنّ آخر آيـة فى بحثنـا هـذا تعطينـا وصـفاً آخر لزوجـات الجنـة، إذ توضّح طهارتهن وقداسـتهنّ من خلال هـذه العبارة: «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ». أى إنّهن نظيفات وظريفات.

الهبات التى منّ اللَّه تعالى بها على أهل الجنـة- المـذكورة فى الآيات السابقـة- هى مجموعـة من الهبات الماديّـة والمعنويـة، وإن كان حقيقة النعم التى تغدق على أهل الجنة خفيّة عن أهل الدنيا، إلّاإذا ذهبوا إلى هناك وشاهدوها عن قرب ليدركوها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۶

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (۵۰) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (۵۳) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (۵۵) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵۸) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹) إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۰) لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (۶۱) البحث عن رفيق السوء: عباد اللَّه المخلصون الـذين إسـتعرضت الآيات السابقـة النعم المادية والمعنوية التى أغـدقت عليهم، كالفاكهـة، والحور، والأصـدقاء الطيبين الـذين يجالسونهم ويتحـدثون معهم، وفجأة يتـذكّرون أصـدقاءهم فى الـدنيا، أصدقاءهم الذين إنفصلوا عنهم فى الطريق، ولم يجدوا لهم أى أثر فى الجنة، فيسعون إلى معرفة مصيرهم.

نعم، ففى الوقت الذى كانوا فيه منشغلين بالحديث والسؤال عن أحوال بعضهم البعض، «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ».

فجأةً خطر فى ذهن أحدهم أمر، فالتفت إلى أصحابه قائلًا: لقد كان لى صديق فى الدنيا «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنّى كَانَ لِى قَرِينٌ».

ومع الأسف، فإنّه انحرف عن الطريق الصحيح، وصار منكراً ليوم البعث، وكان دائماً يقول لى: هل تصدّق هـذا الكلام وتعتقد به؟ «يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدّقِينَ».

هل أنّنا إذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً نحيا مرّة اخرى، لنساق إلى الحساب: «أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ» «۱».

وهنا يخاطب من كان يتحدث معهم من أهل الجنة، بالقول: ليتنى أعرف أين هو الآن؟

وفى أيّة ظروف يعيش؟

ويضيف: أيّها الأصدقاء، هل تستطيعون البحث عنه، ومعرفة حاله، «قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ» «۲».

(۱) «مدينون»: من مادة «دين» وتعنى الجزاء، وهنا تعنى: هل أنّنا سنجزى؟

(۲) «مطّلعون»: من مادة «إطّلاع» وتعنى التفتيش والبحث، والإشراف على شىء من مكان عالٍ، وأخذ المعلومات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۷

وأثناء بحثه عن قرينه وصديقه ينظر إلى جهنم، ويرى فجأةً صديقه وسط جهنم:

«فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ» «۱».

فيخاطبه قائلًا: أقسم باللَّه لقد كدت أن تهلكنى وتسقطنى فيما سقطت فيه «قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ» «۲».

فلولا لطف اللَّه الذى منعنى من ذلك ونعمته التى سارعت لمساعدتى، لكنت اليوم من المحضرين للعذاب مثلك فى نار جهنم «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

وهنا يلقى نظرة اخرى إلى صديقه فى جهنم، ويقول له موبّخاً إيّاه: ألم تكن أنت القائل لى فى الدنيا بأنّنا لا نموت «أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ». سوى مرّة واحدة فى الدنيا، وبعدها لا حياة اخرى ولا عذاب «إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ».

هنا اختتم الحديث بجملة عميقة المعانى: «إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ما أعظم هذا الفوز الذى يغرق فيه الإنسان بنعمة الخلود والحياة الأبدية، وتشمله الألطاف الإلهية.

ثم يقول تبارك وتعالى فى ختام البحث جملة توقظ القلوب وتهزّ الأعماق: «لِمِثْلِ هـذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ». أى لمثل هذا فليعمل الناس، ومن أجل نيل هذه النعم فليسع الساعون.

فما أجمل التعبير الذى صاغته الآيات القرآنية المذكورة أعلاه، عندما دعت المؤمنين إلى هذا الهدف، أى نيل الجنان المملوءة بالملذّات الروحية والجسمية، التى تشمل الشراب الطاهر الذى يغرق الإنسان فى الظلّ الملكوتى، والقرناء والأصدقاء الطيبين ذوى القلوب الصافية الذين تزيل مجالستهم كل أشكال الغم.

أ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (۶۲) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (۶۳) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۶۶) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (۶۹) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (۷۰)

---

(۱) «سواء»: تعنى الوسط.

(۲) «تردين»: من مادة «إرداء» وتعنى السقوط من مكان عالٍ، وهلاك الساقط.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۸

جوانب من العذاب الأليم لأهل النار: بعد توضيح النعم الكثيرة والخالدة التى يغدقها اللّه سبحانه وتعالى على أهل الجنة، تستعرض الآيات أعلاه العذاب الأليم والمثير للأحزان الذى أعدّه اللّه لأهل جهنم، وتقارنه مع النعم المذكورة سابقاً، بحيث تترك أثراً عميقاً فى النفوس يردعها عن إرتكاب الأعمال السيّئة والمحرّمة. ففى البداية تقول: «أَذلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ».

«نُزُل»: تعنى الشىء الذى يهيّأ لورود الضيف فيقدّم إليه إذا ورد، والبعض الآخر قال:

إنّها تعنى الشىء الأوّل الذى يقدّم للضيف حين وروده.

و «زقّوم»: اسم نبات مرّ وذى طعم ورائحة كريهة.

و «شجرة»: لا تأتى دائماً بمعناها المعروف، وإنّما تعنى فى بعض الأحيان (النبات)؛ والقرائن هنا تشير إلى أنّ المراد من الشجرة هو المعنى الثانى أى (النبات). مختصر الامثل ج۴ ۲۱۹

ثم يستعرض القرآن الكريم بعض خصائص هذه النبتة، ويقول: «إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ».

«فتنة»: تعنى المحنة والعذاب، كما تعنى الامتحان، وهو إشارة إلى أنّ المشركين عندما سمعوا كلمة (الزقّوم) عمدوا إلى السخرية والاستهزاء، فيما كان هذا الأمر إمتحاناً لُاولئك الطغاة.

ويضيف القرآن الحكيم: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ».

ولكن الظالمين المغرورين يواصلون إستهزاءهم، ويقولون: كيف يمكن لنبات أو شجر أن ينبت فى قعر جهنم؟ فأين النار وأين الشجر والنبات؟

وكأنّهم كانوا غافلين عن أنّ الاصول التى تحكم فى ذلك العالم- أى الآخرة- تختلف كثيراً عن الاصول الحاكمة فى العالم الدنيوى.

ثم يضيف القرآن الكريم: «طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ».

إنّ التشبيه هنا استخدم لبيان شدّة قباحة ثمار الزقّوم وشكلها الباعث على النفور والإشمئزاز.

ويواصل القرآن الكريم إستعراض العذاب الذى سينال المشركين والكافرين: «فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ».

هذا هو العذاب والفتنة الذى أشرنا إليه فى الآيات السابقة، حيث إنّ أكل هذا النبات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۱۹۹

الذى ينبت فى جهنم ذو الرائحة الكريهة والطعم المرّ واللبن الذى يورم ويحرق الأبدان فور ما يصيبها، وتناوله- وبكميّات كبيرة- يعدّ

عذاباً أليماً.

ومن البديهى، فإنّ من يتناول هذا الطعام السيء الطعم والمرّ، يصيبه العطش، ولكن حينما يشعر بالعطش ماذا يشرب؟ القرآن يجيب على هذا السؤال بالقول: «ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ».

«الشوب»: هو الشيء المخلوط أو الممزوج مع شيء آخر؛ و «حميم»: هو الماء الحار البالغ فى حرارته، وهذا هو غذاء أهل جهنم، وهذا هو شرابهم.

وبعد هذه الضيافة إلى أين يذهبون، فيجيب القرآن على هذا السؤال أيضاً بالقول: «ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ».

الآية الأخيرة فى بحثنا تناولت السبب الرئيسى الذى أدّى إلى دخول اولئك إلى جهنم ونيلهم العذاب الأليم والشديد هناك، تناولته فى آيتين مليئتين بالمعانى والحقائق: «إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ».

وإنّهم كانوا يسرعون على آثارهم ومن دون أى إرادة، «فَهُمْ عَلَى ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ».

«يهرعون»: من مادة «هرع» أى أسرع، وهى إشارة إلى أنهم كانوا يقلّدون آباءهم قلباً وديناً وإنّهم كانوا يحثّون الخطى على آثارهم إلى درجة كأنّهم يسارعون فى ذلك من دون أى إرادة وإختيار، وإشارة اخرى إلى تعصّبهم وتمسّكهم بالخرافات التى كان أجدادهم الضالّون يعتقدون بها.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧۴) الامم الضالة السابقة: بما أنّ المسائل السابقة المتعلقة بالمجرمين والضالين لا تختص بزمان ومكان معينين، فالقرآن يتوسّع فى الآيات التى تبحث بشكل مفصّل عن هذه المسائل، ويهيء الأرضية فى عدة آيات قصيرة ومختصرة لشرح امور كثيرة عن الامم السابقة، والتى بالإطلاع عليها تكون أدلّة ناطقة للبحوث السابقة.

ومن تلك الامم أقوام نوح وإبراهيم وموسى وهارون ولوط ويونس وغيرهم، إذ يقول:

«وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۰

ثم يضيف القرآن المجيد أنّ ضلالتهم لم تكن بسبب إفتقادهم القائد وعدم موعظتهم:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ».

إذ أنّنا أرسلنا إليهم أنبياء لإنذارهم من خطر الشرك باللَّه والكفر به، والظلم والإعتداء، وتقليد الآخرين بصورة عمياء، ولإطّلاعهم على مسؤولياتهم.

ثم يقول فى عبارة ذات معان عميقة: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ».

إنّ هذه الآية المباركة تشير إلى نهاية أقوام سنستعرض أحوالها وأوضاعها بصورة مفصّلة فى الآيات القادمة.

أمّا آخر آية فى بحثنا فإنّها تستثنى جماعة من العذاب الإلهى: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى عاقبة هذه الامم، وتدعو إلى التمعّن فى العذاب الأليم الذى ابتلوا به، والذى أهلكهم وأبادهم جميعاً ماعدا عباد اللَّه المؤمنين والمخلصين الذين نجوا من هذا العذاب.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧۵) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧۶) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) مقتطفات من قصة نوح: من هنا يبدأ سرد قصص تسعة أنبياء من أنبياء اللَّه الكبار، والذين كانت الآيات السابقة قد تطرّقت إليهم بصورة خفيّة، وتشرع الآيات بنوح شيخ الأنبياء وأوّل اولى العزم من الرسل. بدأ البحث بالإشارة إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد أن يئس من هدايتهم: «وَلَقَدْ نَادَينَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ».

هـذا الـدعاء يمكن أن يكون إشارة إلى الدعاء الذى ورد فى سورة نوح: «وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» «۱».

فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يجيبه فى الآية التى تليها بالقول: «وَنَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

(۱) سورة نوح/ ۲۶ و ۲۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۱

يمكن أن يكون ذلك الغمّ نتيجة إستهزاء قومه الكافرين المغرورين به، وتجريحهم إيّاه بكلمات نابية وساخرة تستهدف إهانته وأتباعه المؤمنين، أو نتيجة تكذيب قومه اللجوجين إيّاه.

ويضيف القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ».

وإضافةً إلى ذلك يقول القرآن: أنّنا جعلنا لنوح ثناءً وذكراً جميلًا فى الأجيال والامم اللاحقة: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْأَخِرِينَ».

فقد وصفه القرآن المجيد بالنبى المقاوم والشجاع والصبور والرحيم والعطوف، وأطلق عليه لقب شيخ الأنبياء.

فبعد تحمّله كافّة الصعاب والآلام، منحه اللّه سبحانه وتعالى وساماً خالداً يفتخر به فى العالمين «سَلَمٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ».

ولكى تكون خصوصيات نوح عليه السلام مصدر إشعاع للآخرين، أضاف القرآن الكريم: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». و «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

إنّ درجة عبودية نوح للّهوإيمانه به- إضافةً إلى إحسانه وعمله الصالح الذى ذكرته الآيتان الأخيرتان- كانت السبب الرئيسى وراء اللطف الإلهى الذى شمل نوحاً وأنقذه من الغمّ الكبير، وبعث إليه بالسلام، السلام الذى يمكن أن يشمل كل من عمل بما عمل به نوح، لأنّ معايير الألطاف الإلهية لا تتخلّف، ولا تختّص بشخص دون آخر.

أمّا الآية الأخيرة فى بحثنا فقد وضّحت بعبارة شديدة اللهجة مصير تلك الامّة الظالمة الشريرة الحاقدة: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخَرِينَ».

إذ إنهمر المطر سيلًا من السماء، وتفجّرت الأرض عيوناً، وغطّت المياه اليابسة كبحر هائج دكّ بأمواجه المتلاطمة الشامخة عروش الطغاة ودمّرها، لافظاً إيّاهم بعدئذ أجساداً هامدة لا حياة فيها ولا روح.

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (۸۳) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (۸۶) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۸۷) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (۸۸) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (۹۰) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَ لَا تَأْكُلُونَ (۹۱) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (۹۲) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (۹۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۲

خطّة إبراهيم الذكية فى تحطيم الأصنام: آيات بحثنا هذا تتناول بشىء من التفصيل حياة النبى الشجاع إبراهيم عليه السلام محطّم الأصنام بعد آيات إستعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السلام الملىء بالحوادث. الآية الاولى ربطت بين قصة إبراهيم وقصة نوح بهذه الصورة:

«وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَهِيمَ». أى: إنّ إبراهيم كان سائراً على خطى نوح عليه السلام فى التوحيد والعدل والتقوى والإخلاص، وكل واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

بعد هذا العرض المختصر ندخل فى التفاصيل. قال تعالى: «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

فى الكافى عن الصادق عليه السلام قال: «القلب السليم الذى يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه».

واعتبر القرآن الكريم القلب السليم رأس مال نجاة الإنسان يوم القيامة، حيث نقرأ فى سورة الشعراء، وفى الآيات (۸۸ و ۸۹) على لسان النبى الكبير إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

نعم، من هنا تبدأ قصة إبراهيم ذى القلب السليم، والروح الطاهرة، والإرادة الصلبة، والعزم الراسخ، مع قومه، إذ كلّف بالجهاد ضدّ عبّاد الأصنام، وبدأ بأبيه وعشيرته: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ». ما هذه الأشياء التى تعبدونها؟

أليس من المؤسف على الإنسان الذى كرّمه اللّه على سائر المخلوقات، وأعطاه العقل أن يعظّم قطعة من الحجر والخشب العديم الفائدة؟ أين عقولكم؟

ثم يكمل العبارة السابقة التى كان فيها تحقير واضح للأصنام، ويقول: «أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ».

واختتم كلامه فى هذا المقطع بعبارة عنيفة: «فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». إذ تأكلون ما يرزقكم به يوميّاً، ونعمه تحيط بكم من كل جانب، ورغم هذا تقصدون موجودات لا قيمة لها من دون اللّه.

وجاء فى كتب التاريخ والتّفسير، أنّ عبدة الأصنام فى مدينة بابل كان لهم عيد يحتفلون به سنوياً، يهيّئون فيه الطعام داخل معابدهم، ثم يضعونه بين يدى آلهتهم لتباركه، ثم يخرجون جميعاً إلى خارج المدينة، وفى آخر اليوم يعودون إلى معابدهم لتناول الطعام والشراب.

وحين دعاه قومه ليلًا للمشاركة فى مراسمهم نظر إلى النجوم: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ». «فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ». وبهذا الشكل إعتذر عن مشاركتهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۳

بعد إعتذاره تركوه وأسرعوا لتأدية مراسمهم، «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ».

إنّ أهل بابل كانوا يستقرئون النجوم، وبالطبع كانت هناك خرافات كثيرة فى هذا المجال شائعة فى أوساطهم، منها أنّهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثّر على حظوظهم، وكانوا يطلبون منها الخير والبركة، كما كانوا يستدلّون بها على الحوادث المستقبلية.

ولكى يوهمهم إبراهيم عليه السلام بأنّه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء وقال حينذاك: إنّى سقيم، فتركوه ظنّاً منهم أنّ نجمه يدلّ على سقمه.

ولكن روحه متعبة من جرّاء الممارسات التافهة لقومه وكفرهم وظلمهم وفسادهم، رغم أنّهم تصوّروا شيئاً آخر، واعتقدوا أنّه يعانى من أمراض جسدية.

وبهذه الطريقة بقى إبراهيم عليه السلام وحده فى المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متوجّهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله ونور الإشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر فى عينيه، إذ قربت اللحظات التى كان ينتظرها، وعليه أن يتحرّك لمحاربة الأصنام وإلحاق ضربة عنيفة بها، ضربة تهزّ العقول التافهة لعبدتها وتوقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، ونظر إلى صحون وأوانى الطعام المنتشرة فى المعبد، ثم نظر إلى الأصنام وصاح بها مستهزئاً، ألا تأكلون من هذا الطعام الذى جلبه لكم عبدتكم، إنّه غذاء دسم ولذيذ ومتنوع، ما لكم لا تأكلون؟ «فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» «۱».

ثم أضاف: لِم لا تتكلّمون؟ لِم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ «مَا لَكُمْ لَاتَنطِقُونَ».

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس وانقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكل ما لديه من قوّة: «فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ».

إنّ إنقضاض إبراهيم عليه السلام على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظّم إلى خربة موحشة.

وفى آخر اليوم عاد عبدة الأصنام إلى مدينتهم، واتّجهوا فوراً إلى معبدهم، فشاهدوا مشهداً رهيباً وغامضاً.

ثم تحوّل جوّ السكوت الذى خيّم عليهم لحظة مشاهدة المشهد، تحوّل إلى صراخ وإستفسار عمّن فعل ذلك بآلهتهم؟

ولم يمرّ وقت طويل، حتى تذكّروا وجود شاب يعبد اللّه فى مدينتهم إسمه إبراهيم، كان يستهزىء بأصنامهم «فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ».

---

(۱) «راغ»: من مادة «روغ» وتعنى التوجّه والتمايل بشكل سرّى ومخفى أو بشكل مؤامرة وتخريب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۴

«يزفّون»: مشتقة من «زفّ» وتستعمل بخصوص هبوب الرياح والحركة السريعة للنعامة الممتزجة ما بين السير والطيران، ثم تستخدم للكناية عن (زفاف العروس) إذ تعنى أخذ العروس إلى بيت زوجها.

قَالَ أَ تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (۹۶) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (۹۷) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (۹۸) وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ (۹۹) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۰۰) فشل مخطّطات المشركين: بعد أن حطّم إبراهيم الأصنام، استدعى إبراهيم بهذه التهمة إلى المحكمة، وقد شرح القرآن الكريم فى سورة الأنبياء الحادثة بصورة مفصلة، بينما اكتفى القرآن فى آيات بحثنا بالإشارة لمقطع حساس واحد من مواقف إبراهيم عليه السلام وهو آخر كلامه معهم فى مجال بطلان عقيدتهم فى عبادة الأصنام: «قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ».

فهل هناك شخص عاقل يعبد شيئاً من صنع يديه؟

فالمعبود يجب أن يكون خالق الإنسان، وليس صنيعة يده، من الآن فكّروا واعرفوا معبودكم الحقيقى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ».

فهو خالق الأرض والسماء، ومالك الوقت والزمان، ويجب السجود لهذا الخالق وحمده وعبادته.

إنّ هذه الحجّة كانت من الوضوح والقوّة إلى حد جعلتهم يقفون أمامها مبهوتين وغير قادرين على ردّهاودحضها.

ومن المعروف أنّ الطغاة والجبابرة لا يفهمون لغة المنطق والدليل.

ولإيقاف إنتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينة بابل، عمد الطغاة الذين أحسّوا بخطر إنتشاره على مصالحهم الخاصة إلى استخدام منطق القوّة والنار ضد إبراهيم عليه السلام، حيث هتفوا بالإعتماد على قدراتهم الدنيوية: أن ابنوا له بنياناً عالياً، واشعلوا فى وسطه النيران ثم ارموه فيه: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ».

ومن هذه العبارة يستفاد أنّ الأوامر كانت قد صدرت ببناء أربعة جدران كبيرة، ومن ثم إشعال النيران فى داخلها، وبناء الجدران الأربعة الكبيرة، إنّما تمّ- كما يحتمل- للحؤول دون إمتداد النيران إلى خارجها، ومنع وقوع أخطار محتملة قد تنجم عنها، ولإيجاد جهنم واقعية

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۵

كتلك التى كان إبراهيم يتهدّد ويتوعّد عبدة الأوثان بها.

«الجحيم»: فى اللغة هى النار التى تجتمع بعضها على بعض.

وآيات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى تفاصيل هذا الحادث الذى ورد فى سورة الأنبياء، وإنّما أنهت هذه الحادثة بخلاصة مركّزة ولطيفة: «فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ».

«كيد»: فى الأصل تعنى الإحتيال، أكان بطريقة صحيحة أم خطأ، مع أنّها غالباً ما تستعمل فى موارد مذمومة، وهى إشارة إلى المخطّط الواسع الذى وضعه طغاة بابل للقضاء على دعوة إبراهيم للناس بقوله وعمله ومحو آثارها.

إبراهيم عليه السلام الذى نجا بإرادة اللّه من هذه الحادثة الرهيبة والمؤامرة الخطيرة التى رسمها أعداؤه له، صمّم على الهجرة إلى أرض بلاد الشام، إذ إنّ رسالته فى بابل قد إنتهت؛ «وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ».

من البديهى أنّ اللّه لا- يحويه مكان، والهجرة التى تتمّ فى سبيله من المجتمع الملوّث الفاسد إلى المجتمع الطاهر الصافى، فإنّها هجرة إلى اللّه.

الآيات- هنا- عكست أوّل طلب لإبراهيم عليه السلام من البارىء عزّ وجل، إذ طلب الولد الصالح، الولد الذى يتمكّن من مواصلة خطّه الرسالى، ويتمم ما تبقّى من مسيرته، وذلك حينما قال: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ».

فاستجاب اللّه لدعاء عبده إبراهيم، ورزقه أولاداً صالحين (إسماعيل وإسحاق).

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (۱۰۱) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۱۰۲) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۰۵) إِنَّ هذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (۱۰۶) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (۱۰۷) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۱۰۸) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (۱۰۹) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۱۰) بحثنا فی الآیات السابقة إنتهی عند هجرة إبراهیم علیه السلام من بابل بعد أن أدّی رسالته هناک، وطلبه من اللَّه أن یرزقه ولداً صالحاً، إذ لم یکن له ولد، وأوّل آیة فی هذا البحث تتحدث عن الإستجابة لدعاء إبراهیم، إذ قالت الآیة: «فَبَشَّرْنَهُ بِغُلمٍ حَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۶

فی الواقع إنّ ثلاثة بشائر جمعت فی هذه الآیة، الاولی أنّه سیرزق طفلًا ذکراً، والثانیة أنّ هذا الطفل یبلغ سنّ الفتوّة، أمّا الثالثة فهی أنّ صفته حلیم.

أخیراً، ولد الطفل الموعود لإبراهیم وفق البشارة الإلهیة، وأثلج قلب إبراهیم الذی کان ینتظر الولد الصالح لسنوات طوال، إجتاز الطفل مرحلة الطفولة وأضحی غلاماً، وهنا یقول القرآن: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ». یعنی أنّه وصل إلی مرحلة من العمر یستطیع فیها السعی وبذل الجهد مع والده فی مختلف امور الحیاة وإعانته علی اموره.

فقد ذهب جمع من المفسرین: إنّ عمر إسماعیل کان (۱۳) عاماً حینما رأی إبراهیم ذلک المنام العجیب المحیّر، والذی یدلّ علی بدء امتحان عسیر آخر لهذا النبی ذی الشأن العظیم، إذ رأی فی المنام أنّ اللَّه یأمره بذبح إبنه الوحید وقطع رأسه.

امتحان شاقّ آخر یمرّ علی إبراهیم الآن، إبراهیم الذی نجح فی کافّة الإمتحانات الصعبة السابقة وخرج منها مرفوع الرأس، ولکن قبل کل شیء، فکّر إبراهیم علیه السلام فی إعداد إبنه لهذا الأمر، حیث «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى .

الولد الذی کان نسخة طبق الأصل من والده، والذی تعلّم خلال فترة عمره القصیرة الصبر والثبات والإیمان فی مدرسة والده، رحّب بالأمر الإلهی بصدر واسع وطیبة نفس، وبصراحة واضحة قال لوالده: «قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

ولا تفکّر فی أمری، فإنّک «سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ».

فما أعظم کلمات الأب والإبن وکم تخفی فی بواطنها؛ فمن جهة، الأب یصارح ولده البالغ من العمر (۱۳) عاماً بقضیة الذبح، حیث جعله هنا شخصیة مستقلّة حرّة الإرادة.

ومن جهة اخری، عمد الإبن إلی ترسیخ عزم وتصمیم والده فی تنفیذ ما أمر به.

وبهذا الشکل یجتاز الأب وإبنه المرحلة الاولی من هذا الإمتحان الصعب بإنتصار کامل.

کتب البعض: إنّ إسماعیل ساعد والده فی تنفیذ هذا الأمر الإلهی، وعمل علی تقلیل ألم وحزن والدته.

یا أبت، أحکم شدّ الحبل کی لا- تتحرّک یدی ورجلی أثناء تنفیذک الأمر الإلهی، أخاف أن یقلّل ذلک من مقدار الجزاء الذی سأناله.

والدی العزیز اشحذ السکّین جیّداً، وامرره بسرعة علی رقبتی کی یکون تحمّل ألم الذبح سهلًا بالنسبة لی ولک.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۷

والدی قبل ذبحی اخلع ثوبی من علی جسدی کی لا یتلوّث بالدم، لأنّی أخاف أن تراه والدتی وتفقد عنان صبرها.

ثم أضاف: أوصل سلامی إلی والدتی، وإن لم یکن هناک مانع أوصل ثوبی إلیها کی یسلّی خواطرها ویهدّیء من آلامها.

قربت اللحظات الحسّاسة، فعندما رأی إبراهیم علیه السلام درجة إستسلام ولده للأمر الإلهی إحتضنه وقبّل وجهه، وفی هذه اللحظة بکی الإثنان.

القرآن الکریم یوضّح هذا الأمر فی جملة قصیرة ولکنّها ملیئة بالمعانی، فیقول تعالی:

«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» «۱».

كبّ إبراهيم عليه السلام إبنه على جبينه، ومرّر السكّين بسرعة وقوّة على رقبة إبنه، وروحه تعيش حالة الهيجان، إلّاأنّ السكّين الحادّة لم تترك أدنى أثر على رقبة إسماعيل اللطيفة.

وهنا غرق إبراهيم فى حيرته، ومرّر السكّين مرّة اخرى على رقبة ولده، ولكنّها لم تؤثّر بشىء كالمرّة السابقة. نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسكّين: إذبحى، لكن اللّه الجليل يعطى أوامره للسكّين أن لا تذبحى، والسكّين لا تستجيب سوى لأوامر البارىء عزّ وجل.

وهنا ينهى القرآن كل حالات الإنتظار وبعبارة قصيرة مليئة بالمعانى العميقة:

«وَنَادَيْنَهُ أَنْ يَا إِبْرهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

ثم يضيف القرآن الكريم: «إِنَّ هذَا لَهُوَ الْبَلؤُا الْمُبِينُ».

عملية ذبح الإبن البارّ المطيع على يد أبيه، لا تعدّ عملية سهلة وبسيطة بالنسبة لأب إنتظر فترة طويلة كى يرزقه اللّه بهذا الإبن.

والذى يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر اللّه، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح وإطمئنان يحفّه اللطف الإلهى، وإستسلام فى مقابل هذا الأمر.

ولكى لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصاً، وتتحقق امنية إبراهيم فى تقديم القربان للّه، بعث اللّه كبشاً كبيراً إلى إبراهيم ليذبحه بدلًا عن إبنه إسماعيل، ولتصير سنّة للأجيال القادمة التى تشارك فى مراسم الحجّ وتأتى إلى أرض (منى): «وَفَدَيْنَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ».

---

(۱) «تلّه»: من مادة «تلّ» وتعنى فى الأصل المكان المرتفع؛ و (تلّه للجبين) تعنى أنّه وضع أحد جوانب وجه إبنه على مكان مرتفع من الأرض.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۸

وإحدى دلائل عظمة هذا الذبح، هو إتّساع نطاق هذه العملية سنة بعد سنة بمرور الزمن، وحالياً يذبح فى كل عام أكثر من مليون اضحية تيمّناً بذلك الذبح العظيم وإحياءاً لذلك العمل العظيم. النجاح الذى حقّقه إبراهيم عليه السلام فى الإمتحان الصعب، لم يمدحه اللّه فقط ذلك اليوم، وإنّما جعله خالداً على مدى الأجيال: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْأَخِرِينَ».

ولما إمتاز به إبراهيم عليه السلام من صفات حميدة، خصّه البارىء عزّ وجل بالسلام: «سَلمٌ عَلَى إِبْرهِيمَ».

نعم، إنّا كذلك نجزى ونثيب المحسنين: «كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». جزاء يعادل عظمة الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلًا لسلام اللّه عزّ وجل عليه.

من هو ذبيح اللّه؟ ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفة تؤكّد على أنّ إسماعيل هو ذبيح اللّه.

وجاء فى روايات عن الإمامين المعصومين الباقر والصادق عليهما السلام، أنّهما أجابا على أسئلة تستفسر عن الذبيح، فأجابا أنّه إسماعيل.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۲) وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَى إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (۱۱۳) إبراهيم ذلك العبد المؤمن: الآيات الثلاث المذكورة أعلاه هى آخر الآيات التى تواصل الحديث عن قصة إبراهيم وإبنه وتكملها. فى البداية تصف الآية القرآنية إبراهيم:

«إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

إنّ هذه الآية دليل على ما ذكر فيما قبل، كما توضّح حقيقة مفادها أنّ إيمان إبراهيم القوى دفعه إلى أن يضع كل وجوده وكيانه وحتى إبنه العزيز البارّ، فى صحن الإخلاص فداءً لربّه سبحانه وتعالى.

ثم تتناول هذه الآيات نعمة اخرى من النعم التى وهبها اللّه تعالى لإبراهيم: «وَبَشَّرْنَهُ بِإِسْحقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ».

الآیة الأخیرة تتحدث عن البرکة التی أنزلها الباریء جلّ وعلا علی إبراهیم وإبنه إسحاق: «وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ».

«برکة»: مشتقة من «برک» علی وزن (درک) وتعنی صدر البعیر، وتدریجیاً أعطت هذه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۰۹

الکلمة معنی الثبات وبقاء شیء ما؛ والآیة مورد بحثنا تشیر إلی ثبات ودوام النعم الإلهیة علی إبراهیم وإسحاق وعلی اسرتهم.

وهذه البرکات لا تشمل کل أفراد عائلة إبراهیم وعشیرته، وإنّما تشمل- فقط- المؤمنین والمحسنین منهم، إذ تقول الآیة فی آخرها: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ».

«محسن»: جاءت هنا بمعنی المؤمن والمطیع للّه؛ و «ظالم»: جاءت هنا بمعنی الکافر والمذنب. فالآیة المذکورة أعلاه تجیب الیهود والنصاری الذین افتخروا بکونهم من أبناء الأنبیاء، وتقول لهم: إنّ صلة القربی لوحدها لیست مدعاة للإفتخار، إن لم ترافقها صلة فی الفکر والالتزام بالرسالة.

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَ قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (۱۱۶) وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (۱۱۹) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ (۱۲۰) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۲۱) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۲۲) النعم التی منّ بها اللّه علی موسی وهارون: الآیات المبارکة هذه تشیر إلی جوانب من النعم الإلهیة التی أغدقها اللّه جلّ شأنه علی موسی وأخیه هارون.

الآیة الاولی تشیر إلی قوله تعالی: «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهرُونَ».

«المنّة»: فی الأصل من «المنّ» ویعنی الحجر الذی یستعمل للوزن، ثم أطلق علی النعم الکبیرة والثقیلة، فلو کانت لها جنبة عملیة وموضوعیة فالمنّة جمیلة ومحمودة، ولو إقتصرت علی اللفظ والکلام فهی سلبیة ومذمومة.

إنّ اللّه سبحانه وتعالی أنعم علی الأخوین موسی وهارون بنعمة عظیمة. أمّا الآیات التی تلتها فتشرح سبعة من هذه النعم، وکل واحدة منها أفضل من اختها. ففی المرحلة الاولی یقول سبحانه وتعالی: «وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

فهل هناک قلق أکثر من هذا، وهو أنّ بنی إسرائیل یعیشون فی قبضة الفراعنة المتجبّرین

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۰

الطغاة؟ یذبحون أولادهم ویسخّرون نساءهم فی خدمتهم، ویستعبدون رجالهم ویستعملونهم فی الأعمال الشاقّة. وفی المرحلة الثانیة، قال الباریء عزّ وجل: «وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ».

ففی ذلک الیوم کان جیش الفراعنة ذا قوّة عظیمة ویتقدّمه الطاغیة فرعون، فیما کان بنو إسرائیل قوم ضعفاء وعاجزین یفتقدون لرجال الحرب وللسلاح أیضاً، إلّاأنّ المدد الإلهی وصلهم فی تلک اللحظات، وأغرق فرعون وجیشه وسط أمواج البحر، وأورث بنی إسرائیل قصور وثروات وحدائق وکنوز الفراعنة.

وفی المرحلة الثالثة من مراحل إغداق النعم علی بنی إسرائیل وشمولهم بعنایته، جاء فی محکم کتابه العزیز: «وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ».

نعم (التوراة) هو کتاب مستبین، أی یوضّح لهم المجهولات المبهمة، ویجیبهم علی کل ما یحتاجونه فی دینهم ودنیاهم، کما أکّدت الآیة (۴۴) من سورة المائدة ذلک: «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَيةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ».

وفی المرحلة الرّابعة أشار القرآن الکریم إلی نعمة معنویة اخری منّ بها جلّ شأنه علی موسی وهارون، وهی هدایتهما إلی الصراط المستقیم، «وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

أمّا المرحلة الخامسة فإنّها أکّدت علی استمرار رسالتهما والثناء الجمیل علیهما، إذ تقول الآیة: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخِرِينَ». و المرحلة السادسة تستعرض التحیّة الطیّبة المبارکة التی وردت إلی کل من موسی وهارون من عند اللّه: «سَلمٌ عَلَى مُوسَى وَهرُونَ».

سلام من عند اللّه، السلام الذی هو رمز لسلامة الدین والإیمان والرسالة والمذهب، السلام الذی یوضّح النجاة والأمن من العقاب والعذاب فی هذه الدنیا وفی الآخرة.

وفی المرحلة السابعة- الأخیرة- نصل إلی مرحلة الثواب والمکافأة الکبری التی یقدّمها الباریء عزّ وجل إلیهما: «إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ».

نعم إنّ حصولهما علی کل هذه المفاخر لم یکن من دون دلیل أو سبب، إذ کانا من المحسنین والمؤمنین والمخلصین والطیّبین، فمثل هؤلاء جدیرون بالثواب والمکافأة.

الآیة الأخیرة فی بحثنا تشیر إلی نفس الدلیل الذی ورد فی قصة نوح وإبراهیم من قبل:

«إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۱

فالإیمان هو الذی ینیر روح الإنسان ویعطیه القوّة، ویدفعه إلی الطهارة والتقوی وعمل الإحسان والخیر.

وَ إِنَّ إِلْیاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِینَ (۱۲۵) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِینَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ (۱۲۸) وَ تَرَكْنا عَلَیْهِ فِی الْآخِرِینَ (۱۲۹) سَلامٌ عَلی إِلْ‌یاسِینَ (۱۳۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِینَ (۱۳۲) النبی إلیاس ومواجهته للمشرکین: القصة الرابعة فی هذه السورة إستعرضت بصورة مختصرة حیاة نبی اللّه (إلیاس). یقول تعالی: «وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم تبدأ الآیات بالتفصیل بعد الإجمال وتقول: واذکر عندما أنذر قومه «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ». أی: اتّقوا اللّه واجتنبوا الشرک وعبادة الأصنام وإرتکاب الذنوب والمظالم، وکل ما یؤدّی بالإنسان إلی الباطل والفساد.

أمّا الآیة التی تلتها فقد تحدّثت بصراحة أکثر: «أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

قیل: (بعل) إسم صنم وکان من ذهب وطوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتی أخدموه أربعمائة سادن «۱».

فقد عمد إلیاس إلی توبیخ قومه بشدّة، وقال لهم: «اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

وإستخدام کلمة (ربّ) هنا أفضل منبّه للعقل والفکر، لأنّ أهمّ قضیة فی حیاة الإنسان هی أن یعرف من الذی خلقه؟ ومن هو مالکه ومربّیه وولی نعمته الیوم؟

إلّا أنّ قومه اللجوجین والمتکبرین لم یعطوا اذناً صاغیة لنصائحه ومواعظه، ولم یعبأوا بما یقوله لهدایتهم، وإنّما کذّبوه «فَكَذَّبُوهُ».

ومقابل تصرّفاتهم هذه توعّدهم اللّه سبحانه وتعالی بعذابه بعبارة قصیرة جاء فیها: إنّنا سنحضرهم إلی محکمة العدل الإلهی وسنعذّبهم فی جهنم «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ» لینالوا جزاء أعمالهم القبیحة والمنکرة.

---

(۱) روح المعانی ۲۳/ ۱۳۹.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۲

ولکن یبدو أنّ هناک مجموعة من الأطهار المحسنین والمخلصین قد آمنوا بما جاء به إلیاس، ولکی لا یضیع حق هؤلاء، قال تعالی مباشرةً بعد تلک الآیة: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

الآیات الأخیرة من بحثنا إستعرضت نفس القضایا الأربعة التی وردت بحقّ الأنبیاء الماضین (نوح، وإبراهیم، وموسی، وهارون) ولأهمّیتها نستعرضها مرّة اخری.

قوله تعالی: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخِرِينَ». أی: إنّ الامم القادمة سوف لن تنسی الجهود الکبیرة التی بذلها الأنبیاء الکبار من أجل حفظ خطّ التوحید.

وفی المرحلة الثانیة أثنی اللّه سبحانه وتعالی وبعث بتحیّاته إلی آل یاسین. قال تعالی:

«سَلَمٌ عَلَی إِلْ یَاسِینَ».

وفی المرحلة الثالثة، قال تعالی: «إِنَّا کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ».

أمّا المرحلة الرابعة فتطرح الإیمان کأمر أساسی یجب أن یتوفّر فی الأنبیاء الذین إستعرضتهم هذه السورة المبارکة فتقول الآیة هنا: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِینَ».

«الإیمان» و «العبودیة» للّههما مصدر الإحسان، والإحسان یؤدّی إلی إنضمام المحسن لصفوف المخلصین الذین یشملهم سلام اللّه.

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّیْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِینَ (۱۳۴) إِلَّا عَجُوزاً فِی الْغَابِرِینَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِینَ (۱۳۶) وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ (۱۳۷) وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۱۳۸) تدمیر قوم لوط: «لوط» هو خامس نبی یذکر اسمه فی هذه السورة ضمن تسلسل الآیات التی تحدّثت بصورة مختصرة عن تأریخه لإستمداد العبر منه.

وطبقاً لما جاء فی آیات القرآن بشأن لوط، یتّضح أنّه کان معاصراً لإبراهیم علیه السلام، وأنّه من أنبیاء اللّه العظام.

بحثنا یبدأ بقوله تعالی: «وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِینَ».

ثم یبیّن جوانب من قصة لوط، حیث قال: تذکر تلک الفترة الزمنیة التی أنقذنا فیها لوطاً وأهله: «إِذْ نَجَّیْنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِینَ».

عدا زوجته العجوز التی جعلناها مع من بقی فی العذاب: «إِلَّا عَجُوزًا فِی الْغَابِرِینَ». «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْأَخَرِینَ».

الجمل القصیرة- التی وردت أعلاه- تشیر إلی تأریخ قوم لوط الملیء بالحوادث، والتی

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۳

ورد شرحها فی سور (هود) و (الشعراء) و (العنکبوت).

وباعتبار أنّ هذه الآیات کانت مقدّمة لإیقاظ الغافلین والمغرورین، فقد أضاف القرآن الکریم: «وَإِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِم مُّصْبِحِینَ». أی: إنّکم تمرّون فی کل صباح بجانب دیارهم الخربة من جرّاء العذاب.

کما تمرّون من هناک فی اللیل أفلا تعقلون؟ «وَبِالَّیْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

هذه الآیات تخاطب قوافل أهل الحجاز التی کانت تذهب لیلًا ونهاراً إلی بلاد الشام عبر مدن قوم لوط، وتقول: لو کان لهم آذان حیّة لسمعوا الصراخ المذهل والعویل المفزع لهؤلاء القوم المعذّبین. نعم، إنّه درس ما أکثر العبر فیه، ولکن المعتبرین منه قلیل.

وَ إِنَّ یُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَی الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَسَاهَمَ فَکَانَ مِنَ الْمُدْحَضِینَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِیمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لَا أَنَّهُ کَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ (۱۴۳) لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِیمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنَا عَلَیْهِ شَجَرَةً مِنْ یَقْطِینٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَی مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَی حِینٍ (۱۴۸) یونس فی بوتقة الإمتحان: الحدیث هنا عن قصة نبی اللّه «یونس» علیه السلام وقومه التائبین، والتی هی سادس وآخر قصة تتناول قصص الأنبیاء والامم السابقة.

فی البدایة، وکما تعوّدنا فی القصص السابقة، فإنّ الحدیث یکون عن مقام رسالته، إذ تقول الآیة: «وَإِنَّ یُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ».

نبی اللّه «یونس» علیه السلام کسائر الأنبیاء العظام بدأ بالدعوة إلی توحید اللّه ومجاهدة عبدة الأصنام، ومن ثم محاربة الأوضاع الفاسدة التی کانت منتشرة فی مجتمعه آنذاک، إلّاأنّ قومه المتعصّبین الذین کانوا یقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الإستجابة لدعوته، عدا مجموعة قلیلة منهم، یحتمل أن لا تتعدّی الشخصین (أحدهما یسمّی بالعابد والثانی بالعالم) آمنت برسالته.

وبعد فترة طویلة من دعوته إیّاهم إلی عبادة اللّه وترک عبادة الأصنام، یئس یونس من هدایتهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۴

وبالفعل فقد دعا علیهم، فنزل علیه الوحی وحدّد له وقت حلول العذاب الإلهی بهم، ومع حلول موعد نزول العذاب، رحل یونس- بمعیّة الرجل العابد- عن قومه وهو غاضب علیهم، ووصل إلی ساحل البحر، وشاهد سفینة عند الساحل غاصّة بالرکاب فطلب منهم

السماح له بالصعود إليها.

وهذا ما أشارت إليه الآية التالية، حيث قالت: «إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ».

«أبق»: مشتقة من «إباق» والتى تعنى فرار العبد من سيّده، إنّها لعبارة عجيبة، إذ تبيّن أنّ ترك العمل بالأولى من قبل الأنبياء العظام ذوى المقام الرفيع عند اللَّه، مهما كان بسيطاً فإنّه يؤدّى إلى أن يتّخذ البارىء عزّ وجل موقفاً معاتباً ومؤنّباً للأنبياء، كإطلاق كلمة (الآبق) على نبيّه.

ومن دون أى شك فإنّ نبى اللَّه يونس عليه السلام، معصوم عن الخطأ، ولكن كان الأجدر به أن يتحمّل آلاماً اخرى من قومه، وأن يبقى معه حتى اللحظات الأخيرة قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم ويتوبوا إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

ووفق ما ورد فى الروايات، فقد صعد يونس عليه السلام إلى السفينة، ثم إنّ حوتاً ضخماً وقف أمام السفينة، فاتحاً فمه وكأنّه يطلب الطعام، فقال ركّاب السفينة أنّ هناك شخصاً مذنباً معنا يجب أن يكون طعام هذا الحوت، ولم يجدوا سبيلًا سوى الإقتراع لتحديد الشخص الذى يرمى للحوت، وعندما إقترعوا خرج اسم يونس.

وقد أشار القرآن المجيد فى آية قصيرة إلى هذه الحادثة، قال تعالى: «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ».

«ساهم»: من مادة «سهم» وتعنى إشتراكه فى الإقتراع، فالإقتراع تمّ على ظهر السفينة بالشكل التالى، كتبوا اسم كل راكب على (سهم) ثم خلطوا الأسهم وسحبوا سهماً واحداً، فخرج السهم الذى يحمل اسم يونس عليه السلام.

«مدحض»: مشتقة من «دَحْض» وتعنى إبطال مفعول الشىء أو إزالته أو التغلّب عليه؛ والمراد هنا أنّ إسمه ظهر فى عملية الإقتراع من بين بقية الأسماء.

وقال القرآن الكريم: «فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ». أى إنّ حوتاً عظيماً التقمه وهو مستحق للملامة.

«التقم»: مشتقة من «الإلتقام» وتعنى (البلع).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۵

«مليم»: من مادة «لوم» وتعنى التوبيخ والعتب.

ومن المسلّم أنّ هذه الملامة لم تكن بسبب إرتكابه ذنباً كبيراً أو صغيراً وإنّما بسبب تركه العمل بالأولى، وإستعجاله فى ترك قومه وهجرانهم.

فى تفسير الدرّ المنثور: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لما أراد اللَّه حبس يونس عليه السلام فى بطن الحوت أوحى اللَّه إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً».

يونس عليه السلام إنتبه بسرعة للحادث، وتوجّه على الفور إلى اللَّه سبحانه وتعالى وتكامل وجوده مستغفراً اللَّه على تركه العمل بالأولى، وطالباً العفو منه.

ونقلت الآية (۸۷) فى سورة الأنبياء صورة توجّه يونس عليه السلام بالدعاء الذى يسمّيه أهل العرفان باليونسية. قال تعالى: «فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لَّاإِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

إعتراف يونس الخالص بالظلم، وتسبيحه اللَّه المرافق للندم أدّى مفعوله، إذ إستجاب اللَّه له وأنقذه من الغم، كما جاء فى الآية (۸۸) من سورة الأنبياء: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ».

ونلاحظ الآن ماذا تقول الآيات بشأن يونس عليه السلام. قال تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

أى لو لم يكن من المسبّحين لأبقيناه فى بطن الحوت حتى يوم القيامة، ويعنى تبديل سجنه المؤقّت إلى سجن دائم، ومن ثم تبديل سجنه الدائم إلى مقبرة له.

ويضيف القرآن، وقد ألقينا به فى منطقة جرداء خالية من الأشجار والنباتات، وهو مريض: «فَنَبَذْنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ».

فالحوت الضخم لفظ يونس- الذى لم يكن غذاءً صالحاً لذلك الحوت- على ساحل خالٍ من الزرع والنبات، والواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثّر على سلامة وصحّة جسم يونس، إذ أنّه تحرّر من هذا السجن وهو منهار ومعتل.

كانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده. والقرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة والرطبة: «وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ».

«اليقطين»: تعنى كل نبات لا ساق له وله أوراق كبيرة، مثل نبات البطّيخ والقرع والخيار

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۶

وما يشابهها؛ و «الشجرة»: تطلق على النباتات التى لها ساق وأغصان والتى ليس لها ساق وأغصان. وبعبارة اخرى: تشمل كل الأشجار والنباتات. فبعد أن ترك يونس قومه وهو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبيّن لهم قرب موعد الغضب الإلهى، هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوّة وأعادتهم إلى رشدهم، ودفعتهم إلى اللجوء للشخص (العالم) الذى كان آمن بيونس وما زال موجوداً فى المدينة، واتّخاذه قائداً لهم ليرشدهم إلى طريق التوبة.

وجلسوا يبكون، داعين اللّه سبحانه وتعالى بإخلاص أن يتقبّل توبتهم ويغفر ذنوبهم وتقصيرهم بعدم اتّباعهم نبى اللّه يونس.

وهنا أزاح اللّه عنهم سُحب العذاب وأنزلها على الجبال، وهكذا نجا قوم يونس التائبون المؤمنون بلطف اللّه.

بعد هذا عاد يونس إلى قومه ولكن ما إن عاد إلى قومه حتى فوجىء بأمر أثار عنده الدهشة والعجب، وهو أنّه ترك قومه فى ذلك اليوم يعبدون الأصنام، وهم اليوم يوحّدون اللّه سبحانه.

القرآن يقول هنا: «وَأَرْسَلْنَهُ إِلَى مِائَةِ الْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ». كانوا قد آمنوا باللّه، واغدقت عليهم النعم الإلهية المادية والمعنوية لمدّة معيّنة، «فَامَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ».

وبالطبع فإنّهم بعد توبتهم كانوا يتمتعون بإيمان بسيط، وقد إزداد بعد عودة يونس إليهم، أى إزداد إيمانهم باللّه وبرسوله يونس، وأخذوا ينفّذون تعليماته وأوامره.

دروس كبيره فى قصة يونس عليه السلام: من هذه القصة يمكن إستخلاص الدروس التربوية ومن جملتها:

أ) هذه القصة توضّح كيف أنّ قوماً مذنبين مستحقين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التاريخية، بعودتهم إلى أحضان الرحمة الإلهية، وإنقاذ أنفسهم من العذاب.

ب) هذه الحادثة تبيّن أنّ الإيمان باللّه والتوبة من الذنوب علاوة على أنّها تتسبّب فى نزول الآثار والبركات المعنوية، فهى توجد النعم والهبات الدنيوية وتجعلها فى اختيار الإنسان، وتوجد حالة من العمران والبناء، وتطيل الأعمار.

ج) أخيراً فإنّ مجريات هذه القصة تستعرض قدرة البارىء عزّ وجل العظيمة التى لا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۷

يقف أمامها شىء ولا يصعب عليها شىء، إلى درجة تستطيع حفظ حياة إنسان فى فم وجوف حيوان كبير وحشى، وإخراجه سالماً من هناك.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَ هُمْ شَاهِدُونَ (۱۵۰) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (۱۵۳) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۱۵۴) أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۵۹) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۰) التهم القبيحة: بعد إستعراض ستّ قصص من قصص الأنبياء السابقين، يغيّر القرآن موضوع الحديث، ويتناول موضوعاً آخر يرتبط بمشركى مكة آنذاك.

إنّ مجموعة من المشركين العرب وبسبب جهلهم وسطحية تفكيرهم كانوا يقيسون اللّه عزّ وجل بأنفسهم، ويقولون: إنّ للّهعزّ وجل

أولاداً، وأحياناً يقولون: إنّ له زوجة.

فی البداية يقول: اسألهم هل أنّ اللّه تعالى خصّ نفسه بالبنات، وخصّهم بالبنين، «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّکَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ».

وكيف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسكم إلى اللّه، حيث إنّهم طبق عقائدهم الباطلة كانوا يكرهون البنات بشدة ويحبّون الأولاد كثيراً.

فإنّ الولد والبنت من حيث وجهة النظر الإنسانية، ومن حيث التقييم عند اللّه سبحانه وتعالى متساوون، وميزان شخصيتهم هو التقوى والطهارة.

ثم ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسّی على المسألة هذه، وبشكل إستفهام إستنكاری، قال تعالى: «أَمْ خَلَقْنَا الْمَلِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ».

ومن دون أی شك فإنّ جوابهم فی هذا المجال سلبی، إذ لم يستطع أحداً منهم الإدّعاء بأنّه كان موجوداً أثناء خلق الملائكة.

مرّة اخرى يطرح القرآن الدليل العقلی المقتبس من مسلّماتهم الذهنية ويقول: «أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ».

هل تدركون ما تقولون وكيف تحكمون: «مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۸

ألم يحن الوقت الذی تتركون فيه هذه الخرافات والأوهام القبيحة والتافهة؟ «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». إذن أنّ هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أنّ أی إنسان له ذرّة من عقل ودراية، ويتفكّر فی الأمر جيّداً، لأدرك بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان إدّعاءاتهم الخرافية بدليل تجريبی وآخر عقلی، ننتقل إلى الدليل الثالث وهو الدليل النقلی، حيث يقول القرآن الكريم مخاطباً إيّاهم: لو كان ما تزعمونه صحيحاً لذكرته الكتب السابقة، فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، «أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ».

وإذا كنتم صادقين فی قولكم فأتوا بذلك الكتاب: «فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

هذا القول يشبه بقيّة الأقوال التی يخاطب بها القرآن عبدة الأصنام: «وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسَلُونَ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ ءَاتَيْنهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» (۱).

الآية اللاحقة تطرّقت إلى خرافة اخرى من خرافات مشركی العرب، والتی تزعم بوجود نسبة بين اللّه عزّ وجل والجن، فالآية هنا تخاطبهم بضمير الغائب، لأنّهم اناس تافهون، ولا تتوفّر فيهم الكفاءة واللياقة للردّ على زعمهم: «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا».

والمراد من كلمة (نسب) كل أشكال الرابطة والعلاقة، حتى ولو لم يكن هناك أی صلة للقرابة فيها، وكما نعلم فإنّ مجموعة من المشركين العرب كانوا يعبدون الجن ويزعمون أنّها شركاء للّه، ولهذا كانوا يقولون بوجود علاقة بينها وبين اللّه. فالقرآن المجيد ينفی هذه المعتقدات الخرافية بشدة، ويقول: «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ».

ونزّه اللّه تعالى نفسه عمّا قاله اولئك الضالون فی صفاته تعالى، قائلًا: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». وإستثنى وصف عباده المخلصين (الذين وصفوه عن علم ومعرفة ودراية) حيث وصفوه بما يليق بذاته المقدّسة. قال تعالى: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ».

العباد الخالصون من كل أشكال الشرك وهوى النفس والجهل والضلال، والذين لا يصفون الباریء عزّ وجل إلّابما سمح لهم به.

---

(۱) سورة الزّخرف/ ۱۹- ۲۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۱۹

نعم، ينبغی لنا مراجعة كلمات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وخطب علی بن أبی طالب عليه السلام، وأدعية الإمام علیّ بن الحسين عليه السلام فی صحيفته، كی نستنير بضياء وصفهم له جلّ وعلا.

فأمیر المؤمنین علیه السلام- فی الخطبة ۱۸۶ فی نهج البلاغة- یصف اللّه عزّ وجل بالقول: «لا تناله الأوهام فتقدّره، ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره، ولا تدرکه الحواسّ فتحسّه، ولا تلمسه الأیدی فتمسّه، ولا یتغیّر بحال، ولا یتبدّل فی الأحوال، ولا تبلیه اللیالی والأیّام، ولا یغیّره الضیاء والظّلام، ولا یوصف بشیء من الأجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغیریّة والأبعاض، ولا یقال: له حدّ ولا نهایة، ولا انقطاع ولا غایة».

أمّا الإمام علیّ بن الحسین زین العابدین علیه السلام، فقد قال فی الدعاء الأوّل فی الصحیفة السجّادیة: «الحمد للّهالأوّل بلا أوّل کان قبله، والآخر بلا آخر یکون بعده، الذی قصرت عن رؤیته أبصار الناظرین وعجزت عن نعته أوهام الواصفین».

فَإِنَّکُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (۱۶۱) مَا أَنْتُمْ عَلَیْهِ بِفَاتِنِینَ (۱۶۲) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِیمِ (۱۶۳) وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (۱۶۵) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ کَانُوا لَیَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِکْراً مِنَ الْأَوَّلِینَ (۱۶۸) لَکُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ (۱۶۹) فَکَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۱۷۰) الإدّعاءات الکاذبة: الآیات السابقة تحدثت عن الآلهة المختلفة التی کان المشرکون یعبدونها، أمّا الآیات- مورد بحثنا الآن- فتتابع ذلک الموضوع، حیث توضّح فی کل بضع آیات موضوعاً یتعلق بهذا الأمر.

بدایة البحث تؤکّد الآیات علی أنّ وساوس عبدة الأصنام لا تؤثّر فی الطاهرین والمحسنین، وإنّما قلوبکم المریضة وأرواحکم الخبیثة هی التی تستسلم لتلک الوساوس. قال تعالی: «فَإِنَّکُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ».

نعم، أنتم وما تعبدون لا تستطیعون خداع أحد بوسائل الفتنة والفساد عن الطریق المؤدّی إلی اللّه «مَا أَنتُمْ عَلَیْهِ بِفَاتِنِینَ». إلّااولئک الذین یریدون أن یحترقوا فی نار جهنم «إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِیمِ».

بعد إنتهاء بحثنا حول الآیات الثلاث السابقة التی وضّحت مسألة إختیار الإنسان فی مقابل فتن وإغراءات عبدة الأصنام، نواصل بحثنا حول الآیات الثلاث التالیة والتی تتناول

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۲۴۹

المرتبة العالیة لملائکة اللّه، وتقول مخاطبة عبدة الأصنام: إنّ الملائکة التی کنتم تزعمون أنّها بنات اللّه لها مقام معیّن، والجمیل فی هذه العبارة أنّ الملائکة هی التی تتحدث عن نفسها «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ». وتضیف ملائکة الرحمن: وإنّنا جمیعاً مصطفون عند اللّه فی إنتظار أوامره، «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ».

وإنّنا جمیعاً نسبّحه، وننزّه عمّا لا یلیق بساحة کبریائه: «وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ».

نعم، نحن عباد اللّه، وقد وضعنا أرواحنا علی الأکف بإنتظار سماع أوامره، إنّنا لسنا أبناء اللّه، إنّنا ننزّه الباریء عزّ وجل من تلک المزاعم الکاذبة والقبیحة.

إنّ الآیات المذکورة أعلاه أشارت إلی ثلاث صفات من صفات الملائکة:

الاولی: أنّ لکل واحد منهم مقام معیّن ومشخص لیس له أن یتعدّاه.

والثانیة: أنّهم مستعدّون دائماً لإطاعة أوامر اللّه سبحانه وتعالی وتنفیذها فی عالم الوجود.

والثالثة: أنّهم یسبّحون اللّه دائماً وینزّهونه عمّا لا یلیق بساحة کبریائه.

الآیات الأربع الأخیرة من هذا البحث تشیر إلی أحد الأعذار الواهیة التی تذرّع بها المشرکون فیما یخصّ هذه القضیة وعبادتهم للأصنام، وتجیب علیهم قائلة: «وَإِن کَانُوا لَیَقُولُونَ». «لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِکْرًا مِّنَ الْأَوَّلِینَ لَکُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ».

الآیة التالیة تقول: لقد تحقق ما کانوا یأملونه، إذ أنزل علیهم القرآن المجید الذی هو أکبر وأعظم الکتب السماویة، إلّاأنّ هؤلاء الکاذبین فی إدّعاءاتهم کفروا به، ولم یفوا بما قالوا، واتّخذوا موقفاً معادیاً إزاءه، فسیعلمون وبال کفرهم «فَکَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ».

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِینَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّی حِینٍ (۱۷۴)

وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧۶) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) حزب اللّه هو المنتصر: لا- زلنا نتابع البحث فی آیات هـذه السورة المبارکـة، والتی شارفت علی الإنتهاء، بعـد أن إستعرضـنا فی الأبحاث السابقـة جهاد الأنبیاء العظام والمصاعب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ٢٢١

والعراقیـل التی أثارها وأوجـدها المشـرکون، ففی آیات بحثنا الحالی سـنتطرّق لأهمّ القضایا الواردة فی هـذه السورة، إذ زفّت البشـری للمؤمنین بإنتصـار جیش الحق علی جیش الشـیطان. الوعـد الإلـهی الکبیر هـذا إنّمـا جاء لبعث الأمل فی صـفوف المؤمنین فی صـدر الإسلام الذین کانوا لحظة نزول هذه الآیات یرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام فی مکة، ولکل المؤمنین والمحرومین فی کل زمان ومکان، والإستعداد لجهاد ومقاومة جیوش الباطل:

«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ». «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ». الوعـد الإلهی من أهمّ الامور التی ینتظرها السائرون فی طریق الحق بإشتیاق، حیث یستمدّون منه القوی الروحیة والمعنویة.

ولمواساة النبی صـلی الله علیه و آله والمؤمنین، وللتأکید علی أنّ النصـر النهائی سـیکون حلیفهم، وفی نفس الوقت لتهدید المشرکین، جاءت الآیة التالیة لتقول: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ».

ویؤکّد القرآن الکریم التهدید الأوّل بتهدید آخر جاء فی الآیة التی تلتها، إذ تقول: انظر إلی لجاجتهم وکذبهم وإعتقادهم بالخرافات، إضافةً إلی حمقهم، فإنّهم سیرون جزاء أعمالهم القبیحة عن قریب: «وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ».

وسوف تری فی القریب العاجل إنتصارک وإنتصار المؤمنین وإنکسار وهزیمة المشرکین المذلّة فی الدنیا.

وعن تکرار اولئک الحمقی لهـذا السؤال علی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله أین العـذاب الإلهی الـذی واعدتنا به؟ وإن کنت صادقاً، فلِم هذا التأخیر؟

یردّ القرآن الکریم علیهم بلهجة شدیـدة مرافقة بالتهدید، قائلًا: اولئک الذین یسـتعجلون العذاب وأحیاناً یتساءلون (متی هذا الوعد؟)، وأحیاناً اخری یقولون متسائلین (متی هذا الفتح؟): «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

فعندما ینزل عذابنا علیهم، ونحیل صـباحهم إلی ظلام حالک، فإنّهم فی ذلک الوقت سـیفهمون کم کان صباح المنذرین سیّئاً وخطیراً «فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ».

استخدام عبارة (ساحـة) والتی تعنی فنـاء البیت أو الفضـاء الموجود فی وسط البیت، جاء لیجسّم لهم نزول العـذاب فی وسط حیاتهم، وکیف أنّ حیاتهم الطبیعیة ستتحوّل إلی حیاة موحشة ومضطربة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ٢٢٢

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) تولّ عنهم: کما قلنا، فإنّ الآیات الأخیرة النازلـة فی هذه السورة جاءت لمواساة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والمؤمنین الحقیقیین، ولتهدید الکافرین اللجوجین.

الآیتـان الأوّلیتـان فی بحثنا هـذا، تشـبهان الآیات التی وردت فی البحث السابق، إذ تقول بلغـة مرفقـة بالتهدیـد: تولّ عنهم واترکهم فی شأنهم لمدّة معیّنة «وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ».

وانظر إلی لجاجة اولئک الکافرین وکذبهم وممارساتهم العدائیة ونکرانهم لوجود اللّه، الذین سینالون جزاء أعمالهم عن قریب «وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ».

التکرار جاء للتأکیـد، وذلک لیـدرک اولئک الکافرون أنّ جزاءهم وهزیمتهم وخیبتهم أمر قطعی لابدّ منه وسـیکون ذلک عن قریب، وسیبتلون بالنتائج المریرة لأعمالهم، کما أنّ إنتصار المؤمنین هو أمر قطعی ومسلّم به أیضاً.

ثم تختتم السورة بثلاثة آیات ذات عمق فی المعنی بشأن (اللّه) و (الرسل) و (العالمین)، إذ تنزّه اللّه ربّ العزّة والقدرة من الأوصاف التی یصفه بها المشرکون والجاهلون: «سُبْحَانَ رَبّکَ رَبّ الْعِزَّةِ عَمَّا یَصِفُونَ».

فأحیاناً یصفون الملائکة بأنّها بنات اللّه، وأحیاناً یقولون بوجود نسبة بین اللّه والجن، وأحیاناً اخری یجعلون مصنوعات لا قیمة لها من الحجر والخشب بمرتبة الباریء عزّ وجل.

وفی الآیة الثانیة شمل الباریء عزّ وجل کافّة أنبیائه بلطفه غیر المحدود، وقال: «وَسَلمٌ عَلَی الْمُرْسَلِینَ». السلام الذی یوضّح السلامة والعافیة من کل أنواع العذاب والعقاب فی یوم القیامة، السلام الذی هو صمّام الأمان أمام الهزائم ودلیل للإنتصار علی الأعداء.

وأخیراً إختتمت السورة بآیة تحمد اللّه: «وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِینَ».

الآیات الثلاث الأخیرة یمکن أن تکون إشارة وإستعراضاً مختصراً لکل القضایا والامور الموجودة فی هذه السورة، لأنّ الجزء الأکبر منها کان بشأن التوحید والجهاد ضدّ مختلف أنواع الشرک، فالآیة الاولی تعید ما جاء بشأن تسبیح وتنزیه اللّه عزّ وجل عن الصفات التی وصف بها من قبل المشرکین، والقسم الآخر من السورة یبیّن جوانب من أوضاع سبع أنبیاء کبار أشارت إلیها هنا الآیة الثانیة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۳

والآیة الثالثة إستعرضت جزءاً آخر من النعم الإلهیة، وبالخصوص أنواع النعم الموجودة فی الجنة، وإنتصار جند اللّه علی جنود الکفر، والحمد والثناء الذی جاء فی الآیة الأخیرة، فیه إشارة لکل تلک الامور.

روی- فی تفسیر مجمع البیان- عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من أراد أن یکتال بالمکیال الأوفی من الأجر یوم القیامة فلیکن آخر کلامه فی مجلسه: سبحان ربّک ربّ العزّة عمّا یصفون وسلام علی المرسلین والحمد للّهربّ العالمین».

«نهایة تفسیر سورة الصافات»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۵

۳۸. سورة ص

محتوی السورة: سورة (ص) یمکن إعتبارها مکمّلة لسورة الصافات، فمجمل مواضیعها یشابه کثیراً ما ورد فی سورة الصافات.

ویمکن تلخیص محتویات هذه السورة فی خمس أقسام:

۱- یتحدّث عن مسألة التوحید والجهاد ضدّ الشرک والمشرکین، ومهمّة نبوّة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله وعناد ولجاجة الأعداء تجاه الأمرین المذکورین أعلاه.

۲- یعکس جوانب من تأریخ تسع من أنبیاء اللّه ومن بینهم (داود) و (سلیمان) و (أیّوب) حیث تتحدث عنهم السورة أکثر من غیرهم.

۳- یتطرّق إلی مصیر الکفرة الطغاة یوم القیامة ومجادلة بعضهم البعض فی جهنم، ویبیّن للمشرکین وللذین لا یؤمنون باللّه إلی أین ستؤدّی بهم أعمالهم.

۴- یتناول مسألة خلق الإنسان وعلوّ مقامه وسجود الملائکة له.

۵- یتوعّد الأعداء المغرورین بالعذاب، ویواسی رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ویبیّن هذه الحقیقة، وهی أنّ النبی لا یرید جزاء من أحد مقابل دعوته، ولا یرید الشقاء والأذی لأحد.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من قرأ سورة ص اعطی من الأجر بوزن کل جبل سخّره اللّه لداود حسنات وعصمه اللّه أن یصرّ علی ذنب صغیراً أو کبیراً».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۶

وفی کتاب ثواب الأعمال عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «من قرأ سورة ص فی لیلة الجمعة اعطی من خیر الدنیا والآخرة ما لم یعط

أحد من الناس إلّانبى مرسل أو ملك مقرّب، وأدخله اللَّه الجنة وكل من أحبّ من أهل بيته حتى خادمه الذى يخدمه».

والمراد من التلاوة هنا التلاوة التى ترافق التفكير العميق والتصميم الجدّى، الذين يدفعان الإنسان إلى العمل بما جاء فى هذه السورة المباركة.

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)

سبب النّزول

فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبى طالب، فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا، فادعه ومره فليكفّ عن آلهتنا ونكفّ عن إلهه».

قال: «فبعث أبو طالب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فدعاه، فلمّا دخل النبى صلى الله عليه و آله لم ير فى البيت إلّا مشركاً فقال: السلام على من اتّبع الهدى، ثم جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا له، فقال: أوَهل لهم فى كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم؟ فقال أبو جهل نعم وما هذه الكلمة؟ فقال: تقولون لا إله إلّااللَّه».

قال: «فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وخرجوا هراباً وهم يقولون: ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلّاإختلاق». فأنزل اللَّه تعالى فى قولهم: «ص وَالْقُرْءَانِ ذِى الذّكْرِ» إلى قوله «إِنْ هذَا إِلَّا اخْتِلَقٌ».

التّفسير

مرّة اخرى تمرّ علينا سورة تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطعة وهو حرف «ص» ويطرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطعة، ولكن مجموعة من المفسرين إعتبرت هنا حرف (ص) رمزاً يشير إلى أحد أسماء اللَّه، وذلك لأنّ الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل (صادق)، (صمد)، (صانع)؛ أو أنّه إشارة إلى (صدق اللَّه) التى إختصرت بحرف واحد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۷

ثم يقسم اللَّه تعالى بالقرآن ذى الذكر والذى هو حقّاً معجزة إلهية: «وَالْقُرْءَانِ ذِى الذّكْرِ».

فالقرآن ذكر ويشتمل على الذكر، والذكر يعنى التذكير وصقل القلوب من صدأ الغفلة، تذكّر اللَّه، وتذكّر نعمه، وتذكّر محكمته الكبرى يوم القيامة، وتذكّر هدف خلق الإنسان.

الآية التالية تقول لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات اللَّه الواضحة ولقرآنه المجيد، فاعلم أنّ سبب هذا لا يعود إلى أنّ هناك ستاراً يغطّى كلام الحق، وإنّما هم مبتلون بالتكبر والغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول الحق، كما أنّ عنادهم وعصيانهم- هما أيضاً- مانع يحول دون تقبّلهم لدعوتك: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

«العزّة»: كما قال الراغب فى مفرداته، هى حالة تحول دون هزيمة الإنسان (حالة الذى لا يقهر)، وتعطى معنيين، فأحياناً تعنى (العزّة الممدوحة) المحترمة، كما فى وصف ذات اللَّه الطاهر بالعزيز، وأحياناً تعنى (العزّة بالإثم) أى الوقوف بوجه الحق والتكبر عن قبول الواقع، وهذه مذلّة فى حقيقة الأمر.

«شقاق»: مشتقة من «شقّ»، ومعناه واضح، ثم استعمل فى معنى المخالفة، لأنّ الإختلاف يسبّب فى أن تقف كل مجموعة فى شقّ، أى فى جانب.

القرآن هنا يعدّ مسألة العجرفة والتكبر والغرور وطىّ طريق الإنفصال والتفرقة من أسباب تعاسة الكافرين.

ولإيقاظ اولئك المغرورين المغفّلين، يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تأريخ البشر، ليريهم مصير الامم المغرورة والمتكبّرة، كى يتّعظوا ويأخذوا العبر منها «كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ». أى: إنّ امماً كثيرة كانت قبلهم قد أهلكناها (بسبب تكذيبها الأنبياء، وإنكارها آيات اللَّه، وظلمها وإرتكابها للذنوب) وكانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها، ولكن ما الفائدة فقد تأخر الوقت! ولم يبق أمامهم متّسع من الوقت لإنقاذ أنفسهم: «فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ».

فعندما كان أنبياء اللَّه فى السابق يعظونهم ويحذّرونهم عواقب أعمالهم القبيحة، لم يكتفوا بصمّ آذانهم وعدم الإستماع، وإنّما كانوا يستهزئون ويسخرون من الأنبياء ويعذّبون المؤمنين ويقتلونهم، فبذلك أضاعوا الفرصة ودمّروا كل الجسور التى خلفهم، فنزل العذاب الإلهى ليهلكهم جميعاً، العذاب الذى رافقه إنغلاق باب التوبة والعودة، وفور نزوله تبدأ أصوات الإستغاثة تتعالى، والتى لا تغنى عنهم يومئذ شيئاً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۸

(لات): جاءت للنفى، وهى فى الأصل (لا) نافية اضيفت إليها (تاء) التأنيث، لتعطى معنى التأكيد؛ و «مناص»: من مادة «نوص» وتعنى الملاذ والملجأ.

وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۴) أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (۵) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (۶) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (۷)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم: نزلت بمكة لما أظهر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الدعوة بمكة اجتمعت قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فإن كان الذى يحمله على ذلك العدم، جمعنا له حالًا حتى يكون أغنى رجل فى قريش، ونملّكه علينا. فأخبر أبو طالب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بذلك فقال: «لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما أردته، ولكن يعطونى كلمة يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم ويكونون ملوكاً فى الجنة».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم وعشر كلمات، فقال لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «تشهدون أن لا إله إلّااللَّه وأنّى رسول اللَّه».

فقالوا: ندع ثلاث مائة وستّين إلهاً ونعبد إلهاً واحداً؟

فأنزل اللَّه تعالى: «أَجَعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا»- إلى قوله- «إِلَّا اخْتِلَقٌ».

التّفسير

هل يمكن قبول إله واحد بدلًا من كل تلك الآلهة: المغرورون والمتكبرون لا يعترفون بأمر لا يلائم أفكارهم المحدودة والناقصة، إذ يعتبرون أفكارهم المحدودة والناقصة مقياساً لكل القيم. لذا فعندما رفع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لواء التوحيد فى مكة، وأعلن الإنتفاضة ضد الأصنام الكبيرة والصغيرة فى الكعبة، والبالغ عددها (۳۶۰) صنماً، تعجبوا: لماذا جاءهم النذير من بينهم؟ «وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ».

كان تعجّبهم بسبب أنّ محمّداً صلى الله عليه و آله منهم ... أنّهم اعتبروا هذا الإمتياز الكبير نقطة سلبية فى دعوة الرسول صلى الله عليه و آله وتعجّبوا من أمر بعثته إليهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۲۹

وأحياناً كانوا يجتازون مرحلة التعجّب إلى مرحلة إتّهام رسول اللَّه بالسحر والكذب «وَقَالَ الْكَافِرُونَ هذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

إنّ إتّهامهم الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالسحر، إنّما نتج من جرّاء رؤيتهم لمعجزاته التى لا تقبل الإنكار وتنفذ بصورة مدهشة إلى أفكار المجتمع، وإتّهامه بالكذب بسبب تحدّثه باُمور تخالف سنّتهم الخرافية وأفكارهم الجاهلية التى كانت جزءاً من الامور المسلّم بها فى ذلك المجتمع، وإدّعاء الرسالة من اللَّه.

وعندما أظهر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دعوته لتوحيد اللَّه، أخذ أحدهم ينظر للآخر ويقول له:

تعال واسمع العجب العجاب «أَجَعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ».

نعم، فالغرور والتكبّر إضافة إلى فساد المجتمع، تساهم جميعاً فى تغيّر بصيرة الإنسان، وجعله متعجباً من بعض الامور الواقعية والواضحة، فى حين يصرّ بشدة على التمسك ببعض الخرافات والأوهام الواهية.

وبعد أن يئس طغاة قريش من توسط أبى طالب فى الأمر وفقدوا الأمل، خرجوا من بيته، ثم إنطلقوا وقال بعضهم لبعض، أو قالوا لأتباعهم: اذهبوا وتمسّكوا أكثر بآلهتكم، واصبروا على دينكم، وتحمّلوا المشاق لأجله، لأنّ هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلى الفساد والضياع وزوال النعمة الإلهية عنّا بسبب تركنا الأصنام، وإنّه يريد أن يترأس علينا؛ «وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ».

«إنطلق»: مشتقة من «إنطلاق» وتعنى الذهاب بسرعة والتحرّر من عمل سابق، وهنا تشير إلى تركهم مجلس أبى طالب وعلامات الضجر والغضب بادية عليهم.

و (الملأ) إشارة إلى أشراف قريش المعروفين الذين ذهبوا إلى أبى طالب.

وجملة «لَشَىْءٌ يُرَادُ» إشارة إلى دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، إذ اعتبرت قريش هذه الدعوة مؤامرة ضدّها، وقالت: إنّ ظاهرها يدعو إلى اللّه، وباطنها يهدف إلى السيادة والرئاسة علينا وعلى العرب، ودعت الناس إلى التمسك أكثر بعبادة الأصنام، وترك تحليل أمر هذه المؤامرة إلى زعماء القوم.

فإنّ زعماء المشركين أرادوا بهذا القول تقوية المعنويات المنهارة لأتباعهم، والحيلولة دون تزعزع معتقداتهم، ولكن كل مساعيهم ذهبت أدراج الرياح.

ولخداع عوام الناس وإقناع أنفسهم، قال زعماء المشركين: «مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِى الْمِلَّةِ الْأَخِرَةِ إِنْ هذَا إِلَّا اخْتِلَقٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۰

فلو كان ادّعاء التوحيد وترك عبادة الأصنام أمراً واقعياً لكان آباؤنا الذين كانوا بتلك العظمة والشخصية قد أدركوا ذلك، وكنّا قد سمعنا ذلك منهم، لذا فهو مجرد حديث كاذب وليست له سابقة. وعبارة «الْمِلَّةِ الْأَخِرَةِ» تشير إلى آخر الأديان قبل ظهور نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

«إختلاق»: مشتقة من «خلق» وتعنى إبداء أمر لم تكن له سابقة، والمراد فى الآية- مورد البحث- أنّ التوحيد الذى دعا إليه هذا النبى مجهول بالنسبة لنا ولآبائنا الأوّلين.

أ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) الآيات السابقة تحدثت عن المواقف السلبية التى إتّخذها المعارضون لنهج التوحيد والإسلام، ونواصل فى هذه الآيات الحديث عن مواقف المشركين، فمشركو مكة بعد ما أحسّوا أنّ مصالحهم اللامشروعة باتت فى خطر، وإثر تزايد إشتعال نيران الحقد والحسد فى قلوبهم، ومن أجل خداع الناس وإقناع أنفسهم عمدوا إلى مختلف الإدّعاءات بمنطق زائف لمحاربة رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ومنها سؤالهم بتعجب وإنكار: «أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذّكْرُ مِن بَيْنِنَا».

من البديهى أنّ أشكال التعجب والإنكار المتولّدة عن الخطأ فى «تحديد القيم» إضافة إلى الحسد وحبّ الدنيا، لا يمكن أن تكون معياراً منطقياً فى القضاء.

لهذا فإنّ تتمّة الآية تقول: إنّ مرض اولئك شىء آخر، إنّهم فى حقيقة الأمر يشكّكون فى أمر الوحى وأمر اللّه «بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّن ذِكْرِى».

ملاحظاتهم التى لا قيمة لها على شخصية الرسول ما هى إلّاأعذار واهية، وشكّهم وتردّدهم فى هذه المسألة ليس بسبب وجود إبهام فى القرآن المجيد، وإنّما بسبب أهوائهم النفسية وحبّ الدنيا وحسدهم.

وفى نهايـة الأمر فإنّ القرآن الكريم يهـدّدهم بهذه الآية: «بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ». أى إنّ هؤلاء لم يذوقوا العذاب الإلهى، ولهذا السبب تجاسروا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

ويضيف القرآن الكريم فى الردّ عليهم: هل يمتلكون خزائن الرحمة الإلهية كى يهبوا أمر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۱

النبوّة لمن يرغبون فيه، ويمنعونها عمّن لا يرغبون فيه؟ «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ».

فـاللَّه سـبحانه وتعـالى بمقتضـى كونه (ربّ) هـذا الكون ومالكه، وبارىء عالم الوجود وعالم الإنسانيـة، ينتخب لتحمل رسالته شخصاً يستطيع قيادة الامة إلى طريق التكامل والتربية.

وبمقتضـى كونه (العزيز) فإنّه لا يقع تحت تأثير الآخرين ويسـلّم مقام الرسالة إلى أشخاص غير لائقين. ولكونه (الوهّاب) فإنّه ينفذ أىّ شىء يريده، ويمنح مقام النبوّة لكل من يرى فيه القدرة على تحمّله.

ويمكن الاستفادة من كلمة (رحمة) هنا فى أنّ النبوّة إنّما هى رحمة ولطف ربّ العالمين بعالم الإنسانية.

الآيـة اللاحقـة واصـلت تنـاول نفس الموضوع، ولكن من جانب آخر، حيث قالت: «أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ».

هـذا الكلام يعـدّ مكمّلًا للبحث السابق، إذ جاء فى الآيـة السابقـة: إنّكم لا تمتلكون خزائن الرحمـة الإلهيـة، كى تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائكم، والآن تقول الآيـة التالية لها: بعد أن تبيّن أنّ هذه الخزائن تحت تصـرف البارىء عزّ وجل، إذن فليس أمامكم غير طريق واحـد، وهو أن ترتقوا إلى السـماوات لتمنعوا الوحى أن ينزل على رسول اللَّه وإنّكم تعرفون أنّ تحقيق هـذا الأمر شـىء محـال، وأنتم عاجزون عن تنفيذه.

الآيـة الأخيرة فى بحثنا جاءت بمثابة تحقير لُاولئك المغرورين السـفهاء، قال تعالى: «جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مّنَ الْأَحْزَابِ». فهؤلاء جنود قلائل مهزومون ...

«هنالك» إشارة للبعيـد، وبسبب وجودها فى الآيـة، فقـد اعتبر بعض المفسـرين أنّها إشارة إلى هزيمـة المشـركين فى معركـة بدر، التى دارت رحاها فى منطقة بعيدة بعض الشىء عن مكة المكرّمة.

وإسـتخدام كلمـة (الأحـزاب) هنـا إشارة- حسب الظاهر- إلى كل المجموعات التى وقفت ضـدّ رسل اللَّه، والـذين أبادهم البارىء عزّ وجل.

وفى ذلك اليوم لم تكن هنالك الإنتصارات فى بدر والأحزاب وحنين قد تحققت.

ولكن القرآن قال بحزم إنّ هؤلاء الأعداء- الذين هم مجموعة صغيرة من تلك المجموعات- سيهزمون فى نهاية المطاف.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۲

واليوم يبشّـر القرآن الكريم مسـلمى العـالم المحاصـرين من كل الجهات من قبل القوى المعتديـة والظالمـة بنفس البشائر التى بشّـر بها المسلمين قبل (۱۴۰۰) عام، فى أنّ اللَّه سـبحانه وتعالى سـينجز وعده فى هزيمة جند الأحزاب، إن تمسك مسـلمو اليوم بعهودهم تجاه اللَّه كما تمسّك بها المسلمون الأوائل.

كَـذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَـادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْـحَابُ الْأَيْكَـةِ أُولئِكَ الْأَحْزَابُ (۱۳) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُـلَ فَحَقَّ عِقَابِ (۱۴) وَ مَـا يَنْظُرُ هؤُلَـاءِ إِلَّا صَـيْحَةً وَاحِـدَةً مَـا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (۱۵) وَ قَـالُوا رَبَّنَـا عَجِّلْ لَنَـا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (۱۶)

تكفيهم صـيحة سـماوية واحـدة: تتمـة للآيـة الآنفـة الـذكر، التى بشّـرت بهزيمة المشـركين مستقبلًا، تناولت آيات بحثنا الحالى بعض الأحـزاب التى كـذّبت رسلها، وبيّنت المصـير الألـيم الـذى كان بإنتظارها، إذ تقول: إنّ أقوام نوح وعاد وفرعون ذى الأوتاد كانت قد كذّبت قبلهم بآيات اللَّه ورسله، «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ».

كذلك أقوام ثمود ولوط وأصحاب الأيكة- أى قوم شعيب- كانت هى الاخرى قد كذّبت رسلهم: «وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ».

فكلّ قوم من هذه الأقوام كذّب بما جاء به رسل اللَّه، وأنزل العذاب الإلهى بحقّه: «إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ».

والتاريخ بيّن كيف أنّ كل قوم من تلك الأقوام ابيد بشكل من أشكال العذاب، وكيف أنّ مدنهم تحوّلت إلى خرائب وأطلال خلال لحظات، وأصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!

فهل يتوقّع مشركو مكة أن يكون مصيرهم أفضل من مصير اولئك من جرّاء الأعمال العدائية التى يقومون بها؟ لذا فإنّ الآية التالية تخاطبهم بلغة التهديد الحازمة والقاطعة: ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إلّاصيحة سماوية واحدة تقضى عليهم وتهلكهم وما لهم من رجوع، «وَمَا يَنظُرُ هؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ».

يمكن أن تكون هذه الصيحة مماثلة للصيحات السابقة التى نزلت على الأقوام الماضية، كأن تكون صاعقة رهيبة أو زلزالًا عنيفاً يدمّر حياتهم وينهيها.

وقد تكون إشارة إلى صيحة يوم القيامة، التى عبّر عنها القرآن الكريم ب (النفخة الاولى فى الصور).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۳

«فواق»: على وزن (رواق) هو الفاصل بين كل رضعتين، إذ بعد فترة معيّنة من حلب الثدى بصورة كاملة يعود فينزل إليه اللبن من جديد. وبما أنّ الثدى يستريح قليلًا بعد كل حلبة، فكلمة (فواق) يمكن أن تعطى معنى الهدوء والراحة. وبما أنّ هذه الفاصلة من أجل عودة الحليب مرّة اخرى إلى الثدى فإنّ هذه الكلمة تعطى مفهوم العودة والرجوع.

فالصيحة الرهيبة ليس بعدها رجوع ولا راحة ولا هدوء ولا إفاقة، ففور شروعها تغلق كل الأبواب أمام الإنسان.

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى كلام آخر للكافرين حيث قالوا باستهزاء وسخرية: ربّنا عجّل علينا العذاب قبل حلول يوم الحساب، «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ».

«قِط»: على وزن (جِنّ) تعنى قطع الشىء عرضاً، فيما تعنى كلمة «قَد» وهى على نفس الوزن السابق، قطع الشىء طولًا؛ وكلمة «قط» هنا تعنى نصيباً أو سهماً.

وهذا الكلام قيل بعد نزول آيات قرآنية تؤكّد على أنّ هناك مجموعة تعطى صحائفها باليد اليمنى، ومجموعة اخرى تستسلم صحائفها باليد اليسرى.

وهنا قالت مجموعة من مشركى مكة وهى تستهزىء: ما أجمل أن تسلّم إلينا الآن صحف أعمالنا لنقرأها ونشاهد ماذا عملنا؟

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۱۷) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ (۱۸) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطَابِ (۲۰) تعلّم من داود: تتمة للبحوث السابقة التى إستعرضت فيها آيات القرآن أذى المشركين لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله ونسبتهم إليه ما لا يليق به، فإنّ القرآن الكريم لمواساة رسول اللَّه وأصحابه المؤمنين القلائل، طرح قصة داود عليه السلام. ففى البداية تقول آيات بحثنا: «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

«الأيد»: بمعنى القدرة، وتأتى أيضاً بمعنى النعمة.

وقد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه فى داود، إذ كان يتمتّع بقوّة جسدية مكّنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر رماه من مقلاعه على جالوت،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۴

فأسقطه من فرسه مضرّجاً بدمه خلال إحدى المعارك. أمّا من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قويّة ومستعدّة دائماً لمواجهة

الأعداء، بكل قوّة وإقتدار، حتى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبة الإستعداد من المساء حتى الصباح فى أطراف محراب عبادته.

ومن حيث قدرته الأخلاقية والمعنوية والعبادية، فإنّه كان يقوم معظم الليل فى عبادة اللّه، ويصوم نصف أيّام السنة.

وأمّا من حيث النعم الإلهية، فقد أنعم عليه البارىء عزّ وجل بالكثير من النعم الظاهرية والباطنية.

خلاصة الحديث، إنّ داود كان رجلًا ذا قوّة وقدرة فى الحروب والعبادات والعلم والمعرفة وفى السياسة، وكان أيضاً صاحب نعمة كبيرة «۱».

فإنّ الآيات الآنفة بعد أن تطرّقت بصورة موجزة إلى نعم اللّه على داود، تشرح أنواعاً من تلك النعم. قال تعالى: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ».

كذلك سخّرنا له مجاميع الطيور كى تسبّح اللّه معه: «وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً».

فكل الطيور والجبال مسخّرة لداود ومطيعة لأوامره، وتسبّح معه البارىء عزّ وجل، وتعود إليه، «كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ».

إنّ تسبيحها كان توأماً مع صوت ظاهرى، مرافقاً لنوع من الإدراك والشعور الذى هو فى باطن ذرّات العالم، وطبقاً لهذا الإحتمال، فإنّ كل موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل والشعور، وحينما تسمع صوت مناجاة هذا النبى الكبير تردّد معه المناجاة، ليمتزج تسبيحها مع تسبيح داود عليه السلام.

وتواصل الآية التالية إستعراض نعم اللّه على داود عليه السلام، قال تعالى: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ».

أى: ثبّتنا وأحكمنا مملكته، بحيث كان العصاة والطغاة من أعدائه يحسبون لمملكته ألف حساب لقوّتها.

وإضافة إلى هذا فقد آتيناه الحكمة والعلم والمعرفة «وَءَاتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ».

(الحكمة) هنا تعنى العلم والمعرفة وحسن تدبير امور البلاد، أو مقام النبوّة، أو جميعها.

---

(۱) «أيد»: جمع «يد»، وقد إستعملت هنا لكونها مظهر القوّة والنعمة والملك، وقد حملت كل هذه المعانى هنا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۵

وآخر نعمة إلهية انعمت على داود هى تمكّنه من القضاء والحكم بصورة صحيحة وعادلة «وَفَصْلَ الْخِطَابِ».

وهناك إحتمال آخر لتفسير هذه العبارة، وهو أنّ اللّه سبحانه وتعالى أعطى داود منطقاً قويّاً يدلّل على سمو وعمق تفكيره، ولم يكن هذا خاصّاً بالقضاء وحسب، بل فى كل أحاديثه.

وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (۲۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (۲۲) إِنَّ هذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِى فِى الْخِطَابِ (۲۳) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعاً وَ أَنَابَ (۲۴) فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵) داود والإمتحان الكبير: تتمة للآيات السابقة التى إستعرضت الصفات الخاصة بداود والنعم الإلهية التى أنزلها البارىء عزّ وجل عليه، يبيّن القرآن المجيد أحداث قضية عرضت على داود. ففى البداية يخاطب القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:

«وَهَلْ أَتيكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ».

«الخصم»: تطلق على الطرفين المتنازعين.

«تسوّروا»: مشتقة من «سور» وهو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينة؛ وتعنى هذه الكلمة فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

فرغم أنّ داود عليه السلام كان محاطاً بأعداد كبيرة من الجند والحرس، إلّاأنّ طرفى النزاع تمكّنا- من طريق غير مألوف- تسوّر جدران المحراب، والظهور أمام داود عليه السلام فجأة، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون إستئذان ومن دون إعلام مسبق، وظنّ داود عليه السلام أنّهم يكنّون له السوء: «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۶

إلّا أنّهما عمدا بسرعة إلى تطييب نفسه وإسكان روعه، وقالا له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا على الآخر؛ «قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ».

فاحكم الآن بيننا ولا تتحيّز فى حكمك وأرشدنا إلى الطريق الصحيح: «فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ».

«تشطط»: مشتقة من «شطط» على وزن (فقط)، وتعنى البعيد جدّاً، ولكون الظلم والطغيان يبعدان الإنسان كثيراً عن الحقّ، فكلمة (شطط) تعنى الإبتعاد عن الحق، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقة.

ولذلك تقدّم أحدهما وطرح المشكلة على داود، وقال: هذا أخى، يمتلك (۹۹) نعجة، وأنا لا أمتلك إلّانعجة واحدة، وإنّه يصرّ على أن أعطيه نعجتى ليضمّها إلى بقية نعاجه، وقد شدّد علىّ فى القول وأغلظ: «إِنَّ هذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ».

«النعجة»: هى الانثى من الضأن، وقد تطلق على انثى البقر الوحشى والخراف الجبلية.

«اكفلنيها»: مشتقة من «الكفالة»، وهى هنا كناية عن التخلى (ومعنى الجملة: إجعلها لى وفى ملكيتى وكفالتى، أى إمنحنى إيّاها).

«عزّنى»: مشتقة من «العزّة» وتعنى التغلّب، وبذا يكون معنى الجملة إنّه تغلّب علىّ.

وهنا التفت داود عليه السلام إلى المدّعى قبل أن يستمع كلام الآخر (كما يوضّحه ظاهر الآية) وقال: من البديهى أنّه ظلمك بطلبه ضمّ نعجتك إلى نعاجه؛ «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ».

وهذا الأمر ليس بجديد، إذ إنّ الكثير من الأصدقاء والمخالطين بعضهم لبعض يبغى على صاحبه، إلّاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم قلّة: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» (۱).

فالأشخاص الذين يراعون بصورة كاملة فى معاشرتهم وصداقتهم الطرف المقابل، ولا

---

(۱) «خلطاء»: جمع «خليط» وتعنى الأشخاص أو الأشياء المخلوطة بعضها مع بعض، كما تطلق على الصديق والشريك والجار، ورغم أنّ الظلم والإعتداء لم يختصّ بالخلطاء، إلّاأنّ ذكر هذه المجموعة بسبب وجود الإتّصالات المتكرّرة فيما بينهم، وإحتمال حدوث سوء تفاهم فيما بينهم، أو بسبب عدم توقّع حدوث أى ظلم وطغيان من قبل اولئك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۷

يعتدون عليه أدنى إعتداء ويؤدّون حقوق أصدقائهم ومعارفهم بصورة كاملة قليلون جدّاً، وهم المتزودّون بالإيمان والعمل الصالح.

على أيّة حال، فالظاهر أنّ طرفى الخصام إقتنعا بكلام داود عليه السلام وغادرا المكان.

ولكن داود غرق فى التفكير بعد مغادرتهما، رغم أنّه كان يعتقد أنّه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثانى مخالفاً لإدّعاءات الطرف الأوّل- أى المدّعى- لكان قد إعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أنّ القضية هى كما طرحها المدّعى.

ولكن آداب مجلس القضاء تفرض على داود أن يتريّث فى إصدار الأحكام ولا يتعجّل فى إصدارها، وكان عليه أن يسأل الطرف الثانى أيضاً ثم يحكم بينهما، فلذا ندم كثيراً على عمله هذا، وظنّ أنّما فتنه البارىء عزّ وجل بهذه الحادثة: «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ».

وهنا أدركته طبيعته، وهى أنّه أوّاب، إذ طلب العفو والمغفرة من ربّه وخرّ راكعاً تائباً إلى اللّه العزيز الحكيم: «فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ».

«خرّ»: مشتقة من «خرير» وتعنى سقوط شىء من علو ويسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات، كما أنّها كناية عن السجود.

و «راكعاً»: إمّا أنها تعنى السجود كما جاءت فى اللغة، أو لكون الركوع مقدمة للسجود.

فاللّه سبحانه وتعالى شمل عبده داود بلطفه وعفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، كما توضحه الآية التالية: «فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ».

وإنّ له منزلة رفيعة عند اللّه «وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَابٍ».

«زلفى»: تعنى المنزلة (والقرب عند اللّه)؛ و «حسن مآب»: إشارة إلى الجنة ونعم الآخرة.

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (۲۶) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (۲۸) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (۲۹) احكم بالعدل ولا تتبع هوى النفس: نواصل استعراض قصة داود، ونقف هنا على

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۸

أعتابها النهائية، حيث إنّ آيات بحثنا هذا هى آخر الآيات الواردة فى هذه السورة بشأن داود، إذ تخاطبه بلهجة حازمة وبعبارات مفعمة بالمعانى، شارحة له وظائفه ومسؤولياته الجسيمة بعد أن وضّحت مقامه الرفيع، إذ تقول: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ».

محتوى هذه الآية التى تتحدث عن مقام داود الرفيع والوظائف المهمّة التى كلّف بها، تبيّن أنّ القصص الخيالية والكاذبة التى نسجت بشأن زواج داود من زوجة (أوريا) كلّها كاذبة ولا أساس لها من الصحة. فهل يمكن أن ينتخب البارىء عزّ وجل شخصاً ينظر إلى شرف المؤمنين والمقربين منه بعين خؤونة ويلوّث يده بدم الأبرياء، خليفة له فى الأرض، ويمنحه حكم القضاء المطلق؟!

هذه الآية تضمّ خمس جمل كل واحدة منها تتحدث عن حقيقة معيّنة:

الاولى: خلافة داود فى الأرض.

هذه الآية تبيّن أنّ الحكومة فى الأرض يجب أن تستلهم شرعيّتها من الحكومة الإلهية، وأىّ حكومة لا تستلهم شرعيّتها من الحكومة الإلهية فإنّها حكومة ظالمة وغاصبة.

الجملة الثانية: تأمر داود قائلة: بعد أن منحك اللّه سبحانه وتعالى هذه النعمة الكبيرة، أى الخلافة، فإنّك مكلّف بأن تحكم بين الناس بالحق «فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقّ».

وفى واقع الأمر فإنّ إحدى ثمار خلافة اللّه هى ظهور حكومة تحكم بالحق.

أمّا الجملة الثالثة: فإنّها تشير إلى أهمّ خطر يهدّد الحاكم العادل، ألا وهو اتّباع هوى النفس «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى» .

نعم، فهوى النفس ستار سميك يغطّى بصيرة الإنسان، ويباعد بينه وبين العدالة.

لهذا فإنّ الجملة الرابعة تقول: «فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

فأينما وجد الضلال كان لهوى النفس ضلع فى ذلك، وأينما اتّبع هوى النفس فإنّ عاقبته الضلال.

والجملة الخامسة تشير إلى أنّ كل ضلال عن سبيل اللّه لا ينفكّ عن نسيان يوم الحساب، ومن ينسى يوم الحساب فإنّ عذاب اللّه الشديد ينتظره: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ».

وتتمّة للبحث الذى إستعرض حال داود وخلافته فى الأرض، تتطرق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود، كى تشخّص أسباب الحكومة على الأرض التى هى جزء من ذلك العالم،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۳۹

فيقول تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ».

هناك مسألة مهمّة تعدّ مصدراً لكل الحقوق، وهى: ما الهدف من وجود الخلق؟ فعندما ننظر إلى هذا العالم الوسيع، ونوافق على أنّ

هذا العالم الوسيع لم يخلقه اللّه عبثاً، نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق، الهدف الذى يمكن إيجازه فى كلمات قصيرة وعميقة، وهى (التكامل) و (التعليم) و (التربية) ومن هنا نستنتج أنّ الحكومات عليها أن تسير وفق هذا الخطّ، فعليها أن تثبت اسس التربية والتعليم لتكون أساس التكامل المعنوى عند الإنسان.

الآية التالية تضيف: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ».

كما أنّ عدم وجود هدف من خلق العالم يعدّ أمراً مستحيلًا، فمن المستحيل أيضاً المساواة بين الصالحين والطالحين، لأنّ المجموعة الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغاية النهائية، بينما كانت المجموعة الثانية تسير بإتّجاه مخالف لمسير المجموعة الاولى.

وبعبارة اخرى: فلإثبات مسألة المعاد- أحياناً- يمكن الاستدلال عليها عن طريق برهان (الحكمة) وأحياناً اخرى عن طريق برهان (العدالة)، فالآية السابقة استدلال بالحكمة، والآية التى بعدها إستدلال بالعدالة.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى موضوع يوضّح- فى حقيقة الأمر- الهدف من الخلق، إذ جاء فى الآية الكريمة: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

فتعليماته خالدة، وأوامره عميقة وأصيلة، ونظمه باعثة للحياة وهادية للإنسان إلى الطريق المؤدّى إلى إكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظيم لم يقتصر- فقط- على تلاوته وتلفّظ اللسان به، بل لكى تكون آياته منبعاً للفكر والتفكّر وسبباً ليقظة الوجدان، لتبعث بدورها الحركة فى مسير العمل.

وَ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (۳۱) فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (۳۲) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (۳۳)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۰

سليمان عليه السلام يستعرض قوّاته القتالية: هذه الآيات تواصل البحث السابق بشأن داود عليه السلام. فالآية الاولى تزفّ البشرى لداود فى أنّه سيرزق بولد صالح هو سليمان، وسيتولّى الحكم وأعباء الرسالة من بعده، وتقول: «وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

هذه الجملة تبيّن عظمة مقام سليمان، ويحتمل كونها ردّاً على الإتّهامات القبيحة والعارية من الصحّة الواردة فى التوراة المحرّفة عن ولادة سليمان من زوجة أوريّا، والتى كانت شائعة فى المجتمع قبل نزول القرآن.

الآية التالية تبدأ بقصّة خيل سليمان، التى فسّرت بأشكال مختلفة، حيث إنّ البعض فسّرها بصورة سيّئة ومعارضة لموازين العقل، إذ يقول القرآن: «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ».

«صافنات»: جمع «صافنة» وتطلق على الجياد التى تقوم على ثلاث قوائم وترفع أحد قوائمها الأمامية قليلًا ليمسّ الأرض على طرف الحافر، وهذه الحالة تخصّ الخيول الأصيلة التى هى على أهبّة الإستعداد للحركة فى أيّة لحظة.

«الجياد»: جمع «جواد» وتعنى الخيول السريعة السير، وكلمة «جياد» مشتقة فى الأصل من (جود)، والجود عند الإنسان يعنى بذل المال، وعند الخيول يعنى سرعة سيرها.

ويستشف من الآية مع القرائن المختلفة المحيطة بها، أنّه فى أحد الأيّام وعند العصر إستعرض سليمان عليه السلام خيوله الأصيلة التى كان قد أعدّها لجهاد أعدائه.

فقد جاء هذا الوصف فى القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجاً من أعماله.

ولكى يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين فى أنّ حبّه لهذه الخيول القوية ناتج من حبّه للدنيا، جاء فى قوله تعالى: «فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبّى».

إنّى احبّ هذه الخيل من أجل اللّه وتنفيذ أمره، واريد الإستفادة منها فى جهاد الأعداء.

وإستمرّ سليمان عليه السلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعدّة لجهاد أعداء اللّه، وهو يعيش حالة من السرور، حتى توارت عن أنظاره: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ».

كان هذا المشهد جميلًا ولطيفاً لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّة اخرى: «رُدُّوهَا عَلَيَّ». وعندما نفّذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السلام إلى مسح سوقها وأعناقها: «فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ».

وبهذا الشكل أشاد بجهود مدربى تلك الخيول، وأعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۱

الطبيعى لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد ووجهه ورقبته وشعر رقبته، أو يمسح على ساقه، وأبرز فى نفس الوقت تعلقه الشديد بخيله التى تساعده فى تحقيق أهدافه العليا السامية، وتعلق سليمان الشديد بخيله ليس بأمر يبعث على العجب.

«طفق»: بإصطلاح النحويين من أفعال المقاربة، وتأتى بمعنى (شرع)؛ و «سوق»: هى جمع (ساق)؛ و «أعناق»: جمع (عنق) ومعنى الآية هو أنّ سليمان شرع بمسح سوق الجياد وأعناقها.

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (۳۴) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۳۵) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (۳۶) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (۳۷) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (۳۸) هذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۳۹) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴۰) الإمتحان الصعب لسليمان وملكه الواسع: هذه الآيات تتحدث عن أحداث اخرى من قصة سليمان. القسم الأوّل من الآيات يتطرّق إلى أحد الإمتحانات التى إمتحن اللّه بها عبده سليمان، الإمتحان فى ترك العمل بالأولى، وكيف توجّه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى اللّه سبحانه وتعالى طالباً منه العفو والتوبة لتركه العمل بالأولى

الآية الاولى فى بحثنا هذا تقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ».

إنّ سليمان عليه السلام كان متزوجاً من عدّة نساء، وكان يأمل أن يُرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه فى إدارة شؤون البلاد وجهاد الأعداء، فحدّث نفسه يوماً قائلًا: لأطوفنّ على نسائى كى ارزق بعدد من الأولاد لعلّهم يساعدوننى فى تحقيق أهدافى، ولكونه غفل عن قول (إن شاء اللّه) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التى تبيّن توكّل الإنسان على اللّه سبحانه وتعالى فى كل الامور والأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميّت ناقص الخلقة جىء به والقى على كرسى سليمان عليه السلام.

سليمان عليه السلام غرق- هنا- فى تفكير عميق، وتألّم لكونه غفل عن اللّه لحظة واحدة وإعتمد على قواه الذاتية، فتاب إلى اللّه وعاد إليه.

فإنّ القرآن الكريم- من خلال الآية التالية- يكرّر الحديث بصورة مفصلة حول قضية توبة سليمان التى وردت فى آخر عبارة تضمّنتها الآية السابقة: «قَالَ رَبّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۲

مُلْكًا لَّايَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ».

إنّ سليمان طلب من البارىء عزّ وجل أن يهب له ملكاً مع معجزات خاصة، لأنّنا نعرف أنّ لكل نبى معجزة خاصة به. وهذا الأمر لا يعدّ عيباً أو نقصاً بالنسبة للأنبياء الذين يطلبون من اللّه أن يؤيّدهم بمعجزة خاصة.

الآيات التالية تبيّن موضوع إستجابة اللّه سبحانه وتعالى لطلب سليمان ومنحه ملكاً يتميّز بإمتيازات خاصة ونعم كبيرة، يمكن إيجازها فى خمسة أقسام:

۱- تسخير الرياح له بعنوان واسطة سريعة السير، كما تقول الآية: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ».

تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبة لنا، وكل ما نعرفه أنّ تلك الامور الخارقة توضع تحت تصرّف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم.

۲- النعمة الاخرى التی أنعمها الباریء عزّ وجل على عبده سليمان عليه السلام، هی تسخير الموجودات المتمردة ووضعها تحت تصرّف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التی يحتاجها «وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ». أی: إنّ مجموعة منها منشغلة فی البرّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنية، واخرى منشغلة بالغوص فی البحر.

وبهذا الشكل فإنّ اللّه وضع تحت تصرّف سليمان قوّة مستعدّة لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين- التی من طبيعتها التمرّد والعصيان- سخّرت لسليمان لتبنی له، ولتستخرج المواد الثمينة من البحر.

۳- النعمة الاخرى التی أنعمها الباریء عزّ وجل على سليمان، هی سيطرته على مجموعة من القوى التخريبيّة، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا فائدة فيه، ولا سبيل أمام سليمان سوى تكبيلهم بالسلاسل، كی يبقى المجتمع فی أمان من شرورهم، كما جاء فی القرآن المجيد «وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ».

«مقرّنين»: مشتقة من (قرن) وهی تشير إلى ربط الأيدی والأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد»: جمع «صفد» على وزن (مطر) وتعنی القيود التی تكبّل بها أيدی السجناء.

وقال البعض: إنّ عبارة «مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ» تعنی الجامعة التی تجمع بين الرقبة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۳

واليدين، وهذا المعنى قريب من معنى «مقرنين» اللغوی وأكثر مناسبة له.

۴- النعمة الرّابعة التی أنعمها اللّه سبحانه وتعالى على نبيّه سليمان هی إعطاؤه الصلاحيات الواسعة والكاملة فی توزيع العطايا والنعم على من يريد، ومنعها عمّن يريد حسب ما تقتضيه المصلحة، «هذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

عبارة «بِغَيْرِ حِسَابٍ» إمّا أن تكون إشارة إلى أنّ الباریء عزّ وجل قد أعطى لسليمان صلاحيات واسعة لن تكون مورد حساب أو مؤاخذة، وذلك لصفة العدالة التی كان يتمتّع بها سليمان فی مجال استخدام تلك الصلاحيات، أو أنّ العطاء الإلهی لسليمان كان عظيماً بحيث إنّه مهما منح منه فإنّه يبقى عظيماً وكثيراً.

۵- والنعمة الخامسة التی منّ اللّه سبحانه وتعالى بها على سليمان، هی المراتب المعنوية اللائقة التی شملته، كما ورد فی آخر آية من آيات بحثنا: «وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَابٍ».

إنّ عبارة «حُسْنَ مَابٍ» التی تبشّره بحسن العاقبة والمنزلة الرفيعة عند اللّه، هی- فی نفس الوقت- إشارة إلى زيف الادّعاءات المحرّفة التی نسبتها كتب التوراة إليه، والتی تدّعی أنّ سليمان انجرّ فی نهاية الأمر إلى عبادة الأصنام إثر زواجه من امرأة تعبد الأصنام، وعمد إلى بناء معبد للأصنام، إلّاأنّ القرآن الكريم ينفی ويدحض كل تلك البدع والخرافات.

بحث

من جملة الامور التی رسمتها قصة سليمان، ما يلی:

إنّ إمساكه بزمام امور مملكة قويّة ذات إمكانيات ماديّة واقتصادية واسعة وحضارة ساطعة لا تتنافى مع المقامات المعنوية والقيم الإلهية والإنسانية.

وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ (۴۱) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۴۴) حياة أيّوب المليئة بالحوادث والعبر: إنّ أيّوب هو ثالث نبی من أنبياء اللّه تستعرض هذه السورة (سورة ص) جوانب من حياته، وهی بذلك تدعو رسولنا الأكرم صلى الله عليه و آله إلى تذكّر هذه القصة، وحكايتها للمسلمين، كی يصبروا على المشاكل

الصعبة التى كانت تواجههم، ولا ييأسوا من لطف ورحمة اللّه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۴

اسم «أيّوب» أو قصّته وردت فى عدّة سور من سور القرآن المجيد، منها الآية (۱۶۳) فى سورة النساء، والآية (۸۴) فى سورة الأنعام، التى ذكرت إسمه فى قائمة أنبياء اللّه الآخرين، وبيّنت وأثبتت مقام نبوّته، بخلاف كتاب التوراة الحالى الذى لم يعتبره من الأنبياء، وإنّما اعتبره أحد عباد اللّه المحسنين والأثرياء وذا عيال كثيرين.

كما أنّ الآيات (۸۳ و ۸۴) فى سورة الأنبياء إستعرضت بصورة مختصرة جوانب من حياة أيّوب عليه السلام. أمّا آيات بحثنا هذه فإنّها تستعرض حياته بصورة مفصلة أكثر من أىّ سورة اخرى من خلال أربعة آيات:

فالاولى تقول: «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ».

هذه الآية تبيّن أوّلًا علوّ مقام أيّوب عند البارىء عزّ وجل، وذلك من خلال كلمة «عبدنا»، وثانياً فإنّها تشير بصورة خفيّة إلى الإبتلاءات الشديدة التى لا تطاق، وإلى الألم والعذاب الذى مسّ أيّوب عليه السلام.

ففى تفسير على بن إبراهيم نقرأ أنّ أبا بصير سأل الإمام الصادق عليه السلام عن بليّة أيّوب التى ابتلى بها فى الدنيا لأىّ علة كانت؟ قال: «لنعمة أنعم اللّه عليه بها فى الدنيا وأدّى شكرها، وكان فى ذلك الزمان لا يحجب إبليس من دون العرش فلمّا صعد ورأى شكر نعمة أيّوب حسده إبليس وقال: يا ربّ، إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلّابما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدّى إليك شكر نعمة أبداً، فسلّطنى على دنياه حتى تعلم أنّه لم يؤدّ إليك شكر نعمة أبداً».

(ولكى يوضّح البارىء عزّ وجل إخلاص أيّوب للجميع، ويجعله نموذجاً حيّاً للعالمين حتى يشكروه حين النعمة ويصبروا حين البلاء، سمح البارىء عزّ وجل للشيطان فى أن يتسلّط على دنيا أيّوب).

«فقيل له: قد سلّطتك على ماله وولده. قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالًا ولا ولداً إلّا أعطبه [أى أهلكه فازداد أيّوب شكراً للّهوحمداً. قال: فسلّطنى على زرعه، قال: قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب للّهشكراً وحمداً. فقال: يا ربّ! سلّطنى على غنمه، فسلّطه على غنمه فأهلكها فإزداد أيوب للّهشكراً وحمداً، وقال: يا ربّ سلّطنى على بدنه، فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينه، فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه، فبقى فى ذلك دهراً طويلًا يحمد اللّه ويشكره ...».

(ولكن وقعت حادثة كسرت قلبه وجرحت روحه جرحاً عميقاً، وذلك عندما زارته مجموعة من رهبان بنى إسرائيل).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۵

«... قالوا: يا أيّوب لو أخبرتنا بذنبك لعل اللّه كان يهلكنا إذا سألناه؟ وما نرى إبتلاك بهذا البلاء الذى لم يبتل به أحد إلّامن أمر كنت تستره؟ فقال أيوب: وعزّة ربّى أنّه ليعلم أنّى ما أكلت طعاماً إلّاويتيم أو ضيف يأكل معى وما عرض لى أمران كلاهما طاعة للّهإلّاأخذت بأشدهما على بدنى».

حقّاً إنّ شماتة أصحابه كانت أكثر ألماً عليه من أيّة مصيبة اخرى حلّت به، ورغم هذا لم يفقد أيوب صبره، وإنّما توجّه إلى البارىء عزّ وجل وذكر العبارة التى ذكرناها آنفاً، أى قوله تعالى: «أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ». ولكونه خرج من الإمتحان الإلهى بنتيجة جيّدة، فتح البارىء عزّ وجل- مرّة اخرى- أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمل أيوب، وأعاد عليه النعم التى إفتقدها الواحدة تلو الاخرى، لا بل أكثر مما كان يمتلك من المال والزرع والغنم والأولاد، وذلك كى يفهم الجميع العاقبة الحسنة للصبر والتحمل والشكر.

فى النهاية خرج أيّوب عليه السلام سالماً من بودقة الامتحان الإلهى، ونزول الرحمة الإلهية عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ».

«اركض»: مشتقة من «ركض» على وزن (فقر) وتعنى دكّ الأرض بالرجل، وأحياناً تأتى بمعنى الركض، وهنا تعطى المعنى الأوّل.

عين باردة لأيوب ليشرب منها ويغتسل بمائها للشفاء من كافّة الأمراض التى أصابته (الظاهرية والباطنية).

فإنّ وصف ذلك الماء بالبارد، قد يكون إشارة إلى التأثيرات الخاصة التى يتركها الماء البارد على سلامة الجسم، وذلك ما أثبته الطب الحديث اليوم.

النعمة المهمة الاولى التى اعيدت على أيوب هى العافية والشفاء والسلامة، أمّا بقية النعم التى اعيدت عليه، فاستعرضها القرآن المجيد: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

المشكلة الوحيدة التى بقيت لأيوب عليه السلام هى قسمه بضرب زوجته، إذ كان قد أقسم أيام مرضه لئن برىء من مرضه ليجلدنّ امرأته مائة جلدة أو أقل لأمر أنكره عليها، ولكن بعدما برىء من مرضه رغب أيوب فى العفو عنها إحتراماً وتقديراً لوفائها ولخدماتها التى قدّمتها إليه أيام مرضه، ولكن مسألة القسم باللَّه كانت تحول دون ذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۶

وهنا شمل البارىء عزّ وجل أيوب عليه السلام مرّة اخرى بألطافه ورحمته، وذلك عندما أوجد حلّاً لهذه المشكلة المستعصية على أيوب: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ».

«ضغث»: تعنى ملء الكفّ من الأعواد الرقيقة، كسيقان الحنطة والشعير أو الورد وما شابهها.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا- التى هى بمثابة عصارة القصة من أوّلها حتى آخرها- تقول:

«إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

فى هذه الآية أنّها أعطت ثلاثة أوصاف لأيوب، كل واحد منها إن توفّر فى أى إنسان فهو إنسان كامل.

أوّلًا: مقام عبوديته.

ثانياً: صبره وتحمله وثباته.

ثالثاً: إنابته المتكررة إلى اللَّه.

الفرج بعد الشدة نقطة اخرى تكمن فى مجريات هذه القصة، فعندما تشتدّ أمواج الحوادث والبلاء على الإنسان وتحيط به من كل جانب، عليه أن لا ييأس ويفقد الأمل، وإنّما عليه أن يدرك أنّها بداية تفتح أبواب الرحمة الإلهية عليه، كما يقول على بن أبى طالب عليه السلام فى نهج البلاغة: «عند تناهى الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء».

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَ الْأَبْصَارِ (۴۵) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (۴۷) وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (۴۸) الأنبياء الستّة: متابعة للآيات السابقة تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستّة من أنبياء اللَّه، وتوضّح بصورة مختصرة بعض صفاتهم البارزة التى يمكن أن تكون انموذجاً حيّاً لكل بنى الإنسان. ففى البداية تخاطب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

فالعبودية للَّه‌تعنى التبعية المطلقة له، وتعنى الاستسلام الكامل لإرادته، والإستعداد لتنفيذ أوامره فى كل الأحوال.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۷

العبودية للَّه‌تعنى عدم الاحتياج لغيره، وعدم التوجه لسواه، والتفكير بلطفه ورحمته فقط، هذا هو أوج تكامل الإنسان وأفضل شرف له.

ثم تضيف الآية: «أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ».

وقد وصف البارىء عزّ وجل أنبياءه بأنّهم ذوو إدراك وتشخيص وبصيرة قويّة، وذوو قوّة وقدرة كافية لإنجاز أعمالهم.

إنّهم قدوة لكل السائرين فى طريق الحق، فبعد مقام العبودية الكامل للَّه‌تعالى، تسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

وعلى هذا أنّه ليس المراد من اليد والعين أعضاء الحس التى يمتلكها غالبية الناس، وإنّما هى كناية عن صفتين هما (العلم والقدرة).

أمّا الصفة الرابعة لهم فيقول القرآن بشأنها: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ».

إنّهم يتطلّعون إلى عالم آخر، وافق نظرهم لا- ينتهى عند الحياة الدنيا ولذاتها المحدودة، بل يتطلّعون إلى ما وراءها من حياة أبدية ونعيم دائم، ولهذا يبذلون الجهد ويسعون غاية السعى لنيلها.

الصفتان الخامسة والسادسة جاءتا فى الآية التالية: «وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ».

إنّ إيمانهم وعملهم الصالح كانا السبب فى إصطفاء البارىء عزّ وجل لهم من بين الناس لأداء مهام النبوّة وحمل الرسالة.

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى مقام ثلاثة أنبياء بارزين، تشير الآية التالية، إلى ثلاثة آخرين، إذ تقول: «وَاذْكُرْ إِسْمعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ».

فكل واحد منهم كان مثالًا واسوة فى الصبر والإستقامة وطاعة أوامر البارىء عزّ وجل، خاصة «إسماعيل» الذى كان على إستعداد كامل للتضحية بروحه فى سبيل اللّه، ولهذا السبب اطلق عليه لقب (ذبيح اللّه).

وإستعراض آيات القرآن الكريم لحياة اولئك العظام ليستلهم منها رسولاللّه صلى الله عليه و آله وكل المسلمين العبر، وتبعث فيه روح التقوى والتضحية والإيثار، وتجعله فى نفس الوقت صابراً صامداً أمام المشاكل والحوادث الصعبة.

الآية (۸۶) من سورة الأنعام بيّنت أنّ (اليسع) من ذرية إبراهيم، وأنّه من الأنبياء الكبار؛

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۸

وأمّا (ذو الكفل) فهو أيضاً معروف بأنّه أحد أنبياء اللّه، وذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآية (۸۵) من سورة الأنبياء.

هذَا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (۵۰) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (۵۱) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (۵۲) هذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (۵۳) إِنَّ هذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (۵۴) هذا ما وُعد به المتّقون:

آيات هذه السورة إنتقلت بنا إلى شكل آخر من الحديث، إذ أخذت تقارن بين المتّقين والعصاة المتجبّرين، وتشرح مصير كل منهما يوم القيامة، وهى بصورة عامّة تكمل بحوث الآيات السابقة. فى البداية، وكخلاصة لشرح حال الأنبياء السابقين والنقاط المضيئة فى حياتهم، تقول الآية: «هذَا ذِكْرٌ».

لم يكن الهدف من بيان مقاطع من تاريخ اولئك الأنبياء الرائع والمثير سرد بعض القصص، وإنّما الهدف الذكر والتذكّر، كما أكّدت عليه بداية هذه السورة.

فالهدف هو إيقاظ الأفكار، ورفع المستوى العلمى، وزيادة قوّة المقاومة والصمود لدى المسلمين الذى نزلت إليهم هذه الآيات.

ثم أخرجت الامور من طابعها الخاصّ وبيان أوضاع وأحوال الأنبياء، إلى طابعها العام، لتشرح بصورة عامة مصير المتقين، إذ تقول: «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَابٍ».

بعد هذه الآية القصيرة، يعمد القرآن المجيد مجدّداً إلى اتّباع اسلوبه الخاص، وهو اسلوب الإيجاز والتفصيل، ليشرح ما فاز به المتقون: «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ».

عبارة «مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ» إشارة إلى أنّهم لا يتكلّفون حتى بفتح أبواب الجنة، إذ أنّها تنفتح بدون عناء لإستقبال أهل الجنة، إذ إنّ الجنة بإنتظارهم، وعندما تراهم تفتح لهم أبوابها وتدعوهم للدخول إليها.

ثم تبيّن الهدوء والسكينة التى تحيط بأهل الجنة، إذ تقول: «مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ».

بعد هذا تتطرّق الآيات للزوجات الصالحات فى الجنة، إذ تقول: «وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۴۹

«الطرف»: جفن العين، وأحياناً يأتى بمعنى النظر، ووصف آخر نساء الجنة بقاصرات الطرف (أى ذوات النظرات القصيرة) يشير إلى إقتصار نظرهن على أزواجهن فقط، وحبّهن وعشقهن لهم وعدم تفكيرهم بسواهم، وهذه من أفضل مزايا وحسنات الزوجات.

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى النعم السبع التى يغدقها البارىء عزّ وجل على أهل الجنة، والتى وردت فى الآيات السابقة. قال

تعالی: «هذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ».

وعدٌ لا يُخلف، ويبعث فی نفس الوقت علی النشاط لمضاعفة الجهد، نعم إنّه وعد من اللَّه العظيم.

وللتأكيد علی خلود هذه النعم، جاء فی قوله تعالی: «إِنَّ هذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ».

أی: أنّ النعم فی الجنان خالدة ولا تنفد ولا تزول كما فی الحياة الدنيا، ولا يظهر عليها أیّ نقص، لأنّ اللَّه أراد ذلک.

هذَا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (۵۶) هذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (۵۸) هـذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (۵۹) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (۶۰) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِی النَّارِ (۶۱) وهذه هی عاقبة الطغاة: الآيات السابقة إستعرضت النعم السبع وغيرها من النعم التی يغدقها الباریء عزّ وجل علی عباده المتقين، أمّا آيات بحثنا فإنّها تستخدم اسلوب المقارنة الذی كثيراً ما استخدمه القرآن الكريم، لتوضيح المصير المشؤوم والعقوبات المختلفة التی ستنال الطغاة والعاصين. قال تعالی: «هذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَابٍ».

ثم تعمد آيات القرآن المجيد إلی الاستفادة من اسلوب الإيجاز والتفصيل، إذ تقول:

«جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ». أی إنّ جهنم هی المكان المشؤوم الذی سيردونه، وإنّهم سيحترقون بنيرانها، فيا لها من فراش سیء.

«مهاد»: تعنی الفراش، وهو مكان إستراحة، ويجب أن يكون مناسباً- فی كل الأحوال- لوضع الشخص وملائماً لرغبته، ولكن كيف سيكون حال الذين خصّصت لهم نار جهنم فراشاً؟!

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۰

مختصر الامثل ج ۴ ۲۸۰

ثم تتطرّق الآيات إلی أنواع اخری من العذاب الإلهی، إذ تقول: «هـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ». أی يجب عليهم أن يشربوا الحميم والغسّاق.

«الحميم»: هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، والذی هو أحد أنواع أشربة أهل جهنم.

و «غسّاق»: من «غسق» علی وزن (رمق) وتعنی شدّة ظلمات الليل.

وقال الراغب فی مفرداته: إنّ (غسّاق) تعنی القيح الذی يسيل من جلود أهل جهنم ومن الجراحات الموجودة فی أجسامهم.

آيات بحثنا تشير مرّة اخری إلی نوع آخر من أنواع العذاب الأليم: «وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ». أی أنّ هناک عذاب آخر غير ذلک العذاب.

«أزواج»: تعنی الأنواع والأقسام، وهذه إشارة موجزة إلی أنواع اخری من العذاب لا تختلف عن أنواع العذاب السابقة، ولكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها وقد لا يستطيع أحد فی هذه الدنيا فهمها وإدراكها.

وآخر عذاب لهم أنّ جلساءهم فی جهنم ذوو ألسنة بذيئة لا تنطق إلّابالقبيح من الكلام، فعندما يرد رؤساء الضلال النار، ويرون بأعينهم تابعيهم يساقون نحو جهنم يخاطب بعضهم البعض ويقول له: «هذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ».

فيجيبونهم: «لَامَرْحَبًا بِهِمْ».

ثم يضيفون: «إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ».

«مقتحم»: من «إقتحام» وتعنی الدخول فی شیء بمشقّة وبصعوبة وخوف، وغالباً ما تعطی معنی الدخول فی شیء من دون أی إطلاع وعلم مسبق.

وتوضّح هذه العبارة أنّ متّبعی سبيل الضلال يردون نار جهنم الرهيبة نتيجة تركهم البحث والتفكير، واتّباعهم لأهوائهم، إضافة إلی تقليدهم الأعمی لآبائهم الأوّلين.

فإنّ الصوت يصل إلی مسامع الأتباع الذين يغضبون من كلام أئمّة الضلال، ويلتفتون إليهم قائلين: «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ

قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ».

وأراد الأتباع من جوابهم القول: بأنّ من حسن الحظّ أنّكم (أى أئمّة الضلال والشرك) مشتركون معنا فى هذا الأمر. وهذا يشفى غليل قلوبنا (وكأنّهم شامتون بأئمّتهم).

لكن الأتباع لا يكتفون بهذا المقدار من الكلام، لأنّ أئمة الضلال هم الذين كانوا السبب المباشر لإرتكابهم الذنوب، ولذا فإنّهم يعتبرونهم أصحاب الجريمة الحقيقيين، وهنا يلتفتون

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۱

إلى البارىء عزّ وجل قائلين: «قالُوا رَبَّنا مَن قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِى النّارِ».

العذاب الأوّل لأنّهم أضلّوا أنفسهم، والثانى لأنّهم أضلّونا.

هذه هى نهاية كل من عقد الصداقة مع المنحرفين وبايعهم على السير فى طرق الضلال والإنحراف، فإنّهم عندما يرون نتائج أعمالهم الوخيمة يلعن بعضهم بعضاً ويتخاصمون فيما بينهم.

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات التى تذكر النعم التى يغدقها البارىء عزّ وجل على المتّقين كانت أكثر تنوّعاً من الآيات التى إستعرضت عذاب الطغاة المتجبّرين، إذ أشارت آيات القسم الأوّل إلى سبع نعم، بينما أشارت آيات القسم الثانى إلى خمسة أنواع من العذاب، يحتمل أن يكون السبب هو سبق رحمة اللّه لغضبه، «يامن سبقت رحمتُه غضبَه».

وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (۶۲) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (۶۳) إِنَّ ذلِکَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (۶۴) تخاصم أهل النار: آيات بحثنا تواصل إستعراض الجدال الدائر بين أهل جهنم. تقول اولى تلك الآيات: «وَقالُوا ما لَنا لانَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرارِ».

فعندما يبحث أفراد اتّبعوا أئمّة الضلال، أمثال أبى جهل وأبى لهب، عن أشخاص آخرين مثل عمّار بن ياسر وخباب وصهيب وبلال، فى نار جهنم يرجعون إلى ذاتهم متسائلين، ويستفسرون من الآخرين: أين اولئك الأشخاص؟

وتضيف الآيات نقلًا عن أهل جهنم: «أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ».

إنّنا كنّا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوى المقام الرفيع، ونعتبرهم اناساً حقراء لا يستحقّون أن ننظر إليهم، ولكن اتّضح لنا الآن أنّ جهلنا وغرورنا وأهواءنا هى التى أسدلت على أعيننا ستائر حجبت الحقيقة عنّا، فهؤلاء كانوا من المقربين للّهومكانهم الآن فى الجنة.

ومن الضرورى الإلتفات إلى أنّ أحد أسباب عدم إدراك الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجدّ، إضافة إلى الإستهزاء بها، إذ يجب على الدوام مناقشة الحقائق بشكل جدّى للوصول إليها.

ثم تخرج الآية الأخيرة بالنتيجة التى تمخّض عنها الجدال بين أهل جهنم، وتؤكد على ما مضى بالقول: «إِنَّ ذلِکَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۲

فأهل جهنم مبتلون فى هذه الدنيا بالخصام والنزاع والحروب. فالنزاع والجدال يتحكّم بهم، وفى كل يوم يتخاصمون مع هذا وذاك.

وفى يوم القيامة، ذلك اليوم الذى تبرز فيه الأسرار وما تخفيه الصدور، تراهم يتنازعون فيما بينهم فى جهنم.

الجدير بالذكر أنّ أهل الجنة متكئون على الأسرّة، ويتحدثون فيما بينهم بكلام ملؤه المحبة والصدق، كما ورد فى آيات مختلفة من آيات القرآن الحكيم، بينما تجد أهل النار يعيشون حالة من الصراع والجدال، إذن فتلك نعمة كبيرة، وهذا عذاب أليم.

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۶۵) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) ما كانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰) إنما أنا نذير: البحوث السابقة كانت تحمل طابع إنذار وتهديد للمشركين والعاصين والظالمين، أمّا آيات بحثنا فتتابع ذلك البحث، إذ جاء فى اولى

آياتها: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ».

صحيح أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله مبشّر أيضاً، ولكن بما أنّ البشرى تخصّ المؤمنين فإنّ الإنذار يخصّ المشركين والمفسدين، والحديث هنا يخصّ المجموعة الأخيرة، وإعتمد فيه على الإنذار.

ثم يضيف: «وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

كلمة (القهّار) وردت في هذه العبارة، كي لا يغترّ أحد بلطف اللّه، ويظنّ أنّه يعيش في مأمن من قهر اللّه، ولكي لا يغرق في مستنقع الكفر وإرتكاب الذنب.

وتطرح دلائل توحيد الخالق جلّ وعلا في الالوهية والعبودية بشكل مباشر، وتضيف:

«رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ».

في الواقع هناك ثلاث صفات من صفات البارىء عزّ وجل ذكرت في هذه الآية، وكل واحدة منها جاءت لإثبات مفهوم ما. الاولى: «ربوبيته» لعالم الوجود، ومالكيته لكل هذا العالم، المالك المدبّر لشؤون عالم الوجود.

والصفة الثانية والثالثة وصف البارىء عزّ وجل ب (العزيز) و (الغفّار) وهو دليل آخر على

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۳

توحّده تعالى في الالوهية، لأنّه الوحيد الذي يستحق العبادة والطاعة، وإضافة إلى ربوبيته فإنّه يمتلك القدرة على المعاقبة، وإضافةً إلى إمتلاكه للقدرة على المعاقبة، فإنّ أبواب رحمته ومغفرته مفتوحة للجميع.

ثم يخاطب البارىء عزّ وجل نبيّه الأكرم في عبارة قصيرة وقويّة: «قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ».

ثم تقول الآية، مقدمةً لسرد قصة خلق آدم، والمكانة الرفيعة التي يحتلّها الإنسان الذي سجدت له كافّة الملائكة: «مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

أي: لا علم لي بالمناقشات التي دارت بين الملأ الأعلى وملائكة العالم العلوي بخصوص خلق الإنسان، حيث إنّ العلم يأتيني عن طريق الوحي، والشيء الوحيد الذي يوحى إليّ هو أنّني نذير مبين: «إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ورغم أنّ الملائكة لم تناقش وتجادل البارىء عزّ وجل، ولكنّهم قالوا عندما أخبرهم البارىء عزّ وجل بأنّه سيجعل في الأرض خليفة، فقالوا: أتخلق فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟

مثل هذا النقاش أطلق عليه اسم (التخاصم) وهي تسمية مجازية.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (۷۱) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (۷۲) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (۷۴) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (۷۵) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (۷۶) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (۷۸) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۷۹) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۸۰) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۸۱) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۲) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۸۳) تكبّر الشيطان وطرده من رحمة اللّه: هذه الآيات توضيح لإختصام (الملأ الأعلى) و (إبليس) وبحث حول مسألة خلق آدم عليه السلام. الآية الاولى تذكّر بإخبار اللّه عزّ وجل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۴

ملائكته بأنّه سيخلق بشراً من الطين: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ».

ولكي لا- يتصور البعض أنّ أصل خلق الإنسان هو ذلك الطين وحسب، أضافت الآية التالية: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

وبهذا الشكل إنتهت عملية خلق الإنسان، وذلك بعد إمتزاج روح البارىء عزّ وجل الطاهرة مع التراب. فخُلق موجود عجيب لم يسبق

له مثيل، ولم توضع لرقيّه وإنحطاطه أيّة حدود. الموجود الذى زوّده البارىء عزّ وجل بإستعدادات خارقة تجعله لائقاً لخلافة اللّه، والذى سجدت له الملائكة بأجمعها فور إكتمال عملية خلقه: «فَسَجَدَ الْمَلِئكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ».

إلّا أنّ إبليس كان الوحيد الذى أبى أن يسجد لآدم لتكبره وتمرده وطغيانه، ولهذا السبب أنزل من مقامه الرفيع إلى صفوف الكافرين: «إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

نعم، فالتكبر والغرور من أقبح الامور التى يبتلى بها الإنسان، ويحرماه من إدراك الحقائق وفهمها، ويؤدّيان به إلى التمرد والعصيان، ويخرجانه أيضاً من صفوف المؤمنين المطيعين للّهإلى صفّ الكافرين الباغين والطاغين، ذلك الصفّ الذى يترأسه إبليس ويقف فى مقدّمته.

وهنا إستجوب البارىء عزّ وجل إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ».

وبما أنّ البارىء عزّ وجل منزّه عن كافّة أشكال الجسم والتجسيم، فعبارة (يدى) هنا كناية عن القدرة، ومن الطبيعى أنّ الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل.

ثم تضيف الآية: «أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ». أى أكان عدم سجودك لأنّك استكبرت، أم كنت من الذين يعلو قدرهم عن أن يؤمروا بالسجود؟!

ومن دون أى شك فإنّه لا أحد يستطيع أن يدّعى أنّ قدرته ومنزلته أكبر من أن يسجد للّه (أو لآدم بأمر من اللّه).

إلّا أنّ إبليس إختار- بكل تعجب- الشقّ الثانى، وكان يعتقد بأنّه أعلى من أن يؤمر بذلك، لذلك قال- بكل وقاحة- أثناء تبيانه أسباب معارضته لأوامر البارىء عزّ وجل:

«قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۵

وخطأ إبليس أنّ النار أشرف من التراب، ولا يحقّ لأحد أن يأمر مخلوقاً بالسجود لمخلوق آخر دنى منه.

ولكن أوّلًا: إنّ آدم لم يكن تراباً فقط، وإنّما نفخت فيه الروح الإلهية، وهذا هو سبب عظمته.

ثانياً: التراب ليس بأدنى من النار، وإنّما هو أفضل منها بكثير، لأنّ كل الحياة أصلها من التراب، فالنباتات وكل الموجودات الحية بأجمعها تستمدّ غذاءها ومصدر حياتها من التراب.

والنار إنّما يستفاد منها فى الوسائل الترابية، وقد تكون أداة خطرة ومدمّرة.

ولو أمعنا النظر فى أدلّة إبليس لرأينا فيها كفراً عجيباً، لأنه بكلامه أراد نفى حكمة اللّه، والتقليل من شأن أوامره (نعوذ باللّه).

وهنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملأ الأعلى وملائكة العالم العلوى، فخاطبه البارىء عزّ وجل بالقول: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ».

فهذا المكان مكان الطاهرين والمقربين، وليس بمكان المذنبين والعاصين ذوى القلوب المظلمة.

«رجيم»: من «رجم»، وبما أنّ لازمها الطرد، فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثم أضاف البارىء عزّ وجل: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ».

المهم أنّ الإنسان عندما يرى النتائج الوخيمة لأعماله السيّئة عليه أن يستيقظ من غفلته، وأن يفكّر فى كيفية إصلاح ذلك الخطأ، ولا شىء أخطر من بقاءه راكباً لموج الغرور واللجاجة واستمراره فى السير نحو حافّة الهاوية، لأنّه فى كل لحظة يبتعد أكثر عن الصراط المستقيم، وهذا هو نفس المصير المشؤوم الذى وصل إليه إبليس.

وهنا تحوّل (الحسد) إلى (عداء)، كما قال القرآن: «قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

إنّه طلب من البارىء عزّ وجل أن يمهله إلى يوم يبعثون كى ينتقم من أبناء آدم عليه السلام ويدفعهم جميعاً إلى طريق الضلال.

وفى الحقيقة، إنّه كان يريد الإستمرار فى إغواء بنى آدم حتى آخر فرصة متاحة له، لأنّ فى يوم البعث تسقط التكاليف عن الإنسان، ولا معنى هناك للوساوس والإغواءات، إضافةً إلى هذا فقد طلب من اللّه عزّ وجل أن يبقيه حيّاً إلى يوم القيامة، رغم أنّ كل الموجودين فى العالم يموتون فى هذه الدنيا.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۶

وهنا إقتضت مشيئة اللّه سبحانه- بدلائل سنشير إليها- أن يستجيب اللّه لطلب إبليس، ولكن هذه الإستجابة كانت مشروطة وليست مطلقة، كما توضّحه الآية التالية: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

ولكن ليس إلى يوم البعث الذى تبعث فيه الخلائق، وإنّما إلى زمان معلوم. قال تعالى:

«إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

وهذا إشارة إلى يوم نهاية العالم، لأنّ كل الموجودات الحيّة فى ذلك اليوم تموت، وتبقى ذات اللّه المقدسة فقط، كما ورد فى الآية (۸۸) من سورة القصص: «كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

هنا كشف إبليس عما كان يضمره فى داخله، وعن الهدف الحقيقى لطلبه البقاء خالداً إلى زمن معيّن إذ: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

القسم بالعزّة تبيّن أنّه مصمّم بصورة جديّة على المضى فى عمله، وأنّه سيبقى إلى آخر لحظة من عمره ثابتاً على عهده بإغواء بنى آدم.

وبعد قسمه إنتبه إبليس إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هناك مجموعة من عباد اللّه المخلصين لا يمكن كسبهم بأى طريقة إلى داخل منطقة نفوذه، لذلك اعترف بعجزه فى كسب اولئك فقال:

«إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ».

اولئك الذين يسيرون فى طريق المعرفة والعبودية لك بصدق وإخلاص وصفاء، إنّك دعوتهم إليك، وأخلصتهم لك، وجعلتهم فى منطقة أمنك.

سؤال: لماذا تمّت البارىء عزّ وجل الموافقة على طلب إبليس فى البقاء حيّاً؟

فى الجواب نقول: إنّ عالم الدنيا هذا هو ساحة للإختبار والإمتحان (الإختبار الذى هو وسيلة لتربية وتكامل الإنسان) وكما هو معروف فإنّ الاختبار لا يتمّ من دون مواجهة عدو شرس ومجابهة مختلف أنواع الأعاصير والمشاكل.

وبالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإنّ هوى النفس ووساوسها هى التى تضع الإنسان فى بودقة الإختبار، ولكن حرارة هذه البودقة تزداد بوجود الشيطان، لأنّ الشيطان سيكون فى هذه الحالة العامل الخارجى المؤثّر على الإنسان، وهوى النفس والوساوس ستكون العامل الداخلى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۷

قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۵) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸) آخر حديث بشأن إبليس: آيات بحثنا هى آخر آيات سورة (ص)، وهى خلاصة لكل محتوى هذه السورة، ونتيجة للأبحاث المختلفة التى تناولتها السورة.

فى البداية ردّاً على تهديد إبليس فى إغواء كل بنى آدم عدا المخلصين منهم، يجيبه البارىء عزّ وجل بالقول: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ». أقسم بالحق، ولا أقول إلّاالحق: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ».

فما ورد فى بداية السورة إلى هنا حق، والذى ورد بشأن أحوال الأنبياء الكبار فى هذه السورة بسبب حروبهم وجهادهم حقّ، والحديث فى هذه السورة عن القيامة والعذاب الأليم الذى سينزل بالطغاة والنعم التى سيغدقها البارىء عزّ وجل على أهل الجنة حقّ، ونهاية السورة حقّ، واللّه سبحانه يقسم بالحق ويقول الحق بأنّه سيملأ جهنم بالشيطان وأتباعه.

إنّ هاتين الجملتين تشتملان على الكثير من التأكيد، لكي لا يبقى لأحد أدنى شک وترديد بهذا الشأن، إذ لا سبيل لنجاة الشيطان وأتباعه، والاستمرار بالسير على خطاه يؤدّى إلى جهنم.

وفى نهاية هذا البحث يشير البارىء عزّ وجل إلى أربعة امور:

ففى المرحلة الاولى يقول: «قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

إنّما أجرى على اللَّه، كما ذكرت ذلك آيات اخرى فى القرآن المجيد كالآية (۴۷) من سورة سبأ، والتى تقول: «إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

وهذه هى إحدى دلائل صدق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

وفى المرحلة الثانية يقول: أنا لست من المتكلّفين، فكلامى مستند على الأدلّة والمنطق، ولا يوجد فيه أى تكلّف، وعباراتى واضحة وكلامى خالٍ من الغموض واللفّ والدوران «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۸

أمّا المرحلة الثالثة فتبيّن الهدف الأصلى من هذه الدعوة الكبيرة من نزول هذا الكتاب السماوى «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

المهمّ هو أن يوقظ الناس من غفلتهم ويجعلهم يتعمّقون فى التفكير.

هذه العبارة تبيّن أنّ محتوى دعوة الأنبياء فى كل المراحل يتناسب مع الفطرة التى فطرنا عليها البارىء عزّ وجل.

وأمّا فى المرحلة الرابعة، فإنّه يهدّد المعارضين والمخالفين بعبارة قصيرة غزيرة المعنى:

«وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُو بَعْدَ حِينٍ».

يقول: من الممكن أن لا تأخذوا هذا الكلام مأخذ الجدّ، إلّاأنّه سيثبت لكم عاجلًا صدق كلامى، سيثبت فى هذا العالم فى ساحات قتال الإسلام ضدّ الكفر، وفى ساحات العمل الاجتماعى والفكرى، وفى العالم الآخر بواسطة العذاب الإلهى الأليم الذى ستعذّبون به.

«إنتهت تفسير سورة ص»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۵۹

۳۹. سورة الزمر

محتوى السورة: إنّ هذه السورة تضمّ عدّة أقسام مهمة:

۱- تتطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد اللَّه.

۲- الأمر المهم الآخر الذى تكرر فى عدّة آيات فى هذه السورة من بدايتها حتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) والمحكمة الإلهية الكبرى، ومسألة الثواب والعقاب، وغرف الجنة، وكور النار فى جهنم، ومسألة الخوف والرهبة من يوم القيامة، وظهور نتائج الأعمال فى ذلك اليوم، وتجسّدها فى ذلك المشهد الكبير، وهذه الامور التى تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير وكأنّها تشكّل معها نسيجاً واحداً.

۳- قسم آخر من السورة يتناول أهمية القرآن المجيد، وتأثيره القوى على القلوب والأرواح.

۴- قسم آخر أيضاً يبيّن مصير الأقوام السابقين والعذاب الإلهى الأليم الذى نزل بهم من جرّاء تكذيبهم لآيات اللَّه تعالى.

۵- وقسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، وكون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب فى العودة إلى اللَّه.

هذه السورة معروفة باسم سورة (الزمر) وهذا الاسم مأخوذ من الآيتين (۷۱) و (۷۳) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۰

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع اللَّه رجاه، وأعطاه ثواب

الخائفين الذين خافو اللّه تعالى».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الزمر أستخفها من لسانه أعطاه اللّه من شرف الدنيا والآخرة، وأعزه بلا مال ولا عشيرة، حتى يهابه من يراه وحرّم جسده على النار وبنى له فى الجنة ألف مدينة».

مقارنة فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها، يوضّح أنّ هذه المكافآت إنّما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكر والتفكر مقدمة للإيمان والعمل.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۲) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (۳) عليك الإخلاص فى الدين: هذه السورة تبدأ بآيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد:

الأولى تقول: إنّ اللّه هو الذى أنزل القرآن، و الثانية: تبيّن محتوى وأهداف القرآن.

فى البداية تقول: «تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

من الطبيعى أنّ كل كتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، وعندما ندرك أنّ هذا الكتاب السماوى الكبير مستلهم من علم اللّه القادر والحكيم، الذى لا- يقف أمام قدرته المطلقة شيء، ولا- يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنّا بلا عناء أنّ محتوياته حق وكلها حكمة ونور وهداية.

ثم تنتقل السورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوى وأهدافه: «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ».

ولكون هدف نزول القرآن يتحدد فى إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإنّ آخر الآية يقول: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدّينَ».

إنّ (الدين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويجب على عباد اللّه المخلصين أن يخلصوا كل حياتهم للّه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۱

الآية التالية تؤكّد مرّة اخرى على مسألة الإخلاص، وتقول: «أَلَا لِلَّهِ الدّينُ الْخَالِصُ».

وهذه العبارة ذات معنيين:

الأوّل: هو أنّ البارىء عزّ وجل لا يقبل سوى الدين الخالص، والاستسلام الكامل له من دون أىّ قيد أو شرط.

والثانى: هو أنّ الدين والشريعة الخالصة يجب أخذها من اللّه فقط، لأنّ أفكار الإنسان ناقصة وممزوجة بالأخطاء والأوهام.

إنّ هذه الآية فى الواقع استدلال للآية التى جاءت قبلها، فهناك تقول: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدّينُ». وهنا تقول: «أَلَا لِلَّهِ الدّينُ الْخَالِصُ».

ثم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهى الضعيف للمشركين الذين تركوا طريق الإخلاص، وضاعوا فى طرق الشرك والإنحراف: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وهنا سيتّضح للجميع فساد أفكارهم وأعمالهم وبطلان عقائدهم ..

هذه الآية هى تهديد قاطع للمشركين فى أنّ البارىء عزّ وجل سيحاكمهم فى يوم القيامة، اليوم الذى تنكشف فيه الإلتباسات وتظهر فيه الحقائق، ليجزوا ويعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرّمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع فى ساحة المحشر.

والقرآن المجيد يؤكّد بصورة خاصة على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل باللّه من دون أىّ واسطة، وأن يتحدث معه ويناجيه ويطلب منه حاجته.

وبهذا الشكل فالبارىء عزّ وجل ليس ببعيد عنّا، ولسنا بعيدين عنه كى تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كل قريب، وموجود فى كل مكان وفى أعماق قلوبنا.

وفقاً لهذا فإنّ عبادة الوسطاء من الملائكة والجن ونظائرهم، أو الأصنام الحجرية والخشبية، عمل باطل لا صحّة له، إضافة إلى أنّه يعدّ

كفراً بنعمة اللّه، لأنّ الذى يهب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ».

لأنّه أوصد بكلتا يديه أبواب الهداية أمامه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۲

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۴) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۵) ما حاجة اللّه إلى الأولاد: المشركون إضافة إلى أنّهم يعتبرون الأصنام وسيطاً وشفيعاً لهم عند اللّه- كما استعرضت ذلك الآيات السابقة- فقد اعتقدوا- أيضاً- أنّ بعض المخلوقات- كالملائكة- هى بنات اللّه، والآية الاولى فى بحثنا تجيب على هذا الإعتقاد الخاطىء والتصور القبيح بالقول: «لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

والأفضل هو القول بأنّ الآية تريد القول: إنّ الإبن مطلوب إمّا لتقديم العون أو لمؤانسة الروح، وبفرض المحال فإنّ اللّه عزّ وجل لو كان محتاجاً لمثل هذا الأمر، لاصطفى لهذا بعضاً ممّن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولداً؟

ولكن لكونه الواحد الذى لا نظير له والقاهر والغالب لكل شىء والأزلى والأبدى، فإنّه لا يحتاج إلى مساعدة أىّ أحد، ولا يستوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الانس مع الآخرين، لهذا فهو منزّه ومقدس عن الولد، حقيقياً كان أو منتخباً.

ولإثبات حقيقة أنّ اللّه لا يحتاج إلى مخلوقاته، ولبيان دلائل توحيده وعظمته، يقول البارىء عزّ وجل: «خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ».

كون تلك الامور حقّاً دليل على وجود هدف كبير من وراء خلقها، وذلك لتكامل المخلوقات وفى مقدّمتها الإنسان، ثم لا تنتهى عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآية إلى جوانب من تدبيره العجيب، والتغيّرات التى تطرأ بحسابات دقيقة، والأنظمة الدقيقة أيضاً التى تحكم اولئك، إذ يقول القرآن المجيد:

«يُكَوّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ».

من هذه الآية يتجلّى لنا أنّ الأرض كروية وتدور حول نفسها، ومن جرّاء هذا الدوران، يطوق الأرض دائماً شريطان، أحدهما سواد الليل، والثانى بياض النهار، ولا يبقى هذان الشريطان ثابتين، وإنّما يغطى الشريط الأسود الأبيض من جهة والشريط الأبيض يغطى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۳

الأسود من جهة اخرى، أثناء حركة الأرض حول نفسها.

فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهرة الليل والنهار و (النور) و (الظّلمات) فى عدّة آيات مختلفة، كل واحدة منها تشير إلى نقطة معيّنة، وتنظر إلى هذه الظاهرة من زاوية خاصة.

ثم تنتقل إلى جانب آخر، ألا وهو التدبير والنظام الدقيق المسيّر لشؤون هذا العالم. قال تعالى: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

فلا يظهر فى حركة الشمس التى تدور حول نفسها، أو التى تتحرك مع بقيّة كواكب المجموعة الشمسية نحو نقطة خاصة فى مجرة درب التبانة، أدنى خلل، فهى تتحرك وفق نظام خاص ودقيق جدّاً، ولا يظهر أىّ خلل فى حركة القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه، فالكل يخضع لقوانين (الخالق) ويتحرك وفقها، وسيستمر فى التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

نهاية الآية كانت بمثابة تهديد وترغيب للمشركين، إذ تقول: «أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ».

فبحكم عزّته وقدرته المطلقة لا يمكن لأىّمذنب ومشرك أن يهرب من قبضة عذابه، وبمقتضى كونه الغفار، فإنّه يستر عيوب وذنوب التائبين، ويظللهم بظل رحمته.

«غفار»: صيغة مبالغة مشتقة من المصدر «غفران» وتعنى فى الأصل لبس الإنسان لشىء يقيه من التلوّث، وعندما تستخدم بشأن البارىء عزّ وجل فإنّها تعنى ستره لعيوب وذنوب عباده النادمين وحفظهم من عذابه وجزائه.

والهدف من ذكر هاتين الصفتين فى آخر الآية، هو إيجاد حالة من «الخوف» و «الرجاء» عند العباد، وهما عاملان رئيسيان وراء كل تحرك نحو الكمال.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۶) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۷) الجميع مخلوقون من نفس واحدة: مرّة اخرى تستعرض آيات القرآن الكريم عظمة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۴

خلق اللَّه، وتبيّن فى نفس الوقت بعض النعم الاخرى التى منّ بها اللَّه سبحانه وتعالى على الإنسان. فى البداية تتحدث عن خلق الإنسان وتقول: «خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا».

خلق كل بنى آدم من نفس واحدة إشارة إلى مسألة خلق آدم أبى البشر، إذ إنّ كل البشر وبتنوع خلقتهم وأخلاقهم وطبائعهم وإستعداداتهم وأذواقهم المختلفة يعودون فى الأصل إلى آدم عليه السلام.

وعبارة: «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» إشارة إلى أنّ اللَّه خلق آدم فى البداية، ثم خلق حواء ممّا تبقى من طينته التى خلق منها، وذلك كما ورد فى الرّوايات الإسلامية.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسألة خلق أربعة أنواع من الأنعام تؤمّن للإنسان ضروريات الحياة، حيث يستفيد من جلودها لملابسه، ومن حليبها ولحمها لغذائه، ومن جهة اخرى يصنع من جلودها وأصوافها عدّة امور يستفيد منها فى حياته، ومن جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتنقّله وحمل أثقاله: «وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ».

والمقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر والانثى لكل من الإبل والبقر والضأن والمعز.

وعبارة «أَنْزَلَ لَكُمْ» والتى تخص هنا الأنعام الأربعة- كما بيّنا ذلك من قبل- لا تعنى فقط إنزال الشىء من مكان عال، وإنّما فى مثل هذه الحالات تعنى (تدنّى المقام) والنعم من مقام أعلى إلى أدنى.

ثم تتطرّق الآيات إلى حلقة اخرى من حلقات خلق اللَّه، وهى عملية نمو الجنين، إذ تقول الآية: «يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلٰثٍ».

«يخلقكم»: فعل مضارع يعطى معنى الاستمرارية، وهو هنا بمثابة إشارة إلى التحولات العجيبة والصور المختلفة التى تطرأ على الجنين فى مراحل وجوده المختلفة فى بطن الام.

وقوله «ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ» إشارة إلى ظلمة بطن الامّ وظلمة الرحم وظلمة المشيمة (الكيس الخاص الذى يستقر فيه الجنين) التى هى ثلاثة أغلفة سميكة تغطّى الجنين.

الإمام الحسين عليه السلام- فى دعائه المعروف بدعاء عرفه الذى يعدّ دورة دراسية كاملة وعالية فى التوحيد- عند استعراضه للنعم التى منّ بها البارىء عزّ وجل عليه يقول:

«وابتدعت خلقى من منى يمنى، ثم أسكنتنى فى ظلمات ثلاث: بين لحم وجلد ودم لم تشهدنى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۵

خلقى، ولم تجعل إلىّ من أمرى ثم أخرجتنى للذى سبق لى من الهدى إلى الدنيا تامّاً سويّاً».

وفى نهاية الآية، بعد ذكر الحلقات التوحيدية الثلاث الخاصة بخلق الإنسان والأنعام ومراحل خلق الجنين، يقول البارىء عزّ وجل:

«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكَ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ».

فأحياناً يصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحيدية العظيمة إلى مقام الشهود، ثم أشار تعالى إلى ذاته القدسية حيث يقول: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ».

عبارتى «ربّكم» و «له الملك» تدلان على حصر الربوبية بذاته الطاهرة المقدسة، والذى اتّضح بصورة جيّدة فى عبارة: «لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذكر هذه النعم الكبيرة التى منّ بها البارىء عزّ وجل على عباده، تتطرق الآية التالية إلى مسألة الشكر والكفر، وتناقش جوانب من هذه المسألة. فى البداية تقول: «إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ». أى إن تكفروا أو تشكروا فإنّ نتائجه تعود عليكم، واللَّه غنى عنكم فى حال كفركم وشكركم.

ثم تضيف، إنّ غناه وعدم احتياجه لا يمنعان من أن تشكروا وتتجنبوا الكفر، لأنّ التكليف إنّما هو لطف ونعمة إلهية. قال تعالى: «وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ».

وبعد استعراض هاتين النقطتين تستعرض الآية نقطة ثالثة وهى تحمل الشخص مسؤولية أعماله، لأنّ قضية التكليف لا يكتمل معناها بدون هذا الأمر. قال تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

ولأنّه لا- معنى للتكليف إن لم يكن هناك عقاب وثواب، فالآية تشير فى المرحلة الرابعة إلى قضية المعاد، وتقول: «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ولكون مسألة الحساب والعقاب لا يمكن أن تتمّ ما لم يكن هناك إطلاع وعلم كاملين بالأسرار الخفية للإنسان، تختتم الآية بالقول: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

بهذا الشكل، ومن خلال جمل قصار، استعرضت فلسفة التكليف وخصوصياته ومسؤولية الإنسان ومسألة العقاب والثواب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۶

وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (۸) أَمْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَ قَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (۹) الآيات السابقة تحدثت بالأدلة والبراهين عن توحيد ومعرفةالبارىء عزّ وجل، وذلك من خلال عرض بعض الظواهر العظيمة له فى الآفاق والأنفس، أمّا آيات بحثنا فتتحدث فى البداية عن التوحيد الفطرى وتوضّح أنّ ما يدركه الإنسان عن طريق العقل أو الفهم أو المطالعة فى شؤون الخلق موجود بصورة فطرية فى أعماقه، وأنّه يظهر أثناء المشاكل وأعاصير الحوادث التى تعصف به. تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ». ونادماً من ذنوبه وغفلته.

وعندما يمنّ اللَّه على الإنسان بالنعم ينسى المشاكل والإبتلاءات السابقة التى دعا اللَّه عزّ وجل من أجل كشفها عنه، قال تعالى: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ».

إذ يجعل للّهأنداداً وشركاء ويعمد إلى عبادتها، ولا يكتفى بعبادتها بل يعمد- أيضاً- لإضلال وحرف الناس عن سبيل اللَّه: «وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ».

المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العاديون الذين لم يتربّوا فى ظل إشعاعات أنوار تعاليم الأنبياء، ولا يشمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون اللَّه فى السّراء والضّراء ويطلبون العون من لطفه دائماً.

نهاية الآية تخاطب مثل اولئك الأشخاص بلغة ملؤها التهديد الصريح والحازم والقاطع:

«قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

الآية التالية استخدمت اسلوب المقارنة، الاسلوب الذى طالما استخدمه القرآن المجيد لإفهام الآخرينالقضايا المختلفة، حيث تقول: هل أنّ مثل هذا الشخص انسان لائق وذو قيمة: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۷

«قانت»: من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع والخضوع.

«آناء»: هى جمع «انا»- على وزن كذا- وتعنى ساعة أو مقداراً من الوقت.

التأكيد هنا على ساعات الليل، لأنّ تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر، وتقلّ نسبة تلوّثه بالرياء أكثر من أىّ وقت آخر.

وتتمة الآية تخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالقول: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ». كلّا، إنّهم غير متساوين: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

لا- شك فى أنّ السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، ولكن إشارة إلى سؤال آخر قد طرح، وهو: هل يستوى المشركون والمؤمنون الذين يحيون الليل بالعبادة، فالسؤال الثانى يشير أكثر إلى هذه المسألة وهو: هل أنّ الذين يعلمون بأنّ المشركين المعاندين لا يتساوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة!

فهذه العبارة أحد شعارات الإسلام الأساسية وهو سمو وعلوّ منزلة العلم والعلماء فى مقابل الجهل والبديهى أن تكون هاتان المجموعتان غير متساويتين عند البارىء عزّ وجل، وغير متساويين لدى العقلاء، ولا يقفون فى صفّ واحد لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة وأنّهم مختلفون ظاهراً وباطناً.

العلم فى هذه الآية وبقية الآيات لا يعنى معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادية بين الأشياء، وإنّما يقصد به المعرفة الخاصة التى تدعو الإنسان إلى (القنوت) أى إلى طاعة البارىء عزّ وجل والخوف من محكمته وعدم اليأس من رحمته، هذه هى حقيقة العلم، فإذا كانت العلوم الدنيوية تؤدّى إلى ما ذكرناه آنفاً، فهى علم أيضاً، وإلّا فهى سبب الغفلة والظلم والغرور والفساد فى الارض، ولا يحصل منها سوى «القيل والقال».

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (۱۲) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (۱۴) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (۱۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۸

الخطوط الرئسية لمناهج العباد المخلصين: تتمة لما جاء فى بحث الآيات السابقة التى قارنت بين المشركين المغرورين والمؤمنين المطيعين للّه، وبين العلماء والجهلة، فإنّ آيات بحثنا هذا تبحث الخطوط الرئيسية لمناهج عباد اللّه الحقيقيين المخلصين وذلك ضمن سبعة مناهج وردت فى عدّة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الاولى تحثّ النبى صلى الله عليه و آله على التقوى: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ».

نعم، فالتقوى هى الحاجز الذى يصدّ الإنسان عن الذنوب، وتجعله يحسّ بالمسؤولية وبتكاليفه أمام البارىء عزّ وجل، وهى المنهج الأوّل لعباد اللّه المؤمنين والمخلصين، وهى ميزان شخصية وكرامة الإنسان عند البارىء عزّ وجل.

المنهج الثانى يختص بالإنسان والعمل الصالح فى هذه الدنيا التى هى دار العمل، وقد شجعت الآية الناس وحثّتهم على عمل الإحسان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل:

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

نعم فالإحسان بصورة مطلقة فى هذه الدنيا- سواء كان فى الحديث، أو فى العمل، أو فى نوع التفكر والتفكير بالأصدقاء والغرباء- يؤدّى إلى نيل ثواب عظيم فى الدنيا والآخرة، لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان.

وفى الواقع فإنّ التقوى عامل ردع، والإحسان عامل صلاح، وكلاهما يشمل (ترك الذنب) و (أداء الفرائض والمستحبات).

المنهج الثالث يدعو إلى الهجرة من مواطن الشرك والكفر الملوّثة بالذنوب، قال تعالى:

«وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ».

هذه الآية ردّ على ذوى الإرادة الضعيفة والمتذرعين بمختلف الذرائع الذين يقولون: إنّنا عاجزون عن أداء الأحكام الإلهية، لأنّنا فى أرض مكة التى يحكمها المشركون. والقرآن يردّ عليهم بأنّ أرض اللّه لا تقتصر على مكة، هاجروا من المواطن الملوّثة بالشرك والكفر والظلم التى لا يمكنكم فيها أداء الأحكام الإلهية بحرية إلى آخر.

وهذا يوضّح- بصورة جيّدة- أنّ المؤمن الذى تحيط به الضغوط والكبت، ويستطيع أن يهاجر فى سبيل اللّه عليه أن يهاجر، وإلّا فإنّه غير معذور أمام اللّه.

ولأنّ الهجرة ترافقها بصورة طبيعية مشكلات كثيرة فى مختلف جوانب الحياة، فالمنهج الرابع إذن يتعلّق بالصبر والإستقامة. قال تعالى:

«إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۶۹

وعبارة (بغير حساب) تبيّن أنّ للصابرين أفضل الأجر والثواب عند اللّه، ولا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر والإستقامة.

أمّا المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر بالإخلاص والتوحيد الخالى من شوائب الشرك، وهنا تتغير لهجة الكلام بعض الشيء، ويتحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عن وظائفه ومسؤولياته، إذ يقول: «قُلْ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهِ مُخْلِصًا لَّهُ الدّينَ».

ثم يضيف: «وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ». وهذا هو المنهج السادس الذى يعترف بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو أوّل الناس إسلاماً وتسليماً لأوامر البارىء عزّ وجل.

أمّا المنهج السابع والأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب البارىء عزّ وجل يوم القيامة. قال تعالى: «قُلْ إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

التأمل فى هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله هو عبد من عباد اللّه، وهو مكلف أيضاً بعبادة اللّه بإخلاص، لأنّه- هو أيضاً- يخاف العذاب الإلهى.

وهذا دليل على عظمته وأحقّيته.

بعد استعراض المناهج السبعة المذكورة فى الآيات أعلاه (التقوى، الإحسان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

ولكون مسألة الإخلاص لها ميزات خاصة فى مقابل العلل المختلفة للشرك، تعود الآيات لتؤكّد عليها مرّة اخرى، إذ تقول وبنفس اللهجة السابقة: «قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى».

أمّا أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون اللّه: «فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مّن دُونِهِ».

ثم تضيف: «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

أى: إنّهم لم يستثمروا طاقاتهم وعمرهم، ولا استفادوا من عوائلهم وأولادهم لإنقاذهم، ولا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، وهذا هو الخسران العظيم: «أَلَا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ».

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: «لَهُم مّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ».

وبهذا الشكل فإنّ أعمدة النيران تحيط بهم من كل جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟

وهل هناك عذاب أشدّ من هذا؟

«ظلل»: جمع «ظلّة» على وزن «سنّة» وتعنى الستر الذى ينصب فى الجهة العليا، وطبقاً

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۰

لهذا فإنّ إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت اهل النار اطلاق مجازى ومن باب التوسّع فى معنى الكلمة. هذا تجسيد لأحوالهم وأوضاعهم فى هذه الدنيا، إذ أنّ الجهل والكفر والظلم محيط بكل وجودهم، ومستحوذ عليهم من كل جانب.

ثم تضيف الآية مؤكّدة وواعظة إيّاهم: «ذلِکَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ».

إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة فى هذه الآية، ولعدّة مرّات إشارة إلى أنّ تهديد البارىء عزّ وجل لعباده بالعذاب إنّما هو لطف ورحمة منه، وذلک کی لا يبتلى عباده بمثل هذا المصير المشؤوم.

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِکَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ (١٩) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) عباد اللّه الحقيقيون: استخدم القرآن الكريم مرّة اخرى أسلوب المقارنة فى هذه الآيات، إذ قارن بين عباد اللّه الحقيقيين والمشركين المعاندين الذين لا مصير لهم سوى نار جهنم.

قال تعالى: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى .

عبارة «اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ» تعنى الإبتعاد عن كل أشكال الشرک وعبادة الأصنام وهوى النفس والشيطان، وتجنّب الإنصياع والاستسلام للحكّام المتجبرين الطغاة.

أمّا عبارة «أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ» فإنّها تجمع روح التقوى والزهد والإيمان، وأمثال هؤلاء يستحقون البشرى.

ثم تعرّج الآية على تعريف العباد الخاصّين فتقول: «فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِکَ الَّذِينَ هَدَيهُمُ اللَّهُ وَأُولئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

الآيتان المذكورتان بمثابة شعار إسلامى، وقد بيّنتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الإختيار فى مختلف الامور.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۱

ولكون رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يرغب- بشدّة- فى هداية المشركين والضالين، و كان يتألّم كثيراً لإنحراف اولئک الذين لم يعطوا آذاناً صاغية للحقائق، فإنّ الآية التالية عمدت إلى مواساته بعد أن وضّحت له حقيقة أنّ عالمنا هذا هو عالم الحرية والامتحان، ومجموعة من الناس- فى نهاية الأمر- يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النَّارِ».

ومن البديهى أنّ حتمية تعذيب هذه المجموعة لا تحمل أىّ طابع إجبارى، بل إنّهم يعذبون بسبب الأعمال التى إرتكبوها.

ولبعث السرور فى قلب رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولزيادة الأمل فى قلوب المؤمنين، جاء فى آخر الآية: «لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ».

فإن كان أهل جهنم مستقرين فى ظلل من النار، كما ورد فى الآية السابقة: «لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ».

فإنّ لأهل الجنة غرفاً من فوقها غرف اخرى، وقصور فوقها قصور اخرى، لأنّ منظر الورود والماء والأنهار والبساتين من فوق الغرف يبعث على اللذة والبهجة بشكل أكثر.

وكشفت الآية أيضاً عن أنّ غرف أهل الجنة الجميلة قد زيّنت بأنهار تجرى من تحتها «تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». نعم، هذا وعد اللّه: «وَعْدَ اللَّهِ لَايُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ».

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِى ذلِکَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (٢١) أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِکَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم مرّة اخرى دلائل التوحيد والمعاد، ليكمل البحوث التى تناولت مسألة الكفر والإيمان الواردة فى الآيات السابقة، إذ تقول موجّهة الخطاب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله باعتباره القدوة لجميع المؤمنين:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ».

قطرات المطر التى تبعث الحياة حينماتنزل من السماء تمتصها الطبقة الاولى من طبقات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۲

الأرض، وعندما تنفذ إلى داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة اخرى فى الأرض ولا تتمكن من النفوذ خلالها، لتبعث مرّة اخرى إلى سطح الأرض بصورة عيون وقنوت وآبار. وتضيف الآية فيما بعد: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» ذات الأشكال المختلفة.

أى: مختلف الأنواع كالحنطة والشعير والرز والذرة، ذات الأشكال المختلفة و الألوان الظاهرية المتعددة، فمنها الأخضر الغامق، والأخضر الفاتح، وبعضها ذو أوراق عريضة وكبيرة، والبعض الآخر ذو أوراق دقيقة وصغيرة.

ثم تنتقل الآية إلى مرحلة اخرى من مراحل حياة هذه النباتات، إذ تقول: «ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرًّا» «۱». حيث تعصف به الرياح من كل جانب لتقلعه من مكانه بسبب ضعف سيقانه، ويضيف تعالى: «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا».

نعم، إنّ فى هذا لذكرى لأصحاب العقول وأهل العلم: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

هذا المشهد يذكّر الإنسان بالنظام الدقيق والعظيم الذى وضعه البارىء عزّ وجل لعالم الوجود، وإنّه تذكير بنهايةالحياة وانطفاء شعلتها، ومن ثم بمسألة البعث وعودة الأموات إلى الحياة.

وكتتمة لهذا الدرس الكبير فى التوحيد والمعاد، تنتقل الآيات إلى المقارنة بين المؤمنين والكافرين، كى توضّح حقيقة أنّ القرآن والوحى السماوى هما كقطرات المطر التى تهطل على الأرض، وكما أنّ الأرض التى لها الإستعداد هى التى تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف اللّه، هى- فقط- التى تستفيد من آيات اللّه، وذلك طبقاً لقوله تعالى: «أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُو لِلْإِسْلمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ».

كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور. «فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ».

أمّا القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثّر بهم المواعظ ولا الوعيد ولا البشرى، ولا الآيات القرآنية المؤثرة. نعم، «أُولئِكَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

ويقال للقلوب التى لا تظهر أىّ استجابة لنور الحق والهداية، ولا تسمح بنفوذ نور الحق والهداية إليها (قلوب قاسية).

---

(۱) «يهيج»: من مادة «هيجان» ولها معنيان فى اللغة، الأوّل هو جفاف النبات واصفراره، والثانى هو التحرك والإنتفاض، ومن الممكن أو يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنّه يستعد للإنفصال والإنتشار والتحرك والهيجان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۳

فى تفسير القرطبى: روى عن ابن مسعود قال: قلنا يا رسول اللّه قوله تعالى «أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُو لِلْإِسْلمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ» كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح». قلنا يا رسول اللّه وما علامة ذلك؟ قال صلى الله عليه و آله: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والإستعداد للموت قبل نزوله».

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۲۴) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (۲۵) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۲۶)

سبب النّزول

نقل بعض المفسرين عن عبد اللّه بن مسعود: مل أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله ملة، فقالوا: يا رسول اللّه حدثنا، فنزلت أوّل آية من الآيات أعلاه معرّفة القرآن ب (أحسن الحديث).

التّفسیر

الآیات السابقة تحدثت عن العباد الذین یستمعون القول فیتبعون أحسنه، کما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبّل الحق.

الآیات التی یدور حولها البحث تواصل التطرّق إلی هذا الأمر، کی تکمل حلقات البحوث السابقة الخاصة بالتوحید والمعاد مع ذکر بعض دلائل النبوة، إذ تقول الفقرة الاولی من الآیة: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ».

ثم تستعرض خصائص القرآن الکریم، حیث تشرح الخصائص المهمة للقرآن من خلال بیان ثلاث صفات له:

أمّا الخاصیة الاولی فهی: «کِتَابًا مُّتَشَابِهًا». والمقصود من (متشابه) هنا هو الکلام المتناسق الذی لا تناقض فیه ویشبه بعضه البعض، فلا تعارض فیه ولا تضاد، وکل آیة فیه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۴

أفضل من الاخری والمتماثل من حیث اللطف والجمال والعمق فی البیان.

وهذا بالضبط علی عکس العبارات التی یصوغها الإنسان، والتی مهما اعتنی بصیاغتها فإنّها لن تخلو من الاخطاء والاختلافات والتناقضات، ودراسة آثار الکتّاب الکبار المعروفین فی مجالی النثر والشعرهی خیر شاهد علی هذا الموضوع. أمّا الخاصیة الثانیة فهی: «مَّثَانِیَ»- أی المکرر- وهذه الکلمة تشیر إلی تکرار بحوثه المختلفة وقصصه ومواعظه، التکرار الذی لا یملّ منه الإنسان، وإنّما علی العکس من ذلک، إذ یتشوّق لتلاوته أکثر، وهذه إحدی اسس الفصاحة.

أمّا الخاصیة الثالثة فهی: «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ». وهذه الخاصیة للقرآن فتتجلّی فی مسألة نفوذه وتأثیره العمیقین والخارقین فی اعماق النفوس؛ «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَی ذِکْرِ اللَّهِ».

إنّه لوصف وتجسید لطیف وجمیل لنفوذ آیات القرآن العجیب إلی أعماق القلوب، إذ أنّه فی بدایة الأمر یبعث فی القلب شیئاً من الخوف والرهبة، الخوف الذی یکون أساساً للصحوة ولبدء الحرکة، والرهبة التی تجعل الإنسان یتحسس مسؤولیاته المختلفة، ثم تأتی مرحلة الهدوء وقبول آیات اللّه وتتبعها السکینة والإستقرار.

فی تفسیر مجمع البیان روی عن العباس بن عبد المطلب أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشیة اللّه، تحاتت عنه ذنوبه کما یتحات عن الشجرة الیابسة ورقها».

وفی نهایة الآیة یقول تعالی بعد أن بیّن تلک الخصائص: «ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَن یَشَاءُ».

حقاً إنّ القرآن نزل لهدایة الجمیع، لکن المتقین وطلّاب الحق والحقیقة هم المستفیدون- فقط- من نوره، أمّا اولئک الذین تعمّدوا إغلاق کافة نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الکریم، والذین تتحکم بأرواحهم ظلمات التعصب والعناد- فقط- لا یستفیدون من نور القرآن، وإنّما یزدادون ضلالة من جرّاء عنادهم وعدائهم، لذلک فإنّ تتمة الآیة تقول: «وَمَن یُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

فهذه الضلالة هی التی یضع الإنسان حجر أساسها بیده، ویحکم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئة والسیئة، ولذلک لا تتنافی اطلاقاً مع إرادة الإنسان وحریته.

الآیة التالیة تقارن بین مجموعة من الظالمین والمجرمین، ومجموعة من المؤمنین الذین

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۵

استعرضت أوضاعهم فیما قبل، وذلک کی تجعل الحقیقة أکثر وضوحاً فی هذه المقارنة، إذ تقول: «أَفَمَن یَتَّقِی بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ یَوْمَ الْقِیمَةِ».

إنّ أوضاع الظالمین فی جهنم فی ذلک الیوم تجبرهم علی استخدام وجوههم کوسیلة دفاعیة، لأنّ أیدیهم وأرجلهم مقیدة بالسلاسل.

ثم تضیف نهایة الآیة: «وَقِیلَ لِلظَّالِمِینَ ذُوقُوا مَا کُنتُمْ تَکْسِبُونَ».

نعم، إنّ ملائکة العذاب هی التی توضّح لهم هذه الحقیقة المرّة والمؤلمة، إذ یقولون لهم: إنّ أعمالکم ستبقی معکم وستعذبکم، وهذا

التوضيح هو تعذيب روحى آخر لهؤلاء.

إنّ ما قيل لحدّ الآن هو إشارة بسيطة لعذابهم الأليم فى يوم القيامة، و الآية التالية تتحدث عن العذاب الدنيوى لهؤلاء، كى لا يتصور أحد أنّه يعيش فى أمان بهذه الدنيا، قال تعالى: «كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ».

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تبيّن أنّ عذاب هؤلاء الدنيوى لا يقتصر على العذاب الجسدى، وإنّما يشتمل أيضاً على عقوبات نفسية: «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» (۱).

ولكن العار والخزى للإنسان أن يخرج من هذه الدنيا حقيراً وذليلًا، قد ابتلى بعذاب فاضح يريق ماء وجهه، «وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

كلمة (أكبر) كناية عن شدّة العذاب وقسوته.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱) قرآن لا عوج فيه: الآيات- هنا- تبحث خصائص القرآن المجيد أيضاً، وتكمل البحوث السابقة فى هذا المجال. ففى البداية تتحدث عن مسألة شمولية القرآن، إذ تقول الآية الكريمة:

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ».

---

(۱) «خزى»: تعنى الذلّ والهوان كما تعنى الفضيحة (يراجع لسان العرب).

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۲۷۶

حيث تمّ فيه شرح قصص الطغاة والمتمردين الرهيبة، وعواقب الذنوب الوخيمة، ونصائح ومواعظ، وأسرار الخلق ونظامه، وأحكام وقوانين متينة، وبكلمة أنّه وضّح فيه كل ما هو ضرورى لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلهم يتذكرون ويعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم: «لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». ثم تتطرق الآية إلى وصف آخر للقرآن، إذ تقول: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ».

فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم- بكل هذه الصفات التى ذكرناها- هو: «لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ثم يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التى ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد والمشرك، وذلك ضمن إطار مثل ناطق وجميل، إذ يقول: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» (۱).

كل واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معيّن.

والأدهى من كل ذلك أنّه عندما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، والآخر يرميه على الأوّل، وهكذا يبقى محروماً محتاجاً عاجزاً تائهاً. وفى مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد «وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ».

فهذا الشخص خطه ومنهجه واضح، وولى أمره معلوم فلا تردد ولا حيرة ولا تضاد ولا تناقض، يعيش بروح هادئة ويخطو خطوات مطمئنة، فهل أنّ هذين الرجلين متساويان:

«هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا».

هذا المثال ينطبق على (المشرك) و (الموحد) فالمشرك يعيش فى وسط المتضادات والمتناقضات، وكل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، أمّا الموحدون فإنّهم يعشقون اللّه وحده.

وفى نهاية الآية يقول تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ولكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ إنّ حبّ الدنيا والشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

وتتمة لبحث الآيات السابقة بشأن التوحيد والشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج

---

(۱) «متشاكسون»: أصلها من «شكاسة» وتعنى سوء الخلق والتنازع والاختصام، ولهذا يقال «متشاكس» لمن يتخاصم ويتنازع بعصبية وسوء خلق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۷

الشرك والتوحيد فى موقف القيامة، إذ تبدأ بمسألة الموت الذى هو بوّابة القيامة، وتبيّن لكل البشرية أنّ قانون الموت عامّ وشامل للجميع: «إِنَّکَ مَیتٌ وَإِنَّهُم مَّیتُونَ».

قال بعض المفسرين: إنّ أعداء رسول اللّه كانوا ينتظرون وفاته، وكانوا فى نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول اللّه صلى الله عليه و آله يموت فى نهاية الأمر، فالقرآن- هنا- أجابهم بالقول: إن مات رسول اللّه فهل تبقون أنتم خالدين، هذا ما نصّت عليه الآية (۳۴) من سورة الأنبياء: «أَفَإِین مّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ».

ثم ينتقل البحث إلى محكمة يوم القيامة، ليجسم المجادلة بين العباد فى ساحة المحشر: «ثُمَّ إِنَّکُمْ یوْمَ الْقِیمَهِٔ عِندَ رَبِّکُمْ تَخْتَصِمُونَ».

«تختصمون»: مشتقة من «اختصام» وتعنى النزاع والجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل منهما تفنيد كلام الآخر.

ولكن الآيات التالية تبيّن أنّ المخاصمة تقع بين الأنبياء والمؤمنين من جهة، والمشركين المكذّبين من جهة اخرى.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَبَ عَلَی اللَّهِ وَ کَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَیسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْوًی لِلْکافِرِینَ (۳۲) وَ الَّذِی جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ ما یشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ جَزاءُ الْمُحْسِنِینَ (۳۴) لِیکَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی عَمِلُوا وَ یجْزِیهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِی کانُوا یعْمَلُونَ (۳۵) هذه الآيات تواصل البحث الخاص بموقف الناس فى ساحة المحشر، وتخاصمهم فى تلك المحكمة الكبرى، وتقسّم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما (المكذبون) و (المصدقون)، والقرآن الكريم يعطى صفتين لأصحاب المجموعة الاولى، أى «المكذبين». قال تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصّدْقِ إِذْ جَاءَهُو».

الكافرون والمشركون يكذبون كثيراً على البارىء عزّ وجل، فأحياناً يعتبرون الملائكة بنات اللّه، وأحياناً يقولون: عيسى هو ابن اللّه، وأحياناً اخرى يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند اللّه، وأحياناً يبتدعون أحكاماً كاذبة فى الحلال والحرام وينسبونها إلى اللّه، وما شابه ذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۸

وأمّا الكلام الصادق الذى أنزل إليهم وكذّبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبيّن فى جملة قصيرة جزاء أمثال هؤلاء الأفراد. قال تعالى: «أَلَیسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْوًی لِّلْکَافِرِینَ» «۱».

أمّا المجموعة الثانية فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين، إذ قال: «وَالَّذِی جَاءَ بِالصّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

عبارة «الَّذِی جَاءَ بِالصّدْقِ» يشمل كل الذين يبلّغون نهج الأنبياء ويروّجون كلام اللّه.

وبهذا الشكل فإنّ الآية تتحدث عن أناس هم من حملة الرسالة ومن العاملين بها، وتتحدث عن أولئك الذين ينشرون فى العالم ما ينزل به الوحى من كلام البارىء عزّ وجل وهم يؤمنون به ويعملون به، وهكذا فإنّ الآية تضم الأنبياء والأئمة المعصومين والدعاة لنهج الأنبياء.

الآية التالية تبيّن أنّ هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أى المصدقين، إذ تقول فى البداية: «لَهُم مَّا یشَاءُونَ عِندَ رَبّهِمْ ذلِکَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِینَ».

لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كل النعم المادية والمعنوية.

أمّا المكافأتان الثانية والثالثة اللتان يمنحهما البارىء عزّ وجل للمصدقين، فيقول القرآن المجيد بشأنهما: «لِیکَفّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی

عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ».

كم هى عبارة جميلة ولطيفة! فمن جانب يدعون اللَّه سبحانه وتعالى ليكفّر عنهم أسوأ ما عملوا بظل لطفه، ويطهّرهم من تلك البقع السوداء بماء التوبة، ومن جهة اخرى يدعون اللَّه ليجعل أفضل وأحسن أعمالهم معياراً للمكافأة، وأن يجعل بقية أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إنّ ما يتّضح من الآيات الكريمة هو أنّ اللَّه استجاب لدعواهم، عندما غفر لهم وعفا عن أسوء أعمالهم، وجعل أفضل الأعمال معياراً للمكافأة.

أ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقامٍ (۳۷)

---

(۱) «مثوى : من مادة (ثواء) وتعنى الإقامة المستمرة فى مكان ما ولهذا فإنّ (مثوى هنا تعنى المكان والمنزل الدائم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۷۹

سبب النّزول

الكثير من المفسرين قالوا: إنّ مشركى قريش كانوا يخوّفون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من آلهتهم ويحذّرونه من غضبها على أثر وصفه تلك الأوثان بأوصاف مزرية، ويوعدونه بأنّه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى، وللرد على كلامهم نزلت الآية المذكورة أعلاه.

التّفسير

إنّ اللَّه كاف: تتمة لتهديدات البارىء عزّ وجل التى وردت فى الآيات السابقة للمشركين، والوعد لأنبيائه. تتطرق الآية الاولى فى بحثنا لتهديد الكفار: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ».

إنّ قدرة البارىء عزّ وجل أقوى وأعظم من كل القدرات الاخرى، وهو الذى يعلم بكل احتياجات ومشكلات عباده، والذى هو رحيم بهم غاية الرحمة واللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث وعدوان بعض الأعداء!

إنّ فى هذه الآية بشرى لكل السائرين فى طريق الحق والمؤمنين الحقيقيين، خاصة أولئك الذين يعيشون أقلية فى بعض المجتمعات، والمحاطين بمختلف أشكال التهديد من كل جانب.

وكتتمة للآية السابقة، تشير الآية التالية إلى مسألة (الهداية) و (الضلالة) وتقسّم الناس إلى قسمين: (ضالين) و (مهتدين) وكل هذا من اللَّه سبحانه وتعالى، كى تبيّن أنّ جميع العباد محتاجون لرحمته، ومن دون إرادته لا يحدث شىء فى هذا العالم. قال تعالى: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ». «وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ».

ومن البديهى أنّ الضلالة لا تأتى من دون سبب، وكذلك الهداية بل إنّ كل حالة منهما هى استمرار لإرادة الإنسان وجهوده.

وما أشدّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات وبقية آيات القرآن واعتبروها شاهداً على ما ورد فى المذهب الجبرى، وكأنّهم لا يعلمون أنّ آيات القرآن تفسّر إحداها الاخرى، بل إنّ القرآن الكريم يقول فى نهاية هذه الآية: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ». وهو خير شاهد على هذا المعنى.

وكما هو معروف فإنّ الإنتقام الإلهى هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التى اقترفها الإنسان، وهذا يشير إلى أنّ إضلاله سبحانه وتعالى للإنسان هو بحدّ ذاته نوع من أنواع

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۰

الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه، وبالطبع فإنّ هدايته سبحانه وتعالى للإنسان هى بحدّ ذاتها نوع من أنواع الثواب، وهى ردّ فعل

للأعمال الصالحة والخالصة التى يقوم بها الإنسان.

الهداية والإضلال من اللَّه: «الهداية»: فى اللغة تعنى التوجيه والإرشاد بلطف ودقّة، وتنقسم إلى قسمين (بيان الطريق) و (الإيصال إلى المطلوب). وبعبارة اخرى: (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية).

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الإنسان يصف أحياناً الطريق للسائل بدقّة ولطف وعناية ويترك السائل معتمداً على الوصف فى قطع الطريق والوصول إلى المقصد المطلوب، وأحياناً اخرى يصف الإنسان الطريق للسائل ومن ثم يمسك بيده ليوصله إلى المكان المقصود.

و (الإضلال) هو النقطة المقابلة ل (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لاتّضح لنا- بصورة جيّدة- أنّ القرآن يعتبر أنّ الظلالة والهداية من اللَّه؛ أى أنّ الإثنين ينسبان إلى اللَّه.

الدراسة السطحية لهذه الآيات وعدم إدراك معانيها العميقة أدّى إلى زيغ البعض خلال تفسيرهم لها ووقوعهم فى فخاخ المذهب الجبرى.

إنّ أدقّ تفسير يتناسب مع كل آيات الهداية والضلال، ويفسرها جميعاً هو أنّ الهداية التشريعية التى تعنى (إراءة الطريق) لها خاصية عامة وشاملة، ولا توجد فيها أى قيود وشروط، كما ورد فى الآية (۳) من سورة الإنسان: «إِنَّا هَدَيْنهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا». وفى الآية (۵۲) من سورة الشورى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». ومن البديهى أنّ دعوة الأنبياء هى مظهر دعوة اللَّه تعالى، لأنّ كل ما عند النبى هو من اللَّه.

وبالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين والمشركين ورد فى الآية (۲۳) من سورة النجم:

«وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى .

أمّا الهداية التكوينية فتعنى الإيصال إلى الغرض المطلوب، والأخذ بيد الإنسان فى كل منعطفات الطريق، وحفظه وحمايته من كل الأخطار التى قد تواجهه فى تلك المنعطفات حتى إيصاله إلى ساحل النجاة، وهى- أى الهداية التكوينية- موضع بحث الكثير من آيات القرآن الاخرى التى لا يمكن تقييدها بأيّة شروط، فالهداية هذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصافهم فى القرآن، أمّا الضلال الذى هو النقطة المقابلة للهداية فإنّه يخص مجموعة اخرى ذكرت أوصافهم أيضاً فى القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۱

مختصر الامثل ج۴ ۳۱۹

القرآن المجيد يقول فى الآية (۲۶) من سورة البقرة: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ». وفى الآية (۲۵۸) من سورة البقرة: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وهذا يبيّن أنّ الظلم مقدمة للظلال. ومن هنا يتّضح أنّ الفسق، أى عدم إطاعة أوامر البارىء تعالى هو مصدر الضلال.

وفى الآية (۲۶۴) من سورة البقرة نقرأ: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

وهنا اعتبر الكفر هو الذى يهيّء أرضية الضلال.

وقد ورد فى الآية (۳) من سورة الزمر: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ».

يعنى أنّ الكذب والكفر هما مقدمة الضلال.

والآية (۲۸) من سورة غافر تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

أى إنّ الإسراف والكذب يسببان الضلالة.

إنّ ما يمكن استنتاجه هو أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الضلالة الإلهية تشمل كل من توفرت فيه هذه الصفات (الكفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الكذب) و (الإسراف).

أمّا فيما يخصّ الهداية، فقد وردت فى القرآن المجيد شروط وأوصاف تبيّن أنّ الهداية لا تقع من دون سبب وخلاف الحكمة الإلهية.

وقد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التى تجعل الإنسان مستحقاً للهداية ومحاطاً باللطف الإلهى؛ منها ما ورد فى الآية (۱۶) من سورة المائدة: «يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلمِ وَيُخْرِجُهُم مّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

إذن فإتباع أمر اللَّه، وكسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية.

وفى الآية (۲۷) من سورة الرعد نقرأ: «إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ».

إذن فالتوبة والإنابة تجعلان الإنسان مستحقاً للهداية.

وورد فى الآية (۶۹) من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

فالجهاد، وخاصة (الجهاد الخالص فى سبيل اللَّه) هو من الشروط الرئيسية للهداية.

وأخيراً نقرأ فى الآية (۱۷) من سورة محمّد: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى».

أى أنّ قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للإستمرار فيه بلطف البارىء عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۲

نستنتج من ذلك أنّه لو لم تكن هناك توبة وإنابة من العبد، ولا اتباع لأوامر اللَّه، ولا جهاد فى سبيله ولا بذل الجهد وقطع مقدار من طريق الحق، فإنّ اللطف الإلهى لا يشمل ذلك العبد، وسوف لا يمسك البارىء بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب. فهل أنّ شمول هؤلاء الذين يتحلّون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنّه دليل على هدايتهم بالإجبار؟

من الملاحظ أنّ آيات القرآن الكريم فى هذا المجال واضحة جدّاً ومعناها ظاهر، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلال ابتلوا بمثل هذا الإبتلاء (لأنّهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا فى طريق الخيال).

إذن يجب القول بأنّهم هم الذين إختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أيّة حال، فإنّ المشيئة الإلهية فى آيات الهداية والضلال لم تأت عبثاً ومن دون أىّ حكمة، وإنّما تتمّ بشرائط خاصة، بحيث تبيّن تطابق حكمة البارىء عزّ وجل مع ذلك الأمر.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (۳۸) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۹) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۴۰) هل إنّ آلهتكم قادرة على حلّ مشاكلكم: الآيات السابقة تحدثت عن العقائد المنحرفة للمشركين والعواقب الوخيمة التى حلّت بهم، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض دلائل التوحيد كى تكمل البحث السابق بالأدلة، كما تحدّثت الآيات السابقة عن دعم البارىء عزّ وجل لعباده وكفاية هذا الدعم، والآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل.

فى البداية تقول الآية: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

العقل والوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أنّ الأصنام التى لا روح فيها ولا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۳

عقل ولا شعور هى التى خلقت هذا العالم، وبهذا الشكل فإنّ القرآن يحاكم اولئك إلى عقولهم وشعورهم وفطرتهم، كى يثبّت أوّل أسس التوحيد فى قلوبهم، وهى مسألة خلق السماوات والأرض.

وفى المرحلة التالية تتحدث الآيات عن مسألة الربح والخسارة، وعن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان، كى تثبت لهم أنّ الأصنام لا دور لها فى هذا المجال، وتضيف: «قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ

هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ».

والآن بعد أن اتّضح أنّ الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئاً ولا باستطاعتها أن تتدخل فى ربح الإنسان وخسارته، إذن فلم نعبدها ونترك الخالق الأصلى لهذا الكون، وكنتيجة نهائية وشاملة يقول البارىء عزّ وجل: «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ».

آيات القرآن المجيد أكّدت- ولعدّة مرات- على أنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض. وهذا الأمر يبيّن أنّ الموضوع كان بالنسبة للمشركين من المسلّمات، وهذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأنّ توحيد خالق الكون والاعتراف بمالكيته وربوبيته أفضل دليل على (توحيد المعبود) ومن كل هذا نخلص إلى أنّ التوكّل لا يكون إلّاعلى اللَّه فكيف بعبادة غيره؟!

الآية التالية تخاطب اولئك الذين لم يستسلموا لمنطق العقل والوجدان بتهديد إلهى مؤثر، إذ تقول: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزى والعذاب الخالد فى الآخرة: «مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

وبهذا الشكل فإنّ آخر كلام يقال لُاولئك هو: إمّا أن تستسلموا لمنطق العقل و الشعور وتستجيبوا لنداء الوجدان، أو أن تنتظروا عذابين سيحلان بكم، أحدهما فى الدنيا وهو الذى سيخزيكم ويفضحكم، والثانى فى الآخرة وهو عذاب دائمى خالد، وهذا العذاب أنتم اعددتموه لأنفسكم، وأشعلتم النيران فى الحطب الذى جمعتموه بأيديكم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۴

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۴۱) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۴۲) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لَا يَعْقِلُونَ (۴۳) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴) بعد ذكر دلائل التوحيد، وبيان مصير المشركين والموحدين، تبيّن الآية الاولى- فى هذا البحث- حقيقة، مفادها أنّ قبول ما جاء فى كتاب اللَّه أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائدة أو الضرر عليكم، وإن كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصرّ عليكم فى هذا المجال، فإنّه لم يكن يبتغى جنى الأرباح من وراء ذلك، وإنّما كان يؤدّى واجباً إلهيّاً: «إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ».

وتضيف الآية: «فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

فإنّك لست مكلّفاً بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، وإنّما عليك إبلاغهم وإنذارهم فقط: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

ثم لتوضح أنّ الحياة والموت وكل شؤون الإنسان هى بيد اللَّه سبحانه وتعالى، قالت الآية: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا».

وبهذا الشكل فإنّ (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة.

وتضيف الآية: «فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

نعم، «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وبعدما أصبحت حاكمية (اللَّه) على وجود الإنسان وتدبير أمره عن طريق نظام الحياة والموت والنوم واليقظة، أمراً مسلّماً من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كى تثبت لهم أنّ مالك الشفاعة هو مالك حياة وموت الإنسان، وليس الأصنام الجامدة التى لا شعور لها: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۵

وكما هو معروف فإنّ إحدى الأعذار الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هى ما ورد فى مطلع هذه السورة: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .

إذ أنّهم كانوا يعدّونها تماثيل وهياكل للملائكة و الأرواح المقدسة، ويزعمون أنّ هذه الأحجار والأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

ولكون الشفاعة تحصل من الشفيع الذى هو، أوّلًا: يشعر ويدرك ويفهم؛ وثانياً: قدير ومالك وحكيم. فإنّ تتمة الآية تجيبهم: «قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَايَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ».

إذا كنتم تتخذون من الملائكة والأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، لأنّ كل ما عندهم هو من اللّه، وإذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة شفعاء لكم، فإنّهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئاً لأنفسهم، فهم لا يمتكلون أدنى عقل أو شعور.

لذا فإنّ اللّه جلّ وعلا يضيف فى الآية التالية: «قُلْ لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا». لأنّه: «لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وكما يقول بعض المفسرين: إنّ حقيقة الشفاعة، هى التوسل بأسماء اللّه الحسنى، التوسل برحمته وغفرانه وستره، طبقاً لهذا فإنّ كافة أشكال الشفاعة تعود فى النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره وبدون إذنه «۱».

وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷) وَ بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۴۸) الذين يخافون من اسم اللّه: مرّة اخرى يدور الحديث عن التوحيد والشرك، إذ

---

(۱) الميزان فى تفسير القرآن ۱۷/ ۲۸۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۶

عكست الآية الاولى إحدى الصور القبيحة والمشوّهة للمشركين ولمنكرى المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» «۱». فأحياناً يستحسن الإنسان القبائح ويستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق ويستبشر إذا سمع اسم الباطل. وفى المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم اللّه ينجذبون إليه بدرجة أنّهم على استعداد لبذل كل ما لديهم فى سبيله.

وعندما يصل الأمر إلى درجة أنّ مجموعة من اللجوجين والجهلة المغرورين ينفرون ويشمئزون حتى من سماع اسم اللّه، يوحى البارىء عزّ وجل إلى نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله أن يتركهم ويتوجّه إلى البارىء عزّ وجل ويشتكى إليه من هؤلاء بلحن مليء بالعواطف الرفيعة والعشق الإلهى لكى يبعث على تسكين قلبه المليء بالغم من جهة، وعلى تحريك العواطف الهامدة عند اولئك من جهة اخرى: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

نعم أنت الحاكم المطلق فى يوم القيامة، وهناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، ويفكّرون فى إصلاح ما مضى، ولكن ما الفائدة؟ الآية التالية تقول: «وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيمَةِ». ولكن هذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضاً وبقية المظالم.

ثم تضيف الآية: «وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ».

وسيرون العذاب بأعينهم، العذاب الذى لم يكن يتوقعه أحد منهم.

الآية التالية توضيح أو تتمة لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: «وَبَدَا لَهُمْ سَيَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

---

(۱) «اشمأزت»: من مادة «اشمئزاز» وتعنى الإنقباض والنفور عن الشيء.

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۲۸۷

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۵۰) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۱) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) فى الشدائد يذكرون اللَّه، ولكن ...: الآيات هنا تتحدث مرّة اخرى عن المشركين والظالمين، وتعكس صورة اخرى من صورهم القبيحة. فى البداية يقول: «فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا». لكن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن يتفضّل عليه البارىء عزّ وجل ويكشف عنه الضر والشدائد، حتى يتبجح ناكراً لهذه النعم، وزاعماً بأنّه هو الذى أنقذ نفسه من ذلك الضر: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ» «۱».

إنّ أمثال هؤلاء الغافلين لا يتصورون أنّ العلوم والمعارف التى يمتلكها الإنسان إنّما هى نعمة إلهية.

ثم يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المغرورين، الذين ينسون أنفسهم وخالقهم بمجرّد زوال المحنة وتوفّر النعمة، قائلًا: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

فالهدف من إبتلائهم بالحوادث الشديدة والصعبة، ومن ثم إغداق النعم الكبيرة عليهم هو اظهار خباياهم والكشف عن بواطنهم.

وتضيف الآية التالية: «قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

نعم، فقارون وأمثاله من المغرورين يتصورون أنّهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم وغفلوا عن أنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى منّ بهذه النعم عليهم وأنّه المصدر الأصل للنعم والواهب الحقيقى لها، وأنّهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهرية.

ثم يقول: «فَأَصَابَهُمْ سَيَاتُ مَا كَسَبُوا».

فكلّ واحد منهم ابتلى بنوع من العذاب الإلهى وهلك، كابتلائهم بالطوفان والسيل والزلزال والصيحة السماوية.

---

(۱) «خول»: من مادة «تخويل» و تعنى الإعطاء على نحو الهبة.

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۲۸۸

ويضيف: إنّ هذا المصير لا ينحصر باولئك الاقوام وحسب بل إنّ مشركى مكة سيبتلون فى القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئة، ولا يستطيع أحد منهم أن يفرّ من قبضة العذاب الإلهى الذى سينزل بهم جميعاً: «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

وسينال هذا العذاب والإبتلاء كل الطغاة والمغرورين والمشركين، وفى كل العصور والقرون.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنّهم حصلوا على النعم الدنيوية بعلمهم وقدرتهم، عندما دعاهم إلى مراجعة تاريخ الأوّلين للإطّلاع على أنواع الإبتلاءات والعذاب الذى ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطلة، وهذا هو ردّ تأريخى وواقعى.

ثم يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلى، إذ يقول: «أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين والبسطاء، فى حين نرى أنّ الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء ومتنعمين من كل النواحى، فلو كان الظفر المادى كلّه يأتى عن طريق جهد وسعى الإنسان إضافة إلى كفاءته، لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد.

لذا تضيف الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآيات التى وضّحها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام عندما قال: «عرفت اللَّه بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم» «۱».

وهى كلمة سامية تدلّ على ضعف وعجز الإنسان كى لا يتيه ولا يبتلى بالغرور والتكبر.

إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعاً: بعد التهديدات المتكررة التى وردت فى الآيات السابقة قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵۳) وَ أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (۵۵)

---

(۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۵۰.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۸۹

بشأن المشركين والظالمين، فإنّ آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين وأعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئيسى من كل هذه الأمور هو التربية والهداية وليس الإنتقام والعنف، فلهجة مملوءة باللطف والمحبة يفتح البارىء أبواب رحمته أمام الجميع ويصدر أوامر العفو عنهم، عندما يقول: «قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

التدقيق فى عبارات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التى تعطى الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام: «ما فى القرآن آية أوسع من يا عبادى الّذين أسرفوا» الآية «۱».

إنّ الوعد الذى أعطاه اللّه بغفران الذنوب مشروط بأن يعودوا إلى أنفسهم بعد إرتكاب الذنب، ويتوجّهوا فى مسيرهم نحو البارىء عزّ وجل، ويستسلموا لأوامره، ويظهروا صدق توبتهم وإنابتهم بالعمل.

الآية التاليه ترشد المجرمين والمذنبين إلى الطريق للدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع إذ تقول: «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ». واصلحوا اموركم ومسير حياتكم: «وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ».

بعد طى هاتين المرحلتين «الإنابة» و «التسليم»، تتحدث الآية عن المرحلة الثالثة وهى مرحلة (العمل)، إذ تقول: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ».

وبهذا الشكل فإنّ مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الاولى: التوبة والندم على الذنب والتوجه إلى اللّه تعالى.

الخطوة الثانية: الإيمان باللّه والإستسلام له.

الخطوة الثالثة: العمل الصالح.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (۵۹)

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۸/ ۴۰۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۰

الندم لا ينفع فى ذلك اليوم: الآيات السابقة أكّدت على التوبة وإصلاح الذات وإصلاح الأعمال السابقة، وآيات بحثنا الحالى تواصل التطرّق لذلك الموضوع؛ ففى البداية تقول: «أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِى جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ».

نعم، فعندما يرد الإنسان إلى ساحة المحشر، ويرى بامّ عينيه نتائج إفراطه وإسرافه ومخالفته، يصرخ فجأة (واحسرتاه) إذ يمتلىء قلبه فى تلك اللحظات بغمّ كبير مصحوب بندم عميق، وهذه الحالة النفسية التى وردت فى الآيات المذكورة.

عبارة «جَنْبِ اللَّه» تعنى أنّ الامور ترجع إلى جانب اللّه، فأوامره وإطاعته والتقرّب إليه، والكتب السماوية كلها نزلت من جانبه، وكلها مجموعة فى هذا المعنى

ثم تضيف الآية: «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَينِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

يبدو أنّ هذا الكلام يقوله الكافر عندما يوقف أمام ميزان الحساب، حيث يرى البعض يقادون إلى الجنة وهم محمّلون بأعمالهم الحسنة، وهنا يتمنى الكافر لو أنّه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنة الخلد.

وتضيف الآية مرّة اخرى: «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

وهذا ما يقوله الكافر- أيضاً- حينما تقوده الملائكة الموكلة بالنار نحو جهنم، وترى عيناه نار جهنم ومنظر العذاب الأليم فيها، وهنا يتأوه من أعماق قلبه ويتوسل لكى يسمح له بالعودة مرّة اخرى إلى الحياة الدنيا ليطهّر نفسه من الأعمال السيئة والقبيحة ويستبدلها بأعمال صالحة.

القرآن المجيد يردّ على القول الثانى من بين الأقوال الثلاثة، إذ يقول: «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

إنّ قولك: لو كانت الهداية قد شملتنى لأصبحت من المتقين، فما هى الهداية الإلهية؟ هل هى غير الكتب السماوية ورسل اللَّه، وآياته وعلاماته الصادقة فى الآفاق والأنفس؟ إنّك سمعت باذنيك وشاهدت بعينيك كل هذه الآيات، فما كان ردّ فعلك إزاءها غير التكذيب والتكبر والكفر.

فمن بين تلك الأعمال الثلاثة يعد (الاستكبار) الجذر الرئيسى، ومن بعد يأتى التكذيب بآيات اللَّه، وحصيلة الاثنين هو الكفر وعدم الإيمان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۱

وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶۰) وَ يُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۶۲) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (۶۴) الآيات السابقة تتحدث عن المشركين الكذّابين والمستكبرين الذين يندمون يوم القيامة على ما قدّمت أيديهم ويتوسلون لإعادتهم إلى الدنيا، ولكن هيهات أن يستجاب لهم طلبهم، وآيات بحثنا هذه تواصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول: «وَيَوْمَ الْقِيمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ».

ثم تضيف: «أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ».

إنّ عبارة «كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ» تستهدف اولئك الذين قالوا بوجود شريك للَّه، أو باتخاذ اللَّه ولداً من الملائكة، أو الذين يزعمون أنّ المسيح عليه السلام هو ابن اللَّه، وأمثال هذه المزاعم والإدّعاءات.

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين وابتهاجهم فى يوم القيامة، إذ تقول: «وَيُنَجّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ» «۱».

ثم توضّح فوزهم وانتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعانى: «لَايَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

نعم، إنّهم يعيشون فى عالم لا يوجد فيه سوى الخير والطهارة والسرور، وهذه العبارة القصيرة جمعت- حقّاً- كل الهبات الإلهية فيها.

الآية التالية تتطرق من جديد إلى مسألة التوحيد والجهاد ضد الشرك، وتواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ».

العبارة الاولى فى هذه الآية تشير إلى (توحد اللَّه فى الخلق) والثانية تشير إلى (توحده فى الربوبية).

---

(۱) «مفازة»: مصدر ميمى بمعنى الفوز والظفر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۲

فمسألة (توحده فى الخلق) هى حقيقة اعترف بها حتى المشركون، ولكنّهم ابتلوا بالانحراف فيما يتعلق بمسألة (توحده فى الربوبية)، ففى بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هى التى تحفظهم وتحميهم وتدبّر أمرهم، وكانوا يلجؤون إليها عندما يواجهون أىّ مشكلة.

أمّا الآية التالية فقد تطرّقت إلى (توحيد اللّه فى‌المالكية) لتكمل بحث التوحيد الذى ورد فى الآيات السابقة، إذ تقول: «لَّهُ مَقَالِيدُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولهذا السبب قررت الآية المذكورة بمثابة استنتاج: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

لأنهم تركوا المصدر الرئيسى والمنبع الحقيقى لكل الخيرات والبركات وتاهوا فى صحارى الضلال عندما أعرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات والأرض، وتوجّهوا نحو موجودات عاجزة تماماً عن تقديم أدنى عمل لهم.

من مجموع كل الامور التى ذكرناها فى الآيات السابقة بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجة جيّدة، وهى أنّ التوحيد فى العبادة هو حقيقة لا يمكن نكرانها وعلى كل إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام، ولهذا فإنّ البحث ينتهى بآية تتحدث بلهجة حازمة ومتشددة: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ».

هذه الآية- وبالنظر إلى أنّ المشركين والكفرة كانوا أحياناً يدعون رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى احترام آلهتهم وعبادتها، أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو النهى عن عبادتها- أعلنت وبمنتهى الصراحة أنّ مسألة توحيد اللّه وعدم الإشراك به هى مسألة لا تقبل المساومة والاستسلام أبداً، إذ يجب أن تزال كافة أشكال الشرك وتمحى من على وجه الأرض.

وَ لَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۶) وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۷) الشرك محبط للاعمال: آيات بحثنا تواصل التطرّق للمسائل المتعلقة بالشرك والتوحيد والتى كانت قد استعرضت فى الآيات السابقة أيضاً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۳

الآية الاولى تتحدث بلهجة قاطعة وشديدة حول أخطار الشرك، وتقول: «وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وبهذا الترتيب، فإنّ للشرك نتيجتين خطيرتين، تشملان حتى أنبياء اللّه فيما لو أصبحوا مشركين، على فرض المحال.

النتيجة الاولى: إحباط الأعمال، والثانية: الخسران والضياع.

وإحباط الأعمال يعنى محو آثار ثواب الأعمال السابقة، وذلك بعد كفره وشركه باللّه، لأنّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، ولا يقبل أىّ عمل بدون هذا الاعتقاد.

وأمّا خسارتهم فإنّها بسبب بيعهم أكبر ثروة يمتلكونها، ألا وهى العقل والإدراك والعمر فى سوق التجارة الدنيوية، وشراؤهم الحسرة والألم بثمنها.

الآية التالية تضيف للتأكيد أكثر: «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ».

تقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر، وذلك يعنى أنّ ذات اللّه المنزهة يجب أن تكون معبودك الوحيد.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تكشف عن الجذر الرئيسى لانحرافهم، وتقول: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ». ولهذا تنزّلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفاً للأوثان.

ثم يأتى القرآن بعبارتين كنائيتين بعد العبارة السابقة، وذلك لبيان عظمة وقدرة البارىء عزّ وجل، إذ يقول كلام اللّه المجيد: «وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ».

«القبضة»: الشىء الذى يقبض عليه بجميع الكف، تستخدم- عادة- للتعبير عن القدرة المطلقة والتسلّط التام؛ و «مطويّات»: من مادة

«طى» وتعنى الثنى، والتى تستعمل أحياناً كناية عن الوفاة وانقضاء العمر، أو عن عبور شىء ما.

فالذى يثنى طوماراً ويحمله بيده اليمنى يسيطر بصورة كاملة على الطومار الذى يحمله بتلك اليد، وانتخبت اليد اليمنى هنا لأنّ أكثر الأشخاص يؤدّون أعمالهم المهمة باليد اليمنى ويحسّون بأنّها ذات قوّة وقدرة أكثر.

خلاصة الكلام، أنّ كل هذه التشبيهات والتعابير هى كناية عن سلطة اللَّه المطلقة على عالم الوجود فى العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أنّ مفتاح النجاة وحلّ المشاكل يوم القيامة هو بيد القدرة الإلهية، كى لا يعمدوا إلى عبادة الأصنام وغيرها من الآلهة بذريعة أنّها ستشفع لهم فى ذلك اليوم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۴

إنّ السماء والأرض أيضاً فى قبضته فى الحياة الدنيا ولكن فى ذلك اليوم أكثر من أىّ وقت مضى وكل إنسان يدرك ويشعر أنّ كل شىء هو من عند اللَّه وتحت تصرفه.

فبعد التوضيحات التى ذكرت آنفاً، يعطى البارىء عزّ وجل فى آخر الآية نتيجة مركّزة وظاهرية، إذ يقول: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات اللَّه المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة والمحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبائل الشرك وعبادة الأصنام.

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (۶۸) (النفخ فى الصور) وموت وإحياء جميع العباد: الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحدثت عن يوم القيامة، وآية بحثنا الحالى تواصل الحديث عن ذلك اليوم مع ذكر إحدى الميزات المهمة له، إذ تبدأ الحديث بنهاية الحياة فى الدنيا، وتقول: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّموَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ».

يستفاد من الروايات إنّ هذه المجموعة المتبقية تموت فى نهاية الأمر، ولا يبقى أحد حيّاً فى هذا العالم سوى البارىء عزّ وجل إذ هو: «حَيٌّ لَايَمُوتُ».

يتّضح بصورة جيّدة من هذه الآية أنّ حادثتين تقعان مع نهاية العالم وعند البعث، فى الحادثة الاولى يموت الأحياء فوراً، وفى الحادثة الثانية- التى تقع بعد فترة من وقوع الحادثة الاولى- يعود كل الناس إلى الحياة مرّة اخرى، يقفون بانتظار الحساب. وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (۷۰) اليوم الذى تشرق الأرض بنور ربّها: آيتا بحثنا تواصلان استعراض الحديث عن القيامة والذى بدأ قبل عدّة آيات. فى البداية تقول: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبّهَا».

وقد اختلف المفسرون فى معنى إشراق الأرض بنور ربّها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا إثنين منها، وهى:

۱- قالت طائفة: إنّ المراد من نور الرب هو الحق والعدالة، الذى ينير بهما ربّ العالمين الأرض فى ذلك اليوم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۵

۲- أمّا المفسر الكبير العلّامة الطباطبائى رحمه الله، صاحب تفسير الميزان، فقد قال: إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو ما يختصّ يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وتجلّى الأعمال من خير أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين. وقد استدل العلّامة الطباطبائى على هذا الرأى بالآية (۲۲) من سورة «ق»: «لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مّنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». وهذا الإشراق وإن كان عاماً لكل شىء يسعه النور، لكن لمّا كان الغرض بيان ما للأرض وأهلها يومئذٍ من الشأن، خصّها بالبيان.

ومن دون شك فإنّ هذه الآية تتعلق بيوم القيامة، وإن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار عليهم السلام تفسّرها على أنّها تعود

إلى ظهور القائم المهدى المنتظر (عج)، فهى فى الواقع نوع من التطبيق والتشبيه، وتأكيد لهذا المعنى وهو عند ظهور المهدى (عج) تصبح الدنيا نموذجاً حيّاً من مشاهد القيامة، إذ يملأ هذا الإمام بالحق ونائب الرسول الأكرم وخليفة اللّه، الأرض بالعدل إلى الحد الذى ترتضيه الحياة الدنيا.

العبارة الثانية فى هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ».

الصحائف التى تتضمن جميع صغائر وكبائر أعمال الإنسان.

وتضيف العبارات التى تتحدث عن الشهود: «وَجِاىءَ بِالنَّبِيّينَ وَالشُّهَدَاءِ».

فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدائهم لمهام الرسالة، كما ورد فى الآية (۶) من سورة الأعراف: «وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».

كما يحضر شهداء الأعمال فى محكمة العدل الإلهية ليدلوا بشهاداتهم، صحيح أنّ البارىء عزّ وجل مطّلع على كل الامور، ولكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور فى تلك المحكمة.

العبارة الرّابعة تقول: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ».

والخامسة تضيف: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

فمن البديهيات، عندما يكون الحاكم هو البارىء عزّ وجل، فلا يحكم إلّابالحق، وفى مثل هذه المحاكم لا وجود للظلم والاستبداد مطلقاً.

العبارة السادسة فى الآية التالية أكملت الحديث بالقول: «وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ».

إنّ جزاء الأعمال وعواقبها سترد إليهم، وهل هناك مكافأة ومجازاة أعلى من أن يردّ عمل الإنسان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۶

فالذى يتمكن من تنفيذ مثل هذه المناهج العادلة بدقّة، هو الذى أحاط علمه بكل شىء، لهذا فإنّ العبارة السابعة والأخيرة فى هذا البحث تقول: «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ».

إذن فلا حاجة حتى للشهود، لأنّ اللّه هو أعلم من كل أولئك الشهود، ولكن لطفه وعدله يقتضيان إحضار الشهود.

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا قَالُوا بَلَى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (۷۱) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲) الّذين يدخلون جهنم زمراً: تواصل الآيات هنا بحث المعاد، وتستعرض بالتفصيل ثواب وجزاء المؤمنين والكافرين، الذى استعرض بصورة مختصرة فى الآيات السابقة.

وتبدأ بأهل جهنم، إذ تقول: «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا».

عبارة «زمر» تعنى الجماعة الصغيرة من الناس، وتوضّح أنّ الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات صغيرة ومتفرقة.

و «سيق»: من مادة «سوق» وتعنى (الحث على السير).

ثم تضيف: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا» «۱».

يتّضح بصورة جيّدة من خلال هذه العبارة، أنّ أبواب جهنم كانت مغلقة قبل سوق اولئك الكفرة، وهى كأبواب السجون المغلقة التى تفتح أمام المتهمين الذين يراد سجنهم، وهذا الحدث المفاجىء يوجد رعباً ووحشة كبيرة فى قلوب الكافرين، وقبل دخولهم يتلقاهم خزنة جهنم باللوم والتوبيخ، الذين يقولون استهجاناً وتوبيخاً لهم: لم كفرتم وقد هيأت لكم كافة أسباب الهداية، فكيف وصل بكم الحال إلى هذه الدرجة رغم إرسال الأنبياء إليكم؟

فإنّ الكافرين يجيبون خزنة جهنم بعبارة قصيرة ملؤها الحسرات، قائلين: «قَالُوا بَلَى

(۱) «خزنة»: جمع (خازن) من مادة «خزن» وتعنى حافظ الشىء، و (خازن) تطلق على المحافظ والحارس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۷

وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وبهذا الشكل اعترفوا بأنّهم كذّبوا الأنبياء وانكروا آيات اللّه، وبالطبع فإنّ مصيرهم لن يكون أفضل من هذا.

هذا النقاش القصير ينتهى مع اقترابهم من عتبة جهنم: «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

فأبواب جهنم- كما أشرنا إليها من قبل- يمكن أن تكون قد نظّمت حسب أعمال الإنسان، وإنّ كل مجموعة كافرة تدخل جهنم من الباب الذى يتناسب مع أعمالها، وذلك مثل أبواب الجنة التى يطلق على أحد أبوابها اسم «باب المجاهدين».

والذى يلفت النظر هو أنّ ملائكة العذاب تؤكّد على مسألة التكبر من بين بقية الصفات الرذيلة التى تؤدّى بالإنسان إلى السقوط فى نار جهنم، وذلك إشارة إلى أنّ التكبر والغرور وعدم الإنصياع والاستسلام أمام الحق هو المصدر الرئيسى للكفر والإنحراف وإرتكاب الذنب. ولهذا نقرأ فى رواية- فى الكافى- عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالا: «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرّة من كبر».

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (۷۳) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۷۵) المتقون يدخلون الجنة افواجاً: هذه الآيات- التى هى آخر آيات سورة (الزمر)- تواصل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحدث عن كيفية دخول المؤمنين المتقين الجنة، بعد أن كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتتوضح الامور أكثر من خلال هذه المقارنة. فى البداية تقول: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا».

عبارة (سيق) أثار التساؤل، لأنّ هذا التعبير يستخدم فى موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أىّ اشتياق ورغبة فى تنفيذه، ولذلك فإنّ هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۸

جهنم، ولكن لم استعملت بشأن أهل الجنة الذين يتوجّهون إلى الجنة بتلهّف واشتياق؟

إنّ التفسير الأصح لهذه العبارة هى: مهما كان حجم عشق المتقين للجنة، فإنّ الجنة وملائكة الرحمة مشتاقة أكثر لوفود اولئك عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى المستضيف المشتاق للضيف والمتلهّف لوفوده عليه إذ أنّه لا يجلس لانتظاره وإنّما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتى هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هى كذلك مشتاقة لوفود أهل الجنة.

«زمر»: تعنى هنا المجموعات الصغيرة؛ وتبيّن أنّ أهل الجنة يساقون إلى الجنة على شكل مجموعات مجموعات كل حسب مقامه.

ثم تضيف الآية: «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ».

الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنّهم حينما يصلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، ويقول بشأن أهل الجنة، إنّ أبواب الجنة مفتحة لهم من قبل، وهذه إشارة إلى الاحترام والتبجيل الذى يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة.

وقد قرأنا فى الآيات السابقة أنّ ملائكة العذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم والتوبيخ الشديدين، أمّا ملائكة الرحمة فإنّها تبادر أهل الجنة بالسلام المرافق للاحترام والتبجيل.

الملاحظ أنّ «الخلود» استخدم بشأن كل من أهل الجنة وأهل النار، وذلك لكى لا يخشى أهل الجنة من زوال النعم الإلهية، ولكى يعلم أهل النار بأنّه لا سبيل لهم للنجاة من النار.

الآية التالية تتكون من أربع عبارات قصار غزيرة المعانى تنقل عن لسان أهل الجنة السعادة والفرح اللذين غمراهم، حيث تقول: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُو».

وتضيف فى العبارة التالية: «وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ».

المراد من الأرض هنا أرض الجنة؛ واستخدام عبارة (الإرث) هنا، إنّما جاء لكونهم حصلوا على كل هذه النعم فى مقابل جهد قليل بذلوه، إذ- كما هو معروف- أنّ الميراث هو الشىء الذى يحصل عليه الإنسان من دون أىّ عناء مبذول.

العبارة الثالثة تكشف عن الحرية الكاملة التى تمنح لأهل الجنة فى الاستفادة من كافة ما هو موجود فى الجنة الواسعة، إذ تقول: «نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ».

أمّا العبارة الأخيرة فتقول: «فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۲۹۹

وهذه إشارة إلى أنّ هذه النعم الواسعة إنّما تعطى فى مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعاً) ليكون صاحبه لائقاً ومستحقاً لنيل مثل هذه النعم.

وفى النهاية تخاطب الآية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قائلة: «وَتَرَى الْمَلَكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ». يسبحون اللّه ويقدّسونه ويحمدونه.

إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش اللّه، أنّها تعبّر عن إستعداد اولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، ولهذا تقول العبارة التالية: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ».

وباعتبار أنّ هذه الامور دلائل على ربوبية البارىء عزّ وجل واستحقاق ذاته المقدسة والمنزهة لكل أشكال الحمد والثناء، فإنّ الجملة الأخيرة تقول: «وَقِيلَ الْحَمْدُلِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ الحمد والثناء على اللّه هو منهاج كل اولى الألباب، ومنهاج كل الخواص والمقربين.

«نهاية تفسير سورة الزمر»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۱

۴۰. سورة غافر

محتوى السورة: سورة غافر هى طليعة الحواميم، والحواميم فى القرآن الكريم سبع سور متتالية يلى بعضها بعضاً، نزلت جميعاً فى مكة، وهى تبتدأ ب «حم».

يمكن النظر إلى محتوى السورة فى إطار ما تثيره النقاط والأقسام الآتية:

۱- تتحدث عن بعض أسماء اللّه الحسنى خصوصاً تلك التى ترتبط باحياء معانى الخوف والرجاء فى القلوب، مثل قوله تعالى: «غَافِرِ الذَّنبِ» و «شَدِيدِ الْعِقَابِ».

۲- تهديد الكفار والطواغيت بعذاب فى هذه الدنيا، بالإضافة إلى التعرّض لعذاب الآخرة، وتتناول بعض الصور والمشاهد التفصيلية فيه.

۳- بعد أن وقفت السورة على قصة موسى وفرعون، بدأت بالحديث- بشكل واسع- عن قصة ذلك الرجل المؤمن الواعى الشجاع الذى اصطلح عليه ب «مؤمن آل فرعون» وكيف واجه البطانة الفرعونية وخلّص موسى عليه السلام من كيدها.

۴- تتعرض السورة المباركة فيه إلى قضيتى التوحيد والشرك، بوصفهما دعامتين لوجود الإنسان وحياته، وفى ذلك تتناول جانباً من دلائل التوحيد، بالإضافة إلى ما تقف عليه من مناقشة لبعض شبهات المشركين.

۵- تنتهی السورة بدعوة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله للتحمل والصبر، ثم تخلص السورة فی خاتمتها إلی ذکر بعض النعم الإلهیة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۲

إنّ تسمیة السورة ب «غافر» یعود إلی کون هذه الکلمة هی بدایة الآیة الثالثة من آیات السورة المبارکة، أمّا تسمیتها ب «المؤمن» فیعود إلی اختصاص قسم منها بالحدیث عن «مؤمن آل فرعون».

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «الحوامیم دیباج القرآن».

وروی أبو بصیر عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «الحوامیم ریحان القرآن، فاحمدوا اللَّه واشکروه بحفظها وتلاوتها. وإنّ العبد لیقوم یقرأ الحوامیم فیخرج من فیه أطیب من المسک الأذفر والعنبر. وإنّ اللَّه لیرحم تالیها وقارءها، ویرحم جیرانه وأصدقاءه ومعارفه وکل حمیم أو قریب له، وإنّه فی القیامة یستغفر له العرش والکرسی وملائکة اللَّه المقرّبون».

ومن الواضح أنّ هذه الفضائل الجزیلة ترتبط بالمحتوی الثمین للحوامیم، هذا المحتوی الذی إذا واظب الإنسان علی تطبیقه فی حیاته والعمل به، والإلتزام بما یستلزمه من مواقف وسلوک، فإنّه سیکون مستحقاً للثواب العظیم والفضائل الکریمة التی قرأناها.

حم (۱) تَنْزِیلُ الْکِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ (۲) غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِیدِ الْعِقَابِ ذِی الطَّوْلِ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ (۳)

تواجهنا فی مطلع السورة الحروف المقطعة وهی هنا من نوع جدید لم نعهده فی السور السابقة، حیث افتتحت السورة ب «حم».

إنّ الحروف التی تبدأ بها سورة غافر- کما یستفاد ذلک من بعض الروایات ومن آراء المفسرین- تشیر إلی أسماء اللَّه التی تبدأ بحروف هذه السورة، أی «حمید» و «مجید» کما ورد ذلک عن الإمام الصادق علیه السلام «۱».

البعض الآخر ذهب إلی أنّ «ح» إشارة إلی أسمائه تعالی مثل «حمید» و «حلیم» و «حنان»، بینما «م» إشارة إلی «ملک» و «مالک» و «مجید».

وهناک احتمال فی أنّ «ح» یشیر إلی الحاکمیة، فیما یشیر «م» إلی المالکیة الإلهیة.

ویتّضح فی نهایة الفقرة عدم وجود تناقض بین الآراء والتفاسیر الآنفة الذکر، بل هی تعمد جمیعاً إلی تفسیر الحروف المقطعة بمعنی واحد.

---

(۱) یلاحظ معانی الأخبار، للشیخ الصدوق/ ۲۲ (باب: معنی الحروف المقطعة فی أوائل السور من القرآن).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۳

فی الآیة الثانیة- کما جری علی ذلک الاسلوب القرآنی- حدیث عن عظمة القرآن، وإشارة إلی أنّ هذا القرآن بکل ما ینطوی علیه من عظمة وإعجاز وتحدّ، إنّما یشتکّل فی مادته الخام من حروف الألف باء ... وهنا یکمن معنی الإعجاز. یقول تعالی: «تَنزِیلُ الْکِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ».

إنّ قدرته تعالی تجعل الأشیاء الاخری عاجزة عن الوقوف إزاءها، فقدرته ماضیة فی کل شیء، وعزّته مبسوطة، أمّا علمه تعالی فهو فی أعلی درجات الکمال، بحیث یستوعب کل احتیاجات الإنسان ویدفعه نحو التکامل.

و الآیة التی بعدها تعدّد خمساً من صفاته تعالی، یبعث بعضها الأمل والرجاء، بینما یبعث البعض الآخر منها علی الخوف والحذر. یقول تعالی: «غَافِرِ الذَّنبِ». «وَقَابِلِ التَّوْبِ». «شَدِیدِ الْعِقَابِ». «ذِی الطَّوْلِ». «لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ».

أجل إنّ من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة وهو الذی یملک الجزاء فی العقاب والثواب.

مَا یُجَادِلُ فِی آیَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَا یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی الْبِلَادِ (۴) کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کَانَ عِقَابِ (۵) وَ کَذلِکَ حَقَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (۶) بعد أن تعرّضت الآیات السابقة إلی نزول القرآن، وإلی بعض الصفات الإلهیة التی تستهدف بعث الخوف

والرجاء، ورد كلام فى الآيات التى بين أيدينا عن قوم امتازوا بالمجادلة والمنازعة حيال آيات اللّه ... الآية الكريمة توضّح مصير هذه المجموعة ضمن تعبير قصير وقاطع، فتقول: «مَا يُجَادِلُ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا».

صحيح أنّ هذه المجموعة قد تملك العدّة والعدد، إلّاأنّ ذلك لن يدوم إلّالفترة، فلا تغتر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۴

وتنخدع إذاً لتحرّكهم فى البلاد وتنقّلهم فى المدن المختلفة، واستعراضهم لقوّتهم: «فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَدِ». «يجادل»: مشتقة من «جدل» وهى فى الأصل تعنى لفّ الحبل وإحكامه، ثم عمّ استخدامها فى الأبنية والحديد وما شابه، ولهذا فإنّ كلمة (مجادلة) تطلق على عمل الاشخاص المتقابلين ويريد كل شخص أن يلقى حجته ويثبت كلامه ويغلب خصمه.

«تقلب»: مشتقة من «قلب» وتعنى التغيير، و «تقلّب» هنا بمعنى التصرّف فى المناطق والبلاد المختلفة للسيطرة والتسلّط عليها، وتعنى الذهاب والإياب فيها أيضاً.

إنّ هدف الآية تحذير للرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين به- فى بداية البعثة- من الذين كانوا من الطبقة المستضعفة المحرومة، بأن لا يركنوا إلى الإمكانات المالية أو القوة السياسية والاجتماعية للكفار، ويعتبرونها دليلًا على حقانيتهم أو سبباً لقوتهم الحقيقية، إذ هناك الكثير منهم فى تاريخ هذه الدنيا، وقد انكشف ضعفهم وسقطت عنهم سرابيل القوة المزعومة ليبيّن عجزهم حيال العقاب الإلهى.

لذلك توضّح الآية التى بعدها عاقبة بعض الامم السابقة التى ضلّت الطريق وانكفأت عن جادّة الحق والصواب، فتقول فى عبارات قاطعة واضحة تحكى عاقبة قوم نوح وحالهم ومن تلاهم من أقوام وجماعات: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ».

هؤلاء هم «الأحزاب» الذين تآزروا ووقفوا ضدّ دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات ومضامينها الربانية.

إنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الوقوف ضدّ الدعوات النبوية الكريمة، بل خططت كل امّة منهم لأن تمسك بنبيّها فتسجنه وتؤذيه، بل وحتى تقتله: «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ».

ثم لم يكتفوا بهذا القدر أيضاً، بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق ومحوه، وأصرّوا على إضلال الناس وصدّهم عن شريعة اللّه: «وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» «۱».

إلّا أنّ هذا الوضع لم يستمر طويلًا، ولم يبق لهم الخير دوماً، إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهى: «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ».

---

(۱) «ليدحضوا»: مصدرها ثلاثى «إدحاض» وتعنى الإزالة والإبطال.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۵

لكم- أيها الناس- أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سفركم وأثناء تجوالكم ... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدوّنة على صفحات التاريخ وفى صدور أهل العلم، فانظروا واعتبروا.

الآية الأخيرة- فى المقطع الذى بين أيدينا- تشير إلى الجزاء الاخروى الذى ينتظر هؤلاء، بالإضافة إلى قسطهم من العقاب الدنيوى: «وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

إنّ المعنى الظاهرى للآية واسع، يشمل جميع الكفار والمعاندين من جميع الأقوام.

إنّ حتمية العقاب الإلهى لهؤلاء القوم يعود إلى ذنوبهم المستمرة، والأعمال التى يقومون بها بملء إرادتهم خلافاً لرسالة اللّه.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (۷) رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ

ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹) دعاء حملة العرش للمؤمنين: يتضح من اسلوب الآيات السابقة أنّها نزلت فى فترة كان فيها المسلمون قلّة محرومة، بينما كان الأعداء فى أوج قوّتهم، بعد ذلك نزلت الآيات التى نحن بصددها لتكون بشرى للمؤمنين الحقيقيين والصابرين، بأنّكم لستم وحدكم. فالقرآن يقول: «الَّذِى يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا».

أمّا قولهم ودعاؤهم فهو: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا». فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين ورحيم بهم: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

يوضّح هذا الكلام للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم الذين تعبدون اللّه وتسبحونه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۶

وتحمدونه، فقبلكم الملائكة المقربون وحملة العرش ومن يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ وعلا ويحمدونه. وهى من جانب آخر تحذّر الكفار وتقول لهم: إنّ إيمانكم أو عدمه ليس مهماً.

ومن جانب ثالث، فى الآية إخبار للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم فى هذا العالم- بالرغم من أنّكم أقلية فى محيطكم- فأعظم قوّة غيبية فى العالم وحملة العرش هم معكم ويساندونكم ويدعون لكم.

فى الآية التى تليها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنين. يقول تعالى: «رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ».

وأيضاً: «وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ».

لماذا؟ ل «إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

والوعد الإلهى الذى أشارت إليه الآية فهو نفس الوعد الذى ورد مراراً على لسان الأنبياء لعامة الناس.

أمّا تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين، فهو فى الواقع يكشف عن حقيقة أنّ هناك مجموعة تأتى بالدرجة الاولى، وهى تحاول أن تتبع الأوامر الإلهية بشكل كامل.

أمّا المجموعة الاخرى فهى ليست بدرجة المجموعة الاولى ولا فى مقامها، وإنّما بسبب انتسابها إلى المجموعة الاولى ومحاولتها النسبية فى اتباعها سيشملها دعاء الملائكة.

بعد ذلك تذكر الآية الفقرة الرابعة من دعاء الملائكة للمؤمنين: «وَقِهِمُ السَّيَاتِ وَمَن تَقِ السَّيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ».

ثم ينتهى الدعاء بهذه الجملة ذات المعنى الكبير: «وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

هل هناك فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، ويبتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهية ويدخل الجنة الخالدة، وثم يلتحق به أقرباؤه الذين يودّهم؟

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (۱۲)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۷

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص: تحدثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهية للمؤمنين، أمّا مجموعة الآيات التى بين أيدينا فهى تتحدث عن «غضب» اللّه تعالى على الكافرين، كى يكون بالمستطاع المقارنة بين صورتين ومشهدين متقابلين. فى البداية تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ».

من الذى ينادى هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أنّ ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم وفضحهم، فى مقابل ما تفعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين والصالحين.

«المقت»: تعنى فى اللغة البغض والعداوة الشديدة. وهذه الآية تبيّن أنّ غضب اللّه تعالى على الكافرين هو أشدّ من عداوتهم لأنفسهم.

أمّا فيم يتعلّق مقت الكفار لأنفسهم، يتمثل فى ارتكاب هؤلاء فى الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهل ثمّة عداء للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبديه، ويفتح على نفسه أبواب العذاب.

عندما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة وأهوالها، ويرون مشاهد الغضب الإلهى حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة ويفكّرون بطريق للخلاص، فيعترفون بذنوبهم ويقولون: «قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنَ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مّن سَبِيلٍ».

عندما تزول حجب الغرور والغفلة، وينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الإعتراف بالذنوب.

والمقصود من «أَمَتّنَا اثْنَتَيْنِ» هو الموت فى نهاية العمر والموت فى نهاية البرزخ؛ أمّا المقصود من «أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنَ» فهى الإحياء فى نهاية البرزخ والإحياء فى القيامة.

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك حياة جسمانية وحياة برزخية، ففى نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية؛ لكن فى نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هذين الموتتين: حياة برزخية، وحياة فى يوم القيامة.

من الطبيعى أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعودة إلى هذه الدنيا للتكفير عمّا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۸

فاتهم هو الرفض. وهذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التى نبحثها، لكن نستطيع أن نعتبر الآية التى بعدها دليلًا على ما نقول، إذ تقول: «ذلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا». فعندما يدور الكلام عن التوحيد والتقوى والأوامر الحقّة تشمئزون وتحزنون، أمّا إذا دار الحديث عن الكفر والنفاق والشرك فستفرحون وتنبسط أساريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

وفى نهاية الآية، ومن أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب المظلمة، تقول الآية إنّ الحاكمية تختص بذات اللّه سبحانه وتعالى: «فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِىّ الْكَبِيرِ». إذ لا يوجد غيره قاض وحاكم فى محكمة الآخرة، ولا يوجد غيره على وكبير، فلا يستطيع أحد أن يغلبه، ولا يوجد طريق للهروب من حكمه.

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (۱۳) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (۱۴) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (۱۵) ادع اللّه وحده رغماً على الكافرين: هذه الآيات المتضمنة للنصيحة والتهديد والإنذار، استدلال على المسائل المطروحة فى الآيات السابقة، فهى استدلال على التوحيد والربوبية ونفى الشرك وعبادة الأصنام. تقول الآية أوّلًا: «هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ».

ثم توضّح واحدة من هذه الآيات: «وَيُنَزِّلُ لَكُم مّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا».

قطرات المطر تهب الحياة، ونور الشمس يحيى الكائنات، والهواء سرّ الوجود والحياة؛ حياة جميع الكائنات، حيوانات، نباتات، اناس ... كلّها تنزل من السماء.

وأخيراً تضيف الآية الكريمة: برغم جميع هذه الآيات البينات التى تسود هذا العالم الواسع، وتغمر الوجود بضيائها، إلّاأنّ العيون العمياء والقلوب المحجوبة لا تكاد ترى شيئاً، وإنّما يتذكّر- فقط- من ينيب إلى خالقه ويغسل قلبه وروحه من الذنوب: «وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۰۹

الآية التى بعدها ترتب نتيجة على ما سبق فتقول: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ».

وأخلصوا نيّاتكم: «وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

تصف الآية التى تليها خالق الكون ومالك الحياة والموت، وبعض الصفات المهمة، فتقول: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ».

فهو رفيع فى علمه، وفى قدرته، وفى جميع أوصافه الكمالية والجمالية، هو تعالى رفيع فى أوصافه بحيث إنّ عقل الإنسان برغم قابليته واستعداده لا يستطيع أن يدركها.

تضيف الآية بعد ذلك قوله تعالى: «ذُو الْعَرْشِ».

فكلّ عالم الوجود تحت حكومته وفى قبضته.

وفى وصف ثالث تضيف الآية أنّه هو تعالى الذى: «يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». وهذه الروح هى نفس القرآن ومقام النبوة والوحى، حيث تحيى هذه الامور القلوب، وتكون فى الانسان كالروح لجسد الإنسان.

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن رزق الأجساد من مطر ونور وهواء، فيما تتحدث هذه الآيات عن الرزق «الروحى» والمعنوى المتمثل فى نزول الوحى.

والآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السلام؟

الإجابة يقدّمها القرآن فى نهاية الآية بقوله: «لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ».

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بخالقهم ...

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه السابقون باللاحقين ...

إنّه اليوم الذى يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق وقادته، ورموز الباطل وزعامته وأنصاره ...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين ...

إنّه يوم التقاء الظالم والمظلوم ...

هو يوم التقاء الإنسان والملائكة ...

وأخيراً، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله وأقواله فى محكمة العدل الإلهى.

يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (۱۶) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۱۷)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۰

يوم التلاقى: هذه الآيات والتى تليها، هى توضيح وتفسير (ليوم التلاق) وهو اسم ليوم القيامة. يبيّن تعالى أنّ يوم التلاقى، هو: «يَوْمَ هُم بَارِزُونَ» ... إنّه اليوم الذى تزول فيه جميع الحجب والأستار، ثم تنكشف الأسرار الباطنية والمخفية.

الوصف الثانى لذلك اليوم المهول، هوانكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى شيء منها على اللّه تعالى: «لَايَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ».

بالطبع ... فى هذه الحياة لا يخفى من أمر الإنسان شيء على اللّه العالم المطلق، ولكن «البروز» فى ذلك اليوم يكون مؤكّداً أكثر بحيث إنّ الآخرين سيطّلعون على أسرار بعضهم البعض؛ أمّا بالنسبة للّهفالمسألة لا تحتاج إلى بحث أو كلام.

الخصوصية الثالثة ليوم التلاقى هو انبساط الحاكمية المطلقة للّهتعالى، ويظهر ذلك من خلال نفس الآية التى تسأل عن الحكم والملك فى ذلك اليوم: «لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ».

يأتى الجواب: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

إنّ هذا السؤال وجوابه لا يطرحان من قبل فرد معيّن، بل هو سؤال يطرحه الخالق والمخلوق، الملائكة والإنسان، المؤمن والكافر، تطرحه جميع ذرّات الوجود، وكلّهم يجيبون عليه بلسان حالهم، بمعنى أنّك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته، وأينما تدقق ترى علائم قاهريته واضحة.

الخصوصية الرابعة لذلك اليوم، هو كونه يوم جزاء: «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ».

أجل، إنّ ظهور وبروز الاحاطة العلمية للّهتعالى وحاكميته ومالكيته وقهاريته كلّها أدلة واضحة على هذه الحقيقة العظيمة المخيفة من

جهة، والمفرحة من جهة اخرى.

أمّا الخصوصية الخامسة لذلك اليوم، فهى ما يختصره قوله تعالى: «لَاظُلْمَ الْيَوْمَ».

وكيف يمكن أن يحصل الظلم، فى حين أنّ الظلم إمّا أن يكون عن جهل، واللَّه عزّ وجل قد أحاط بكل شىء علماً.

وإمّا أن يكون عن عجز، واللَّه عزّ وجل هو القاهر والمالك والحاكم على كل شىء.

الصفة السادسة والأخيرة ليوم التلاقى، هى سرعة الحساب لأعمال العباد، كما نقرأ ذلك فى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

وسرعة الحساب بالنسبة للَّهتعالى تجرى كلمح البصر. ورد فى الخبر: «أنّه تعالى يحاسب للخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۱

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ (۱۹) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۲۰) يوم تبلغ القلوب الحناجر:

هذه الآيات تستمر، كالآيات السابقة، فى وصف القيامة.

يقول تعالى: «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزِفَةِ».

«الآزفة»: باللغة بمعنى (القريب). وإذا نظرنا بتأمّل فسنجد أنّ عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظة زائلة حيال يوم القيامة، ولأنّ اللَّه تبارك وتعالى لم يذكر أىّ تاريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء عليهم السلام، لذا يجب الإستعداد دائماً لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثانى ليوم الآزفة هو: «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» من شدة الخوف.

الصفة الثالثة لذلك اليوم تعبّر عنها الآية ب «كَاظِمِينَ». أى إنّ الهمّ والغمّ سيشمل كل وجودهم، إلّاأنّهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كاظم»: مشتقة من «كظم» وهى فى الأصل تعنى غلق فوهة القربة المملوءة بالماء، ثم أطلقت بعد ذلك على الأشخاص المملوئين غضباً إلّاأنّهم لا يظهرونه لسبب من الأسباب.

الصفة الرابعة ليوم التلاقى هو يوم: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ». أى صديق، نعم إنّ تلك المجموعة من الأصدقاء الكذابين التى تحيط بالشخص كذباً وتملّقاً- كما يحيط الذباب بالحلويات- طمعاً فى مقامه وقدرته وجاهه وماله.

الصفة الخامسة تقول عنها الآية: «وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ».

ذلك أنّ شفاعة الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء إنّما تكون بإذن اللَّه تعالى، وعلى هذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمة لعبدة الأصنام، الذين كانوا يعتقدون فى الحياة الدنيا أنّ أصنامهم ستشفع لهم فى حضرة اللَّه جلّ وعلا.

وفى المرحلة السادسة تذكر الآية أحد صفات الخالق جلّ وعلا، والتى تعتبر فى نفس الوقت وصفاً لكيفية القيامة، حيث تقول: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ».

إنّ اللَّه تبارك وتعالى يعلم الحركات السرية للعيون وما تخفيه الصدور من أسرار، وسيقوم تعالى بالحكم والقضاء العادل عليها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۲

الآية التى تليها تتحدث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل فى قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقّ». أمّا غيره: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَقْضُونَ بِشَىْءٍ».

فى ذلك اليوم يختص اللَّه وحده بالقضاء، وهو جلّ جلاله لا يقضى إلّابالحق.

وفى الختام وللتأكيد على المطالب المذكورة فى الآيات السابقة تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فهو تعالى سميع وبصير بمعنى الكلمة، أى إنّ كل المسموعات والمبصرات حاضرة عنده، وهذا تأكيد على إحاطته وعلمه بكل شىء، وقضاوته بالحق، فإنّه لو لم يكن سميعاً وبصيراً مطلقاً فلا يستطيع أن يقضى بالحق.

أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (۲۱) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲۲) اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين: إنّ اسلوب القرآن الكريم فى كثير من الآيات أنّه بعد أن يتعرض لكليات القضايا الحساسة والمهمة يمزجها ببعض المسائل الجزئية والمحسوسة ويأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضية والحالية، لذلك فإنّ الآيات التى بين أيدينا تتحدث عن أحوال الامم الظالمة السابقة ومنهم فرعون والفراعنة وما حلّ بهم من جزاء أليم، وتدعوا الناس للاعتبار بمصير اولئك، بعد ما كانت الآيات السابقة قد حدّثتنا عن يوم القيامة وصفاته وطبيعة الحساب الدقيق الذى ينطوى عليه. يقول تعالى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ».

إنّ الذى تحكيه الآيات وتدعونا للاعتبار به ليس تاريخاً مدوّناً نستطيع أن نشكّك فى طبيعة الوثائق والنصوص المكوّنة له، فهذه قصور الظالمين الخربة، وها هى عظامهم النخرة التى يطويها التراب، والقصور المدفونة تحت الأرض ... ها هى كلّها تحكى عظة الدرس، وعظيم العبرة، خصوصاً وأنّ القرآن يزيدنا معرفة بهؤلاء فيقول عنهم: «كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۳

كانوا يملكون السلطات القوية، والجيوش العظيمة، والمدنية الباهرة التى لا يمكن مقايستها بحياة مشركى مكة.

ولكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوّة وحياة ونماء، هى كما يقول تعالى: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ».

فلم تنفعهم كثرتهم ولم تمنعهم أموالهم وقدرتهم وشوكتهم من العذاب الإلهى عندما نزل بساحتهم.

الآية التى بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقاً بإيجاز. يقول تعالى: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا». فلم يكن الأمر أنّهم كانوا غافلين ولم يعرفوا الأمر، ولم يكن كفرهم وارتكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترا، كما يستفاد من قوله تعالى: «كَانَت تَّأْتِيهِمْ» إلّاأنّهم لم يخضعوا للأوامر الإلهية.

وحينئذ: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ». وعاقبتهم أشدّ العقاب: «إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ (۲۵) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ (۲۶) وَ قَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (۲۷) بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التى بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى وفرعون، وهامان وقارون. يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

أرسله تعالى: «إِلَى فِرْعَوْنَ وَهمنَ وَقرُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

إنّ «آيات» فى الآية التى نحن بصددها تشير إلى «معجزات موسى» بينما يشير «سلطان مبين» إلى منطق موسى عليه السلام القوى وأدلته القاطعة فى مقابل الفراعنة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۴

وبذلك كانت دعوة موسى عليه السلام تستهدف القضاء على الحاكم الظالم، والمخططات الشيطانية لرموز السياسة فى حاشية السلطان الظالم، وبتر تجاوزات الأثرياء المستكبرين، وبناء مجتمع جديد يقوم على قواعد العدالة الكاملة فى المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية.

الآية التى بعدها تتعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمة فى مقابل دعوة النبى موسى عليه السلام: «فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ».

وما نستفيده من الآية هو أنّ قضية قتل الأبناء والإبقاء على النساء فقط لم يقتصر- كاسلوب طاغوتى- على الفترة التى سبقت ولادة موسى عليه السلام فحسب، وإنّما تمّ تكرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسى عليه السلام.

ويعبّر هذا الاسلوب عن واحدة من الممارسات والخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشيطانية الظالمة التى تستهدف إبادة وتعطيل الصاقات الفعالة، وترك غير الفاعلين للإستفادة منهم فى خدمة النظام.

القرآن يجيب: «وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَلٍ».

لقد قضى اللَّه تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق وأهله، وأن يزهق الباطل وأنصاره.

لقد اشتد الصراع بين موسى عليه السلام وأصحابه من جانب، وبين فرعون وأنصاره من جانب آخر. يقول تعالى: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ».

نستفيد من الآية أنّ أكثرية مستشاريه أو بعضهم على الأقل كانوا يعارضون قتل موسى، لخوفهم أن يطلب عليه السلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته وأعماله غير العادية.

وقد استدل فرعون على تصميمه فى قتل موسى عليه السلام بدليلين، الأوّل ذو طابع دينى ومعنوى، والآخر ذو طابع دنيوى ومادى، فقال فى الأوّل، كما يحكى القرآن ذلك: «إِنّى أَخَافُ أَن يُبَدّلَ دِينَكُمْ».

وفى الثانى: «أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ».

والآن لنر كيف كان رد فعل موسى عليه السلام والذى يبدو أنّه كان حاضراً فى المجلس؟

يقول القرآن فى ذلك: «وَقَالَ مُوسَى إِنّى عُذْتُ بِرَبّى وَرَبّكُم مّن كُلّ مُتَكَبّرٍ لَّايُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۵

ويستفاد من قول موسى عليه السلام أيضاً أنّ من تحلّ فيه صفتا «التكبر» و «عدم الإيمان بيوم الحساب» فهو إنسان خطر، علينا أن نستعيذ باللَّه من شرّه وكيده.

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩) أتقتلون رجلًا أن يقول ربّى اللَّه: مع هذه الآيات تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ موسى عليه السلام وفرعون، لم تطرح فى أىّ مكان آخر من القرآن الكريم.

المرحلة التى نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذى كان من المقربين إلى فرعون، ولكنه اعتنق دعوة موسى التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، وإنّما تكتم عليه واعتبر نفسه- من موقعه فى بلاط فرعون- مكلفاً بحماية موسى عليه السلام من أىّ خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعندما شاهد أنّ حياة موسى فى خطر بسبب غضب فرعون، بادر باسلوبه المؤثّر للقضاء على هذا المخطط. يقول تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبّىَ اللَّهُ». أتقتلوه فى حين أنّه: «وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيّنَاتِ مِن رَّبّكُمْ».

ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: «وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ».

ثم تضيف الآيات: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

فإذا كان موسى سائراً فى طريق الكذب والتجاوز فسوف لن تشمله الهداية الإلهية، وإذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

ولم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، وإنّما استمرّ يحاول معهم بلينٍ وحكمة، حيث

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۶

قال لهم- كما يحكى ذلك القرآن-: أنّ بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها ونعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب

الالهى. «يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا». ويظهر أنّ هذا الكلام أثّر فى حاشية فرعون وبطانته، فقلّل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت ولم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى . وهو إنّى أرى من المصلحة قتل موسى ولا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثم إنّنى: «وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ».

وهذه هو حال كافة الطواغيت والجبارين على طول التاريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره.

وَ قَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (۳۱) وَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَّنَادِ (۳۲) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۳۳) التحذير من العاقبة: كان الشعب المصرى آنذاك يمتاز نسبياً بمواصفات التمدّن والثقافة، وقد اطّلع على أقوال المؤرخين بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح وعاد وثمود الذين لم تكن أرضهم تبعد عنهم كثيراً، وكانوا على علم بما آل إليه مصيرهم. لذلك كلّه فكّر مؤمن آل فرعون بتوجيه أنظار هؤلاء إلى أحداث التاريخ وأخذ يحذّرهم من تكرار العواقب الأليمة التى نزلت بغيرهم، عساهم أن يتيقظوا ويتجنّبوا قتل موسى عليه السلام. يقول القرآن الكريم حكاية على لسانه: «وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ».

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأنّنى خائف عليكم عن العادات والتقاليد السيئة التى كانت متفشّية فى الأقوام السالفة: «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ».

هل عندكم ضمان بأنّكم لستم مثل أولئك؛ أو أنّ العقوبات الإلهية لا تشملكم؛ ترى ماذا عمل اولئك حتى أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، وفى بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم ... لذلك كلّه فإنّى أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۷

ولكن ينبغى أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم ويقع بساحتكم هو من عند أنفسكم وبما جنت أيديكم: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ».

ثم تضيف الآية على لسانه: «وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ». أى يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلّاأصواتكم لا تصل إلى أىّ مكان.

«التناد»: مأخوذة أصلًا من كلمة «ندا» وتعنى «المناداة» والمشهور بين المفسرين أنّ (يوم التناد) هو من أسماء يوم القيامة. يعنى (يوم مناداة البعض للبعض الآخر). وهذا المعنى يعبّر عن ضعف الإنسان وعجزه عندما تنزل به المحن وتحيطه المصاعب والملمّات، وينقطع عنه العون وأسباب المساعدة، فيبدأ بالصراخ ولكن بغير نتيجة.

وفى عالمنا هذا ثمّة أمثلة عديدة على «يوم التناد» مثل الأيام التى ينزل فيها العذاب الإلهى، أو الأيام التى يصل فيها المجتمع إلى طريق مسدود لكثرة ما إرتكب من ذنوب وخطايا، وقد نستطيع أن نتصور صوراً اخرى عن يوم التناد فى حياتنا من خلال الحالات التى يمرّ بها الناس بالمشاكل والصعاب المختلفة حيث يصرخ الجميع عندها طالبين للحلّ والنجاة.

الآية التالية تفسّر يوم التناد بقولها: «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

ومثل هؤلاء حق عليهم القول: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ». إنّ هؤلاء الذين ضلّوا فى الحياة الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد والهداية وتنكّبهم عن الطريق المستقيم، سيظلّون فى الآخرة عن الجنة والرضوان والنعم الإلهية الكبرى.

وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (۳۴) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (۳۵) عجز المتكبرين عن الإدراك الصحيح: هذا المقطع من الآيات الكريمة يستمر فى عرض كلام مؤمن آل فرعون، ومن خلال نظرة فاحصة فى سياق الآيات، يظهر أنّ مؤمن آل فرعون طرح كلامه فى خمسة مقاطع.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۸

المقطع الأوّل: راعى فيه مؤمن آل فرعون الإحتياط، ودعا القوم إلى الحذر من الأضرار المحتملة.

المقطع الثانى: وفيه وجّه مؤمن آل فرعون الدعوة إلى التأمل بما حلّ بالأقوام السابقة.

المقطع الثالث: كامن فى الآيات القرآنية التى بين أيدينا، إذ تذكّرهم الآيات- من خلال خطاب مؤمن آل فرعون- بجزء من تأريخهم، هذا التاريخ الذى لا يبعد كثيراً عنهم، ولم تُمح بعد أواصر الإرتباط الذهنى والتاريخى فيما بينهم وبينه؛ وهذا الجزء يتمثّل فى نبوّة يوسف عليه السلام، الذى يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصة التذكير معهم بقوله تعالى:

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ». وبالدلائل الواضحة لهدايتكم ولكنّكم: «فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ».

وشكّكم هنا ليس بسبب صعوبة دعوته أو عدم اشتمالها على الأدلة والعلائم الكافية، بل بسبب غروركم حيث أظهرتم الشك والتردد فيها.

ولأجل أن تتنصلوا من المسؤولية، وتعطوا لأنفسكم الذرائع والمبررات، قلتم: «حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُم لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا».

بناء على ذلك كلّه لم تشملكم الهداية الإلهية بسبب أعمالكم ومواقفكم: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ».

لقد سلكتم سبيل الإسراف والتعدّى على حدود اللّه تعالى كما قمتم بالتشكيك فى كل شىء، حتى غدا ذلك كلّه سبباً لحرمانكم من اللطف الإلهى فى الهداية، فسدرتم فى وادى الضلال والغى، كى تنتظركم عاقبة هذا الطريق الغاوى.

الآية التى تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول اللّه تبارك وتعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ».

وللكشف عن قبح هذه المواقف عند اللّه وعند الذين آمنوا، تقول الآية: «كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

ذلك لأنّ الجدال بالباطل (الجدال السلبى) واتخاذ المواقف ضدّ الوقائع والآيات القائمة على أساس الدليل المنطقى، يعتبر أساساً لضلال المجادلين وتنكّبهم عن جادة الهداية والصواب، وكذلك فى اغواء الآخرين.

فى النهاية، وبسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۱۹

إنّ العناد فى مقابل الحق يشكّل ستاراً مظلماً حول فكر الإنسان، ويسلب منه قابليته على التشخيص الهادى الصحيح.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (۳۶) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (۳۷) أريد أن أطلع إلى إله موسى: بالرغم من النجاح الذى أحرزه مؤمن آل فرعون فى إثناء عزم فرعون عن قتل الكليم عليه السلام، إلّاأنّه لم يستطع أن يثنيه عن غروره وتكبّره وتعاليه إزاء الحق. يقول تعالى فى وصف هذا الموقف: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا همنُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ». أى لعلى أحصل على وسائل وتجهيزات توصلنى إلى السماوات.

«أَسْبَابَ السَّموَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كذِبًا».

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! «وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ».

«الصرح»: فى الأصل تعنى الوضوح؛ و «التصريح»: بمعنى التوضيح، ثم عُمّم معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة والقصور الجميلة العالية؛ و «تباب»: تعنى الخسارة والهلاك.

فمن خلال عملية التأمّل والتمحيص، يمكن أن تنتهى إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرف. والأهداف هذه هى:

أوّلًا: أراد فرعون أن يختلق وضعاً يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس وصرف أذهانهم عن قضية نبوّة موسى عليه السلام وثورة بنى إسرائيل.

ثانياً: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطّاع من الناس، وعلى الأخص العاطلين منهم، لكى يجد هؤلاء فى

هذا الشغل عزاءً- ولو مؤقتاً- عن مظالم فرعون وينسون جرائمه وظلمه، ومن ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدّی إلی إرتباطهم بخزانة فرعون وأمواله، وبالتالی إرتباطهم بنظامه وسياساته.

ثالثاً: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلی أعلی نقطة فيه، ويرمق السماء ببصره، أو يرمی سهماً نحو السماء، ويرجع إلی الناس فيقول لهم: لقد انتهی كل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۳۴۹

شیء بالنسبة لإله موسی، والآن انصرفوا إلی أعمالكم براحة بال.

طبعاً، يمكن للخطط السياسية والمواقف المضلّلة أن تخدع الناس شطراً من الزمان، وتؤثّر فيهم لفترة من الوقت، إلّاأنّها تنتهی بالفشل علی المدی البعيد.

وَ قَالَ الَّذِی آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (۳۸) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِیَ دَارُ الْقَرَارِ (۳۹) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَی إِلَّا مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (۴۰) اتّبعونی أهدكم سبيل الرشاد: أشرنا آنفاً إلی أنّ مؤمن آل فرعون أوضح كلامه فی مجموعة من المقاطع، وفی هذه المجموعة من الآيات الكريمة نقف علی المقطع الرابع بعد أن أشرنا فی الآيات السابقة إلی ثلاثة منها.

إنّ هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصبّ فی مضمونه علی إلفات نظر القوم إلی الحياة الدنيوية الزائلة، وقضية المعاد والحشر والنشر، إذ إنّ تركيز هذه القضايا فی حياة الناس له تأثير جذری فی تربيتهم.

يقول تعالی: «وَقَالَ الَّذِی ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ».

ثم تضيف الآية: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْأَخِرَةَ هِیَ دَارُ الْقَرَارِ».

إنّ القضية ليست فناء هذه الدنيا وبقاء الآخرة وحسب، بل الأهم من ذلك هی قضية الحساب والجزاء، حيث يقول تعالی: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَی إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَی وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ».

إنّ مؤمن آل فرعون- بكلامه هذا أثار أوّلًا قضية عدالة اللّه تبارک وتعالی، حيث يقاضی الإنسان بما اكتسبت يداه خيراً أو شرّاً.

و من جهة ثانية أشار فی كلامه إلی الثواب والفضل الإلهی لذوی العمل الصالح.

ومن جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان والعمل الصالح.

ورابعة يشير أيضاً إلی مساواة الرجل والمرأة فی محضر اللّه تبارک وتعالی، وفی القيم الإنسانية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۱

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر فی أنّ الحياة الدنيا وإن كانت متاعاً لا يغنی شيئاً عن الحياة الاخری، إلّاأنّه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهی والعطايا التی تصدر عن المطلق جلّ وعلا.

إنّ عبارة «مثلها» تشير إلی أنّ العقاب فی العالم الآخر يشبه نفس العمل الذی قام به الإنسان فی هذه الدنيا.

وَ يَا قَوْمِ مَا لِی أَدْعُوكُمْ إِلَی النَّجَاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِی لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَی الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (۴۲) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِی إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْيَا وَ لَا فِی الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنَا إِلَی اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (۴۳) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (۴۴) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (۴۵) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَ عَشِيّاً وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (۴۶) الكلام الأخير: فی خامس وآخر- مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب والأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل، فقد قال كل ما هو ضروری، أمّا القوم من ملإ فرعون، فكان لهم- كما سنری ذلک- قرارهم الخطير بشأنه.

یفهم من خلال القرائن أنّ اولئک المعاندین والمغرورین لم یسکتوا حیال کلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، وإنّما قاموا بطرح «مزایا» الشرک فی مقابل کلامه، ودعوه کذلک إلی عبادة الأصنام. لذا فقد صرخ قائلًا: «وَیَا قَوْمِ مَا لِی أَدْعُوکُمْ إِلَی النَّجَوةِ وَتَدْعُونَنِی إِلَی النَّارِ».

نعم، إنّکم: «تَدْعُونَنِی لِأَکْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِکَ بِهِ مَا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوکُمْ إِلَی الْعَزِیزِ الْغَفَّارِ».

لقد ذکّرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنة واضحة أنّ دعوتهم إلی الشرک لا تستند علی دلیل صحیح.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۲

إنّ عبارة (العزیز) و (الغفار) تشیر من جانب إلی مبدأ (الخوف والرجاء) ومن جانب ثانٍ تشیر إلی إلغاء الوهیة الأصنام والفراعنة، حیث لا یملکون العزّة ولا العفو.

ینتقل الخطاب القرآنی- علی لسان مؤمن آل فرعون- إلی قوله تعالی: «لَاجَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِی إِلَیْهِ لَیْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْیَا وَلَا فِی الْأَخِرَةِ».

إنّ هذه الموجودات لا تملک الحس والشعور، إنّها أصنام لا تتکلم ولا تضر ولا تنفع، وإنّ علیکم أن تعلموا: «وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَی اللَّهِ». فهو سبحانه وتعالی الذی أرسل رسله إلی الناس لأجل هدایتهم، وهو الذی یثیبهم ویعاقبهم علی أعمالهم.

ویجب أن تعلموا أیضاً: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِینَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

وهکذا کشف مؤمن آل فرعون ما کان یخفی من إیمانه، وبذلک فقد انکشف هنا خطّه الإیمانی التوحیدی، وانفصل علناً عن خط الشرک الملوّث.

فی آخر کلامه- وبتهدید ذی مغزی- یقول لهم: «فَسَتَذْکُرُونَ مَا أَقُولُ لَکُمْ».

إنّ ما قلته لکم ستذکرونه فی الدنیا والآخرة، وستعلمون صدقی عندما تصیبکم المصائب، وینزل بساحتکم الغضب الإلهی، لکن سیکون ذلک کلّه بعد فوات الأوان، فإن کان فی الآخرة فلا طریق للرجوع، وإن کان فی الدنیا فهو لا یتمّ إلّاحین یحلّ بکم العذاب الإلهی، وعندها ستغلق جمیع أبواب التوبة.

ثم تضیف الآیة علی لسان الرجل المؤمن: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِیرٌ بِالْعِبَادِ».

لهذا کلّه لا أخشی تهدیداتکم.

اللَّه تبارک وتعالی لم یترک عبده المؤمن المجاهد وحیداً وإنّما: «فَوَقَهُ اللَّهُ سَیَاتِ مَا مَکَرُوا».

أمّا القوم الظالمون فقد کان مصیرهم ما یرسمه لنا القرآن الکریم: «وَحَاقَ بَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ».

إنّ العذاب والعقاب الإلهی ألیم بمجمله، إلّاأنّ تعبیر «سوء العذاب» یظهر أنّ اللَّه تبارک وتعالی انتخب لهم عذاباً أشدّ إیلاماً من غیره، وهو ما تشیر إلیه الآیة التی بعدها، حیث قوله تعالی: «النَّارُ یُعْرَضُونَ عَلَیْهَا غُدُوًّا وَعَشِیًّا». ثم: «وَیَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۳

وهنا نلفت النظر إلی الملاحظتان الآتیتان:

أوّلًا: تقول الآیة: إنّهم یعرضون علی النار صباحاً ومساءً، ثم تقول: فی یوم القیامة یکون العذاب أشد ما یمکن، وهذا دلیل علی أنّ العذاب الأوّل یختص بعالم البرزخ، وهو ممّا یلی موت الإنسان ومغادرة روحه جسده، ویقع قبل یوم القیامة، إنّ العرض علی نار جهنم یهزّ الانسان ویجعله یرتعد خوفاً وهلعاً.

ثانیاً: إنّ تعبیر ب (الغدو) و (العشی) قد تکون فیه إشارة إلی استمرار العذاب. أو قد یفید انقطاع العذاب البرزخی لیقتصر علی (الغدو) و (العشی) أی الصبح والمساء، وهو الوقت الذی یقترن فی حیاة الفراعنة وأصحابهم مع أوقات لهوهم واستعراضهم لقوّتهم وجبروتهم

فی حیاتهم الدنیا.

وَ إِذْ یَتَحاجُّونَ فِی النَّارِ فَیَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِیباً مِنَ النَّارِ (۴۷) قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُلٌّ فِیها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبادِ (۴۸) وَ قالَ الَّذِینَ فِی النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنَّا یَوْماً مِنَ الْعَذابِ (۴۹) قالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّناتِ قالُوا بَلی قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْکافِرِینَ إِلَّا فِی ضَلالٍ (۵۰) نقاش الضعفاء والمستکبرین فی جهنم: لقد لفت مؤمن آل فرعون فی نهایة کلامه نظر القوم إلی القیامة والعذاب وجهنم، لذلک جاءت هذه المجموعة من الآیات الکریمة وهی تقف بشکل رائع دقیق علی تحاجج وتخاصم أهل النار فیما بینهم، وبالذات تحاجج المتستضعفین مع المستکبرین. یقول تعالی: «وَإِذْ یَتَحاجُّونَ فِی النَّارِ فَیَقُولُ الضُّعَفؤُا لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِیبًا مّنَ النَّارِ».

المراد من «الضعفاء» هنا هم اولئک الذین یفتقدون العلم الکافی والإستقلال الفکری، إذ کان هؤلاء یتبعون زعماء الکفر الذی یطلق علیهم القرآن اسم المستکبرین، وکانت التبعیة مجرد انقیاد أعمی بلا تفکیر أو وعی.

وهؤلاء الأتباع یلجأون إلیهم کی یتحملوا عنهم قسطاً من العذاب؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۴

وهی نوع من السخریة والإستهزاء واللوم، یوم یثبت أنّ کل ادعاءات المستکبرین مجرد تقوّلات زائفة عاریة عن المضمون والحقیقة.

إنّ المستکبرین لم یسکتوا علی هذا الکلام وذکروا جواباً یدل علی ضعفهم الکامل وذلّتهم فی ذلک الموقف المهول، إذ یحکی القرآن علی لسانهم قولهم: «قَالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُلٌّ فِیهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبَادِ».

وعندما تغلق فی وجههم السبل، سبل النجاة والخلاص، یتوجّه الجمیع إلی خزنة النار:

«وَقَالَ الَّذِینَ فِی النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفّفْ عَنَّا یَوْمًا مّنَ الْعَذَابِ» (۱).

إنّهم یعلمون أنّ العذاب الإلهی لا یرتفع، لذلک یطلبون أن یتوقف عنهم ولو لیوم واحد کی یرتاحوا قلیلًا ... إنّهم قانعون بهذا المقدار!

لکن إجابة الخزنة تأتی منطقیة واضحة: «قَالُوا أَوَلَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُم بِالْبَیّنَاتِ».

وفی الجواب: «قَالُوا بَلَی .

فیستطرد الخزنة: «قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعؤُا الْکَافِرِینَ إِلَّا فِی ضَللٍ».

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) یَوْمَ لا یَنْفَعُ الظَّالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۵۲) وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْهُدی وَ أَوْرَثْنا بَنِی إِسْرائِیلَ الْکِتابَ (۵۳) هُدیً وَ ذِکْری لِأُولِی الْأَلْبابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ (۵۵) الوعد بنصر المؤمنین: بعد أن تحدثت الآیات التی سبقتها عن مؤمن آل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآیات البینات تتحدث عن شمول الحمایة والنصر الإلهی لأنبیاء اللّه ورسله وللذین آمنوا فی هذه الدنیا وفی الآخرة.

إنّها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآیة الکریمة: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِینَ ءَامَنُوا فِی الْحَیَوةِ الدُّنْیَا وَیَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهدُ».

إنّها الحمایة المؤکّدة بأنواع التأکید، والتی لا ترتبط بقید أو شرط، والتی یستتبعها الفوز

---

(۱) «خزنة»: جمع خازن، وتعنی الحارس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۵

والنصر، النصر فی المنطق والبیان؛ وفی الحرب والمیدان؛ وفی إرسال العذاب الإلهی علی القوم الظالمین، وفی الإمداد الغیبی الذی یقوی القلوب ویشدّ الأرواح ویجذبها إلی بارئها جلّ وعلا.

«أشهاد»: جمع «شاهد» أو «شهيد» وهى تعنى الذى يشهد على شىء ما. والمقصود بالأشهاد، هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون الذين يشهدون على أعمال الناس.

إنّ يوم الأشهاد يوم افتضاح الكافرين وسوء عاقبة الظالمين، هو: «يَوْمَ لَايَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ».

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التى إنتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهية والدعم الربانى لهم، فتتحدث عن النبى الكليم عليه السلام: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ».

إنّ هداية اللّه لموسى تنطوى على معانى واسعة، إذ تشمل مقام النبوّة والوحى، والكتاب السماوى (التوراة) والمعاجز التى وقعت على يديه عليه السلام أثناء تنفيذه لرسالات ربّه وتبليغه إيّاها.

الآية التى بعدها تضيف: «هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَبِ».

الفرق بين «الهداية» و «الذكرى» أنّ الهداية تكون فى مطلع العمل وبدايته، أمّا التذكير فهو يشمل تنبيه الإنسان بامور سمعها مسبقاً وآمن بها لكنّه نسيها.

وبعبارة اخرى: إنّ الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية ونور فى بداية انطلاقة الإنسان، وترافقه فى أشواط حياته تبثّ من نورها وهداها عليه.

ولكن الذى يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولوا الألباب» وأصحاب العقل، وليس الجهلة والمعاندون المتعصّبون.

الآية الأخيرة- من المقطع الذى بين أيدينا- تنطوى على وصايا وتعليمات مهمة للرسول صلى الله عليه و آله وهى فى واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرسول الكريم صلى الله عليه و آله. يقول تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».

عليك أن تصبر على عناد القوم ولجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء والمعارف، وتتحمل أحياناً أذاهم وتخاذلهم.

وعليك أيضاً أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۶

إنّ جميع انتصارات الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر والإستقامة، واليوم لابدّ أن نسير على خطى رسول اللّه ونصبر كما صبر الرسول وأصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الاخرى من التعليمات الربانية تقول: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ».

واضح أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله معصوم لم يرتكب ذنباً ولا معصية، لكنّا قد أشرنا فى غير هذا المكان إلى أنّ أمثال هذه التعابير فى القرآن الكريم، والتى تشمل فى خطابها الرسول الأكرم وسائر الأنبياء، إنّما تشمل ما نستطيع تسميته ب «الذنوب النسبية» لأنّ الغفلة- مثلًا- لا تليق بمقامهم، ولو للحظة واحدة، إذ إنّ منزلتهم الرفيعة ومعرفتهم العالية تستوجب أن يحذروا هذه الامور ويستغفروا منها متى ما صدرت عنهم.

الفقرة الأخيرة فى الآية الكريمة تقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَارِ».

«العشى»: فترة ما بعد الظهر إلى قبل غروب الشمس؛ أمّا «الإبكار»: فهو ما بين الطلوعين.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۵۶) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۵۷) وَ مَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِىءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (۵۸) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۵۹) ما يستوى الأعمى والبصير: دعت الآيات السابقة رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى الصبر والإستقامة أمام المعارضين وأكاذيبهم ومخططاتهم الشيطانية، والآيات التى نحن بصددهاتذكر سبب مجادلتهم للحق. يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِى

صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ».

«المجادلة»: تعنى العناد فى الكلام وإطالته بأحاديث غير منطقية، وإن كانت تشمل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۷

أحياناً فى معناها الواسع الحق والباطل.

أمّا «آتاهم» فهى إشارة إلى الأدلة والبراهين التى أوحى اللَّه بها إلى أنبيائه عليهم السلام.

أمّا المقصود ب «آيات اللَّه» التى كانوا يجادلون فيها، فهى معجزات وآيات القرآن والأحاديث المختصة بالمبدأ والمعاد، حيث كانوا يعتبرونها سحراً، أو أنّها علامات الجنون، أو أساطير الأوّلين.

من ذلك يتبيّن أن ليس لهؤلاء من دليل حى ومنطقى فى المجادلة سوى التعالى والغرور والتكبر عن الإنصياع إلى الحق.

ثم تضيف الآية: «مَّا هُم بِبَالِغِيهِ».

إنّ هدفهم أن يروا أنفسهم كباراً، يفاخرون بذلك ويفتخرون على غيرهم، لكنّهم لن يحصدوا سوى الذلة والخسران.

فى نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن يستعيذ باللَّه من شرّ هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فهو- تعالى- يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، وينظر إلى مؤامراتهم وأعمالهم القبيحة وخططهم الشريرة.

إنّ قضية المعاد وعودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التى يجادل فيها الكفار، ويعاندون بها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لذلك تنتقل الآية التالية إلى التذكير بهذه القضية، وإعادة طرحها وفق منطق قرآنى آخر، إذ يقول تعالى: «لَخَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

إنّ خالق هذه المجرّات العظيمة ومدبّرها يستطيع- بطريق أولى أن يحيى الموتى، وإلّا كيف يتّسق القول بخلقه السماوات والأرض وعجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

لقد تضمّنت الآية الكريمة سبباً آخر من أسباب المجادلة متمثلًا ب «الجهل» فى حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». والعاملان يرتبطان مع بعضهما، لأنّ أصل وأساس «الكبر» هو «الجهل» وعدم معرفة الإنسان لحدوده وقدره، ولعدم تقديره لحجم علمه ومعرفته.

الآية التى بعدها، وفى إطار مقارنة واضحة تكشف عن الفرق بين حال المتكبرين الجهلة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۸

وبين المؤمنين الواعين، حيث تقول: «وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِىءُ». إلّا أنّكم بسبب جهلكم وتكبركم: «قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ».

إنّ المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، وبذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم ومعرفتهم وموقعهم، إلّاأنّ الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه فى الزمان والمكان وفى عموم الوجود المحيط به، لذلك فهو يخطىء دائماً فى تقييم أبعاد وجوده، ويصاب بالكبر والغرور والوهم الذى يدفعه إلى ما هو قبيح وسيّىء.

الآية الأخيرة فى المجموعة القرآنية التى بين أيدينا تتعرّض إلى وقوع القيامة وقيام الساعة حيث يقول تعالى: «إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

أمّا سبب القول: ب «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ» فلا يعود إلى أنّ قيام القيامة من القضايا المجهولة والمبهمة، بل ثمّة ميل فى الإنسان نحو «الحرية» فى الاستفادة غير المشروطة أو المقيدة من ملذّات الدنيا وشهواتها، بالإضافة إلى الأمل الطويل العريض الذى يلازم الإنسان فينساق مع الحياة، ويغفل عن التفكير بالقيامة، أو الإستعداد لها.

وَ قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (۶۰) اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا

فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (۶۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۶۲) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۶۳) ادعونى أستجب لكم: لقد تضمّنت الآيات السابقة ألوان الوعيد والتهديد لغير المؤمنين من المتكبرين والمغرورين، المجموعة التى بين أيدينا من الآيات الكريمة تفيض حبّاً إلهيّاً ولطفاً، وتنبجس بالرحمة الشاملة للتائبين. يقول تعالى: «وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ».

الدعاء فى نفسه نوع من العبادة، لأنّ الآية أطلقت فى نهايتها صفة العبادة على الدعاء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۲۹

تتضمّن الآية فى نهايتها تهديداً قويّاً للذين يستنكفون عن الدعاء، حيث يقول تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ» (۱).

فى الكافى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إنّ عند اللَّه عزّ وجل منزلة لا تنال إلّابمسألة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فسل تعط يا ميسر إنّه ليس من باب يقرع إلّايوشك أن يفتح لصاحبه».

فبما أنّ الدعاء وطلب الحوائج من اللَّه تعالى يعتبر فرعاً لمعرفته، لذا تتحدث الآية التى تليها عن حقائق تؤدّى إلى ارتقاء مستوى المعرفة لدى الإنسان، وتزيد شرطاً جديداً لإجابة الدعاء، متمثلًا بالأمل فى الإجابة، بل وانتظار تنجز الحاجة وتمامها. يقول تعالى:

«اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ».

إنّ ظلمة الليل وهدوءه وسكونه يعتبر- من جانب- سبباً قهرياً لتعطيل الحركة اليومية لعمل الإنسان السوى ونشاطه، ومن ناحية اخرى تمحو عن الإنسان تعب النهار، وتدفعه إلى الإستقرار والرأفة لجسده وأعصابه، فى حين يعتبر النور والنهار أساس الحياة والحركة.

لذلك يضيف تعالى: «وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

ثم تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ».

إنّ طبع الإنسان الجاهل هو كفران النعم وترك الشكر، كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۴) من سورة إبراهيم، فى قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

الآية التى تليها تبدأ من توحيد الربوبية وتنتهى بتوحيد الخالقية والربوبية. فتقول أوّلًا:

«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ». ومربيكم الذى من صفاته أنّه: «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ».

ولا معبود إلّاالله: «لَّاإِلهَ إِلَّا هُوَ».

فى الواقع إنّ وجود كل هذه النعم دليل على الربوبية والتدبير، وخالق كل شىء عنوان لصفة التوحيد فى الربوبية، لأنّ الخالق هو المالك والمربى. ومن المعلوم أنّ الخلق يستدعى الرعاية الدائمة لأنّ الخالقية لا تعنى أنّ اللَّه يخلق الخلق ويتركها وشأنها، بل لابدّ وأن يكون الفيض الإلهى مستمراً فى كل لحظة على جميع الموجودات. ولذلك فهذه الخالقية لا تنفصل عن الربوبية.

---

(۱) «داخر»: من «دخور» وتعنى الذلة، وهذه الذلة هى عقوبة ذلك التكبر والإستعلاء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۰

وتتساءل الآية فى نهايتها: كيف يسوّغ الإنسان لنفسه الإنحراف والتنكّب عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

والملاحظ أنّ «تؤفكون» صيغة مجهول، بمعنى أنّها تحرفكم عن طريق الحق، وكأنّ المراد هو أنّ المشركين فاقدون للإرادة إلى درجة أنّهم يساقون فى هذا المسير دون أىّ نسبة من الحرية والإرادة والإختيار فى هذا المجال!

الآية الأخيرة- من مجموعة الآيات التى نبحثها- تأتى وكأنّها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: «كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

«يجحدون»: مشتقة من مادة «جحد» وهى فى الأصل تعنى إنكار الشىء الموجود فى القلب والنفس. بمعنى أنّ الإنسان يقر فى نفسه وقلبه بعقيدة أو بشىء ما، وفى نفس الوقت ينفيه ويتظاهر بعكسه أو يعتقد بعدمه فى نفسه ويثبته فى لسانه.

ويطلق وصف الجحود على البخلاء والذين لا يؤمّل منهم الخير ويتظاهرون بالفقر دائماً.

بعض علماء اللغة أوجز فى تفسير «جحد» و «جحود» بقولهم: الجحود الإنكار مع العلم.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ الجحود يتضمّن فى داخله نوعاً من معانى العناد فى مقابل الحق.

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ صَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۶۴) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۵) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِى الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۶) ذلكم اللّه ربّكم: تستمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بذكر المواهب الإلهية العظيمة وشمولها للعباد، كى تهب لهم المعرفة، وتُربّى فى نفوسهم الأمل بالدعاء والتسليم وطلب الحوائج من اللّه تعالى.

والطريف فى الأمر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن «النعم الزمانية» من ليل ونهار، بينما تتحدث هذه المجموعة عن «النعم المكانية» أى الأرض المستقرة، والسقف المرفوع (السماء) حيث تقول: «اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۱

إنّه المكان الخالى من المعوّقات الصعبة، متناسق فى تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحى والجسدى، حيث تتوفر فى الأرض المصادر المختلفة للحياة والوسائل المتنوعة والمجانية التى يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً». أى كالسقف والقبة فوقكم.

والمقصود بالسماء هنا الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض.

ثم ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى: «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ».

لقد ذهب بعض المفسرين فى تفسير: «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» إلى معنى أوسع من الصورة والشكل الظاهرى والتكوين الداخلى، فقال: إنّ المعنى يتضمّن كل الإستعدادات والأذواق التى خلقها اللّه فى الإنسان وأودعها فيه، ففضّله بها على كثير ممن خلق.

وفى آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا والمواهب الإلهية، تتحدث الآية عن النعمة الرابعة، وهى الرزق الطيّب بقوله تعالى: «وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ».

«الطيبات» تشتمل على معنى وسيع جدّاً، وهى تشمل الجيّد من الطعام واللباس والزوجة والمسكن والدواب، وهى أيضاً تشمل الكلام والحديث الطيّب الزكى النافع.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهية، تعود الآية للقول: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» (۱).

الآية التى بعدها تستمر فى إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر، فتؤكّد انحصار الحياة الواقعية باللّه تعالى وتقول: «هُوَ الْحَيُّ».

إنّ حياته عين ذاته، ولا تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ وتعالى) أبدية لا يطالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت وحياتها محدودة وموقتة تسترفد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغى للإنسان الفانى المحدود المحتاج أن يرتبط فى عبادته بالحى المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحدانية فى العبودية من خلال قوله تعالى: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

---

(۱) «ذلكم»: اسم إشارة للبعيد، واستخدامها فى مثل هذه الموارد كناية على العظمة وعلوّ المقام.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۲

وعلى أساس هذه الوحدانية تتقرّر قضية اخرى يتضمّنها قوله تعالى: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينِ». ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

والتعبير القرآنى درس للعباد بأن يتوجّهوا بالشكر والحمد إلى الخالق جلّ وعلا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب متواصل النعم على عباده، خاصة نعمة الحياة والوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هى فى الواقع خلاصة لكل البحوث التوحيدية الآنفة، وجاءت لكى تقضى على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها فى نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجّهاً كلامه إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «قُلْ إِنّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبّى».

ولم ينهانى ربّى عن عبادة غيره فحسب، بل: «وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبّ الْعَالَمِينَ».

إنّ أمثال هذه الصيغ والأساليب المؤثرة يمكن أن نلمسها فى كل مكان من كتاب اللَّه العزيز، فهى تجمع الليونة والأدب حتى إزاء الأعداء والخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيتأثرون بالاسلوب المذكور.

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶۸) المراحل السبع لخلق الإنسان: تتميماً لما تحدّثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التى بين أيدينا فى إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات الأنفسية» والمراحل التى تطوى خلق الإنسان وتطوّره، من البدء إلى النهاية.

الآية الكريمة تتحدث عن سبع مراحل تكشف عن عظمة الخالق جلّ وعلا وجزيل مواهبه ونعمه على العباد. يقول تعالى: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۳

يتّضح من سياق الآية الكريمة أنّ المرحلة الاولى أو بداية الإنسان فى مسيرة الخلق والوجود تكون من التراب، حيث خلق اللَّه أبانا الأوّل آدم عليه السلام من تراب، أو أنّ جميع البشر خلقوا من التراب، ذلك أنّ المواد الغذائية التى تشكّل قوام الإنسان ووجوده، بما فى ذلك النطفة- سواء كانت حيوانية أم نباتية- كلّها تستمد أساسها واصولها من التراب.

المرحلة الثانية، هى مرحلة النطفة التى تشمل جميع البشر كأصلٍ ثانٍ فى وجودهم عدا آدم وزوجته حوّاء.

المرحلة الثالثة التى تتكامل فيها النطفة وتنمو بشكلٍ مستمر وتتحوّل إلى قطعة دم فتسمى بمرحلة «العلقة».

بعد ذلك تتحوّل «العلقة» إلى «مضغة» أشبه ما تكون باللحم «الممضوغ» وهى مرحلة ظهور الأعضاء، ثم مرحلة الحس والحركة، والآية لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث، لكن الآيات الاخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحلة الرابعة تتمثل فى ولادة الجنين، بينما تتمثل المرحلة الخامسة فى تكامل القوّة الجسمية التى قيل إنّها تتم فى سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنسانى أكبر قدر ممكن من نموه وتكامل قواه.

وقال البعض: إنّ الإنسان يصل هذه المرحلة قبل هذا السن، ومن الممكن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبير القرآنى.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الرجوع القهقرى إلى الوراء، فيفقد الإنسان قواه تدريجياً، فيصل إلى الشيب الذى يعتبر المحطة السادسة من محطات حياة الإنسان.

أخيراً، تنتهى حياة كل إنسان فى الأرض بالموت والإنتقال إلى العالم الآخر.

بعد كل هذه التغيّرات والتطوّرات، هل ثمّة من شك فى قدرة وعظمة مبدىء عالم الوجود، وألطاف اللَّه ومواهبه على الخلق؟!

الآيـة الأخيرة فى هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة اللّه تبارك وتعالى متمثلة بقضـية الحياة والموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان- بالرغم من تقـدّم العلم وتطوّره- فى نطاق الامور الغامضـة والمجهولـة فى معرفة الإنسان وعلمه. قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۴

إنّ نمـاذج الحيـاة تعتبر أكثر النمـاذج تنوّعـاً فى عـالم الوجود وكل الكائنات تنتهى بأجلٍ معيّن إلى الموت، سواء فى ذلك الكائن ذو الخليّة الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التى تعيش فى الأعماق المظلمة للمحيطات والبحار، أو الطيور التى تعانق السـماء، ومن الأحياء احاديـة الخليّة السابحـة فى امواج المحيطات إلى الأشـجار التى يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإنّ لكل واحـد منها حياة خاصة وشـرائط معيّنة، وبهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، وبدون شك فإنّ أشكال الحياة هى أكثر أشكال الخلقة تنوّعاً وأعجبها.

وكـل واحـدة من هـذه القضايـا المعقّدة والمتنوعـة لا تعتبر مشـكلة وعسيرة بالنسبة إلى قـدرة الخالق جلّ وعلا، حيث تتحقق بمجرد إرادته. لذلك تقول الآية فى نهايتها بياناً لهذه الحقيقة: «فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶) عاقبة المعاندين المغرورين: مرّةً اخرى تعود آيات اللّه البينات للحديث عن الذين يجادلون فى آيات اللّه، فتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ».

إنّ هـذه المجادلـة بالباطل المقترنـة مع التعصب الأعـمى جعلتهم يحيـدون عن الصـراط المستقيم، لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبيّن إلّالفى الروح الباحثة عن الحقيقة ومن ثم الإذعان لمنطقها.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عندما تقول: «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۵

من الضـرورى أن نشـير أوّلًا إلى أنّ السورة التى بين أيـدينا تحـدّثت أكثر من مرّة عن «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ» جاء ذلك فى الآيتين (۳۵) و (۵۶) وهـذه الآية، ونسـتفيد من القرائن أنّ المقصود ب «آيات اللّه» هى دلائل النبوّة وعلائمها على الأكثر، بالإضافة إلى ما تحويه الكتب السـماوية، وطالما تتضـمّن الكتب السـماوية آيات التوحيـد، والمسائل الخاصـة بالمبـدأ والمعاد، لـذا فإنّ هذه القضايا مشمولة بجدال القوم وخصومتهم للحق.

وتنتهى الآيـة بتهديد من خلال قوله تعالى: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». أى سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وعاقبة أعمالهم السيئة وذلك فى وقت «إِذِ الْأَغْلَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلسِلُ يُسْحَبُونَ فِى الْحَمِيمِ». أى يلقى بهم فى الماء المغلى: «ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ» «۱».

إضافة إلى هذا العذاب الجسمانى سيعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحى والنفسى كما تشير إليه الآية التالية، حيث يقول تعالى: «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». أى: أين شـركاؤكم من دون اللّه كى ينقذوكم من هـذا العـذاب الأليم وأمواج النار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنّكم تعبدونهم وتطيعونهم وتتخذونهم أرباباً ليشفعوا لكم، إذاً أين شفاعتهم الآن؟!

فيجيبون بخضوع يغشاهم وذلّ يعلوهم: «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا». أى اختفوا وهلكوا وابيدوا بحيث لم يبق منهم أثر.

وعنـدما يرى هؤلاء أنّ اعترافهم بعبادة الأصـنام أصـبح عاراً عليهم وعلامةً تميّزهم، فإنّهم يبدأون بالإنكار فيقولون: «بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيًا».

لقـد كانت الأصـنام مجرّد أوهام، لكنّا كنّا نظن أنّها تمثل حقائق ثابتة، لكنّها أصـبحت كالسـراب الذى يتصوّره العطشان ماءً، أمّا اليوم فقد ثبت لنا أنّها لم تكن سوى أسـماء من غير مسمى وألفاظ ليس لها معنى، وأنّ عبادتها لم تنفعنا بشىء سوى الضلال. لذلك فهؤلاء

اليوم يواجهون الواقع الذى لا سبيل إلى إنكاره.

هناك احتمال آخر فى تفسير الآية، هو أنهم سيكذبون لينقذوا أنفسهم من الفضيحة، كما نقرأ ذلك فى الآيتين (۲۳ و ۲۴) من سورة الأنعام: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا

---

(۱) «الأغلال»: جمع «غل» وتعنى الطوق حول العنق أو الرجل، وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة «غلل» على وزن «أجل» بمعنى الماء الذى يجرى بين الأشجار.

«السلاسل»: جمع «سلسلة»؛ و «يسحبون» من كلمة «سحب» على وزن (سهو).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۶

مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وأخيراً يقول تعالى: «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ». إنّ كفرهم وعنادهم سيكون حجاباً على قلوبهم وعقولهم، ولذلك سيتركون طريق الحق ويسلكون سبيل الباطل، فيحرمون يوم القيامة من الجنة وينتهى مصيرهم إلى النار.

وهكذا يضل اللّه الكافرين.

الآية التى بعدها تشير إلى علة مصائب هذه المجموعة، حيث يقول تعالى: «ذلِكُم بِمَا كُنتُم تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ».

كانوا يفرحون بمعارضة الأنبياء وقتل المؤمنين والتضييق على المحرومين، وكانوا يشعرون بالعظمة عند إرتكاب الذنوب وركوب المعاصى واليوم عليهم أن يتحمّلوا ضريبة كل ذلك الفرح والغفلة والغرور من خلال هذه النيران والسلاسل والسعير.

ولمثل هؤلاء يصدر الخطاب الإلهى: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى على أنّ التكبر هو أساس المصائب.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْکَ وَ مَا کَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِیَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِکَ الْمُبْطِلُونَ (۷۸) فاصبر ... حتى يأتيك وعد اللّه: بعد سلسلة البحوث السابقة عن جدال الكافرين وغرورهم وتكذيبهم الآيات الإلهية والدلائل النبوية، تأتى هاتان الآيتان لمواساة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتأمرانه بالصبر والإستقامة فى مواجهة المشاكل والصعاب. يأتى الأمر أوّلًا فى قوله تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ».

إنّ وعده بالنصر حق، ووعده بمعاقبة المستكبرين المغرورين حق، وكلاهما سيتحققان، فعلى أعداء الحق أن لا يظنّوا بأنّهم يستطيعون الهروب من العذاب الإلهى بسبب تأخّر عقابهم، لذلك تضيف الآية: «فَإِمَّا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۷

إنّ مسؤوليتك هى التبليغ البليغ وإتمام الحجة على الجميع، حتى تتنوّر القلوب اليقظة ببلاغك، ولا يبقى للمعاندين عذر.

ثم تشير الآية الكريمة إلى الوضع المشابه الذى واجهه الرسل والأنبياء قبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله كى تكون فى هذه الذكرى مواساة أكثر للرسول الكريم، حيث واجه الأنبياء السابقين مثل هذه المشاكل، إلّاأنّهم استمروا فى طريقهم واحتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِکَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْکَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْکَ».

ورد فى الروايات والمصادر الإسلامية المختلفة أنّ عدد الأنبياء كان (۱۲۴) ألف نبى. لقد واجه كل منهم ما تواجهه أنت اليوم، فصبروا وكان حليفهم النصر والغلبة على الظالمين.

ومن جهة ثانية كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزة، ومشركو مكة لم يشذّوا على غيرهم فى طلب المعاجز من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لذلك يخاطب اللّه تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بقوله: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثم تهدّد الآية من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهى إذا كان هذا الرسول صادقاً؟

فتقول الآية: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ».

فى ذلك اليوم المهول تغلق أبواب التوبة، ويخسر أهل الباطل صفقتهم.

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (۸۱) منافع الأنعام المختلفة: تعود الآيات التى بين أيدينا للحديث مرّة اخرى عن علائم قدرة الخالق (جلّ وعلا) ومواهبه العظيمة لبنى البشر، وتشرح جانباً منها كى تزيد من وعى الإنسان ومعرفته باللّه تعالى، وليندفع نحو الثناء والشكر فيزداد معرفة بخالقه. يقول تعالى: «اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

فبعضها يختص بالغذاء كالأغنام، وبعضها للركوب والغذاء كالجمال.

«أنعام»: جمع «نعم» على وزن «قلم» وتطلق فى الأصل على الجمال، لكنّها توسّعت فيما بعد لتشمل الجمال والبقر والأغنام.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۸

إضافة لما سبق تقول الآية التى بعدها: إنّ هناك منافع اخرى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ».

الإنسان يستفيد من لبنها وصوفها وجلدها وسائر أجزائها الاخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها فى تسميد الأرض وإخصاب الزرع.

ثم تضيف الآية: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ».

وهذا إشارة إلى الترفيه والهجرة والسياحة والتسابق والتفاخر، وما إلى ذلك من رغبات تنطوى عليها نفس الإنسان.

ولأنّ الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية فى نهايتها: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

لقد جعلت للسفينة صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال والأوزان الكبيرة التى عليها، وجعل اللّه تعالى الحركة فى الريح بحيث تستطيع الفلك الاستفادة منها فى حركتها و ايصال الإنسان و البضائع إلى مناطق مختلفة فى العالم.

الآية الأخيرة هى قوله تعالى: «وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَىَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ».

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَاراً فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۸۳) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (۸۴) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (۸۵) هذه الآيات هى آخر مجموعة من سورة غافر، ونستطيع أن نعتبرها نوعاً من الاستنتاج للبحوث السابقة. فأوّلًا تقول: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

فاولئك: «كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ».

عبارة: «ءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ» لعلّها إشارة إلى تقدّمهم الزراعى- كما جاء فى الآية (۹) من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۳۹

سورة الروم- أو إشارة إلى البناء العظيم للأقوام السابقين فى قلب الجبال والسهول.

ومع هذه القوّة والعظمة التى كانوا يتمتعون بها، فإنّهم لم يستطيعوا مواجهة العذاب الإلهى: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

الآية التى بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء ومعاجز الرسل البيّنة، حيث يقول تعالى: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ». أى إنّهم فرحوا بما عندهم من المعلومات والأخبار، وصرفوا وجوههم عن الأنبياء وأدلتهم. وكان هذا الأمر سبباً لأن ينزل بهم العذاب الالهى: «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

والمقصود من العلم الذی کان عندهم، هو اعتماد البشر علی ما لدیهم، واستعلاءهم بهذه «المعرفة» علی دعوات الرسل ومعاجز الأنبیاء، بل واندفع هؤلاء حتی إلی السخریة بالوحی والمعارف السماویة.

لکنّ القرآن الکریم یذکر مآل غرور هؤلاء وعلوّهم وتکبرهم إزاء آیات اللّه، حینما یقول: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُو وَکَفَرْنَا بِمَا کُنَّا بِهِ مُشْرِکِینَ».

ثم تأتی النتیجة سریعاً فی قوله تعالی: «فَلَمْ یَکُ یَنفَعُهُمْ إِیمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا».

لماذا؟ لأنّه عند نزول «الإستئصال» تغلق أبواب التوبة.

وهذا الحکم لا یختص بقوم دون غیرهم، بل هو: «سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبَادِهِ».

ثم تنتهی الآیة بقوله تعالی: «وَخَسِرَ هُنَالِکَ الْکَافِرُونَ».

ففی ذلک الیوم عندما ینزل العذاب بساحتهم، سیفهم هؤلاء بأنّ رصیدهم فی الحیاة الدنیا لم یکن سوی الغرور والظنون والأوهام.

وهکذا تنتهی السورة المبارکة (غافر) التی بدأت بوصف حال الکافرین المغرورین، ببیان نهایة هؤلاء وما آل إلیه مصیرهم من العذاب والخسران.

«نهایة تفسیر سورة غافر»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۱

۴۱. سورة فصلت

محتوی السورة: یمکن الحدیث عن محتویات السورة من خلال الخطوط العریضة التالیة:

۱- الترکیز علی موضوع القرآن وما یتصل به من بحوث.

۲- إثارة قضیة خلق السماء والأرض، خاصة ما یتعلق ببدایة العالم الذی خلق من مادة (الدخان) ثم مراحل نشوء الکرة الأرضیة والجبال والنباتات والحیوانات.

۳- ثمة فی السورة إشارات إلی عاقبة الأقوام المغرورین الأشقیاء من الامم السابقة، مثل قوم عاد وثمود، وهناک إشارة قصیرة إلی قصة موسی علیه السلام.

۴- تتضمّن السورة تهدید المشرکین وإنذار الکافرین، مع ذکر آیات القیامة وما یتعلّق بشهادة أعضاء جسم الإنسان علیه، وتوبیخ اللّه تبارک وتعالی لأمثال هؤلاء.

۵- تتناول السورة قسماً من أدلة البعث والقیامة وخصوصیاتهما.

۶- تنتهی السورة ببحث لطیف عن آیات الآفاق والأنفس، وتعود کرّةً اخری إلی قضیة المعاد.

إنّ تسمیة السورة ب «فصّلت» مشتق من الآیة الثالثة فیها، وإطلاق «حم السجدة» علیها لأنّها تبدأ ب «حم» والآیة (۳۷) فیها هی آیة السجدة.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من قرأ حم السجدة اعطی

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۲

بعدد کل حرف منها عشر حسنات».

و أخرج البیهقی فی شعب الایمان عن الخلیل بن مرة أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان لا ینام حتی یقرأ تبارک وحم السجدة «۱».

و طبیعی أنّ هذه السورة المبارکة بکل ما تتضمّن فی مضامینها العالیة من أنوار ومعارف ومواعظ إنّما تکون مؤثّرة فیما لو تحوّلت

تلاوتها إلى نور ينفذ إلى أعماق النفس، فتتحوّل فى حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده فى يوم القيامة نحو الصراط والخلاص، لأنّ التلاوة مقدمة للتفكير، والتفكير مقدمة للعمل.

حم (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (۴) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (۵) عظمة القرآن: فى الدرّ المنثور عن جابر بن عبداللَّه قال: اجتمع قريش فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا:

أنت يا أبا الوليد. فأتاه فقال: يا محمّد أنت خير أم عبداللَّه؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. قال: فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت وإن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلم حتى نسمع منك. أما واللَّه ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب حتى لقد طار فيهم أنّ فى قريش ساحراً وأنّ فى قريش كاهناً واللَّه ما ننتظر إلّامثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف. يا أيّها الرجل إن كان نما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلًا واحداً وإن كان نما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «فرغت»؟ قال: نعم. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم

---

(۱) روح المعانى ۲۴/ ۹۴.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۳

* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَت ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» حتى بلغ «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: لا- فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنّكم تكلمون به إلّاكلمته قالوا: فهل أجابك؟ قال: والذى نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنّه قال: «أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال؟ قال لا واللَّه ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

نعود الآن إلى المجموعة الاولى من آيات هذه السورة المباركة، التى تطالعنا بالحروف المقطعة فى أوّلها «حم».

إنّ البعض اعتبر (حم) اسماً للسورة، أو أنّ (ح) إشارة إلى «حميد»، و (م) إشارة إلى «مجيد» وحميد ومجيد هما من أسماء اللَّه العظمى.

ثم تتحدث عن عظمة القرآن فتقول: «تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ».

إنّ «الرحمة العامة» و «الرحمة الخاصة» للَّه‌تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمة التى هى رحمة للعدو والصديق، ولها بركات خاصة للأولياء.

بعد التوضيح الاجمالى الذى أبدته الآية الكريمة حول القرآن، تعود الآيات التالية إلى بيان تفصيلى حول أوصاف هذا الكتاب السماوى‌العظيم، وذكرت له خمسة صفات ترسم الوجه الأصلى للقرآن: فتقول أوّلًا: إنّه كتاب ذكرت مطالبه ومواضيعه بالتفصيل كل آية فى مكانها الخاص، بحيث يلبّى احتياجات الإنسان فى كل المجالات والأدوار والعصور، فهو:

«كِتَابٌ فُصِّلَت ءَايَاتُهُ». وهو كتاب فصيح وناطق: «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

وهذا الكتاب بشير للصالحين، نذير للمجرمين: «بَشِيرًا وَنَذِيرًا». إلّاأنّ أكثرهم:

«فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ».

بناءً على ذلك فإنّ أوّل خصائص هذا الكتاب هو أنّه يتضمّن فى تشريعاته وتعاليمه كل ما يحتاجه الإنسان وفى جميع المستويات، ويلبّى ميوله ورغباته الروحية.

الصفة الثانية أنّه متكامل، لأنّ «قرآن» مشتق من القراءة، وهى فى الأصل بمعنى جمع أطراف وأجزاء الكلام.

الصفة الثالثة تتمثل بفصاحة القرآن وبلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقّة بليغة دون أىّ نواقص، وفى نفس الوقت يعكسها بشكل جميل وجذّاب.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۴

الصفتان الرابعة والخامسة تكشفان عن عمق التأثير التربوى للقرآن الكريم، عن طريق اسلوب الإنذار والوعيد والتهديد والترغيب، فآية تقوم بتشويق الصالحين والمحسنين بحيث إنّ النفس الإنسانية تكاد تطير وتتماوج فى آفاق الملكوت والرحمة، وأحياناً تقوم آية بالتهديد والإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة وعنف المشهد. ومع ذلك فإنّ المتعصّبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، وكأنّهم لا يسمعونها أبداً بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنّهم فى الواقع يفتقدون لروح السماع وإدراك الحقائق، ووعى محتويات النذير والوعيد القرآنى.

وهؤلاء- كمحاولة منهم لثنى الرسول صلى الله عليه و آله عن دعوته، وايغالًا منهم فى الغى وفى زرع العقبات- يتحدّثون عند رسول اللَّه بعناد وعلو وغرور حيث يحكى القرآن عنهم: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ».

مادام الأمر كذلك فاتركنا وشأننا، فاعمل ما شئت فإنّنا عاكفون على عملنا: «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ».

«أكنّة»: جمع «كنان» وتعنى الستار.

هكذا ... بمنتهى الوقاحة والجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

عبارة «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» محاولتهم زرع اليأس عند النبى صلى الله عليه و آله. أو قد يكون المراد نوعاً من التهديد له. والتعبير يمثّل منتهى العناد والتحدّى الأحمق للحق ولرسالاته.

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸) من هم المشركون: الآيات التى بين أيدينا تستمر فى الحديث عن المشركين والكافرين، وهى فى الواقع إجابة لما صدر عنهم فى الآيات السابقة، وإزالة لأىّ وهمّ قد يلصق بدعوة النبى صلى الله عليه و آله. يقول تعالى لرسوله الكريم: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ».

ثم تستمر الآية: «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ».

ثم تضيف الآية محذّرة: «وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۵

الآية التى تليها تقوم بتعريف المشركين، وتسلّط الضوء على جملة من صفاتهم وتختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ لَايُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

إنّ هؤلاء يعرّفون بأمرين: ترك الزكاة، وإنكار المعاد.

والمقصود من الزكاة فى الآية هو المعنى العام للإنفاق، أمّا كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أنّ الإنفاق المالى فى سبيل اللَّه يعتبر من أوضح علامات الإيثار والحب للَّه، لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان ونفسه، وبذلك فإنّ الإنفاق- وعدمه- يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان والشرك، خصوصاً فى تلك المواقف التى يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه ونفسه، كما نرى ذلك واضحاً فى بعض الأمثلة المنتشرة فى حياتنا.

بعبارة اخرى: إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذى يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ وعلا، والأمر من هذه الزاوية بالذات يقترن بشكل متساوى مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازماً لإنكار وجوبه.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللَّه عزّ وجل فرض للفقراء فى أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهى

الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سمّوا مسلمين».

الآيـة الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف فى الجانب المقابل لهؤلاء المشـركين البخلاء، وتتعرّض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ». «ممنون»: مشتق من «منّ» وتعنى هنا القطع أو النقص، لذا فإنّ غير ممنون تعنى هنا غير مقطوع أو منقوص.

قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) مراحل خلق السماوات والأرض: الآيات أعلاه نماذج للآيات الآفاقية، وعلائم العظمة،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۶

وقـدرة الخالق جلّ وعلا فى خلق الأرض والسـماء، وبدايـة خلق الكائنات، حيث يأمر تعالى النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله بمخاطبة الكافرين والمشـركين. يقول تعالى: «قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ». وتجعلون للّه‌تعالى شركاء ونظائر: «وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا».

إنّه لخطأ كبير، وكلام يفتقـد إلى الـدليل: «ذلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ». إنّ الـذى يدبّر امور هذا العالم، أليس هو خالق السـماء والأرض؟ فإذا كان سبحانه وتعالى هو الخالق، فلماذا تعبدون هذه الأصنام وتجعلونها بمنزلته؟!

الآيـة التى تليهـا تشـير إلى خلق الجبال والمعادن وبركات الأرض والمواد الغذائيـة، حيث تقول: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ». وهذه المواد الغذائية هى بمقدار حاجة المحتاجين: «سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ».

وبهذا الترتيب فإنّه تبارك وتعالى قد دبّر لكل شىء قدره وحاجته.

المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان والحيوان والنبات.

ووفق هذا التفسير فإنّ اللّه تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ البداية وحسب، وإنّما فعل ذلك للحيوانات والنباتات أيضاً.

بعد الإنتهاء من الكلام عن خلق الأرض ومراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السـماوات حيث تقول الآية: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا». فكانت الإجابـة: «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ». وفى هـذه الأثناء: «فَقَضَـهُنَّ سَبْعَ سَموَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ». ثم: «وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». وأخيراً: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا». نعم: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

إنّ هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أنّ دحو وتوسيع الأرض وتفجّر العيون ونبات الأشـجار والمواد الغذائية، قد تمّ جميعاً بعد خلق السماوات.

ملاحظات

تبقى أمامنا ملاحظات ينبغى أن نشير إليهم:

١- عبـارة «بَارَكَ فِيهَا» إشارة إلى المعادن والكنوز المستودعة فى باطن الأرض، وما على الأرض من أشـجار وأنهار ونباتات ومصادر للماء الذى هو أساس الحياة والبركة، حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضية.

٢- عبارة «فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة فى الآية (أى خلق الجبال،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۷

خلق المصادر وبركات الأرض، خلق المواد الغذائية).

٣- جملـة «هى دخان» تبيّن أنّ بدايـة خلق السـماوات كان من سـحب الغازات الكثيفة الكثيرة، وهذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصّـلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق والعالم.

۴- قوله تعالى: «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» لا- تعنى أنّ كلاماً قد جرى باللفظ، وإنّما قول الخالق وأمره هو نفسه الأمر التكوينى، وهو عين إرادته فى الخلق. أمّا التعبير ب «طوعاً أو كرهاً» فهو إشارة إلى أنّ الإرادة الإلهية الحتمية قد ارتبطت بتكوّن السماوات والأرض. والمعنى أنّه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

۵- قوله تعالى: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ» يشير إلى وجود مرحلتين فى خلق السماوات، كل مرحلة استمرت لملايين أو مليارات السنين، وكل مرحلة تتضمن مراحل اخرى، ومن المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبديل الغازات المضغوطة إلى سوائل ومواد مذابة، ثم مرحلة تبديل المواد المذابة إلى مواد جامدة.

۶- إنّ العدد «سبع» ربّما جاء هنا للكثرة، بمعنى أنّ هناك سماوات كثيرة وأجرام كثيرة.

ومن المحتمل أن يكون الرقم للعدد، أى إنّ عدد السماوات هى سبع بالتحديد. ومع هذا التقييد، فإنّ جميع ما نرى من كواكب ونجوم ثابتة وسيّارة هى من السماء الاولى، وبذلك يكون عالم الخلقة متشكّلًا من سبع مجموعات كبرى، واحدة منها فقط أمام أنظار البشرية.

۷- قوله تعالى: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ» تدلّ على أنّ جميع النجوم زينة للسماء الاولى، وهى ليست للزينة وحسب، بل فى الليالى المعتمة تكون مصابيح للتائهين وأدلة لمن يسير فى الطريق، تعينهم على تعيين اتجاه الحركة.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۱۴) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنْصَرُونَ (۱۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۸

احذّركم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود: بعد البحث المهم الذى تضمّنته الآيات السابقة حول التوحيد ومعرفة الخالق جلّ وعلاه تنذر الآيات- التى بين أيدينا- المعارضين والمعاندين الذين تجاهلوا كل هذه الدلائل الواضحة والآيات البينات، وتحذّرهم أنّ نتيجة الإعراض، نزول العذاب بهم. يقول تعالى: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». «الصاعقة»: تعنى الصوت المهيب فى السماء، ويشتمل على النار أو الموت أو العذاب.

يواصل الحديث القرآنى سياقه بالقول: «إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

إنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل والأساليب لهدايتهم، حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمة.

لكن لنرى ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمة الواسعة لرسل اللّه تعالى. يقول تعالى: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَكَةً» لإبلاغ رسالته بدلًا من إرسال الناس، والآن ومادام الأمر كذلك: «فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ». وما جئتم به لا نعتبره من اللّه.

إنّها نفس الذريعة التى ينقلها القرآن مراراً على لسان منكرى النبوات ورسالات اللّه ومكذبى الرسل، من الذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائماً ملائكة، وكأنّما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلك قولهم فى الآية (۷) من سورة الفرقان: «وَقَالُوا مَالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا».

إنّ قائد البشر يجب أن يكون من صنف البشر، كى يعرف مشاكل الإنسان واحتياجاته ويتفاعل مع قضاياهم، وكى يستطيع أن يكون القدوة والاسوة، لذلك يصرّح القرآن فى الآية (۹) من سورة «الأنعام» بقوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا».

بعد المجمل الذى بيّنته الآيات أعلاه، تعود الآيات الآن- كما هو اسلوب القرآن الكريم- إلى تفصيل ما اوجز من خبر قوم عاد وثمود فتقول: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً».

لكنّ القرآن يردّ على هؤلاء ودعواهم بالقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۴۹

تضيف الآية فى النهاية قوله تعالى: «وَكَانُوا بَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

نعم، إنّ الإنسان الضعيف المحدود سوف يطغى بمجرّد أن يشعر بقليل من القدرة والقوّة، وأحياناً بدافع من جهله، فيتوهم أنّه يصارع اللّه جلّ وعلا.

لكن ما أسهل أن يبدل اللّه عوامل حياته إلى موت ودمار، كما تخبرنا الآية عن مآل قوم عاد: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

إنّ هذه الريح الصرصر، وكما تصرّح بذلك آيات اخرى، كانت تقتلعهم من الأرض بقوّة ثم ترطمهم بها، بحيث أصبحوا كأعجاز النخل الخاوية- يلاحظ الوصف فى سورة القمر الآيتين (۱۹ و ۲۰) وسورة الحاقّة الآية (۶) فما بعد.

لقد استمرت هذه الريح سبع ليال وثمانية أيّام، وحطّمت كيانهم وكل وسائل عيشهم، نكالًا بما ركبوا من حماقة وعلو وغرور، ولم يبق منهم سوى أطلال تلك القصور العظيمة، وآثار تلك الحياة المرفهة.

هذا فى الدنيا، وهناك فى الآخرة: «وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَخْزَى .

إنّ العذاب الدنيوى هو فى الواقع كالشرارة فى مقابل بحر لجّى من النار فى عذاب الآخرة.

والأنكى من ذلك أن ليس هناك من ينصرهم: «وَهُمْ لَايُنصَرُونَ».

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۱۸) عاقبة قوم ثمود: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان فى قضية قوم ثمود ومصيرهم، حيث تقول: إنّ اللّه قد بعث الرسل والأنبياء لهم مع الدلائل البيّنة، إلّاأنّهم: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .

لذلك: «فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وهؤلاء مجموعة تسكن «وادى القرى (منطقة بين الحجاز والشام) وقد وهبهم اللّه أراضى خصبة خضراء مغمورة، وبساتين ذات نعم كثيرة، وكانوا يبذلون الكثير من جهدهم فى الزراعة، ولقد وهبهم اللّه العمر الطويل والأجسام القوية، وكانوا مهرة فى البناء القوى المتماسك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۳۹۸

لقد جاءهم نبيّهم بمنطق قوى، ومعه المعاجز الإلهية، إلّاأنّ هؤلاء القوم المغرورين المستعلين لم يرفضوا دعوته وحسب، بل آذوه وأتباعه القليلين، لذلك شملهم اللّه بعقابه فى الدنيا، ولن يغنى ذلك عن عذاب الآخرة شيئاً.

القرآن يجيبنا على ذلك بقول اللّه عزّ وجل: «وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

قال بعض المفسرين: لقد آمن بالنبى صالح (۱۱۰) أشخاص من بين مجموع القوم.

لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها وتقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها وعنادها؛ والمجموعتان يمكن أن تكونا نموذجاً لفئات من هذه الأمة.

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَا أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۲۳) كانت الآيات السابقة تتحدث عن الجزاء الدنيوى للكفار المغرورين والظالمين والمجرمين، أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدث عن العذاب الاخروى، وعن مراحل مختلفة من عقاب أعداء اللّه. يقول تعالى: «وَيَوْمَ

يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ».

ولكى تتصل الصفوف ببعضها يتمّ تأخير الصفوف الاولى حتى تلتحق بها الصفوف الاخرى: «فَهُمْ يُوزَعُونَ» «۱». وحينذاك: «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

يا لهم من شهود؟ فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها عليه ولا يمكن إنكار شهادتها، لأنّها كانت حاضرة فى جميع المشاهد والمواقف وناظرة لكل الأعمال، وهى إذ تتحدث فبأمر اللَّه تعالى.

---

(۱) «يوزعون»: من «وزع» وهى بمعنى المنع، وعندما تستخدم للجنود أو الصفوف الاخرى، فإنّ مفهومها يعنى أن يبقى المجموع إلى أن يلتحق بهم آخر نفر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۱

إنّ قوله تعالى «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا» يبيّن أنّ المحكمة تنعقد بالقرب من النار.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، وآية استغرابهم قوله تعالى: «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا».

وفى الجواب يقولون: «قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ».

ثم تستمر الآية بقوله تعالى: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

ومرّة اخرى تضيف: «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ».

وإنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: «وَلكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَايَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ».

كنتم غافلين عن أنّ اللَّه يسمع ويرى، يشهد أعمالكم فى كل حال ومكان، ثم هناك عناصر الرقابة التى ترافقكم وهى معكم فى كل مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفى عن أعينكم وآذانكم وجلودكم؟

ثم يقول تعالى: «وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَيكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

توضّح الآيات بشكل قاطع خطورة سوء الظن باللَّه تعالى، ومآل ذلك إلى الهلاك والخسران.

وبعكس ذلك فإنّ حسن الظن باللَّه تعالى سبب للنجاة فى الدنيا والآخرة.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (۲۴) وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (۲۵) قرناء السوء: فى أعقاب البحث السابق حيث تحدّثت الآيات الكريمة عن مصير «أعداء اللَّه» جاءت الآيتان أعلاه لتشيران إلى نوعين من العقاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء فى الدنيا والآخرة. يقول تعالى: «فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ». ولا يمكنهم الخلاص منها لأنّها مصيرهم سواء صبروا أم لم يصبروا.

«مثوى»: من «ثوى» على وزن «هوى» وتعنى المقرّ ومحل الاستقرار.

وللتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: «وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۲

«يستعتبون»: مأخوذة فى الأصل من «العتاب» وتعنى إظهار الخشونة، ومفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كى يعفو عنه ويرضى عنه، لذلك فإنّ كلمة (استعتاب) تعنى الإسترضاء وطلب العفو. ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوى لهؤلاء فتقول: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوىء لهم حسنات.

«قيضنا»: من «قيض» على وزن (فيض) وتعنى فى الأصل قشرة البيضة الخارجية، ثم قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضة.

وهذه إشارة إلى أنّ أصدقاء السوء والرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، ويهيمنون عليهم بحيث

يفقدون معه قابلية الإدراك والإحساس المستقل، وعندها ستكون الامور القبيحة السيئة جميلة حسنة فى نظرهم.

لقد ورد هذا المعنى بشكلٍ أوضح فى الآيتين (۳۶ و ۳۷) من سورة الزخرف فى قوله تعالى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ».

وبسبب هذا الوضع تضيف الآية بأنّ الأمر الالهى صدر بعذابهم وأنّ مصيرهم هو مصير الامم السالفة: «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ».

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ».

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (۲۹) الضجيج فى مقابل صوت القرآن: بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد وثمود، وتحدّثت عن جلساء السوء وقرناء الشر، تتحدث المجموعة التى بين أيدينا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۳

من الآيات البينات عن جانب من جوانب الإنحراف لمشركى عصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى هذه الآيات، حيث يقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ».

هذا الاسلوب فى مواجهة تأثير الحق ونفوذه بالرغم من كونه اسلوباً قديماً، إلّاأنّه يستخدم اليوم بشكلٍ أوسع وأخطر لصرف أفكار الناس وخنق أصوات المنادين بالحق والعدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع صوت الحق.

فتارة يتمّ اللغو بواسطة الضجة والضوضاء والصفير.

واخرى بواسطة القصص الكاذبة والخرافية.

وثالثة بواسطة قصص الحب والعشق المثيرة للشهوات.

وقد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد وأنواع الأفلام المبتذلة والمطبوعات المنحرفة الرخيصة، والألاعيب السياسية الكاذبة والمثيرة، إنّهم يعمدون إلى الإستعانة بأى أسلوب يؤدّى إلى حرف أفكار الناس واهتماماتهم عن الحق.

الآية الاخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا».

خاصة اولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات اللّه.

وهذا العذاب يمكن أن يشملهم فى الدنيا بأن يقتلوا على أيدى أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله أو يقعوا فى أسرهم، وقد يكون فى الآخرة، أو يكون العذاب فى الدنيا والآخرة معاً.

قوله تعالى: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ».

كما أنّ قوله تعالى: «كَانُوا يَعْمَلُونَ» دليل على أنّه سيتمّ التأكيد على الأعمال التى كانوا يقومون بها دائماً.

وللتأكيد على قضية العذاب، يأتى قوله تعالى: «ذلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ».

وهذه النار ليست مؤقتة زائلة بل: «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ». نعم، فذلك: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

«يجحدون»: من «جحد» إشارة إلى إنكار الحقائق مع العلم بها، وهذا من أسوأ أنواع الكفر.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذى سيشمل الكفار وهم فى الجحيم فيقول:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۴

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ». إنّ اولئك كانوا ينهونا عن سماع قول النبى وكانوا يقولون: إنّه ساحر مجنون.

والمقصود من الجن والإنس- فى الآية- هم الشياطين، والناس الذين يقومون بالغواية مثل الشياطين، وليس هما شخصان معيّنان.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (۳۲) نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين: بعد أن تحدّث القرآن الكريم عن المنكرين المعاندين الذين يصدّون عن آيات اللّه، وأبان جزاءهم وعقوبتهم، بدأ الآن (فى الصورة المقابلة) فى الحديث عن المؤمنين الراسخين فى إيمانهم، وأشار إلى سبعة أنواع من الثواب الذى يشملهم جزاء ومثوبة لهم. يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا».

فلا تقلقوا من الصعوبات التى تنتظركم، ولا تحزنوا على ذنوبكم الماضية.

هناك الكثير من الذين يدّعون محبة اللّه، إلّاأنّنا لا نرى الإستقامة واضحة فى عملهم وسلوكهم، فهم ضعفاء وعاجزون بحيث عندما يشملهم طوفان الشهوة يودّعون الإيمان ويشركون فى عملهم.

وينبغى أن ننتبه هنا إلى أنّ «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هى ثمرة لشجرة الإيمان، إذ الإيمان يدعو الإنسان إلى الاستقامة متى ما نفذ إلى عمق الإنسان، وتأسست قواعد وجوده النفسى على التقوى، كما أنّ الاستقامة تقوى فى الإنسان ملكة التقوى والسير فى طريق الحق والإيمان.

روى أنّ سفيان بن عبداللّه الثقفى قال: قلت: يا رسول اللّه! حدثنى بأمر أعتصم به. قال:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۵

«قل ربّى اللّه ثم استقم» «۱».

فبعد البشارتين الاولى والثانية والمتمثلتين بعدم (الخوف) و (الحزن) تصف الآية المرحلة الثالثة بقوله تعالى: «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

والبشارة الرّابعة يتضمّنها قوله تعالى: «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الْأَخِرَةِ».

فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم فى الخير وتعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنة.

وهذا- أى البشارة الرابعة- دليل على أنّ المؤمنين من ذوى الاستقامة يسمعون هذا الكلام من الملائكة فى الدنيا عندما يكونون أحياء، إلّاأنّ ذلك لا يكون باللسان واللفظ، بل يسمعون ذلك باذُن قلوبهم، بما يشعرون به من هدوء واستقرار وسكينة وإحساس كبير بالراحة عند المشاكل والصعاب، وتثبّت أقدامهم من السقوط والإنحراف.

والبشارة الخامسة قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ». أى: فى الجنة.

أمّا البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية وما تريدونه. بل الاستجابة إلى العطايا والمواهب المعنوية: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ».

أمّا البشارة السابعة والأخيرة فهى أنّكم ستحلون ضيوفاً لدى البارىء عزّ وجل وفى جنته الخالدة، وستقدّم لكم كل النعم تماماً مثلما يتمّ الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: «نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ».

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحاً وَ قَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۳) وَ لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۶) ادفع السيّئة بالحسنة: مازالت هذه المجموعة من الآيات الكريمة تتحدث عن الصورة الاخرى عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول. يقول تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

---

(۱) سنن ابن ماجة ۲/ ۱۳۱۴؛ سنن ترمذى ۴/ ۳۲.

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۳۵۶

إنّ الآية الكريمة هذه ترسم ثلاث صفات لذى القول الحسن هى: الدعوة إلى اللَّه، والعمل الصالح، والتسليم حيال الحق. بعد بيان الدعوة إلى اللَّه وأوصاف الدعاة إلى اللَّه، شرحت الآيات اسلوب الدعوة وطريقتها، فقال تعالى: «وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ».

فى الوقت الذى لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الإفتراء والإستهزاء والسخرية والكلام البذىء وأنواع الضغوط والظلم؛ يجب أن يكون سلاحكم- أنتم الدعاة- التقوى والطهر وقول الحق واللين والرفق والمحبة.

وبالرغم من أنّ (الحسنة) و (السيّئة) تنطويان على مفهومين واسعين، إذ تشمل الحسنة كل إحسان وجميل وخير وبركة، والسيئة تشمل كل انحراف وقبح وعذاب، إلّاأنّ الآية تقصد ذلك الجانب المحدّد من السيّئة والحسنة، الذى يختص بأساليب الدعوة.

ثم تضيف الآية: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ».

إدفع الباطل بالحق، والجهل والخشونة بالحلم والمداراة، وقابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، والقبح بالقبح، لأنّ هذا اسلوب من همّه الانتقام، ثم إنّ هذا الاسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر.

وتشير الآية فى نهايتها إلى فلسفة وعمق هذا البرنامج فى تعبير قصير، فتقول: إنّ هذا التعامل سيقود إلى: «فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ».

«ولى»: هنا بمعنى الصديق؛ و «حميم»: تعنى فى الأصل الماء الحار المغلى، ويقال للأصدقاء المخلصين والمحبين للشخص «حميم» والآية تقصد هذا المعنى.

إنّ هذا الاسلوب من التعامل مع المعارضين والأعداء ليس بالأمر العادى السهل، والوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقى عميق، لذلك فإنّ الآية التى بعدها تبيّن الاسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل فى تعبير قصير ينطوى على معانى كبيرة، حيث يقول تعالى:

«وَمَا يُلَقَّهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا».

و كذلك: «وَمَا يُلَقَّهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

إنّ هناك- بلا شك- موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، وإنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله بوصفه الاسوة والقدوة فتقول له: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«نزغ»: تعنى الدخول فى عملٍ ما لإفساده، ولهذا السبب يطلق على الوساوس

مختصر الامثل، ج ۴، ص: ۳۵۷

الشيطانية «نزغ»، وهذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطرة، إذ يقوم بعض أدعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلّا بالقوّة، وأمثال ذلك من الوساوس التى تنتهى إلى مقابلة السيئة بالسيئة.

القرآن الكريم يقول: إيّاكم والسقوط فى مهاوى هذه الوساوس، ولا تلجأوا إلى القوّة إلّا فى موارد معدودة.

وأخيراً، تتضمّن الآية الدعوة إلى الاستعاذة باللَّه فى دائرة واسعة.

وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۳۹) السجود للَّه‌تعالى: تعتبر هذه الآيات بداية فصل جديد فى هذه السورة، فهى تختص بقضايا التوحيد والمعاد، ودلائل النبوة وعظمة القرآن، وهى فى الواقع مصداق واضح للدعوة إلى اللَّه فى مقابل دعوة المشركين إلى الأصنام. تبدأ أوّلًا من قضية التوحيد، فتدعو الناس إلى الخالق عن طريق الآيات الآفاقية: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» «۱».

فالليل وظلمته للراحة، والنهار وضوءه للحركة. أمّا الشمس فهى مصدر كل البركات المادية فى منظومتنا، فالضوء والحرارة والحركة ونزول المطر، ونمو النباتات ونضج الفواكه، وحتى ألوان الورود الجميلة، كل ذلك يدين فى وجوده إلى الشمس.

القمر يقوم بدوره بإضاءة الليالى المظلمة، وضوءه دليل السائرين فى دروب الصحراء، وهو يجلب الخيرات بتأثيره على مياه البحار وحدوث الجزر والمد فيه.

ولعل البعض قام بالسجود لهذين الكوكبين السماويين وبعبادتهما بسبب الخيرات

---

(۱) ينبغى الإلتفات إلى أنّ السجدة هنا واجبة فى حال سماع الآية أو تلاوتها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۸

والبركات الآنفة الذكر، فتاهوا فى عالم الأسباب. ولذلك نرى القرآن بعد هذا البيان يقول مباشرة: «لَاتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». إنّ هذه الآية تستدل على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذى يتحكّم بالشمس والقمر والليل والنهار، وإنّ حاكميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلًا على وجوب عبادته.

فاللّه تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: «فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَايَسْمُونَ» «۱».

فليس مهماً أن لا تسجد مجموعة من الجهلة والغافلين حيال جبروت اللّه وذاته المقدسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع ملىء بالملائكة المقربين الذين يركعون ويسجدون ويسبحون له دائماً ولا يفترون أبداً.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجة إلى عبادة اللّه ولا يحتاج تعالى لعبادتهم، لأنّ فخرهم وكمالهم لا يتمّ إلّافى ظل العبودية له سبحانه وتعالى.

نعود مرّة اخرى إلى آيات التوحيد التى تعتبر الأرضية للمعاد. يقول تعالى: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ».

ثم تنتقل الآية من قضية التوحيد المتمثلة هنا بالحياة التى ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار والخفايا والغموض، إلى قضية المعاد، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَى .

نعم: «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

فدلائل قدرته واضحة فى كل مكان، فكيف نشكّك بالمعاد ونعتبره محالًا؟

«خاشعة»: من «الخشوع» وتعنى فى الأصل التضرّع والتواضع الملازم للأدب؛ واستخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعاً من الكناية.

«ربت»: من «ربو» على وزن (غلو) وتعنى الزيادة والنمو، والربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأنّ المرابى يطلب دينه مع الزيادة.

«اهتزت»: من «هز» على وزن «حظ» وتعنى التحريك الشديد.

---

(۱) «يسأمون»: من كلمة «السأمة» وتعنى التعب من الإستمرار فى العمل أو فى موضوع معيّن.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۵۹

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أ فَمَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲) محرّفو آيات الحق: المجموعة التى بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، وتضليل الناس، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى ءَايَاتِنَا لَايَخْفَوْنَ عَلَيْنَا».

من الممكن لهؤلاء أن يضلّوا الناس باسلوب المغالطة وباستخدام السفسطة الكلامية، ويخفوا ذلك عن الناس؛ إلّاأنّه ليس بوسعهم

إخفاء ذرّة ممّا يقومون به عن اللّه تبارك وتعالى.

«يلحدون»: من «إلحاد» وهى فى الأصل من «لحد» على وزن (عهد) وتعنى الحفرة الواقعة فى جانب واحد، ولهذا السبب يطلق على الحفرة فى جانب القبر اسم «اللحد». ثم اطلقت كلمة (إلحاد) على أىّ عمل يتجاوز الحد الوسط إلى الإفراط أو التفريط، وهى لذلك تطلق لوصف الشرك وعبادة الأصنام، ويقال لمن لا يؤمن باللّه تعالى (الملحد).

والمقصود من «الإلحاد فى آيات اللّه» هو إيجاد الوساوس والتمويه فى أدلة التوحيد والمعاد التى ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «ومن آياته».

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء فى إطار مقارنة واضحة فقال تعالى: «أَفَمَن يُلقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيمَةِ».

الأشخاص الذين يحرقون ايمان الناس وعقائدهم بنيران الشبهات والتشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدايتهم إلى التوحيد والإيمان، فإنّهم سيكونون فى أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان فى هذه الدنيا؟

وعندما ييأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ».

لكن عليكم أن تعلموا: «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۰

لكن هذا الأمر لا يعنى أنّ لهم الحرية فى أن يعملوا ما يشاؤون، أو أن يتصرّفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم لإعراضهم عن كلام الحق.

الآية التى بعدها تتحوّل من الحديث عن التوحيد والمعاد إلى القرآن والنبوّة، وتحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ».

إنّ إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان وإيقاظه، وشرح وتفصيل الحقائق له بشكلٍ إجمالى عن طريق فطرته.

ثم تنطلق الآية لبيان عظمة القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ».

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو أن يتغلّب عليه، منطقه عظيم واستدلاله قوى، وتعبيره بليغ منسجم وعميق، تعليماته جذرية، وأحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر فى أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة اخرى مهمة حول عظمة القرآن وحيويته، فيقول تعالى: «لَّايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ».

يعنى عدم وجود تناقض فى مفاهيمه، ولا ينقض بشىء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، ولا يعارض كذلك بالإكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، ولا يمكن أن ينسخ فى المستقبل.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص فى آية أو كلمة، ولن يطاله ذلك مستقبلًا.

لأنّه: «تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

أفعال اللّه عزّ وجل لا تكون إلّاوفق الحكمة وفى غاية الكمال. لذا فهو أهل للحمد دون غيره.

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۴۵) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۱

کتاب الهدایة والشفاء: قام الکفار والمشرکون بمحاربة رسول اللّه صلی الله علیه و آله وتکذیبه، والتصدّی للاسلام والقرآن. والآیات السابقة کانت تحکی عن إلحادهم وکفرهم بآیات اللّه لذلک جاءت الآیة الاولی من الآیات التی بین أیدینا لمواساة النبی صلی الله علیه و آله وارشاد المسلمین الذین یواجهون الأذی بأن لا محیص لهم عن الاستقامة والصبر. یقول تعالی: «مَّا یُقَالُ لَکَ إِلَّا مَا قَدْ قِیلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِکَ».

فإذا کانوا یتهمونک بالجنون والکهانة والسحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف علی من قبلک من الأنبیاء والمرسلین.

إنّ دعوتک لدین الحق لیست جدیدة، وإنّ ما تواجهه وأنت تدعو للدین الجدید لیس جدیداً أیضاً، لذلک ما علیک- یا رسول اللّه- إلّاأن ترابط بقوّة وتلزم ما أنت علیه ولا تهتم بکلام هؤلاء، لأنّ اللّه معک.

یقول اللّه تبارک وتعالی فی نهایة الآیة: «إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِیمٍ».

فرحمته ومغفرته للمصدّقین، وعذابه للمکذبین والمعارضین.

الآیة التی بعدها تتحدث عن ذرائع هؤلاء المعاندین، وترد علی واحدة منها، إذ کانوا یقولون: لماذا لم ینزل القرآن بلسان الأعاجم حتی نهتم به أکثر ویستفید منه غیر العرب؟

وهنا یجیب القرآن علی هذا القول بقوله: «وَلَوْ جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِیًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَایَاتُهُ».

ثم یضیفون: یا للعجب قرآن أعجمی من رسول عربی؟: «ءَأَعْجَمِیٌّ وَعَرَبِیٌّ».

أو یقولون: کتاب أعجمی لُامّة تنطق بالعربیة؟!

«أعجمی»: من «عجمة» وتعنی عدم الفصاحة والإبهام فی الکلام، وتطلق «عجم» علی غیر العرب لأنّ العرب لا یفهمون کلامهم بوضوح، وتطلق «أعجم» علی من لا یجید الحدیث والکلام سواء کان عربیاً أم غیر عربی.

ثم یخاطب القرآن الرسول صلی الله علیه و آله بالقول: «قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ ءَامَنُوا هُدًی وَشِفَاءٌ».

أمّا لغیرهم: «وَالَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ فِی ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ». أی «ثقل» ولذلک لا یدرکونه.

ثم إنّه: «وَهُوَ عَلَیْهِمْ عَمًی». أی إنّهم لا یرونه بسبب عماهم، فهؤلاء کالأشخاص الذین ینادون من بعید: «أُولَئِکَ یُنَادَوْنَ مِن مَّکَانٍ بَعِیدٍ».

الآیة التالیة تستمر فی مواساة رسول اللّه صلی الله علیه و آله والمؤمنین معه وتقول لهم: إنّ للعناد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۲

والإنکار تاریخ طویل فی حیاة النبوّات: «وَلَقَدْ ءَاتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ». وإذ تری أنّنا لا نعجل فی عقاب هؤلاء الأعداء المعاندین، فذلک لأنّ المصلحة تقتضی أن یکونوا أحراراً حتی تتمّ الحجة علیهم: «وَلَوْلَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ». أی لکان العقاب قد شملهم بسرعة.

إنّ التأجیل الإلهی إنّما یتم هنا لمصلحة الناس ومن أجل المزید من فرص الهدایة والنور، وبغیة إتمام الحجة علیهم، وهذه السنّة کانت نافذة فی جمیع الأقوام السابقة، وهی تجری فی قومک أیضاً.

لکنّهم لم یصدّقوا بهذه الحقیقة بعد: «وَإِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِّنْهُ مُرِیبٍ».

«مریب»: من «ریب» بمعنی الشک الممزوج بسوء الظن والقلق، لذلک فمعنی الآیة: إنّ المشرکین لا یشکّون فی کلامک وحسب، بل یزعمون وجود القرائن علی بطلانه والتی تؤدّی بزعمهم إلی الریب.

فی الآیة الأخیرة- من المجموعة- نقف أمام قانون عام یرتبط بأعمال الناس، وقد أکّده القرآن مراراً، وهذا القانون یکمل البحث السابق بشأن استفادة المؤمنین من القرآن، بینما یحرم غیر المؤمنین أنفسهم من فیض النور الإلهی والهدی الربانی. یقول تعالی فی هذا القانون: «مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَیْهَا وَمَا رَبُّکَ بِظَلَّمٍ لِّلْعَبِیدِ».

لذا فإنّ من لم يؤمن بهذا الكتاب والدين العظيم فسوف لن يضروا اللّه تعالى ولا يضروك، لأنّ الحسنات والسيئات تعود إلى أصحابها، وهم الذين سينالون حلاوة أعمالهم ومرارتها.

كلمة «ظلّام» والتى هى صيغة مبالغة بمعنى «كثير الظلم»، يمكن أن تشير- هنا وفى آيات قرآنية اخرى- إلى أنّ العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقاً للظلم الكثير، لأنّه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

وذهب بعضهم إلى أنّ اللّه تعالى له عباد كثيرون، فلو أراد أن يظلم كل واحد منهم بجزء يسير قليل، عندها سيكون مصداقاً ل «ظلّام».

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۳

اللّه العالم بكل شيء: الآية الأخيرة- فى المجموعة السابقة- تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان مسؤولية أعماله خيراً كانت أم شراً، وعودة آثار أعماله على نفسه، وهى إشارة ضمنية لقضية الثواب والعقاب فى يوم القيامة.

وهنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التى تتحدث عنها؟ الآيتان اللتان نبحثهما تجيبان أوّلًا عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إنّ اللّه وحده يختص بعلم قيام الساعة: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ».

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة وحده من مختصات العلم الإلهى فحسب، بل يندرج معه أشياء اخرى مثل أسرار هذا العالم، وما يختص بالكائنات الظاهرة والمخفية: «وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِّنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ».

«أكمام»: جمع «كم» على وزن «جم» وتعنى الغلاف الذى يغطّى الفاكهة و «كم» على وزن «قم» تعنى الجزء من الرداء الذى يغطّى اليد.

وبما أنّ أدقّ المراحل فى عالم الكائن الحى هى مرحلة النمو فى الرحم والولادة، لذلك أكّد القرآن على هاتين القضيتين، سواء فى عالم الإنسان والحيوان، أم فى عالم النبات.

ثم يضيف السياق القرآنى: إنّ هذه المجموعة التى تنكر القيامة وتستهزىء بها، ستتعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ».

فما كنّا نقوله هو كلام باطل، كان كلاماً نابعاً من الجهل والعناد والتقليد الأعمى، واليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهية.

وهؤلاء فى نفس الوقت الذى يسجّلون اعترافهم السابق، فهم أيضاً لا يشاهدون أثراً للمعبودات التى كانوا يعبدونها من دون اللّه من قبل: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ».

إنّ مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب، فينسون خواطر تلك الأصنام والمعبودات التى كانوا يعبدونها ويسجدون لها ويذبحون لها القرابين.

ففى ذلك اليوم سيعلمون: «وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ».

«محيص»: من «حيص» على وزن «حيف» وتعنى العدول والتنازل عن شيء، ولأنّ (محيص) اسم مكان، فهى تعنى هنا الملجأ والمفر.

«ظنوا»: من «ظنّ» ولها فى اللغة معنىً واسع، فهى أحياناً بمعنى اليقين، وتأتى أيضاً بمعنى الظن، وفى الآية مورد البحث جاءت بمعنى اليقين.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۴

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذَا لِى وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) فى نفس الاتجاه الذى تحدثت فيه الآيات السابقة، نلتقى مع مضمون المجموعة الجديدة من الآيات التى بين

أيدينا. يقول تعالى: «لَّايَسَمُ الْإِنسنُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ».

ولكنّه: «وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسٌ قَنُوطٌ».

والمقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المتربى بعدُ باصول التربية الإسلامية، والذى لم يتنور قلبه بالمعرفة الإلهية والإيمان باللّه، ولم يحسّ بالمسؤولية بشكل كامل.

الآية التالية تشير إلى صفة اخرى من صفات الإنسان الجاهل البعيد عن العلم والإيمان متمثلة بالغرور: «وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذَا لِى».

أى: إنّنى مستحق ولائق لمثل هذه المواهب والمقام.

تضيف الآية بعد ذلك أنّ هذا الغرور يقود الإنسان فى النهاية إلى إنكار الآخرة حيث يقول: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». ولنفرض أنّ هناك قيامة فإنّ حالى سيكون أحسن من هذا: «وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُو لَلْحُسْنَى .

لكنّ اللّه يحذّر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ». «العذاب الغليظ»: هو العذاب الشديد المتراكم.

الآية التى بعدها تذكر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هى حالة النسيان عند النعمة والفزع والجزع عند المصيبة. يقول تعالى: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ». أمّا:

«وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ».

«نا»: من «نأى» على وزن «رأى» وتعنى الابتعاد، وعندما تقترن مع كلمة «بجانبه» فتكون كناية عن التكبر والغرور، لأنّ المتكبرين ينأون بوجوههم دون اهتمام ويبتعدون.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۵

«العريض»: مقابل الطويل، ويستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلالة على الزيادة والكثرة.

إنّ الإنسان الذى يفتقد الإيمان والتقوى يكون عرضة لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناسٍ للّه، وإذا أدبرت عنه فقنوط يائس كثير الجزع.

وفى الجانب المقابل نرى أنّ رجال الحق وأتباع الأنبياء والرسل لا يتغيّرون إذا أقبلت عليهم النعم، ولا يهنون أو ييأسون أو يجزعون عند إدبارها.

الآية الأخيرة تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء، وتبيّن لهم- بوضوح- الأصل العقلى المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

إنّه نفس الاسلوب الذى نقرأ عنه فى محاججة أئمة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضحاً فى الحادثة التى ينقلها العلّامة الكلينى رحمه الله فى الكافى حيث يذكر فيه الحوار الذى دار بين الإمام الصادق عليه السلام وابن أبى العوجاء.

فمن المعروف أنّ عبد الكريم بن أبى العوجاء كان من ملاحدة عصره ودهرييه، وقد حضر الموسم الحج أكثر من مرّة والتقى مع الإمام الصادق عليه السلام فى مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنه إلى الإسلام، ولكن ابن أبى العوجاء لم يسلم، وقد صرّح الإمام عليه السلام بأنّ سبب ذلك: «هو أعمى من ذلك لا يسلم».

والحادثة موضع الشاهد هنا، هى أنّ الإمام بصُر بابن أبى العوجاء فى الموسم فقال له:

«ما جاء بك إلى هذا الموضع»؟ فقال: عادة الجسد، وسنّة البلد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمى الحجارة؟ فقال له عليه السلام: «أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم» «۱».

فذهب يتكلم فقال له عليه السلام: «لا جدال فى الحج». ونفض ردائه من يده وقال: «إن يكن الأمر كما تقول وليس كما تقول نجونا

ونجوت وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكت».

فأقبل عبد الكريم على من معه فقال: وجدت فى قلبى حزازة (ألم) فردّونى، فردّوه فمات.

---

(۱) يناديه الإمام بهذا الاسم، وهو اسمه الحقيقى مع كونه منكراً للّهلكى يشعره مهانة ما هو عليه وهذا اسمه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۶

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴) علائم الحق فى العالم الكبير والصغير: الآيتان الختاميتان فى هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، وهما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الاولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، والثانية عن المعاد. يقول تعالى:

«سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

«آيات الآفاق» تشمل خلق الشمس والقمر والنجوم والنظام الدقيق الذى يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تعد ولا تحصى وما فى عالم الأحياء من عجائب لا تنتهى، إنّ كل هذه الآيات هى دليل على التوحيد وعلى وجود اللّه.

أمّا «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحيّر الذى يتحكّم بالمخ وحركات القلب المنتظمة والشرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفة ونمو الجنين فى ظلمات الرحم. ثم أسرار الروح العجيبة. إنّ كل ذلك هى كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

نعود الآن إلى الآية التى تنتهى بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

وهل هناك شهادة أفضل وأعظم من هذه التى كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، فى الأوراد والزهور، وبين طبقات المخ العجيبة، وعلى الأغشية الرقيقة للعين، وفى آفاق السماء وبواطن الأرض، وفى كل شىء من الوجود تجد أثراً يدل على الخالق، وشهادة تكوينية على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه (سبحانه وتعالى).

الآية الأخيرة فى السورة تشير إلى الأساس والسبب فى شقاء هذه المجموعة المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: «أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مّن لِّقَاءِ رَبّهِمْ».

ولأنّهم لا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم والمعاصى مهما

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۷

كانت. ولكنّهم يجب أن يعلموا: «أَلَا إِنَّهُ بِكُلّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ».

إنّ جميع أعمالهم ونواياهم حاضرة فى علم اللّه، وكل ذلك يسجّل لمحكمة القيامة والحشر.

«مرية»: تعنى التردّد فى اتخاذ القرار، والبعض اعتبرها بمعنى الشك والشبهة العظيمة.

والآية- فى هذا الجزء منها- ردّ على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء يقولون:

كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟

والأكثر من ذلك: من الذى يحيط بنيات الناس وأعمالهم على مدى تاريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كل ذلك بالقول: كيف يمكن للخالق المحيط بكل شىء أن لا تكون هذه الامور طوع قدرته وواضحة بالنسبة له؟

ثم إنّ دليل إحاطة علمه بكل شىء، هو تدبيره لكل هذه الامور، فكيف يجوز له أن لا يعلم بامور ما خلق ودبّر.

إنّ إحاطة الخالق جلّ وعلا بالموجودات والكائنات تتضمن معنى دقيقاً ولطيفاً يتمثل فى ارتباط كل الكائنات والموجودات بالذات

المقدسة.

وبعبارة اخرى: لا يوجد فى عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، وبقية الموجودات والكائنات تعتمد عليه وترتبط به، بحيث لو زال هذا الإرتباط لحظة واحدة فلا يبقى شىء منها.

«نهاية تفسير سورة فصّلت»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۶۹

۴۴. سورة الشورى

محتوى السورة: إنّ هذه السورة تتناول قضايا يمكن الإشارة إليها بما يلى:

۱- فى القسم الأوّل وهو أهم أقسام السورة، يشتمل البحث فيه على قضية الوحى الذى يمثل طريق ارتباط الأنبياء عليهم السلام باللّه تبارك وتعالى.

۲- ثم يشير إلى دلائل التوحيد، وآيات اللّه فى الآفاق والأنفس التى تكمّل البحث فى موضوع الوحى.

۳- فى السورة إشارات إلى قضية المعاد ومصير الكفار فى القيامة، وهو محدود قياساً إلى الأقسام الاخرى.

۴- تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية.

إنّ إطلاق اسم «الشورى» على هذه السورة المباركة يعود إلى محتوى الآية (۳۸) منها والتى تدعو المسلمين إلى المشورة فى امورهم.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ حم عسق بعثه اللّه يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدى اللّه عزّ وجل فيقول:

عبدى أدمنت قراءة حم عسق ولم تدر ما ثوابها، أمّا لو دريت ما هى وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة». وعندما يدخل الجنة يرفل بأنواع النعم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۰

الإلهية التى ذكرها الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث الآنف بشكل مفصّل «۱».

حم (۱) عسق (۲) كَذلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴) تَكادُ السَّماوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵) مرّة اخرى تواجهنا الحروف المقطعة فى مطلع السورة، وهى هنا تنعكس بشكل مفصّل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

«حم» موجودة فى بداية سبع سور قرآنية (المؤمن، فصّلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف) ولكن فى سورة الشورى اضيف إليها مقطع «عسق».

بعد الحروف المقطعة تتحدث الآية الكريمة عن الوحى، فتقول: «كَذلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

«كذلك» إشارة إلى محتوى السورة ومضامينها.

ومصدر الوحى واحد، وهو علم اللّه وقدرته، ومحتوى الوحى فى الاصول والخطوط العريضة واحد أيضاً بالنسبة لجميع الأنبياء والرسالات.

وضرورى أن نشير إلى أنّ الآيات التى نبحثها أشارت إلى سبع صفات من صفات اللّه الكمالية، لكل منها دور فى قضية الوحى بشكل معيّن، ومن ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما فى هذه الآية: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فعزّته تعالى وقدرته المطلقة تقتضى سيطرته على الوحى ومحتواه العظيم. وحكمته تستوجب أن يكون الوحى الإلهى حكيماً متناسقاً مع حاجات الإنسان التكاملية فى جميع الامور والشؤون.

قوله تعالى: «لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ».

إنّ مالكيته تعالى لما فى السماء والأرض تستوجب ألّا يكون غريباً عن مخلوقاته وما

(۱) ثواب الأعمال، نقلًا عن تفسير نور الثقلين ۴/ ۵۵۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۱

يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير امورها وحاجاتها عن طريق الوحى، وهذه هى الصفة الثالثة من الصفات السبع.

أمّا «العلىّ» و «العظيم» اللذان هما رابع وخامس صفة له- سبحانه وتعالى- فى هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأىّ‌طاعة أو عبودية من عباده.

الآية التى بعدها تضيف: «تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ» «۱».

وذلك بسبب نزول الوحى من قبل اللّه، أو بسبب التّهم الباطلة التى كان المشركون والكفار ينسبونها إلى الذات المقدسة ويشركون الأصنام فى عبادته.

ويتّضح مما سلف أنّ للجملة معنيين:

الأوّل: أنّها تختص بموضوع الوحى، وهو فى الواقع يشبه ما جاء فى الآية (۲۱) من سورة الحشر فى قوله تعالى: «لَوْ أَنزَلْنَا هذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

الثانى: أنّ السماوات تكاد تتفطّر وتتلاشى بسبب شرك المشركين وعبادتهم للأصنام من دون اللّه، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات والموجودات وبين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ وعلا.

بقية الآية، قوله تعالى: «وَالْمَلِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ».

أمّا الرابطة بين هذا الجزء من الآية والجزء الذى سبقه، فهو- وفقاً للتفسير الأوّل- أنّ الملائكة الذين هم حملة الوحى العظيم وواسطته، يسبحون ويحمدون اللّه دائماً، يحمدونه بجميع الكمالات، وينزّهونه عن جميع النواقص، وعندما ينحرف المؤمنون أحياناً، تقوم الملائكة بنصرهم ويطلبون المغفرة لهم من اللّه تعالى.

أمّا وفق التفسير الثانى، فإنّ تسبيح الملائكة وحمدهم إنّما يكون لتنزيهه تعالى عمّا ينسب إليه من شرك، وهم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا وسلكوا طريق التوحيد ورجعوا إلى بارئهم جلّ جلاله.

وأخيراً تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس وسابع صفة من صفات اللّه تبارك وتعالى، وتنصب حول الغفران والرحمة، وتتصل بقضية الوحى ومحتواه، وبخصوص وظائف

(۱) «يتفطّرن»: من كلمة «فطر» على وزن «سطر» وتعنى فى الأصل الشق الطولى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۲

المؤمنين، حيث يقول تعالى: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وبهذا الترتيب أتمّت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من الأسماء الحسنى المختصة باللّه تعالى والمرتبطة بالوحى.

وفى نهاية الآية ثمّة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص استغفارهم للمؤمنين، بل إنّه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور ممّا يدل على عظيم فضله.

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (۷) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى

رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٨) انطلاقة من ام القرى: تحدثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإنّ الآية الاولى فى المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين وعاقبة أمرهم، حيث يقول تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ».

ثم تخاطب الآية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بقوله تعالى: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

إنّ مسؤوليتك هى تبليغ الرسالة وإيصال نداء اللَّه إلى جميع العباد.

يعود القرآن إلى قضية الوحى مرّةً اخرى، وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدّثت عن أصل الوحى، فإنّ الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائى له، إذ يقول تعالى: «وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».

و «امّ القرى» هى مكة المكرمة.

ثم تنذر الناس من يوم القيامة وهو يوم الجمع الذى يجتمع فيه الناس للحساب والجزاء:

«وَتُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَارَيْبَ فِيهِ».

وفى ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: «فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ».

وبما أنّ الآية أعلاه يقسّم الناس إلى فئتين، فإنّ الآية التى بعدها تضيف: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»؛ على الهداية. إلّاأنّ الإيمان الإجبارى ليست له قيمة، وكيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معياراً للكمال الإنسانى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۳

وكما أنّ ملكة الحرية والإختيار طريق إلى التكامل، فهى أيضاً سنّة إلهية لا تقبل التغيير.

تشير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنة والسعادة حيال أهل النار، فيقول تعالى:

«وَلكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

إنّ كلمة «ولى» تشير إلى المشرف الذى يقوم بالحماية والمساعدة بحكم ولايته ودون أىّ طلب. أمّا «النصير» فالذى يقوم بنصر الإنسان ومساعدته بعد أن يطلب العون.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) الولى المطلق: أوضحت الآيات السابقة أن لا ولىّ ولا نصير سوى اللَّه، والآيات التى بين أيدينا تعطى أدلة على هذه القضية، وتنفى الولاية لما دونه سبحانه وتعالى.

تقول الآية باسلوب التعجب والإنكار: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ». إلّاأنّه: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ». فلو أراد هؤلاء أن يختاروا ولياً، فعليهم أن يختاروا اللَّه.

ثم تذكر دليلًا آخر فتقول: «وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَى .

ويجب اللجوء إليه لا لغيره، لأنّ المعاد والبعث بيده، وأنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعدالموت.

ثم تذكر دليلًا ثالثاً فتقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

وهذه إشارة إلى أنّ الشرط الرئيسى للولى هو امتلاكه للقدرة الحقيقية.

الآية التى بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ». فهو الوحيد الذى يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إنّ من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولى إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب.

وبعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية باللَّه، تقول الآيات على لسان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۴

النبى صلى الله عليه و آله: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبّى». فهو الذى يتصف بهذه الأوصاف الكمالية ولهذا السبب:

«عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ». أى: أعود إليه فى المشكلات والشدائد والزلات. الآية التى تليها يمكن أن تكون دليلًا خامساً على ولاية اللَّه المطلقة، أو دليلًا على ربوبيته، واستحقاقه دون غيره للتوكل والإنابة، إذ تقول: «فَاطِرُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«فاطر»: من مادة «فطر» وتعنى فى الأصل فتق شىء ما، وكأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات وخروج الموجودات منه.

والمقصود بالسماوات والأرض هنا جميع السماوات والأرض وما فيها من كائنات وما بينها، لأنّ الخالقية تشملها جميعاً.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: «جَعَلَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ».

إنّ الزواج يعتبر أساساً لراحة الروح وسكون النفس، ومن جانب آخر يعتبر الزواج أساساً لبقاء النسل واستمراره، وتكاثره.

الصفة الثالثة التى تذكرها الآية هو قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ».

إنّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية فى معرفة صفات اللَّه الاخرى، وبدونها لا يمكن التوصّل إلى أىّ صفة من صفات اللَّه، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين فى طريق معرفة اللَّه يتمثل فى «التشبيه» حيث يشبّهون الخالق جلّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدّى للسقوط فى وادى الشرك.

إنّ وجود اللَّه تعالى ليس له نهاية ولا يحدّ بحدّ، وكل شىء غيره له نهاية وحدّ من حيث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل ...؛ وفى كل شىء.

وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

تشير نهاية الآية إلى صفات اخرى من صفات اللَّه: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

هو الخالق والمدبّر، والسميع والبصير، وفى نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير أو مثيل.

الآية التى بعدها تتحدث عن ثلاثة أقسام اخرى من صفات الفعل والذات حيث توضّح كل واحدة منها قضية الولاية والربوبية فى بعدٍ خاص. يقول تعالى: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه وتعالى، وكل ما يرغب به راغب ينبغى أن يطلبه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۵

منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات والأرض وليس «مفاتيحها» وحسب «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» (۱).

«مقاليد»: جمع «مقليد» وتعنى المفتاح، وهى تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كل شىء.

وفى الصفة الاخرى، والتى هى فى الواقع ثمرة ونتيجة للصفة السابقة تقول الآية: «يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات والأرض، فإنّ جميع الأرزاق فى قبضته، ويقسّمها وفقاً لمشيئته التى تصدر بمقتضى حكمته، ويلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، ومكانها وسائر شؤون حياتها الاخرى، لذا تضيف الآية فى آخر صفة قوله تعالى: «إِنَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

وبذلك يتّضح أنّ الآيات الأربع التى بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات اللَّه الكمالية سواء الذاتية منها أم الفعلية.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ

لَوْ لَا كَلِمَهٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴) الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء: بما أنّ العديد من بحوث هذه السورة تتعلّق بالمشركين، وأنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أيضاً، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تبيّن هذه الحقيقة، وهى أنّ دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة. تقول الآية: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا». والذى هو أوّل نبىّ من أولى العزم.

---

(۱) سورة المنافقون/ ۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۶

وأيضاً: «وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى .

وبهذا الشكل فما كان موجوداً فى شرائع جميع الأنبياء موجود فى شريعتك أيضاً.

لذا، وكتعليمات عامّة لجميع الأنبياء العظام، تقول الآية فى الجملة الاخرى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ». وبعد ذلك تقول: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ».

فلقد تطبّع هؤلاء على الشرك وعبادة الأصنام بسبب الجهل والتعصّب لسنين طويلة، وعشعش ذلك فى أعماقهم بحيث أصبحت الدعوة إلى التوحيد تخيفهم وتوحشهم.

وكما أنّ انتخاب الأنبياء بيد الخالق، كذلك فإنّ هداية الناس بيده أيضاً: «اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ».

لقد أشارت هذه الآية إلى خمسة من الأنبياء الإلهيين فقط (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام) لأنّ هؤلاء الخمسة هم الأنبياء اولوا العزم، أى أصحاب الدين والشرائع، وفى الحقيقة فإنّ الآية تشير إلى انحصار الشريعة بهؤلاء الخمسة من الأنبياء.

وبما أنّ أحد أركان دعوة الأنبياء من اولى العزم هو عدم التفرّق فى الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتماً، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كل هذه الاختلافات المذهبية؟

وقد أجابت الآية الاخرى على هذا السؤال وذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنّه:

«وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

وبهذا الترتيب فإنّ أساس التفرّق فى الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم والبغى والانحراف عن الحق، والأهواء والآراء الشخصية.

«فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و «الحاقدون من الناس والمتعصبون» إتحدوا معاً لزرع هذه الاختلافات.

وتعتبر هذه الآية ردّاً واضحاً على الذين يقولون بأنّ الدين أوجد الاختلاف بين البشر، وأدّى إلى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ».

حيث يهلك أتباع الباطل وينصر أتباع الحق.

فالدنيا هى محل الاختبار والتربية والتكامل، ولا يحصل هذا بدون حرية العمل، وهذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۷

هو الأمر التكوينى الإلهى الذى كان موجوداً منذ بدء خلق الإنسان ولا يقبل التغيير، إنّ هذه هى طبيعة الحياة الدنيوية، ولكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أنّ جميع هذه الاختلافات ستنتهى وسوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة.

أمّا آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أى الذين لم يدركوا عصر الرسل، حيث تقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ».

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۵) فاستقم كما امرت: بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن

تفرّق الامم بسبب البغى والظلم والانحراف، لذا فإنّ الآية التى نبحثها تأمر النبى بمحاولة حلّ الاختلافات وإعادة الحياة إلى دين الأنبياء، وأن يبذل منتهى الاستقامة فى هذا الطريق، فتقول: «فَلِذلِكَ فَادْعُ». أى:

ادعوهم إلى الدين الإلهى الواحد وامنع الإختلافات.

ثم تأمره بالإستقامة فى هذا الطريق، فتقول: «وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ».

ولعلّ جملة «كما امرت» إشارة إلى المرحلة العالية من الإستقامة، أو إلى أنّ الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية والكيفية والزمن والخصوصيات الاخرى مطابقة للقانون الإلهى.

وبما أنّ أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة فى هذا الطريق، لذا تقول الآية فى ثالث أمر لها: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، لأنّ كل مجموعة ستدعوك إلى أهوائها ومصالحها الشخصية، تلك الدعوة التى يكون مصيرها الفرقة والاختلاف والنفاق.

وبما أنّ لكل دعوة نقطة بداية، لذا فإنّ نقطة البداية هى شخص الرسول صلى الله عليه و آله، حيث تقول الآية فى رابع أمر لها: «وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ».

وبما أنّ رعاية (أصل العدالة) ضرورى لإيجاد الوحدة، لذا فإنّ الآية تطرح ذلك فى خامس أمر لها فتقول: «وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ». سواء فى القضاء والحكم، أو فى الحقوق الإجتماعية والقضايا الاخرى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۸

بعد هذه التعليمات الخمس، تشير إلى المشتركات بين الأقوام والتى تتلخص بخمس فقرات، حيث تقول: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ». وكل واحد مسؤول عن أعماله: «لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ». «لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ».

إضافة إلى ذلك فإنّنا جميعاً سوف نجتمع فى مكان واحد: «اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا».

والذى سوف يقضى بيننا فى ذلك اليوم هو الأحد الذى: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

وعلى هذا الأساس فإنّ إلهنا واحد، ونهايتنا ستكون فى مكان واحد، والقاضىالذى إليه المصير واحد، وبالرغم من كل هذا فإنّنا مسؤولون جميعاً حيال أعمالنا، وليس هناك فرق لإنسان على آخر إلّابالإيمان والعمل الصالح.

وَ الَّذِينَ يُحاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (۱۶) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (۱۷) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (۱۸) الآيات السابقة كانت تتحدث عن واجبات النبى صلى الله عليه و آله، كاحترامه لمحتوى الكتب السماوية، وتطبق العدالة بين جميع الناس وترك أىّ محاججة أو خصومة بينه وبينهم، أمّا الآيات التى نبحثها، فلكى تكمّل البحث السابق وتثبت أنّ حقانية نبى الخاتم لا تحتاج إلى دليل، تقول: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ».

وبما أنّ نقاشهم ومحاججتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد والإصرار تقول الآية:

«وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ». «وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندين.

والمقصود من جملة «مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ» هو استجابة عامة الناس من ذوى القلوب الطاهرة، والذين ليست لهم نوايا خبيثة، ويستسلمون للحق ويخضعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهية ومشاهدة محتوى الوحى والمعاجز المختلفة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۷۹

ثم يشير القرآن إلى أحد أدلة التوحيد وقدرة الخالق، وفى نفس الوقت يتضمّن إثبات النبوّة حيال المتحاججين ذوى المنطق الواهى، حيث تقول الآية: «اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ».

«الحق» کلمة جامعة تشمل المعارف والعقائد الحقة، والأخبار الصحیحة والبرامج المتطابقة مع الحاجة الفطریة والاجتماعیة، وما شابه ذلک.

وأمّا «المیزان» فله معنی عام فی مثل هذه الموارد، بالرغم من أنّ معناه اللغوی هو وسیلة لقیاس الوزن، إلّاأنّه فی معناه الکنائی یطلق علی أیّ معیار للقیاس الصحیح، وحتی شخص الرسول صلی الله علیه و آله والأئمة علیهم السلام، حیث أنّ وجودهم معیار لتشخیص الحق من الباطل ومیزان یوم القیامة، والمیزان فی القیامة یراد به هذا المعنی.

بناءً علی هذا فإنّ الخالق أنزل کتاباً علی نبی الخاتم صلی الله علیه و آله بحیث یعتبر هو الحق، والمیزان للتقییم.

وبما أنّ نتیجة کل هذه الامور، خاصة ظهور الحق بشکل کامل وتحقق العدالة وإقامة المیزان تتّضح فی یوم القیامة، لذا فإنّ الآیة تقول فی نهایتها: «وَمَا یُدْرِیکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِیبٌ».

ثم یشیر القرآن إلی موقف الکفار والمؤمنین حیال القیامة، فتقول الآیة: «یَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بِهَا».

فهؤلاء لا یقولون ذلک بسبب عشقهم للقیامة والوصول إلی لقاء المحبوب، أبداً، إنّ کلامهم هذا من قبیل الاستهزاء والإنکار.

«وَالَّذِینَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَیَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ».

ومن هنا یتّضح مدی التأثیر التربوی العمیق للإیمان بالقیامة ومحکمة العدل الإلهی الکبیرة علی المؤمنین خاصة وفی احتمالهم حصول هذا الأمر فی أیّة لحظة من اللحظات.

وکإعلان عام، تقول الآیة فی نهایتها: «أَلَا إِنَّ الَّذِینَ یُمَارُونَ فِی السَّاعَةِ لَفِی ضَللٍ بَعِیدٍ». لأنّ نظام هذا العالم یعتبر- بحدّ ذاته- دلیلًا علی أنّه مقدمة لعالم آخر وبدونه سیکون خلق هذا العالم عبثاً ولیس له أیّ معنی، وهذا لا یتناسب مع حکمة الخالق ولا مع عدالته.

اللَّهُ لَطِیفٌ بِعِبَادِهِ یَرْزُقُ مَنْ یَشَاءُ وَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ (١٩) مَنْ کَانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَ مَنْ کَانَ یُرِیدُ حَرْثَ الدُّنْیَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ نَصِیبٍ (٢٠)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۰

بما أنّ الآیات السابقة کانت تتحدث عن العذاب الإلهی الشدید وعن طلب منکری المعاد للتعجیل بقیام القیامة، لذا فإنّ أوّل آیة نبحثها هنا تقرن «الغضب» الالهی مع «اللطف» الالهی فی معرض ردّها علی استعجال منکری المعاد: «اللَّهُ لَطِیفٌ بِعِبَادِهِ».

ثم تطرح الآیة أحد مظاهر لطفه العام وهو الرزق، فتقول: «یَرْزُقُ مَن یَشَاءُ». وهذا لا یعنی أنّ هناک جماعة محرومون من رزقه، بل المقصود البسط فی الرزق لمن یشاء.

ونقرأ فی الآیة (٢٧) من هذه السورة: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ».

وواضح أنّ (الرزق) هنا یشمل الرزق المعنوی والمادی، الجسمانی والروحانی.

وتقول الآیة فی نهایتها: «وَهُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ».

وعندما یعداللَّه تعالی عباده بالرزق واللطف فهو قادر علی إنجاز هذا الأمر، ولهذا السبب لا یوجد أیّ تخلّف فی وعوده أبداً.

الآیة التی بعدها شبّهت أفراد العالم حیال رزق الخالق وکیفیة الاستفادة منه بالمزارعین الذین یقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة والقسم الآخر للدنیا، وتحدد عاقبة کل قسم منهم وفق تشبیه لطیف حیث تقول: «مَن کَانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَمَن کَانَ یُرِیدُ حَرْثَ الدُّنْیَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِی الْأَخِرَةِ مِن نَّصِیبٍ».

وعلی هذا الأساس فلا طلّاب الدنیا یصلون إلی ما یریدون، ولا طلّاب الآخرة یحرمون من الدنیا.

أَمْ لَهُمْ شُرَکَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّینِ مَا لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لَا کَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (٢١) تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا کَسَبُوا وَ هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِی رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا یَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ (٢٢) ذلِکَ الَّذِی یُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی وَ مَنْ

یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: ورد فی سبب نزول الآیات (۲۳- ۲۶) من هذه السورة، أنّه ذکر

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۱

أبو حمزة الثمالی فی تفسیره: حدّثنی عثمان بن عمیر عن سعید بن جبیر عن عبداللّه بن عباس:

أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله حین قدم المدینة واستحکم الإسلام قالت الأنصار فیما بینها: نأتی رسول اللّه صلی الله علیه و آله فنقول له: إن تعرُک امور فهذه أموالنا تحکم فیها غیر حرج ولا محظور علیک. فأتوه فی ذلک فنزلت: «قُلْ لَاأَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی . فقرأها علیهم وقال:

«تودّون قرابتی من بعدی». فخرجوا من عنده مسلّمین لقوله. فقال المنافقون: إنّ هذا الشیء افتراه فی مجلسه أراد بذلک أن یذلّلنا لقرابته من بعده. فنزلت: «أَمْ یَقُولُونَ افْتَرَی عَلَی اللَّهِ کَذِبًا». فأرسل إلیهم فتلاها علیهم فبکوا واشتدّ علیهم فأنزل اللّه: «وَهُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» الآیة. فأرسل فی أثرهم فبشّرهم وقال: «وَیَسْتَجِیبُ الَّذِینَ ءَامَنُوا» وهم الذین سلّموا لقوله.

التّفسیر

أجر الرسالة فی مودّة أهل البیت علیهم السلام: بما أنّ الآیة (۱۳) من هذه السورة کانت تتحدث عن تشریع الدین من قبل الخالق بواسطة الأنبیاء اولی العزم، لذا فإنّ أوّل آیة فی هذا البحث- کاستمرار للموضوع- تقول فی مجال نفی تشریع الآخرین، وأنّ جمیع القوانین لیست معتبرة قبال القانون الإلهی، وأنّ التقنین یختص بالخالق: «أَمْ لَهُمْ شُرَکَؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدّینِ مَا لَمْ یَأْذَن بِهِ اللَّهُ».

وبعد ذلک یقوم القرآن بتهدید المشرّعین بالباطل، حیث تقول الآیة: «وَلَوْلَا کَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ» حیث یصدر الأمر بعذابهم.

وفی نفس الوقت یجب علیهم أن لاینسوا هذه الحقیقةوهی: «وَإِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْعَذَابٌأَلِیمٌ».

المقصود من (کلمة الفصل) هی المدّة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، کی تکون لهم حریة العمل وتتم الحجة علیهم.

کما أنّ عبارة (ظالمین) تتحدث عن المشرکین الذین لهم عقائد منحرفة قبال القوانین الإلهیة وذلک بسبب اتساع مفهوم الظلم، وإطلاقه علی أیّ عمل لیس فی مورده.

ویظهر أنّ المقصود من (العذاب الألیم) هو عذاب یوم القیامة.

ثم تذکر الآیة بیاناً مجملًا حول (عذاب الظالمین) ثم بیاناً مفصّلًا عن (جزاء المؤمنین)، فتقول: «تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا کَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِی رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۲

«روضات»: جمع (روضة) وتعنی المکان الذی یشتمل علی الماء والشجر الکثیر، لذا فإنّ کلمة (روضة) تطلق علی البساتین الخضراء، ونستفید من هذه العبارة بشکل واضح أنّ بساتین الجنة متفاوتة، والمؤمنون من ذوی الأعمال الصالحة فی أفضل بساتین الجنة.

إلّا أنّ الفضل الإلهی بخصوص المؤمنین ذوی الأعمال الصالحة لا ینتهی هنا، فسوف یشملهم اللطف الإلهی بحیث: «لَهُم مَّا یَشَاءُونَ عِندَ رَبّهِمْ».

وبهذا الترتیب لا یوجد أیّ قیاس بین (العمل) و (الجزاء)، بل إنّ جزاءهم غیر محدود من جمیع الجهات.

والأجمل من ذلک عبارة «عِندَ رَبّهِمْ» حیث توضّح اللطف الإلهی اللامتناهی بشأنهم، وهل هناک فوز أکبر من أن یصلوا إلی قرب مقام الخالق.

ولیس غریباً أن تقول الآیة فی نهایتها: «ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ».

ولبيان عظمة هذا الجزاء تقول الآية التى بعدها: «ذلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

يبشرهم حتى لا تَصعُب عندهم آلام الطاعة والعبودية ومجاهدة هوى النفس والجهاد حيال أعداء اللّه.

وقد يتوهم أنّ نبى الخاتم صلى الله عليه و آله يريد جزاءً وأجراً على إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإنّ القرآن يأمر الرسول بعد هذا الكلام ليقول: «قُلْ لَّاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى . أى حبّ أهل بيتى.

ومودّة ذوى القربى ومحبّتهم ترتبط بقضية الولاية وقبول قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام من آل الرسول حيث تعتبر فى الحقيقة استمراراً لقيادة النبى واستمراراً للولاية الإلهية، وجلىّ أنّ قبول هذه الولاية والقيادة كقبول نبوّة النبى صلى الله عليه و آله ستكون سبباً لسعادة البشرية نفسها وستعود نتائجها إليها.

فى تفسير القرطبى: فى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: لمّا أنزل اللّه عزّ وجل: «قُلْ لَّا أَسْئَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى قالوا: يا رسول اللّه! من هؤلاء الذين نودهم؟

قال: «على وفاطمة وأبناؤهما».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۳

ومن الضرورى الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهى أنّه ورد فى آخر الآية: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ».

وهل هناك حسنة أفضل من أن يكون الإنسان دائماً تحت راية القادة الإلهيين، يحبّهم بقلبه، ويستمر على خطهم، يطلب منهم التوضيح للقضايا المبهمة فى كلام الخالق، يعتبرهم القدوة والأسوة وسيرتهم وعملهم هو المعيار.

«اقترف» مأخوذة فى الأصل من (قرف) على وزن (حرف) وتعنى قطع القشرة الإضافية من الشجرة، أو من الجروح الحاصلة، حيث تكون أحياناً علامة على شفاء الجرح وتحسنه، هذه الكلمة استخدمت فيما بعد فى الإكتساب سواء كان حسناً أو سيئاً.

والطريف فى الأمر أنّ بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و (السدّى) أنّ المقصود من (اقتراف الحسنة) فى الآية الشريفة هو مودة آل محمّد.

وجاء فى حديث عن الإمام الحسن بن على عليه السلام: «اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

وواضح أنّ المقصود من هذه التفاسير أنّ معنى اكتساب الحسنة لايتحدد بمودّة أهل‌البيت عليهم السلام، بل له معنى أوسع و أشمل ولكن بما أنّ هذه الجملة وردت بعد قضية مودّة ذى القربى لذا فإنّ أوضح مصداق لإكتساب الحسنة هو هذه المودّة.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (۲۶) هذه الآيات تعتبر استمراراً للآيات السابقة فى موضوع الرسالة وأجرها، ومودّة ذوى القربى وأهل البيت عليهم السلام. فأوّل آية تقول: إنّ هؤلاء القوم لا- يقبلون الوحى الإلهى، بل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وهذا الإعتقاد وليد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.

فى حين: «فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» ويجرّدك من قابلية إظهار هذه الآيات.

وفى الحقيقة، فإنّ هذا الأمر إشارة إلى الاستدلال المنطقى‌المعروف، وهو أنّه إذا ادعى شخص النبوّة، وجاء بالآيات البينات والمعاجز، وشمله النصر الإلهى، فلو كذب على الخالق فإنّ الحكمة الإلهية تقتضى سحب المعاجز منه وفضحه وعدم حمايته.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۴

فهذه هى مسؤولية الخالق فى توضيح الحق وفضح الباطل وفقاً لحكمته، وإلّا فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه وفى نفس الوقت ينصره ويظهر على يديه المعاجز؟

كما أنّ من الاخطاء الكبيرة أن يتصور بعض المشركين قيام الرسول صلى الله عليه و آله بهذا العمل مخفياً ذلك عن علم الخالق: «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وبما أنّ الخالق يبقى طريق الرجعة مفتوحاً أمام العباد، لذا فإنّ الآيات القرآنية بعد ذم أعمال المشركين والمذنبين القبيحة تشير إلى أنّ الابواب التوبة مفتوحة دائماً، ولذا تقول الآية محل البحث: «وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ».

إلّا أنّكم إذا تظاهرتم بالتوبة وأخفيتم أعمالًا اخرى، فلا تتصوروا أنّ ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنّه: «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

أمّا آخر آية فتوضّح الجزاء العظيم للمؤمنين، والعذاب الأليم للكافرين فى جمل قصيرة فتقول: إنّ اللّه تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين وطلباتهم: «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». بل: «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ». وسوف يعطيهم ما لم يطلبوا: «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ». هذه السورة (سورة الشّورى) من السور المكية إلّاأنّ بعض المفسرين يعتقدون أنّ هذه الآيات الأربع (۲۳– ۲۶) نزلت فى المدينة، وسبب النزول الذى ذكرناه فى بداية تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى.

وأيضاً فإنّ الروايات التى تفسّر أهل البيت بعليّ وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام تناسب هذا المعنى، لأنّنا نعلم أنّ زواج على من سيدة النساء عليهما السلام تمّ فى المدينة، وولادة الحسن والحسين عليهما السلام كانتا فى العام الثالث والرابع الهجرى على ما رواه المؤرخون.

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۳۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۵

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى: قال خباب بن الأرت: أنّ الآية «وَلَوْ بَسَطَ ...» فينا نزلت، نظرنا إلى أموال بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع فتمنيناها فنزلت.

التّفسير

ورد فى آخر آية من الآيات السابقة من أنّ الخالق يستجيب دعوة المؤمنين، وفى أعقاب ذلك يطرح هذا السؤال: لماذا نرى البعض منهم فقراء، ولا ينالون ما يرغبونه مهما يدعون؟

تقول الآية: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ».

وبهذا الترتيب فإنّ تقسيم الأرزاق يقوم على حساب دقيق من قبل الخالق تجاه عباده، وهذا يحدث بسبب: «إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ».

فهو يعلم بمقدار استيعاب أيّ شخص فيعطيه الرزق وفقاً لمصلحته، فلا يعطيه كثيراً ليطغى، ولا قليلًا فيعيش الضنك من الفقر.

صحيح أنّ الخالق ينزل الرزق بقدر حتى لا يطغى العباد، إلّاأنّه لا يمنعهم أو يحرمهم، لذا فإنّ الآية التى بعدها تقول: «وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ».

ولماذا لا يكون هذا: «وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

هذه الآية تتحدث عن آيات وعلائم التوحيد فى نفس الوقت الذى تبيّن فيه نعمة ولطف الخالق، لأنّ نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغاية ومحسوب.

ولهذه المناسبة- أيضاً- فإنّ الآية التى بعدها تتحدث عن أهم آيات علم وقدرة الخالق، حيث تقول: «وَمِن ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِّن دَابَّةٍ».

وتقول الآية فى نهايتها: «وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ».

والمقصود من جمع الأحياء الذى تذكره هذه الآية، فقد ذكر العديد من المفسّرين أنّه الجمع للحساب وجزاء الأعمال فى القيامة.

ويحتمل فى تفسير الآية أعلاه أنّ المقصود من (الجمع) الجانب المقابل ل (بث)، أى أنّ (بث) تشير إلى خلق أنواع الكائنات الحية باختلافها، ثم إذا شاء الخالق (جمعها) وأفناها.

فكما أنّ العديد من الأحياء- (على مدى التاريخ)- انتشرت بشكل عجيب، ثم انقرضت واختفت فيما بعد، كذلك جمعها وإبادتها يكون بيد الخالق.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۶

وبما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرحمة الإلهية، لذا يُطرح سؤال فى هذا المجال، وهو كيف تجتمع الرحمة وكل هذه المصائب التى تصيبنا.

الآية الاخرى تجيب على هذا السؤال وتقول: «وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ».

ثم إنّ هذا الجزاء ليس جزاءً على جميع أعمالكم القبيحة، لأنّه «وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ».

تبيّن هذه الآية وبوضوح أنّ فلسفة الحوادث المؤلمة والمشاكل الحياتية التى تصيب الإنسان هى نوع من التحذير والعقاب الإلهى.

فى جامع الأخبار عن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام قال: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة».

على أيّة حال، فقد يتصوّر البعض أنّهم يستطيعون الهروب من هذا القانون الإلهى الحتمى، لذا فإنّ آخر آية فى هذا البحث تقول: «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ» «۱».

وفى السماء بطريق أولى وكيف تستطيعون الهروب من قدرته وحاكميته فى حين أنّ كل عالم الوجود هو فى قبضته ولا منازع له. وإذا كنتم تعتقدون بوجود من سيساعدكم وينصركم، فاعلموا: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

وفى الحقيقة فإنّ آخر آية تجسّد ضعف وعجز الإنسان، والآية التى قبلها عدالة الخالق ورحمته.

وَ مِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (۳۲) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۳) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (۳۴) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۵) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۳۶)

---

(۱) «معجزين»: من كلمة «إعجاز»، إلّاأنّها وردت فى العديد من الآيات القرآنية بمعنى الهروب من محيط القدرة الإلهية ومن عذابه، حيث يقتضى معناها ذلك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۷

هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن: مرّة اخرى نشاهد أنّ هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق وأدلة التوحيد، وتستمر فى البحث الذى أشارت إليه الآيات السابقة بهذا الخصوص، وهنا تذكر موضوعاً يتعامل معه الإنسان كثيراً فى حياته المادية، خصوصاً المسافرين عبر البحار وسكّان السواحل، حيث تقول الآية: «وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ».

«جوار»: جمع «جارية» وهى صفة للسفن حيث لم تذكر للإختصار، وعادةً فإنّ الآية تقصد حركة السفن، ولذا فقد استخدمت هذه الصفة.

«أعلام»: جمع «علم» تعنى الجبل، إلّاأنّها فى الأصل بمعنى العلامة والأثر الباقى الذى يخبر عن شىء معيّن، مثل (علم الطريق) و (علم الجيش) وما شابه.

أمّا سمّى الجبل بالعلم لأنّه ظاهر من بعيد، وأحياناً كانوا يشعلون النار فوق قمّته حتى تكون مناراً للسائرين.

وعلى هذا الأساس فإنّ القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة فى هذه الآية- كما فى الآيات المتعددة الاخرى- بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

وللتأكيد أكثر تقول الآية: «إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ».

وكإستنتاج تضيف الآية فى نهايتها: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

فهبوب الرياح، وحركة السفن، وخلق البحار، والنظام الخاص المتناسق الذى يتحكّم بهذه الامور ... كلّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

«صبّار» و «شكور» صيغتا مبالغة، فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأنّ المؤمن صبور فى المشاكل والإبتلاءات وشكور فى النعم.

فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر».

مرّة اخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الاخرى: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا». أى لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التى إرتكبها المسافرون.

إلّا أنّه بالرغم من ذلك فإنّ اللطف الإلهى يشمل الإنسان: «وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ».

ونقرأ فى الآية (۴۵) من سورة فاطر: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

«وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ». وما لهم من ملجأ سوى ذاته

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۸

المنزّهة.

«محيص»، مأخوذة من كلمة «حيص» على وزن (حيف) وتعنى الرجوع والعدول عن أمر ما، وبما أنّ (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

والكلام فى آخر آية موجّه إلى الجميع حيث تقول: «فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

ولكن «وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوى الزائل المحدود التافه بمتاع أبدى خالد، فتلك هى التجارة المربحة العديمة النظير.

فى صحيح مسلم: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «واللَّه ما الدنيا فى الآخرة إلّامثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع»؟

وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۸) وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۴۰) هذه الآيات استمرار للبحث الوارد فى الآيات السابقة بخصوص الأجر الإلهى للمؤمنين المتوكلين.

فبعد ذكر الإيمان والتوكل اللذين لهما طبيعة قلبيّة، تشير هذه الآيات إلى سبعة أنواع من البرامج العملية، وهذه البرامج توضّح اسس المجتمع الصالح والحكومة الصالحة القوية.

فأوّل صفة تبدأ من التطهير حيث تقول الآية أنّ الثواب الإلهى العظيم سوف يكون من نصيب المؤمنين المتوكلين: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ».

«كبائر»: جمع «كبيرة» وتعنى الذنوب الكبيرة. وقد ورد تفسير للكبائر فى روايات أهل البيت عليهم السلام بأنّها: «التى أوجب اللَّه عزّ وجل عليها النار» «۱».

(۱) من لا يحضره الفقيه ۱/ ۱۷۵؛ تفسير العياشى ۱/ ۱۵۱؛ ثواب الأعمال/ ۱۹۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۸۹

وعلى هذا الأساس فإنّ أوّل علائم الإيمان والتوكّل هو الاجتناب عن (الكبائر).

أمّا ثانى صفة، والتى لها طبيعة تطهيرية أيضاً، فهى السيطرة على النفس عند الغضب الذى يعتبر من أشدّ حالات الإنسان حيث تقول الآية: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ».

فهؤلاء لا يفقدون السيطرة على أنفسهم عند الغضب ولا يرتكبون الجرائم عنده، والأكثر من ذلك غسل قلوبهم وقلوب الآخرين من الحقد بواسطة مياه العفو والغفران.

وهذه الصفة لا تتوفر إلّافى ظل الإيمان الحقيقى والتوكّل على الحق.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ومن ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا غضب، حرّم اللَّه جسده على النار».

الآية الاخرى تشير إلى الصفة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، حيث تقول:

«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ». «وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ». «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

فالآية السابقة كانت تتحدث عن تطهير النفس من الذنوب والتغلب على الغضب، إلّا أنّ الآية التى نبحثها تتحدث عن بناء النفس فى المجالات المختلفة، ومن أهمها إجابة دعوة الخالق، والتسليم حيال أوامره.

وتقول الآية بخصوص سابع صفة للمؤمنين الحقيقيين: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ». أى: أنّهم إذا تعرّضوا للظلم لا يستسلمون له، بل يطلبون النصر من الآخرين.

فإنّ المظلوم مكلّف بمقاومة الظالم وطلب النصرة، وأيضاً فإنّ المؤمنين مكلّفون بإجابته.

هذا البرنامج الإيجابى البنّاء يحذّر الظالمين من مغبّة ظلم المؤمنين، حيث إنّهم لا يسكتون على ذلك ويقفون بوجوههم، وهو أيضاً يؤمّل المظلومين بأنّ الآخرين سوف ينصرونكم عند استغاثتكم.

ولكن بما أنّ التناصر يجب أن لا- يخرج عن حدّ العدل وينتهى إلى الإنتقام والحقد والتجاوز عن الحد، لذا فإنّ الآية التى بعدها اشترطت ذلك بالقول: «وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۰

وعمل الظالم يجب أن يسمى ب (سيّئة) إلّاأنّ جزاءه وعقابه ليس (سيّئة) وإذا وجدنا أنّ الآية عبّرت عن ذلك بالسيئة فبسبب العقاب أليم ومؤذٍ، والألم والأذى بحدّ ذاته (سيء) بالرغم من أنّ قصاص الظالم ومعاقبته يعتبر عملًا حسناً بحد ذاته.

إنّ هذه العبارة يمكن أن تكون مقدمة للعفو الوارد فى الجملة التى بعدها، وكأنّما تريد الآية القول: إنّ العقاب مهما كان فهو نوع من الأذى، وإذا ندم الشخص عندها يستحق العفو.

لذا ففى مثل هذه الموارد ينبغى عليكم العفو، لأنّ «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ».

وتقول الآية فى نهايتها: «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ».

فإنّ كلّاً من العفو والعقاب له موقعه الخاص، فالعفو يكون عندما يستطيع الإنسان الإنتقام، وهذا يسمى العفو البنّاء.

والعقاب والإنتقام والردّ بالمثل يكون عندما يبقى الظالم مستمراً فى غيّه وضلاله، والمظلوم لم يثبّت أركان سيطرته بعد، فالعفو هنا يكون من موقع الضعف فيجب الردّ بالمثل.

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (۴۱) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ

لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۴۳) الظلم والإنتصار: تعتبر هذه الآيات تأكيداً وتوضيحاً وتكميلًا للآيات السابقة بشأن الإنتصار ومعاقبة الظالم والعفو فى المكان المناسب. فأوّلًا تقول الآية: «وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ».

لأنّ الإنتصار وطلب العون من الحقوق الطبيعية لأىّمظلوم، ونصر المظلومين مسؤولية كل إنسان حر ومتيقظ الضمير.

«إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ». وإضافة إلى عقابهم الدنيوى: «أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ينتظرهم فى الآخرة.

«بغى : تعنى فى الأصل الجد والمثابرة والمحاولة للحصول على شيء ما، ولكن كثيراً ما تطلق على المحاولات لغصب حقوق الآخرين، والتجاوز عن حدود وحقوق الخالق، لذا فإنّ للظلم مفهوماً خاصاً وللبغى مفهوماً عاماً يشمل أىّ تعدٍ أو تجاوز للحقوق الإلهية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۱

أمّا آخر آية فتشير مرّة اخرى إلى الصبر والعفو، لكى تؤكّد أنّ الإنتقام والعقاب والقصاص من الظالم لا يمنع المظلوم من العفو، حيث تقول: «وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

عبارة (عزم الامور) إشارة إلى أنّ هـذا العمل من الأعمال التى أمر اللّه بها ولا يمكن أن تنسخ، أو أنّه من الأعمال التى يجب أن يشد الإنسان العزم لها.

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (۴۴) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذابٍ مُقِيمٍ (۴۵) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (۴۶) هل من سبيل للرجعة: الآيات السابقة كانت تتحدث عن الظالمين، أمّا الآيات التى نبحثها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة وجوانب من عقابها.

فهى تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أىّ ولىّ، فتقول: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِىّ مِّن بَعْدِهِ».

إنّه لا الهداية ولا الضلالة مفروضة وجبرية، إنّما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس.

فأحياناً يقوم الإنسان بعمل معيّن وبسببه يسلب الخالق منه التوفيق ويطمس على قلبه ويمنع عنه نور الهداية ويتركه سابحاً فى الظلمات.

ثم تضيف الآية: «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدّ مّن سَبِيلٍ».

ولكن مهما كانت هذه الطلبات فإنّها ستواجه بالرفض، لأنّ العودة غير ممكنة أبداً.

الآية الاخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول: «وَتَرَيهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىّ».

هذه صورة لحالة شخص يخشى من شيء أشدّ خشية ولا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه، لذا فهو مجبور على النظر إليه، لكن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۲

بطرف خفى.

أمّا آخر عقاب ذكر هنا، فهو سماع اللوم والتوبيخ الأليم من المؤمنين، كما جاء فى آخر الآية: «وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

فهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، ثم زوجه، وأبناءه وأقرباءه؟

ونصيبه نار الفراق وهو فى داخل العذاب الإلهى؟!

ثم تضيف: يا أهل المحشر: «أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ».

ومن الضرورى الإشارة إلى هـذه الملاحظة، وهى أنّ (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمين، يدل على أنّ المقصود هم الكافرون، و الآية

التى بعدها تشهد على هذه الحقيقة، حيث تقول:

«وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ».

ولتأكيد هذا المعنى تقول الآية فى نهايتها: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ».

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَ إِنَاثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰) بما أنّ الآيات السابقة ذكرت جانباً من العقاب الأليم الموحش للكافرين والظالمين، فإنّ الآيات أعلاه تحذّر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، وتدعوهم إلى الإستجابة لدعوة الخالق والعودة إلى طريق الحق. فأوّل آية تقول:

«اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ».

وإذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، وأحداً يحميكم غير رحمته، فإنّكم على خطأ، لأنّ: «مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ».

عبارة «يَوْمٌ لَّامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» تشير إلى يوم القيامة، وليس إلى يوم الموت. كما أنّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۳

عبارة (من اللَّه) تشير إلى أنّ أحداً لا يستطيع أن يتخذ قراراً بالعودة قبال أمر الخالق جلّ وعلا.

الآية التى بعدها تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله وتواسيه قائلة: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». فلا تحزن عليهم لأنّك لست مسؤولًا عن حفظهم من الانحراف.

«إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ» سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

ثم ترسم صورة لحال هذه الجماعة غير المؤمنة والمعرضة عن الحق فتقول: «وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا». ويغفل عن ذكر الخالق: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ».

فلا النعم الإلهية وشكر المنعم توقظ هذا الإنسان وتجرّه نحو الشكر والمعرفة والطاعة، ولا العقوبات التى تصيبه بسبب الذنوب توقظه من نوم الغفلة، ولا دعوة الرسول تؤثر فيه.

فعوامل الهداية من حيث «التشريع» هى دعوة رسل الخالق، ومن حيث «التكوين» قد تكون النعم وقد تكون المصائب، إلّاأنّ هؤلاء الجهلة ذوى القلوب الميتة لا تؤثّر فيهم أىّ من هذه العوامل.

ثم لبيان حقيقة أنّ أىّ نعمة ورحمة فى هذا العالم مصدرها الخالق، ولا يملك الأفراد شيئاً من عندهم، أشارت الآية إلى قضية عامة ومصداق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: «لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ».

و «نموذج» واضح لهذه الحقيقة وأنّ كل ما موجود هو منه، والأفراد لا يملكون شيئاً من عندهم هو أنّه: «يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا».

وبهذا الترتيب فإنّ الناس يُقسّمون إلى أربع مجاميع: من عنده الأولاد الذكور ويريد البنات، ومن عنده البنات ويريد الذكور، ومن عنده الذكور والإناث، والمجموعة التى تفتقد الأبناء ويأملون ويرغبون فيهم.

«عقيم»: مأخوذة من «عقم» تعنى فى الأصل الجفاف والتصلب المانع من قبول التأثير، والنساء العقيمات تطلق على اللواتى تكون أرحامهنّ غير مستعدة لتقبّل النطفة ونمو الطفل.

و «اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذى ليس فيه سرور وفرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۴

إنّ استخدام عبارة (يهب) تعتبر دليلًا واضحاً على أنّ الإناث والذكور من هدايا الخالق وهباته، وليس صحيحاً للمسلم الحقيقى التفريق بين الإثنين.

كما أنّ استخدام عبارة (يزوّجهم) لا- تعنى التزويج هنا، بل تعنى جمع الهبتين (الإناث والذكور) لبعض الناس. وبعبارة اخرى: فإنّ مصطلح (التزويج) يأتى أحياناً بمعنى الجمع بين الأشياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأنّ (زوج) تعنى فى الأصل شيئين أو شخصين متقارنين.

وعلى أيّة حال، فإنّ المشيئة الإلهية هى التى تتحكم فى كل شىء وليس فى قضية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر والعليم والحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإنّ الآية تقول فى نهايتها: «إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ».

وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى: إنّ اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ألا تكلم اللَّه وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنّا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبى صلى الله عليه و آله: «إنّ موسى لن ينظر إليه». فنزل قوله «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلّمَهُ اللَّهُ» الآية.

التّفسير

طرق ارتباط الأنبياء بالخالق: هذه السورة، كما قلنا فى بدايتها، تهتم بشكل خاص بقضية الوحى والنبوّة، فهى تبدأ بالوحى وتنتهى به، لأنّ الآيات الأخيرة تتحدث عن هذا الموضوع (أى الوحى). وبما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن النعم الإلهية، لذا فإنّ هذه الآيات تتحدث عن أهمّ نعمة إلهية وأكثرها فائدة لعالم البشرية، ألا وهى قضية الوحى والإرتباط بين الأنبياء والخالق. تقول الآية: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا». لأنّ الخالق منزّه عن الجسم والجسمانية.

«أَوْ مِن وَرَاىِ حِجَابٍ» كما كان يفعل موسى حيث إنّه كان يتحدث فى جبل الطور.

«أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» كما كان يقوم به جبرائيل الأمين وينزل على الرسول صلى الله عليه و آله:

«فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ».

فلا يوجد طريق آخر سوى هذه الطرق الثلاثة لتحدّث الخالق مع عباده ل «إِنَّهُ عَلِىٌّ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۵

حَكِيمٌ». فهو أعلى وأجل من أن يرى أو يتكلم عن طريق اللسان، وكل أفعاله حكيمة، ويتمّ ارتباطه بالأنبياء وفق برنامج.

هذه الآية تعتبر ردّاً على الذين يتصورون- بجهالة- أنّ الوحى يعنى مشاهدة الأنبياء للخالق وهم يتكلمون معه.

وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۲) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (۵۳) القرآن روح من الخالق: بعد البحث العام الذى ورد فى الآية السابقة بخصوص الوحى، تتحدث الآيات التى نبحثها عن نزول الوحى على شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حيث تقول:

«وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا».

والمقصود من كلمة (روح) فى هذه الآية هو القرآن الكريم، لأنّه أساس حياة القلوب وحياة جميع الأحياء.

فإنّ الآية تضيف: «مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلكِن جَعَلْنَهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا». فهذا هو اللطف الإلهى الذى شملك وأنزل عليك هذا الوحى السماوى وآمنت بكل ما يحتويه.

وتضيف الآية فى نهايتها: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

فالقرآن نور للجميع وليس لك فحسب، وهو وسيلة لهداية البشر إلى الصراط المستقيم.

وقد ورد نفس هذا المعنى بعبارة اخرى فى الآية (۴۴) من سورة فصّلت حيث تقول الآية: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ».

ثم تقول الآية مفسّرة للصراط المستقيم: «صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمواتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

أمّا آخر جملة فى هذه الآية- وهى آخر آية فى سورة الشورى- فهى دليل على أنّ الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذى يوصل إلى الخالق، حيث تقول: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۶

هذه الجملة بُشرى للمتقين، وهى فى نفس الوقت تهديد للظالمين والمذنبين، لأنّ الجميع سوف يرجعون إلى الخالق.

وهى دليل على أنّ الوحى يجب أن يكون من الخالق فقط، لأنّ جميع الامور ترجع إليه، وتدبير كل شىء بيده.

وهكذا نرى أنّ بداية ونهاية هذه الآيات منسجمة فيما بينها ومترابطة، ونهاية السورة- أيضاً- يتلاءم مع بدايتها والموضوع العام السارى عليها.

بحث

ماذا كان دين الرسول الأعظم قبل نبوّته: لا يوجد شك فى أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لم يسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم ينحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنى، إلّاأنّ العلماء يختلفون فى الدين الذى كان عليه:

فأفضل قول هو: لقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يملك برنامجاً خاصاً من قبل الخالق وكان يعمل به، وفى الحقيقة فقد كان له دين خاص حتى زمان نزول الإسلام عليه.

والدليل على هذا الكلام الجملة التى ورد فى الخطبة (۱۹۲) فى نهج البلاغة، وهو: «ولقد قرن اللَّه به- صلّى اللَّه عليه وآله- من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

«نهاية تفسير سورة الشورى»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۷

۴۳. سورة الزخرف

محتوى السورة: يمكن تلخيص مباحث هذه السورة فى سبعة فصول:

۱- فى بداية السورة يتحدث عن أهمية القرآن المجيد، ونبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله، ومواجهة المشركين لهذا الكتاب السماوى.

۲- يذكر قسماً من أدلة التوحيد فى الآفاق، ونعم اللَّه المختلفة على البشر.

۳- ثم يكمّل هذه الحقيقة عن طريق محاربة الشرك، ونفى ما ينسب إلى اللَّه عزّ وجل من الأقاويل الباطلة، ومحاربة التقاليد العمياء.

۴- وينقل جانباً من قصص الأنبياء الماضين واممهم، وتاريخهم لتجسيد هذه الحقائق. مختصر الامثل ج۴ ۴۱۹

۵- ويتعرض إلى مسألة المعاد، وجزاء المؤمنين، ومصير الكفار المشؤوم، ويحذّر المجرمين ويهدّدهم بتهديدات وتحذيرات وإنذارات قوية.

۶- ويتناول القيم الباطلة التى كانت ولا تزال حاكمة على أفكار الأشخاص الماديين، ووقوعهم فى مختلف الإشتباهات حينما يقيّمون مسائل الحياة ويزنونها بالميزان الدنيوى.

۷- وهو فصل المواعظ والنصائح العميقة المؤثّرة حيث يكمل الفصول الاخرى.

وقد أخذ اسم هذه السورة (الزخرف) من الآية (۳۵) منها، والتى تتحدث فى القيم المادية.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ سورة الزخرف، كان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۸

ممّن يقال له يوم القيامة: يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنة بغير حساب».

إنّ هذه البشارة العظمى، والفضيلة التى لا تقدّر، لا تحصل بمجرد التلاوة الخالية من التدبر والإيمان والعمل الصالح، لأنّ التلاوة مقدمة للفكر، والإيمان والعمل الصالح ثمرة له.

حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴) أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (۶) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (۸) مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، وهى حروف «حم». وهذه رابع سورة تبدأ ب (حم).

ويقسم تعالى بالقرآن الكريم فى الآية الثانية، فيقول: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ».

قسماً بهذا الكتاب الواضحة حقائقه، والبيّنة معانيه ومفاهيمه، والظاهرة دلائل صدقه.

ثم يضيف: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

إنّ كون القرآن «عربياً»، إمّا بمعنى أنه نزل بلغة العرب التى هى أوسع لغات العالم فى بيان الحقائق، أو بمعنى فصاحته، لأنّ أحد معانى كلمة «عربى» هو (الفصيح) وهى إشارة إلى أنّا قد جعلناه فى منتهى الفصاحة وغايتها، لتظهر الحقائق جيّداً من خلال كلماته وجمله، ويدركها الجميع جيداً.

ثم يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات اخرى لهذا الكتاب السماوى فيقول: «وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ».

«الام»: فى اللغة تعنى أصل كل شيء وأساسه، وإنّما يقول العرب للأم امّاً لأنّها أساس العائلة ومأوى الأولاد، وعلى هذا فإنّ (ام الكتاب) يعنى الكتاب الذى يكون أساساً لكل الكتب السماوية. إنّه كتاب علم اللَّه المحفوظ لديه، والذى ادرجت فيه كل حقائق العالم، وكل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۳۹۹

حوادث الماضى والمستقبل، وكل الكتب السماوية، ولا يستطيع أى أحد أن يصل إليه ويعلم ما فيه، إلّاإذا أراد اللَّه سبحانه أن يُعلم أحداً بالمقدار الذى يريده عزّ وجل.

وهذا وصف عظيم للقرآن الذى ينبع من علم اللَّه اللامتناهى، وأصله وأساسه لديه سبحانه، ولهذا يقول فى الصفة الثانية: (لعلىّ) وفى الثالثة (حكيم).

واعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه على حقائق لا تدركها أفكار البشر، وهى بعيدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم.

وفى الآية التالية يخاطب المنكرين للقرآن والمعرضين عنه فيقول: «أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ».

صحيح أنّكم لم تألوا جهداً فى مخالفتكم للحق وعدائه، إلّاأنّ رحمة اللَّه سبحانه واسعة بحدّ لا تشكل هذه الأعمال المناوئة حاجزاً فى طريقها، ونظل ننزل باستمرار هذا الكتاب السماوى الذى يوقظكم، وآياته التى تبعث الحياة فيكم، حتى تهتزّ القلوب التى لها أدنى حظ من الإستعداد وتثوب إلى طريق الحق، وهذا هو مقام رحمة اللَّه العامة، أى: رحمانيته التى تشمل العدو والصديق، والمؤمن والكافر.

«الصفح»: فى الأصل بمعنى جانب الشيء وطرفه، ويأتى أيضاً بمعنى العرض والسعة، وهو فى الآية بالمعنى الأوّل. أى: أنحول عنكم هذا القرآن الذى هو أساس التذكرة إلى جانب وطرف آخر؟

«المسرف»: من الإسراف، وهو تجاوز الحدّ، إشارة إلى أنّ المشركين وأعداء النبى صلى الله عليه و آله لم يقفوا عند حدّ فى خلافهم وعدائهم مطلقاً.

ثم يقول فى عبارة قصيرة كشاهد على ما قيل، وتسليةً لخاطر النبى صلى الله عليه و آله وتهديداً للمنكرين المعاندين: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

إنّ هذه المخالفات وأنواع السخرية لم تكن لتمنع لطف اللّه ورحمته أبداً، فإنّها فيض متواصل من الأزل إلى الأبد، ووجود يعمّ عطاؤه كل العباد، بل إنّه سبحانه قد خلقهم للرحمة «وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ» «۱». ولهذا فإنّ إعراضكم وعنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقاً.

---

(۱) سورة هود/ ۱۱۹.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۰

لكن، ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء بأنّ لطف اللّه اللامتناهى سيحول دون عقابهم فى النهايـة، لأنّ العقاب بنفسه من مقتضـى حكمته، ولذلك يضـيف فى الآية التالية: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ». فالآية تخاطب النبى صـلى الله عليه و آله بأنّنا سبق وأن ذكرنا لك نماذج كثيرة من هـذه الأقوام العاصـية الطاغيـة، وأوحينا إليك تفصـيل حالهم بدون زيادة أو نقصان، وكان من بينهم أقوام أقوى وأشدّ من مشركى العرب كثيراً، ولهم إمكانيّات وثروات وأفراد وجيوش وإمكانات واسعة ... كفرعون وآل فرعون.

«البطش»: بمعنى أخذ الشىء بالقوة، وهنا اقترن بكلمة «أشدّ» وتعطى مفهوم شدّة القوة والقدرة أكثر.

والضمير فى «مِنْهُم» يعود على مشركى العرب الذين خوطبوا فى الآيات السابقة.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۹) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ الَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳) وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴) وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِى الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْأَلُونَ (۱۹) وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۲۱) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۲۵) وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (۳۰) وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَ رَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۳۲) وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۳۵) وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِى وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (۳۸) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ مَنْ كانَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۴۰) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) بعض أدلّة التوحيد: من هنا يبدأ البحث حول

التوحيد والشرك، فتستعين الآيات بفطرة هؤلاء وطينتهم لإثبات التوحيد. يقول سبحانه: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ».

إنّ هذا التعبير الذى ورد بتفاوت يسير فى أربع آيات من القرآن الكريم- العنكبوت/ ۶۱، لقمان/ ۲۵، الزمر/ ۳۸ والزخرف فى الآية التى نبحثها- دليل على كون معرفة اللَّه سبحانه أمر فطرى مغروس فى طينة البشر وطبيعتهم من جانب، ومن جانب آخر يدلّ على

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۱

أنّ المشركين كانوا مقرّين بأنّ خالق السماوات والأرض هو اللَّه سبحانه.

ثم يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم اللَّه العظيمة، والتى تعتبر كل منها نموذجاً من نظام الخلقة، وآية من آيات اللَّه سبحانه، فيقول أوّلًا: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا».

ونعلم أنّ الهدوء النفسى هو الدعامة الأساسيّة للاستفادة من النعم الاخرى والتنعّم بها.

ثم يضيف سبحانه لتبيان النعمة الثانية: «وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

إنّا نعلم أنّ التظاريس تعمّ كل اليابسة تقريباً، وفيها الجبال والتلال والهضاب، والبديع أن توجد بين أعظم سلال جبال العالم فواصل يستطيع الإنسان أن يشقّ طريقه من خلالها، وقلّما اتّفق أن تكون هذه الجبال سبباً لإنفصال أقسام الكرة الأرضية عن بعضها تماماً، وهذا واحد من أسرار نظام الخلقة، ومن مواهب اللَّه سبحانه وعطاياه للعباد.

وذكرت الموهبة الثالثة- وهى موهبة نزول المطر، وإحياء الأراضى الميّتة- فى الآية التالية: «وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذلِكَ تُخْرَجُونَ». من قبوركم يوم البعث.

وبعد ذكر نزول المطر وحياة النباتات، يشير فى المرحلة الرابعة إلى خلق أنواع الحيوانات، فيقول سبحانه: «وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا».

إنّ التعبير ب «الأزواج» كناية عن أنواع الحيوانات بقرينة ذكر النباتات فى الآية السابقة.

ونعلم أنّ قانون الزوجية سنّة حياتية فى كل الكائنات الحية، والعيّنات الاستثنائية لا تقدح بجامعية هذا القانون.

وفى المرحلة الخامسة تبيّن الآيات آخر نعمة من هذه السلسلة فيقول سبحانه: «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ».

إنّ هذه النعمة هى إحدى مواهب اللَّه سبحانه للبشر، وكراماته التى منّ بها عليهم، وهى لا تلاحظ فى الأنواع الاخرى من الموجودات.

وتذكر الآية التالية الهدف النهائى لخلق هذه المراكب فتقول: «لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ».

وتذكر آخر آية- من هذه الآيات- قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: «وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ».

هذه الجملة إشارة إلى مسألة المعاد، لأنّ الإنتباه إلى الخالق والمبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائماً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۲

وهى أيضاً إشارة إلى أن لا تغترّوا عندما تركبون هذه المراكب وتتسلّطون عليها، ولا تغرقوا فى مغريات الدنيا وزخارفها، بل يجب أن تذكّرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر.

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْأَلُونَ (۱۹) كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات اللَّه: بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيلة ذكر آيات اللَّه سبحانه فى نظام الوجود، وذكر نعمه ومواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أى محاربة الشرك وعبادة غير اللَّه تعالى، فتطرّقت أوّلًا إلى أحد فروعها، أى عبادة الملائكة فقالت:

«وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا».

إنّ التعبير ب «الجزء» يبيّن من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد اللّه تعالى، لأنّ الولد جزء من وجود الأب والأمّ، وينفصل عنهما كنطفة تتكوّن وتتلقّح، وإذا ما تلقّحت تَكَوّن الولد من تلك اللحظة. ويبيّن من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنّهم كانوا يظنّون الملائكة جزءاً من الآلهة فى مقابل اللّه سبحانه.

ثم تضيف: «إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ». فمع كل هذه النعم الإلهية التى أحاطت بوجوده، والتى مرّ ذكر خمس منها فى الآيات السابقة، فإنّه بدل أن يطأطىء رأسه إعظاماً لخالقه، وإجلالًا لولى نعمته، سلك سبيل الكفر واتّجه إلى مخلوقات اللّه ليعبدها.

فى الآية التى بعدها يستثمر القرآن الثوابت الفكرية لدى هؤلاء من أجل إدانة هذا التفكير الخرافى، لأنّهم كانوا يرجّحون جنس الرجل على المرأة، وكانوا يعدّون البنت عاراً- عادةً- يقول تعالى: «أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُم بِالْبَنِينَ».

فإذا كان مقام البنت أدنى فى اعتقادكم، فكيف ترجّحون أنفسكم وتعلونها على اللّه، فتجعلون نصيبه بنتاً، ونصيبكم ولداً؟

وتتابع الآية التالية هذا البحث ببيان آخر، فتقول: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۳

مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

والمراد من «بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا» هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات اللّه، وكانوا يعتقدون فى الوقت نفسه أنّها آلهتهم، وأنّها شبيهة به- سبحانه- ومثله.

إنّ لفظة (كظيم) من مادة «كظم»، وتعنى الحلقوم، وجاءت أيضاً بمعنى غلق فم قربة الماء بعد امتلائها، ولذلك فإنّ هذه الكلمة استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضباً أو غمّاً وحزناً، وهذا التعبير يحكى جيّداً عن خرافة تفكير المشركين البله فى عصر الجاهليّة فيما يتعلق بولادة البنت، وكيف أنّهم كانوا يحزنون ويغتمّون عند سماعهم بولادة بنت لهم، إلّا أنّهم فى الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه.

وتضيف فى الآية الكريمة: «أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» «۱».

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالباً، تنبعثان من ينبوع عاطفتهن، إحداهما: تعلّق النساء الشديد بأدوات الزينة، والاخرى: عدم إمتلاكهن القدرة الكافية على إثبات مرادهن أثناء المخاصمة والجدال لحيائهن وخجلهنّ.

وتذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- هذا المطلب بصراحة أكثر، فتقول: «وَجَعَلُوا الْمَلكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا».

ثم تجيبهم الآية بصيغة الاستفهام الإنكارى فتقول: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ».

وتضيف فى النهاية: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسَلُونَ».

وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۲۱) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲) لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين: أعطت الآيات السابقة أوّل جواب منطقى على عقيدة عبدة الأوثان الخرافيّة، حيث كانوا يظنون أنّ الملائكة بنات اللّه، وتتابع هذه الآيات نفس الموضوع، وتسلك مسالك اخرى لإبطال هذه الخرافة القبيحة، فتتعرض أوّلًا لأحد الأدلّة الواهية لهؤلاء ثم تجيب عليه فتقول: «وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُم».

---

(۱) «ينشؤا»: من مادة «الإنشاء»، أى إيجاد الشىء، وهنا بمعنى تربية الشىء وتنميته؛ و «الحلية»: تعنى الزينة؛ و «الخصام»: هو المجادلة والنزاع على شىء ما.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۴

إنّ هذا التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بالجبر، وأنّ كل ما يصدر منا فهو بإرادة اللّه، وكل ما نفعله فهو برضاه.

وتجيب الآية في النهاية على هذا الاستدلال الواهي لعبدة الأصنام، فتقول: «مَّا لَهُم بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

إنّ هؤلاء لا علم ولا إيمان لهم حتى بمسألة الجبر أو رضى اللَّه سبحانه عن أعمالهم، بل هم- ككثير من متبعي الهوى والمجرمين الآخرين- يتخذون مسألة الجبر ذريعة لهم من أجل تبرئة أنفسهم من الذنب والفساد، فيقولون: إنّ يد القضاء والقدر هي التي جرتنا إلى هذا الطريق وحتمته علينا.

«يخرصون»: من «الخرص»، وهو في الأصل بمعنى التخمين، وأطلقت هذه الكلمة أوّلًا على تخمين مقدار الفاكهة، ثم أطلقت على الحدس والتخمين، ولمّا كان الحدس والتخمين يخطىء أحياناً ولا يطابق الواقع، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، و «يخرصون» في هذه الآية من هذا القبيل.

وتشير الآية التالية إلى دليل آخر يمكن أن يكونوا قد استدلوا به، فتقول: «أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ». أي: يجب على هؤلاء أن يتمسّكوا بدليل العقل لإثبات هذا الإدّعاء، أو بدليل النقل، في حين لم يكن لهؤلاء دليل لا من العقل ولا من النقل، فإنّ كل الأدلّة العقلية تدعو إلى التوحيد، وكذلك دعا كل الأنبياء والكتب السماوية إلى التوحيد.

وأشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى ذريعتهم الأصلية، وهي في الواقع خرافة لا أكثر، أصبحت أساساً لخرافة اخرى، فتقول: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ».

لم يكن لهؤلاء دليل إلّاالتقليد الأعمى للآباء والأجداد، والعجيب أنّهم كانوا يظنون أنّهم مهتدون بهذا التقليد، في حين لا يستطيع أي إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد في المسائل العقائدية والأساسية التي يقوم عليها بناؤه الفكري، خاصة إذا كان التقليد تقليد «جاهل لجاهل».

وَ كَذلِكَ مَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢۴) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۵

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقة حول الدليل الأصلي للمشركين في عبادتهم للأصنام، وهو تقليد الآباء والأجداد، فتقول: إنّ هذا مجرد ادعاء واه من مشركي العرب: «وَكَذلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ».

إنّ هذه الآية نوع من التسلية لخاطر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله والمؤمنين ليعلموا أنّ ذرائع المشركين واستدلالاتهم هذه ليست بالشيء الجديد، إذ إنّ هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التاريخ.

وتبيّن الآية التالية جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين والمنحرفين بوضوح تام، فتقول: «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ».

هذا التعبير هو أكثر التعابير المؤدبة الممكن طرحها أمام قوم عنيدين مغرورين، ولا يجرح عواطفهم أو يمسها مطلقاً.

إنّ مثل هذه التعبيرات القرآنية تعلمنا آداب المحاورة والمجادلة وخاصة أمام الجاهلين المغرورين.

ومع كل ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا غرقى الجهل والتعصب والعناد بحيث لم يؤثّر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط: «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ».

من البديهي أنّ مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، وليست لهم أهليّة الحياة، ولابدّ أن ينزل عذاب اللَّه، ولذلك فإنّ آخر آية- من هذه الآيات- تقول:

«فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ». فبعضهم بالطوفان، وآخرون بالزلزلة المدمرة، وجماعة بالعاصفة والصاعقة، وخلاصة القول: إنّا دمّرنا كل فئة منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

وأخيراً وجهت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله من أجل أن يعتبر مشركو مكة أيضاً، فقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» فعلى مشركى مكة المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هذَا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (۳۰)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۶

التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة: أشارت هذه الآيات إشارة موجزة إلى قصة إبراهيم، وما جرى له مع قوم بابل عبدة الأوثان، لتكمل بذلك بحث ذم التقليد، الذى ورد فى الآيات السابقة، وذلك لأنّه:

أوّلًا: إنّ إبراهيم عليه السلام كان الجد الأكبر للعرب، وكانوا يعدونه محترماً ويقدّسونه، ويفتخرون بتأريخه، فإذا كان اعتقادهم وقولهم هذا حقّاً فيجب عليهم أن يتبعوه عندما مزّق حجب التقليد، وإذا كان سبيلهم تقليد الآباء، فلماذا يقلّدون عبدة الأوثان ولا يتّبعون إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: إنّ عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهى- وهو اتّباع الآباء- فلم يقبله إبراهيم منهم أبداً.

ثالثاً: إنّ هذه الآية نوع من التطييب لخاطر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله والمسلمين الأوائل ليعلموا أنّ مثل هذه المخالفات والتوسّلات بالمعاذير والحجج الواهية كانت موجودة دائماً، فلا ينبغى أن يضعفوا أو ييأسوا.

تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ».

ولمّا كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون اللّه أيضاً، فقد استثناه إبراهيم مباشرة فقال:

«إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ».

إنّه عليه السلام يذكر فى هذه العبارة الوجيزة دليلًا على انحصار العبوديّة باللّه تعالى، لأنّ المعبود هو الخالق والمدبر، وكان الجميع مقتنعين بأنّ الخالق هو اللّه سبحانه، وكذلك أشار عليه السلام فى هذه العبارة إلى مسألة هداية اللّه التكوينية والتشريعية التى يوجبها قانون اللطف.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام من أنصار أصل التوحيد، ومحاربة كل أشكال الشرك طوال حياته وحسب، بل إنّه بذل قصارى جهده من أجل ابقاء كلمة التوحيد فى هذا العالم إلى الأبد، كما تبيّن ذلك الآية التالية، إذ تقول: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (۱).

والطريف أنّ كل الأديان التى تتحدث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها وأفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السلام التوحيدية، وأنّ ثلاثة من أنبياء اللّه العظام- وهم موسى وعيسى عليهما السلام

---

(۱) «العقب»: فى الأصل بمعنى كعب القدم، إلّاأنّ هذه الجملة استعملت فيما بعد فى الأولاد وأولاد الأولاد بصورة واسعة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۷

ومحمّد صلى الله عليه و آله- من ذرّيته، وهذا دليل على صدق تنبؤ القرآن فى هذا الباب.

والآية التالية جواب عن سؤال وهو: فى مثل هذه الحال لِمَ لا يعذّب اللّه مشركى مكة؟ ألم نقرأ فى الآيات السابقة: «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ».

فتقول الآية مجيبة: «بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ».

فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك والوثنيّة، ولا بحكم وجدانهم بالتوحيد، بل أمهلناهم لإتمام الحجّة عليهم حتى يقوم هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا النبى العظيم محمّد صلى الله عليه و آله بهدايتهم.

إلّا أنّ العجيب أنّه: «وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ».

وَ قالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَ رَحْمَةُ رَبِّکَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۳۲) لـمَ لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء: كان الكلام فى الآيات السابقة فى ذرائع المشركين فى مواجهة دعوة الأنبياء، فكانوا يتّهمونهم بالسحر تارة، ويتوسلون تارة أخرى بتقليد الآباء وينبذون كلام اللّه وراء ظهورهم، وتشير الآيات- مورد البحث- إلى حجّة واهية اخرى من حجج اولئك المشركين، فتقول: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ». أى: مكة والطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبثهم بمثل هذه الذريعة من جهة، إذ كان المعيار فى تقييمهم للبشر هو المال والثروة والمقام الظاهرى والشهرة.

وهذا هو السبب فى بلاء المجتمعات البشرية العظيم، والعامل الأساس فى انحرافها الفكرى، حيث تقلب الحقائق تماماً فى بعض الأحيان.

ويردّ القرآن الكريم بأجوبة قاطعة على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافى، ويجسد النظرة الإلهية الإسلامية تماماً، فيقول: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ». فيمنحوا النبوّة من يشاؤون، وينزلوا عليه الكتاب السماوى.

فضلًا عن ذلك، فإنّ وجود التفاوت والإختلاف بين البشر من ناحية مستوى المعيشة، لا يدلّ على تفاوتهم فى المقامات والمنازل المعنويّة مطلقاً، بل: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۸

فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا».

لقد نسى هؤلاء أنّ حياة البشر حياة جماعية، ولا يمكن أن تدار هذه الحياة إلّاعن طريق التعاون والخدمة المتبادلة. بناءً على هذا فينبغى أن لا يخدعهم هذا التفاوت، ويظنّوا أنّه معيار القيم الإنسانية، إذ:

«وَرَحْمَتُ رَبِّکَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ»؛ بل إن كل المقامات والثروات لا تعدل جناح بعوضة فى مقابل رحمة اللّه والقرب منه.

وَ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِئُونَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۳۵) قصور فخمة سُقُفها من فضة! (قيم كاذبة): تستمر هذه الآيات فى البحث حول «نظام القيم فى الإسلام» وعدم اعتبار كون المال والثروة والمناصب المادية هى المعيار فى التقييم، فتقول الآية الاولى: «وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ».

ولجعلنا لهم بيوتاً لها عدّة طوابق ولها سلالم جميلة «وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ».

ثم تضيف الآية الاخرى: «وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ».

ولم تكتف الآية بهذا، بل استطردت أنّه إضافة إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج وانواع الزينة «وَزُخْرُفًا».

ثم تضيف الآية: «وَإِن كُلُّ ذلِکَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِينَ».

«الزخرف»: فى الأصل بمعنى كل زينة مقترنة بالرسم والتصوير، ولما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينة، فقد قيل له: زخرف؛ وإنّما قيل للكلام الأجوف الذى لا فائدة فيه: كلام مزخرف، لأنّهم يحيطونه ويلبسونه المزوقات ليصبح مقبولًا.

إنّ هذه الاسس المادية ووسائل الزينة الدنيوية، حقيرة لا قيمة لها عند اللّه تعالى فلا ينبغى أن تكون إلّامن نصيب الأفراد الذين لا قيمة لهم كالكافرين ومنكرى الحق، ولو لم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۰۹

يتأثر الناس من طلاب الدنيا ويميلوا إلى الكفر لجعل اللّه تعالى هذه الامور من نصيب هذه الفئة فقط، ليعلم الجميع أنّ هذه الامور ليست هى المعيار والمقياس لشخصية الإنسان وقيمته ومقامه.

ومن هنا يتّضح أنّ وجود جماعة من الكفار والظالمين بهذه القدرة المادية ليس دليلًا على رفعة شخصيتهم، ولا أنّ حرمان المؤمنين

منها، أو من التمتع بها فى حد المعقول كأدوات للزينة، يضر بإيمانهم وتقواهم، وهذا هو التفكير الإسلامى والقرآنى الصحيح.

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (۳۸) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۴۰) أقران الشياطين: لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن عبدة الدنيا الذين يقيّمون كل شىء على أساس المعايير الماديـة، فإنّ الآيات- مورد البحث- تتحدث عن أحد الآثار المميتة الناشئة عن الإرتباط بالدنيا والتعلق بها، ألا وهو الإبتعاد عن اللّه سبحانه. تقول الآية الاولى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» «۱».

نعم، إنّ الغفلة عن ذكر اللّه، والغرق فى لـذات الدنيا، والإنبهار بزخارفها ومغرياتها يؤدّى إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينه دائماً، ويلقى لجاماً حول رقبته يشدّه به، ويجرّه إليه ليذهب به حيث يشاء.

ثم أشارت الآية التالية إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به فى شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ».

وتزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذى يظنون: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ».

وهكـذا تسـتمر هـذه الحالـة على هـذا المنوال، فيبقى الإنسـان الغافـل الجاهل على ضـلاله، وتسـتمر الشـياطين فى إضـلاله، حتى ترفع الحجب، وتنفتح عين رؤيته على الحقيقة: «حَتَّى

---

(۱) «نقيّض»: من مادة قيض، وهى فى الأصل بمعنى الغشاء الذى يغطى البيضة، ثم جاءت بمعنى جعل شىء مستولياً على شىء آخر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۰

إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ». نعم، إنّ عرصة القيامة تجسيد واسع لمشاهد هذه الدنيا، والقرين والرفيق والقائد والدليل هنا وهناك واحد، بل إنّهما- برأى بعض المفسرين- يقرنان بسلسلة واحدة.

إلّا أنّ هذا الأمل لا يتحقق مطلقاً، ولا يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء وبين الشياطين، ولذلك فإنّ الآية التالية تضيف: «وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ». فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الاخرى إلى الأبد.

وبهذا فإنّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء فى الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم.

ويترك القرآن هنا هـذه الفئـة وشأنها، ويوجه الخطاب إلى النبى صـلى الله عليه و آله ويتحـدث عن الغافلين عمى القلوب الذى كذّبوا إرتباطه باللّه، وهم من جنس من تقدم الكلام عنهم فى الآيات السابقة، فيقول: «أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

إنّ القرآن يقول بنوعين من السمع والبصر والحياة للإنسان: السمع والبصر والحياة الظاهرية، والسمع والبصر والحياة الباطنية، والمهم هو القسم الثانى من الإدراك والنظر والحياة، فإنّها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظة وإرشاد، ولا إنذار وتحذير.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْأَلُونَ (۴۴) وَ اسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵) متابعـة للآيـات السابقـة التى كـانت تتحـدث عن الكفار المعانـدين الظالمين الـذين لا أمل فى هـدايتهم، تخاطب هـذه الآيات نبى الأكرم صلى الله عليه و آله مهـدّدة الكفار أشدّ تهديـد من جانب، ومسليّة خاطر النبى صـلى الله عليه و آله فتقول: «فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ».

والمراد من الذهاب بالنبى صلى الله عليه و آله من بين اولئك القوم، وفاته.

ثم تضيف الآية: «أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ».

فهم فى قبضتنا على أية حال، سواء كنت بينهم أم لم تكن، والعقاب والإنتقام الإلهى حتمى فى حقّهم إذا ما استمروا فى أعمالهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۱

بعد هذه التحذیرات تأمر الآیة النبی صلی الله علیه و آله أن: «فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِی أُوحِیَ إِلَیْکَ إِنَّکَ عَلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِیمٍ». وعدم قبول جماعة من هؤلاء به لا یدل علی عدم حقانیتک.

ثم تضیف الآیة الاخری: «وَإِنَّهُ لَذِکْرٌ لَّکَ وَلِقَوْمِکَ». فإنّ الهدف من نزوله إیقاظ البشر، وتعریفهم بتکالیفهم: «وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ».

ثم تطرّقت الآیة الأخیرة إلی نفی عبادة الأصنام وإبطال عقائد المشرکین بدلیل آخر، فقالت: «وَسَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِکَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمنِ ءَالِهَةً یُعْبَدُونَ».

إشارة إلی أنّ کل أنبیاء اللّه قد دعوا إلی التوحید، ووقفوا جمیعاً ضد الوثنیة بحزم، وعلی هذا فإنّ نبی الخاتم صلی الله علیه و آله فی مخالفته الأصنام لم یقم بعمل لم یسبقه به أحد، بل أحیا بفعله سنة الأنبیاء الأبدیة.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَی بِآیَاتِنَا إِلَی فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۴۶) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآیَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا یَضْحَکُونَ (۴۷) وَ مَا نُرِیهِمْ مِنْ آیَةٍ إِلَّا هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قَالُوا یَا أَیُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا کَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ یَنْکُثُونَ (۵۰) الفراعنة المغرورون ونقض العهد: فی هذه الآیات إشارة إلی جانب ممّا جری بین نبی اللّه موسی بن عمران علیه السلام وبین فرعون، لیکون جواباً لمقالة المشرکین الواهیة بأنّ اللّه إن کان یرید أن یرسل رسولًا، فلماذا لم یختر رجلًا من أثریاء مکة والطائف لهذه المهمة العظمی؟

قالت الآیة الاولی: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَی بَایَاتِنَا إِلَی فِرْعَوْنَ وَمَلَإِیهِ فَقَالَ إِنِّی رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِینَ».

المراد من «الآیات»: المعجزات التی کانت لدی موسی، والتی کان یثبت حقانیته بواسطتها، وکان أهمها العصا والید البیضاء.

یقول القرآن الکریم فی الآیة التالیة: «فَلَمَّا جَاءَهُم بَایَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا یَضْحَکُونَ».

وهذا الموقف هو الموقف الأوّل لکل الطواغیت والجهال المستکبرین.

إلّا أنّنا أرسلنا بآیاتنا الواحدة تلو الاخری لإتمام الحجة: «وَمَا نُرِیهِم مِّنْ ءَایَةٍ إِلَّا هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۲

وقد أریناهم بعد معجزتی العصا والید البیضاء معاجز الطوفان والجراد والقمل والضفادع وغیرها.

ثم تضیف الآیة: «وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ».

إنّ هذه الحوادث وإن کانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فیلجأون إلی موسی، غیر أنّهم بمجرد أن تهدأ العاصفة ینسون کل شیء، ویجعلون موسی غرضاً لسهام أنواع التهم، کما نقرأ ذلک فی الآیة التالیة: «وَقَالُوا یَا أَیُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِندَکَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ».

أی تعبیر عجیب هذا! فهم من جانب یسمّونه ساحراً، ومن جانب آخر یلجأون إلیه لرفع البلاء عنهم، ومن جانب ثالث یعدونه بتقبل الهدایة.

إنّ موسی رغم کل هذه التعبیرات اللاذعة والمحقرة لم یکفّ عن السعی لهدایتهم مطلقاً، ولم ییأس بسبب عنادهم وتعصبهم، بل استمرّ فی طریقه، ودعا ربّه مرات کی تهدأ عواصف البلاء، وهدأت، لکنّهم کما تقول الآیة التالیة: «فَلَمَّا کَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ یَنکُثُونَ».

کل هذه دروس حیّة وبلیغة للمسلمین، وتسلیة للنبی صلی الله علیه و آله لکی لا ینثنوا مطلقاً أمام عناد المخالفین وتصلبهم.

وهی أیضاً تحذیر للأعداء اللجوجین المعاندین، بأنّهم لیسوا أقوی من فرعون وآل فرعون ولا- أشد، فلینظروا عاقبة أمر اولئک، ولیتفکروا فی عاقبتهم.

وَ نَادَی فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قَالَ یَا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلَا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هذَا الَّذِی هُوَ

مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (۵۶) إذا كان نبيّاً فلم لا يملك أسورة من ذهب: لقد ترك منطق موسى عليه السلام من جهة، ومعجزاته المختلفة من جهة اخرى، وزعزعت أفكار الناس واعتقادهم بفرعون.

هنا أراد فرعون بسفسطته ومغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۳

مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

وبهذا فقد عظّم فرعون القيم المبتدعة السيئة، وجعل المال والمقام والجاه هى معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام فى عصر الجاهلية فى موقفهم أمام نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

ثم يضيف: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ».

وبهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين- حكومة مصر، وملك النيل- وذكر لموسى نقطتى ضعف: الفقر ولكنة اللسان.

هذا فى الوقت الذى لم يكن بموسى أيّة لكنة فى اللسان، لأنّ اللّه تعالى قد استجاب دعاءه، ورفع عنه عقدة لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثة أن: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى» «۱».

ومن المسلّم أنّ دعاءه قد استجيب، والقرآن شاهد على ذلك أيضاً.

ثم تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال: «فَلَوْلَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكَةُ مُقْتَرِنِينَ».

إنّ الفراعنة كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور والقلائد الذهبية، ولذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينة هذه، وهذا هو حال المجتمع الذى يكون معيار تقييم الشخصية فى نظره الذهب والفضة وأدوات الزينة.

أمّا أنبياء اللّه فإنّهم بطرحهم هذه المسائل- بالذات- جانباً كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبة، وأن يزرعوا محلّها القيم الإنسانية الأصيلة- أى العلم والتقوى والطهارة- لأنّ نظام القيم إذا لم يُصلح فى مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعادة أبداً.

وتشير الآية التالية إلى نكتة لطيفة، وهى: إنّ فرعون لم يكن غافلًا عن واقع الأمر تماماً، وكان ملتفتاً إلى أن لا قيمة لهذه القيم والمعايير، إلّاأنّه: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ».

إنّ طريقة كل الحكومات الجبارة الفاسدة من أجل الإستمرار فى تحقيق أهدافها وأنانياتها، هى الإبقاء على الناس فى مستوى مترد من الفكر والثقافة والوعى، وتسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، لأنّ يقظتها ووعيها، وتنامى رشدها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات، ويعتبر أكبر عدو للحكومات المستبدة.

والطريف أنّ الآية المذكورة تنتهى بجملة: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» إشارة إلى أنّ

---

(۱) سورة طه/ ۲۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۴

هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسقين ومتمردين على طاعة اللّه عزّ وجل وحكم العقل، لما كانوا يستسلمون لمثل هذه الدعايات والخزعبلات ويصغون إليها.

نعم، كان هؤلاء قوماً فاسقين يتبعون فاسقاً. كانت هذه جنايات فرعون وآل فرعون ومغالطاتهم فى مواجهة رسول اللّه موسى عليه السلام، لكنّنا نرى الآن إلى أين وصلت عاقبة أمرهم بعد كل هذا الوعظ والإرشاد وإتمام الحجج من طرق مختلفة، إذ لم يسلموا

للحق. تقول الآية: «فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ». فقد اختار اللّه سبحانه لهؤلاء عقوبة الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبات، وذلك لأنّ كل عزّتهم وشوكتهم وافتخارهم وقوّتهم كانت بنهر النيل العظيم وفروعه الكثيرة الكبيرة، والذى كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوّته، إذ قال: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى».

نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم وقوّتهم، سبب هلاكهم وفنائهم، ويكون قبراً لهم ليعتبر الآخرون.

«آسفونا»: من مادة «الأسف»، وهو الحزن والغم، ويأتى بمعنى الغضب.

والطريف أنّ غضب اللّه يعنى «إرادة العقاب»، ورضاه يعنى «إرادة الثواب».

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص لنتيجة مجموع ما مرّ من كلام: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْأَخِرِينَ».

«السلف»: فى اللغة يعنى كل شىء متقدم، ولذلك يقال للأجيال السابقة: سلف، وللأجيال الآتية: خلف، ويسمّون المعاملات التى تتمّ قبل الشراء «سلفاً» لأنّ ثمن المشترى يدفع من قبل؛ و «المَثَل»: يقال للكلام الدائر بين الناس كعبرة، ولما كانت قصة فرعون والفراعنة ومصيرهم المؤلم عبرة عظمى فقد ذكرت فى هذه القصة كعبرة للأقوام الآخرين.

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۵۷) وَ قَالُوا أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۲)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۵

سبب النّزول

فى جامع البيان: جلس رسول اللّه صلى الله عليه و آله فيما بلغنى يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلّم رسول اللّه صلى الله عليه و آله فعرض له النضر بن الحارث، وكلّمه رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» [أنبياء ۹۸ و ۹۹]. ثم قام رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأقبل عبداللّه بن الزبعرى بن قيس بن عدى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبداللّه الزبعرى:

واللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبداللّه بن الزبعرى: أما واللّه لو وجدته لخصمته، فسلوا محمّداً: أكل من عبد من دون اللّه فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم. فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان فى المجلس من قول عبد اللّه الزبعرى (ورأوا أنّه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول اللّه صلى الله عليه و آله من قول عبداللّه بن الزبعرى، فقال) رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «نعم كل من أحبّ أن يعبد من دون اللّه فهو مع من عبده، إنّما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته» «۱».

فأنزل اللّه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ...» أنبياء ۱۰۱ و ۱۰۲. أى عيسى وعزير ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة اللّه تعالى ونزل فيما يذكرون أنّهم يعبدون الملائكة وأنّها بنات اللّه «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا ...» أنبياء ۲۶- ۲۹ والآيات بعدها. ونزل فى إعجاب المشركين بقول ابن الزبعرى «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ...» الزخرف ۵۷ و ۵۸ «۲».

التّفسير

أى الآلهة فى جهنم: تتحدث هذه الآيات حول مقام عبودية المسيح عليه السلام، ونفى مقولة المشركين بالوهيته والوهية الأصنام، وهى تكملة للبحوث التى مرت فى الآيات السابقة حول دعوة موسى ومحاربته للوثنية الفرعونية، وتحذير لمشركى عصر النبى صلى الله عليه و آله وكل مشركى العالم. تقول الآية الاولى: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» «۳».

(۱) جامع البيان ۱۷/ ۱۲۷.

(۲) البداية والنهاية ۳/ ۱۱۰.

(۳) «يصدّون»: من مادة «صد»، تعنى الضحك والصراخ، وإحداث الضجيج والغوغاء، حيث يضعون يداً بيد عند السخرية والإستهزاء عادة. (يراجع لسان العرب، مادة: صدد).

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۶

إنّ المثل كان من جانب المشركين، وضرب فيما يتعلق بالأصنام، لأنّا نقرأ فى الآيات التالية: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا». إنّ المشركين قالوا أنّ عيسى بن مريم قد كان معبوداً، فينبغى أن يكون فى جهنم بحكم هذه الآية، وأى شيء أفضل من أن نكون نحن وأصنامنا مع عيسى؟! قالوا ذلك وضحكوا واستهزؤوا وسخروا.

ثم استمرّوا: «وَقَالُوا ءَأَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ». فإذا كان من أصحاب الجحيم، فإنّ آلهتنا ليست بأفضل منه ولا أسمى.

ولكن، اعلم أنّ هؤلاء يعلمون الحقيقة، و «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ».

بل: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَهُ مَثَلًا لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ».

لقد كان عيسى مقرّاً طوال حياته بالعبودية للَّه، ودعا الجميع إلى عبوديته سبحانه، ولمّا كان موجوداً فى امته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، ولكن المسيحيين أوجدوا خرافة ألوهية المسيح، أو التثليث، بعده.

ولئلا يتوهموا أنّ اللَّه سبحانه محتاج لعبوديتهم، وأنّه يصر عليها، فإنّه تعالى يقول فى الآية التالية: «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ». ملائكة تخضع لأوامر اللَّه، ولا تعرف عملًا إلّاطاعته وعبادته.

والآية التالية تشير إلى خصيصة اخرى من خصائص المسيح عليه السلام وتقول: إنّ عيسى سبب العلم بالساعة «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ». إمّا أنّ ولادته من غير أب دليل على قدرة اللَّه اللامتناهية، فتحل على ضوئها مسألة الحياة بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عليه السلام من السماء فى آخر الزمان طبقاً لروايات عديدة، ونزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

ثم تقول الآية بعد ذلك: إنّ قيام الساعة حتم، ووقوعها قريب: «فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا» لا من حيث الإعتقاد بها ولا من حيث الغفلة عنها.

«وَاتَّبِعُونَ هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» وأى صراط أكثر استقامة من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم، ويحذركم منه، ويدلكم على طريق النجاة من أخطار يوم البعث؟!

إلّا أنّ الشيطان يريد أن يبقيكم فى عالم الغفلة والإرتباط بها، فاحذروا: «وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

لقد أظهر عداءه لكم منذ اليوم الأوّل، مرّة عند وسوسته لأبيكم وأمكم- آدم وحواء-

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۷

وإخراجهما من الجنة، واخرى عندما أقسم على إضلال بنى آدم وإغوائهم، إلّاالمخلَصين منهم.

وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۶۳) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۶۵) مرّت الإشارة إلى جانب من خصائص حياة المسيح عليه السلام فى الآيات السابقة، وتكمل هذه الآيات ذلك البحث. تقول الآية أوّلًا: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

إنّ «الحكمة» اطلقت على كل العقائد الحقة، وبرامج الحياة الصحيحة التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيدة والعمل، وتتناول تهذيب نفسه وأخلاقه، وعلى هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعاً يشمل «الحكمة العلمية» و «الحكمة العملية».

ولهذه الحكمة- إضافة إلى ما مرّ- هدف آخر، وهو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع، وتجعل الناس حيارى مضطربين، ولهذا السبب نرى المسيح عليه السلام يؤكّد على هذه المسألة.

وتضيف الآية فى النهاية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

بعد ذلك، ومن أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسألة عبوديته، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبّى وَرَبُّكُمْ».

وأنا مثلكم محتاج فى كل وجودى إلى الخالق المدبر، فهو مالكى ودليلى.

وللتأكيد أكثر يضيف: «فَاعْبُدُوهُ». إذ لا يستحق العبادة غيره، ولا تليق إلّابه، فهو الرب والكل مربوبون، وهو المالك والكل مملوكون.

ثم يؤكّد كلامه بجملة اخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعة، فيقول: «هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

نعم، إنّ الصراط المستقيم هو طريق العبودية للَّهسبحانه ... ذلك الطريق الذى لا انحراف فيه ولا إعوجاج.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۸

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ».

فالبعض ذهب إلى أنّه الرب الذى نزل إلى الأرض.

وبعض آخر اعتبره ابن ربّه.

وآخرون بأنّه أحد الأقانيم الثلاثة (الذوات المقدسة الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس).

وهناك فئة قليلة فقط هم الذين اعتبروه عبداللَّه ورسوله، غير أنّ عقيدة الأغلبية هى التى هيمنت، وعمت مسألة التثليث والآلهة الثلاثة عالم المسيحية.

وهددهم اللَّه سبحانه فى نهاية الآية بعذاب يوم القيامة الأليم، فقال: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ».

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۶۶) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (۶۷) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (۶۹) ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة: كان الكلام فى الآيات السابقة يدور حول عبدة الأوثان العنودين، وكذلك حول المنحرفين والمشركين فى امّة عيسى عليه السلام، والآيات مورد البحث تجسد عاقبة أمرهم. يقول تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

فى الدرّ المنثور قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان اللقحة، والرجلان يطويان الثوب». ثم قرأ: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

ثم رفعت الآية الغطاء عن حالة الأخلاء الذين يود بعضهم بعضاً، ويسيرون معاً فى طريق المعصية والفساد، والإغترار بزخارف الدنيا، فتقول: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» «۱».

---

(۱) «الأخلاء»: جمع «خليل»- من مادة خلة- بمعنى المودة والمحبة، وأصلها من الخلل أى الفاصلة بين جسمين، ولما كانت المحبّة والصداقة كأنّها تنفذ فى أعماق القلب وثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۱۹

إنّ تبدل مثل هذه المودّة إلى عداوة فى ذلك اليوم أمر طبيعى، لأنّ كلًا منهم يرى صاحبه أساس تعاسته وسوء عاقبته.

أمّا المتقين تبقى روابط أخوتهم، وأواصر مودّتهم خالدة، لأنّها تدور حول محور القيم والمعايير الخالدة، وتتّضح نتائجها المثمرة فى عرصة القيامة أكثر، فتمنحها قوّة إلى قوّتها.

والآية التالية تبيان لأوصاف المتقين وأحوالهم، وبيان لعاقبتهم التى تبعث على الفخر والإعتزاز فى ذلك اليوم العصيب. يقول لهم اللَّه تعالى: «يَا عِبَادِ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ».

كم هو جميل هذا النداء! نداء مباشر من اللَّه سبحانه من دون واسطة توصله ... نداء يبدأ بأحسن الصفات: يا عبادى! نداء يزيل قلق الإنسان فى يوم ليس فيه إلّاالقلق والاضطراب ... نداء يطهر القلب من غم الماضى وحزنه، وينقيه ... نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربعة

المذكورة.

وتبيّن آخر آيـة- من هـذه الآيات- هؤلاء المتقين والعباد المكرمين بصورة أكثر وضوحاً، بـذكر جملتين اخريين، فتقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ».

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۷۳) فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين: تبيّن هذه الآيات جزاء عباد اللَّه المخلصين، والمؤمنين الصالحين الذين مرّ وصفهم فى الآيات السابقة، وتبشرهم بالجنة الخالدة مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسة الغالية. تقول أوّلًا: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». وبذلك فإنّ مضيفهم الحقيقى هو اللَّه تعالى الذى يدعو ضيوفه ويقول لهم: ادخلوا الجنة.

ثم أشارت إلى أوّل نعمة من تلك النعم، فقالت: «أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ». ومن الواضح أنّ كون المؤمنين الرحماء إلى جانب زوجاتهم المؤمنات يمنحهما معاً اللذة والسرور، فإذا كانا شريكين فى همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين فى سرور الآخرة ونشوتها.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۴۴۹

ثم تضيف: «تُحْبَرُونَ».

«تحبرون»: من مادة «حِبْر» أى الأثر المطلوب، وتطلق أحياناً على الزينة وآثار الفرح التى تظهر على الوجه.

وتقول فى بيان النعمة الثالثة: «يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ». فهم يضافون ويخدمون بأفضل الأوانى، وألذّ الأطعمة، فى منتهى الهدوء والإطمئنان والصفاء.

«الصحاف»: جمع «صحفة»، وهى فى الأصل من مادة «صحف»، أى التوسع، وتعنى هنا الأوانى الكبيرة الواسعة والأكواب جمع كوب، وهى أقداح الماء التى لا عروة لها.

وتشير فى الرابعة والخامسة إلى نعمتين اخريين جمعت فيهما كل نعم العالم المادية والمعنوية، فتقول: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ».

وعلى قول الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان: وقد جمع اللَّه سبحانه بقوله «مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ» ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما فى الجنة من أنواع النعيم، لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان.

ولما كانت قيمة النعمة فى كونها خالدة، فقد طمأنت الآية أصحاب النعيم من هذه الجهة عندما ذكرت الصفة السادسة فقالت: «وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». لئلّا يكدر التفكير فى زوال هذه النعمة صفو عيشهم ولذّتهم، فيقلقوا من المستقبل وما يخبئه.

وهنا، من أجل أن يتّضح أنّ كل نعم الجنة هذه تعطى جزاءً لا اعتباطاً وعبثاً، تضيف الآية: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

أى أنّ أعمالكم هى أساس خلاصكم ونجاتكم، إلّاأنّ ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشىء المجانى المعطى من قبل اللَّه تعالى، وكالهبة حصلتم عليها بفضله.

والكلام فى النعمة السابعة والأخيرة فى ثمار الجنة التى هى من أفضل نعم اللَّه، فتقول الآية: «لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ».

وجاء فى الحديث: «لا ينزع رجل فى الجنة ثمرة من ثمرها إلّانبت مثلاها مكانها» «۱».

(۱) تفسير روح البيان ۸/ ۳۹۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۱

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (۷۴) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (۷۶) وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَاكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (۷۸) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَى وَ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰) نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب: لقد فصّلت هذه الآيات القول فى مصير المجرمين والكافرين فى القيامة، ليتّضح الفرق بينه وبين مصير المؤمنين- المطيعين لأمر اللّه- المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين. تقول الآية الاولى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ».

«المجرم»: من مادة «جرم»، وهو فى الأصل بمعنى القطع الذى يستعمل فى قطع الثمار من الشجرة- أى القطف- وكذلك فى قطع نفس الشجرة، إلّاأنّه استعمل فيما بعد فى القيام بكل عمل سىء، وربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه وعن القيم الإنسانية، وتبعده عنهما.

والمراد هنا هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلًا لهم.

ولما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمى بمرور الزمان، وتقل شدته تدريجياً، فإنّ الآية التالية تضيف: «لَايُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ».

إنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، وعدم تخفيف العذاب، والحزن واليأس المطلق، وما أشد العذاب الذى تمتزج فيه هذه الامور الثلاثة وتجتمع.

وتنبه الآية التالية إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، واشتروه بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم، فتقول: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ».

إنّ القرآن يرى ارادة الإنسان وأعماله السبب الأساسى لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية والوهمية التى اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثم تطرقت الآية إلى بيان جانب من مذلة هؤلاء ومسكنتهم، فقالت، «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ».

فمع أنّ كل امرىء يهرب من الموت ويريد استمرار الحياة وبقاءها، إلّاأنّه عندما تتوالى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۲

عليه المصائب أحياناً ويضيق عليه الخناق يتمنّى على اللّه الموت، وإذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحياناً لبعض الناس فى الدنيا، فإنّها تعمّ جميع المجرمين هناك، فكلّهم يتمنى الموت. ولكن حيث لا فائدة من ذلك، فإنّ مالك النار وخازنها يجيبهم: «قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ» «۱».

وتقول الآية الاخرى، وهى تشير إلى علّة خلود هؤلاء فى نار جهنم: «لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ».

وللتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، وإن كانت مسألة التوحيد والمعاد والقرآن تأتى فى الدرجة الاولى.

وهذا التعبير يشير إلى أنّكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، وإنّما خالفتم الحق فى الواقع، وهذه المخالفة هى التى ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدى.

وتعكس الآية التالية جانباً من كراهية هؤلاء للحق واشمئزازهم منه، وكذلك مناصرتهم للباطل والتمسك به، فتقول: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ».

فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس ودبّروا المؤمرات لإطفاء نور الإسلام، وقتل النبى صلى الله عليه و آله ولم يتورعوا فى إنزال الضربات بالإسلام والمسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وفى المقابل أردنا أن نجازى هؤلاء فى هذه الحياة الدنيا، وفى الآخرة بأشد العذاب.

و الآية الاخرى بيان لإحدى علل التآمر، فتقول: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَانَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُم».

فإنّ الأمر ليس كذلك، إذ نحن نسمع ورسلنا: «بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ».

«السر»: هو ما يضمره الإنسان فى قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه وأصدقائه؛ و «النجوى»: هى الهمس فى الاذن.

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (۸۱) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵)

---

(۱) «ماكثون»: من مادة «مكث»، وهو فى الأصل التوقف المقترن بالإنتظار، وربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاءً، كما نقول- أحياناً- لمن يطلب شيئاً لا يستحقه انتظر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۳

لما كان البحث فى الآيات السابقة- وخاصة فى بداية السورة- عن مشركى العرب واعتقادهم بأنّ للّهولداً، وأنّهم كانوا يظنون الملائكة بنات اللّه، ولما مر البحث فى عدة آيات مضت عن المسيح عليه السلام ودعوته إلى الوحدانية الخالصة والعبودية للّهوحده، فقد ورد البحث فى هذه الآيات فى نفى هذه العقائد الفاسدة عن طريق آخر. تقول الآية: «قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ».

وعلى هذا، فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: لو كان للّهولد لبادرت قبلكم إلى احترامه وتعظيمه، ليطمئن هؤلاء من إستحالة أن يكون للّهولد.

بعد هذا الكلام ذكرت الآية دليلًا واضحاً على نفى هذه الإدعاءات، فقالت: «سُبْحَانَ رَبِّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

فإنّ من كان مالكاً للسماوات والأرض ومدبراً لها، وربّاً للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد.

ثم تضيف الآية الاخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين وتهديد لهم، وهو بحد ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء الأفراد: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ».

إنّه نفس اليوم الموعود الذى أقسم اللّه تعالى به فى الآية (۲) من سورة البروج، حيث تقول الآية: «وَالْيَوْمِ الْمُوعُودِ».

وتواصل الآيتان التاليتان البحث حول مسألة التوحيد، وهما تشكلان نتيجة للآيات السابقة من جهة، ومن جهة اخرى دليلًا لتكملتها وإثباتها، وفيهما سبع من صفات اللّه سبحانه، ولجميعها أثر فى تحكيم وتقوية مبانى التوحيد.

فتقف الآية الاولى بوجه المشركين الذين كانوا يعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلهاً، وللصحراء إلهاً وآخر للحرب، ورابعاً للصلح والسلم، وآلهة مختلفة ومتعددة بتعدد الموجودات، فتقول: «وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلهٌ».

وتقول فى الصفتين الثانية والثالثة: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ». فكلّ أعماله تقوم على أساس الدقّة والحساب والنظم، وهو عليم بكل شىء ومحيط به، وبذلك فإنّه يعلم أعمال العباد جيداً، ويجازيهم عليها طبقاً لحكمته.

وتتحدث الآية الثانية فى الصفتين الرابعة والخامسة، بركات وجوده الدائمة الوفيرة، وعن امتلاكه السماء والأرض وما بينهما، فتقول: «تَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۴

وَمَا بَيْنَهُمَا». «تبارك»: من مادة «بركة»، وتعنى امتلاك النعمة الوفيرة، أو الثبات والبقاء، أو كليهما، وكلاهما يصدقان فى شأن اللّه تعالى. وتضيف فى الصفتين السادسة والسابعة: «وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

وعلى هذا فإذا أردتم الخير والبركة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإنّ مصائركم إليه يوم القيامة، وهو المرجع الوحيد لكم، وبيده كل شىء.

وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹) من يملك الشفاعة: لا زال الحديث فى

هـذه الآيـات- وهی آخر آيات سورة الزخرف- حول إبطال عقيـدة الشـرك وتفنيـدها، وعاقبـة المشـركين المُرّة، وهی توضـح بطلان عقيدتهم بدلائل اخرى. تقول الآية الاولى: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ».

ولمّا كانت الملائكة وأمثالها من بين آلهة هؤلاء، فقد استثنوا فی ذيل الآية، فقالت: «إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقّ».

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأی كـان، حتى وإن كان وثنياً ومشـركاً ومنحرفاً عن طريق التوحيد وضالًا عن الصراط المستقيم، بل «وَهُمْ يَعْلَمُونَ». جيداً لمن يشفعون.

ثم تدين المشركين من أفواههم، وتجيبهم جواباً قاطعاً، فتقول: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

إنّ من النادر أن يوجد من بين مشركی العرب وغيرهم من يعتقد أنّ الأصنام هی الخالقة لهم، فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط وشفعاء يقربونهم إلى اللَّه زلفى، أو أنّها دلائل وعلامات لأولياء اللَّه المقدسين، ثم يضمون إليها ذريعة أن معبودنا يجب أن يكون موجوداً ملموساً ومحسوساً لنأنس به، فيعبدونها، ولذا فإنّهم متى ما سئلوا عن خالقهم فسيقولون: اللَّه. ولذلك فإنّ الآية تقول فی نهايتها: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». وهو لوم وتوبيخ لهم ... فإنّكم إذا علمتم حقيقة الأمر فلم تعرضون عن اللَّه وتعبدون غيره؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۵

وتحدثت الآية التالية عن شكوى النبی صلى الله عليه و آله إلى اللَّه سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبين الذين لا منطق لديهم، فقالت: «وَقِيلِهِ يَا رَبّ إِنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّايُؤْمِنُونَ».

إنّه يقول: لقد تحدثت مع هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً، فأتيتهم من طريق التبشير والإنذار، وذكرت لهم قصص الأقوام الماضين المؤلمة، إلّاأنّ حرارة كلامی لم تؤثر فی برودة قلوبهم، فهی كالحجارة أو أشدّ قسوة، فلم يؤمنوا.

ويأمر اللَّه سبحانه نبيّه فی آخر آيـة أن «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» ولا يكن إعراضك عنهم إعراض افتراق وغضب وأذى وجرح للمشاعر، بل أعرض عنهم «وَقُلْ سَلَمٌ» لا سلام تحيّة ومحبّة، بل سلام وداع وافتراق.

إنّ هذا السلام يشبه ذلك السلام الذی ورد فی الآية (۶۳) من سورة الفرقان: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا». سلام هو علامة اللامبالاة بهم ممتزجةً بالعلوّ والعزة.

ومع ذلك فإنّه تعالى يهددهم ويحذرهم بجملة عميقة المعنى، لئلا يتصوروا أنّ اللَّه تاركهم بعد هذا الفراق والوداع، فيقول: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

نعم، سوف يعلمون أی نار محرقة قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، وأی عذاب أليم قد هيأوا أسبابه ليطالهم فيما بعد؟

«نهاية تفسير سورة الزخرف»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۷

۴۴. سورة الدخان

محتوى السورة: يمكن تلخيص فصول هذه السورة فی سبعة:

۱- بداية السورة بالحروف المقطعة، ثم بيان عظمة القرآن، مع تبيان نزوله فی ليلة القدر أوّل مرة.

۲- وتتحدث عن التوحيد ووحدانية اللَّه سبحانه، وبيان بعض مظاهر عظمته فی عالم الوجود.

۳- ويتحدث عن مصير الكفار وعاقبتهم، وأنواع العقوبات الأليمة التی نزلت وستنزل بهم.

۴- وتتحدث عن قصة موسى عليه السلام وبنی إسرائيل مع قوم فرعون، وهزيمة قوم فرعون وهلاكهم وفنائهم، من أجل إيقاظ هؤلاء الغافلين.

۵- وتشكل مسألة القيامة وأنواع العذاب الأليم الذی سينال أصحاب الجحيم، والمثوبات العظيمة التی تسر الروح، والتی سينالها

المتقون.

۶- ومن المواضیع الاخری التی طرحت فی هذه السورة موضوع الغایة من الخلق، وعدم کون خلق السماء والأرض عبثاً.

۷- وأخیراً تنتهی السورة ببیان عظمة القرآن الکریم کما بدأت بذلک.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۸

ولمّا کان الکلام فی الآیة العاشرة من هذه السورة عن «الدخان المبین»، فقد سمیت بسورة الدخان.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «ومن قرأ سورة الدخان لیلة الجمعة ویوم الجمعة بنی اللّه له بیتاً فی الجنة».

وروی أبو حمزة الثمالی عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «من قرأ سورة الدخان فی فرائضه ونوافله بعثه اللّه من الآمنین یوم القیامة، وأظلّه تحت ظلّ عرشه، وحاسبه حساباً یسیراً، واعطی کتابه بیمینه».

حم (۱) وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ إِنَّا کُنَّا مُنْذِرِینَ (۳) فِیها یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ (۴) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا کُنَّا مُرْسِلِینَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ (۷) لا إِلهَ إِلَّا هُوَ یُحْیِی وَ یُمِیتُ رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبائِکُمُ الْأَوَّلِینَ (۸) نزول القرآن فی اللیلة المبارکة: نلاحظ فی بدایة هذه السورة- وکالسور الأربعة السابقة، والسورتین الآتیتین، والتی یکون مجموعها سبع سور هی سور الحوامیم- الحروف المقطعة «حم».

إنّ بعض المفسرین فسّر (حم) هنا بالقسم، فیصبح فی الآیة قَسمان متتابعان: قسم بحروف الهجاء ک (حم)، وقسم بهذا الکتاب المقدس الذی یکون من هذه الحروف.

وکما قلنا، فإنّ الآیة الثانیة أقسمت بالقرآن الکریم، حیث تقول: «وَالْکِتَابِ الْمُبِینِ».

لکن لنَر الآن ما هو القصد من وراء ذکر هذا القسم؟ الآیة التالیة توضح هذا الأمر، فتقول: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ فِی لَیْلَةٍ مُّبَارَکَةٍ».

لقد فسّرها أغلب المفسرین بلیلة القدر، تلک اللیلة العظیمة التی تغیرت فیها مقدرات البشر بنزول القرآن الکریم ... تلک اللیلة التی تقدر فیها مصائر الخلائق.

وتجدر الإشارة إلی أنّ ظاهر الآیة هو أنّ القرآن کلّه قد نزل فی لیلة القدر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۲۹

أمّا ما هو الهدف الأساس من نزوله؟ نهایة الآیة أشارت إلیه إذ قالت: «إِنَّا کُنَّا مُنذِرِینَ». فإنّ سنتنا الدائمة هی إرسال الرسل لإنذار الظالمین والمشرکین، وکان إرسال نبی الخاتم صلی الله علیه و آله بهذا الکتاب المبین آخر حلقة من هذه السلسلة المبارکة المقدسة.

والآیة التالیة وصف وتوضیح للیلة القدر، حیث تقول: «فِیهَا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ».

التعبیر ب (یفرق) إشارة إلی أنّ کل الامور والمسائل المصیریة تقدر فی تلک اللیلة؛ والتعبیر ب «الحکیم» بیان لاستحکام هذا التقدیر، وعدم تغیره، وکونه حکیماً.

وهذا البیان ینسجم مع الروایات الکثیرة التی تقول: إنّ مقدرات بنی آدم بأجمعهم لمدّة سنة تقدر فی لیلة القدر، وکذلک تفرق الأرزاق والآجال والامور الاخری فی تلک اللیلة.

وتقول الآیة الاخری لتأکید أنّ القرآن منزل من قبل اللّه تعالی: «أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا کُنَّا مُرْسِلِینَ».

ولأجل تبیان العلة الأساسیة لنزول القرآن وإرسال النبی صلی الله علیه و آله وکون المقدرات فی لیلة القدر، تضیف الآیة: «رَحْمَةً مِّن رَّبِّکَ».

نعم، فإنّ رحمته التی لا تُحدّ توجب أن لا یترک العباد وشأنهم، بل یجب أن ترسل إلیهم التعلیمات اللازمة لترشدهم فی سیرهم إلی اللّه.

وتذكر نهاية هذه الآية- والآيات التالية- سبع صفات للّه‏سبحانه، وكلّها تبين توحيده ووحدانيته، فتقول: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فهو يسمع طلبات العباد، وهو عليم بأسرار قلوبهم.

ثم تقول مبينة للصفة الثالثة: «رَبِّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ».

لما كان كثير من المشركين يعتقدون بوجود آلهة وأرباب عديدين، وكانوا يظنون أنّ لكل موجود من الموجودات إله، فإنّ هذه الآية أبطلت كل هذه الأوهام بجملة: «رَبِّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا». وأثبتت أنّ ربّ كل موجودات العالم واحد.

وتقول في الصفة الرّابعة والخامسة والسادسة: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ». فحياتكم ومماتكم بيده، وهو سبحانه ربّكم وربّ العالمين، وعلى هذا فلا إله سواه، أوَ يكون من ليس له مقام الربوبية ولا أهليتها، ولا يملك الحياة والموت ربّاً ومعبوداً؟!

وتضيف في الصفة السابعة: «وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۰

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (۱۰) يَغْشَى النَّاسَ هذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۱) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (۱۵) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (۱۶) لما كان الكلام في الآيات السابقة في أنّ هؤلاء إن كانوا طلّاب يقين، فإنّ سبل تحصيله كثيرة، وتضيف أوّل آية من هذه الآيات: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» فإنّ شك هؤلاء في حقانية هذا الكتاب السماوي وفي نبوّتك، ليس نابعاً من كون المسألة معقدة صعبة، بل من عدم جديتهم في التعامل معها.

ثم انتقلت الآية التالية إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين، في الوقت الذي وجهت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله فقالت: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغشَى النَّاسَ هذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

إنّ المراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذي سيغطي السماء في نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب اللّه الأليم للظالمين والمفسدين.

عند ذلك سيعم الخوف والاضطراب كل وجودهم، وتزول الحجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطئهم الكبير، ويتجهون إلى اللّه تعالى بالقول: «رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ».

إلّا أنّ اللّه عزّ وجل يرفض طلب هؤلاء ويقول: «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ». رسول كان واضحاً في نفسه وتعليماته وبرامجه وآياته ومعجزاته، ومبيناً لها جميعاً.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له، ويؤمنوا باللّه الواحد الأحد، ويتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النبي صلى الله عليه و آله: «ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ».

ثم تضيف الآية التالية: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُم عَائِدُونَ».

ويقول سبحانه في آخر آية من هذه الآيات: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ».

«البطش»: هو تناول الشيء بصولة، وهنا بمعنى الأخذ للإنتقام الشديد، ووصف البطشة بالكبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التي تنتظر هذه الفئة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۱

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (۲۱) متابعة للآيات السابقة التي كانت تتحدث حول تمرد مشركي العرب وعدم إذعانهم للحق، تشير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التي سارت في نفس هذا المسير، وابتليت أخيراً بالعذاب الأليم والهزيمة النكراء، ليكون ذلك تسلية للمؤمنين، وتحذيراً للمنكرين المعاندين. وذلك

النموذج هو قصة موسى وفرعون، حيث تقول الآية: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ».

«فتنّا»: من مادة «فتنة»، وهى فى الأصل تعنى وضع الذهب فى فرن النار لتخليصه من الشوائب، ثم أطلقت على كل امتحان واختبار يجرى لمعرفة نسبة خلوص البشر.

ثم تضيف الآية: «وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ».

لقد خاطبهم موسى عليه السلام باسلوبه المؤدب جدّاً، المليء بالود والمحبة، فقال: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

وطبقاً لهذا التفسير، فإنّ «عِبَادَ اللَّهِ» بحكم المخاطب، والمراد منهم الفراعنة، وبالرغم من أنّ هذا التعبير يستعمل فى آيات القرآن فى شأن العباد الصالحين، إلّاأنّه أطلق أيضاً فى موارد عديدة على الكفار والمجرمين، من أجل تحريك وجدانهم، وجذب قلوبهم نحو الحق.

بناء على هذا، فإنّ المراد من «أَدُّوا» إطاعة أمر اللّه سبحانه وتنفيذ أوامره.

ثم يقول لهم موسى عليه السلام بعد أن دعاهم إلى طاعة اللّه سبحانه، أو إطلاق سراح بنى إسرائيل وتحريرهم: إنّ مهمّتى الاخرى أن أقول لكم: «وَأَن لَّاتَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنّى ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» معجزاته بينة، وأدلته منطقية واضحة.

ولما كان المستكبرون وعبيد الدنيا لا يدعون أى تهمة وافتراء، إلّاوألصقوهما بمن يرونه مخالفاً لمنافعهم ومصالحهم اللامشروعة بل لا يتورعون حتى عن قتله وإعدامه، لذا فإنّ موسى عليه السلام يضيف للحد من مسلكهم هذا: «وَإِنّى عُذْتُ بِرَبّى وَرَبّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ».

وتخاطب الآية الأخيرة هؤلاء القوم فتقول: «وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۲

لأنّ موسى عليه السلام كان واثقاً من نفوذه بين أوساط الناس، ومختلف طبقاتهم، بامتلاكه تلك المعجزات الباهرات، والأدلة القوية، والسلطان المبين.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (۲۶) وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹) لقد استخدم موسى عليه السلام كل وسائل الهداية للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمة، إلّا أنها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، وطرق كل باب ولكن ما من مجيب. لذلك يئس منهم، ولم ير لهم علاجاً إلّالعنهم والدعاء عليهم، لأنّ الفاسدين الذين لا أمل فى هدايتهم لا يستحقون الحياة فى قانون الخلقة، بل يجب أن ينزل عليهم عذاب اللّه ويجتثهم ويطهر الأرض من دنسهم. لذلك تقول الآية الاولى من هذه الآيات: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ».

وقد استجاب اللّه سبحانه دعاءه، وكمقدمة لنزول العذاب على الفراعنة، ونجاة بنى إسرائيل منهم، أمر موسى عليه السلام أن «فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ».

لكن لا تقلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذى ينتظرهم.

إنّ ما حذف هنا من أجل الاختصار وُضّح فى آيات اخرى من القرآن بعبارات موجزة، فمثلًا نقرأ فى الآية (۷۷) من سورة طه: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَاتَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى .

ثم تضيف الآية التى بعدها: عندما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء «وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا». والمراد من البحر فى هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

من الطبيعى أنّ موسى عليه السلام وبنى إسرائيل كانوا راغبين فى أن يجتازوا البحر حتى تتصل المياه مرّة اخرى وتملأ هذا الفراغ، ويبتعدوا بسرعة عن منطقة الخطر، ويتجهوا بسلامة إلى الوطن الموعود، إلّاأنّهم امروا أنّ لا يعجلوا أثناء عبورهم نهر النيل، بل ليدعوا فرعون وآخر جندى من جنوده يردون النيل، فإنّ أمر إهلاكهم وإماتتهم قد صدر إلى أمواج النيل المتلاطمة الغاضبة، ولذلك تقول

الآية فى ختامها: «إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۳

يبيّن القرآن الكريم فى الآيات التالية تركة الفراعنة العظيمة التى ورثها بنو إسرائيل، ضمن خمسة مواضيع تكون الفهرس العام لكل حياة الفراعنة، فيقول أوّلًا: «كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

لقد كانت البساتين والعيون ثروتين من أهم وأروع ثروات هؤلاء.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ». وكانت هاتان ثروتين مهمّتين أخريين، فمن جهة كانت الزراعة العظيمة التى تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعية الغذائية وغيرها، والمحصولات التى امتدت فى جميع أنحاء مصر، وكانوا يستخدمونها غذاءاً لهم ويصدرون الفائض منها إلى الخارج؛ ومن جهة اخرى كانت القصور والمساكن العامرة، حيث إنّ من أهم مستلزمات حياة الإنسان هو المسكن المناسب.

ولمّا كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيرة غير الامور الأربعة المهمة التى مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعاً فى جملة مقتضبة، فقال: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ».

ثم يضيف: «كَذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ».

والمراد من «قَوْمًا ءَاخَرِينَ» هم بنو إسرائيل، حيث صرّح بذلك فى الآية (۹۵) من سورة الشعراء.

وقد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنة وورثوا ميراثهم، وحكموا هناك.

وتقول الآية الأخيرة من هذه الآيات: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ».

إنّ عدم بكاء السماء والأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، وعدم وجود ولى ولا نصير لهم ليحزن عليهم ويبكيهم.

وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) وَ لَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (۳۳) بنو إسرائيل فى بوتقة الاختبار: كان الكلام فى الآيات السابقة عن غرق الفراعنة وهلاكهم، وانكسار شوكتهم وانتهاء حكومتهم، وانتقالها إلى الآخرين، وتتحدث هذه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۴

الآيات فى النقطة المقابلة لذلك أى نجاة بنى إسرائيل وخلاصهم، فتقول: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ». من العذاب الجسمى والروحى الشاق، من ذبح الأطفال الذكور، واستحياء البنات للخدمة وقضاء المآرب، من السخرة والأعمال الشاقة جدّاً، وأمثال ذلك. لقد نجّى اللّه سبحانه هذه الامّة المظلومة من قبضة هؤلاء الظالمين، أعظم سفاكى الدماء فى التاريخ، فى ظل ثورة موسى بن عمران عليه السلام الربانية، لذلك تضيف الآية: «مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ».

وتشير الآية التالية إلى نعمة اخرى من نعم اللّه سبحانه على بنى إسرائيل، فتقول: «وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ». إلّاأنّهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا وعوقبوا.

وعلى هذا فإنّهم كانوا الامة المختارة فى عصرهم، لأنّ المراد من العالمين البشر فى ذلك العصر والزمان لا فى كل القرون والأعصار.

وتشير آخر آية من هذه الآيات إلى بعض المواهب الاخرى التى منحهم اللّه إيّاها، فتقول: «وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الْأَيَاتِ مَا فِيهِ بَلَؤٌا مُّبِينٌ».

وهذا تحذير لكل الامم والأقوام فيما يتعلق بالإنتصارات والمواهب التى يحصلون عليها بفضل اللّه ولطفه، فإنّ الامتحان عندئذ عسير.

إِنَّ هؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۶) لا شىء بعد الموت: بعد أنّ جسدت الآيات السابقة مشهداً من حياة فرعون والفراعنة، وعاقبة كفرهم وإنكارهم، تكرر الكلام عن المشركين مرّة اخرى، وأعادت هذه الآيات مسألة شكهم فى مسألة المعاد- والتى مرّت فى بداية السورة- بصورة اخرى، فقالت: «إِنَّ هؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى . وسوف لا نعود إلى الحياة اطلاقاً وما يقوله محمّد عن المعاد والحياة بعد الموت والثواب والعقاب، والجنة والنار لا

حقيقة له.

أى إنّنا نموت مرّة واحدة وينتهى كل شىء.

ثم تنقل كلام هؤلاء الذين تشبثوا بدليل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: «فَأْتُوا بَابَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۵

أ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (۳۸) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۳۹) قوم تبع: لقد كانت أرض اليمن- الواقعة فى جنوب الجزيرة العربية- من الأراضى العامرة الغنية، وكانت فى الماضى مهد الحضارة والتمدن، وكان يحكمها ملوك يسمّون «تبعاً»- وجمعها تبابعة- لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر ويتبعه فى الحكم.

وهذه الآيات تواصل البحث الذى ورد حول مشركى مكة وعنادهم وإنكارهم للمعاد- فتهدد اولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصة قوم تبع، بأنّ ما ينتظركم ليس العذاب الإلهى فى القيامة وحسب، بل سوف تلاقون فى هذه الدنيا أيضاً مصيراً كمصير قوم تبع المجرمين الكافرين، فتقول: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ».

ثم تعود الآية التى بعدها إلى مسألة المعاد مرّة اخرى، وتثبت هذه الحقيقة باستدلال رائع، فتقول: «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ» (۱).

فإذا كان الموت بزعمكم نقطة النهاية فسيكون هذا الخلق لعباً ولهواً وعبثاً، لا فائدة من ورائه ولا هدف.

ثم تضيف الآية التى بعدها لتأكيد الكلام: «مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ».

إنّ كون هذا الخلق حقاً يوجب أن يكون له هدف عقلائى، وذلك الهدف لا يتحقق إلّا بوجود عالم آخر. «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ»، لأنّهم لا يعملون الفكر فى التوصل إلى الحقائق، وإلّا فإنّ أدلة المبدأ والمعاد واضحة بينة.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۴۲)

---

(۱) «لاعب»: من مادة «لعب»، ويقول الراغب فى المفردات: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۶

يوم الفصل: تمثل هذه الآيات نتيجة الآيات السابقة التى بحثت مسألة المعاد، والتى استدل بها عن طريق حكمة خلق هذا العالم على وجود البعث والحياة الاخرى.

فتستنتج الآية الاولى من هذا الإستدلال: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ».

ثم ذكرت الآية التالية شرحاً موجزاً ليوم الفصل هذا، فقالت: «يَوْمَ لَايُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

«المولى»: من مادة «ولاء»، وهى فى الأصل تعنى الإتصال بين شيئين بحيث لا يوجد بينهما حاجز، وله مصاديق كثيرة.

والفرق بين «لا- يغنى» وبين «لا- هم ينصرون» هو: إنّ الأوّل إشارة إلى أنّ أى فرد لا يقدر فى ذلك اليوم على حل مشكلة فرد آخر بصورة إنفرادية مستقلة، والثانى إشارة إلى أنّهم عاجزون عن حلّ المشاكل حتى وإن تعاونوا فيما بينهم.

لكن هناك جماعة واحدة مستثناة فقط، وهى التى أشارت إليها الآية التالية، فقالت: «إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

لا شك أنّ هذه الرحمة الإلهية لا تُمنح اعتباطاً، بل تشمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (۴۳) طَعَامُ الْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴۹) إِنَّ هذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) شجرة الزقوم: تصف هذه

الآیات أنواعاً من عـذاب الجحیم وصـفاً مرعباً یهز الأعماق، وهی تکمل البحث الـذی مرّ فی الآیات السابقة حول یوم الفصل والقیامة، فتقول: «إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّوم طَعَامُ الْأَثِیم». فهؤلاء المجرمون هم الذین یأکلون هذا النبات المر القاتل، والخبیث الطعام النتن الرائحة.

«الزقوم»: اسم شـجرة لها أوراق صـغیرة وثمرة مرّة خشـنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت فی أرض تهامة من جزیرة العرب، کان المشرکون یعرفونها، وهی شجرة عصیرها مرّ، وإذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۷

أصـابت البـدن تورّم؛ و «الأـثیم»: من مـادة «إثم»، وهو المقیم علی الـذنب، والمراد هنـا الکفـار المعانـدون المعتـدون، المصرون علی الذنوب والمعاصی المکثرون منها.

ثم تضیف الآیة: «کَالْمُهْلِ یَغْلِی فِی الْبُطُونِ کَغَلْیِ الْحَمِیم».

«المهل»: الفلز المذاب؛ و «الحمیم»: هو الماء الحار المغلی.

فعنـدما یـدخل الزّقوم بطون هؤلاء، فإنّه یولـد حرارة عالیـة لا تطاق، ویغلی کما یغلی الماء، وبـدل أن یمنحهم هذا الغذاء القوة والطاقة فإنّه یهبهم الشقاء والعذاب والألم والمشقة.

ثم یخاطب سبحانه خزنة النار، فیقول: «خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَی سَوَاءِ الْجَحِیم».

«فاعتلوه»: من مادة «العَتْل»، وهی الأخـذ والسـحب والإلقاء؛ و «سواء»: بمعنی الوسط، لأنّ المسافـة إلی جمیع الأطراف متساویـة، وأخذ أمثال هؤلاء الأشخاص وإلقاؤهم فی وسط جهنم باعتبار أنّ الحرارة أقوی ما تکون فی الوسط، والنار تحیط بهم من کل جانب.

ثم تشـیر الآیـة التالیـة إلی نوع آخر من أنواع العقاب الألیم الـذی یناله هؤلاء، فتقول: «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَـذَابِ الْحَمِیم». وبهـذا فـإنّهم یحترقون من الـداخل، وتحیـط النار بکل وجودهم من الخارج، وإضافـة إلی ذلک یصب علی رؤوسـهم الماء المغلی فی وسـط الجحیم.

وبعـد کل أنواع العـذاب الجسـمی هـذه، تبدأ العقوبات الروحیة والنفسیة، فیقال لهذا المجرم المتمرد العاصـی الکافر: «ذُقْ إِنَّکَ أَنتَ الْعَزِیزُ الْکَرِیمُ».

أنت الـذی رکبک الغرور فلم تـدع ذنباً لم ترتکبه، ولا موبقـة لم تأتها، فذق الآن نتیجة أعمالک التی تجسدت أمامک، وکما أحرقت أجسام الناس وآلمت أرواحهم، فلیحترق الآن داخلک وخارجک بنار غضب اللّه والماء المغلی الذی یصهر ما فی بطونهم والجلود.

ویضیف القرآن الکریم فی آخر آیة- من الآیات مورد البحث- مخاطباً إیّاهم: «إِنَّ هذَا مَا کُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ».

إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی مَقَام أَمِینٍ (۵۱) فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ (۵۲) یَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِینَ (۵۳) کَذلِکَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (۵۴) یَدْعُونَ فِیهَا بِکُلِّ فَاکِهَةٍ آمِنِینَ (۵۵) لَا یَذُوقُونَ فِیهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَی وَ وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِیمِ (۵۶) فَضْلًا مِنْ رَبِّکَ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۵۷)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۸

المتقون ومختلف نعم الجنة: لما کان الکلام فی الآیات السابقة عن العقوبات الألیمة لأهل النار، فإنّ هذه الآیات تذکر المواهب والنعم المعدّة لأهل الجنة، لتتضح أهمیة کل منهما من خلال المقارنة بینهما. وقد لخّصت هذه المواهب فی سبعة أقسام:

الاولی هی: «إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی مَقَامٍ أَمِینٍ». علی هـذا فلا یصـیبهم أی إزعاج أو خوف، بل هم فی أمن کامل من الآفات والبلایا، من الغم والأحزان، ومن الشیاطین والطواغیت.

ثم تطرقت الآیات إلی النعمة الثانیة فقال: «فِی جَنَّاتٍ وَعُیُونٍ».

إنّ التعبیر بالجنـات یمکن أن یکون إشارة إلی تعـدد الحـدائق والبساتین التی یتمتع بها کل فرد من أهل الجنـة، فهی تحت تصـرّفه، أو تکون إشـارة إلی مقامـاتهم المختلفـة ودرجـاتهم المتفاوتـة، لأـنّ حـدائق الجنـة وبساتینها غیر متساویـة، بل تختلف باختلاف درجات

أصحاب الجنة.

وتشير الثالثة إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: «يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ».

«السندس»: يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة؛ و «الإستبرق» هى الأقمشة الحريرية السميكة.

طبعاً، ليس فى الجنة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنة بارتداء هذا الملابس، بل هذه إشارة إلى الألبسة المتنوعة المعدة لهم.

وتصل النوبة فى النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: «كَذلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ».

«الحور»: جمع حوراء وأحور، وتقال لمن اشتد سواد عينه، واشتد بياض بياضها؛ و «العين»: جمع أعين وعيناء، أى أوسع العين، ولما كان أكثر جمال الإنسان فى عينيه، فإنّ الآية تصف عيون الحور العِين الجميلة الساحرة.

ثم تناولت الآية الاخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنة فقالت: «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ».

ولا أثر هنا للأمراض والاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، وكذلك لا خوف من فسادها وقلّتها.

خلود الجنة ونعمها هى النعمة السادسة من نعم اللَّه سبحانه على المتقين، لأنّ الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال واللقاء هو خوف الفراق، ولذلك تقول الآية: «لَايَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى .

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۳۹

وأخيراً يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم وآخرها، فيقول: «وَوَقَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ». فإنّ كمال هذه النعم إنّما يتم عندما يخلو فكر أصحاب الجنة من احتمال العذاب، وعدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ اللَّه سبحانه سيعفو عنها بلطفه وكرمه، ويطمئنهم بأن لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سبيلًا.

وأشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى جميع النعم السبعة، وكنتيجة لما مر تقول:

«فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

صحيح، إنّ المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات والحسنات، إلّاأنّ من المسلّم أنّ تلك الأعمال جميعاً لا تستحق كل هذه النعم الخالدة، بل هى فضل من اللَّه سبحانه، إذ جعل كل هذه النعم والعطايا تحت تصرّفهم ووهبهم إيّاها.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹) قلنا: إنّ سورة الدخان بدأت ببيان عظمة القرآن وعمقه، وتنتهى بهذه الآيات التى تبيّن كذلك التأثير العميق لآيات القرآن الكريم، لتنسجم بذلك بداية السورة مع نهايتها. تقول الآية الاولى: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». فمع أنّ محتواه عميق جداً، وأبعاده مترامية، لكنّه بسيط واضح، يفهمه الجميع، وتقتبس من أنواره كل الطبقات، أمثاله جميلة رائعة، وتشبيهاته واقعية بليغة، وقصصه حقيقية تربوية، دلائله واضحة محكمة، وبيانه مع عمقه بسيط سهل، مختصر عميق المحتوى، وهو فى الوقت نفسه ذو حلاوة وجاذبية، ينفذ إلى أعماق قلوب البشر، فينبه الغافلين، ويعلم الجاهلين، ويذكّر من كان له قلب.

وهذه الآية شبيهة بالآية التى تكررت عدّة مرّات فى سورة القمر: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».

لكن لمّا كان هناك جماعة لم يذعنوا لأمر اللَّه، ولم يسلموا ويستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددتهم الآية الأخيرة، وحذرتهم فقالت: «فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ». فانتظر ما وعدك اللَّه بالنصر على الكفار، ولينتظروا الهزيمة والخسران ...

انتظر نزول عذاب اللَّه الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، ودعهم ينتظرون هزيمتك وعدم تحقق أهدافك السامية، ليعلم أى الإنتظارين هو الصحيح؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۰

«ارتقب»: فى الأصل مأخوذة من «الرقبة»، ولما كان من ينتظر شيئاً يمد رقبته نحوه دائماً، فقد جاءت بمعنى انتظار الشيء ومراقبته.

«نهاية تفسير سورة الدخان»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۱

۴۵. سورة الجاثية

محتوى السورة: يمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى سبعة فصول:

۱- عظمة القرآن المجيد وأهميته.

۲- بيان جانب من دلائل التوحيد أمام المشركين.

۳- ذكر بعض ادّعاءات الدهريين، والرد عليها بجواب قاطع.

۴- إشارة وجيزة إلى عاقبة بعض الأقوام الماضين، كبنى إسرائيل.

۵- تهديد الضالين المصرّين على عقائدهم المنحرفة والمتعصبين لها تهديداً شديداً.

۶- الدعوة إلى العفو والصفح، لكن مع الحزم وعدم الانحراف عن طريق الحق.

۷- الإشارات البليغة المعبّرة إلى مشاهد القيامة المهولة.

واسمها مقتبس من الآية (۲۸) منها؛ و «الجاثية»: تعنى الجثو على الركب، وهى إشارة إلى وضع كثير من الناس فى ساحة القيامة، فى محكمة العدل الإلهية تلك.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ حم الجاثية ستر اللَّه عورته، وسكن روعته عند الحساب».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۲

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِی خَلْقِكُمْ وَ مَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴) وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶) إنّ هذه السورة هى سادس السور التى تبدأ بالحروف المقطعة «حم» وهى تشكل مع السورة الآتية- أى سورة الأحقاف- سور الحواميم السبعة.

يقول الطبرسى رحمه الله فى بداية هذه السورة: إنّ أحسن ما يقال هو أنّ (حم) اسم هذه السورة، ثم ينقل عن بعض المفسرين، أنّ تسمية هذه السورة ب (حم) للإشارة إلى أنّ هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

وربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية التالية عن عظمة القرآن مباشرة فتقول:

«تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

«العزيز»: هو القوى الذى لا يقهر؛ و «الحكيم»: هو العارف بأسرار كل شىء، وتقوم كل أفعاله على أساس الحكمة والدقّة.

ثم تناولت الآية التى بعدها بيان آيات اللَّه سبحانه ودلائل عظمته فى الآفاق والأنفس، فقالت: «إِنَّ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ عظمة السماوات من جانب، ونظامها العجيب الذى مرّت عليه ملايين السنين الذى لم ينحرف عما سار عليه قيد أنملة، من جانب آخر، ونظام خلقة الأرض وعجائبها، من جانب ثالث، يكون كل منها آية من آيات اللَّه سبحانه.

غير أنّ علامات التوحيد هذه، وعظمة اللَّه تعالى إنّما يلتفت إليها وينتفع بها المؤمنون، أى طلّاب الحق والسائرون فى طريق اللَّه.

ثم انتقلت السورة من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: «وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

كل واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، ودليل على علم مبدئ الخلقة وحكمته وقدرته اللامتناهية.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۳

وتذكر الآية التالية ثلاث مواهب اخرى لكل منها أثره الهام فى حياة الإنسان والكائنات الحية الاخرى، وكل منها آية من آيات اللَّه تعالى، وهى مواهب «النور» و «الماء» و «الهواء»، فتقول: «وَاخْتِلفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

إنّ نظام «النور» و «الظلمة» وحدوث الليل والنهار حيث يخلف كل منهما الآخر نظام موزون دقيق جدّاً، وهو عجيب فى وضعه وسنّته وقانونه.

ويحتمل فى تفسير الآية أنّ لا يكون المراد من اختلاف الليل والنهار تعاقبهما، بل هو إشارة إلى اختلاف المدة وتفاوت الليل والنهار، فى فصول السنة، فيعود نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الإختلاف من المحاصيل الزراعية المختلفة والنباتات والفواكه، ونزول الثلوج وهطول الأمطار والبركات الاخرى.

ثم تتناول الحديث فى الفقرة الثانية عن الرزق السماوى، أى «المطر». والماء يشكل الجانب الأكبر والقسم الأساسى من بدن الإنسان، وكثير من الحيوانات الاخرى، والنباتات.

ثم تتحدث فى الفقرة الثالثة عن هبوب الرياح .. تلك الرياح التى تنقل الهواء المليء بالأوكسجين من مكان إلى آخر، وتضعه تحت تصرف الكائنات الحية، وتبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى والغابات لتصفيته، ثم إعادته إلى المدن.

والعجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحية- أى الحيوانات والنباتات- متعاكسة فى العمل تماماً، فالاولى تأخذ الأوكسجين وتعطى غاز ثانى أوكسيد الكاربون، والثانية على العكس تتنفس ثانى أوكسيد الكاربون وتزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن فى نظام الحياة، ولكى لا ينفذ مخزون الهواء النقى المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فإنّه يلقح النباتات فيجعلها حاملة للأثمار والمحاصيل، وينقل أنواع البذور إلى الأراضى المختلفة لبذرها هناك، وينمى المراتع الطبيعية والغابات، ويهيج الأمواج المتلاطمة فى قلوب المحيطات، ويبعث الحركة والحياة فى البحار ويثير أمواجها العظيمة، ويحفظ الماء من التعفّن والفساد، وهذه الرياح نفسها هى التى تحرك السفن على وجه المحيطات والبحار وتجريها.

وتقول الآية الأخيرة، إجمالًا للبحوث الماضية، وتبياناً لعظمة آيات القرآن وأهميتها:

«تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۴

«التلاوة»: من مادة «تلو» أى الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقباً، وبناء على هذا فإنّ تلاوة آيات القرآن تعنى قراءتها بصورة متوالية متعاقبة.

والتعبير «بالحق» إشارة إلى محتوى هذه الآيات، وهو أيضاً إشارة إلى كون نبوّة النبى صلى الله عليه و آله والوحى الإلهى حقّاً. وبعبارة اخرى، فإنّ هذه الآيات بليغة معبرة تضمنت فى طياتها الاستدلال على حقانيتها وحقانية من جاءها.

وحقّاً إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأى شيء سوف يؤمنون؟ ولذلك تعقب الآية:

«فَبِأَىّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ».

حقّاً إنّ للقرآن الكريم محتوىً عميقاً من ناحية الاستدلال والبراهين على التوحيد، وكذلك فهو يحتوى على مواعظ وإرشادات تجذب العباد إلى اللَّه سبحانه حتى القلوب التى لها أدنى استعداد- أو أرضية صالحة- وتدعو كل مرتبط بالحق إلى الطهارة والتقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات فى أحد فلا أمل فى هدايته بعد ذلك.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۸) وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً

اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ويل لكل أفّاك أثيم: رسمت الآيات السابقة صورة عن فريق يسمعون كلام اللّه مدعماً بمختلف أدلة التوحيد والمواعظ والإرشاد، فلا يترك أثراً فى قلوبهم القاسية، أمّا هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول أوّلًا: «وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ».

«الأفّاك»: صيغة مبالغة، وهى تعنى الشخص الذى يكثر الكذب جدّاً، وتقال أحياناً لمن يكذب كذبة عظيمة حتى وإن لم يكثر من الكذب.

و «الأثيم»: من مادة إثم، أى المجرم والعاصى، وتعطى أيضاً صفة المبالغة.

ويتّضح من هذه الآية جيداً أنّ الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات اللّه سبحانه هم الذين غمرت المعصية كيانهم، فانغمسوا فى الذنوب والآثام والكذب، لا اولئك الصادقون الطاهرون، فإنّهم يذعنون لها لطهارتهم ونقاء سريرتهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۵

ثم تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: «يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا».

وتهدده الآية فى نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». فكما أنّه آذى قلب النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين وآلمهم، فإنّنا سنبتليه بعذاب أليم أيضاً.

ثم تضيف الآية التى بعدها: «وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا».

إنّه يتخذ كل آياتنا هزواً، سواء التى علمها والتى لم يعلمها، وغاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئاً أو يستهزىء به وهو لم يفهمه أصلًا، وهذا خير دليل على عناد اولئك وتعصّبهم.

ثم تصف الآية عقاب هؤلاء فى النهاية فتقول: «أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

وتوضح الآية التالية العذاب المهين، فتقول: «مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ».

إن التعبير بالوراء مع أنّ جهنم أمامهم وسيصلونها فى المستقبل، يمكن أن يكون ناظراً إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا ونبذوا الآخرة والعذاب وراء ظهورهم.

إنّ الآية تضيف مواصلةً الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائلة وآلهتهم التى ابتدعوها ستحل شيئاً من أثقالهم، وأنّها ستغنى عنهم من اللّه شيئاً، فإنّهم قد وقعوا فى اشتباه عظيم، حيث: «وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ».

ولمّا لم يكن هناك سبيل نجاة وفرار من هذا المصير، فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا فى عذاب اللّه ونار غضبه: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ولقد استصغر هؤلاء آيات اللّه سبحانه، ولذلك سيعظم اللّه عذابهم، وقد اغتر هؤلاء وتفاخروا فألقاهم اللّه فى العذاب الأليم.

هذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذلِکَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١۴) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۶

مواصلة للبحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول عظمة آيات اللّه، تتناول هذه الآيات نفس الموضوع، فتقول: «هذَا هُدًى». فهو يميز بين الحق والباطل، ويضىء حياة الإنسان، ويأخذ بيد سالكى طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم ومنزلهم المقصود، لكن:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ». «الرجز»: يعنى الاضطراب والإهتزاز وعدم الإنتظار، وتطلق هذه الكلمة أيضاً على مرض الطاعون والإبتلاءات الصعبة، أو العواصف الثلجية الشديدة، والوساوس الشيطانية وأمثال ذلک، لأنّ كل هذه الامور تبعث على

الإضطراب وعدم الإنتظام والانضباط.

ثم تحول زمام الحديث إلى بحث التوحيد الذى مرّ ذكره فى الآيات الاولى لهذه السورة، فتعطى المشركين دروساً بليغة مؤثرة فى توحيد اللّه سبحانه ومعرفته. فتارة تدغدغ عواطفهم، وتقول: «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

بعد بيان السفن التى لها تماس مباشر بحياة البشر اليومية، تطرقت الآية التى بعدها إلى مسألة تسخير سائر الموجودات بصورة عامة، فتقول: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ».

فلماذا يعرض الإنسان عنه ويلجأ إلى غيره، ويتسكع على أعتاب المخلوقات الضعيفة، ويبقى فى غفلة وذهول عن المنعم الحقيقى عليه؟ ولذلك تضيف الآية فى النهاية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

لقد كانت الآية السابقة تلامس عاطفة الإنسان وتحاول إثارتها، وهنا تحاول هذه الآية تحريك عقل الإنسان وفكره، فما أعظم رحمة ربّنا سبحانه! إنّه يتحدث مع عباده بكل لسان وأسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمرّة بحديث القلب، واخرى بلسان الفكر، والهدف واحد من كل ذلك، ألا وهو إيقاظ الغافلين ودفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

ثم تطرقت الآية التالية إلى ذكر قانون أخلاقى يحدد كيفية التعامل مع الكفار لتكمل أبحاثها المنطقية السابقة عن هذا الطريق، فحولت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وقالت: «قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَايَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ».

فمن الممكن أن تكون معاملة هؤلاء قاسية، وتعبيراتهم خشنة غير مؤدبة، وألفاظهم بذيئة، وذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان وأسس التربية الإلهية، غير أنّ عليكم أن تقابلوهم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۷

بكل رحابة صدر لئلا يصروا على كفرهم ويزيدوا فى تعصبهم، فتبعد المسافة بينهم وبين الحق.

لكن، ومن أجل أنّ لا- يستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصفح الجميل والعفو والتسامى، فقد أضافت الآية: «لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

لقد اعتبر بعض المفسرين هذه الجملة تهديداً للكفار والمجرمين، فى حين أنّ البعض الآخر اعتبرها بشارة للمؤمنين لهذا العفو والصفح، لكن لا مانع من أن تكون تهديداً لتلك الفئة من جانب، وبشارة لهذه الجماعة من جانب آخر، كما أشير إلى هذا المعنى فى الآية التالية أيضاً. تقول الآية: «مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

إنّ هذا التعبير الذى ورد فى القرآن الكريم مراراً، وبعبارات مختلفة، يشكل جواباً لمن يقول: ماذا يضر عصياننا اللّه تعالى، وما تنفعه طاعتنا؟

فتقول هذه الآيات: إنّ كل ضرر ذلك وكل نفعه يعود عليكم، فأنتم الذين تسلكون مراقى الكمال فى ظل الأعمال الصالحة، وتحلّقون إلى سماء قرب اللّه عزّ وجل، كما أنّكم أنتم الذين تهوون إلى الحضيض نتيجة ارتكابكم الآثام والمعاصى، فتبتعدون عن اللّه عزّ وجل وتستحقون بذلك اللعنة الأبدية.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (۱۹) هذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰) آتينا بنى إسرائيل كل ذلك، ولكن ...: متابعة للبحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول نعم اللّه المختلفة وشكرها والعمل الصالح، تتناول هذه الآيات نموذجاً من حياة بعض الأقوام الماضين الذين غمرتهم نعم اللّه سبحانه، إلّاأنّهم كفروا بها ولم يرعوها حق رعايتها.

تقول الآیة الاولی: «وَلَقَدْ ءَاتَیْنَا بَنِی إِسْرَاءِیلَ الْکِتَابَ وَالْحُکْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۸

الطَّیِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَی الْعَالَمِینَ».

تبیّن هذه الآیة فی مجموعها خمس نعم أنعم اللَّه بها علی بنی إسرائیل.

النعمة الاولی هی الکتاب السماوی، أی التوراة التی کانت مبینة للمعارف الدینیة والحلال والحرام، وطریق الهدایة والسعادة؛ والثانیة مقام الحکومة والقضاء.

أمّا النعمة الثالثة فقد کانت نعمة مقام النبوّة، حیث اصطفی اللَّه سبحانه أنبیاء کثیرین من بنی إسرائیل.

وقد ورد فی روایة أنّ عدد أنبیاء بنی إسرائیل بلغ ألف نبی، وفی روایة اخری: «إنّ عدد أنبیاء بنی إسرائیل أربعة آلاف نبی».

وتتحدث الآیة فی الفقرة الرابعة حدیثاً جامعاً شاملًا عن المواهب المادیة، فتقول:

«وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّیِّبَاتِ».

النعمة الخامسة، هی تفوقهم وقوّتهم التی لا ینازعهم فیها أحد، کما توضح الآیة ذلک فی ختامها فتضیف: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَی الْعَالَمِینَ».

لا شک أنّ المراد من «العالمین» هنا هم سکان ذلک العصر.

وتشیر الآیة التالیة إلی الموهبة السادسة التی منحها اللَّه سبحانه لهؤلاء المنکرین للجمیل، فتقول: «وَءَاتَیْنَاهُمْ بَیِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ».

«البیّنات»: یمکن أن تکون إشارة إلی المعجزات الواضحة التی أعطاها اللَّه سبحانه موسی بن عمران علیه السلام وسائر أنبیاء بنی إسرائیل، أو أنّها إشارة إلی الدلائل والبراهین المنطقیة الواضحة، والقوانین والأحکام المتقنة الدقیقة.

فمع وجود هذه المواهب والنعم العظیمة، والدلائل البیّنة الواضحة لا یبقی مجال للاختلاف، إلّاأنّ الکافرین بالنعم هؤلاء ما لبثوا أن اختلفوا، کما یصور القرآن الکریم ذلک فی تتمة هذه الآیة إذ یقول: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیًا بَیْنَهُمْ».

ویهددهم القرآن الکریم فی نهایة الآیة بقوله: «إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیمَةِ فِیمَا کَانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ».

وبهذا فقد فقدوا قوّتهم وعظمتهم فی هذه الدنیا بکفرانهم النعمة، واختلافهم فیما بینهم، واشتروا لأنفسهم عذاب الآخرة.

بعد بیان المواهب التی منّ اللَّه تعالی بها علی بنی إسرائیل، وکفرانها من قبلهم، ورد

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۴۹

الحدیث عن موهبة عظیمة أهداها اللَّه سبحانه لنبی الخاتم صلی الله علیه و آله والمسلمین، فقالت الآیة:

«ثُمَّ جَعَلْنَاکَ عَلَی شَرِیعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ».

«الشریعة»: تعنی الطریق التی تستحدث للوصول إلی الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التی یکون مستوی الماء فیها أخفض من الساحل، ثم أطلقت علی کل طریق یوصل الإنسان إلی هدفه ومقصوده.

لقد استعملت هذه الکلمة مرّة واحدة فی القرآن الکریم، وفی شأن الإسلام فقط.

والمراد من «الأمر» هنا هو دین الحق الذی مرّت الإشارة إلیه فی الآیة السابقة أیضاً، حیث قالت: «بَیِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ».

ولمّا کان هذا المسیر مسیر النجاة والنصر، فإنّ اللَّه سبحانه یأمر النبی صلی الله علیه و آله بعد ذلک أن «فَاتَّبِعْهَا».

وکذلک لما کانت النقطة المقابلة لیس إلّااتباع أهواء الجاهلین ورغباتهم، فإنّ الآیة تضیف فی النهایة: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِینَ لَایَعْلَمُونَ».

وتعتبر الآیة التالیة تبیاناً لعلّة النهی عن الإستسلام أمام مقترحات المشرکین وقبول طلباتهم، فتقول: «إِنَّهُمْ لَن یُغْنُوا عَنکَ مِنَ اللَّهِ شَیًا».

فإذا ما اتبعت دینهم الباطل وأحاط بک عذاب اللَّه تعالی فإنّهم عاجزون عن أن یهبّوا لنجدتک وإنقاذک، ولو أنّ اللَّه سبحانه سلب منک نعمة فإنّهم غیر قادرین علی إرجاعها إلیک.

ومع أنّ الخطاب فی هذه الآیات موجه إلی النبی صلی الله علیه و آله إلّاأنّ المراد منه جمیع المؤمنین.

ثم تضیف الآیة: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». فکلّهم من جنس واحد، ویسلکون نفس المسیر، ونسجهم واحد، وکلّهم ضعفاء عاجزون.

لکن لا تذهب بک الظنون بأنّک وحید، ومن معک قلیل ولا ناصر لکم ولا معین، بل:

«وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ».

وکتأکید لما مرّ، ودعوة إلی اتباع دین اللّه القویم، تقول آخر آیة من هذه الآیات: «هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

«البصائر»: جمع «بصیرة»، وهی النظر، ومع أنّ هذه اللفظة أکثر ما تستعمل فی وجهات النظر الفکریة والنظریات العقلیة، إلّاأنّها تطلق علی کل الامور التی هی أساس فهم المعانی وإدراکها.

هذا تعبیر جمیل یعبر عن عظمة هذا الکتاب السماوی وتأثیره وعمقه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۴۷۹

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) لیسوا سواءً محیاهم ومماتهم: متابعة للآیات السابقة التی کان الکلام فیها یدور حول فئتین هما: المؤمنون والکافرون، أو المتقون والمجرمون، فإنّ أولی هذه الآیات قد جمعتهما فی مقارنة أصولیة بینهما، فقالت: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

«اجترحوا»: فی الأصل من الجرح الذی یصیب بدن الإنسان أثر إصابته بحادث، ولما کان إرتکاب الذنب والمعصیة کأنّما یجرح روح المذنب، فقد استعملت کلمة الإجتراح بمعنی إرتکاب الذنب.

فإنّ الآیة تقول: إنّه لظن خاطیء أن یتصوروا أنّ الإیمان والعمل الصالح، أو الکفر والمعصیة، لا یترک أثره فی حیاة الإنسان، فإنّ حیاة هذین الفریقین ومماتهم یتفاوتان تماماً.

أمّا الآیة التالیة فإنّه تفسیر لسابقتها وتعلیل لها، إذ تقول: «وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». فکلّ العالم یوحی بأنّ خالقه قد خلقه وجعله یقوم علی محور الحق، وأن یحکم العدل والحق کل مکان، وإذا کان الأمر کذلک فکیف یمکن أن یجعل اللّه الذین آمنوا وعملوا الصالحات کالمجرمین الکافرین.

وکذلک فإنّ الآیة الأخیرة من هذه الآیات توضیح وتعلیل آخر لعدم المساواة بین الکافرین والمؤمنین، إذ تقول: «أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَيهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

ولا صنم أخطر من إتباع هوی النفس الذی یوصد کل أبواب الرحمة وطرق النجاة بوجه الإنسان؟

فی تفسیر القرطبی عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلی اللّه من الهوی».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۱

لأنّ الأصنام العادیة موجودات لا خصائص لها ولا صفات فعالة مهمة، أمّا صنم الهوی، فإنّه یغوی الإنسان ویسوقه إلی إرتکاب أنواع المعاصی، والإنزلاق فی هاویة الإنحراف.

وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) عقائد الدهریین: فی هذه الآیات بحث آخر حول منکری التوحید،

غايـة ما هناك أنّه ذكر هنا اسم جماعـة خاصـة منهم، وهم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقاً، فى حين أنّ أكثر المشركين كانوا يؤمنون ظاهراً باللّه، وكانوا يعتبرون الأصنام شفعاء عند اللّه، فتقول الآيـة أوّلًا: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا».

فكما يموت من يموت منّا، يولد من يولد منّا وبذلك يستمر النسل البشرى: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ».

وبهذا فإنّهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، والجملة الاولى ناظرة إلى إنكارهم المعاد، أمّا الجملة الثانية فتشير إلى إنكار المبدأ.

إنّ القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبثيين بجملة وجيزة عميقة، تلاحظ فى موارد اخرى من القرآن الكريم أيضاً، فقال: «وَمَا لَهُم بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

وقد ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۲۸) من سورة النجم فى من يظنون أنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه: «وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيًا».

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى القول بقتل المسيح، [النساء ۱۵۷] وعقيدة مشركى العرب فى الأصنام، [يونس ۶۶].

وأشارت الآيـة التالية إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهية وحججهم الباطلة فيما يتعلق بالمعاد، فقالت: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بَابَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

كان هؤلاء يرددون أنّه إذا كانت حياة الأموات وبعثهم حقّاً فأحيوا آباءنا كنموذج لإدعائكم، حتى نعرف مدى صدقكم، ولنسألهم عمّا يجرى بعد الموت، وهل يصدّقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۲

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۳۰) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (۳۱) الكل جاثٍ فى محكمة العدل الإلهى: هـذه الآيات جواب آخر على كلام الـدهريين، الذين كانوا ينكرون المبدأ والمعاد، وقد أشير إلى كلامهم، فى الآيات السابقة؛ فتقول الآية أوّلًا: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَارَيْبَ فِيهِ».

لم يكن هؤلاء يعتقدون باللّه ولا باليوم الآخر، ومحتوى هذه الآية استدلال عليهما معاً، حيث أكّدت على مسألة الحياة الاولى.

ومن جهة اخرى، تقول لهم: كيف يكون القادر على إنشاء الحياة الاولى عاجزاً عن إعادتها ثانياً؟

ولمّا كان كثير من الناس لا يتأمل هذه الدلائل ولا يدقق النظر فيها، فإنّ الآية تضيف فى النهاية: «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

أمّا الآيـة التاليـة فهى دليـل آخر على مسألـة المعـاد، وقـد قرأنا الشـبهة المطروحـة حوله فى آيات القرآن الاخرى، فتقول: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». فلما كان مالكاً لتمام عالم الوجود الواسع وحاكماً عليه، فمن المسلّم أن يكون قادراً على إحياء الموتى، ومع وجود تلك القدرة المطلقة لا تكون عملية الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل اللّه سبحانه هذا العالم مزرعة للآخرة، ومتجراً وافر الربح إلى ذلك العالم، ولذلك يقول سبحانه فى نهاية الآية: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ».

إنّ الحيـاة والعقـل والـذكاء ومواهب الحيـاة الاخرى هى رأس مال الإنسان فى سوق التجارة هـذا، لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فانٍ سريع الزوال، ولذلك فإنّهم حين يأتون يوم القيامة، يوم لا ينفع إلّاالقلب السليم والإيمان والعمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۳

بام أعينهم، ولات ساعة مندم.

«يخسر»: من الخسران، وهو فقدان رأس المال؛ و «المبطل»: من مادة «إبطال»، فلها فى اللغة معان مختلفة، كإبطال الشىء، والكذب، والاستهزاء والمزاح، وطرح أمر باطل وذكره، وكل هذه المعانى يمكن أن تقبل فى مورد الآية.

الأشخاص الذين أبطلوا الحق، والذين نشروا عقيدة الباطل وأهدافه، والذين كذبوا أنبياء اللّه، وسخروا من كلامهم، سيرون خسرانهم المبين فى ذلك اليوم.

وتجسّد الآية التالية مشهد القيامة بتعبير بليغ مؤثر جدّاً، فتقول: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً».

ثم تبيّن الآية ثانى مشاهد القيامة، فتقول: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». فإنّ هذا الكتاب صحيفة أعمال سجلت فيها كل الحسنات والسيئات، والقبائح والأفعال الجميلة، وأقوال الإنسان وأعماله، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: «لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» (۱).

وعبارة «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» يوحى بأنّ لكل امة كتاباً يتعلق بأفرادها جميعاً، إضافة إلى صحيفة الأعمال الخاصة بكل فرد.

ثم يأتيهم الخطاب من قبل اللّه مرّة اخرى، فيقول مؤكّداً: «هذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ». فقد كنتم تفعلون كل ما يحلو لكم، ولم تكونوا تصدّقون مطلقاً أنّ كل أعمالكم هذه تسجل فى مكان ما، ولكن «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

«نستنسخ»: من مادة «إستنساخ»، وهى فى الأصل مأخوذة من النسخ، وهو إزالة الشىء بشىء آخر، ثم استعملت فى كتابة كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحى الكتاب الأوّل.

وتبيّن الآية التالية الجلسة الختامية للمحكمة وإصدار قرار الحكم، حيث تنال كل فئة جزاء أعمالها، فتقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ».

والتعبير ب «ربهم» يحكى عن لطف اللّه الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمة» بدل «الجنة».

وتبلغ بهم نهاية الآية أوج الكمال حينما تقول: «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ».

---

(۱) سورة الكهف/ ۴۹. مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۴

إنّ ل «رحمة اللّه» معنى واسعاً يشمل الدنيا والآخرة، وقد أطلقت فى آيات القرآن الكريم على معان كثيرة، فتارة تطلق على مسألة الهداية، واخرى على الإنقاذ من قبضة الأعداء، وثالثة على المطر الغزير المبارك، ورابعة على نعم اخرى كنعمة النور والظلمة، وأطلقت فى موارد كثيرة على الجنة ومواهب اللّه سبحانه فى القيامة.

«الفوز»: تعنى الظفر المقترن بالسلامة، وقد استعملت فى (۱۹) مورداً من آيات القرآن المجيد، فوصف الفوز مرّة بالمبين، واخرى بالكبير، أمّا فى غالب الآيات فقد وصف بالعظيم، وهو مستعمل عادة فى شأن الجنة.

وتذكر الآية الآتية مصير من يقع فى الطرف المقابل لُاولئك السابقين، فتقول: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

ومما يلفت النظر أنّ الكلام فى هذه الآية عن الكفر فقط، وأمّا أعمال السوء التى هى عامل الدخول فى عذاب اللّه وسببه فلم يجر لها ذكر، وذلك لأنّ الكفر وحده كاف لأنّ يدخل صاحبه العذاب.

وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۳۳) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۳۶) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳۷) يوم تبدو السيّئات: الآية الاولى من هذه الآيات توضيح لما ذكر فى الآيات السابقة بصورة مجملة، توضيح لمسألة استكبار الكافرين على آيات اللّه ودعوة

الأنبياء، فتقول:

«وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَارَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ».

وتتحدث الآية التالية عن جزاء هؤلاء وعقابهم، ذلك الجزاء الذى لا يشبه عقوبات

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۵

المحاكم الدنيوية، فتقول: «وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا». فستتجسد القبائح والسيئات أمام أعينهم، وتتّضح لهم، وتكون لهم قريناً دائماً يتأذون من وجوده إلى جانبهم ويتعذبون من صحبته: «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

والأشد ألماً من كل ذلك هو الخطاب الذى يخاطبهم به اللَّه الرحمن الرحيم، فيقول سبحانه: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا».

لا شك أنّ النسيان لا معنى له بالنسبة إلى اللَّه سبحانه الذى يحيط علمه بكل عالم الوجود، لكنّه هنا كناية لطيفة عن احتقار الإنسان المجرم العاصى وعدم الإهتمام به.

وتتابع الآية الحديث، فتقول: «وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ». وإذا كنتم تظنون أنّ أحداً سيهبّ لنصرتكم وغوثكم، فاقطعوا الأمل من ذلك، واعلموا أنّه: «وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ».

أمّا لماذا ابتليتم بمثل هذا المصير؟ ف «ذلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

وتكرر الآية ما ورد فى الآية السابقة وتؤكّده باسلوب آخر، فتقول: «فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

فقد كان الكلام هناك عن مأواهم ومقرهم الثابت، والكلام هنا عن عدم خروجهم من النار .. حيث قال هناك: ما لهم من ناصرين، وهنا يقول: لا يقبل منهم عذر، والنتيجة هى أنّ لا سبيل لنجاتهم.

وفى نهاية هذه السورة، ولإكمال بحث التوحيد والمعاد، والذى كان يشكل أكثر مباحث هذه السورة، تبيّن الآيتان الأخيرتان وحدة ربوبية اللَّه وعظمته، وقدرته وحكمته، وتذكر خمس صفات من صفات اللَّه سبحانه فى هذا الجانب، فتقول أوّلًا: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ». لأنّه «رَبِّ السَّموَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وبعد وصف ذاته المقدسة بمقام الحمد والربوبية، تضيف الآية فى الصفة الثالثة: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». لأنّ آثار عظمته ظاهرة فى السماء المترامية الأطراف، والأرض الواسعة الفضاء، وفى كل زاوية من زوايا العالم.

وأخيراً تقول الآية فى الوصفين الرابع والخامس: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وبذلك تكمل مجموعة العلم والقدرة والعظمة والربوبية والمحمودية، والتى هى مجموعة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۶

من أهمّ صفات اللَّه، وأسمائه الحسنى.

وبوصف اللَّه سبحانه بالعزيز والحكيم تنتهى سورة الجاثية كما بدأت بهما، وكل محتواها وما تضمنته شاهد على عزّة اللَّه سبحانه وحكمته السامية.

«نهاية تفسير سورة الجاثية»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۷

۴۶. سورة الأحقاف

محتوى السورة: إنّ هذه السورة تتابع الأهداف التالية:

۱- بيان عظمة القرآن.

۲- محاربة كل أنواع الشرك والوثنية بشكل قاطع.

۳- توجيه الناس إلى مسألة المعاد ومحكمة العدل الإلهى.

۴- إنـذار المشـركين والمجرمين من خلال بيان جانب من قصة قوم عاد، الذين كانوا يسـكنون أرض «الأحقاف»، ومنها اخذ اسم هذه السورة.

۵- الإشارة إلى سعة دعوة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وكونها عامة تتخطى حتى حدود البشر، أى إنّها تشمل طائفة الجن أيضاً.

۶- ترغيب المؤمنين وترهيب الكافرين وإنذارهم، وإيجاد دوافع الخوف والرجاء.

۷- دعوة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله إلى التحلى بالصبر والاستقامة إلى أبعد الحدود، والإقتداء بسيرة الأنبياء الماضين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف لم يصبه اللَّه بروعة فى الدنيا، وآمنه من فزع يوم القيامة».

ومن البديهى أنّ كل هذه الحسنات والدرجات لا تمنح لمجرد التلاوة اللفظية، بل التلاوة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۸

البنّاءة المؤدّيـة إلى السير فى طريق الإيمان والتقوى، ولمحتوى سورة الأحقاف هـذا الأثر حقّاً إذا كان الإنسان طالب حقيقـة ومستعداً للعمل والتطبيق.

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (۳) خلق هذا العالم على أساس الحق: هذه السورة هى آخر سورة تبدأ ب «حم» وتسمى جميعاً الحواميم.

إنّ هـذه الآيات التى تهزّ الأعماق، وتحرك الوجـدان، والتى تضـمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من الألـف والبـاء، والحـاء والميم وأمثالهـا، وكفى بها دليلًا على عظمـة اللَّه سـبحانه إذ أظهر هـذا المركّب العظيم من مثل هـذه المفردات البسيطة.

وربّما كان هذا هو السبب فى أن تضيف الآية مباشرة: «تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

إنّه نفس التعبير الذى ورد فى بداية ثلاث سور من الحواميم، وهى: المؤمن، والجاثية، والأحقاف.

ولا شك فى الحاجة إلى قوّة لا تقهر، وحكمة لا حد لها، لكى تنزل مثل هذا الكتاب.

ثم تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآية عن عظمة السماوات والأرض وكونهما حقاً، فقالت: «مَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». فلا ترى فى كتاب سـمائه كلمـة تخالف الحق، ولا تجـد فى مجموع عالم خلقه شيئاً نشازاً لا ينسجم والحق.

لكن مع أنّ القرآن حق، وخلق العالم حق أيضاً: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ».

فالآيات القرآنيـة تهـددهم وتنـذرهم بصورة متلاحقـة متواليـة، وتحذرهم بأنّ محكمة عظمى أمامهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ نظام الخلقـة بدقته وأنظمته الخاصة يدل بنفسه على أنّ فى الأمر حساباً ونظاماً، غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۵۹

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَاوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (۵) وَ إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (۶) أضـلّ الناس: كان الكلام فى الآيات السابقـة عن خلق السـماوات والأرض وأنّها جميعـاً من صـنع اللَّه العزيز الحكيم، ومن أجل تكملـة هـذا البحث، تخاطب هـذه الآيات النبى صـلى الله عليه و آله وتقول: «قُلْ

أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ».

كنتم تقرّون بأنّ الأصنام لا دخل لها فى خلق الموجودات الأرضية مطلقاً، فعلام تمدون أكفكم إلى الأصنام التى لا تضرّ ولا تنفع، ولا تسمع ولا تعقل، تستمدون منها العون فى حلّ معضلاتكم، ودفع البلاء عنكم، واستجلاب البركات إليكم؟

وإذا قلتم- على سبيل الفرض-: إنّها شريكة فى أمر الخلق والتكوين ف «ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ جملة «أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ...» إشارة إلى دليل العقل؛ وجملة «ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذَا» إشارة إلى الوحى السماوى، والتعبير ب «أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ» إشارة إلى سنن الأنبياء الماضين وأوصيائهم، أو آثار العلماء السابقين.

بعد ذلك تبين الآية التالية عمق ضلالة هؤلاء المشركين وانحرافهم، فتقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ». ولا يقف الأمر عند عدم إجابتهم وحسب، بل إنّهم لا يسمعون كلامهم: «وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ».

والأشد أسفاً من ذلك أنّه: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ».

أمّا المعبودات من العقلاء، فإنّهم سيهبّون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السلام يظهر اشمئزازه وتنفره من عابديه، وتتبرأ الملائكة منهم، بل وحتى الشياطين والجن تظهر عدم رضاها. وأمّا المعبودات التى لا عقل لها ولا حياة، فإنّ اللّه سبحانه سمنحها العقل والحياة لتنطق بالبراءة من هؤلاء العبدة وتبدى غضبها عليهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۰

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۸) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَ لَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) لم أكن أول نبىّ: يستمر الحديث فى هذه الآيات عن حال المشركين، وكيفية تعاملهم مع آيات اللّه، فتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ هذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

فهم لا يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع فى القلوب، وجاذبيته التى لا تقاوم من جهة، وهم من جهة اخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته وكونه حقّاً، ولذلك فإنّهم يفسّرون هذا النفوذ القوى بتفسير خاطئ منحرف ويقولون: إنّه سحر مبين، وهذا القول- بحدّ ذاته- اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق فى قلوب البشر.

بناءً على هذا، فإنّ «الحق»- فى الآية المذكورة- إشارة إلى آيات القرآن.

غير أنّ هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمة وإلصاقها به، بل إنّهم تمادوا فخطوا خطوةً أوسع، وأكثر صراحةً: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

إنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، ويعطيهم البرهان الجلى بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللازم أن يفضحنى ولا تستطيعون الدفاع عنّى مقابل عقابه: «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيًا».

وهذا كما ورد فى الآيات (۴۴- ۴۷) من سورة الحاقّة: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ».

ثم يضيف مهدداً: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ» وسيعاقبكم فى الوقت اللازم.

ثم يقول فى الجملة التالية كتأكيد أكبر مقترن بتعامل مؤدب جدّاً: «كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ». فهو يعلم صدق دعوتى، وسعيى وجهدى فى إبلاغ الرسالة، كما يعلم كذبكم وافتراءكم والعوائق التى تضعونها فى طريقى، وهذا كاف لى ولكم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۱

ومن أجل أن يدلهم على طريق الرجوع إلى الحق، ويعلّمهم بأنّه مفتوح إن أرادوا العودة، يقول: «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». فهو يعفو عن

التائبين ويغفر لهم، ويدخلهم فى رحمته.

ويضيف فى الآية التالية: «قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

يقول النبى صلى الله عليه و آله أنا لست أوّل نبى دعا إلى التوحيد، فقد جاء قبلى أنبياء كثيرون كلّهم كانوا بشراً، وكانوا يلبسون الثياب ويأكلون الطعام، ولم يَدّعِ أحد منهم أنّه يعلم الغيب المطلق، ولم يستسلم أحد منهم أمام المعاجز التى كان يقترحها الناس، والتى كانت تقوم على أساس الرغبة والميول.

وتضيف آخر آية من هذه الآيات، ولتكملة ما ورد فى الآيات السابقة: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

إنّ الشاهد من بنى إسرائيل الذى شهد على كون القرآن المجيد حقّاً هو «عبد اللّه بن سلام» عالم اليهود المعروف، الذى آمن فى المدينة والتحق بصفوف المسلمين.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَ رَحْمَةً وَ هذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

إنّ الإسلام لاقى ترحيباً واسعاً وامتداداً سريعاً بين الطبقات الفقيرة وسكان البوادى، وذلك لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعة لتهدد بالخطر، ولم يكن الغرور قد ركبهم وملأ عقولهم، وقلوبهم أطهر من قلوب المترفين ومتبعى الشهوات والرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، والذى كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطة ضعف كبيرة من قبل المستكبرين فقالوا: أى دين هذا الذى يتبعه سكان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۲

البوادى والفقراء والحفاة والجوارى والعبيد؟ إذا كان ديناً مقبولًا ومعقولًا فلا ينبغى أن يكون أتباعه من طبقة فقيرة واطئة اجتماعياً، ونتخلف نحن أعيان المجتمع وأشرافه عن اتباعه. وقد أجاب القرآن هؤلاء جواباً شافياً كافياً سيتّضح فى تفسير هذه الآيات.

التّفسير

شرط الإنتصار الإيمان والإستقامة: تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين وأفعالهم، ثم تقريعهم وملامتهم بعد ذلك، فتشير أوّلًا إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنىّ على أساس الكبر والغرور، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ».

فما هؤلاء إلّاحفنة من الفقراء الحفاة من سكان القرى، والعبيد الذين لاحظ لهم من العلم والمعرفة إلّاالقليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق وأن يقبلوا عليه ونحن- أعيان المجتمع وأشرافه- فى غفلة عنه؟

ولذلك فإنّ الآية تجيبهم فى نهايتها بهذا التعبير اللطيف: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ». أى: إنّ هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أنّ القصور فى قابلية القرآن على الهداية.

جملة «سيقولون» بصيغة المضارع، تدل على أنّهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمة دائماً، وكانوا يتخذون هذا الإتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثم تطرقت الآية إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقاً، ولنفى تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إنّ من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أنّ كتاب موسى الذى يعتبر إماماً أى قدوة للناس ورحمة قد أخبر عن هذا النبى وصفاته، وهذا القرآن أيضاً كتاب منسجم فى آياته وفيه العلائم المذكورة فى التوراة: «وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ». وإذا

كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟

ثم تضيف بعد ذلك: «لِّسَانًا عَرَبِيًّا» يفهمه الجميع ويستفيدون منه.

ثم تبيّن فى النهاية الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: «لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ». وإذا لاحظنا أنّ جملة (ينذر) مضارعة تدل على الاستمرار والدوام، فسيتّضح أنّ إنذار القرآن كبشارته دائمى مستمر، فهو يحذر الظالمين

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۳

والمجرمين على مدى التأريخ ويخوفهم وينذرهم، ويبشر المحسنين على الدوام.

و الآية التالية تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآية التى قبلها، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

وبناءً على هذا، فإنّ «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحية العقائدية، وفى خط الإستقامة والصبر من الناحية العملية.

وتبشر آخر آية من هذه الآيات الموحدين المحسنين بأهم بشارة وأثمنها، فتقول:

«أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

التعبير ب «الأصحاب» إشارة إلى اجتماعهم الدائم وتنعمهم الخالد بنعم الجنة.

وعبارة «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يدل من جهة على أنّ الجنة لا تمنح مجاناً، بل إنّ لها ثمناً يجب أن يؤدّى، ويشير من جهة اخرى إلى أصل حرية الإنسان واختياره.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِى أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ (۱۶) أيها الإنسان أحسن إلى والديك: هذه الآيات والتى تليها، توضيح لما يتعلق بالفريقين:

الظالم والمحسن، اللذين أشير إليهما إجمالًا فى الآيات السابقة، وتتناول الآية الاولى وضع المحسنين، وتبدأ بمسألة الإحسان إلى الوالدين وشكر جهودهم وأتعابهم التى بذلوها، والذى يعتبر مقدمة لشكر اللّه سبحانه، فتقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا».

«الوصية» و «التوصية» بمعنى مطلق الوصية، ولا ينحصر معناها بالوصايا بما بعد الموت، ولذلك فسّرها جماعة هنا بأنّها الأمر والتشريع.

إنّ مسألة الإحسان إلى الوالدين من الاصول الإنسانية، ينجذب إليها ويقوم بها حتى اولئك الذين لا يلتزمون بدين أو مذهب، وبناءً على هذا، فإنّ الذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفة، ويرفضون القيام بهذا الواجب، ليسوا مسلمين حقيقيين، بل لا يستحقون اسم الإنسان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۴

ثم تطرّقت إلى سبب وجوب معرفة حق الام، فقالت: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلثُونَ شَهْرًا».

تضحى خلالها الام أعظم التضحيات، وتؤثر ولدها على نفسها أيّما إيثار، لأنّ آلام ومعاناة الام فى طريق تربية الطفل محسوسة وملموسة أكثر، ولأنّ جهود الام أكثر أهمية إذا ما قورنت بجهود الأب، كان التأكيد أكثر على قدر الام فى الروايات الإسلامية.

ثم إنّه يمكن أن يستفاد من هذا التعبير القرآنى أنّه كلّما قصرت فترة الحمل يجب أن تطول فترة الرضاع بحيث يكون المجموع (۳۰) شهراً.

ثم تضيف الآية: إنّ حياة هذا الإنسان تستمر «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُو وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

إنّ بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمى، وبلوغ الأربعين سنة إشارة إلى البلوغ الفكرى والعقلى.

وفى الحديث: «إنّ الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبى وجه لا يفلح» (۱).

إنّ القرآن الکریم یضیف فی متابعة هذا الحدیث: إنّ الإنسان العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعین، یطلب من ربّه ثلاث طلبات، فیقول أولًا: «قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَعَلَی وَالِدَیَّ».

أمّا طلبه الثانی فهو: «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضٰهُ».

وأخیراً یقدم طلبه الأخیر فیقول: «وَأَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی».

وتبیّن الآیة فی نهایتها مطلبین، کل منهما تبیان لبرنامج عملی مؤثر، فتقول: «إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ». فقد بلغت مرحلة یجب أن أعین فیها مسیر حیاتی، وأسیر فی ذلک الخط ما حییت.

والآخر: «وَإِنِّی مِنَ الْمُسْلِمِینَ».

والآیة التالیة بیان بلیغ لأجر هؤلاء المؤمنین الشاکرین وثوابهم، وقد أشارت إلی مکافآت مهمّة ثلاث، فقالت أوّلًا: «أُولَئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا».

إنّ جملة «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضٰهُ» تبیّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذی یبعث علی رضی اللّه سبحانه.

---

(۱) تفسیر روح المعانی ۲۶/ ۱۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۵

وتعبیر «أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» والذی ورد فی آیات عدیدة من القرآن المجید، یبیّن فضل اللّه الذی لا یحصی فی مقام مکافأة العباد وجزائهم، حیث یجعل أحسن أعمالهم معیاراً لکل أعمالهم الحسنة فی الحساب والمثوبة.

والهبة الثانیة هی تطهیرهم، فتقول: «وَنَتَجَاوَزُ عَن سَیِّئَاتِهِمْ».

والموهبة الثالثة هی أنّهم: «فِی أَصْحَابِ الْجَنَّةِ». فیطهرون من الهفوات التی کانت منهم، ویکونون فی جوار الصالحین المطهرین المقربین عند اللّه سبحانه.

وتضیف الآیة فی نهایتها- کتأکید علی هذه النعم التی مرّ ذکرها-: «وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِی کَانُوا یُوعَدُونَ».

وَ الَّذِی قَالَ لِوَالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمَا أَ تَعِدَانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُمَا یَسْتَغِیثَانِ اللَّهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَیَقُولُ مَا هذَا إِلَّا أَسَاطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولئِکَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ کَانُوا خَاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا یُظْلَمُونَ (۱۹) مضیّعو حقوق الوالدین: کان الکلام فی الآیات السابقة عن المؤمنین الذین سلکوا طریق القرب من اللّه، فبلغوا الغایة ووسعتهم رحمة اللّه، وکرمهم لطفه، وکل ذلک فی ظل الإیمان والعمل الصالح، وشکر نعم اللّه سبحانه، والإلتفات إلی حقوق الأبوین والذریة وأدائها.

أمّا هذه الآیات، فیدور الکلام فیها عمّن یقفون فی الطرف المقابل، وهم الکافرون المنکرون للجمیل والحق، والعاقون لوالدیهم، فتقول: «وَالَّذِی قَالَ لِوَالِدَیْهِ أُفٍّ لَّکُمَا أَتَعِدَانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِی».

إلّا أنّ أبویه المؤمنین لم یستسلما أمام هذا الولد العاق الضال، فتقول الآیة: «وَهُمَا یَسْتَغِیثَانِ اللَّهَ وَیْلَکَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». غیر أنّه یأبی إلّاأن یسیر فی طریق الضلالة والعناد الذی اختطه لنفسه، ولذلک نراه یجیبهما بکل تکبر وغرور ولا مبالاة: «فَیَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِیرُ الْأَوَّلِینَ»، فما تقولانه عن المعاد والحساب لیس إلّاخرافات وقصص کاذبة أتتکم من الماضین من قبلکم، ولست بالذی یعتقد بها وینقاد لها.

وکما بیّنت الآیات السابقة ثواب المؤمنین العاملین للصالحات، فإنّ هذه الآیات تبیّن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۶

عاقبة أعمال الکافرین الضالین المتجرئین علی اللّه، فتقول: «أُولَئِکَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ». وأى خسارة أعظم من أنّهم خسروا كل رأس مال وجودهم إذ اشتروا به غضب اللَّه عزّ وجل وسخطه. أمّا الآية الأخيرة من هذه الآيات فإنّها تشير أوّلًا إلى تفاوت درجات كلا الفريقين، فتقول: «وَلِكُلّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا». فليس كل أصحاب الجنة أو أصحاب النار فى درجة واحدة، بل إنّ لكل منهما درجات ومراتب تختلف باختلاف أعمالهم، وحسب خلوص نيّتهم وميزان معرفتهم، وأصل العدالة هو الحاكم هنا تماماً.

«الدرجات»: جمع «درجة»، وتقال عادةً للسلالم التى يصعد الإنسان بتسلقها إلى الأعلى؛ و «الدركات» جمع «درك»، وهى تقال للسلّم الذى ينزل منه الإنسان إلى الأسفل، ولذلك يقال فى شأن الجنة: درجات، وفى شأن النار: دركات، لكن لما كانت الآية مورد البحث قد تحدثت عنهما معاً، ولأهمية مقام أصحاب الجنة، ورد لفظ (الدرجات) للأثنين، وهو من باب التغليب.

ثم تضيف الآية: «وَلِيُوَفّيَهُمْ أَعمَالَهُمْ» وهذا التعبير إشارة اخرى إلى مسألة تجسم الأعمال، حيث أنّ أعمال ابن آدم ستكون معه هناك، فتكون أعماله الصالحة باعثاً على الرحمة به واطمئنانه، وأعماله الطالحة سبباً للبلاء والعذاب الأليم.

وتقول الآية أخيراً كتأكيد على ذلك: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» لأنّهم سيرون أعمالهم وجزاءها، فكيف يمكن تصور الظلم والجور؟

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُم فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُم تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰) الزهد والإدخار للآخرة: تستمر هذه الآية فى البحث حول عقوبة الكافرين والمجرمين، وتذكر جانباً من أنواع العذاب الجسمى والروحى الذى سينال هؤلاء، فتقول: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُم فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا».

نعم، فقد كنتم غارقين فى الشهوات، ولم تكونوا تعرفون شيئاً إلّاالتمتع بطيّبات هذا العالم ونعمه المادية، ومن أجل أن تكونوا متحللين من كل القيود فى هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، وسخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كل أنواع الظلم والجور بحق الآخرين.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۷

«فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ». فاليوم ترون جزاء كل ذلك التمتع الباطل، واتّباع الشهوات الأعمى، وعبادة الهوى، والإستكبار والفسق والفجور وتذوقون العذاب المذل والمهين بسبب تلكم الأعمال.

إنّ هذا العرض بحد ذاته نوع من العذاب الأليم المرعب، حيث يرى الكافرون بأعينهم كل أقسام جهنم من الخارج قبل أن يردوها، وليشاهدوا مصيرهم المشؤوم ويتعذبوا ويتألموا له.

لقد ذكر فى ذيل هذه الآية ذنبان لأصحاب الجحيم، الأوّل: الإستكبار، و الثانى: الفسق.

ويمكن أن يكون الأوّل إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات اللَّه وبعث الأنبياء والقيامة، والثانى إشارة إلى أنواع الذنوب والمعاصى، فأحدهما يتحدّث عن ترك أصول الدين، والآخر عن تضييع فروع الدين «۱».

وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۲) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۲۵) قوم عاد والريح المدمرة: لمّا كان القرآن يذكر قضايا كلية، ثم يتطرق إلى بيان مصاديق واضحة لها، ليطبق تلك الكليات. فإنّه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرّق إلى ذكر قصة قوم عاد الذين هم صورة واضحة لأولئك العتاة، فتقول الآية: «وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ».

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النبى العظيم وحرصه على قومه.

ثم تضيف الآية: «إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ».

(۱) الميزان فى تفسير القرآن ۱۸/ ۲۰۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۸

«الأحقاف»: تعنى الكثبان الرملية التى تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات ومنحنيات، على أثر هبوب العواصف فى الصحارى، ويتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضاً حصباء كبيرة. إنّ هذه المنطقة تقع جنوب الجزيرة العربية قرب أرض اليمن.

يقول القرآن الكريم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم هدّدهم بقوله: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إلّا أنّ هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوة الإلهية، وخاطبوا هوداً: «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

إلّا أنّ هوداً عليه السلام قال فى ردّه على هذا الطلب المتهور الذى يدل على الجنون: «قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ». فهو الذى يعلم متى وفى أى ظروف ينزل عذاب الإستئصال، فلا هو مرتبط بطلبكم وتمنيكم، ولا هو تابع لرغبتى، بل يجب أن يتمّ الهدف ويتحقق، ألا وهو إتمام الحجة عليكم، فإنّ حكمته سبحانه تقتضى ذلك.

ثم يضيف: «وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ». فهو مهمتى الأساسية، ومسؤوليتى الرئيسية، أمّا اتخاذ القرار فى شأن طاعة اللَّه وأوامره فهو أمر يتعلق بكم، وإرادة نزول العذاب ومشيئته تتعلق به سبحانه.

«وَلَكِنِّى أَرَيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وجهلكم هذا هو أساس تعاستكم وشقائكم، فإنّ الجهل المقترن بالكبر والغرور هو الذى يمنعكم من دراسة دعوة رسل اللَّه، ولا يأذن لكم فى التحقيق فيها ...

وأخيراً لم تؤثر نصائح هود عليه السلام المفيدة، وإرشاداته الأخوية فى قساة القلوب اولئك، وبدل أن يقبلوا الحق لجّوا فى غيّهم وباطلهم، وتعصبوا له، وحتى نوح عليه السلام كذّبه قومه بهذا الادّعاء الواهى وهو أنّك إن كنت صادقاً فيما تقول فأين عذابك الموعود؟

والآن، وقد تمّت الحجة بالقدر الكافى، وأظهر اولئك عدم أهليتهم للبقاء، وعدم استحقاقهم للحياة، فإنّ حكمة اللَّه سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الإستئصال» ذلك العذاب الذى يجتث كل شىء ولا يبقى ولا يذر.

وفجأة رأوا سحاباً قد ظهر فى الأفق، واتسع بسرعة: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» (۱).

(۱) «عارض»: من مادة «عرض»، وهنا بمعنى السحاب الذى ينتشر فى عرض السماء، وربّما كان هذا أحد علامات السحب الممطرة بأنّها تتسع فى ذلك الأفق ثم تصعد؛ و «الأودية»: جمع «واد»، وهو المنخفض ومجرى السيول والمياه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۶۹

لكن، قيل لهم سريعاً بأنّ هذا ليس سحاباً ممطراً: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

والظاهر أنّ المتكلم بهذا الكلام هو اللَّه سبحانه، أو أنّ هوداً لمّا سمع صرخات فرحهم واستبشارهم قال لهم ذلك.

نعم، إنّها ريح مدمّرة: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا».

قال بعض المفسرين: إنّ المراد من «كُلَّ شَىْءٍ» البشر ودوابهم وأموالهم، لأنّ الجملة التالية تقول: «فَأَصْبَحُوا لَايُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ». وهذا يوحى بأنّ مساكنهم كانت سالمة، أمّا هم فقد هلكوا، وألقت الرياح القوية أجسادهم فى الصحارى البعيدة، أو فى البحر.

روى أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها فى الجوّ حتى يرى كأنّها جرادة، وقيل: أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت فيها كشهب النار، وروى أنّ أوّل ما عرفوا به أنّه عذاب أليم أنّهم رأوا ما كان فى الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأحال اللَّه عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية

أيام لها أنين.

وجاء في الآية (٧) من سورة الحاقة: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ».

ثم كشف الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر «١».

وتشير الآية في النهاية إلى حقيقة، وهي أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: «كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصَاراً وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَ صَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٨.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۰

لستم بأقوى من قوم عاد أبداً: إنّ هذه الآيات بمثابة استنتاج للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشركي مكة وتقول: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ».

فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسمية، وأقدر منكم من ناحية المال والثروة والإمكانات المادية، ولكن عجزوا عن الوقوف أمام عاصفة العذاب الإلهي، فكيف بكم إذن.

ثم تضيف الآية: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً». فقد كانوا أقوياء في مجال إدراك الحقائق وتشخيصها أيضاً، وكانوا يدركون الامور جيداً، وكانوا يستغلون هذه المواهب الإلهية من أجل تأمين حاجاتهم ومآربهم المادية على أحسن وجه، لكن: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بَايَاتِ اللَّهِ».

وأخيراً: «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ثم تخاطب الآية مشركي مكة من أجل التأكيد على هذا المعنى ولزيادة الموعظة والنصيحة، فتقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مّنَ الْقُرَى

.

اولئك الأقوام الذين لا تبعد أوطانهم كثيراً عنكم، وكان مستقرهم في أطراف جزيرة العرب.

ثم تضيف الآية بعد ذلك: «وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

وتوبخ الآية الأخيرة من هذه الآيات هؤلاء العصاة، وتذمهم بهذا البيان: «فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً».

حقّاً، إذا كانت هذه الآلة على حق، فلماذا لا تعين أتباعها وعبادها وتنصرهم في تلك الظروف الحساسة، ولا تنقذهم من قبضة العذاب المهول المرعب؟ إنّ هذا بنفسه دليل محكم على بطلان عقيدتهم حيث كانوا يظنّون أنّ هذه الآلهة المخترعة هي ملجأهم وحماهم في يوم تعاستهم وشقائهم.

ثم تضيف: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ». فإنّ هذه الموجودات التي لا قيمة لها ولا أهمية، والتي ليست مبدأ لأي أثر، ولا تأتي بأي فائدة، وهي عند العسر صماء عمياء، فكيف تستحق الألوهية وتكون أهلًا لها؟

وأخيراً تقول الآية: «وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ». فإنّ هذا الهلاك والشقاء، وهذا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۱

العذاب الأليم، واختفاء الآلهة وقت الشدّة والعسر، كان نتيجةً لأكاذيب اولئك وأوهامهم وافتراءاتهم.

وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (۳۱) وَ مَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۳۲)

سبب النّزول

فی تفسیر علی بن إبراهیم: أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله خرج من مکـة إلی سوق عکاظ ومعه زیـد بن حارثـة یـدعو الناس إلی الإسلام فلم یجبه أحد ولم یجد من یقبله، ثم رجع إلی مکة، فلما بلغ موضعاً یقال له وادی مجنة: تهجد بالقرآن فی جوف اللیل، فمر به نفر من الجن فلمّا سمعوا قراءة رسول اللّه صلی الله علیه و آله استمعوا له فلما سمعوا قراءته قال بعضهم لبعض: «أنصتوا». یعنی اسکتوا (فلمّا قضی) أی فرغ رسول اللّه صلی الله علیه و آله من القراءة «وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ» إلی قوله «أُولَئِكَ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ» فجاؤا إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله فاسلموا وآمنوا وعلمهم رسول اللّه شرائع الإسلام فأنزل اللّه علی نبیه «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ» السورة کلها.

التّفسیر

إیمان طائفة من الجن: جاء فی هذه الآیات بحث مختصر حول إیمان طائفة من الجن بنبی الأکرم صلی الله علیه و آله وکتابه السماوی.

لقد کانت قصة قوم عاد تحذیراً لمشرکی مکة، وقصة إیمان طائفة من الجن تحذیراً آخر.

تقول الآیة أوّلًا: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ».

«صرّفنا»: یعنی نقل الشیء وتبدیله من حالة إلی اخری؛ ولعله إشارة إلی أنّ الجن کانوا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۲

یصغون إلی أخبار السماء عن طریق استراق السمع، ومع ظهور نبی الخاتم صلی الله علیه و آله رجعوا إلیه واتّجهوا نحو القرآن. ثم تضیف الآیة: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا». وذلک حینما کان النبی صلی الله علیه و آله یتلو آیات القرآن فی جوف اللیل، أو فی صلاة الصبح.

وأخیراً أضاء نور الإیمان قلوب هؤلاء، فلمسوا فی أعماقهم کون آیات القرآن حقاً، ولذلک: «فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ».

وتبیّن الآیة التالیة کیفیة دعوة هؤلاء قومهم عند عودتهم إلیهم، تلک الدعوة المتناسقة الدقیقة، الوجیزة والعمیقة المعنی: «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى .

ومن صفاته أنّا رأیناه یصدق الکتب السماویة السالفة ویتطابق معها فی محتواها، وفیه العلائم الواردة فی تلک الکتب: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ».

وصفته الاخری أنّه: «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ». بحیث إنّ کل من یستند إلی عقله وفطرته یری آیات حقانیته واضحة جلیة.

وآخر صفة أنّه یهدی إلی الرشد: «وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ».

ثم أضافوا: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ». إذ ستمنحون حینها مکافأتین عظیمتین: «يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» «۱».

المراد من: «دَاعِيَ اللَّهِ» نبی الإسلام صلی الله علیه و آله الذی کان یرشدهم إلی اللّه سبحانه.

وتذکر الآیة الأخیرة- من هذه الآیات- کلام مبلغی الجن، فتقول: «وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ». ینصرونه من عذاب اللّه، ولذلک فإنّ: «أُولَئِكَ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

أی ضلال أشد وأسوأ وأجلی من أن یهبّ الإنسان إلی محاربة الحق ونبی اللّه، بل حتی إلی محاربة اللّه الذی لا ملجأ له سواه فی کل عالم الوجود، ولا یستطیع الإنسان أن یفر من حکومته إلی مکان آخر؟!

(۱) «یجرکم»: من مادة «إجارة»، وقد وردت بمعان مختلفة: الإغاثة، الإنقاذ من العذاب، الإیواء، والحفظ.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۳

أ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَی أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتَی بَلَی إِنَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۳) وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النَّارِ أَ لَیْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَی وَ رَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ کَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مَا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ یُهْلَکُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (۳۵)

فاصبر کما صبر أولوا العزم: تواصل هذه الآیات البحث حول المعاد، حیث جاءت الإشارة إلی مسألة المعاد فی الآیات السابقة حکایة عن لسان مبلغی الجن- هذا من جهة.

ومن جهة اخری، فإنّ سورة الأحقاف تتحدث فی فصولها الاولی عن مسألة التوحید، وعظمة القرآن المجید، وإثبات نبوّة نبی الخاتم صلی الله علیه و آله، وتبحث فی آخر فصل من هذه السورة مسألة المعاد لتکمل بذلک البحث فی الاصول الإعتقادیة الثلاثة.

تقول الآیة الاولی: «أَوَلَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَی أن یُحْیِیَ الْمَوْتَی بَلَی إِنَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

هذا أحد أدلة المعاد العدیدة التی یؤکّد علیها القرآن ویستند إلیها فی آیات مختلفة، ومن جملتها الآیة (۸۱) من سورة یس.

وتجسّد الآیة التالیة مشهداً من العذاب الألیم المحیط بالمجرمین ومنکری المعاد، فتقول:

«وَیَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النَّارِ».

وعندما یُعرض الکافرون علی النار، ویرون ألسنة لهبها العظیمة المحرقة المرعبة یقال لهم:

«أَلَیْسَ هذَا بِالْحَقّ». وهل تستطیعون الیوم أن تنکروا البعث ومحکمة اللَّه العادلة، وثوابه وعقابه، وتقولون: ما هذا إلّاأساطیر الأوّلین؟

غیر أنّ اولئک الذین لا حیلة لهم: «قَالُوا بَلَی وَرَبّنَا». فهنا یقول اللَّه سبحانه، أو ملائکة العذاب: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا کُنتُمْ تَکْفُرُونَ».

وبهذا فإنّهم یرون کل الحقائق بام أعینهم فی ذلک الیوم ویعترفون بذلک الإعتراف الذی لن ینفعهم، وسوف لن تکون نتیجته إلّاالهم والحسرة، وتأنیب الضمیر والعذاب الروحی.

ویأمر اللَّه سبحانه نبیّه فی آخر آیة من هذه الآیات، وهی آخر آیة فی سورة الأحقاف،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۴

علی أساس ملاحظة ما مرّ فی الآیات السابقة حول المعاد وعقاب الکافرین، أن: «فَاصْبِرْ کَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» فلست الوحید الذی واجه مخالفة هؤلاء القوم وعداوتهم، فقد واجه أولوا العزم هذه المشاکل وثبتوا أمامها واستقاموا.

عبارة (من الرّسل) إشارة إلی فئة خاصة من الأنبیاء کانوا أصحاب شریعة، وهم الذین أشارت إلیهم الآیة (۷) من سورة الأحزاب: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِیّینَ مِیثَاقَهُمْ وَمِنکَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرهِیمَ وَمُوسَی وَعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مّیثَاقًا غَلِیظًا».

وقد رویت فی هذا الباب روایات کثیرة فی مصادر الشیعة والسنّة، تدل علی أنّ الأنبیاء أولی العزم کانوا خمسة.

ثم یضیف القرآن بعد ذلک: «وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ». أی للکفار لأنّ القیامة ستحل سریعاً، وسیرون بأعینهم ما أطلقوه علیها وادعوه فیها، ویجزون أشد العذاب، وعندها سیطلعون علی أخطائهم، ویعرفون ما کانوا علیه من الضلالة والغی.

إنّ عمر الدنیا قصیر جدّاً بالنسبة إلی عمر الآخرة، حتی: «کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مَا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مّن نَهَارٍ».

ثم تضیف الآیة کتحذیر لکل البشر: «بَلَغٌ» لکل اولئک الذین خرجوا عن خط العبودیة للَّه‌تعالی .. لُاولئک الغارقین فی بحر الحیاة الدنیا السریعة الزوال والفناء، والعابدین شهواتها .. وأخیراً هو بلاغ لکل سکان هذا العالم الفانی.

وتقول فی آخر جملة تتضمن استفهاماً عمیق المعنی، وینطوی علی التهدید: «فَهَلْ یُهْلَکُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ».

ملاحظة

کان نبی الخاتم مثال الصبر والإستقامة: إنّ حیاة أنبیاء اللّه العظام- وخاصة نبی الأکرم صلی الله علیه و آله- تبیان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة والشدائد العسیرة، والعواصف الهوجاء، والمشاکل القاصمة، ولما کان طریق الحق ملیئاً بهذه المشاکل دائماً، فیجب علی سالکیه أن یستلهموا العبر من أولئک العظماء فی هذا المسیر.

إنّنا ننظر عادة من نقطة مضیئة فی تاریخ الإسلام إلی أیّام مرّت علی الإسلام ونبیّه صلی الله علیه و آله صعبة مظلمة، وهذه النظرة من المستقبل إلی الماضی تجسم الوقائع والحقائق بشکل آخر، فینبغی علینا أن ندرک أنّ النبی صلی الله علیه و آله کان وحیداً فریداً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۵

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتک به، حتی أنّ أقاربه وعشیرته کانوا فی الخط الأوّل فی هذه المجابهة.

لقد فرضوا علیه الحصار الاجتماعی والاقتصادی والسیاسی بحیث أغلقوا جمیع الأبواب والطرق بوجهه وبوجه أتباعه، حتی مات بعضهم جوعاً، وأقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت علی النبی صلی الله علیه و آله أیّام یصعب علی القلم واللسان وصفها، فعندما جاء إلی الطائف لیدعو الناس إلی الإسلام، لم یکتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتی سال الدم من قدمیه.

لقد کانوا یحثّون الجهلاء من الناس علی أن یصرخوا، ویسیؤوا فی کلامهم إلیه، فعمد إلی ظل حبلة من عنب، وقال: «اللهم إلیک أشکو ضعف قوتی، وقلة حیلتی، وهوانی علی الناس، یا أرحم الراحمین، أنت ربّ المستضعفین، وأنت ربّی، إلی من تکلنی؟ إلی بعید یتجهمنی؟ أم إلی عدوّ ملکته أمری؟ إن لم یکن بک علی غضب فلا أبالی، ولکن عافیتک هی أوسع لی ...» «۱».

کانوا یسمونه ساحراً تارة، واخری یخاطبونه بالمجنون.

کانوا یلقون التراب والرماد علی رأسه حیناً، وحیناً یجمعون علی قتله، فیحاصرون بیته بالسیوف والرماح.

إلّا أنّه رغم کل تلک الظروف استمر فی صبره وصموده واستقامته.

وأخیراً جنی الثمرة الطیبة لهذه الشجرة المبارکة، فقد عمّ دینه شرق العالم وغربه، لا جزیرة العرب وحدها، ویدوّی الیوم صوت انتصاره صباح مساء فی کل أرجاء الدنیا، وفی قارات العالم الخمسة، وهذا هو معنی: «فَاصْبِرْ کَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ».

«نهایة تفسیر سورة الأحقاف»

---

(۱) سیرة النبی صلی الله علیه و آله، لابن هشام ۲/ ۲۸۵؛ تاریخ الطبری ۲/ ۸۰.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۷

۴۷. سورة محمد

محتوی السورة: یمکن تلخیص محتوی السورة بصورة عامة فی عدة فصول:

۱- مسألة الإیمان والکفر، والمقارنة بین أحوال المؤمنین والکفار فی هذه الدنیا وفی الحیاة الآخرة.

۲- بحوث معبرة بلیغة وصریحة حول مسألة الجهاد وقتال المشرکین، والتعلیمات الخاصة فیما یتعلق بأسری الحرب.

۳- شرح أحوال المنافقین الذین کان لهم نشاطات هدّامة کثیرة حین نزول هذه الآیات فی المدینة.

۴- فصل آخر یتناول مسألة السیر فی الأرض، وتدبر مصیر الأقوام الماضیة وعاقبتهم، کدرس للاعتبار والإتعاظ.

۵- وفی جانب من آیات هذه السورة ذکرت مسألة الاختبار الإلهی لمناسبتها موضوع القتال والجهاد.

۶- ورد الحدیث فی فصل آخر عن مسألة الإنفاق الذی یعتبر بحدّ ذاته نوعاً من الجهاد، وجاء الحدیث عن مسألة البخل الذی یقع فی الطرف المقابل.

۷- وتناولت بعض آيات هذه السورة- لمناسبة موضوعها- مسألة الصلح مع الكفار- الصلح الذى يكون أساساً لهزيمة المسلمين وذلّتهم- ونهت عنه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۸

سمّيت هذه السورة بسورة محمّد صلى الله عليه و آله لأنّ اسمه الشريف قد ذكر فى الآية الثانية، واسمها الآخر هو: سورة القتال، والواقع أنّ مسألة الجهاد وقتال أعداء الإسلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الذين كفروا لم يرتب أبداً، ولم يدخله شك فى دينه أبداً، ولم يبله اللّه بفقر أبداً، ولا خوف من سلطان أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكّل اللّه به فى قبره ألف ملك يصلون فى قبره، ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفونه موقف الأمن عند اللّه عزّ وجل، ويكون فى أمان اللّه، وأمان محمّد صلى الله عليه و آله».

إنّ الذين يعيشون محتوى هذه السورة فى نفوسهم و أعماق وجودهم، وتشبّعت به أرواحهم، وهم أشداء فى جهاد الأعداء اللدودين القساة، والذين لم يدعوا للشك والتزلزل إلى أنفسهم سبيلًا، تكون أسس دينهم قوية، وإيمانهم صلباً، ولا يملكهم خوف ولا تنالهم ذلّة ولا يعتريهم فقر، وهم فى الآخرة منعمون فى جوار رحمة اللّه.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ (۲) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (۳) المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل: إنّ هذه الآيات الثلاث تعتبر فى الحقيقة مقدمة لأمر حربى مهم صدر فى الآية الرابعة، فبيّنت الاولى منها وضع الكافرين وحالهم، والثانية حال المؤمنين، وقارنت ثالثتهما بين الإثنين، وذلك لتتهيأ الأرضية والاستعداد للجهاد الدينى ضد الأعداء الظالمين العتاة باتضاح حال الفئتين.

تقول الآية الاولى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وهى إشارة إلى زعماء الكفر ومشركى مكة الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام، ولم يكتفوا بكونهم كفاراً، بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل اللّه بأنواع الحيل والخدع والمخططات.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۷۹

والمراد من: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» أنّه كل أعمالهم التى قاموا بها، وظاهرها معونة للفقراء والضعفاء، أو إقراء للضيف، أو غير ذلك، ستحبط لعدم إيمانهم.

فإنّ اللّه سبحانه قد أحبط كل مؤامراتهم وما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام والقضاء على المسلمين، وحال بينهم وبين الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

والآية التالية وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فى الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فى الآية السابقة، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ».

والجدير بالإلتفات إليه أنّ الآية تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فى مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل اللّه.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفة، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب؛ وبناءً على هذا فإنّ إصلاح البال يعنى تنظيم كل شؤون الحياة والامور المصيرية، وهو يشمل الفوز فى الدنيا.

وبيّنت الآية الأخيرة العلّة الأساسية لهذا الإنتصار وتلك الهزيمة من خلال مقارنة مختصرة بليغة، فقالت: «ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ».

ف «الحق» يعنى الحقائق العينية، وأسماها ذات اللّه المقدّسة، وتليها الحقائق المتعلقة بحياة الإنسان، والقوانين الحاكمة فى علاقته باللّه تعالى، وفى علاقته بالآخرين؛ و «الباطل» يعنى الظنون، والأوهام، والمكائد والخدع، والأساطير والخرافات، والأفعال الجوفاء التى لا هدف من ورائها، وكل نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمة فى عالم الوجود.

وتضيف الآية فى النهاية: «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ». أى: كما أنّه سبحانه قد بيّن الخطوط العامة لحياة المؤمنين والكفار، وعقائدهم وبرامجهم العملية ونتائج أعمالهم فى هذه الآيات، فإنّه يوضح مصير حياتهم وعواقب أعمالهم.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (۴) سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بَالَهُمْ (۵) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۰

مختصر الامثل ج۴ ۵۲۰

يجب الحزم فى ساحة الحرب: إنّ الآيات السابقة كانت مقدمة لتهيئة المسلمين من أجل إصدار أمر حربى مهم ذكر فى الآيات مورد البحث، فتقول الآية: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ».

من البديهى أنّ «ضرب الرقاب» كناية عن القتل، فإنّ الهدف هو دحر العدو والقضاء عليه، ولما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أكّدت الآية عليه.

فإنّ هذا الحكم مرتبط بساحة القتال، لأنّ «لقيتم»- من مادة اللقاء- تعنى الحرب والقتال فى مثل هذه الموارد.

ثم تضيف الآية: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ».

«أثخنتموهم»: من مادة «ثخن»، بمعنى الغلظة والصلابة، ولهذا تطلق على النصر والغلبة الواضحة، والسيطرة الكاملة على العدو.

فإنّ الآية المذكورة تبيّن تعليماً عسكرياً دقيقاً، وهو أنّه يجب أن لا يُقدم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدو والقضاء على آخر حصن لمقاومته، لأنّ الإقدام على الأسر قد يكون سبباً فى تزلزل وضع المسلمين فى الحرب، وسيعيق المسلمين الإهتمام بأمر الأسرى ونقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.

وتبيّن الجملة التالية حكم أسرى الحرب الذى يجب أن يقام بحقّهم بعد انتهاء الحرب، فتقول: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً».

وعلى هذا لا يمكن قتل الأسير الحربى بعد انتهاء الحرب، بل إنّ ولى أمر المسلمين- طبقاً للمصلحة التى يراها- يطلق سراحهم مقابل عوض أحياناً، وبلا عوض أحياناً اخرى، وهذا العوض- فى الحقيقة- نوع من الغرامة الحربية التى يجب أن يدفعها العدو.

طبعاً يوجد حكم ثالث فى الإسلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، وهو استعباد الأسرى، إلّا أنّه ليس أمراً واجباً، بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينفّذه عندما يراه ضرورة فى ظروف خاصة، ولعلّه لم يرد فى القرآن بصراحة لهذا السبب، بل بيّنته الرّوايات الإسلامية فقط.

ثم تضيف الآية بعد ذلك: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا». فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدو ويصبح عاجزاً عن مواجهتكم، وعندها سيخمد لهيب الحرب.

ثم تضيف الآية: «ذلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ». بالصواعق السماوية، والزلازل،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۱

والعواصف، والإبتلاءات الاخرى، لكن باب الإختبار وميدانه سيغلق فى هذه الصورة:

«وَلكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ».

هذه المسألة هى فلسفة الحرب، والنكتة الأساسية فى صراع الحق والباطل، ففى هذه الحروب ستتميز صفوف المؤمنين الحقيقيين والعاملين من أجل دينهم عن المتكلمين فى المجالس المتخاذلين فى ساعة العسرة، وبذلك ستتفتح براعم الاستعدادات، وتحيا قوة

الإستقامة والرجولة، ويتحقق الهدف الأصلى للحياة الدنيا، وهو الإبتلاء وتنمية قوة الإيمان والقيم الإنسانية الاخرى.

وتحدّث آخر جملة من الآية مورد البحث عن الشهداء الذين قدّموا أرواحهم هدية لدينهم فى هذه الحروب، ولهم فضل كبير على المجتمع الإسلامى، فقالت: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ».

هذه هى أحدى مواهب اللَّه فى شأن الشهداء.

وهناك ثلاث مواهب اخرى أضيفت فى الآيات التالية:

تقول الآية أوّلًا: «سَيَهْدِيهِمْ» إلى المقامات السامية، والفوز العظيم، ورضوان اللَّه تعالى.

والاخرى: «وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» فيهبهم هدوء الروح، واطمئنان الخاطر، والنشاط المعنوى والروحى، والإنسجام مع صفاء ملائكة اللَّه ومعنوياتهم، حيث يجعلهم جلساءهم وندماءهم فى مجالس أنسهم ولذّتهم، ويدعوهم إلى ضيافته فى جوار رحمته.

والموهبة الأخيرة هى: «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ».

إنّه تعالى لم يبيّن لهم الصفات الكليّة للجنات العلى وروضة الرضوان وحسب، بل عرف لهم صفات قصورهم فى الجنة وعلاماتها، بحيث أنّهم عندما يردون الجنة يتوجّهون إلى قصورهم مباشرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (۷) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (۸) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (۹) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (۱۰) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (۱۱)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۲

إن تنصروا اللَّه ينصركم: تستمر هذه الآيات فى ترغيب المؤمنين فى جهاد أعداء الحق، وهى ترغّبهم فى الجهاد بتعبير رائع بليغ، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ».

إنّ التأكيد على مسألة «الإيمان» إشارة إلى أنّ إحدى علامات الإيمان الحقيقى هو جهاد أعداء الحق.

وعبارة «تَنصُرُوا اللَّهَ» تعنى نصرة دينه، ونصرة نبيّه، وشريعته وتعليماته.

يقول: «يَنصُرْكُمْ» فهو سبحانه يلقى فى قلوبكم نور الإيمان، وفى نفوسكم وأرواحكم التقوى، وفى أرادتكم القوّة والتصميم أكثر، وفى أفكاركم الهدوء والإطمئنان.

ومن جانب آخر يرسل الملائكة لمدكم ونصرتكم، ويغيّر مسار الحوادث لصالحكم، ويجعل أفئدة الناس تهوى إليكم، ويجعل كلماتكم نافذة فى القلوب، ويصيّر نشاطاتكم وجهودكم مثمرة. نعم، إنّ نصرة اللَّه تحيط بالجسم والروح، من الداخل والخارج؛ إلّاأنّه سبحانه يؤكّد على مسألة تثبيت الأقدام من بين كل أشكال النصرة، وذلك لأنّ الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار، وإنّما يكسب الحرب الذين يصمدون ويستقيمون أكثر.

ولمّا كانت حشود العدو العظيمة، وأنواع معداتهم وتجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين فى سبيل اللَّه أحياناً، فإنّ الآية التالية تضيف: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وتبيّن الآية التالية علّة سقوط هؤلاء، وجعل أعمالهم هباءً منثوراً، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

لقد أنزل اللَّه سبحانه دين التوحيد قبل كل شىء، إلّاأن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر اللَّه سبحانه بالحق والعدالة، والعفّة والتقوى، غير أنّهم أعرضوا عنها جميعاً، واتجهوا صوب الظلم والفساد، بل إنّهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم اللَّه تعالى وحده: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ» (۱).

وإذا كان هؤلاء يتنفّرون من هذه الامور، فمن الطبيعى أن لا يخطوا خطوة فى هذا المسير، ولقد كانت كل مساعيهم وجهودهم فى مسير الباطل وخدمته، فمن الطبيعى أيضاً أن تحبط كل هذه الأعمال.

(۱) سورة الزمر / ۴۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۳

ولمّا كان القرآن الكريم فى كثير من الموارد يعرض للظالمين العاصين نماذج محسوسة، فقد دعاهم هنا أيضاً إلى التدبّر فى أحوال الماضين، فقال: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ومن أجل أن لا يظنّ هؤلاء أنّ ذلك المصير المشؤوم كان مختصّاً بالأقوام الطاغين الماضين، فقد أضافت الآية: «وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا».

وتناولت آخر آية- من الآيات مورد البحث- سبب حماية اللّه المطلقة للمؤمنين ودفاعه عنهم، وإهلاكه الكافرين الطغاة، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ». «المولى»: بمعنى الولى والناصر، وبذلك فإنّ اللّه سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين ونصرتهم، أمّا الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته، ومن الواضح أنّه تعالى يعين اولئك المستظلين بظل ولايته، ويدفع عنهم النوائب، ويزيل عن طريقهم العراقيل، ويثبّت أقدامهم، وأخيراً فإنّهم ينالون مرادهم بنصرة اللّه ومعونته، أمّا اولئك الخارجون عن ولايته فإنّ أعمالهم ستحبط، وتكون عاقبتهم الهلاك.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (۱۲) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (۱۴) عاقبة المؤمنين والكافرين: لمّا كانت الآيات السابقة تتحدث عن الصراع الدائم بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن عاقبة المؤمنين والكفار من خلال مقارنة واضحة، وهى بذلك تريد أن توضح أنّ هذين الفريقين لا يختلفان فى الحياة الدنيا وحسب، بل إنّ الاختلاف بينهما سيكون أوسع فى الآخرة، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ».

صحيح أنّ كلا الفريقين يعيشون فى الدنيا، ويتنعّمون بمواهبها ولذّاتها، إلّاأنّ الفرق يكمن فى أنّ هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، والأعمال المفيدة البنّاءة لجلب رضى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۴

اللّه تعالى، أمّا الكافرون فإنّ هدفهم ينصب على الأكل والشرب والنوم والتمتع بلذات الحياة. ومن أجل إكمال هذا الهدف تقارن الآية التالية بين مشركى مكة وعبدة الأوثان الماضين، وبعبارة أوضح، فإنّها تهدّدهم تهديداً شديداً، وتؤكّد ضمنياً على بعض جرائمهم الشنيعة التى تدلّ على جواز قتالهم فتقول: «وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ».

فلا يظنّ هؤلاء أنّ الدنيا مستوسقة لهم إلى درجة أنّهم اجترؤوا على إخراج أشرف رسل اللّه من أقدس المدن، فإنّ الأمر لا يدوم كذلك، فهم بالقياس إلى قوم عاد وثمود والفراعنة وجيش أبرهة موجودات ضعيفة عاجزة، واللّه قادر على تدميرهم بكل سهولة، والقضاء عليهم يسير على اللّه سبحانه.

وتطرح آخر الآيات- مورد البحث- مقارنة اخرى بين المؤمنين والكفار، بين فئتين تختلفان فى كل شىء، فإحداهما مؤمنة تعمل الصالحات، وتحيا الاخرى حياة حيوانية بكل معنى الكلمة .. بين فريقين، أحدهما مستظل بظل ولاية اللّه سبحانه، والآخر لا مولى له ولا ناصر، فتقول: «أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم».

إنّ الفريق الأوّل قد اختاروا طريقهم عن معرفة صحيحة، ورؤية واقعية، وعن يقين ودليل وبرهان قطعى؛ أمّا الفريق الثانى فقد ابتلوا بسوء التشخيص، وعدم إدراك الواقع، وظلمة المسير والهدف، فهم فى ظلمات الأوهام حائرون، والعامل الأساس فى هذه الحيرة والضلالة هو اتّباع الهوى والشهوات.

ومن الواضح أنّ الاستفهام فى جملة: «أَفَمَن كَانَ ...» استفهام إنكارى، أى إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبداً.

«البينة»: تعنى الدليل الواضح الجلى، وهى هنا إشارة إلى القرآن، ومعاجز الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، والدلائل العقلية الاخرى.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَ سُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (۱۵)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۵

وصف آخر للجنة: إنّ هذه الآية وصف لمصير كل من المؤمنين والكافرين، فالفئة الاولى الذين يعملون الصالحات، والثانية زيّن لهم سوء أعمالهم.

وقد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، وعن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، وهى تحدد عاقبة كلا الفريقين وتوضحها.

تتحدث الآية عن أربعة أنهار فى الجنة، لكل منها سائله ومحتواه الخاص، ثم تتحدث عن فواكه الجنة، وأخيراً عن بعض المواهب المعنوية. تقول الآية أوّلًا: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ».

ثم تضيف: «وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» وذلك أنّ الجنة مكان لا يعتريه الفساد، ولا تتغير أطعمة الجنة بمرور الزمن، وإنّما تتغيّر الأطعمة فى هذه الحياة الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التى تفسد المواد الغذائية بسرعة.

ثم تطرّقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنة، فقالت: «وَأَنْهَارٌ مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ».

لا يخفى أنّ خمر الجنة وشرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملوّث مطلقاً، بل هو كما يصفه القرآن فى الآية (۴۷) من سورة الصافات: «لَافِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ»، وليس فيه إلّا العقل والنشاط واللذة الروحية.

وأخيراً تبيّن الآية رابع أنهار الجنة بأنّه: «وَأَنْهَارٌ مّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى».

وعلاوة على هذه الأنهار المختلفة التى خلق كل منها لغرض، فقد تحدثت الآية عن فواكه الجنة فى الموهبة الخامسة، فقالت الآية: «وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلّ الثَّمَرَاتِ».

وأخيراً تتحدث عن الموهبة السادسة التى تختلف عن المواهب المادية السابقة، إذ إنّ هذه الهبة معنوية روحية، فتقول: «وَمَغْفِرَةٌ مّن رَّبّهِمْ».

ولنرَ الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أى الكفار؟

تقول الآية متابعة لحديثها: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ».

جملة «سُقُوا» بصيغة الفعل المبنى للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوة، لا بإرادتهم، وبدل الإرتواء فى تلك النار المحرقة فإنّه يقطّع أمعاءهم، وكما هى طبيعة الجحيم، فإنّهم يرجعون إلى حالتهم الاولى، حيث لا موت هناك.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۶

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَا ذَا قَالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (۱۶) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ (۱۹) تعكس هذه الآيات صورة عن وضع المنافقين، وطريق تعاملهم مع الوحى الإلهى، وكلمات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ومسألة قتال أعداء الإسلام ومحاربتهم.

تقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا».

وكان مرادهم من ذلك الرجل هو النبى صلى الله عليه و آله.

إنّ تعبير هؤلاء في شأن النبي وكلماته البليغة، كان من القبح والبذاءة إلى درجة تدل على أنّهم لم يؤمنوا بالوحي السماوي قط.

«آنفاً»: من مادة «أنف»، ولمّا كان للأنف بروزاً متميّزاً في وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمة تستعمل في شأن أشراف القوم، وكذلك تستعمل في مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء في الآية مورد البحث.

إلّا أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جواباً قاطعاً، فقال: إنّ كلام النبي صلى الله عليه و آله لم يكن غامضاً ولا معقّداً، بل «أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

ويقف المؤمنون الحقيقيون في الطرف المقابل لهؤلاء، وعنهم تتحدث الآية التالية فتقول:

«وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوِيهُمْ».

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوة الاولى بأنفسهم، واستخدموا عقلهم وفطرتهم في هذا المسير، ثم أخذ اللَّه سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم.

وتحذّر الآية التالية اولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: «فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرِيهُمْ».

إنّ هؤلاء لم يذعنوا للحق حيث كان الإيمان واجباً عليهم، ومفيداً لهم، بل كانوا في طغيانهم يعمهون، وبآيات اللَّه يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبة وبداية القيامة تهزّ العالم وتزلزله، يصيبهم الفزع ويظهرون خضوعهم ويؤمنون، ولا ينفعهم يومئذ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۷

إيمانهم وخضوعهم.

«الأشراط»: جمع «شَرَط»، وهي العلامة، وعلى هذا فإنّ (أشراط الساعة) إشارة إلى علامات اقتراب القيامة.

وتقول آخر آية من هذه الآيات وكاستخلاص لنتيجة البحوث التي وردت في الآيات السابقة حول الإيمان والكفر، ومصير المؤمنين والكفار: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». أي:

اثبت على خط التوحيد، فإنّه الدواء الشافي، واعلم أنّ أفضل وسيلة للنجاة هو التوحيد الذي بيّنت الآيات السالفة آثاره.

وبعد هذه المسألة العقائدية، تعود الآية إلى مسألة التقوى والعفة عن المعصية، فتقول:

«وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ».

لا يخفى أنّ النبي صلى الله عليه و آله لم يرتكب ذنباً قط بحكم مقام العصمة، وأمثال هذه التعابير إشارة إلى ترك الاولى، فإنّ حسنات الأبرار سيّئات المقربين، أو إلى أنّه قدوة للمسلمين.

ويقول سبحانه في ذيل الآية، وكتبيان للعلة: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَيكُمْ».

فهو يعلم ظاهركم وباطنكم، كتمانكم وعلانيتكم، سرّكم ونجواكم، بل ويعلم حتى نيّاتكم، وما توسوس به أنفسكم، ويخطر على أذهانكم، وما يجري في ضمائركم، ويعلم حركاتكم وسكناتكم، ولهذا وجب عليكم التوجّه إليه ورفع الأكف بين يديه وطلب العفو والمغفرة والرحمة منه.

«المتقلّب»: هو المكان الذي يكثر التردّد عليه؛ و «المثوى»: هو محل الإستقرار.

إنّ لهاتين الكلمتين معنى واسعاً يشمل كل حركات ابن آدم وسكناته، سواء التي في الدنيا أم في الآخرة.

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (۲۰) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (۲۲) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (۲۳) أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (۲۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۸

يخافون حتى من اسم الجهاد: تبيّن هـذه الآيات المواقف المختلفـة للمؤمنين والمنافقين تجاه الأمر بالجهاد، تكملة للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول هذين الفريقين.

تقول الآية الاولى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ».

سورة يكون فيها أمر بالجهاد، يوضح واجبنا تجاه الأعداء القساة.

وأمّا المنافقون: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

إنّ ميـدان الجهـاد بالنسبـة إلى المـؤمنين ميـدان إظهـار عشـقهم لمحبوبهم، ميـدان تفجّر الإسـتعدادت والقابليـات، وهو ميـدان الثبـات والمقاومـة والإنتصـار، ولاـ معنى للخوف فى مثل هـذا الميـدان. إلّاأنّه بالنسبـة إلى المنافقين ميـدان موت وفناء وتعاسـة، ميـدان هزيمة ومفارقة لذائذ الدنيا، وهو أخيراً ميدان مظلم يعقبه مستقبل مرعب غامض.

فإنّ الآية تضيف فى النهاية فتقول: «فَأَوْلَى لَهُمْ».

إنّ جملة أعلاه تعبّر فى الأدب العربى عن التهديد واللعنة، وتمنّى التعاسة والفناء للآخر.

وتضيف الآية التالية: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ».

ثم تضـيف: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ». وسـيرفع رؤوسـهم فى الدنيا، ويمنحهم العزّة والفخر، ويؤدّى إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، والأجر الكبير، والفوز العظيم فى الآخرة.

وجملة «عَزَمَ الْأَمْرُ» تشير فى الأساس إلى استحكام العمل، إلّاأنّ المراد منها هنا الجهاد، بقرينة الآيات التى سبقتها والتى تليها.

وتضيف الآية التالية: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ». لأنّكم إن أعرضتم عن القرآن والتوحيد، فإنّكم سترجعون إلى جـاهليّتكم حتمـاً، ولم يكن فى الجاهليـة إلّاالفسـاد فى الأـرض، والإغارة والقتل وسـفك الـدماء، وقطيعـة الرحم، ووأد البنات.

وتوضـح الآيـة التاليـة المصـير النهـائى لهؤلاـء القوم المنـافقين المفسـدين المتـذرّعين بأوهى الحجـج فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ».

إنّ هؤلاـء يظنّون أنّ الجهـاد الإسـلامى القـائم على أسـاس الحق والعدالـة، قطيعـة للرحم، وفسـاداً فى الأـرض، أمّـا كـل الجرائم الـتى إرتكبوها فى الجاهلية، والدماء البريئة التى سفكوها

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۸۹

أيّام تسلطهم، والأطفال الأبرياء الـذين وأدوهم ودفنوهم وهم أحياء يسـتغيثون، كانت قائمـة على أساس الحق والعدل! لعنهم اللَّه إذ لا اذن واعية لهم، ولا عين ناظرة بصيرة.

وتناول آخر آية من هذه الآيات ذكر العلة الحقيقية لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا».

ولهـذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، ويكون فى صـميمها لا على هامشـها، وعليهم أن يجعلوه قدوتهم وأسوتهم، وأن ينفذوا كل أوامره، وأن يجعلوا خطوط حياتهم وطبيعتها منسجمة معه.

لكن، أنّ الاسـتفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهـذيب النفس وجهادها، وإن كان القرآن بنفسه معيناً فى تهـذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت مقفلة بأقفال الهوى والشهوة، والكبر والغرور، واللجاجة والتعصّب، فسوف لا يلجها نور الحق.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَى لَهُمْ (۲۵) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (۲۷) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (۲۸) أفلا يتـدبّرون القرآن: تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين ومواقفهم

المختلفة، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ».

«سوّل»: من مادة «سُؤل»، وهى الحاجة التى يحرص عليها الإنسان؛ و «التسويل»: بمعنى الترغيب والتشويق إلى الامور التى يحرص عليها، ونسبته إلى الشيطان بسبب الوساوس التى يلقيها فى نفس الإنسان، وتمنع من هدايته؛ و «أملى : من مادة «إملاء»، وهو زرع طول الأمل فيهم، والآمال البعيدة المدى، والتى تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق والهدى.

وتشرح الآية التالية علّة هذا التسويل والتزيين الشيطانى، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ». وهذا دأب المنافقين فى البحث عن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۰

العصاة والمخالفين، وإذا لم يكونوا مشتركين ومتفقين معهم فى كل المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل ويطيعونهم إذا اقتضى الأمر. بل قد اتجه منافقو المدينة نحو يهود المدينة- وهم «بنو النضير» و «بنو قريظة» الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثة النبى صلى الله عليه و آله، أمّا بعد ظهوره ومبعثه، وتعرّض مصالحهم للخطر، ولحسدهم وكبرهم، فإنّهم اعتبروا الإسلام ديناً باطلًا، وغير سليم- ولمّا كان هناك قدر مشترك بين المنافقين واليهود فى مخالفتهم النبى صلى الله عليه و آله، وتآمرهم ضد الإسلام، فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام والمسلمين.

وربّما كان جملة «فِى بَعْضِ الْأَمْرِ» إشارة إلى أنّنا نتعاون معكم فى هذا الجزء فقط، فإنّكم تخالفون عبادة الأصنام، وتعتقدون بالبعث والقيامة، ونحن لا نتفق معكم فى هذه الامور.

وتهدد الآيات هؤلاء فى نهايتها فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ». فهو عليم بكفرهم الباطن ونفاقهم، وبتآمرهم مع اليهود، وسيعاقبهم ويجازيهم فى الوقت المناسب.

و الآية التالية بمثابة توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

وهم يضربون وجوههم لأنها اتجهت نحو أعداء اللَّه، ويضربون أدبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات اللَّه ونبيّه.

وتناولت آخر آية من هذه الآيات بيان علّة هذا العذاب الإلهى وهم على إعتاب الموت، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

لأنّ رضى اللَّه سبحانه هو شرط قبول الأعمال وكل سعى وجهد.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (۳۱) يعرف المنافقون من لحن قولهم:

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر فى صفات المنافقين وعلاماتهم، وتؤكّد بالخصوص على أنّهم يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم وصورتهم الحقيقية عن النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين دائماً، وأن ينقذوا أنفسهم بذلك من الفضيحة

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۱

الكبرى، فتقول أوّلًا: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ».

«الأضغان»: جمع «ضِغْن»، وهو الحقد الشديد.

إنّ الآية التالية تضيف: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ». فنجعل فى وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتهم، وتراهم رأى العين فتنظر واقعهم عندما تنظر ظاهرهم.

ثم تضيف: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ». فيمكنك فى الحال أن تعرفهم من خلال نمط كلامهم. أى: يمكن معرفة المنافقين مرضى القلوب من خلال الكناية فى كلامهم، وتعبيراتهم المؤذية التى تنطوى على النفاق.

فى تفسير مجمع البيان عن أبى سعيد الخدرى قال: لحن القول بغضهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام. قال: وكنّا نعرف المنافقين على

عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله ببغضهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام «۱».

لقد كانت إحدى العلامات البارزة للمنافقين أنّهم كانوا يعادون أوّل من آمن من الرجال، وأوّل مضحٍ فى سبيل الإسلام، ويبغضونه.

واليوم أيضاً لا تصعب معرفة المنافقين من لحن قولهم ومواقفهم المضادة فى المسائل الاجتماعية المهمّة، وخاصة عند الإضطرابات أو الحروب، ويمكن التعرف عليهم بأدنى دقّة فى أقوالهم وأفعالهم.

وأخيراً تضيف الآية: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعمَـالَكُمْ». فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها وما بطن، ويعلم أعمال المنافقين، وإذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقى عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن اللّه الذى هو معهم فى سرّهم وعلانيهم، وخلوتهم واجتماعهم؟

وتضيف الآية التالية مؤكّدة وموضحة طرقاً اخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين:

«وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ». الحقيقيين من المتظاهرين بالجهاد والصبر.

---

(۱) مجمع البيان ۹/ ۱۷۶. ثم إنّ جماعة من كبار العامّة نقلوا مضمون هذا الحديث فى كتبهم؛ ومن جملتهم: أحمد بن حنبل فى كتاب فضائل الصحابة، وابن عبد البر فى الإستيعاب، والذهبى فى تاريخ أوّل الإسلام، وابن الأثير فى جامع الاصول، والعلّامة الگنجى فى كفاية الطالب، والسيوطى فى الدرّ المنثور، والآلوسى فى روح المعانى، وأورده جماعة آخرون فى كتبهم؛ وهو يبيّن أنّها إحدى الروايات المسلّمة عن الرسول الأعظم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۲

وتقول الآية الأخيرة: «وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ».

وبهذا فإنّ اللّه سبحانه يختبر أعمال البشر، كما يختبر أقوالهم وأخبارهم. فليست هذه المرة الاولى التى يخبر اللّه سبحانه الناس فيها بأنّى أبلوكم لتمييز صفوفكم، وليعرف المؤمنون الحقيقيون وضعفاء الإيمان والمنافقون، وقد ذكرت مسألة الإمتحان والإبتلاء هذه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهى فى ذيل الآية (۱۵۵) من سورة البقرة، وكذلك وردت فى بداية سورة العنكبوت.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (۳۲) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (۳۳) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (۳۴) بعد البحوث المختلفة التى دارت حول المنافقين فى الآيات السابقة، تبحث هذه الآيات وضع جماعة اخرى من الكفار، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ». حتى وإن عملوا خيراً، لأنّه لم يكن مقترناً بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركى مكة، أو الكفار من يهود المدينة، أو كليهما.

أمّا «تبيّن الهدى»، فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبة إلى مشركى مكة، وعن طريق الكتب السماوية بالنسبة إلى أهل الكتاب.

و «إحباط أعمالهم» إمّا أن يكون إشارة إلى أعمال الخير التى قد يقومون بها أحياناً كإقراء الضيف، والإنفاق، ومعونة ابن السبيل، أو أن يكون إشارة إلى عدم تأثير خطط هؤلاء ومؤامراتهم ضد الإسلام.

وبعد أن تبيّن حال المنافقين، والخطوط العامة لأوضاعهم، وجهت الآية التالية الخطاب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۳

إلى المؤمنين مبيّنة خططهم وحالهم، فقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ».

فإنّ اسلوب الآية يوحى بأنّ من بين المؤمنين أفراداً كانوا قد قصروا فى طاعة اللّه ورسوله وفى حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل،

ولذلک فإنّ اللّه سبحانه یحذّرهم فی هذه الآیة.

وجاءت الآیة الأخیرة من هذه الآیات موضحة ومؤکّدة لما مرّ فی الآیات السابقة حول الکفار، وتهدی إلی الصراط المستقیم من یرید التوبة إلی طریق الرجوع، فتقول: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ کُفَّارٌ فَلَن یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». لأنّ أبواب التوبة ستغلق بنزول الموت، ویحمل هؤلاء أوزارهم وأوزار الذین یضلّونهم، فکیف یغفر اللّه لهم.

فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَکُمْ وَ لَنْ یَتِرَکُمْ أَعْمَالَکُمْ (۳۵) الصلح المذل: متابعة للآیات السابقة التی کانت تتحدث حول مسألة الجهاد، تشیر هذه الآیة إلی أحد الامور الهامة فی مسألة الجهاد، وهو أنّ ضعفاء الإیمان یطرحون غالباً مسألة الصلح للفرار من مسؤولیة الجهاد، ومصاعب میدان الحرب. ولذلک تقول الآیة الشریفة:

الآن وقد سمعتم الأوامر الإلهیة فی الجهاد «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ».

أی: الآن وقد لاحت علائم انتصارکم وتفوّقکم، کیف تذلّون أنفسکم وترضون بالمهانة باقتراح الصلح الذی لا یعنی إلّاالتراجع والهزیمة؟ فلیس هذا صلحاً فی الواقع، بل هو استسلام وخضوع ینبع من الضعف والإنهیار، وهو نوع من طلب الراحة والعافیة، ویقبح بکم أن تتحملوا عواقبه الألیمة الخطرة.

ومن أجل رفع معنویات المسلمین المجاهدین تضیف الآیة: «وَاللَّهُ مَعَکُمْ وَلَن یَتِرَکُمْ أَعمَالَکُمْ». «یترکم»: من مادة «الوتر»، وهو المنفرد، ولذلک یقال لمن قتل قریبه، وبقی وحیداً: وِتر. وجاء أیضاً بمعنی النقصان؛ وفی الآیة- مورد البحث- کنایة جمیلة عن هذا المطلب، بأنّ اللّه سبحانه لن یترککم وحدکم، بل سیقرنکم بثواب أعمالکم، خاصّةً وأنّکم تعلمون أنّکم لن تخطوا خطوةً إلّاکتبت لکم، فلم یکن اللّه لینقص من أجرکم شیئاً، بل سیضاعفه ویزید علیه من فضله وکرمه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۴

إِنَّمَا الْحَیَاةُ الدُّنْیَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا یُؤْتِکُمْ أُجُورَکُمْ وَ لَا یَسْأَلْکُمْ أَمْوَالَکُمْ (۳۶) إِنْ یَسْأَلْکُمُوهَا فَیُحْفِکُمْ تَبْخَلُوا وَ یُخْرِجْ أَضْغَانَکُمْ (۳۷) هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَمِنْکُمْ مَنْ یَبْخَلُ وَ مَنْ یَبْخَلْ فَإِنَّمَا یَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِیُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ ثُمَّ لَا یَکُونُوا أَمْثَالَکُمْ (۳۸) قلنا: إنّ سورة محمّد هی سورة الجهاد، فبأمر الجهاد بدأت، وبه تنتهی، والآیات مورد البحث- وهی آخر آیات هذه السورة- تتناول مسألة اخری من مسائل حیاة البشر فی هذا المیدان، فتطرح کون الحیاة الدنیا لا قیمة لها لزیادة ترغیب المسلمین ودعوتهم إلی طاعة اللّه سبحانه عموماً، وإلی أمر الجهاد بالخصوص، لأنّ حبّ الدنیا والإنشداد إلیها أحد العوامل المهمّة التی تعیق المسلمین عن الجهاد، فتقول: «إِنَّمَا الْحَیَوٰةُ الدُّنْیَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ».

«اللعب»: یقال للأعمال التی تتصف بنوع من الخیال للوصول إلی هدف خیالی؛ و «اللهو»: یقال لکل عمل یشتغل الإنسان به فیصرفه عن المسائل الأساسیة.

والحق أنّ الدنیا لعب ولهو لیس إلّا، فلا یحصل منها أنس وارتیاح، ولیس لها دوام وبقاء، وإنّما هی لحظات کلمح البصر، ولذات زائلة تحفّها الآلام والمتاعب.

ثم تضیف الآیة: «وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا یُؤْتِکُمْ أُجُورَکُمْ وَلَا یَسْئَلْکُمْ أَمْوَالَکُمْ». فلا اللّه یسألکم أجراً مقابل الهدایة والرشاد وکل تلک الهبات العظیمة فی الدنیا والآخرة، ولا رسوله، فإنّ اللّه تعالی غنی عن العالمین، ولا یحتاج رسوله إلی غیر اللّه.

وإذا کان الشیء الزهید من أموالکم یؤخذ کزکاة وخمس وحقوق شرعیة اخری، فإنّه یعود علیکم ویصرف فیکم، لحمایة یتاماکم ومساکینکم وضعفائکم وأبناء السبیل منکم، وللدفاع عن أمن بلادکم واستقلالها، ولاستقرار النظام والأمن، ولتأمین احتیاجاتکم، وعمران دیارکم.

بناءً علی هذا، فحتی هذا المقدار الیسیر هو من أجلکم ومنفعتکم، فإنّ اللّه ورسوله فی غنی عنکم، وبذلک فلا منافاة بین مفهوم هذه الآیة وآیات الزکاة والإنفاق وأمثالها.

ولتبيان تعلق أغلب الناس بأموالهم وثرواتهم الشخصية تضيف الآية التالية: «إِن

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۵

يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ».

«يحفكم»: من مادة «إحفاء»، أى: الإصرار والإلحاح فى المطالبة والسؤال، وهى فى الأصل من حفأ، وهو المشى حافياً، وهذا التعبير كناية عن الأعمال التى يتابعها الإنسان إلى أبعد الحدود؛ و «الأضغان» جمع ضغن، وهو بمعنى الحقد الشديد.

وبذلك فإنّ الآية تريد أن توقظ أرواح البشر الغاطّة فى نومها العميق بسوط التقريع والملامة والعتاب، ليرفعوا عن أعناقهم قيود الذل والعبودية للأموال، ويصبحوا فى حال يضحّون عندها بكل ما لديهم فى سبيل اللَّه، ويقدّمون ما عندهم بين يديه، ولا يرجون فى مقابل ما يعطون إلّاالإيمان به وتقواه ورضاه عنهم.

والآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث، وهى آخر آية من سورة محمّد- تأكيد آخر على ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل المادية وتعلّق الناس بها، ومسألة الإنفاق فى سبيل اللَّه، فتقول: «هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ».

وهنا يأتى سؤال، وهو: إنّ الآيات السابقة قد ذكرت أنّ اللَّه لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآية بالإنفاق فى سبيل اللَّه؟

غير أنّ تتمة الآية تجيب عن هذا السؤال عن طريقين، فتقول أوّلًا: «وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ». لأنّ ثمرة الإنفاق تعود عليكم أنفسكم فى الدنيا والآخرة، حيث يقلّ التفاوت الطبقى، وعندها سيعم الأمن والهدوء فى المجتمع، وتحل المحبة والصفاء محل العداوة والحقد، هذا ثوابكم الدنيوى.

وأمّا فى الآخرة، فستمنحون مقابل كل درهم أو دينار تنفقونه الهبات والنعم العظيمة التى لم تخطر على قلب بشر، وعلى هذا فإنّ من يبخل يبخل عن نفسه. وبتعبير آخر: فإنّ الإنفاق هنا يعنى أكثر ما يعنى الإنفاق فى أمر الجهاد، والتعبير ب «فِى سَبِيلِ اللَّهِ» يلائم هذا المعنى أيضاً، ومن الواضح أنّ أى نوع من المساهمة فى تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع واستقلاله وشرفه.

والجواب الآخر هو: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ» فهو غنى عن إنفاقكم فى سبيله، وغنى عن طاعتكم، وإنّما أنتم الفقراء إلى لطفه ورحمته وثوابه وكرمه فى الدنيا والآخرة.

وتحذر الجملة الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، والموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماة دينه القويم وأنصار دينه وأتباع رسوله وأصحابه،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۶

فحذار أن تقصّروا فى تعظيم هذه النعمة وإكبارها، إذ: «وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم».

وقد جاء نظير هذا التهديد فى الآية (۵۴) من سورة المائدة، حيث تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وفى تفسير مجمع البيان: روى أبوهريرة أنّ ناساً من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قالوا: يا رسول اللَّه! من هؤلاء الذين ذكر اللَّه فى كتابه وكان سلمان إلى جنب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فضرب بيده على فخذ سلمان فقال: «هذا وقومه، والّذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «واللَّه أبدل بهم خيراً منهم الموالى».

«نهاية تفسير سورة محمّد»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۷

۴۸. سورة الفتح

محتوى السورة: هـذه السورة كما هو ظاهر من اسمها تحمل رسالـة الفتح والنصر؛ الفتح والنصر على أعداء الإسلام، الفتح المبين والأكيد «سواءً كان هذا الفتح متعلّقاً بفتح مكة أو بصلح الحديبية أو فتح خيبر أو كان هذا الفتح بشكل مطلق».

وفى تفسير مجمع البيان عن عبد اللّه بن مسعود قال: أقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله من الحديبية فجعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل اللّه عليه: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا». فأدركنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله وبه من السرور ما شاء اللّه، فأخبر أنّها نزلت عليه.

وبمراجعة إجمالية للسورة يمكن القول إنّها تتألف من سبعة أقسام:

۱- تبـدأ السورة بموضوع البشرى بالفتح كما أنّ آياتها الأخيرة لها علاقة بهذا الموضوع أيضاً، وفيها تأكيد على تحقق رؤيا النبى التى تدور حول دخوله وأصحابه مكة وأداء مناسك العمرة.

۲- يتحدث قسم آخر من هذه السورة عن الحوادث المتعلقة بصلح الحديبية ونزول السكينة على قلوب المؤمنين و «بيعة الرضوان» وما إلى ذلك.

۳- ويتحدث قسم ثالث منها عن مقام النبى صلى الله عليه و آله وهدفه الأسمى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۸

۴- ويكشـف القسم الرابع الستار عن غَـدر المنـافقين ونقضـهم العهـد ونكثهم له ويعطى أمثلـةً من أعـذارهم الواهيـة فى مسألـة عـدم مشاركتهم النبى جهاده المشركين والكفار.

۵- وفى قسم آخر يقع الكلام على طلبات «المنافقين» فى غير محلّها.

۶- والقسم السادس يوضح من هم المعذورون الذين لا حرج عليهم.

۷- وأخيراً يتحدث عن خصائص أصحاب النبى وأتباعه فى طريقته وسنّته وصفاتهم التى يتميّزون بها.

فضيلة تلاوة السورة: فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» فإنّه إذا كان ممّن يدمن قراءتها نادى مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق أنت من عبادى المخلصين، ألحقوه بالصالحين من عبادى وادخلوه جنات النعيم واسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور».

ومن الواضح أنّ الهدف الأصلى من تلاوة هذه السورة هو تطبيق أعمال القارئ وخلقه وطبعه على مفاد هذه السورة ومضامينها.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (۱) الفتح المبين: فى الآية الاولى من هذه السورة بشرى عظيمة للنبى صلى الله عليه و آله بشرى هى عند النبى طبقاً لبعض الرّوايات أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، إذ تقول الآية: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا».

وهو إشارة إلى ما كان من نصيب للمسلمين من الفتح الكبير على أثر «صلح الحديبية».

ومن الأفضـل وقبـل الولوج فى تفسير الآيات أن نعرض قصـة صـلح الحديبيـة ليتّضـح «المقام» وليكون هـذا العرض بمثابـة شأن نزول الآيات أيضاً.

قصـة صـلح الحديبيـة: فى السـنة السادسـة خرج رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله معتمراً فى ذى القعـدة لا- يريـد حرباً ومعه جماعـة من المهاجرين والأنصار ومن تبعه من الأعراب ألف وأربعمائـة وساق الهَدْىَ معه سبعين بَدَنهْ ليعلم الناس أنّه إنّما جاء زائراً للبيت فلما بلغ عُسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبى فقال: يا رسول اللّه هـذه قريش قد سمعوا بمسيرك فاجتمعوا بذى طوى يحلفون باللّه لا تدخلها عليهم أبداً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۴۹۹

إنّ النبى صلى الله عليه و آله قال للناس: «انزلوا». فقالوا: ما بالوادى ماء ينزل عليه. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلًا من أصحابه فنزل فى قليب من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش الماء بالرىّ حتى ضرب الناس بعطن ..

وبدأ التزاور بين سفراء النبى صلى الله عليه و آله وممثليه وسفراء قريش وممثليها لتحلّ المشكلة على أى نحو كان وأخيراً جاء عروة بن

مسعود الثقفى الذى كان رجلًا حازماً عند النبى فقال النبى:

«إنّا لم نأت لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين ...» فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أىّ قوم قد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشى فواللَّه ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمّد محمّداً، وحدّثهم ما رأى وما قال النبى صلى الله عليه و آله ...

فدعا رسول اللَّه عمر ليرسله إلى مكة، فقال: ليس بمكة من بنى عدى من يمنعنى وقد علمت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها وأخافها على نفسى فأرسل عثمان فهو أعزّ بها منى فدعا عثمان فأرسله ليبلغ عنه فانطلق فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره فأتى أبا سفيان، وعظماء قريش فبلغهم عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا لعثمان حين فرغ من أداء الرسالة: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف به فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به النبى صلى الله عليه و آله فاحتبسته قريش عندها فبلغ النبى صلى الله عليه و آله أنّه قد قتل. فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ثم دعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة .. ثم أتى الخبر أنّ عثمان لم يقتل.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى النبى صلى الله عليه و آله ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك، فأقبل سهيل بن عمرو إلى النبى صلى الله عليه و آله وأطال معه الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهم الصلح، فدعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علىّ بن أبى طالب فقال: «اكتب بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم». فقال سهيل: لا نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فكتبها، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول اللَّه سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو نعلم أنّك رسول اللَّه لم نقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال لعلى: «امح رسول اللَّه». فقال: لا أمحوك أبداً. فأخذه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وليس يحسن أن يكتب فكتب موضع رسول اللَّه محمّد بن عبد اللَّه، وقال لعلى لتبلين بمثلها، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن الناس، وإنّه من أتى منهم رسول اللَّه بغير إذن وليّه رده إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول اللَّه لم يردّوه عليه ومن أحب أن يدخل فى عهد رسول اللَّه دخل ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش دخل، فدخلت خزاعة فى عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وأن يرجع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عنهم عامه ذلك فإذا كان

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۰

عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، وسلاح الراكب السيوف فى القِرَب لا تدخلها بغيرها ... فلما فرغ النبى صلى الله عليه و آله من قضيته قال: «قوموا فانحروا ثم احلقوا».

فما فتح فى الإسلام قبله فتح كان أعظم منه حيث أمن الناس كلهم بعضهم بعضاً فدخل فى الإسلام تينك السنتين مثل ما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.

وفى ذلك الحين نزلت سورة الفتح وأعطت للنبى الكريم بشرى كبرى بالفتح المبين «۱».

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (۲) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (۳) نتائج الفتح المبين الكبرى: فى هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركة من «الفتح المبين» (صلح الحديبية) والتى ورد ذكره فى الآية السابقة. فتقول الآيتان: «لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا* وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا».

وبهذا فإنّ اللَّه منح نبيّه الكريم فى ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمة هى:

«المغفرة»، و «إتمام النعمة»، و «الهداية» و «النصر».

الإجابة على سؤال مهم: تثار هنا سؤال وهو: ما المراد من العبارة الآنفة «لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ» مع أنّ النبى معصوم من الذنب؟

وللحصول على الإجابة «الجامعة» لهذه الإشكال لابدّ من ذكر مقدمة وهى:

إنّ المهم هو العثور على العلاقة الخفية بين فتح الحديبية ومغفرة الذنب! وبالتدقيق فى الحوادث التاريخية وما تمخّضت عنه نصل إلى هذه النتيجة، وهى أنّه حين يظهر أىّ مذهب حق ويبرز فى عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافية الذين يرون أنفسهم ووجودهم فى خطر يكيلون التهم والامور التافهة إليه ويشيعون الشائعات والأباطيل وينشرون الأراجيف الكاذبة بصدده. ولكن حين ينال الانتصار

وتحظى مناهجه وخططه بالموفقية فإنّ تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء، وتتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات وندامة ويقولون عندئذ لم نكن نعلم.

---

(۱) الكامل فى التّاريخ ۲/ ۸۶– ۹۰.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۱

وخاصّة فى شأن النبى محمّد صلى الله عليه و آله كانت هذه التصورات والذنوب التى وصموها به كثيرة، إذ عدّوه باغياً للحرب والقتال ومثيراً لنار الفتنة معتداً بنفسه لا يقبل التفاهم وما إلى ذلك.

وقد كشف صلح الحديبية أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهباً «تقدّمياً» إلهيّاً ..

فهو يحترم كعبة اللَّه وبيته العتيق ولا يهاجم أية جماعة أو قبيلة دون سبب، ويدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم «اللَّه» وإذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعية للسلام والصلح والدعة ...

وعلى هذا فقد غسل صلح الحديبية جميع الذنوب التى كانت قبل الهجرة وبعد الهجرة قد نسبت إلى النبى صلى الله عليه و آله أو جميع الذنوب التى نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه فى المستقبل احتمالًا ... وحيث إنّ اللَّه جعل هذا الفتح نصيب النبى فيمكن أن يقال أنّ اللَّه غفر للنبى ذنوبه جميعاً.

والنتيجة أنّ هذه الذنوب لم تكون ذنوباً حقيقية أو واقعية بل كانت ذنوباً تصورية وفى أفكار الناس وظنّهم فحسب، وكما نقرأ فى الآية (۱۴) من سورة الشعراء فى قصة موسى قوله مخاطباً ربّه: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ». فى حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصرة المظلوم من بنى إسرائيل وسحق ظلم الفراعنة لا غير.

وبديهى أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنباً، بل دفاع عن المظلومين ولكنّه كان يعدّ ذنباً فى نظر الفراعنة وأتباعهم.

وبتعبير آخر: أنّ «الذنب» فى اللغة يعنى الآثار السيّئة والتبعات التى تنتج عن العمل غير المطلوب، فكان ظهور الإسلام فى البداية تدميراً لحياة المشركين، غير أنّ إنتصاراته المتلاحقة والمتتابعة كانت سبباً لنسيان تلك التبعات.

وهكذا بالنسبة لمشركى مكة سواءً قبل هجرة النبى أم بعدها إذ كانت أفكارهم وأذهانهم مبلبلة عن الإسلام وشخص النبى بالذات، غير أنّ إنتصارات الإسلام أزالت هذه التصورات والأفكار.

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۲

نزول السكينة على قلوب المؤمنين: ما قرأناه فى الآيات السابقة هو ما أعطاه اللَّه من مواهب عظيمة لنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالفتح المبين «صلح الحديبية»، أمّا فى الآية أعلاه فالكلام عن الموهبة العظيمة التى تلطف اللَّه بها على جميع المؤمنين، إذ تقول الآية: «هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ».

ولم لا تنزل السكينة والاطمئنان على قلوب المؤمنين: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

«السكينة»: فى الأصل مشتقة من «السكون»، ومعناها الاطمئنان والدعة وما يزيل كل أنواع الشك والتردّد والوحشة من الإنسان ويجعله ثابت القدم فى طوفان الحوادث.

وهذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدى فيزيل ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملى بحيث يهب الإنسان ثبات القدم والمقاومة والاستقامة والصبر.

وتعبيرات الآية نفسها تتناسب مع استعمال السكينة فى معناها الأوّل أكثر.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (۵) وَ

يُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (۶) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۷) نتيجة اخرى من الفتح المبين: فى روح المعانى عن أنس قال: أنزلت على النبى صلى الله عليه و آله ليغفر لك اللّه من ذنبك وما تأخر فى مرجعه من الحديبية فقال: «لقد أنزلت على آية هى أحبّ إلىّ ممّا على الأرض». ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول اللّه قد بين اللّه تعالى لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت «لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» حتى بلغ «فَوْزًا عَظِيمًا».

إنّ هذه الآيات تتحدث عن علاقة صلح الحديبية وآثاره وردّ الفعل المختلف فى أفكار الناس ونتائجه المثمرة، وكذلك عاقبة كل من الفريقين اللذين امتحنا فى هذه «البوتقة» والمختبر. فتقول الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث: «لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۳

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». فلا تُسلب هذه النعمة الكبرى عنهم أبداً ..

وإضافة إلى ذلك فإنّ اللّه يعفو عنهم «وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا».

وبهذا فإنّ اللّه قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيّه فى فتحه المبين من المواهب الأربعة موهبتين عظيمتين هما: «الجنة خالدين فيها» و «التكفير عن سيّئاتهم» بالإضافة إلى إنزال السكينة على قلوبهم ومجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزاً عظيماً لأولئك الذين خرجوا من الإمتحان بنجاح وسلامة.

غير أنّ إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين والمشركين الذين تتحدث الآية التالية عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

أجل، لقد ظنّ المنافقون حين تحرّك النبى صلى الله عليه و آله ومعه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين.

ثم يفصّل القرآن ببيان عذاب هؤلاء وعقابهم ويجعله تحت عناوين أربعة فيقول أوّلًا:

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ». «الدائرة»: فى اللغة هى الحوادث وما ينجم عنها أو ما يتّفق للإنسان فى حياته، فهى أعم من أن تكون حسنةً أو سيّئة غير أنها هنا بقرينة كلمة «السوء» يراد منها الحوادث غير المطلوبة.

وثانياً: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

وثالثاً: «وَلَعَنَهُمْ».

ورابعاً: فإنّه بالمرصاد «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة اخرى إلى عظمة قدرة اللّه فتقول الآية:

«وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

وممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف اللّه بالعلم والحكمة، وهما يناسبان مقام الرحمة، ولكنّه حين يذكر المنافقين والمشركين يصف اللّه بالعزة والحكمة، وهما يناسبان العذاب.

ما المراد من جنود السماوات والأرض: هذا التعبير له معنى واسع حيث يشمل الملائكة «وهى من جنود السماء» كما يشمل جنوداً اخر كالصواعق والزلازل والطوفانات والسيول والأمواج والقوى الغيبية غير المرئية التى لا نعرف عنها شيئاً .. لأنّ جميع هذه الأشياء هى جنود اللّه وهى مطيعة لأوامره.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۴

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۹) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۰) مكانة النبى وواجب الناس تجاهه: قلنا إنّ بعض الجهلاء اعترضوا بشدة على صلح الحديبية وحتى أنّ بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الإحترام

بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه و آله وكان مجموع هذه الامور يستوجب أن يؤكّد القرآن مرّةً اخرى على عظمة النبى صلى الله عليه و آله وجلالة قدره. لذلک فإنّ الآية الاولى من الآيات أعلاه تخاطب النبى فتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاکَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

«شاهداً» على جميع الامّة الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم.

وفى الآية التالية خمسة أوامر مهمة، هى بمثابة الهدف من سمات النبى المذكورة آنفاً:

وتشكل أمرين فى طاعة اللّه وتسبيحه وتقديره، وثلاثة أوامر منها فى «طاعة» رسوله و «الدفاع عنه» و «تعظيم مقامه». إذ تقول الآية: «لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

«تعزّروه»: من مادة «تعزير»، وهو فى الأصل يعنى «المنع» ثم توسّعوا فيه فأطلق على كل دفاع ونصرة وإعانة للشخص فى مقابل أعدائه كما يطلق على بعض العقوبات المانعة عن الذنب «التعزير» أيضاً؛ و «توقّروه»: مشتقة من مادة «توقير»، وجذورها «الوقر» ومعناها الثِقَل .. فيكون معنى التوقير هنا التعظيم والتكريم.

وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الضميرين فى «تعزّروه» و «توقّروه» يعودان على شخص النبى صلى الله عليه و آله والهدف من ذلک هو الدفاع عنه بوجه أعدائه وتعظيمه واحترامه.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة قصيرة إلى مسألة «بيعة الرضوان» وقد جاء التفصيل عنها فى الآية (۱۸) من السورة ذاتها.

إنّ القرآن يتحدث عن مبايعة المسلمين فى الآية محل البحث فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَکَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۵

و «البيعة»: معناها المعاهدة على اتّباع الشخص وطاعته، وكان المرسوم أو الشائع بين الناس أنّ الذى يعاهد الآخر ويبايعه يمد يده إليه ويظهر وفاءه ومعاهدته عن هذا الطريق لذلک الشخص أو لذلک «القائد» المبايَع.

وحيث أنّ الناس يمدّون أيديهم «بعضهم إلى بعض» عند البيع وما شاكله من المعاملات ويعقدون المعاملة بمد الأيدى و «المصافحة» فقد أطلقت كلمة «البيعة» على هذه العقود والعهود أيضاً. وخاصةً أنّهم عند «البيعة» كأنّما يقدّمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذى يظهرون وفاءهم له.

وعلى هذا يتّضح معنى «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» .. إذ إنّ هذا التعبير كناية عن أنّ بيعة النبى هى بيعة اللّه، فكأنّ اللّه قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النبى فحسب بل يبايعون اللّه، وأمثال هذه الكناية كثيرة فى اللغة العربية.

ثم يضيف القرآن الكريم قائلًا: «فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا».

«نكث»: مشتقة من «نكْث» ومعناها الفتح والبسط ثم استعملت فى نقض العهد.

والقرآن فى هذه الآية يُنذر جميع المبايعين للنبى صلى الله عليه و آله أنّ يثبتوا على عهدهم وبيعتهم فمن ثبت على العهد فسيؤتيه اللّه أجراً عظيماً ومن نكث فإنّما يعود ضرره عليه ولا ينال اللّه ضرره أبداً ..

سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذَلِکَ فِى قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۶

المخلفين: هذه الآيات تبيّن حالة المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّنت الآيات السابقة حال المنافقين والمشركين لتتمّ حلقات البحث ويرتبط بعضها ببعض. تقول هذه الآيات:

«سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ».

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى فى توبتهم.

فأبلغهم يا رسول و «قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا».

أجلْ «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وهو يعلم جيداً أنّ هذه الحيل والحجج الواهية لا صحة لها ولا واقعيّة ..

ومن أجل أن ينجلى الأمر ويتّضح الواقع أكثر يميط القرآن جيمع الأستار فيقول: «بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا».

أجلْ، إنّ السبب فى عدم مشاركتكم النبى وأصحابه فى هذا السفر التاريخى لم يكن هو كما زعمتم- انشغالكم بأموالكم وأهليكم- بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم باللّه، وكنتم تتصوّرون خطأً أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنّبى وأصحابه وينبغى الاجتناب عنه.

وما ذلك إلّاما وسوست به أنفسكم «وَزُيِّنَ ذلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ».

لأنّكم تخيّلتم أنّ اللّه أرسل نبيّه فى هذا السفر وأودعه فى قبضة أعدائه ولن يخلصه ويحميه عنهم، «وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا»- أى هالكين- فى نهاية الأمر.

وأى هلاك أشدّ وأسوأ من عدم مشاركتهم فى هذا السفر التاريخى وبيعة الرضوان وحرمانهم من المفاخر الاخر .. ثم الفضيحة الكبرى .. وبعد هذا كلّه ينتظرهم العذاب الشديد فى الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتم بمثل هذه العاقبة.

وحيث أنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح فى الآية التالية قائلًا:

«وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا». «السعير»: معناه اللهيب.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن ومن أجل أن يثبت قدرة اللّه على معاقبة الكفار والمنافقين: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۷

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (۱۷)

المخلّفون الانتهازيون: يعتقد أغلب المفسرين أنّ هذه الآيات ناظرة إلى «فتح خيبر» الذى كان فى بداية السنة السابعة للهجرة وبعد صلح الحديبية. وتوضيح ذلك أنّه طبقاً للروايات حين كان النبى صلى الله عليه و آله يعود من الحديبية بشّر المسلمين المشتركين بالحديبية- بأمر اللّه- بفتح خيبر، وصرّح أن يشترك فى هذه الحرب من كان فى الحديبية من المسلمين فحسب، وأنّ الغنائم لهم وحدهم ولن ينال المخلّفين منها شىء أبداً.

إلّا أنّ عبيد الدنيا الجبناء لما فهموا من القرائن أنّ النبى سينتصر فى المعركة المقبلة قطعاً- وأنّه ستقع غنائم كثيرة فى أيدى جنود الإسلام- أفادوا من الفرصة، فجاؤوا إلى النبى وطلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك فى حرب خيبر، وقد غفلوا عن نزول الآيات آنفاً وأنّها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك فى الآية الاولى من الآيات محل البحث-: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ».

إنّ القرآن الكريم يقول رداً على كلام هؤلاء الانتهازيين وطالبى الفرص: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللَّهِ». ثم يضيف قائلًا للنبى: «قُل لَّن تَتَّبِعُونَا».

وليس هذا هو كلامى بل «كَذلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ» وأخبرنا عن مستقبلكم أيضاً.

إنّ أمر اللَّه أن تكون غنائم خيبر خاصة بأهل الحديبية ولن يشاركهم فى ذلك أحد. لكن هؤلاء المخلّفين الصلفين استمروا فى تبجّحهم واتهموا النبى ومن معه بالحسد كما صرّح القرآن بذلك: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۸

وهكذا فإنّهم بهذا القول يكذّبون حتى النبى صلى الله عليه و آله ويعدّون أساس منعهم من الاشتراك فى معركة خيبر الحسد فحسب.

وفى ذيل الآية يصرّح القرآن عن حالهم فيقول: «بَلْ كَانُوا لَايَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

أجل إنّ أساس جميع شقائهم وسوء حظهم هو جهلهم وعدم فقاهتهم، فالجهل ملازم لهم أبداً، جهلهم باللَّه سبحانه وعدم معرفة مقام النبى صلى الله عليه و آله وجهلهم عن مصير الإنسان وعدم توجّههم إلى أنّ الثروة فى الدنيا لا قرار فيها، فهى زائلة لا محالة.

واستكمالًا لهذا البحث فإنّ الآية التالية تقترح على المخلّفين عن الحديبية اقتراحاً وتفتح عليهم باب العودة فتقول: «قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فينبغى أن تؤدّوا امتحان صدقكم فى الميادين الصعبة وأن تُسهموا فيها مرّةً اخرى، وإلّا فإنّ إجتناب الميادين الصعبة، والمساهمة فى الغنائم وميادين الراحة غير مقبول.

ومن هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم ب «أولى بأس شديد» فى الآية وأى جماعة هم؟!

نقول: جملة «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» تدلّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب، لأنّ أهل الكتاب لا يُجبرون على قبول الإسلام، بل يُخيّرون بين قبوله أو دفع الجزية والحياة مع المسلمين على شروط أهل الذمة.

وإنّما الذين لا يُقبل منهم إلّاالإسلام هم المشركون وعبدة الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعبادة الأصنام ديناً ويرى أنّه لابدّ من إجبار الناس على ترك عبادتها.

ومع الإلتفات إلى أنّه لم تقع معركة مهمة فى عصر النبى بعد حادثة الحديبية مع المشركين سوى فتح مكة وغزوة حنين، فيمكن أن تكون الآية المتقدمة إشارة إلى ذلك وخاصة غزوة حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و «بنى سعد».

الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تبيّن أعذارهم وخاصة أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعة من المعوّقين جاؤوا إلى النبى بعد نزول الآية وتهديدها للمخلّفين بقولها «يعذّبكم عذاباً أليماً»، فقالوا: يا رسول اللَّه، ما هى مسؤوليتنا فى هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: «لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ».

وليس الجهاد وحده مشروطاً بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهية هى سلسلة من

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۰۹

الشرائط العامة ومن ضمنها الطاقة والقدرة، وكثيراً ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى

وبالطبع فإنّ هذه الجماعة وإن كانت معذورة من الاشتراك فى ميادين الجهاد، إلّاأنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقوية قوى الإسلام وتقدّم الأهداف الإلهية.

ولعل الجملة الأخيرة فى الآية محل البحث تشير أيضاً إلى هذا المعنى فتقول: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارِ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا».

لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (۱۸) وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۹) رضى اللَّه عن المشتركين فى بيعة الرضوان: ذكرنا آنفاً أنّه فى الحديبية جرى حوار بين ممثلى قريش والنبى صلى الله عليه و آله وكان من ضمن السفراء عثمان بن عفان الذى تشدّه أواصر القربى بأبى سفيان، ولعل هذه العلاقة كان لها أثر فى انتخابه ممثلًا عن النبى صلى الله عليه و آله فأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنّما

جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته فاحتبسته قريش عندها. فبلغ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمسلمين أنّ عثمان قد قُتل. فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى الشجرة فاستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا «۱».

فبلغ صدى هذه البيعة مكة واضطربت قريش من ذلك بشدة واطلقوا عثمان.

وكما نعرف فإنّ هذه البيعة عرفت ببيعة الرضوان وقد أفزعت المشركين وكانت منعطفاً فى تاريخ الإسلام. فالآيتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصّة فتقول الاولى: «لَّقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

والهدف من هذه البيعة الإنسجام أكثر فأكثر بين القوى وتقوية المعنويات وتجديد التعبئة العسكرية ومعرفة الأفكار واختبار ميزان التضحية من قبل المخلصين الأوفياء.

فأعطى اللَّه هؤلاء المؤمنين المضحّين والمؤثرين على أنفسهم نفس رسول اللَّه فى هذه

---

(۱) تفسير مجمع البيان ۹/ ۱۹۴.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۰

اللحظة الحسّاسة والذين بايعوه تحت الشجرة أعطاهم أربعة أجور، ومن أهمّ تلك الأجور والاثابات الأجر العظيم وهو «رضوانه» كما عبّرت عنه الآية (۷۲) من سورة التوبة:

«وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» .. أيضاً. ثم تضيف الآية قائلة: «فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ».

سكينة واطمئناناً لا حدّ لهما، وهم بين سيل الأعداء فى نقطة بعيدة عن الأهل والديار والعدو مدجّج بالسلاح، فى حين أن المسلمين عُزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة».

وهذا هو الأجر الثانى والموهبة الإلهية الاخرى.

وفى ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثالث إذ تقول الآية: «وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا».

هذا الفتح هو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسرين.

والتعبير ب «قريباً» تأييد على أنّ المراد منه «فتح خيبر».

والأجر الرّابع أو النعمة الرابعة التى كانت على أثر بيعة الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هى: «وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا».

وحيث إنّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهى اطمئناناً كاملًا فإنّ الآية تضيف فى الختام: «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

فإذا ما أمركم فى الحديبية أن تصالحوا فإنّما هو على أساس من حكمته، حكمة كشف عن إسرارها الأستار مضى الزمن، وإذا ما وعدكم بالفتح القريب والغنائم الكثيرة فهو قادر على أن يُلبس وعده ثياب الإنجاز والتحقّق.

وهكذا فإنّ المسلمين المضحّين الأوفياء أولى الإيمان والإيثار اكتسبوا فى ظل بيعة الرضوان فى تلك اللحظات الحسّاسة انتصاراً فى الدنيا والآخرة، فى حين أنّ المنافقين الجهلة وضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات.

بحث

البيعة وخصوصيّاتها: «البيعة» من مادة «بيع» وهى فى الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثم أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهدة.

وتدلّ القرائن على أنّ البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هى سنّة متّبعة بين العرب قبل الإسلام، ولهذا السبب فإنّ طائفة من «الأوس» و «الخزرج» جاؤوا فى بداية الإسلام

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۱

خلال موسم الحج من المدينة إلى مكة وبايعوا النبى صلى الله عليه و آله فى العقبة، وكان تعاملهم فى قضية البيعة يوحى بأنّها أمر معروف، وبعدها وخلال فرص ومناسبات متعددة جدّد النبى البيعة مع المسلمين، وكانت إحداها هذه البيعة التى عرفت ببيعة الرضوان فى الحديبية، وأوسع منها البيعة التى كانت عند فتح مكة، وسيأتى شرحها فى تفسير «سورة الممتحنة» بإذن اللّه.

ولكن كيف تتم البيعة؟! .. بصورة عامة تتمّ البيعة كما يلى:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايَع ويبدى الطاعة والوفاء بلسان الحال أو المقال .. وربّما ذكر شروطاً أو حدوداً لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد والمرأة.

وكان النبى الكريم يقبل بيعة النساء أيضاً لكن لا على أن يمددن أيديهنّ إلى يده الكريمة بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده فى طرف منه وتدخل يدها فى طرف آخر.

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۱) من بركات صلح الحديبية مرّةً اخرى تتحدث هاتان الآيتان- كالآيات السابقة المتعلّقة بصلح الحديبية والوقائع التالية لها- عن البركات وما حصل عليه المسلمون من غنائم فى هذا الطريق.

فتقول الآية الاولى منهما: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ».

ويدلّ لحن الآية أنّ المراد من المغانم الكثيرة هنا جميع المغانم التى جعلها اللّه للمسلمين سواءً فى أمد قصير أم بعيد.

ثم يشير القرآن إلى لطف آخر من ألطاف اللّه على المسلمين- فى هذه الحادثة- فيقول:

«وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ».

وهذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قلة العَدد والعُدد وفى نقطة نائية عن الوطن وفى مقربة من العدو- فى مأمن منه وأن يلقى اللّه رعباً ووحشة منهم فى قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۲

ثم يضيف القرآن فى تكملة الآية مشيراً إلى نعمتين كُبريين اخريين من مواهب اللّه ونعمه إذ يقول: «وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا».

وفى الآية التالية أعطى اللّه بشارةً اخرى للمسلمين إذ قال: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا».

إنّ هذا الوعد إشارة إلى فتح مكة وغنائم حنين.

أو إشارة إلى الفتوحات والغنائم التى كانت نصيب المسلمين بعد النبى (كفتح فارس والروم ومصر)، كما يحتمل أيضاً أنّه إشارة لجميع ما تقدّم ذكره.

فإنّ الآية من إخبار القرآن بالمغيّبات والحوادث الآتية، وقد حدثت هذه الفتوحات فى مدّة قصيرة وكشفت عن عظمة هذه الآيات بجلاء.

وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۲۲) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۲۳) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۲۴) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۲۵) هذه الآيات تتحدث أيضاً عن أبعاد اخر لما جرى فى الحديبية وتشير إلى «لطيفتين» مهمّتين فى هذا الشأن.

الاولى: هى أنّه لا تتصوروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم وبين مشركى مكة فى الحديبية لانتصر المشركون والكفرة. «وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

وليس هذا منحصراً بكم بل: «سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». فهذا هو قانون إلهى دائم، فمتى واجه المؤمنون العدوّ بنيّات خالصة وقلوب طاهرة ولم يضعفوا فى أمر الجهاد نصرهم اللّه على عدوّهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۳

واللطيفة الاخرى التى بيّنتها هذه الآيات أنّها قالت: «وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

حقاً .. كان ما حدث مصداقاً جليّاً «للفتح المبين» ونعم ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدوّ الذى زحف بجيشه مراراً نحو المدينة وسعى سعياً عجيباً لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلّا أنّه الآن حيث حطّوا أقدامهم فى حريمه ودياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنّه يقترح الصلح معهم.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفة اخرى تتعلّق بمسألة صلح الحديبية وحكمتها، إذ تقول الآية: «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ» «۱».

كان أحد ذنوبهم كفرهم، والذنب الآخر صدّهم إيّاكم عن العُمرة زيارة بيت اللّه ولم يجيزوا أن تنحروا الهدى فى محله، أى مكة.

ومثل هذه الذنوب يستوجب أن يسلّطكم اللّه عليهم لتعاقبوهم بشدة، لكنّ اللّه تعالى لم يفعل ذلك فلماذا؟! ذيل الآية يبيّن السبب بوضوح إذ يقول: «وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

وهذه الآية تشير إلى طائفة (من الرجال والنساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام فى مكة ولم يهاجروا إلى المدينة لأسباب خاصة.

«المعرّة»: من مادة «عرّ» على زنة «شرّ» (والعرّ على زنة الحر) فى الأصل معناه مرض الجرب وهو من الأمراض الجلدية التى تصيب الحيوانات أو الإنسان أحياناً ثم توسّعوا فى المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كل ضرر يصيب الإنسان.

ولإكمال الموضوع تضيف الآية: «لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ».

أجل، كان اللّه يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكة أن تشملهم الرحمة ولا تنالهم أيّة صدمة ..

ولمزيد التأكيد تضيف الآية الكريمة: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

أى: لو افترقت وانفصلت صفوف المؤمنين والكفار فى مكة ولم يكن هناك خطر على المؤمنين لعذّبنا الكفار بأيديكم عذاباً أليماً.

---

(۱) «معكوفاً»: مشتق من «العكوف»، ومعناها المنع عن الحركة والبقاء فى المكان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۴

صحيح أنّ اللّه قادر على أن يفصل هذه الجماعة عن الآخرين عن طريق الإعجاز، ولكن سنّة اللّه- فى ما عدا الموارد الاستثنائية- أن تكون الامور وفقاً للأسباب العادية.

«تزيلوا»: من مادة «زوال»، وهنا معناها الإنفصال والتفرّق.

ويستفاد من روايات متعدّدة منقولة عن طرق الشيعة والسنّة حول ذيل هذه الآية أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا فى أصلاب الكافرين واللّه سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذّب الكافرين ..

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً (۲۶) التعصب وحمية الجاهلية أكبر سدّ فى طريق الكفار: هذه الآية تتحدث مرّة اخرى عن (مجريات) الحديبية وتجسّم ميادين اخرى من قضيتها العظمى ... فتشير أوّلًا إلى واحد من أهم العوامل التى تمنع الكفار من الإيمان باللّه ورسوله والإذعان والتسليم للحق والعدالة فتقول: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

ولذلك منعوا النبى والمؤمنين أن يدخلوا بيت اللّه ويؤدّوا مناسكهم وينحروا «الهدى» فى مكة. وقالوا: لو دخل هؤلاء- الذين قتلوا آباءنا وإخواننا فى الحرب- أرضنا وديارنا وعادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! وأية حيثية واعتبار لنا بعد هذا؟

فهؤلاء- بهذا العمل- هتكوا حرمة بيت اللّه والحرم الآمن من جهة، وخالفوا سننهم وعاداتهم من جهة اخرى، كما أسدلوا ستاراً بينهم وبين الحقيقة أيضاً.

«الحمية»: فى الأصل من مادة حَمى- على وزن حمد- ومعناها حرارة الشمس أو النار التى تصيب جسم الإنسان وما شاكله، ومن هنا سمّيت الحُمّى التى تصيب الإنسان بهذا الاسم؛ «حُمّى» على وزن كبرى، ويقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصب المقرون بالغضب حمية أيضاً.

ثم تضيف الآية الكريمة- وفى قبال ذلك-: «فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۵

هذه السكينة التى هى وليدة الإيمان والإعتقاد باللّه والإعتماد على لطفه دعتهم إلى الإطمئنان وضبط النفس وأطفأت لهب غضبهم حتى أنّهم قبلوا- ومن أجل أن يحفظوا ويرعوا أهدافهم الكبرى- بحذف جملة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» التى هى رمز الإسلام فى بداية الأعمال وأن يثبتوا- مكانها «بسمك اللهم» التى هى من موروثات العرب السابقين- فى أوّل المعاهدة وحذفوا حتى لقب «رسول اللّه» الذى يلى اسم محمّد صلى الله عليه و آله.

وقبلوا بالعودة إلى المدينة من الحديبية دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت ويؤدّوا مناسك العمرة، ونحروا هديهم خلافاً للسنّة التى فى الحج أو العمرة فى المكان ذاته وأحلّوا من احرامهم دون أداء المناسك ..

أجل، لقد رضوا بمرارة أن يصبروا إزاء كل المشاكل الصعبة، ولو كانت فيهم حميّة الجاهلية لكان واحد من هذه الامور الآنفة كفيلًا أن يشعل الحرب بينهم فى تلك الأرض.

ثم يضيف القرآن فى هذا الصدد قائلًا: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا».

«كلمة»: هنا بمعنى «روح»، ومعنى الآية أنّ اللّه ألقى روح التقوى فى قلوب أولئك المؤمنين وجعلها ملازمة لهم ومعهم.

وتختتم الآية بقوله سبحانه: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا». فهو سبحانه يعرف نيّات الكفار السيئة ويعرف طهارة قلوب المؤمنين أيضاً فينزل السكينة والتقوى عليهم هنا.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷) رؤيا النبى الصادقة: هذه الآية- أيضاً- ترسم جانباً آخر من جوانب قصة الحديبية المهمّة، والقصّة كانت على النحو التالى:

رأى النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة رؤيا أنّه يدخل مكة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤياه فسُرّوا جميعاً، غير أنّه لمّا كان جماعة من أصحابه يتصورون أنّ تعبير الرؤيا سيتحقق فى تلك السنة ذاتها ومنعهم المشركون من الدخول إلى مكة أصابهم الشك والتردد ... ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النبى غير صادقة؟

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۶

فكان جواب النبى لهم: هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟! فنزلت الآية الآنفة فى هذا الصدد والنبى عائد من الحديبية إلى المدينة وأكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة ... تقول الآية: «لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقّ».

فما رآه النبى فى المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثم تضيف الآية قائلة: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا». وكان فى هذا التأخير حكمةٌ: «فَجَعَلَ مِن دُونِ ذلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

جملة «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» هنا لعلها نوع من تعليم العباد لكى يعوّلوا على مشيئة اللّه عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة اللّه، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه.

التعبير ب «فَتْحًا قَرِيبًا» إشارة إلى «فتح خيبر» لأنه كان «تحقّقه العينى» بعد هذه الرؤيا فى فترة أقل زمناً من فتح مكة بعدها.

الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التى أخبر عنها القرآن، وهى شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوى وأنّه من معاجز النبى الكريم حيث يخبر قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام فى المستقبل القريب وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم أنّ هذين التنبّؤين قد حدثا فعلًا.

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (۲۸) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَ مَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۲۹) فى هاتين الآيتين اللتين بهما تنتهى سورة الفتح إشارة إلى مسألتين مهمّتين من «الفتح المبين» أى «صلح الحديبية»: احداهما تتعلّق بعالمية الإسلام و الثانية تتعلق بأوصاف

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۷

أصحاب النبى وخصائصهم وما وعدهم اللّه سبحانه به. فالاولى منهما تقول: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُو عَلَى الدّين كُلّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

وهذا وعد صريح وقاطع من اللّه سبحانه فى غلبة الإسلام وظهوره على سائر الأديان.

أى لا- تعجبوا لو أخبركم اللّه عن طريق رؤيا نبيّه محمّد بالإنتصار وأن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهى الأمان وتؤدّوا مناسك العمرة دون أن يجرؤ أحد على إيذائكم، كما لا تعجبوا أن يبشّركم اللّه بالفتح القريب- فتح خيبر «فأوّل الغيث قطرة» وسيكون الإسلام باسطاً ظلاله فى أرجاء المعمورة ويظهر على جميع الأديان ...

والمراد ب «الظهور على الدين كلّه»، أهو الظهور المنطقى، أم الظهور (والغلبة) العسكريان؟!

إنّ كلمة «يظهر» دليل على الغلبة الخارجية ... ولهذا يمكن القول أنّه بالإضافة إلى نفوذ الإسلام فى مناطق كثيرة واسعة من الشرق والغرب وهى تحت لوائه اليوم وتدين به أكثر من أربعين دولة إسلامية بنفوس يقدّر إحصاؤها بأكثر من مليارد نسمة فإنّه سيأتى زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعمورة «رسميّا» وسيكتمل هذا الأمر بظهور المهدى (عج) إن شاء اللّه.

وفى آخر آية وصف بليغ لأصحاب النبى الخاصين والذين كانوا على منهاجه على لسان التوراة والإنجيل وهو مدعاة افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم ورُجولتهم فى الحديبية والمراحل الاخر كما أنّه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون والأعصار ...

فتقول الآية فى البداية: «مُّحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

ثم تصف الآية أصحابه وخلالهم (وسجاياهم) الباطنية والظاهرية ضمن خمس صفات إذ تقول فى وصفهم: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ».

وصفتهم الثانية أنّهم: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ».

وفى الحقيقة أنّ عواطفهم وأفكارهم تتلخّص فى هاتين الخصلتين: «الرحمة» و «الشدة» ... لكن لا- تضادّ فى الجمع بينهما أوّلًا، ولا رحمتهم فيما بينهم وشدّتهم على الكفار تقتضى أن تحيد أقدامهم عن جادّة الحق ثانياً ...

ثم تضيف الآية مبيّنة وصفهم الثالث فتقول: «تَرَيهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا».

هذا التعبير يجسد العبادة بركنيها الأساسيين: «الركوع والسجود» على أنها حالة دائمية لهم، العبادة التى هى رمز للتسليم أمام أمر اللّه الحق، ونفى الكبر والغرور والأنانية عن وجودهم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۸

أمّا الوصف الرابع الذی تذكره الآیة عن هؤلاء الأصحاب فهو بیان نیّتهم الخالصة الطاهرة فتقول: «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا». فهم لا یعملون ریاءً ولا یبتغون من الخلق الثواب، بل هدفهم رضا اللّه وفضله فحسب.

أمّا الوصف الخامس فهو عن سیماهم المشرق إذ تقول الآیة: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ».

إنّ القرآن یضیف بعد بیان هذه الأوصاف: «ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَيةِ».

فهذه حقیقة مقولة قبلًا وأوصاف وردت فی کتاب سماوی نزل منذ أکثر من ألفی عام ...

ولکن لا ینبغی أن ننسی أنّ التعبیر ب «وَالَّذِينَ مَعَهُ» یحکی عن معیّة النبی فی کل شیء، فی الفکر والعقیدة والأخلاق والعمل لا عن أولئک الذین کانوا فی عصره- وإن اختلفوا وإیّاه فی المنهج.

ثم یتحدّث القرآن عن وصفهم فی کتاب سماوی کبیر آخر وهو الإنجیل فیقول: «وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهُ فَازَرَهُو فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ».

وفی الحقیقة إنّ أوصافهم المذکورة فی «التوراة» تتحدث عن أبعاد وجودهم من جهة العواطف والأهداف والأعمال وصورتهم الظاهریة ...

وأمّا الأوصاف الواردة فی «الإنجیل» فهی تتحدث عن حرکتهم ونموّهم وتکاملهم فی جوانب مختلفة (فلاحظوا بدقة).

أجل هم أناس متّصفون بصفات علیا لا یفترون عن الحرکة لحظة واحدة ... وینشرون الإسلام بأقوالهم وأعمالهم فی العالم ویوماً بعد یوم یزداد عددهم فی المجتمع الإسلامی ...

ثم تضیف الآیة معقّبة: أنّ هذه الأوصاف العلیا وهذا النمو والتکامل السریع وهذه الحرکة المبارکة بقدر ما تعجب المحبّین وتسرّهم فهی فی الوقت ذاته: «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».

ویضیف القرآن مختتماً هذه الآیة المبارکة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

بدیهی أنّ أوصاف أصحاب النبی التی وردت فی بدایة الآیة محل البحث جمعت فیها الإیمان والعمل الصالح، فتکرار هذین الوصفین إشارة إلی استمرارهما ودیمومتهما: أی أنّ اللّه وعد أولئک الذین بقوا علی نهجهم من أصحاب محمّد صلی الله علیه و آله واستمروا بالإیمان والعمل الصالح.

«نهایة تفسیر سورة الفتح»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۱۹

۴۹. سورة الحجرات

محتوی السورة: هذه السورة تحمل مسائل مهمّة تتعلق بشخص النبی الکریم صلی الله علیه و آله والمجتمع الإسلامی بعضه ببعض. وحیث أنّ أغلب المسائل الأخلاقیة تدور فی هذه السورة فیمکن أن نسمّی هذه السورة ب «سورة الأخلاق والآداب».

ویمکن تقسیم مضامین السورة علی النحو التالی:

۱- فی بدایة السورة تبین طریقة التعامل مع النبی صلی الله علیه و آله وآدابها وما ینبغی علی المسلمین مراعاته من أصول عند حضرة النبی.

۲- تشتمل هذه السورة علی سلسلة من اصول «الأخلاق الاجتماعیة» المهمة.

۳- الأوامر الإرشادیة المتعلقة بکیفیة مواجهة الاختلافات والتنازع أو القتال الذی قد یقع بین المسلمین أحیاناً ...

۴- یتحدث عن معیار قیمة الإنسان عند اللّه وأهمیة التقوی ...

۵- يعالج قضية أنّ الإيمان ليس بالقول فحسب بل لابدّ من ظهور آثاره فى أعمال الإنسان والجهاد بالمال والنفس- إضافةً إلى الإعتقاد فى القلب-.

۶- يتحدث عن علم اللّه وإطّلاعه وعن جميع أسرار الوجود الخفية وأعمال الإنسان، وهذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة فى هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۰

مختصر الامثل ج۴ ۵۴۹

وتسمية هذه السورة بسورة «الحجرات» لورود هذه الكلمة فى الآية الرابعة منها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع اللّه ومن عصاه».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحجرات فى كل ليلة أو فى كل يوم كان من زوّار محمّد صلى الله عليه و آله».

وبديهى أنّ كل هذه الحسنات التى هى بعدد المطيعين والعاصين إنّما تكون فى صورة ما لو أخذنا بنظر الإعتبار كلّاً من الفريقين وأن نفكّر جيداً فنجعل مسيرنا وفقاً لمنهج المطيعين ونبتعد عن منهج العاصين.

ونيل زيارة النبى أيضاً فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكورة فى الحضور عنده صلى الله عليه و آله لأنّ التلاوة فى كل مكان مقدمة للعمل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

أسباب النّزول

فى تفسير القرطبى: روى أنّ النبى صلى الله عليه و آله أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذا مضى إلى خيبر فأشار عليه عمر برجل آخر، فنزلت الآية وأمرت أن لا تقدموا بين يدى اللّه ورسوله.

وأمّا فى شأن الآية الثانية فقد قال المفسرون إنّ طائفة من بنى تميم وأشرافهم وردوا المدينة، فلمّا دخلوا مسجد النبى نادوا بأعلى صوتهم من وراء الحجرات التى كانت للنبى: يا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۱

محمّد أخرج إلينا. فأزعجت هذه الصرخات غير المؤدبة النبى، فخرج إليهم فقالوا له: جئناك لنفاخرك فأجز شاعرنا وخطيبنا ليتحدث عن مفاخر قبيلتنا، فأجازهم النبى صلى الله عليه و آله فنهض خطيبهم وتحدّث عن فضائلهم الخيالية الوهمية كثيراً ...

فأمر النبى ثابت بن قيس «۱» أن يردّ عليهم فنهض وخطب خطبةً بليغة فلم يُبق لخطبة اولئك من أثر ...

ثم نهض شاعرهم وألقى قصيدة فى مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فردّ عليه بقصيدة شافية كافية.

فأمر النبى صلى الله عليه و آله أن تُهدى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوته.

فالآيات محل البحث ناظرة إلى هذه القضية والأصوات من خلف الحجرات.

التّفسير

إنّ فى محتوى هذه السورة قسماً من المباحث الأخلاقية المهمّة والتعليمات الإنضباطية التى تدعونا إلى تسمية هذه السورة ب «سورة

الأخلاق»، وهذه المسائل والتعليمات تقع فى الآيات الأوّل من السورة محل البحث، والآيات هذه على نحوين من التعليمات.

الأوّل: عدم التقدّم على اللّه ورسوله وعدم رفع الصوت عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله ... فتقول الآية الاولى فى هذا الصدد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

والمراد من عدم التقديم بين يدى اللّه ورسوله هو أن لا يُقترح عليهما فى الامور، وترك العجلة والإسراع أمام أمر اللّه ورسوله ...

والآية الثانية تشير إلى الأمر الثانى فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِى وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ».

والجملة الاولى: «لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىّ» إشارة إلى أنه لا ينبغى رفع الصوت على صوت النبى، فهو بنفسه نوع من الإساءة الأدبية فى محضره المبارك، والنبى له مكانته، وهذا الأمر لا يجدر أن يقع أمام الأب والام والأستاذ لأنّه مخالف للإحترام والأدب أيضاً.

---

(۱) كان ثابت بن قيس خطيب الأنصار وخطيب النبى كما كان حسّان بن ثابت شاعره [اسد الغابة ۱/ ۲۲۹].

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۲

أمّا جملة: «لَاتَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ» فيمكن أن تكون تأكيداً على المعنى المتقدم فى الجملة الاولى، أو أنّها إشارة إلى مطلب آخر، وهو ترك مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله بالنداء «يا محمّد» والعدول عنه بالقول: «يا رسول اللّه» ...

وبديهى أنّ أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءة والإهانة لشخص النبى ومقامه الكريم فذلك موجب للكفر، وإلّا فهو ايذاء له وفيه إثم أيضاً ...

وفى الصورة الاولى تتّضح علة الحبط وزوال الأعمال، لأنّ الكفر يحبط العمل ويكون سبباً فى زوال ثواب العمل الصالح ...

وفى الصورة الثانية أيضاً، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السىء باعثاً على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

وفى الآية الاخرى مزيد تأكيد على الثواب الذى أعدّه اللّه لُاولئك الذين يمتثلون أمر اللّه ويراعون الآداب عند رسول اللّه، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

«يغضّون»: مشتقة من غضّ- على وزن حظّ- ومعناها تقليل النظر أو خفات الصوت ويقابل هذه الكلمة الإمعان بالنظر والجهر بالصوت.

و «امتحن»: مشتقة من الإمتحان، والأصل فى استعمالها إذابة الذهب وتطهيره من غير الخالص، ثم استعملت بعدئذ فى مطلق الاختبار كما هى الحال بالنسبة للآية محل البحث.

أمّا الآية الاخرى فتشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر اللّه وراء ظهورهم، وعدم إدراكهم فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

وأساساً كلّما ترقّى عقل الإنسان زيد فى أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن ومن هنا فإنّ إساءة الأدب دليل على عدم العقل.

«الحجرات»: جمع «حجرة» وهى هنا إشارة إلى البيوت المتعددة لأزواج النبى المجاورة للمسجد .. وأصل الكلمة مأخوذ من «الحَجْر» على وزن الأجر: أى «المنع» لأنّ الحجرة تمنع الآخرين من الدخول فى حريم «حياة» الإنسان ... والتعبير ب «وراء» هنا كناية عن الخارج من أى جهة كان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۳

ويضيف القرآن إكمالًا للمعنى فى نهاية الآية قائلًا: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ».

صحيح أنّ العجلة قد تجعل الإنسان أحياناً يبلغ قصده بسرعة، إلّاأنّ الصبر فى مثل هذا «المقام» والتأنّى مدعاة إلى المغفرة والأجر العظيم.

وحيث إنّ بعضهم قد ارتكبوا جهلًا هذا الخطأ من قبل، واستوحشوا من هذا الأمر وحاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية، فإنّ القرآن يضيف قائلًا إنّهم تشملهم الرحمة عند التوبة:

«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

بحثان

۱- الأدب أغلى القيم: اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بمسألة رعاية الأدب، والتعامل مع الآخرين مقروناً بالإحترام والأدب سواءً مع الفرد أم الجماعة.

يقول الإمام على عليه السلام: «الآداب حُلل مجدّدة» «۱».

ويقول فى مكان آخر: «الأدب يُغنى من الحسب» «۲».

وأساساً فإنّ الدين مجموعة من الآداب، الأدب بين يدى اللّه والأدب بين يدى الرسول والأئمة المعصومين، والأدب بين يدى الأستاذ والمعلم، أو الأب والأم والعالم والمفكّر.

۲- الإنضباط الإسلامى فى كل شىء وفى كل مكان: إنّ مسألة المديرية لا تتم بدون رعاية الإنضباط، وإذا أريد للناس العمل تحت مديرية وقيادة حسب رغبتهم، فإنّ اتساق الأعمال سينعدم عندئذ وإن كان المديرون والقادة جديرين.

وكثير من الأحداث والنواقص التى نلاحظها تحدّث عن هذا الطريق، فكم من هزيمة أصابت جيشاً قوياً أو نقصاً حدث فى أمر يهمّ جماعة وما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفاً ...

ولقد ذاق المسلمون أيضاً مرارة مخالفة هذه التعاليم مراراً فى عهد النبى صلى الله عليه و آله أو بعده، ومن أوضح الامور قصة هزيمة المسلمين فى معركة احُد لعدم الإنضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

---

(۱) نهج البلاغة، الحكمة ۵.

(۲) كنز الفوائد، أبوالفتح الكراجكى / ۴۷.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۴

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (۶) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (۷) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ» نزل فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى صدقات بنى المصطلق فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة فى الجاهلية، فظن أنّهم هموا بقتله، فرجع إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقال: إنّهم منعوا صدقاتهم وكان الأمر بخلافه. فغضب النبى صلى الله عليه و آله وهمّ أن يغزوهم فنزلت الآية.

التّفسير

لا تكترث بأخبار الفاسقين: كان الكلام فى الآيات الآنفة على ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون ووظائفهم أمام قائدهم ونبيّهم محمّد صلى الله عليه و آله. أمّا الآيات محل البحث فهى تبيّن الوظائف الاخرى على هذه الامة إزاء نبيّها. وتقول ينبغى الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النبى فلو أنّ فاسقاً جاءكم بنبإ فتثبتوا وتحقّقوا من خبره، ولا- تكرهوا النبى على قبول خبره حتى تعرفوا صدقه ... فتقول الآيات أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا».

ثم تبيّن السبب فى ذلك فتضيف: «أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ».

فلو أنّ النبى قد أخذ بقول «الوليد بن عقبة» وعدّ قبيلة بنى المصطلق مرتدين وقاتلهم لكانت فاجعة عظمى ...

واستدل جماعة من علماء الاصول على حجية خبر الواحد بهذه الآية لأنها تقول: «إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا ...» ومفهومها أنّ العادل لو جاء بنبإ فلا يلزم التبيّن.

والآية التالية- وللتأكيد على الموضوع المهم فى الآية السابقة- تضيف قائلةً: «وَاعْلَمُوا

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۵

أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» «۱».

فالقرآن يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول اللّه وهو مرتبط بعالم الوحى، ولا تصرّوا وتلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم ...

ويشير القرآن معقّباً فى الآية إلى موهبة عظيمة اخرى من مواهب اللّه سبحانه فيقول:

«وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ».

فإنّ القرآن يقرّر قاعدةً كلية وعامة فى نهاية هذه الآية لواجدى الصفات المذكورة فيها فتقول: «أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ».

أى: لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية «العشق للإيمان والتنفّر من الكفر والفسوق» ولم تلوّثوا هذا النقاء والصفات الفطرية فإنّ الرشد والهداية دون أدنى شك فى انتظاركم ...

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقة وهى أنّ محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول: «فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فعلمه وحكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد والسعادة ويكملها بدعوة الأنبياء إيّاكم ويجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود ... «وهو الجنة».

ولا شك أنّ علم اللّه بحاجة العباد وحكمته فى مجال التكامل وتربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده (وهى محبوبية الإيمان والتنفّر من الكفر والعصيان).

وعلى هذا فإنّ عشق الإيمان والتنفّر من الكفر موجودان فى قلوب جميع الناس دون استثناء وإذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة اخطائهم وسلوكياتهم وأعمالهم، فإنّ اللّه لم يُلق فى قلب أىّ شخص حبّ العصيان وبغض الإيمان ...

وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۹) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

---

(۱) «لعنتّم»: مشتقة من مادة «العنت» ومعناه الوقوع فى عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذى يشقّ على الإنسان، ومن هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عند تعرّضه للضربة بأنّه عنت ..

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۶

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزل فى الأوس والخزرج، وقع بينهما قتال بالسعف والنعال.

التّفسير

المؤمنون إخوة: يقول القرآن هنا قولًا هو بمثابة القانون الكلى العام لكل زمان ومكان:

«وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا».

«اقتتلوا»: مشتقة من مادة «القتال» ومعناها الحرب، إلّاأنّها كما تشهد بذلك القرائن تشمل كل أنواع النزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة «العسكرية».

فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلا تسيل الدماء وأن يعرفوا مسؤوليتهم فى هذا المجال، فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهلة الذين يمرّون بهذه الامور دون اكتراث وتأثّر! فهذه هى وظيفة المؤمنين الاولى عند مواجهة أمثال هذه الامور.

ثم يبيّن القرآن الوظيفة الثانية على النحو التالى: «فَإِن بَغَتْ إِحْدَيهُمَا عَلَى الْأُخْرَى . ولم تستسلم لاقتراح الصلح: «فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ».

وبديهى أنّه لو سالت دماء الطائفة الباغية والظالمة- فى هذه الأثناء- فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إنّ دماءهم هدر، وإن كانوا مسلمين.

وهكذا فإنّ الإسلام يمنع من الظلم وإن أدّى إلى مقاتلة الظالم، لأنّ ثمن العدالة أغلى من دم المسلمين أيضاً، ولكن لا يكون ذلك إلّاإذا فشلت الحلول السلمية.

ثم يبيّن القرآن الوظيفة الثالثة فيقول: «فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ».

أى لا ينبغى أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفة الباغية الظالمة بل ينبغى أن يعقب ذلك الصلح وأن يكون مقدّمة لقلع جذور عوامل النزاع، وإلّا فإنّه بمرور الزمن ما أن يُحسّ الظالم فى نفسه القدرة حتى ينهض ثانية ويثير النزاع.

وحيث إنّه تميل النوازع النفسية أحياناً فى بعض الجماعات عند الحكم والقضاء إلى إحدى الطائفتين المتخاصمتين وتنقض «الإستقامة» عند القضاة فإنّ القرآن ينذر المسلمين فى رابع تعليماته وما ينبغى عليهم فيقول: «وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» «۱».

والآية التالية تضيف لبيان العلّة والتأكيد على هذا الأمر قائلةً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ».

---

(۱) «المقسطين»: مأخوذة من «القسط» ومعناها فى الأصل التقسيم بالعدل.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۷

وحيث إنّه فى كثير من الأوقات تحلّ «الروابط» فى أمثال هذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضيف فى نهاية هذه الآية مرّةً اخرى قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ».

وهكذا تتّضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين فى ما بينهم فى تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

بحث

أهمية الأخوة الإسلامية: إنّ جملة «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» الواردة فى الآيات المتقدمة واحدة من الشعارات الأساسية و «المتجذرة» فى الإسلام.

فعلى هذا الأصل الإسلامى المهم فإنّ المسلمين على اختلاف قبائلهم وقوميّاتهم ولغاتهم وأعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوة وإن عاش بعضهم فى الشرق والآخر فى الغرب ...

ففى مناسك الحج مثلًا حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة فى مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة والإرتباط والإنسجام والوشائج محسوسة وميداناً للتحقق العينى لهذا القانون الإسلامى المهم ...

وبتعبير آخر: إنّ الإسلام يرى المسلمين جميعاً بحكم الأسرة الواحدة ويخاطبهم جميعاً بالإخوان والأخوات ليس ذلك فى اللفظ والشعار، بل فى العمل والتعهدات المتماثلة أيضاً، جميعهم (أخوة وأخوات).

وفى الروايات الإسلامية تأكيد على هذه المسألة أيضاً.

فى كنز الفوائد: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّاً، لا براءة له منها إلّا بالأداء العفو؛ يغفر زلّته، ويرحم

عبرته، ویستر عورته، ویُقیل عثرته، ویقبل معذرته، ویرد غیبته، ویدیم نصیحته، ویحفظ خلّته، ویرعی ذمّته، ویعود مرضته، ویشهد میتته، ویجیب دعوته، ویقبل هدیته، ویکافی صلته، ویشکر نعمته، ویحسن نصرته، ویحفظ حلیلته، ویقضی حاجته، ویشفع مسئلته، ویسمّت عطسته، ویرشد ضالّته، ویردّ سلامه، ویطیب کلامه، ویُبرّ أنعامه، ویصدق أقسامه، ویوالی ولیّه، ولا یعادی عدوه، وینصره ظالماً ومظلوماً، فأمّا نصرته ظالماً فیردّه عن ظلمه، وأمّا نصرته مظلوماً فیعینه علی أخذ حقّه، ولا یُسلمه، ولا یخذله، ویحب له من الخیر ما یُحبّ لنفسه، ویکره له من الشرّ ما یکره لنفسه».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۸

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَی أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَی أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِیمَانِ وَ مَنْ لَمْ یَتُبْ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۱۱) یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِیمٌ (۱۲)

أسباب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزل قوله: «لَایَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ» فی ثابت بن قیس بن شماس وکان فیاذنه وقر، وکان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتی یقعد عند النبی فیسمع ما یقول.

فدخل المسجد یوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مکانهم فجعل یتخطی رقاب الناس ویقول: تفسّحوا، تفسّحوا حتی انتهی إلی رجل فقال له: أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلفه مُغضباً.

فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: ابن فلانة، ذکر امّاً له کان یعیّر بها فی الجاهلیة. فنکس الرجل رأسه حیاء، فنزلت الآیة.

وقوله «وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ» نزل فی نساء النبی صلی الله علیه و آله سخرن من ام سلمة. وذلک أنها ربطت حقویها بسبیة وهی ثوب أبیض، وسدلت طرفیها خلفها فکانت تجره. فقالت عائشة لحفصة: انظری ماذا تجر خلفها، کأنّه لسان کلب فلهذا کانت سخریتهما.

وقوله «وَلَا یَغْتَب بَّعْضُکُم بَعْضًا» نزل فی رجلین من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله اغتابا رفیقهما وهو سلمان، بعثاه إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لیأتی لهما بطعام فبعثه إلی أسامة بن زید، وکان خازن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی رحله، فقال: ما عندی شیء. فعاد إلیهما فقالا: بخل أسامة وقالا لسلمان: لو بعثاه إلی بئر سمیحة لغار ماؤها. ثم انطلقا یتجسسان عند أسامة ما أمر لهما به رسول اللَّه. فقال لهما رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «ما لی أری خضرة اللحم فی أفواهکما». قالا: یا رسول اللَّه! ما تناولنا یومنا هذا لحماً. قال: «ظلتم تأکلون لحم سلمان وأسامة». فنزلت الآیة.

التّفسیر

الإستهزاء وسوء الظن والغیبة والتجسس والألقاب السیئة حرام: حیث أنّ القرآن المجید

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۲۹

اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامی علی أساس المعاییر الأخلاقیة فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمین فی مورد النزاع والمخاصمة بین طوائف المسلمین المختلفة بیّن فی الآیتین محل البحث قسماً من جذور هذه الإختلافات لیزول الإختلاف (بقطعها) ویُحسم النزاع.

ففی کل من الآیتین الآنفتین تعبیر صریح وبلیغ عن ثلاثة امور یمکن أن یکون کل منها شرارة لإشتعال الحرب والاختلاف، إذ تقول الآیة الاولی من الآیتین محل البحث أوّلًا: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَایَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ».

لأنّه: «عَسَی أَن یَکُونُوا خَیْرًا مِّنْهُمْ». «وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَی أَن یَکُنَّ خَیْرًا مِّنْهُنَّ».

والخطاب موجّه هنا إلی المؤمنین کافة فهو یعمّ الرجال والنساء وینذر الجمیع أن یجتنبوا هذا الأمر القبیح، لأنّ أساس السخریة

والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلک إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ.
ثم تقول الآية فی المرحلة الثانية: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ».
«تلمزوا»: هی من مادة «لَمْز» على زنة «طنز» ومعناها تتّبع العيوب والطعن فی الآخرين.
وتضيف الآية فی المرحلة الثالثة أيضاً قائلة: «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ».
هناک الكثير من الأفراد الحمقى قديماً وحديثاً، ماضياً وحاضراً مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، ومن هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين ويدمّرون شخصياتهم وربّما انتقموا منهم أحياناً عن هذا الطريق، وقد يتّفق أنّ شخصاً كان يعمل المنكرات سابقاً، ثم تاب وأناب وأخلص قلبه للّه، ولكن مع ذلک نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه.
الإسلام نهى عن هذه الامور بصراحة ومنع من إطلاق أی إسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاةً لتحقير المسلم ...
وروی- فی تفسير مجمع البيان- أنّ صفية بنت حيی بن أخطب، جاءت إلى النبی صلى الله عليه و آله تبكی فقال لها: «ما وراءک»؟ فقالت: إنّ عائشة تعيّرنی وتقول يهودية بنت يهوديين! فقال لها: «هلّا قلت أبی هارون وعمّی موسى وزوجی محمّد». فنزلت الآية.
ولذلک فإنّ الآية تضيف قائلةً: «بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ». أی قبيح جدّاً على من دخل فی سلک الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۰

وتُختتم الآية لمزيد التأكيد بالقول: «وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».
وأی ظلم أسوأ من أن يؤذی شخص بالكلمات اللاذعة و «اللاسعة» والتحقير واللمز قلوب المؤمنين التی هی «مركز عشق» اللّه.
فی هذه الآية يبدأ القرآن فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ».
المراد من هذا النهی هو النهی عن ترتيب الآثار، أی متى ما خطر الظنّ السیء فی الذهن عن المسلم فلا ينبغی الإعتناء به عملیّاً، ولا ينبغی تبديل اسلوب التعامل معه ولا تغيير الروابط مع ذلک الطرف.
ولذلک نقرأ فی هذا الصدد حديثاً- فی الأمالی للصدوق- عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:
«... وضَع أمر أخيک على أحسنه حتى يأتيک ما يَغلِبُک منه، ولا تظنّن بكلمة خرجت من أخيک سوءاً وأنت تجد لها فی الخير محملًا».
ثم تذكر الآية موضوع «التجسّس» فتنهى عنه بالقول: «وَلَا تَجَسَّسُوا».
وأخيراً فإنّ الآية تضيف فی آخر هذه الأوامر والتعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين ومعلولهما فتقول: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا».
وهكذا فإنّ سوء الظن هو أساس التجسس، والتجسس يستوجب إفشاء العيوب والأسرار، والإطّلاع عليها يستوجب الغيبة، والإسلام ينهى عن جميعها علةً ومعلولًا.
ولتقبيح هذا العمل يتناول القرآن مثلًا بليغاً يجسّد هذا الأمر فيقول: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ».
أجل، إنّ كرامة الأخ المسلم وسمعته كلحم جسده، وابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه وإفشاء أسراره الخفية كمثل أكل لحمه.
كلمة «ميتاً» للتعبير عن أنّ الإغتياب إنّما يقع فی غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وهذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان فی حق أخيه.
وحيث أنّه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوّثين بهذه الذنوب الثلاثة ويدفعهم وجدانهم إلى التيقّظ والتنبّه فيلتفتون إلى خطئهم، فإنّ السبيل تفتحه الآية لهم إذ تُختتم بقوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۱

فلابدّ أن تحيا روح التقوى والخوف من اللّه أوّلًا: وعلى أثر ذلک تكون التوبة والإنابة لتشملهم رحمة اللّه ولطفه.

بحوث

۱- الأمن الإجتماعى الكامل: إنّ الأوامر أو التعليمات الستة الواردة فى الآيتين آنفتى الذكر (النهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والإغتياب) إذا نُفّذت فى المجتمع فإنّ سمعة وكرامة الأفراد فى ذلك المجتمع تكون مضمونة من جميع الجهات.

إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعة ويجب أن تحفظ جميعاً فى حصن هذا القانون وهى:

«النفس والمال والناموس وماء الوجه».

والتعابير الواردة فى الآيتين محل البحث والروايات الإسلامية تدل على أنّ ماء وجه الأفراد كأنفسهم وأموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، ولا يكتفى بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضاً فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل وأرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنّهم أيضاً .. وأن يُحسّ كلٌّ منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الإتهامات فى منطقة أفكاره.

وهذا الأمن فى أعلى مستوى ولا يمكن تحقّقه إلّافى مجتمع رسالى مؤمن. يقول النبى صلى الله عليه و آله فى هذا الصدد: «إنّ اللَّه حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يُظنّ به ظنّ السّوء» «۱».

۲- لا تجسّسوا: رأينا أنّ القرآن يمنع جميع أنواع التجسس بصراحة تامّة، وحيث إنّه لم يذكر قيداً أو شرطاً فى الآية فيدلّ هذا على أنّ التجسس على أعمال الآخرين والسعى إلى إذاعة أسرارهم إثم، إلّاأنّ القرائن الموجودة داخل الآية وخارجها تدل على أنّ هذا الحكم متعلق بحياة الأفراد الشخصية والخصوصية.

ويصدق هذا الحكم أيضاً فى الحياة الاجتماعية للأفراد بشرط أن لا يؤثر فى مصير المجتمع.

لكن من الواضح أنّه إذا كان لهذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإنّ المسألة تأخذ طابعاً آخر، ومن هنا فإنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد أعدّ أشخاصاً وأمرهم أن يكونوا

---

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۵/ ۲۶۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۲

عيوناً لجمع الأخبار واستكشاف المجريات واستقصائها ليحيطوا بما له علاقة بمصير المجتمع. ومن هذا المنطلق أيضاً يمكن للحكومة الإسلامية أن تتّخذ أشخاصاً يكونون عيوناً لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الامور، وأن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التى يراد بها إرباك الوضع الأمنى فى البلاد، فيتجسّسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك فى إطار الحياة الخاصة للأفراد.

إلّا أنّ هذا الأمر لا ينبغى أن يكون ذريعةً لهتك حرمة هذا القانون الإسلامى الأصيل، وأن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا فى حياة الأفراد الخاصة بذريعة التآمر والإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلًا، أو يراقبوا الهاتف ويهجموا على بيوتهم بين حين وآخر.

والخلاصة أنّ الحد بين التجسس بمعناه السلبى وبين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق وظريف جداً، وينبغى على مسؤولى إدارة الامور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحد بدقة لئلّا تهتك حرمة أسرار الناس، ولئلّا يتهدد أمن المجتمع والحكومة الإسلامية.

۳- الغيبة من أعظم الذنوب وأكبرها: قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم فى حياته ماء وجهه وحيثيته، وأى شىء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

وأحياناً يعدّ اغتيال وقتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، ومن هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحياناً.

إنّ واحدةً من حِكم تحريم الغيبة أن لا يتعرّض هذا الاعتبار العظيم ورأس المال المعنوى للأشخاص لخطر التمزّق والتلوّث.

والأمر الآخر إنّ الغيبة تولّد النظرة السيئة وتضعف العلائق الاجتماعية وتوهنها وتتلف رأس مال الإعتماد وتزلزل قواعد التعاون «الإجتماعى».

قال البراء خطبنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى أسمع العواتق فى بيوتهنّ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عورة أخيه تتّبع اللّه عورته ومن تتّبع اللّه عورته يفضحه فى جوف بيته» «۱».

---

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۵/ ۲۵۱.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۳

وأوحى اللّه تعالى موسى عليه السلام: «من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرّاً عليه فهو أوّل من يدخل النار» «۱».

فى الكافى: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «الغيبة أسرع فى دين الرجل المسلم من الآكلة فى جوفه».

إنّ هذه التأكيدات والعبارات المثيرة إنّما هى للأهمية القصوى التى يوليها الإسلام لصون ماء الوجه وحيثية المؤمنين الاجتماعية، وكذلك للأثر المخرّب- الذى تتركه الغيبة- فى وحدة المجتمع والإعتماد المتبادل فى القلوب.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳)

التقوى أغلى القيم الإنسانية: كان الخطاب فى الآيات السابقة موجّهاً للمؤمنين وكان بصيغة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»، وقد نهى الذكر الحكيم فى آيات متعددة عمّا يوقع المجتمع الإسلامى فى خطر، وتكلّم فى جوانب من ذلك.

فى حين أنّ الآية محل البحث تخاطب جميع الناس وتبيّن أهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميّز الميزان الواقعى للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة. فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا».

والمراد ب «خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى هو أصل الخلقة وعودة أنساب الناس إلى «آدم وحواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغى أن تفتخر قبيلة على اخرى من حيث النسب، وإذا كان اللّه سبحانه قد خلق كل قبيلة وأولاها خصائص ووظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الاجتماعية.

إنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخرة والمباهات فى العصر الجاهلى ويُلغى التفاضل بالأنساب والقبائل يتّجه نحو المعيار الواقعى القيم، فيضيف قائلًا: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَكُمْ».

وهكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الإمتيازات الظاهرية والمادية، ويعطى الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من اللّه، ويقول إنّه لا شيء أفضل من التقوى فى سبيل التقرب إلى اللّه وساحة قدسه.

---

(۱) المحجّة البيضاء فى تهذيب الاحياء ۵/ ۲۵۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۴

وبما أنّ «التقوى» صفة روحانية وباطنية ينبغى أن تكون قبل كل شيء مستقرّةً فى القلب والروح، وربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون والمتصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية قائلًا: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

فاللّه يعرف المتقين حقّاً وهو مطّلع على درجات تقواهم وخلوص نيّاتهم وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذَبَة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً.

بحثان

۱- القيم الحقّة والقيم الباطلة: لا شك أنّ كل إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة وافتخار، ولذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم ...

إلّا أنّ معرفة معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماماً، وربّما أخذت القيم الكاذبة مكاناً بارزاً ولم تُبق للقيم الحقّة مكان فى قاموس الثقافة للفرد.

فجماعة ترى بأنّ قيمتها الواقعية فى الإنتساب إلى القبيلة المعروفة.

وكان الاهتمام بالقبيلة والإفتخار بالإنتساب إليها من أكثر الامور الوهميّة رواجاً فى الجاهلية إلى درجة كانت كل قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الاخرى، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية فى أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد والمجتمعات! وجماعة اخرى تعوّل على مسألة المال والثروة وامتلاكها للقصور والخدم والحشم وأمثال هذه الامور، فتعدّها دليلًا على القيمة الشخصية وتسعى من أجل كل ذلك دائماً.

وهكذا تخطو كل جماعة فى طريق خاص وتنشدّ قلوبها إلى قيمة معينة وتعدّها معيارها الشخصى.

وبما أنّ هذه الامور جميعها أمور متزلزلة ومسائل ذاتية ومادية وعابرة فإنّ مبدأً سماوياً كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبداً .. لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان ويعتبر القيمة الحقيقية للإنسان فى صفاته الذاتية وخاصة تقواه وطهارة قلبه والتزامه الدينى.

حتى أنّه لا يكترث بموضوعات مهمة كالعلم والثقافة إذا لم تكن فى خطّ «الإيمان والتقوى والقيم الأخلاقية» ...

فى الدرّ المنثور عن جابر بن عبداللّه قال: خطبنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۵

عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلّابالتقوى إنّ أكرمكم عنداللّه أتقاكم ألا هل بلّغت»؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: «فليبلغ الشاهد الغائب».

۲- حقيقة التقوى: يستفاد من آيات القرآن أنّ التقوى هى الإحساس بالمسؤولية والتعهد الذى يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه فى قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيّته فى خلوص من أيّة شائبة.

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

أ) حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.

ب) تجنّب كل إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلًا لمعصية.

ج) التجلّد والإصطبار عن كل ما يشغل القلب ويصرفه عن الحق، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۱۵)

سبب النّزول

نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله المدينة فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمنون عليه، فأنزل اللّه تعالى فيهم هذه الآية «۱».

التّفسير

الفرق بين الإسلام والإيمان: كان الكلام فى الآية المتقدمة على معيار القيم الإنسانية، أى التقوى، وبما أنّ التقوى ثمرة لشجرة الإيمان، الإيمان النافذ فى أعماق القلوب، ففى الآيتين

---

(۱) أسباب نزول الآيات، الواحدى النيسابورى/ ۲۶۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۶

الآنفتين بيان لحقيقة الإيمان إذ تقول الآية الاولى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ». وطبقاً لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «الإسلام» و «الإيمان» فى أنّ: الإسلام له شكل ظاهرى قانونى، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو فى زمرة المسلمين وتجرى عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعى وباطنى، ومكانه قلب الإنسان لا ما يجرى على اللسان أو ما يبدو ظاهراً.

فى مجمع البيان: روى أنس عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الإسلام علانية والإيمان فى القلب».

وهذا المعنى نفسه وارد فى تعبير آخر فى بحث الإسلام والإيمان. فى الكافى عن فضيل بن يسار قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام ولا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر فى القلوب والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء».

ثم تضيف الآية محل البحث فتقول: «وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَايَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيًا». وسيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل ولا ينقص منها شيئاً.

وذلك ل «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

«يلتكم»: مشتق من «لَيت» على زنة (ريب) ومعناه الإنقاص من الحق.

والعبارات الأخيرة فى الحقيقة إشارات إلى أصل قرآنى مسلّم به وهو أنّ شرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنّه إذا كنتم مؤمنين باللّه ورسوله إيماناً قلبياً وعلامته طاعتكم للّهوالرسول فإنّ أعمالكم مقبولة، ولا ينقص من أجركم شىء، ويثيبكم اللّه، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ اللّه غفور رحيم.

وحيث إنّ الحصول على هذا الأمر الباطنى أى الإيمان ليس سهلًا، فإنّ الآية التالية تتحدث عن علائمه، العلائم التى تميّز المؤمن حقّاً عن المسلم والصادق عن الكاذب، وأولئك الذين استجابوا للّهوللرسول رغبةً وشوقاً منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعاً أو للوصول إلى المال والدنيا فتقول: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

أجل، إنّ أوّل علامة للإيمان هى عدم التردد فى مسير الإسلام، والعلامة الثانية الجهاد بالأموال، والعلامة الثالثة التى هى أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۷

ولذلك فإنّ الآية تُختتم بالقول مؤكّدة: «أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ».

هذا هو المعيار الذى حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنين الحق وتمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهراً، وليس هذا المعيار منحصراً بفقراء جماعة بنى أسد، بل هو معيار واضح وجلى ويصلح لكل عصر وزمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام، ولبيان قيمة اولئك الذين يمنّون بأن أسلموا على النبى صلى الله عليه و آله وذلك بحسب الظاهر فحسب، إلّاأنّه عند التطبيق والعمل لا يوجد فيهم أقلّ علامة من الإيمان أو الإسلام.

قُلْ أ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۷) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ (۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا: فلما نزلت الآيتان- آنفاً- أتو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يحلفون أنّهم مؤمنون صادقون فى دعواهم الإيمان، فأنزل اللَّه سبحانه الآية الاولى من الآيات مورد البحث وأنذرتهم أن لا يحلفوا، فاللَّه يعرف باطنهم وظاهرهم، ولا تخفى عليه خافية فى السماوات ولا فى الأرض.

التّفسير

لا- تمنّوا علىّ إسلامكم: كانت الآيات السابقة قد بيّنت علائم المؤمنين الصادقين، وحيث إنّا ذكرنا فى شأن النّزول أنّ جماعة جاؤوا النبى صلى الله عليه و آله وقالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقةً وإنّ الإيمان مستقر فى قلوبهم، فإنّ هذه الآيات تنذرهم وتبيّن لهم أنّه لا حاجة إلى الإصرار والقسم، كما أنّ هذا البيان والإنذار هو لجميع الذين على شاكلة تلك الجماعة، فمسألة (الكفر والإيمان) إنّما يطّلع عليها اللَّه الخبير بكل شىء.

ولحن الآيات فيه عتاب وملامة، إذ تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «قُلْ أَتُعَلّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

ولمزيد التأكيد تقول الآية أيضاً: «وَاللَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمٌ». فذاته المقدسة هى علمه

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۸

بعينه وعلمه هو ذاته بعينها ولذلك فإنّ علمه أزلى أبدى.

ثم يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمنّون على النبى بأنّهم أسلموا وأنّهم أذعنوا لدينه فى الوقت الذى حاربته القبائل العربية الاخرى. فيقول القرآن جواباً على كلماتهم هذه: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّاتَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

«المنّة»: من مادة «المن» ومعناه الوزن الخاص الذى يوزن به، ثم استعمل هذا اللفظ على كل نعمة غالية وثمينة، والمنّة على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملى كعطاء النعمة والهبة فهى ممدوحة، ومنن اللَّه من هذا القبيل، وإذا كان فيها جانب لفظى، كمنّ كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهى قبيحة وغير محبوبة.

فالإيمان وقبل كل شىء يمنح الإنسان إدراكاً جديداً عن عالم الوجود، ويكشف عنه حجب الأنانية والغرور، ويوسع عليه أفق نظرته، ويجسّد له عظمة خلقه فى نظره.

ومن هنا كان على الإنسان أن يؤدّى شكر نعمة اللَّه صباح مساء، وأن يهوى إلى السجود بعد كل صلاة وعبادة، وأن يشكر اللَّه على جميع هذه الامور.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث تأكيد آخر على ما ورد فى الآية الآنفة إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلا تصرّوا على أنّكم مؤمنون حتماً ولا حاجة للقسم .. فهو حاضر فى أعماق قلوبكم، وهو عليم بما يجرى فى غيب السماوات والأرض جميعاً.

«نهاية تفسير سورة الحجرات»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۳۹

۵۰. سورة ق

محتوى السورة: إنّ محور بحوث هذه السورة هو موضوع «المعاد» والمسائل المرتبطة بالمعاد. تمت الإشارة فى هذه السورة إلى الامور

التالية:

۱- إنكار الكافرين مسألة المعاد وتعجّبهم منها «المراد بالمعاد هنا هو المعاد الجسمانى».

۲- الاستدلال على مسألة المعاد عن طريق الإلتفات إلى مطلق التكوين والخلق وخاصة إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث.

۳- الاستدلال على مسألة المعاد عن طريق الإلتفات إلى الخلق الأوّل.

۴- الإشارة إلى مسألة ثبت الأعمال والأقوال ليوم الحساب.

۵- المسائل المتعلقة بالموت والإنتقال من هذه الدنيا إلى الدار الاخرى.

۶- جانب من حوادث يوم القيامة وأوصاف الجنة والنار.

۷- إشارة إلى حوادث نهاية هذا العالم المذهلة والمثيرة.

وفى الأثناء إشارات (موجزة وذات تأثير بليغ) عن حال الامم الماضية وطغيانها وعاقبتها الوخيمة أمثال قوم فرعون وعاد وقوم لوط وقوم شعيب وقوم تبع وما ورد من تعليمات للنبى فى التوجه إلى اللّه تعالى ... كما وردت فى بداية السورة ونهايتها إشارة إلى عظمة القرآن.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۰

فضيلة تلاوة السورة: يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يهتمّ إهتماماً كبيراً بسورة «ق» حتى أنّه صلى الله عليه و آله كان يقرأها فى كل جمعة إذا خطب الناس «۱».

فى تفسير مجمع البيان عن الباقر عليه السلام قال: «ومن أدمن فى فرائضه ونوافله سورة ق وسّع اللّه فى رزقه وأعطاه كتاباً بيمينه وحاسبه حساباً يسيراً».

وكل هذه الفضيلة والفخر لا يحصل بقراءة الألفاظ فحسب، بل القراءة هى بداية لتيقّظ الأفكار، وهى بدورها مقدّمة للعمل الصالح والإنسجام مع محتوى السورة هذه.

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أ إِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (۴) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (۵) مرّةً اخرى نواجه هنا بعض الحروف المقطعة، وهو الحرف «ق»، وكما قلنا من قبل أنّ واحداً من التفاسير المتينة هو أنّ هذا القرآن على عظمته مؤلّف من حروف بسيطة هى ألف باء الخ ... وهذا يدلّ على أنّ مُبدع القرآن ومنزله لديه علم لا محدود وقدرة مطلقة بحيث خلق هذا التركيب الرفيع العالى من هذه الوسائل البسيطة المألوفة.

قال بعض المفسرين: إنّ «ق» إشارة إلى بعض أسماء اللّه تعالى «كالقادر والقيّوم» وما إلى ذلك من الأسماء المبدوءة بحرف القاف.

ومن جملة الامور التى تثبت على أنّ هذا الحرف (ق) هو من الحروف المقطعة المذكورة لبيان عظمة القرآن هو مجىء القسم مباشرةً- بعد هذا الحرف- بالقرآن المجيد إذ يقول سبحانه: «ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ».

«المجيد»: مشتقة من المجد ومعناها الشرف الواسع؛ وبما أنّ القرآن عظمته غير محدودة وشرفه بلا نهاية، فهو جدير بأن يكون مجيداً من كل جهة، فظاهره رائق، ومحتواه عظيم، وتعاليمه عالية، ومناهجه مدروسة، تبعث الروح والحياة فى نفوس العباد.

ثم يبيّن القرآن جانباً من إشكالات الكفار والمشركين العرب الواهية فيذكر إشكالين

---

(۱) مستدرك، الحاكم النيسابورى ۱/ ۲۸۴؛ صحيح مسلم ۳/ ۱۳؛ مسند أحمد ۶/ ۴۶۳.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۱

منها ... الأوّل هو حكايته عنهم: «بَلْ عَجِبُوا أن جاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ».

وبعد إشكالهم الأوّل على نبوّة النبى محمّد صلى الله عليه و آله وهو كيف يكون النبى بشراً؟! كان لهم إشكال آخر على محتوى

دعوته ووضعوا أصابع الدهشة على مسألة اخرى كانت عندهم أمراً غريباً وهى: «أءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ».

إنّ القرآن يردّ عليهم بطرق متعددة؛ فتارةً يشير إلى علم اللَّه الواسع فيقول: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ».

إذا كان إشكالكم هو أنّه كيف تجتمع عظام الإنسان النخرة ولحمه الذى صار تراباً ومن يجمعها؟! أو من يعرف عنها شيئاً؟! فجواب ذلك معلوم ... فاللَّه الذى أحاط بكل شيء علماً يعرف جميع هذه الذرّات ويجمعها متى شاء، كما أنّ ذرّات الحديد المتناثرة فى تلّ من الرمل يمكن جمعها بقطعة من «المغناطيس» فكذلك جمع ذرّات الإنسان أيسر على اللَّه من ذلك.

وإذا كان إشكالهم أنّه من يحفظ أعمال الإنسان ليوم المعاد، فالجواب على ذلك أنّ جميع أعمال الناس فى لوح محفوظ، ولا يضيع أى شيء فى هذا العالم، وكل شيء- حتى أعمالكم- سيظلّ باقياً وإن تغيّر شكله.

ثم يردّ القرآن عليهم بجواب آخر، وفيه منحى نفسى أكثر إذ يقول: «بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ». أى: إنّهم جحدوا الحق مع علمهم به، وإلّا فإنّه لا غبار على الحق، وكما سيتّضح فى الآيات المقبلة فإنّهم يرون صورة مصغّرة للمعاد بأعينهم مراراً فى هذه الدنيا وليس عندهم مجال للشك والتردد.

لذلك فإنّ القرآن يختتم هذه الآية مضيفاً: «فَهُمْ فِى أَمرٍ مَّرِيجٍ». فلأنّهم كذّبوا الرسالة فهم دائماً فى تناقض فى القول وحيرة فى العمل وإضطراب فى السلوك.

فتارةً يتّهمون النبى بأنّه مجنون أو أنّه شاعر أو كاهن.

وتارةً يقولون بأنّه يعلّمه بشر.

وهذه الكلمات المتفرقة والمتناقضة تدلّ على أنّهم فهموا الحق، إلّاأنّهم يتذرّعون بحجج واهية شتّى، ولذلك لا يقرّون على كلام واحد أبداً.

«مريج»: مشتقة من مرج ومعناها الأمر المختلط والمشتبه والمشوش، ولذلك فقد أطلقوا على الأرض التى تكثر فيها النباتات المختلفة والمتعددة بأنّها «مرج» أو «مرتع».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۲

أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱) انظروا إلى السماء لحظةً: هذه الآيات تواصل البحث عن دلائل المعاد، فتارةً تتحدث عن قدرة اللَّه المطلقة لإثبات المعاد، واخرى تستشهد له بوقائع ونماذج تحدث فى الدنيا تمثّل حالة المعاد، فهى تستجلب وتُلفت أنظار المنكرين إلى خلق السماوات فتقول: «أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا».

والمراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفكير الذى يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذى خلق السماء الواسعة وما فيها من عجائب مذهلة وتناسق وإستحكام ونظم ودقة.

جملة «وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ» أى لا إنشقاق فيها، إمّا أن يكون بمعنى عدم النقص والعيب، أو أن يكون معناه عدم الإنشقاق والإنفطار فى السماء المحيطة بأطراف الأرض وهى ما يعبّر عنها بالغلاف الجوّى للأرض أو ما يعبّر القرآن عنه بالسقف المحفوظ.

ثم تشير الآيات إلى عظمة الأرض فتقول: «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ».

أجل، خلق الأرض من جهة، ثم اتّساعها «وخروجها من تحت الماء» من جهة اخرى، ووجود الجبال «الرواسى» عليها وإرتباط بعضها ببعض كأنّها السلاسل التى تشدّ الأرض وتحفظها من الضغوط الداخلية والخارجية والجزر والمدّ الحاصلين من جاذبية الشمس والقمر من جهة ثالثة ... ووجود أنواع النباتات بما فيها من عجائب واتّساق وجمال من جهة رابعة جميعها تدلّ على قدرته اللّامحدودة.

أمّا الآية التالية فهى بمثابة الإستنتاج إذ تقول: «تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ».

أجل إنّ من له القدرة على خلق السماوات بما فيها من عظمة وجمال وجلال، والأرض بما فيها من نعمة وجمال ودقّة، كيف لا يمكنه أن يلبس الموتى ثوب الحياة مرّة اخرى وأن يجعل لهم معاداً وحياة اخرى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۳

أمّا الآية التالية ففيها إستدلال آخر على هذا الأمر إذ تقول: «وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً مُّبارَكًا فَأَنبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ».

ثم تضيف الآية: «وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ».

«باسقات»: جمع «باسقة» بمعنى الشجرة المرتفعة العالية؛ و «الطلع»: ثمر النخل وما يكون منه الرطب والتمر بعدئذ؛ «النضيد»: معناها المتراكم بشكل دقيق.

والآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: «رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذلِكَ الْخُرُوجُ».

وهكذا فإنّ هذه الآيات ضمن بيان النعم العظمى للعباد وتحريك إحساس الشكر فيهم فى مسير المعرفة تذكّرهم بأنّهم يرون مثلًا للمعاد كل سنة فى حياتهم فى هذه الدنيا، فالأرض الميتة الخالية واليابسة تهتزّ وتنبت النباتات عليها عند نزول قطرات الغيث وكأنّ أصداء القيامة تترنّم على شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شريك له».

فهذه الحركة العظيمة نحو الحياة فى عالم النباتات تكشف عن هذه الحقيقة، وهى أنّ بارىء عالم الموجودات قادر على إحياء الموتى مرّةً اخرى، لأنّ وقوع الشىء أقوى دليل على إمكانه.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (١٢) وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَ فَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) لست وحدك المبتلى بالعدوّ: تعالج هذه الآيات مسألة المعاد من خلال نوافذ متعددة.

ففى البداية ومن أجل تثبيت قلب النبى صلى الله عليه و آله وتسليته تقول: لست وحدك المرسل الذى كذّبه الكفار وكذّبوا محتوى دعواته ولا سيما المعاد فإنّه: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسّ وَثَمُودُ».

وجماعة «ثمود» هم قوم صالح النبى العظيم إذ كانوا يقطنون منطقة «الحجر» شمال الحجاز. أمّا «أصحاب الرسّ» فالكثير من المفسرين يعتقدون أنّهم طائفة كانت تقطن اليمامة، وكان عندهم نبىّ يُدعى حنظلة فكذّبوه. وألقوه فى البئر فى آخر الأمر.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۴

ثم يضيف القرآن قائلًا: «وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ». والمراد بإخوان لوط هم قومه، وقد عبّر القرآن عن لوط بأنّه أخوهم، وهذا التعبير مستعمل فى اللغة العربية بشكل عام.

وكذلك من بعدهم: «وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ». و «الأيكة»: معناها الأشجار الكثيرة المتداخلة بعضها ببعض- أو الملتفّة أغصانها- و «أصحاب الأيكة» هم طائفة من قوم شعيب كانوا يقطنون منطقة غير «مدين» وهى منطقة ذات أشجار كثيرة.

والمراد من «قوم تبّع» طائفة من أهل اليمن، لأنّ «تبّع» لقب لملوك اليمن، باعتبار أنّ هؤلاء القوم يتبعون ملوكهم.

ثم إنّ الآية هذه أشارت إلى جميع من ذكرتهم من الأقوام الثمانية فقالت: «كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ».

فإنّ هؤلاء الامم كذّبوا أنبياءهم وكذّبوا مسألة المعاد والتوحيد أيضاً، وكانت عاقبة أمرهم نُكراً ووبالًا عليهم، فمنهم من ابتلى بالطوفان، ومنهم من أخذته الصاعقة، ومنهم من غرق بالنيل، ومنهم من خُسفت به الأرض أو غير ذلك، وأخيراً فإنّهم ذاقوا ثمرة تكذيبهم المرّة.

ثم يشير القرآن إلى دليل آخر من دلائل إمكان النشور ويوم القيامة فيقول: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ».

ثم يضيف القرآن: إنّهم لا يشكّون ولا يتردّدون فى الخلق الأوّل لأنّهم يعلمون أنّ خالق الإنسان هو اللّه ولكنّهم يشكّون فى المعاد مع كل تلك الدلائل الواضحة: «بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ».

وفى الحقيقة إنّهم فى تناقض بسبب هوى النفس والتعصّب الأعمى، فمن جهة يعتقدون بأنّ خالق الناس أوّلًا هو اللّه إذ خلقهم من

تراب، إلّاأنّهم من جهة اخرى حين يقع الكلام على المعاد وخلق الإنسان ثانية من التراب يعدّون ذلك أمراً عجيباً ولا يمكن تصوّره وقبوله.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (۱۷) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸) كتابه جميع الأقوال: يُثار في هذه الآيات قسم آخر من المسائل المتعلّقة بالمعاد، وهو

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۵

ضبط أعمال الإنسان وإحصاؤها لتعرض على صاحبها عند يوم الحساب.

تبدأ الآيات فتتحدث عن علم اللَّه المطلق وإحاطته بكلّ شيء فتقول: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْانسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ».

«توسوس»: مشتقة من الوسوسة وهي- كما يراه الراغب في مفرداته- الأفكار غير المطلوبة التي تخطر بقلب الإنسان، وأصل الكلمة «الوسواس» ومعناه الصوت الخفي وكذلك صوت أدوات الزينة وغيرها.

والمراد من الوسوسة في الآية هنا هي أنّ اللَّه لمّا كان يعلم بما يخطر في قلب الإنسان والوساوس السابحة في أفكاره، فمن البديهي أنّه عالم بجميع عقائده وأعماله وأقواله، وسوف يحاسبه عليها يوم القيامة.

وجملة «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْانسَانَ» يمكن أن تكون إشارةً إلى أنّ خالق البشر محال أن لا يعلم بجزئيات خلقه.

أجل، هو الخالق، وخلقه دائم ومستمر ونحن مرتبطون به في جميع الحالات، فمع هذه الحال كيف يمكن أن لا يعلم باطننا وظاهرنا.

ويضيف القرآن لمزيد الإيضاح في ذيل الآية قائلًا: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

وهذا ما أشار إليه القرآن في الآية (۲۴) من سورة الأنفال، إذ قال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وبالطبع فإنّ هذا كلّه تشبيه تقريبي، واللَّه سبحانه أقرب من ذلك وأسمى رغم كون المثال المذكور أبلغ تصوير محسوس على شدّة القرب.

إنّ الإلتفات إلى هذه الحقيقة يوقظ الإنسان، ويكون على بيّنة من أمره وما هو مذخور له في صحيفة أعماله عند محكمة عدل اللَّه ... فيتحوّل من إنسان غافل إلى موجود واعٍ ملتزم ورع تقيّ.

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلًا: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ». أي: أنّه بالإضافة إلى إحاطة علم اللَّه «التامة» على ظاهر الإنسان وباطنه، فهنالك ملكان مأموران بحفظ ما يصدر منه عن يمينه وشماله.

«تلقّى»: معناها الأخذ والتسلّم؛ و «المتلقّيان»: هما ملكان مأموران بكتابة أعمال الناس؛

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۶

و «قعيد»: مأخوذة من القعود ومعناها «جالس» والمراد بالقعيد هنا الرقيب والملازم للإنسان. وبتعبير آخر: أنّ الآية هذه لا تعني أنّ الملكين جالسين عن يمين الإنسان وعن شماله، لأنّ الإنسان يكون في حال السير تارةً، واخرى في حال الجلوس، بل التعبير هنا هو كناية عن وجودهما مع الإنسان وهما يترصدّان أعماله. وورد في الروايات الإسلامية أنّ ملك اليمين كاتب الحسنات، وملك الشمال كاتب السيّئات، وصاحب اليمين أميرٌ على صاحب الشمال، فإذا عمل الإنسان حسنةً كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات، فإذا إستغفر اللَّه منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر اللَّه كتب له سيّئة واحدة.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث فتتحدث عن الملكين أيضاً فتقول: «مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

وكان الكلام في الآية الآنفة عن كتابة جميع أعمال الإنسان، وفي هذه الآية إهتمام بخصوص ألفاظه، وهذا الأمر هو للأهمية القصوى للقول وأثره في حياة الناس، حتى أنّ جملة واحدة أو عبارة قصيرة قد تؤدي إلى تغيير مسير المجتمع نحو الخير أو الشرّ.

«الرقيب»: معناها المراقب؛ و «العتيد»: معناها المتهيء للعمل.

وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (۲۰) وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ (۲۱) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲۲) القيامة، والبصر الحديد: تعكس الآيات أعلاه مسائل اخرى تتعلق بيوم المعاد: «مشهد الموت» و «النفخ فى الصور» و «مشهد الحضور فى المحشر». فتقول أوّلًا: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ».

سكرة الموت: هى حال تشبه حالة الثمل السكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الاضطراب والإنقلاب والتبدّل، وربّما إستولت هذه الحالة على عقل الإنسان وسلبت شعوره وإختياره.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۷

وللإمام على عليه السلام كلام بليغ- فى الخطبة ۱۰۹ فى نهج البلاغة- يرسم لحظة الموت وسكراتها إذ يقول: «اجتمعت عليهم سكرت الموت وحسرت الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم ومنطقه وأنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع باذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره! ويتذكّر أموالًا جمعها أغمض فى مطالبها وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتّعون بها».

ثم يضيف القرآن فى ذيل الآية قائلًا: «ذلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ» (۱).

أجل، إنّ الموت حقيقة يهرب منها أغلب الناس لأنّهم يحسبونه فناءً لا نافذةً إلى عالم البقاء، أو أنهم لعلائقهم وإرتباطاتهم الشديدة بالدنيا والمواهب المادية التى لهم فيها لا يستطيعون أن يصرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحيفة أعمالهم. أيّاً كان فهم منه يهربون ... ولكن ما ينفعهم ومصيرهم المحتوم فى إنتظار الجميع ولا مفرّ لأحد منه.

ثم يتحدث القرآن عن النفخ فى الصور فيقول: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ».

والمراد من «النفخ فى الصور» هنا هو النفخة الثانية، وهى نفخة «القيام والجمع والحضور» وتكون فى بداية البعث والنشور والقيامة وبها يحيى الناس جميعهم ويخرجون «وينسلون» من الأجداث والقبور إلى ربّهم وحساب «عدله» وجزائه.

وفى الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ».

فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل اللّه، والشهيد يشهد على أعماله! وهى كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتّهمين ويأتون معهم للمحكمة ويشهد عليهم الشهود.

وهنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فرداً فرداً) فيقال: «لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

أجل، إنّ أستار عالم المادة من الآمال والعلاقة بالدنيا والأولاد والمرأة والأنانية والغرور والعصبية والجهل والعناد وحبّ الذات لم تكن تسمح أن تنظر إلى هذا اليوم مع وضوح دلائل المعاد والنشور، فهذا اليوم ينفض عنك غبار الغفلة، وتماط عنك حجب الجهل

---

(۱) «تحيد»: مشتقة من مادة «حيد»- على وزن صيد- ومعناها العدول عن الشيء والفرار منه ..

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۸

والتعصّب واللجاجة، وتنشقّ أستار الشهوات والآمال، وما كان مستوراً وراء حجاب الغيب يبدو ظاهراً اليوم، لأنّ هذا اليوم يوم البروز ويوم الشهود ويوم تبلى السرائر.

وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (۲۳) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (۲۴) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (۲۵) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (۲۶) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (۲۷) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (۲۸) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۲۹) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۳۰) قرناء الإنسان من الملائكة

والشياطين: مرّةً اخرى ترتسم فى هذه الآيات صورة اخرى عن المعاد، صورة مثيرة مذهلة حيث إنّ الملك- قرين الإنسان- يبيّن محكومية الإنسان بين الملأ- ويصدر حكم اللَّه لمعاقبته وجزائه. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: يقول صاحبه وقرينه هذا كتاب أعمال هذا الإنسان حاضر لدىّ: «وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ».

فيكشف الستار عن كل صغيرة وكبيرة صدرت منه.

والمراد من «قرينه» هو الملك الذى يرافق الإنسان فى الدنيا والذى كان مأموراً بتسجيل أعماله وضبطها ليشهد عليه هناك فى محكمة عدل اللَّه.

ثم يخاطب اللَّه الملكين المأمورين بتسجيل أعمال الإنسان فيقول لهما: «أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ».

«عنيد»: مشتقة من العناد، ومعناها التكبر وحبّ الذات وعدم الخضوع للحق.

وفى الآية التالية إشارة إلى بعض الأوصاف الذميمة المنحطّة التى يتّصف بها هؤلاء الكفار- إذ تقول الآية: «مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ».

«معتد»: معناها المتجاوز على الحدود، سواءً أكان متجاوزاً لحقوق الآخرين أو لحدود اللَّه وأحكامه؛ و «مريب»: مشتقة من الريب، وتعنى من هو فى شك، الشك المقرون بسوء الظن، أو من يخدع الآخرين فيجعلهم بما يقول أو يعمل فى شك من أمرهم ... فيضلّوا عن سواء السبيل.

ثم تضيف الآية التالية لتذكر وصفاً ذميماً لمن كان من طائفة الكفار فتقول: «الَّذِى جَعَلَ

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۴۹

مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ». أجل: «فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ».

وفى هذه الآيات بيان ستّة أوصاف لأهل النار، فالأوصاف الخمسة المتقدمة بعضها لبعض بمثابة العلة والمعلول، أمّا الوصف السادس فإيضاح للجذر الأصيل لهذه الأوصاف، لأنّ معنى الكفار هو من أصرّ على كفره كثيراً، وينتهى هذا الأمر إلى العناد.

والمعاند أو العنيد يصرّ على منع الخير أيضاً، ومثل هذا الشخص بالطبع يكون معتدياً متجاوزاً على حقوق الآخرين وحدود اللَّه.

والمعتدون يصرّون على إيقاع الآخرين فى الشك والريب وسلب الإيمان عنهم.

وفى الوصف السادس أى: «الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ» يكمن الجذر الأصيل والأساس لجميع الإنحرافات الآنف ذكرها، والمراد من هذا الوصف هو الشرك، لأنّ التدقيق فيه يكشف أنّ الشرك هو الباعث على جميع هذه الامور المتقدمة.

وفى الآية التالية يكشف الستار عن مشهد آخر وصورة اخرى مما يجرى على هؤلاء الكفار وعاقبتهم، وهو المجادلة بينهم وبين الشيطان الغوى فى يوم القيامة، فكل من الكفار يلقى التبعات على الشياطين، إلّاأنّ قرينه «الشيطان» يردّ عليه ويقول كما يحكى عنه القرآن: «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلكِن كَانَ فِى ضَللٍ بَعِيدٍ». فلم أجبره على سلوك طريق الغواية والضلالة، بل هو الذى سلكه باختياره وإرادته وإختار هذا الطريق.

وبالرغم من أنّ هذه الآيات تتحدث عن دفاع الشيطان عن نفسه فحسب، ولا- يظهر فيها كلام على إعتراض الكفار وردّهم على الشيطان، إلّاأنّه وبقرينة سائر الآيات التى تتحدث عن مخاصمتهم فى يوم القيامة وبقرينة الآية التالية يتّضح جدال الطرفين إجمالًا، لأنّها تقول حاكية عن رب العزة: «قَالَ لَاتَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ».

وأخبرتكم عن هذا المصير.

إشارة إلى قوله تعالى للشيطان من جهة: «قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا» «۱».

ومن جهة اخرى فقد أنذر سبحانه من تبعه من الناس: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» «۲».

(۱) سورة الإسراء/ ۶۳.

(۲) سورة ص/ ۸۵.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۰

مختصر الامثل ج۴ ۵۹۰

ولمزيد التأكيد تقول الآية التالية حاكية عن لسان رب العزة: «مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلم لّلْعَبِيدِ».

والمراد من «القول» هنا هو التهديد أو الوعيد الذى أشار إليه اللّه سبحانه مراراً فى آيات متعددة وذكرنا آنفاً أمثلةً منها.

والتعبير ب «ظلّام» وهو صيغة مبالغة معناه إشارة إلى أنّ مقام عدل اللّه وعلمه فى درجة بحيث لو صدر منه أصغر ظلم لكان يعدّ كبيراً جدّاً ولكان مصداقاً للظلّام، فعلى هذا فإنّ اللّه بعيد عن أى أنواع الظلم.

إنّ هذا التعبير دليل على أنّ العباد مخيّرون ولديهم الحرية «فى الإرادة» فلا الشيطان مجبور على شيطنته وعمله، ولا الكفار مجبورون على الكفر وأتباع طريق الشيطان، ولا العاقبة والمصير القطعى الخارج عن الإرادة قد تقرّرا لأحد أبداً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى جانب قصير ومثير من مشاهد يوم القيامة إذ تقول الآية: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ».

إنّ هذه الآية تدل دلالة واضحة أنّ أهل جهنم كثيرون، وأنّ صورة جهنم مرعبة وموحشة وأنّ تهديد اللّه جدّى وحق يربك الفكر فى كل إنسان فيهزّه ويحذّره ألّا يكون واحداً من أهلها.

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (۳۱) هذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (۳۲) مَنْ خَشِىَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (۳۳) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (۳۵) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۶) إِنَّ فِى ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (۳۷) مع الإلتفات إلى أنّ أبحاث هذه السورة يدور أغلبها حول محور المعاد والامور التى تتعلق به، ومع ملاحظة أنّ الآيات آنفة الذكر تتحدث عن كيفية القاء الكفار المعاندين فى نار جهنم وما يلاقونه من عذاب شديد وبيان صفاتهم التى جرّتهم وساقتهم إلى نار جهنم.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۱

ففى هذه الآيات محل البحث تصوير لمشهد آخر، وهو دخول المتقين الجنة بمنتهى التكريم والتجلّة وإشارة إلى أنواع النعم فى الجنة، كما أنّ هذه الآيات تبيّن صفات أهل الجنة لتتّضح الحقائق أكثر بهذه المقارنة ما بين أهل النار وأهل الجنة.

فتبدأ الآيات بالقول: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ».

«ازلفت»: من مادة «زُلفى»- على زنة كبرى- ومعناها القرب، أى قُرّبت.

ثم تبيّن الآيات أوصاف أهل الجنة فتقول: «هذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ».

«أوّاب»: من مادة «أوب»- على زنة ذوب- ومعناها العودة؛ ومع ملاحظة أنّ هذه الصيغة هى للمبالغة فإنّها تدلّ على أنّ أهل الجنة رجال متقون بحيث إنّ أى عامل أو مؤثّر أراد أن يبعدهم عن طاعة اللّه فهم يلتفتون ويتذكّرون فيرجعون إلى طاعته فوراً، ويتوبون عن معاصيهم وغفلاتهم ليبلغوا مقام «النفس المطمئنة».

«الحفيظ»: معناه الحافظ، والمراد منه هو الحافظ لعهد اللّه إذ أخذه من بنى آدم ألّا يعبدوا الشيطان كما ورد فى الآية (۶۰) من سورة يس؛ والحافظ لحدود اللّه وقوانينه والحافظ لذنوبه والمتذكّر لها مما يستلزم التوبة والجبران.

وإستدامةً لبيان هذه الأوصاف فإنّ الآية التالية تشير إلى وصفين آخرين منها، وهما بمثابة التوضيح لما سبق ذكره، إذ تقول الآية: «مَّنْ خَشِىَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ». أى: أنّهم لا يرتكبون الإثم لا بمرأى من الناس ولا فى خلوتهم وإبتعادهم عنهم.

وهذا الخوف «أو الخشية» يكون سبباً للإنابة، فيكون قلبهم متوجّهاً إلى اللّه ويقبل على طاعته دائماً ويتوب من كل ذنب، وأن يواصلوا هذه الحالة حتى نهاية العمر ويردوا عرصات المحشر على هذه الكيفية.

ثم تضيف الآيـة الاخرى بأنّ اولئك الـذين يتمتعون بالصـفات الأربع هـذه حين تتلقّاهم الملائكة عند أبواب الجنة يقولون لهم بنهاية التجلّة والإكرام: «ادْخُلُوهَا بِسَلم».

«السلام» من كل أنواع الأذى والسوء والعذاب والمعاقبة، السلامة الكاملة فى لباس الصحّة والعافية.

ولطمأنتهم يُضاف أنّ ذلك اليوم يوم الدعّة و «ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ».

وإضافةً لهاتين البشارتين بشـرى الدخول بسـلام، وبشرى الخلود فى الجنة، يبشّرهم اللّه بشريين اخريين بحيث تكون مجموع البشريات أربعاً كما أنّهم يتصفون بأربع صفات يقول:

«لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۲

وإضافةً إلى كل ذلك فإنّه: «لَدَيْنَا مَزِيدٌ» من النعم التى لم تخطر ببال أحد.

وبعـد الانتهـاء من بيـان الحـديث حول أهل الجنـة وأهل النار ودرجاتهما، فإنّ القرآن يلفت أنظار المجرمين للعبرة والاسـتنتاج فيقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى الْبِلدِ». فكانت تلك الأقوام أقوى من هؤلاء وكانوا يفتحون البلدان ويتسلّطون عليهـا، إلّاأنّهم وبسـبب كفرهم وظلمهم أهلكنـاهم ... فهـل وجـدوا منفـذاً ومخرجـاً للخلاـص من الموت والعـذاب الإلـهى: «هَـلْ مِن مَّحِيصٍ».

«القرن» و «الإقتران»: فى الأصل هو «القرب» أو «الإقتراب» ما بين الشـيئين أو الأشياء، ويطلق لفظ «القرن» على الجماعة المتزامنة فى فترة واحدة، ويجمع على «قرون»، فإهلاك القرون معناه إهلاك الامم السابقة.

و «البطش» معناه حمل الشيء وأخذه بالقوّة والقدرة، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الفتك والحرب.

و «المحيص»: معناها الانحراف والعدول عن الشيء، ومن هنا فقد استعملت هذه الكلمة فى الفرار من المشاكل والهزيمة عن المعركة.

فإنّ الآية تنذر الكفار المعاصرين للنبى صلى الله عليه و آله أن يستقرئوا تاريخ الماضين وأن ينظروا فى قصصهم للاعتبار، ليروا ما صنع بهؤلاء المعاندين الذين كانوا امماً وأقواماً أشد من هؤلاء «وليفكّروا بعاقبتهم أيضاً».

ويضـيف القرآن فى آخر آيـة من الآيات محل البحث مؤكّداً أكثر فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ».

والمراد ب «القلب» هنا وفى الآيات الاخر من القرآن التى تتكلم على إدراك المسائل هو العقل والشعور والإدراك.

أمّا «أَلْقَى السَّمْعَ» فكناية عن الإصغاء ومنتهى الإستماع بدقة.

و «الشهيد»: يطلق على من هو حاضر القلب.

وهكذا فإنّ مضمون الآية بمجموعه يعنى ما يلى: إنّ هناك فريقين ينتفعان بهذه المواعظ والنصيحة ... فالفريق الأوّل من يتمتع بالذكاء والعقل ... ويستطيع بنفسه أن يحلّل المسائل بفكره.

أمّا الفريق الآخر فليس بهذا المستوى، إلّاأنّه يمكن أن يلقى السمع للعلماء ويصغى لكلماتهم بحضور القلب ويعرف الحقائق عن طريق الإرشاد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۳

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ (۴۰) خالق السـماوات والأرض قادر على إحياء الموتى: تعقيباً على ما ورد فى الآيات آنفـة الـذكر ودلائلها المتعددة فى شأن المعاد، تشـير الآيات محل البحث إلى دليل آخر من دلائل إمكان المعاد ... ثم تـأمر النبى بـالصبر والاسـتقامة والتسبيـح بحمـد اللّه ليبطل دسائس المتآمرين وما يحيكونه ضـدّه، فتقول الآيـة الاولى من هـذه الآيات:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ».

«اللغوب»: بمعنى «التعب» وبديهى أنّ من كان قادراً على إيجاد السماوات والأرض وخلق الكواكب والمجرّات وأفلاكها جميعاً، قادر على إعادة الإنسان بعد موته وأن يُلبسه ثوباً جديداً من الحياة.

وبعد ذكر دلائل المعاد المختلفة وتصوير مشاهد المعاد ويوم القيامة المتعددة فإنّ القرآن يخاطب النبى ويأمره بالصبر- لأنّ هناك طائفة لا تذعن للحق وتصرّ على الباطل فيقول:

«فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ». إذ بالصبر والإستقامة- وحدهما- يستطاع التغلّب على مثل هذه المشاكل.

وبما أنّ الصبر والإستقامة يحتاجان إلى دعامة ومعتمد، فخير دعامة لهما ذكر اللّه والإرتباط بالمبدأ- مبدأ العلم القادر على إيجاد العالم- لذلك فإنّ القرآن يضيف تعقيباً على الأمر بالصبر قائلًا: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ».

وكذلك: «وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ».

و «التسبيح» فى الأوقات الأربعة إشارة إلى الصلوات الخمس اليومية وبعضاً من النوافل الفضلى على الترتيب والنحو التالى:

ف «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» إشارة إلى صلاة الصبح، لأنّ فى آخر وقتها تطلع الشمس فينبغى أداؤها قبل طلوع الشمس.

وقبل الغروب إشارة إلى صلاتى الظهر والعصر لأنّ الشمس تغرب آخر وقتيهما.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۴

أمّا قوله: «وَمِنَ الَّيْلِ» فيشير إلى صلاتى المغرب والعشاء وقوله: «وَأَدْبَارَ السُّجُودِ» ناظر إلى النوافل بعد صلاة المغرب.

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (۴۱) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (۴۲) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (۴۳) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (۴۵) يخرج الجميع أحياءً عند صيحة القيامة: هذه الآيات محل البحث التى تختتم بها سورة «ق» كسائر آياتها تتحدث على المعاد والقيامة كما أنّها تعرض جانباً منهما أيضاً وهو موضوع النفخة فى الصور، وخروج الأموات من القبور فى يوم النشور ...

فتقول: «وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ».

والمخاطب بالفعل «استمع» هو النبى صلى الله عليه و آله نفسه إلّاأنّه من المسلّم به أنّ المقصود جميع الناس.

والمراد من «استمع» إمّا هو الإنتظار والترقّب، لأنّ من ينتظر حادثة تبدأ بصوت مهول يُرى فى حالة ترقّب دائماً، فهو منتظر لأن يسمع الصوت؛ أو هو الإصغاء إلى كلام اللّه فيكون المعنى «استمع كلام اللّه» إذ يقول: يوم يسمعون الصيحة الخ.

هذا المنادى هو «إسرافيل» الذى ينفخ فى الصور ... وقد وردت الإشارة فى آيات القرآن إليه لا بالإسم بل بتعبيرات خاصة.

عبارة «مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ» إشارة إلى أنّ هذه الصيحة ينتشر صداها فى الفضاء بدرجة أنّها كما لو كانت فى اذن كل أحد.

ولكى يعرف من الحاكم فى هذه المحكمة الكبرى، فإنّ القرآن يضيف قائلًا: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ».

ثم يضيف القرآن فيخبر عن ميقات النشور فيقول: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا».

أى: يخرجون مسرعين من القبور. ويضيف مختتماً: «ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ».

و «الحشر»: معناه الجمع من كل جهة ومكان.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۵

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث وهى آخر آية من سورة «ق» ذاتها فهى تخاطب النبى وتسرّى عنه وتسلّى قلبه لما يلاقيه من المعاندين والكفرة فتقول: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ».

فمسؤوليتك البلاغ والدعوة نحو الحق والبشارة والنذارة: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ».

وذلك إشارة إلى أنّ القرآن كافٍ للإنذار وإيقاظ المؤمنين، فكل صفحة منه تذكر بيوم القيامة وآياته المختلفة التى تتحدث عن

قصص الماضین وعاقبتهم وتصف أهل النار وأهل الجنة وما یقع عند قیام الساعة فی محکمة عدل اللَّه هی خیر موعظة ونصیحة لجمیع الناس.

«نهایة تفسیر سورة ق»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۷

۵۱. سورة الذاریات

محتوی السورة: یدور محور هذه السورة حول المسائل المتعلقة بالمعاد ویوم القیامة والثواب والعقاب لکل من المؤمنین والکافرین.

إنّ مباحث هذه السورة تدور حول خمسة محاور وهی:

۱- إنّ القسم المهم منها یتکلم عن المعاد وبدایة السورة ونهایتها أیضاً هما حول المعاد.

۲- القسم الآخر ناظر إلی مسألة توحید اللَّه وآیاته فی نظام الخلق والوجود، وهی تکمل مبحث المعاد طبعاً.

۳- وفی قسم آخر یقع الکلام علی ضیف إبراهیم من الملائکة وما امروا به من تدمیر مدن قوم لوط.

۴- والآیات الاخر من هذه السورة فیها إشارات إلی قصّة موسی علیه السلام وبعض الامم کعاد وثمود وقوم نوح.

۵- وقسماً من هذه السورة یتحدث عن مواجهة الامم المعاندین لأنبیائهم وتأمر النبی صلی الله علیه و آله بالصبر والاستقامة بوجه المشاکل والشدائد وتسرّی عنه وتسلّی قلبه.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الصّادق علیه السلام قال: «من قرأ سورة الذاریات فی یومه أو لیلته أصلح اللَّه له معیشته، وأتاه برزق واسع ونور له فی قبره بسراج یزهر إلی یوم القیامة».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۸

والهدف هو التلاوة بتفکر ... التفکر الباعث علی العمل.

وقد اشتق اسم هذه السورة، أی (الذاریات) من الآیة الاولی فیها.

وَ الذّارِیاتِ ذَرْواً (۱) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (۲) فَالْجارِیاتِ یُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (۴) إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (۵) وَ إِنَّ الدِّینَ لَواقِعٌ (۶)

قسماً بالأعاصیر والسُحُب الذاریات: هذه السورة هی الثانیة بعد سورة «الصافات» التی تبدأ بالقَسم المتکرر، القسم العمیق والباعث علی التفکر.

والطریف فی الأمر أنّ هذا القَسم یرتبط محتواه بمحتوی یوم القیامة والنشور.

والحقیقة أنّ کل قسم فی القرآن هو بنفسه- وإن کثرت الأقسام- أو الأیمان- وجه من وجوه إعجاز القرآن هذا الکتاب السماوی، وهو من أجمل جوانبه وأبهاها وسیأتی تفصیل کل ذلک فی موقعه.

وفی مستهلّ السورة یقسم اللَّه سبحانه بخمسة أشیاء مختلفة، فیقول اللَّه فی البدایة:

«وَالذَّارِیَاتِ ذَرْوًا» «۱». أی قسماً بالریاح التی تحمل السحب فی السماء وتذرو البذور علی الأرض فی کل مکان ...

ثم یضیف: «فَالْحَامِلتِ وِقْرًا». قسماً بالسحب التی تحمل أمطاراً ثقیلة معها ..

«فَالْجَارِیَاتِ یُسْرًا». و «الجاریات»: هنا هی السفن. أی: قسماً بالسفن التی تجری فی الأنهار العظیمة والبحار الشاسعة بیسر وسهولة ..

«فَالْمُقَسّمَاتِ أَمْرًا». و «المقسّمات»: هنا معناها الملائکة الذین یقسّمون الامور.

فهناک تفسیر آخر یمکن ضمّها إلی هذا التفسیر، وهو أنّ المراد ب «الجاریات» هی الأنهار التی تجری بماء المزن؛ و «المقسّمات أمراً» هی الأرزاق التی تقسّم بواسطة الملائکة عن طریق الزراعة.

وعلی هذا فإنّ الکلام عن الریاح ثم الغیوم وبعدها الأنهار وأخیراً نمو النباتات فی الأرض یتناسب تناسباً قریباً مع مسألة المعاد، لأنّنا

نعرف أنّ واحداً من أدلة إمكان المعاد هو إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث وقد ذكر ذلك عدة مرات فى القرآن بأساليب مختلفة.

---

(۱) «الذّاريات»: جمع «الذّارية»، ومعناها الريح التى تحمل معها الأشياء وتنشرها فى الفضاء.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۵۹

وبعد ذكر هذه الأقسام الأربعة التى تبيّن أهمية الموضوع الذى يليها، يقول القرآن: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ».

ومرّة اخرى لمزيد التأكيد يضيف قائلًا: «وَإِنَّ الدّينَ لَوَاقِعٌ». «الدين»: هنا معناه الجزاء كما جاء بهذا المعنى فى قوله تعالى: «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ». أى يوم الجزاء.

وأساساً فإنّ واحداً من أسماء يوم القيامة هو «يوم الدين» و «يوم الجزاء». ويتضح من ذلك أنّ المراد من الوعود الواقعة «هنا» هى ما يوعدون عن يوم القيامة وما يتعلق بها من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار وسائر الامور المتعلقة بالمعاد، فعلى هذا تكون الجملة الاولى شاملة لجميع الوعود، والجملة الثانية تأكيد آخر على مسألة الجزاء.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (۷) إِنَّكُم لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (۱۰) الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (۱۱) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴) والسماء ذات الحُبك: تبدأ هذه الآيات كالآيات المتقدمة بالقسم وتتحدث عن إختلاف الكفار وجدلهم حول يوم الجزاء والقيامة. فتقول الآيات فى البداية: قسماً بالسماء ذات الخطوط والتعرّجات الجميلة: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ».

«الحبك»: جمع «حباك» وفى اللغة معان كثيرة لها، وجميع هذه المعانى تعود إلى معنى واحد وهى التجاعيد والتعاريج الجميلة التى تظهر على صفحات الرمل فى الصحراء أو صفحات الماء أو التجاعيد فى الشعر أو السُحب فى السماء.

وتطبيق هذا المعنى على السماء ووصفها بها «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» هو إمّا لنجومها ذات المجاميع المختلفة وصورها الفلكية.

وإمّا للأمواج الجميلة التى ترتسم فى السحب أو لمجرّاتها العظيمة. فعلى هذا يكون معنى «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» أنّ القرآن يقسم بالسماء ومجراتها العظيمة.

أمّا الآية التالية فهى جواب للقسم وبيان لما وقع عليه القسم، إذ تقول مؤكّدة: «إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ». فدائماً أنتم تتناقضون فى الكلام؛ ففى مسألة المعاد تقولون أحياناً: لا نصدّق أبداً أن نعود أحياء بعد أن تصير عظامنا رميماً.

وتارةً تقولون نحن نشك فى هذه القضية ونتردد.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۰

وتارةً تضيفون أن هاتوا آباءنا وأسلافنا من قبورهم ليشهدوا أنّ بعد الموت قيامةً ونشوراً لنقبل بما تقولون.

وتقولون فى شأن النبى محمّد صلى الله عليه و آله تارةً بأنّه شاعر، أو بأنّه ساحر، وتارةً تقولون أنّه لمجنون، وتارةً تقولون إنّما يعلمه بشر فهو معلّم.

كما تقولون فى شأن القرآن بأنّه: أساطير الأوّلين تارةً، أو تقولون بأنّه شعر، وتارةً تسمّونه سحراً، وحيناً آخر تقولون أنّه كذب إفتراه وأعانه عليه قوم آخرون ... الخ.

فقسماً بحُبك السماء وتجاعيدها إنّ كلامكم مختلف ومليء بالتناقض، وكأنّ هذا التناقض فى كلامكم دليل على أنّه لا أساس لكلامكم أبداً.

وهذا التعبير إنّما هو استدلال على بطلان إدّعاء المخالفين فى شأن التوحيد والمعاد والنبى والقرآن «وإن كان إعتماد هذه الآيات فى الأساس على مسألة المعاد كما تدل عليه القرينة فى الآيات التالية».

وفى الآية التالية يبيّن القرآن علة الانحراف عن الحق فيقول: «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ». أى:

يؤفك عن الإيمان بالقيامة والبعث كل مخالف للحق، وإلّا فإنّ دلائل الحياة بعد الموت واضحة وجليّة.

«الإفك»: فى الأصل يطلق على صرف الشيء.

ومع ملاحظة أنّ الكلام كان فى الآيات المتقدمة على المعاد والقيامة، فمن المعلوم أنّ المراد الأصلى من الإنحراف والإفك هنا هو الانحراف عن هذه العقيدة ... كما أنّه حيث كان الكلام فى الآية المتقدمة عن اختلاف كلام الكفار وتناقضهم فيعلم أنّ المراد هنا من الآية هم اولئك المنحرفون عن الإيمان بالمعاد الذين انحرفوا عن مسير الدليل العقلى والمنطق السليم الباحث عن الحق.

وفى الآية التالية ذمّ شديد للكاذبين وتهديد لتخرصاتهم، إذ تقول: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ».

«الخراص»: من مادة «خَرْص» ومعناه فى الأصل كل كلام يقال تخميناً أو ظنّاً، وحيث إنّ مثل هذا الكلام غالباً ما يكون كذباً فقد استعملت هذه الكلمة فى الكذب أيضاً.

إنّ القضاء بلا دليل ولا مدرك أو مستند بيّن بل على الظن والحدس هو عمل يسوق إلى الضلال ويستحق اللعن والعذاب.

ثم يعرّف القرآن هؤلاء الخراصين الكذبة فيقول: «الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۱

«الغمرة»: فى الأصل معناها الماء الغزير الذى يغطّى محلًا ما ... ثم استعملت على الجهل السحيق الذى يغطّى عقل الشخص.

و «ساهون»: جمع ل «ساهٍ» وهى مشتقة من «السهو» والمراد بها هنا الغفلة.

فعلى هذا يكون المراد من كلمة «الخرّاصون» هم الغارقون فى جهلهم وكل يوم يتذرّعون بحجة واهية فراراً من الحق.

ولذلك فهم دائماً: «يَسئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدّينِ».

جملة «يسألون» والفعل للمضارع يدل على أنّهم يثيرون هذا السؤال أيّان يوم الدين؟! باستمرار ... على أنّه ينبغى أن يكون يوم القيامة وموعده مخفياً، ليكون محتمل الوقوع فى أىّ زمان، ويحصل منه الأثر التربوى للإيمان بيوم القيامة الذى هو بناء الشخصية والاستعداد الدائم.

إلّا أنّه ومع هذه الحال فإنّ القرآن يردّ عليهم مجيباً بلغة شديدة ويعنّفهم: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ».

وعندئذ يقال لهم هنالك: «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ». إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹) ثواب المستغفرين بالأسحار: تعقيباً على الكلام المذكور فى الآيات آنفة الذكر الذى كان يدور حول الكذبة والجهلة ومنكرى القيامة وعذابهم، فى الآيات محل البحث يقع الكلام عن المؤمنين المتقين وأوصافهم وثوابهم لتتجلّى بمقارنة الفريقين- كما هو عليه اسلوب القرآن- الحقائق أكثر فأكثر. تقول الآيات هنا: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

وصحيح أنّ البستان بطبيعته يكون ذا سواق وروافد، لكن ما ألطف أن تتدفّق مياه العيون فى داخل البستان نفسه وتسقى أشجاره ... فهذا هو ما تمتاز به بساتين الجنة ... فهى ليست ذات عين واحدة بل فيها عيون ماء متعددة تجرى متدفّقه هناك.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى نعم الجنّات الاخر فيتحدث عنها بتعبير مغلق فيقول:

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۲

«ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ». أى أنّهم يتلقّون هذه المواهب الإلهية بمنتهى الرضا والرغبة والشوق ... ويعقّب القرآن فى ختام الآية بأنّ هذه المواهب وهذا الثواب كل ذلك ليس إعتباطاً بل «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ». و «الإحسان»: هنا يحمل معنى وسيعاً بحيث يشمل طاعة اللّه والأعمال الصالحة الاخر أيضاً. والآيات التالية تبيّن كيفية إحسانهم، فتعرض ثلاثة أوصاف من أوصافهم فتقول: أوّلًا: «كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ».

«يهجعون»: مشتقة من الهجوع، ومعناه النوم ليلًا. فعلى هذا فهم كل ليلة يحيّون قسماً منها بالعبادة وصلاة الليل، أمّا الليالى التى يرقدون

فيها حتى مطلع الفجر ... وتفوت عليهم العبادة فيها كليّاً ... فهى قليلة جدّاً.

والوصف الثانى من أوصافهم يذكره القرآن بهذا البيان: «وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».

فحيث إنّ عيون الغافلين هاجعة آخر الليل والمحيط هادىء تماماً، فلا شىء يشغل فكر الإنسان ويقلق باله ... يصلّون ويستغفرون عن ذنوبهم خاصة.

ثم يذكر القرآن الوصف الثالث لأهل الجنة المتقين فيقول: «وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ».

كلمة «حق» هنا هو إمّا لأنّ اللَّه أوجب ذلك عليهم: كالزكاة والخمس وسائر الحقوق الشرعية الواجبة؛ أو لأنّهم التزموه وعاهدوا أنفسهم على ذلك.

ويمكن أن يقال إنّ الفرق بين المحسنين وغيرهم هو أنّ المحسنين يؤدّون هذه الحقوق، فى حين أنّ غيرهم ليسوا مقيدين بذلك.

وما وصلنا من روايات عن أهل البيت عليهم السلام يؤكّد أيضاً أنّ المراد من «حق معلوم» شىء غير الزكاة الواجبة.

وفى الفرق بين «السائل» و «المحروم»، فقال بعضهم «السائل» هو من يطلب العون من الناس، أمّا «المحروم» فمن يحافظ على ماء وجهه ويبذل قصارى جهده ليعيش دون أن يمدّ يده إلى أحد، أو يطلب العون من أحد، بل يصبّر نفسه.

فهذا التعبير يشير إلى هذه الحقيقة وهى لا تنتظروا أن يأتيكم المحتاجون ويمدّوا أيديهم إليكم، بل عليكم أن تبحثوا عنهم وتجدوا الأفراد المحرومين الذين يعبّر عنهم القرآن بأنّهم

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۳

«يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» «۱» ... لتساعدوهم وتحفظوا ماء وجوههم.

وَ فِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (۲۰) وَ فِى أَنْفُسِكُمْ أَ فَلَا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳) آيات اللَّه وآثاره فى أنفسكم: تعقيباً على الآيات المتقدمة التى كانت تتحدث عن مسألة المعاد وصفات أهل النار وأهل الجنة، تأتى هذه الآيات- محل البحث- لتتحدث عن آيات اللَّه ودلائله فى الأرض وفى وجود الإنسان نفسه ليطّلع على مسألة التوحيد ومعرفة اللَّه وصفاته التى هى مبدأ الحركة نحو الخيرات كلها من جهة، وعلى قدرته على مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة اخرى، لأنّ خالق الحياة على هذه الأرض وما فيها من عجائب قادر على تجديد الحياة بعد الموت كذلك. تقول هذه الآية أوّلًا: «وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ».

والحق أنّ دلائل اللَّه وقدرته غير المتناهية وعلمه وحكمته التى لا حد لها فى هذه الأرض كثيرة ووفيرة إلى درجة أنّ عمر أى إنسان مهما كان لا يكفى لمعرفتها جميعاً.

ولا- بأس أن ننقل هنا جانباً من كلمات بعض العلماء المعروفين فى العالم الذين لهم دراسات كثيرة فى هذا الصدد: إنّه «كرسى موريسين» فلنصغ إليه قائلًا: «لقد روعى منتهى الدقة فى تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخّمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر ممّا كانت عليه عشر مرّات لأنعدم الأوكسجين الذى هو المادّة الأصلية للحياة، ولو أنّ أعماق البحار كانت أكثر عمقاً ممّا هى عليه قليلًا أو كثيراً، لأنجذب جميع الأوكسجين والكربون من سطح الأرض ولم يعد أى إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض».

ويقول فى مكان آخر: «أنّ نسبة الأوكسجين فى الهواء هى إحدى وعشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لأحترق به كل ما من شأنه الاشتعال فى هذا العالم ... ولو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة فى غابة لأحترقت الغابة جمعاء» «۲».

---

(۱) سورة البقرة/ ۲۷۳.

(۲) أسرار خلق الإنسان، كرسى موريسين/ ۳۳- ۳۶.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۴

ویضیف القرآن فی الآیة التالیة قائلًا: «وَفِی أَنفُسِکُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». أی أفلا تبصرون هذه الآیات فی أنفسکم أیضاً. ولا شک أنّ الإنسان أعجوبة عالم الوجود وما هو فی العالم الأکبر موجود فی عالم الإنسان الأصغر أیضاً، بل فی الإنسان عجائب لا توجد فی أی مکان من العالم.

إنّ الأجهزة الموجودة فی بدن الإنسان کالقلب والکلیة والرئة وخاصة عشرات آلاف الکیلومترات من الأعصاب الرقیقة أو الکبیرة والأعصاب الدقیقة التی لا ترى بالعین المجرّدة وجمیعها مسؤولة عن إیصال الغذاء والماء والتهویة إلى عشرة ملیون ملیارد خلیة، والحواس المختلفة کالسمع والبصر والحواس الاخر کل منها آیة عظمى من آیات اللَّه.

وأهمّ من کل ذلک لغز الحیاة التی لم تعرف أسرارها وبناء الروح أو العقل الإنسانی الذی یعجز عن إدراکه عقول جمیع الناس.

وقد ورد فی حدیث عن النبی صلى الله علیه و آله أنّه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» «۱».

وفی الآیة الثالثة من الآیات- محل البحث- إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق وقدرته على المعاد، إذ تقول: «وَفِی السَّمَاءِ رِزْقُکُمْ وَمَا تُوعَدُونَ».

إنّ سعة مفهوم الرزق تشمل حبّات المطر وغیرها کنور الشمس الذی یأتی من السماء وله أثره الفاعل فی الحیاة، والهواء الذی هو أساس حیاة الموجودات.

إنّ ما یمنع البصیرة ویصدّها عن مطالعة أسرار الخلق هو «الحرص على الرزق»، فاللَّه سبحانه یطمئن الإنسان فی الآیة الأخیرة بأنّ رزقه مضمون، لیستطیع أن ینظر إلى عجائب العالم ویتحقق فیه قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

وجملة «وَمَا تُوعَدُونَ» فیمکن أن تکون تأکیداً على مسألة الرزق ووعد اللَّه فی هذا المجال، أو أنّ المراد منها عذاب ینزل من السماء.

فهذه الآیات الثلاث فیها ترتیب لطیف، فالآیة الاولى تتحدث عن أسباب وجود الإنسان وحیاته، والآیة الثانیة تتحدث عن الإنسان نفسه، والآیة الثالثة تتحدث عن أسباب بقائه ودوامه.

لذلک فإنّ الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث تُقسم فتقول: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّکُمْ تَنطِقُونَ».

وقد بلغ الأمر حدّاً أن یقسم اللَّه على ما لدیه من عظمة وقدرة لیُطمئن عباده الشاکین

---

(۱) بحار الأنوار ۲/ ۳۲.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۵

ضعاف الأنفس الحریصین إنّ ما توعدون فی مجال الرزق والثواب والعقاب والقیامة جمیعه حق ولا ریب فی کل ذلک.

هَلْ أَتَاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْرَاهِیمَ الْمُکْرَمِینَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۲۵) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قَالَ أَ لَا تَأْکُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِیمٍ (۲۸) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ (۲۹) قَالُوا کَذلِکِ قَالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ (۳۰) ضیوف إبراهیم علیه السلام: من هذا المقطع- فما بعد- یتحدث القرآن فی هذه السورة عن قصص الأنبیاء الماضین والامم المتقدمة تأکیداً وتأییداً للموضوع آنف الذکر وما حواه من مسائل، وأوّل جانب یثیره هذا المقطع هو قصة الملائکة الذین جاءوا لعذاب قوم لوط، ومرّوا على إبراهیم علیه السلام على صورة بشر، لیبشّروه بالولد، مع أنّ إبراهیم بلغ سنّاً کبیراً فهو فی مرحلة المشیب وامرأته کانت عقیماً کذلک.

فمن جهة ... یعدّ إعطاء هذا الولد لإبراهیم وزوجه وهما فی مرحلة الکبر والیأس من الإنجاب تأکیداً على کون الأرزاق مقدّرة کما اشیر إلى ذلک فی الآیات المتقدمة.

ومن جهة اخرى یُعدّ دلیلًا آخر على قدرة الحق وآیة من آیات معرفة اللَّه التی ورد البحث عنها فی الآیات آنفاً.

ومن جهة ثالثة يُعدّ بُشرى للُامم المؤمنة بأنّها فى رعاية الحق، كما أنّ الآيات التالية تتحدث عن عذاب قوم لوط وهى فى الوقت ذاته تهديد للمجرمين.

ففى البدء يوجّه اللَّه سبحانه الخطاب لنبيّه فيقول: «هَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرهِيمَ الْمُكْرَمِينَ».

والتعبير ب «المكرمين» إمّا لأنّ هؤلاء الملائكة كانوا مأمورين من قبل الحق، أو لأنّ إبراهيم عليه السلام أكرمهم، أو للوجهين معاً.

ثم يبيّن القرآن حالهم فيقول: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلمًا قَالَ سَلمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ».

فإنّ إبراهيم أدّى ما عليه من حق الضيافة: «فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۶

«راغ»: مشتق من «روغ»- على وزن شوق- ومعناه التحرّك مقروناً بخطّة خفية.

و «العجل»: على وزن «طفل» معناه ولد البقر وفى الأصل مأخوذة من العجلة، لأنّ هذا الحيوان فى هذه السن وفى هذه المرحلة يتحرك حركة عجلى، وحين يكبر تزول عنه هذه الصفة تماماً؛ و «السمين»: معناه المكتنز لحمه، وإنتخاب مثل هذا العجل إنّما هو لإكرام الضيف وليسع المتعلقين والأكلة الآخرين.

ثم تضيف الآية بالقول عن إبراهيم وضيفه: «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ». إلّاأنّه لاحظ أنّ أيديهم لا تصل إلى الطعام فتعجب و «قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ».

وكان إبراهيم يتصور أنهم من الآدميين «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» لأنّه كان معروفاً فى ذلك العصر وفى زماننا أيضاً بين كثير من الناس الملتزمين بالتقاليد العرفية، أنّه متى ما أكل شخص من طعام صاحبه فلن يناله أذى منه ولا يخونه ولذلك فإنّ الضيف إذا لم يأكل من طعام صاحبه، يثير الظن السيء بأنّه جاء لأمر محذور.

وهنا قال له الضيف كما ورد فى الآية (۷۰) من سورة هود طمأنةً له ف «قَالُوا لَاتَخَفْ».

ويضيف القرآن: «وَبَشَّرُوهُ بِغُلمٍ عَلِيمٍ».

وبديهى أنّ الغلام عند ولادته لا يكون عليماً، إلّاأنّه من الممكن أن يكون له إستعداد بحيث يكون فى المستقبل عالماً كبيراً ... والمراد به هنا هو ذلك المعنى.

والمشهور بين المفسرين أنّ هذا الغلام هو إسحاق.

«فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ». ونقرأ فى الآية (۷۲) من سورة هود قوله تعالى: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِى شَيْخًا».

«صرّة»: مشتقة من الصرّ على وزن الشرّ، ومعناه فى الأصل الشدّ والإرتباط. وفى الآية محل البحث معناها هو الصوت العالى الشديد.

و «صكّت»: معناها الضرب الشديد أو الضرب، والمراد منها هنا هو أنّ امرأة إبراهيم حين سمعت بالبشرى ضربت بيدها على وجهها- كعادة سائر النساء- تعجباً وحياءً.

وطبقاً لما يقول بعض المفسرين وما ورد فى سفر التكوين فإنّ امرأة إبراهيم كانت آنئذ فى سن التسعين وإبراهيم نفسه كان فى سن المئة عاماً ... أو أكثر. إلّاأنّ الآية التالية تنقل جواب الملائكة لها فتقول: «قَالُوا كَذلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ».

والتعبير ب «الحكيم» و «العليم» إشارة إلى أنه لا يحتاج إلى الإخبار بكونك امرأة عقيماً عجوزاً وبعلك شيخاً، فاللَّه يعرف كل هذه الامور.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۷

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۳۵) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (۳۷) مُدن قوم لوط المدمّرة آية وعبرة: تعقيباً على ما سبق من الحديث عن الملائكة الذين حلّوا ضيفاً على إبراهيم

وبشارتهم إيّاه فى شأن الولد «إسحاق» تتحدث هذه الآيات عمّا دار بينهم وبين إبراهيم فى شأن قوم لوط.

توضيح ذلك: إنّ إبراهيم بعد ما ابعد إلى الشام ... واصل دعوة الناس إلى اللّه ومواجهته لكل أنواع الشرك وعبادة الأصنام ... وقد عاصر إبراهيم الخليل «لوط» أحد الأنبياء العظام ويُحتمل أنّه كان مأموراً من قبله بتبليغ الناس وهداية الضالين، فسافر إلى بعض مناطق الشام «أى مدن سدوم» فحلّ فى قوم مجرمين ملوّثين بالشرك والمعاصى الكثيرة، وكان أقبحها تورّطهم فى الإنحراف الجنسى واللواط، وأخيراً فقد أمر رهط من الملائكة بعذابهم وهلاكهم إلّاأنّهم مرّوا بإبراهيم قبل إهلاكهم.

وقد عرف إبراهيم من حال الضيف (الملائكة) أنّهم ماضون لأمر مهم، ولم يكن هدفهم الوحيد البشرى بتولد إسحاق، لأنّ واحداً منهم كان كافياً لمهمة «البشارة»، أو لأنّهم كانوا عَجِلين فأحسّ بأنّ لديهم «مأمورية» مهمّة. لذلك فإنّ أوّل آية من الآيات محل البحث تحكى بداية المحاورة فتقول: «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ».

فأماط الملائكة اللثام عن «وجه الحقيقة» ومأموريتهم ف «قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ثم أضافوا قائلين: «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ».

والتعبير ب «حجارة من طين» هو ما أشارت إليه الآية (۸۲) من سورة هود بالقول من «سجّيل»؛ ولعلها فى المجموع إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ هلاك قوم لوط المجرمين لم يكن يستلزم إنزال أحجار عظيمة وصخور وجلاميد من السماء، بل كان يكفى أن يمطروا بأحجار صغيرة ليست صلبة جدّاً كأنّها حبّات «المطر».

ثم أضاف الملائكة قائلين: «مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۸

والقرآن هنا يكشف عما جرى لرسل اللّه إلى نبيّه لوط فيقول: «فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ».

أجل عدالتنا لا تسمح أن يبتلى المؤمن بعاقبة الكافر.

وهذا هو ما أشارت إليه الآيتان (۵۹ و ۶۰) من سورة الحجر بالقول: «إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ».

إنّ هذا القسم من قصة قوم لوط ورد فى هذه السور الخمس فى عبارات مختلفة وجميعها يتحدث عن حقيقة واحدة ... إلّاأنّه حيث يمكن أن ينظر إلى حادثة ما من زوايا متعددة وكل زاوية لها بعدها الخاصّ ... فإنّ القرآن ينقل الحوادث التاريخية- على هذه الشاكلة- غالباً.

وفى مقام التربية يلزم أحياناً أن يعول على مسألة مهمّة مراراً لتترك أثرها العميق فى ذهن القارىء.

فإنّ اللّه سبحانه زلزل مدن قوم لوط وقلب عاليها سافلها ثم أمطرها بحجارة من سجّيل منضود ولم يبق منها أثراً ... حتى أنّ أجسادهم دفنت تحت الأنقاض والحجارة لتكون عبرةً لمن يأتى بعدهم من المجرمين والظالمين غير المؤمنين.

ولذلك فإنّ القرآن يضيف قائلًا فى آخر آية من الآيات محل البحث: «وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ من يعتبر ويتّعظ بهذه الآيات هم الذين لديهم إستعداد للقبول فى داخل كيانهم ويحسّون بالمسؤولية.

وَ فِى مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۳۸) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴۰) وَ فِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲) وَ فِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (۴۶) دروس العبرة من الأقوام السالفة: يتحدث القرآن فى هذه الآيات محل البحث- تعقيباً

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۶۹

على قصّة قوم لوط وعاقبتهم الوخيمة- عن قصص أقوام آخرين ممّن مضوا فى العصور السابقة. فيقول أوّلًا: «وَفِى مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: ما يكون به التسلط، والمراد به هنا المعجزة أو الدليل والمنطق العقلى القوى أو كلاهما، وقد واجه موسى فرعون بهما.

إنّ فرعون لم يسلّم لمعجزات موسى الكبرى التى كانت شاهداً على إرتباطه باللّه ولم يطأطىء رأسه للدلائل المنطقية ... بل بقى مصرّاً لما كان فيه من غرور وتكبر: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

والطريف أنّ الجبابرة المتكبرين حين كانوا يتّهمون الأنبياء بالكذب والإفتراء كانوا يتناقضون تناقضاً عجيباً، فتارةً يتّهمونهم بأنّهم سحرة، واخرى بأنّهم مجانين، مع أنّ الساحر ينبغى أن يكون ذكياً وأن يعوّل على مسائل دقيقة ويعرف نفوس الناس حتى يسحرهم ويخدعهم بها ... والمجنون بخلافه تماماً.

إلّا إنّ القرآن يخبر عن فرعون الجبار وأعوانه بقوله: «فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمّ وَهُوَ مُلِيمٌ».

جملة «فنبذناهم» إشارة إلى أنّ فرعون وجنوده كانوا فى درجة من الضعف أمام قدرة اللّه بحيث ألقاهم فى اليمّ كأنّهم موجود لا قيمة ولا مقدار له.

المراد بالمليم ذو الملامة؛ أى هو الشخص الذى يرتكب عملًا يكون بنفسه ملامة.

والتعبير ب «وهو مليم» إشارة إلى أنّ العقاب الإلهى لم يَمحُه فحسب بل التاريخ من بعده يلومه على أعماله المخزية ويذكرها بكل ما يشينه ويلعنه ويفضح غروره وتكبره بإماطة النقاب عنهما.

ثم يتناول القرآن عاقبة قوم آخرين بالذكر وهم «قوم عاد»، فيقول: «وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرّيحَ الْعَقِيمَ».

ثم يذكر القرآن سرعة الريح المسلطة على عاد فيقول: «مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ».

«الرميم»: مأخوذ من الرمّة وهى العظام النخرة البالية. وهذا التعبير يدل على أنّ سرعة الريح المسلطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعية، بل إضافةً إلى تخريبها البيوت وهدمها المنازل، فهى محرقة وذات سموم مما جعلت كل شىء رميماً.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۰

ثم تصل النوبة إلى ثمود قوم صالح إذ أمهلهم اللّه قليلًا ليتلقوا العذاب بعد ذلك ... فيقول اللّه فيهم: «وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ».

والمراد ب «حَتَّى حِينٍ» هو الأيام الثلاثة المشار إليها فى الآية (۶۵) من سورة هود إمهالًا لهم: «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ».

أجل: «فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ».

«عتوا»: مشتقة من العتوّ- على وزن غلوّ- ومعناه الإعراض «بالوجه»، والإنصراف عن طاعة اللّه، والظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما كان منهم من إعراض طوال الفترة التى دعاهم فيها نبيّهم صالح كالشرك وعبادة الأوثان والظلم وعقرهم الناقة التى كانت معجزة نبيّهم، لا الإعراض الذى كان منهم خلال الأيام الثلاثة فحسب، وبدلًا من أن يتوبوا وينيبوا غرقوا فى غرورهم وغفلتهم.

وأخيراً فإنّ آخر جملة تتحدث عن شأن هؤلاء القوم المعاندين. تقول: «فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ».

إنّ قوم صالح (ثمود) الذين كانوا من القبائل العربية وكانوا يقطنون «الحجر» وهى منطقة تقع شمال الحجاز مع إمكانات مادية هائلة وثروات طائلة وعمّروا طويلًا فى قصور مشيّدة ... اهلكوا بسبب إعراضهم عن أمر اللّه وطغيانهم وعنادهم والشرك والظلم، وبقيت آثارهم درساً بليغاً من العبر للآخرين.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى عاقبة خامس امّة من الامم، وهى قوم نوح، فتقول: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ». و «الفاسق» يُطلق على من يخرج على حدود اللّه وأمره، ويكون ملوّثاً بالكفر أو الظلم أو سائر الذنوب.

وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (۴۷) وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۱) والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون: مرّة اخرى تتحدث هذه الآيات عن موضوع آيات عظمة اللّه فى عالم الخلق، وهى تتمة لما ورد فى الآيتين (۲۰ و ۲۱) من هذه السورة فى

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۱

شأن آياته فى الأرض وفى نفس «الإنسان» ووجوده- وهى ضمناً دليل على قدرة اللّه على المعاد والحياة، فتقول أوّلًا: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ».

«الأيد»: على وزن الصيد، معناه القدرة والقوة- وقد تكرّر هذا المعنى فى آيات القرآن المجيد، وهو هنا بمعنى قدرة اللّه المطلقة العظيمة فى خلق السماوات.

ودلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جلية فى عظمة السماوات ونظامها الخاصّ الحاكم عليها أيضاً.

ومع الأخذ بنظر الإعتبار ما إكتشفه العلماء من اتّساع العالم هو أنّ اللّه خلق السماوات ويوسعها دائماً.

والعلم الحديث (المعاصر) يقول ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخّم وتثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجاً، بل السماء أيضاً فى اتّساع دائم، أى أنّ بعض النجوم المستقرة فى المجرّات تبتعد عن مركز مجرّاتها بسرعة هائلة حتى أنّ هذه السرعة لها أثرها فى الإتّساع فى كثير من المواقع.

وبعد خلق السماء والأرض تصل النوبة إلى خلق الموجودات المختلفة فى السماء والأرض وأنواع النباتات والحيوانات فتقول الآية التالية فى هذا الشأن: «وَمِن كُلّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

جملة «وَمِن كُلّ شَىْءٍ» يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحية فحسب، فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرات موجبة وسالبة، ومن المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرات مؤلفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، ومنها ما يحمل طاقة موجبة وتدعى بالبروتون.

ويضيف القرآن فى الآية التالية مستنتجاً مما تقدم من الأبحاث التوحيدية قائلًا: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنّى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

والتعبير ب «الفرار» هنا يطلق فى ما إذا واجه الإنسان موجوداً أو حادثاً مخيفاً فيُسرع من مكان المواجهة إلى ذلك المكان ويلتجىء إلى نقطة الأمن والأمان ... فالآية تقول: فرّوا من عقيدة الشرك الموحشة وعبادة الأصنام إلى التوحيد الخالص الذى هو منطقة الأمن والأمان الواقعى.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۲

فرّوا من السيئات والقبائح وعدم الإيمان وظلمة الجهل والعذاب الدائم والتجأوا إلى رحمة الحق وسعادته الأبدية.

ولمزيد التأكيد، يستند القرآن إلى وحدانية العبادة للّهالأحد فيقول: «وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ إِنّى لَكُم مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

كَذلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (۵۵) قرأنا فى الآية (۳۹) من هذه السورة أنّ فرعون اتّهم موسى عليه السلام عندما دعاه إلى اللّه وترك الظلم أنّه ساحر أو مجنون، فهذا الإتهام ورد على لسان المشركين فى زمان النبى محمّد صلى الله عليه و آله أيضاً إذ اتّهموه بمثل ما اتّهم فرعون موسى وقد عزّ ذلك على المؤمنين الأوائل والقلائل كما كان يؤلم روح النبى. فالآيات محل البحث ومن أجل تسلية النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين تقول:

«كَذلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

كانوا يتّهمون الرسل السابقين بأنّهم سحرة لأنّهم لم يجدوا جواباً منطقياً لمعاجزهم الباهرة، وكانوا يخاطبون رسولهم بأنّه «مجنون» ...

لأنه لم يكن على غرارهم ومتلوّناً بلون المحيط ولم يستسلم للُامور المادية.

ثم يضيف القرآن هل أنّ هذه الأقوام الكافرة تواصت فيما بينها على توجيه هذه التهمة إلى جميع الأنبياء: «أَتَوَاصَوْا بِهِ».

ويعقّب القرآن على ذلک قائلًا: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ».

وهذه هى إفرازات روح الطغيان حيث يتوسّلون بكل كذب واتّهام لإخراج أهل الحق من الساحة.

ولمزيد التسرّى عن قلب النبى وتسليته يضيف القرآن: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ».

وكن مطمئناً بأنّک قد أدّيت ما عليک من التبليغ والرسالة: «فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ».

وهذه الجملة تذكّر بالآيات السابقة التى تدل على أنّ النبى كان يتحرق لقومه حتى يؤمنوا ويتأثر غاية التأثر لعدم إيمانهم حتى كاد يهلک نفسه من أجلهم.

كما تشير الآية (۶) من سورة الكهف حيث نقرأ فيها: «فَلَعَلَّکَ بَاخِعٌ نَّفْسَکَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۳

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمؤمنون، وظنوا أنّ الوحى قد انقطع وأنّ العذاب قد حل حتى نزلت الآية بعدها لتأمر النبى بالتذكير: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» (۱).

فكان أن أحسّ الجميع بالإطمئنان.

والآية تشير إلى أنّ هناک قلوباً مهيّأة تنتظر كلامک يا رسول اللَّه وتبليغک فإذا ما عاند جماعة ونهضوا بوجه الحق مخالفين، فإنّ هناک جماعةً آخرين تتوق إلى الحق من أعماق قلوبهم وأرواحهم ويؤثّر فيها كلامک اللّين.

وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (۵۶) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۵۸)

هدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن: من أهمّ الأسئلة التى تختلج فى خاطر كل إنسان هو لِمَ خُلِقنا؟! وما الهدف من خلق الناس والمجيىء إلى هذه الدنيا؟!

فالآيات آنفة الذكر تجيب على هذا السؤال المهم والعام بتعابير موجزة ذات معنى غزير، وتكمّل البحث الوارد فى آخر آية من الآيات المتقدمة حول تذكير المؤمنين، لأنّ ذلک من أهمّ الاصول التى ينبغى على النبى أن يتابعها ... كما توضح- ضمناً- معنى الفرار إلى اللَّه الوارد فى الآيات السابقة.

تقول الآيات حاكيةً عن اللَّه سبحانه: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ».

وأنّه غير مفتقر إلى أىّ منهم أبداً: «مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ». بل إنّ اللَّه تعالى هو الذى يرزق عباده ومخلوقاته ... «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

وبقليل من التأمل فى مفهوم آيات القرآن نرى أنّ الهدف الأصلى هو «العبودية» وهو ما اشير فى هذه الآيات محل البحث، أمّا العلم والإمتحان وأمثالهما فهى أهداف ضمن مسير العبودية للَّه، ورحمة اللَّه الواسعة نتيجة العبودية للَّه.

وهكذا يتّضح أنّنا خلقنا لعبادة اللَّه، لكن المهم أن نعرف ما هى حقيقة هذه العبادة؟!

إنّ العبودية هى إظهار منتهى الخضوع للمعبود، ولذلک فالمعبود الوحيد الذى له حق

---

(۱) مجمع البيان ۹/ ۲۶۸.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۴

العبادة على الآخرين هو الذى بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلک سوى اللَّه سبحانه.

فبناءً على ذلک فالعبودية هى قمّة التكامل وأوج بلوغ الإنسان وإقترابه من اللَّه.

فإنّ العبودية الكاملة هى أن لا يفكّر الإنسان بغير معبوده الواقعى أى الكمال المطلق، ولا يسير إلّافى منهجه اللاحب وأن ينسى سواه حتى (نفسه وشخصه).

وهذا هو الهدف النهائى من خلق البشر الذى أعدّ اللَّه له الامتحان والاختبار لنيله، ومنح الإنسان العلم والمعرفة، وجعل نتيجة كل ذلك فيض رحمته للإنسان.

هؤلاء يشاركون أصحابهم فى العذاب: الآيتان أعلاه هما آخر سورة الذاريات، وهما نوع من الإستنتاج لما تقدم من الآيات الواردة فى السورة ذاتها. فالآية الاولى تقول أنّه بعد أن أصبح معلوماً أنّ هؤلاء المشركين قد انحرفوا عن الهدف الحقيقى للخلقة، فليعلموا أنّ لهم قسطاً وافراً من العذاب الإلهى كما كان للأقوام السالفة: «فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ» .. ويقولوا إن كان عذاب اللَّه حقّاً فلِمَ لا يصيبنا؟!

والتعبير ب «الظلم» فى شأن هذه الجماعة هو لأنّ الشرك والكفر من أكبر الظلم، ولأنّ حقيقة الظلم هى وضع الشىء فى غير موضعه المناسب، ومن المعلوم أنّ عبادة الأصنام مكان عبادة اللَّه تعدّ أهم مصداق للظلم، ولذلك فهم يستحقون العاقبة التى نالها الأقدمون من المشركين.

وفى الآية الأخيرة إستكمال لعذاب الدنيا بعذاب الآخرة، إذ تقول: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ».

وكما أنّ هذه السورة بُدئت بمسألة المعاد والقيامة، فإنّها إنتهت بالتأكيد عليها كذلك.

«نهاية تفسير سورة الذاريات»

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۵

۵۲. سورة الطور

محتوى السورة: تتركز بحوث هذه السورة- أيضاً- على مسألة المعاد وعاقبة الصالحين والمتقين.

يمكن أن يقسّم محتوى هذه السورة إلى ستّة أقسام.

۱- الآيات الاولى من السورة التى تبدأ بالقَسم تلو القسم، وهى تبحث فى عذاب اللَّه، ودلائل القيامة وعلاماتها وعن النار وعقاب الكافرين (الآيات ۱- ۱۶).

۲- ثم يذكر بتفصيل نعم الجنة ومواهب اللَّه فى القيامة، (الآيات ۱۷- ۲۸).

۳- ثم يقع الكلام عن نبوّة محمّد صلى الله عليه و آله وما وجّه إليه الأعداء من التّهم، ويردّ عليها بنحو موجز (الآيات ۲۹- ۳۴).

۴- ثم بحث عن التوحيد باستدلالات واضحة (الآية ۳۵- ۴۳).

۵- ثم عود على مسألة المعاد وبعض أوصاف يوم القيامة (الآيات ۴۴- ۴۷).

۶- والقسم الأخير الذى لا يتجاوز الآيتين يختتم الامور المذكورة آنفاً بأمر نبى الإسلام بالصبر والاستقامة والتسبيح والحمد للَّهووعده بأنّ اللَّه حاميه وناصره.

وقد اشتق اسم هذه السورة (الطور) من الآية الاولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة والطور كان حقّاً على اللَّه أن يؤمنه من عذابه وأن ينعّمه فى جنّته».

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۶

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطور جمع اللَّه له خير الدنيا والآخرة».

وواضح أنّ كل هذا الأجر والثواب العظيم هو لُاولئك الذين يجعلون هذه التلاوة وسيلة للتفكر والتفكر بدوره وسيلة للعمل.

وَ الطُّورِ (۱) وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ (۲) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (۳) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (۴) وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (۵) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (۶) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (۷) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (۸) هـذه السورة- هی الاخرى- من السور التی تبدأ بالقسم ... القسم الـذی یهدف لبیان حقیقة مهمة، وهی مسألة القیامة والمعاد ومحاسبة أعمال الناس.

یقول سبحانه وتعالى: «وَالطُّورِ».

«الطور»: فی اللغة معناه الجبل، ولکن مع ملاحظة أنّ هـذه الکلمة تکرّرت فی عشر آیات من القرآن الکریم، تسع منها کانت فی الکلام على «طور سیناء» وهو الطور أو الجبل الـذی نزل الوحی عنده على موسى، فیُعلم أنّ المراد منه فی الآیة محل البحث (الطور ذاته).

فبناءً على ذلک، فإنّ اللَّه یقسم فی أوّل مرحلة بواحد من الأمکنة المقدسة فی الأرض حیث نزل علیها الوحی.

وفی تفسیر قوله تعالى «وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ» احتمالات متعددة، ولکن بتناسب القسَم المذکور آنفاً فإنّ الآیة تشیر هنا إلى «کتاب موسى» أو کل کتاب سماوی.

«فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ». «الرقّ»: من الرقّة، وهی فی الأصل الدقة واللطافة، کما تطلق هـذه الکلمة على الورق أو الجلد الخفیف الذی یکتب علیه؛ و «المنشور»: معناه الواسع.

«وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ». والمراد منه «الکعبة» وهی بیت اللَّه فی الأرض المعمور بالحجاج والزوار، وهو أوّل بیت وضع للعبادة على الأرض.

«وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ». والمقصود هو «السماء» لأنّنا نقرأ فی الآیة (۳۲) من سورة الأنبیاء: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا».

ولعل الوجه- فی التعبیر- بالسقف هو أنّ النجوم والکرات السماویة إلى درجة من الکثرة بحیث غطّت السماء فصارت کأنّها السقف، أو إشارة إلى الجو الذی یحیط بالأرض أو ما یسمّى بالغلاف الجوّی، وهو بمثابة السقف الذی یمنع النیازک والشهب أن تهوی إلى الأرض وتصدّ الأشعّة الضارّة من الوصول إلى الأرض.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۷

«وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ». «المسجور»: معناه الملتهب، کما فی الآیتین (۷۱ و ۷۲) من سورة غافر، إذ قال سبحانه: «يُسْحَبُونَ فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ».

هـذا «البحر المسجور» هو البحر المحیط بالأرض، أو البحار المحیطة بها وسیلتهب قبل یوم القیامة، ثم ینفجر کما نقرأ ذلک فی الآیة (۶) من سورة التکویر: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

البحر الذی فی باطن الأرض وهو مؤلّف من مواد منصهرة مذابة.

ولعلّ أن تکون الآیة قَسماً بهما معاً، إذ کلاهما من آیات اللَّه ومن عجائب هذا العالم الکبرى.

وعلاقة هـذه الأقسام الخمسة فیما بینها، أنّ الظاهر أنّ الأقسام الثلاثة الاول بینها إرتباط وعلاقة، لأنّها جمیعاً تتحدث عن الوحی وخصوصیاته، فالطور محل نزول الوحی، والکتاب المسطور إشارة إلى الکتاب السماوی أیضاً، سواءً کان التوراة أو القرآن، والبیت المعمور هو محل ذهاب وإیّاب الملائکة ورُسل وحی اللَّه.

أمّا القَسمان الآخران فیتحدثان عن الآیات التکوینیة «فی مقابل الأقسام الثلاثة التی کانت تتحدث عن الآیات التشریعیة».

وهـذان القَسمان واحد منهما یشیر إلى أهمّ دلائل التوحید وعلائمه وهو «السماء» بعظمتها، والآخر یشیر إلى واحد من علائم المعاد المهمة ودلائله، وهو الواقع بین یدی القیامة.

فبناءً على هذا فإنّ التوحید والنبوة والمعاد جمعت فی هذه الأقسام [أو الأیمان الخمسة.

«إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ». إنّ هـذه الأقسام والتی تدور حول محور قدرة اللَّه فی عالم التکوین والتشریع تدل على أنّ اللَّه قادر على إعادة الحیاة وبعث الموتى من قبورهم مرّة اخرى، وهـذا هو غایة الأقسام المذکورة کما قرأنا فی الآیات الأخیرة من الآیات

محل البحث.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً (۱۰) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۱) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (۱۲) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً (۱۳) هذِهِ النَّارُ الَّتِی كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (۱۵) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۸

كانت فی الآيات السابقة إشارة وتلميح عن عذاب اللَّه فی يوم القيامة- بصورة مغلقة- أمّا الآيات محل البحث ففيها توضيح وتفسير لما مرّ، فتتحدث أوّلًا عن بعض حالات يوم القيامة وخصائصه، ثم عن كيفية تعذيب المكذبين فتقول: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا».

«المَوْر»: معناه الحركة السريعة والدوران المقترن بالذهاب والإياب والاضطراب والتموّج. وعلى هذا فإنّ النظام الحاكم على الكرات يضطرب بين يدى يوم القيامة وتنحرف عن مداراتها وتتّجه إلى كل جهة ذهاباً وإيّاباً، ثم تتبدّل وتولّد سماء جديدة بأمر اللَّه كما تقول الآية (۱۰۴) من سورة الأنبياء: «يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ».

ثم يضيف القرآن فی آية اخرى: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا».

كل ذلك هو إشارة إلى أنّ هذه الدنيا وما فيها وما عليها تندكّ ويحدث مكانها عالم جديد بأنظمة جديدة ويكون الإنسان أمام نتائج أعماله وجهاً لوجه.

لذا فإنّ القرآن يضيف فی الآية التالية قائلًا: «فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ».

أجل، حين تعمّ الوحشة والإضطراب جميع الخلق لتغيّر العالم، تهيمن على المكذبين وحشة عظيمة وهی العذاب الإلهی ... لأنّ «الويل»: إظهار التأسف والحزن لوقوع حادثة غير مطلوبة.

ثم تبيّن الآيات من هم «المكذبون» فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ».

فيزعمون أنّ آيات القرآن ضرب من الكذب والإفتراء وأنّ معجزات النبی سحر وأنّه مجنون، ويتلقّون جميع الحقائق باللعب ويسخرون منها ويستهزئون بها.

«خوض»: معناه الدخول فی الكلام الباطل، وهو فی الأصل ورود الماء والعبور منه.

ثم تبيّن الآيات ذلك اليوم وعاقبة هؤلاء المكذبين فی توضيح آخر، فتقول: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» (۱). أی يساقون نحو جهنم بعنف وشدة.

ويقال لهم حينئذ: «هذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ».

كما يقال لهم أيضا: «أَفَسِحْرٌ هذَا أَمْ أَنتُمْ لَاتُبْصِرُونَ».

لقد كنتم تزعمون فی الدنيا إنّ ما جاء به محمّد سحر، وليختطف عقولنا! ويرينا اموراً على أنّها معاجز، ويذكر لنا كلاماً على أنّه وحی منزل من اللَّه.

---

(۱) «دعّ»: على وزن جدّ معناه الدفع الشديد والسوق بخشونة وعنف.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۷۹

لذلك فحين يردون نار جهنم يقال لهم بنحو التوبيخ والملامة والإحتقار وهم يلمسون حرارة النار: أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟!

كما يقال لهم هناك أيضاً: «اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَاتَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

أجل، هذه هی أعمالكم وقد عادت إليكم، فلا ينفع الجزع والفزع والآه والصراخ ولا أثر لكل ذلك أبداً.

وهذه الآية تأكيد على «تجسم الأعمال» وعودتها نحو الإنسان، وهی تأكيد جديد أيضاً على عدالة اللَّه ... لأنّ نار جهنم مهما كانت

شديدة ومحرقة فهى ليست سوى نتيجة أعمال الناس أنفسهم، وأشكالها المتبدلة هناك.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) تعقيباً على المباحث الواردة فى الآيات المتقدمة حول عقاب المجرمين وعذابهم الأليم تذكر الآيات محل البحث ما يقابل ذلك من المواهب الكثيرة والثواب العظيم للمؤمنين والمتقين لتتجلى بمقايسة واضحة مكانة كل من الفريقين. تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ».

والتعبير ب «المتقين» بدلًا من المؤمنين، لأنّ هذا العنوان يحمل مفهوم الإيمان، كما يحمل مفهوم العمل الصالح أيضاً، خاصة أنّ «التقوى» تقع مقدمةً وأساساً للإيمان فى بعض المراحل.

ثم يتحدث القرآن عن تأثير هذه النِعَم الكبرى على روحية أهل الجنة فيقول فى الآية التالية: «فَاكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ» «١».

---

(١) «فاكهين»: مشتقة من فكه و معناها كون الإنسان مسروزاً، وجعل الآخرين مسرورين بالكلام العذب. مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۰

خاصةً أنّ اللّه قد طمأنهم وآمنهم من العقاب: «وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ».

وهذه الجملة قد تكون ذات معنين ... الأوّل بيان النعمة المستقلة قبال نعم اللّه الاخر ...

و الثانى أن يكون تعقيباً على الكلام السابق، أى أنّ أهل الجنة مسرورون من شيئين «بما آتاهم اللّه من النعم فى الجنة»، و «بما وقاهم من عذاب الجحيم».

ثم تشير الآية الاخرى إلى نعم المتقين فى الجنة فتقول: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

والتعبير ب «هنيئاً» هو إشارة إلى أنّ أطعمة الجنة وشرابها السائغة غير منغّصة، فهى ليست كأطعمة الدنيا وشرابها التى تجرّ الإنسان إلى الوبال عند الإفراط أو التفريط بها ...

إضافةً إلى كل ذلك لا يحصل عليها بمشقة، ولا يخاف من إنتهائها، ولذلك فهى هنيئة.

ومن المعلوم أنّ أطعمة الجنة هنيئة بذاتها، ولكن قول الملائكة لأهل الجنة «هنيئاً» هذا القول له لطفه وعذوبته الخاصة.

والنعمة الاخرى التى يتمتع بها أهل الجنة هى كونهم: «مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ».

فهم يلتذّون بالاستئناس إلى أصحابهم والمؤمنين الآخرين، وهذه لذة معنوية فوق أية لذة اخرى.

وهذا التعبير لا ينافى ما ورد فى هذه الآية محل البحث، لأنّ مجالس الانس والسرور ترتّب الأسرة فيها على شكل مستدير ومصفوفة جنباً إلى جنب، فجلّاسها على سرر مصفوفة متقابلون.

والتعبير ب «متكئين» إشارة إلى منتهى الهدوء، لأنّ الإنسان عند الهدوء يتكىء عادةً، والذين هم فى قلق وحزن لا يرون كذلك.

ثم يضيف القرآن بأنّا زوّجناهم من نساء بيض جميلات ذوات أعين واسعة «وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ» «١».

---

(١) «الحور»: جمع حوراء وأحور، فهو جمع للمذكّر والمؤنث سواء، ويطلق على من حدقة عينه سوداء وبياضها شفّاف أو هو كناية عن الجمال، لأنّ الجمال يتجلّى فى العينين قبل كل شىء، والعين جمع لأعين وعيناء، معناه العين الواسعة؛ وهكذا فإنّ الحور العين مفهوماً واسعاً يشمل الأزواج جميعاً الذكور والإناث من أهل الجنة فالذكور للإناث وبالعكس.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۱

هذه بعض من نعم أهل الجنة المادية والمعنوية، إلّاأنّهم لا يكتفون بهذه النعم فحسب، وإنّما تضاف إليها نعم ومواهب معنوية ومادية اخر: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ».

وهذه نعمة بنفسها أيضاً أن يرى الإنسان ذريته فى الجنة ويلتذ برؤيتهم دون أن ينقص من عمله شىء أبداً.

فمثل هؤلاء الأبناء وهذه الذرية إذا كان فى عملهم نقص وتقصير فإنّ اللَّه سبحانه يتجاوز عنهم لأجل آبائهم الصالحين، ويرتفع مقامهم عندئذ فيبلغون درجة آبائهم، وهذه المثوبة موهبة للآباء والأبناء.

إنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية: «كُلُّ امْرِىٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ». أى: أنّ أعمال كل إنسان ملازمة له، سواءً كانت صالحة أو طالحة، ولذلك فإنّ المتقين فى الجنة رهينو أعمالهم، وإذا كان أبناؤهم وذرياتهم معهم، فلا يعنى ذلك أنّ أعمالهم ينقص منها شىء أبداً.

وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَ لَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢۵) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢۶) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) أشارت الآيات المتقدمة إلى تسعة أقسام من مواهب أهل الجنة، وتشير الآيات محل البحث إلى خمسة اخر منها بحيث يستفاد من المجموع أنّ ما هو لازم للهدوء والطمأنينة والفرح والسرور واللذة مهيّأ لهم فى الجنة. فتشير الآية الاولى من الآيات محل البحث إلى نوعين من طعام أهل الجنة فتقول: «وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ».

«أمددناهم»: مشتق من الإمداد ومعناه العطاء والزيادة والإدامة ... أى إنّ طعام الجنة وفواكهها لا ينقص منهما شىء بتناولهما، وهما ليسا كطعام الدنيا وفواكهها بحيث يتغيّران أو ينقصان.

والتعبير ب «مِّمَّا يَشْتَهُونَ» يدل على أنّ أهل الجنة أحرار تماماً فى إنتخاب الأطعمة ونوعها وكميّتها وكيفيتها، فمهما طلبوا فهو مهىء لهم ... وبالطبع فإنّ طعام الجنة غير منحصر بهذين النوعين اللحم والفاكهة، إلّاأنّهما يمثّلان الطعام المهم، وتقديم الفاكهة على اللحم إشارة إلى أفضليتها عليه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۲

ثم تشير الآية التالية إلى ما يشربه أهل الجنة من شراب سائغ فتقول: «يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّالَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ».

حيث يناول أحدهم الآخر كؤوس الشراب الطاهر من الإثم والإفساد، ويشربون شراباً سائغاً عذباً لذيذاً يهب النشاط خالياً من أى نوع من أنواع التخدير وفساد العقل! ولا يعقبه لغو ولا إثم، بل كلّه لذّة وإنتباه ونشاط «جسمى وروحانى».

«يتنازعون»: من مادة التنازع ومعناه أخذ بعضهم من بعض. بأنّ أهل الجنة يتجاذبون الشراب الطهور بعضهم من بعض على سبيل المزاح والسرور.

أمّا النعمة الرابعة المذكورة لأهل الجنة فوجود الخدم والغلمان إذ تقول الآية: «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ».

و «اللؤلؤ المكنون»: هو اللؤلؤ داخل صدفه، وهو فى هذه الحالة شفّاف وجميل إلى درجة لا توصف وإن كان خارج الصدف شفّافاً وجميلًا أيضاً، غير أنّ الهواء الملوّث والأيدى التى تتناوله كل ذلك يؤثّر فيه، فلا يبقى على حالته الاولى من الشفافية! فالغلمان وخدمة الجنة هم إلى درجة من الصفاء حتى كأنّهم اللؤلؤ المكنون كما يعبّر القرآن الكريم.

وبالرغم من أنّه لا حاجة فى الجنة إلى الخدمة، وما يطلبه الإنسان يجده أمامه، إلّاأنّ هذا بنفسه إكرام أو إحترام آخر لأهل الجنة.

فى تفسير مجمع البيان: قيل يا رسول اللَّه! الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذى نفسى بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وآخر نعمة فى هذه السلسلة من النعم هى نعمة الطمأنينة وراحة البال من كل عذاب أو عقاب إذ تقول الآية التالية: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ».

مشفقين أن يسلك أبناؤنا طريق الضلال، فيتيهوا فى مفازة جرداء ويتحيّروا. مشفقين أن يفجؤنا أعداؤنا القساة ويضيّقوا علينا الميدان.

ولكن اللَّه منّ علينا برحمته الواسعة: «فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ».

«السموم»: يعنى الحرارة التى تدخل فى مسام البدن فتؤذى الإنسان، ويطلق على الريح التى تتسم بهذه السمة بريح السموم كما يطلق

عذاب السموم علی مثل هذا العذاب الذی تدخل حرارته مسام البدن فتؤذیه.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۳

وأمّا إطلاق کلمة «السم» علی المواد القاتلة فهو لأنّها تنفذ فی جمیع أجزاء البدن.

والکلام الذی ینقله القرآن علی لسان أهل الجنة هنا یشیر إلی إعترافهم بهذه الحقیقة وهی أنّ کون اللّه برّاً رحیماً یعرفه أهل الجنة فی ذلک الزمان أکثر من أی وقت مضی فیقولون: «إِنَّا کُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِیمُ».

إلّا أنّنا نعرف هذه الصفات الآن بشکل واقعی أکثر مما کنا نعرفها، إذ شملنا برحمته العظیمة قبال هذه الأعمال التی لا تعدّ شیئاً وأحسن إلینا مع کل تلک الذنوب الکثیرة.

فَذَکِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِکَاهِنٍ وَ لَا مَجْنُونٍ (۲۹) أَمْ یَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ (۳۰) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِینَ (۳۱) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (۳۲) أَمْ یَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا یُؤْمِنُونَ (۳۳) فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کَانُوا صَادِقِینَ (۳۴)

سبب النّزول

فی الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ قریشاً لما اجتمعوا فی الدار الندوة «۱» فی أمر النبی صلی الله علیه و آله قال قائل منهم احبسوه فی وثاق وتربصوا به المنون حتی یهلک کما هلک من قبله من الشعراء زهیر والنابغة إنّما هو کأحدهم فأنزل اللّه فی ذلک من قولهم «أَمْ یَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ».

التّفسیر

کان الکلام فی الآیات المتقدمة عن قسم مهم من نعم الجنة وثواب المتقین وکان الکلام فی الآیات التی سبقتها عن بعض عذاب أهل النار. لذلک فإنّ الآیة الاولی من الآیات محل البحث تخاطب النبی فتقول: «فَذَکِّرْ». لأنّ قلوب عشّاق الحق تکون أکثر إستعداداً بسماعها مثل هذا الکلام، وقد آن الأوان أن تبیّن الکلام الحق لها.

ثم یذکر القرآن الإتهامات التی أطلقها أعداء النبی الألدّاء المعاندون فیقول: «فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبّکَ بِکَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ».

---

(۱) «دار الندوة»: وهی دار قصی بن کلاب التی لا تقضی قریش أمراً من أمورها إلّافیها، وکانت هذه الدار بابهاإلی مسجد الکعبة. (راجع سیرة النبی صلی الله علیه و آله، ابن هشام الحمیری ۲/ ۳۳۱). مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۴

«الکاهن»: یطلق علی من یخبر عن الأسرار الغیبیة، وغالباً ما کان الکاهن یدّعی بأنّه له علاقة بالجن ویستمد الأخبار الغیبیة منهم.

فإنّ قریشاً ومن أجل أن تشتّت الناس وتصرفهم عن النبی صلی الله علیه و آله کانت تتّهمه ببعض التّهم، فتارةً تتّهمه بأنّه کاهن، وتارةً تتّهمه بأنّه مجنون، والعجب أنّها لم تقف علی تضاد الوصفین، لأنّ الکهنة اناس أذکیاء والمجانین علی خلافهم! ولعل الجمع بین الإفترائین فی الآیة إشارة إلی هذا التناقض فی الکلام من قبل القائلین.

ثم یذکر القرآن الإتهام الثالث الذی یخالف الوصفین السابقین أیضاً فیقول: «أَمْ یَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ».

«المنون»: مشتق من المنّ، وهو علی معنیین: النقصان والقطع، ثم استعملت کلمة «المنون» فی الموت أیضاً، لأنّه ینقص العدد ویقطع المدد؛ «ریب»: أصلها الشک والتردد والوهم فی الشیء الذی تنکشف أستاره بعدئذ فتتضح حقیقته. وهذا التعبیر یستعمل فی شأن الموت، فیقال «ریب المنون» لأنّ وقت حصوله غیر معلوم لا أصل تحققه.

إلّا أنّ جماعة من المفسرین قالوا: إنّ المراد من «ریب المنون» فی الآیة محل البحث هو حوادث الدهر، حتی إنّه نقل عن ابن عباس أنّه قال حیث ما وردت کلمة «ریب» فی القرآن فهی بمعنی الشک والتردد، إلّافی هذه الآیة من سورة الطور فمعناها الحوادث.

فاولئک کانوا یطمئنون أنفسهم ویرضون خاطرهم بأنّ حوادث الزمان کفیلة بالقضاء علی النبی صلی الله علیه و آله وکانوا یتصورون

أنّهم سيتخلصون من هذه المشكلة العظمى التى أحدثتها دعوة النبى صلى الله عليه و آله فى سائر المجتمع ... لذلك فإنّ القرآن يرد عليهم بجملة موجزة مقتضبة ذات معنى غزير ويهدّد هؤلاء- عمى القلوب- مخاطباً نبيّه فيقول: «قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبّصِينَ».

ثم يوبّخهم القرآن توبيخاً شديداً فيقول فى شأنهم: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلمُهُم بِهذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ».

إنّ هذه التّهم والإفتراءات ليست مما تقول به عقولهم وتأمرهم به، بل أساسها طغيانهم وتعصبهم وروح العصيان والتمرد.

«الأحلام»: جمع «حُلُم» ومعناه العقل؛ وهذه الكلمة قد تأتى بمعنى الرؤيا والمنام ولا يبعد مثل هذا التّفسير فى الآية محل البحث ... فكأنّ كلماتهم ناتجة عن أحلامهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۵

ومرّة اخرى يشير القرآن إلى اتّهام آخر- من اتهاماتهم- الذى يعدّ الرابع فى سلسلة اتّهاماتهم فيقول: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّايُؤْمِنُونَ».

«تقوّله»: مشتق من مادة تقوّل- على وزن تكلّف- ومعناه الكلام الذى يفتعله الإنسان بينه وبين نفسه دون أن يكون له واقع.

إنّ القرآن يردّ عليهم ردّاً يدحرهم ويتحدّاهم متهكماً فيقول: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ».

فأنتم اناس مثله ولديكم العقل والقدرة على البيان والإطلاع والخبرة على أنواع الكلام فلِمَ لا يأتى مفكروكم وخطباءكم وفصحاءكم بمثل هذا الكلام.

وجملة «فليأتوا» أمر تعجيزى، والهدف منه بيان عجزهم وعدم قدرتهم على مجاراة القرآن. وهذا ما يعبّر عنه فى علم الكلام والعقائد بالتحدّى أى دعوة المخالفين إلى المعارضة والإتيان بالمثل «فى مواجهة المعجزات».

فهذه آية من الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بجلاء، ولا يختصّ مفهومها بمن عاصروا النبى صلى الله عليه و آله بل يشمل جميع الذين يزعمون- بأنّ القرآن كلام بشر، وأنّه مفترى على اللَّه- على إمتداد القرون والأعصار، فهم مخاطبون بهذه الآية أيضاً ... أى هاتوا حديثاً مثله إن كنتم تزعمون بأنّه ليس من اللَّه وأنّه كلام بشر.

إنّ نداء القرآن فى هذه الآية والآيات المشابهة كان عالياً أبداً، ولم يستطع أى إنسان خلال أربعة عشر قرناً- منذ بعثة النبى صلى الله عليه و آله حتى يومنا هذا- أن يرد بجواب إيجابى.

وهذا العجز «العمومى» شاهد حى على أصالة هذا الوحى السماوى.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (۳۵) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (۳۶) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (۳۷) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (۳۹) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۰) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۱) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۳) هذه الآيات تواصل البحث الاستدلالى السابق- كذلك- مع أحد عشر سؤالًا متتابعاً،

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۶

وهى تناقش المنكرين للقرآن ونبوّة محمّد صلى الله عليه و آله وقدرة اللَّه سبحانه. فأوّل ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ».

وهذه إشارة إلى «برهان العليّة» المعروف الوارد فى الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود اللَّه، وهو أنّ العالم الذى نعيش فيه ممّا لا شك- فيه- حادث (لأنّه فى تغيير دائم، وكل ما هو متغيّر فهو فى معرض الحوادث، وكل ما هو فى معرض الحوادث محال أن يكون قديماً وأزليّاً).

والآن ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان العالم حادثاً فلا يخرج عن الحالات الثلاث التالية:

۱- وُجد من دون علّة.

۲- هو نفسه علّة لنفسه.

۳- إنّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذى يكون وجوده ذاتياً له.

وبطلان الاحتمان المتقدمة واضح، لأنّ وجود المعلول من دون علّة محال، وإلّا فينبغى أن يكون كل شىء موجوداً فى أى ظرف كان، والأمر ليس كذلك.

والاحتمال الثانى وهو أن يوجد الشىء من نفسه محال أيضاً، لأنّ مفهومه أن يكون موجوداً قبل وجوده، ويلزم منه إجتماع النقيضين [فلاحظوا بدقّة].

فبناءً على ذلك لا طريق إلّاالقبول بالاحتمال الثالث، أى خالقية واجب الوجود.

الآية التالية تثير سؤالًا آخر على الإدّعاء فى المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول:

«أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ».

فإذا لم يوجدوا من دون علّة ولم يكونوا علّة أنفسهم أيضاً، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السماوات والأرض؟! وإذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أوكل اللّه إليهم أمر خلق السماء والأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون وبيدهم أمر الخلق أيضاً.

من الواضح أنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا هذا الإدّعاء الباطل، لذلك فإنّ الآية تختتم بالقول: «بَل لَّايُوقِنُونَ».

أجل، فهم يتذرّعون بالحجج الواهية فراراً من الإيمان.

ثم يتساءل القرآن قائلًا: فإذا لم يدّعوا هذه الامور ولم يكن لهم نصيب فى الخلق، فهل

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۷

عندهم خزائن اللّه: «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ» «۱». ليهبوا من شاؤوا نعمة النبوّة والعلم أو الأرزاق الاخر ويمنعوا من شاؤوا ذلك: «أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ» على جميع العوالم وفى أيديهم امور الخلائق؟!

إنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا أبداً أنّ عندهم خزائن اللّه تعالى، ولا يملكون تسلطاً على تدبير العالم، لأنّ ضعفهم وعجزهم إزاء أقل مرض بل حتى على بعوضة تافهة وكذلك احتياجهم إلى الوسائل الابتدائية للحياة خير دليل على عدم قدرتهم وفقدان هيمنتهم! وإنّما يجرّهم إلى إنكار الحقائق هوى النفس والعناد وحبّ الجاه والتعصب والأنانية.

وكلمة «مصيطرون» إشارة إلى أرباب الأنواع التى هى من خرافات القدماء، إذ كانوا يعتقدون أنّ كل نوع من أنواع العالم إنساناً كان أمّ حيواناً آخر أم جماداً أم نباتاً له مدبّر وربّ خاصّ يدعى بربّ النوع ويدعون اللّه «ربّ الأرباب» وهذه العقيدة تعدّ فى نظر الإسلام «شركاً» والقرآن فى آياته يصرّح بأنّ التدبير لجميع الأشياء هو للّهوحده ويصفه بربّ العالمين.

ومن المعلوم أنّه لا- منكرو النبوة ولا- المشركون فى العصر الجاهلى ولا- سواهما يدّعى أيّاً من الامور الخمسة التى ذكرها القرآن، ولذلك فإنّه يشير إلى موضوع آخر فى الآية التالية فيقول: إنّ هؤلاء هل يدعون أنّ الوحى ينزل عليهم أو يدعون أنّ لهم سُلّماً يرتقون عليه إلى السماء فيستمعون إلى أسرار الوحى: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ» «۲».

وحيث إنّه كان من الممكن أن يدّعوا بأنّهم على معرفة بأسرار السماء فإنّ القرآن يطالبهم مباشرةً بعد هذا الكلام بالدليل فيقول: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

ومن الواضح أنّه لو كانوا يدّعون مثل هذا الادّعاء فإنّه لا يتجاوز حدود الكلام فحسب، إذ لم يكن لهم دليل على ذلك أبداً.

ثم يضيف القرآن قائلًا: هل صحيح ما يزعمون أنّ الملائكة اناث وهم بنات اللّه؟! «أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ».

وفى هذه الآية إشارة إلى واحد من إعتقاداتهم الباطلة، وهو استياؤهم من البنات

---

(۱) الخزائن: جمع الخزينة ومعناها مكان كل شىء محفوظ لا تصل إليه اليد ويدّخر فيه ما يريد الإنسان يقولالقرآن فى هذا الصدد: «وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» سورة الحجر/ ۲۱.

(۲) «سُلّم»: یعنی «المصعد» کما یأتی بمعنی أیّة وسیلة کانت.

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۸

بشدة، وإذا علموا أنّهم رزقوا من أزواجهم «بنتاً» اسودّت وجوههم من الحیاء والخجل ومع هذا فإنّهم کانوا یزعمون أنّ الملائکة بنات اللّه. وبدیهی أنّ الذکر والانثی لا یختلفان فی نظر القیمة الإنسانیة ... والتعبیر فی الآیة المتقدمة هو فی الحقیقة من قبیل الاستدلال بعقیدتهم الباطلة ومحاججتهم بها.

ثم یتنازل القرآن إلی مرحلة اخری، فیذکر واحداً من الامور التی یمکن أن تکون ذریعة لرفضهم فیقول: «أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ».

«المغرم»:- علی وزن مغْنَم وهو ضدّ معناه- أی ما یصیب الإنسان من خسارة أو ضرر دون جهة، أمّا الغریم فیطلق علی الدائن والمدین أیضاً.

و «المُثقَل»: مشتق من الأثقال، ومعناه تحمیل العبء والمشقة، فبناءً علی هذا المعنی یکون المراد من الآیة: تُری هل تطلب منهم غرامة لتبلیغ الرسالة فهم لا یقدرون علی أدائها ولذلک یرفضون الإیمان؟!

ومرّة اخری یخاطبهم القرآن متسائلًا «أَمْ عِندَهُمُ الْغَیْبُ فَهُمْ یَکْتُبُونَ». فهؤلاء یدّعون أنّ النبی شاعر وینتظرون موته لینطوی بساطه وینتهی کل شیء بموته وتلقی دعوته فی سلّة الإهمال. فمن أین لهم أنّهم سیبقون أحیاء بعد وفاة النبی؟ ومن أخبرهم بالغیب؟!

ثم یتناول القرآن إحتمالًا آخر فیقول: لو لم یکن کل هذه الامور المتقدمة، فلابدّ أنّهم یتآمرون لقتل النبی وإجهاض دعوته ولکن لیعلموا أنّ کید اللّه أعلی وأقوی من کیدهم:

«أَمْ یُرِیدُونَ کَیْدًا فَالَّذِینَ کَفَرُوا هُمُ الْمَکِیدُونَ».

وأخیراً فإنّ آخر ما یثیره القرآن من أسئلة فی هذا الصدد قوله: «أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَیْرُ اللَّهِ».

ویضیف- منزّهاً-: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا یُشْرِکُونَ».

فعلی هذا لا أحد یستطیع أن یمنعهم من اللّه ویحمیهم، وهکذا فإنّ القرآن یستدرجهم ویضعهم أمام استجواب عجیب وأسئلة متّصلة تؤلّف سلسلة متکاملة مؤلفة من أحد عشر سؤالًا، ویضطرهم مرحلة بعد مرحلة إلی التراجع والتنازل من الإدعاءات الفارغة، ثم یوصد علیهم سُبُل الفرار کلها ویحاصرهم فی طریق مغلق.

وَ إِنْ یَرَوْا کِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً یَقُولُوا سَحابٌ مَرْکُومٌ (۴۴) فَذَرْهُمْ حَتَّی یُلَاقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی فِیهِ یُصْعَقُونَ (۴۵) یَوْمَ لَا یُغْنِی عَنْهُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً وَ لَا هُمْ یُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذلِکَ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَا یَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ فَإِنَّکَ بِأَعْیُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ حِینَ تَقُومُ (۴۸) وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبَارَ النُّجُومِ (۴۹)

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۸۹

تعقیباً علی البحث الوارد فی الآیات المتقدمة الذی یناقش المشرکین والمنکرین المعاندین، هذا البحث الذی یکشف الحقیقة ساطعةً لکل إنسان یطلب الحق، تمیط الآیات محل البحث النقاب عن تعصبهم وعنادهم فتقول: «وَإِن یَرَوْا کِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا یَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْکُومٌ».

إنّ هؤلاء المشرکین معاندون إلی درجة إنکارهم الحقائق الحسیة وتفسیرهم الحجارة الساقطة من السماء بالسحاب.

وهکذا یتّضح حال هؤلاء الأشخاص إزاء الحقائق المعنویة. لذلک فإنّ الآیة التالیة تضیف بالقول: «فَذَرْهُمْ حَتَّی یُلْقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی فِیهِ یُصْعَقُونَ».

«یُصعقون»: مأخوذة من صعق، والإصعاق هو الإهلال، وأصله مشتق من الصاعقة، وحین أنّ الصاعقة تُهلک من تقع علیه فإنّ هذه الکلمة استعملت بمعنی الإهلاک أیضاً.

إنّ جملة «ذرهم» أمر يُفيد التهديد، والمراد منه أنّ الإصرار على تبليغ مثل هؤلاء الأفراد لا يجدى نفعاً إذ لا يهتدون.

ثم يبيّن القرآن فى الآية التالية هذا اليوم فيقول: «يَوْمَ لَايُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

أجل، من يمت تقم قيامته الصغرى «من مات قامت قيامته» وموته بداية للثواب أو العقاب الذى يكون قسم منه فى البرزخ والقسم الآخر فى القيامة الكبرى، أى القيامة العامة، وفى هاتين المرحلتين لا تنفع ذريعة متذرّع ولا يجد الإنسان وليّاً من دون اللّه ولا نصيراً.

ثم تضيف الآية أنّه لا ينبغى لهؤلاء أن يتصوروا أنّهم سيواجهون العذاب فى البرزخ وفى القيامة فحسب، بل لهم عذاب فى هذه الدنيا أيضاً: «وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذلِك وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

أجل، إنّ على الظالمين أن ينتظروا فى هذه الدنيا عذاباً كعذاب الامم السابقة كالصاعقة والزلازل والكسف من السماء والقحط أو القتل على أيدى جيش التوحيد كما كان ذلك فى معركة بدر وما ابتلى به قادة المشركين فيها إلّاأن يتيقّظوا ويتوبوا ويعودوا إلى اللّه آيبين منيبين.

وجملة «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ» تشير إلى أنّ أغلب اولئك الذين ينتظرهم العذاب

مختصر الامثل، ج۴، ص: ۵۹۰

فى الدنيا والآخرة هم جهلة، ومفهومها أنّ القليل منهم يعرف هذا المعنى، إلّاأنّه فى الوقت ذاته يُصرّ على المخالفة لما فيه من اللجاجة والعناد عن الحق.

وفى الآية التالية يخاطب القرآن نبيّه ويدعوه إلى الصبر أمام هذه التّهم والمثبّطات وأن يستقيم فيقول: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّك».

فإذا ما اتّهموك بأنّك شاعر أو كاهن أو مجنون فاصبر، وإذا زعموا بأنّ القرآن مفترى فاصبر، وإذا أصرّوا على عنادهم وواصلوا رفضهم لدعوتك برغم كل هذه البراهين المنطقية فاصبر، ولا تضعف همّتك ويفتر عزمك: «فَإِنَّك بِأَعْيُنِنَا».

نحن نرى كل شىء ونعلم بكل شىء ولن ندعك وحدك.

وبما أنّ الحاجة للّهوعبادته وتسبيحه وتقديسه وتنزيهه والإلتجاء إلى ذاته المقدسة كل هذه الامور تمنح الإنسان الدّعة والاطمئنان والقوة، فإنّ القرآن يعقّب على الأمر بالصبر بالقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبّك حِينَ تَقُومُ».

سواء كان الحمد التسبيح سحراً، أو عند صلاة الفريضة، أو عند القيام من أى مجلس كان.

أجل، نوّر روحك وقلبك بتسبيح اللّه وحمده فإنّهما يمنحان الصفاء ... وعطر لسانك بذكر اللّه ... واستمدّ منه المدد واستعدّ لمواجهة أعدائك.

وفى الدرّ المنثور: إنّه لما كان بآخرة كان إذا قام من مجلسه قال: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّاأنت أستغفرك وأتوب إليك». فقيل يا رسول اللّه! ما هؤلاء الكلمات التى تقولهن، قال: «هنّ كلمات علمنيهنّ جبرئيل كفارات لما يكون فى المجلس».

ثم يضيف القرآن فى آخر آية من الآيات محل البحث قائلًا: «وَمِنَ الَّيلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ».

«نهاية تفسير سورة الطور»

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع " القائميّة " الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله " الشمس آباذى " – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جهابذة هذه

المدینهٔ، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرهٔ الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحهٔ صاحِب الزّمان (عَجّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَهْ ۱۳۴۰ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۳۸۰ الهجریّهٔ القمریّهٔ)، مؤسَّسهً و طریقهً لَم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّهٔ "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبهان، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَهْ ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریّهٔ القمریّهٔ) تحتَ عنایهٔ سماحهٔ آیهٔ الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَهِٔ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّهٔ و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّهٔ، ثقافیّهٔ و علمیّهٔ...

الأهداف: الدّفاع عن ساحهٔ الشیعهٔ و تبسیط ثَقافهٔ الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّهٔ، تخلیف المطالب النّافعهٔ – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلهٔ أو الرّدیئهٔ – فی المحامیل (=الهواتف المنقولهٔ) و الحواسیب (=الأجهزهٔ الکمبیوتریّهٔ)، تمهید أرضیّهٍٔ واسعهٍٔ جامعهٍٔ ثَقافیّهٍٔ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعهٔ ثقافهٔ القراءهٔ و إغناء أوقات فراغهٔ هُواهِٔ برامِج العلوم الإسلامیّهٔ، إنالهٔ المنابع اللازمهٔ لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرهٔ فی الجامعهٔ، و...

- مِنها العَدالهٔ الاجتماعیّهٔ: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزهٔ الحدیثهٔ متصاعدهً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافهِٔ الاسلامیّهٔ و الإیرانیّهٔ – فی أنحاء العالَم - مِن جهههٍٔ اُخرَی.

- من الأنشطهٔ الواسعهٔ للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبِ، کتیبهٔ، نشرهٔ شهریّهٔ، مع إقامهٔ مسابقات القِراءهٔ

ب) إنتاجُ مئات أجهزهٍٔ تحقیقیّهٔ و مکتبیهٔ، قابلهٔ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّهِٔ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکهٔ و... الأماکن الدینیّهٔ، السیاحیّهٔ و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّهٔ "www.Ghaemiyeh.com و عدّهٔ مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّهٔ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّهٔ

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابهٔ الأسئلهٔ الشرعیّهٔ، الاخلاقیّهٔ و الاعتقادیّهٔ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرهٔ SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّهٔ و اعتباریّهٔ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّهٔ، الجوامع، الأماکن الدینیّهٔ کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامهٔ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسهٔ "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسهٔ

ی) إقامهٔ دورات تعلیمیّهٔ عمومیّهٔ و دورات تربیهٔ المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلهٔ السَّنَهْ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایهٔ"القائمیّهٔ"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریهٔ القمریّهٔ)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّهٔ الوطنیّهٔ: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلــكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹